

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الثاني

الحياة الإجتماعية و السياسية

و العسكرية و القضائية و الدينية



تأليف : د. محمد بيومي مهران

مصر والشرق الأدنى القديم

(٥)

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الثاني

الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والقضائية والدينية

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الرابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع ستيفن الأناطولية
الإسكندرية

إهداء

الى من أمرنى ربي بأن أخفض لها جناح الذل من الرحمة
الى من أمرنى ربي بأن طاعتها من طاعة الله تعالى
الى من جعل رسول الله برها أحب الأعمال الى الله
الى من قدم رسول الله برها على الجهاد في سبيل الله
الى من جعل رسول الله عقوقها أكبر الكبائر بعد الاشرار بالله
الى من جعلها رسول الله أحق الناس بحسن صحابتي
الى من جعلها رسول الله سبيلى الى الجنة

الى أمي

أطال الله في عمرها ، وجزاها عنى خير الجزاء

أهدى هذه الدراسة

تقديم

قدمنا في الاجزاء الثلاثة الاولى من هذه السلسلة « مصر والشرق الادنى القديم » مجموعة من الدراسات عن تاريخ مصر السياسى ، ومن ثم فقد كان من البدهى أن نقدم دراسة لأهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، وما أسهم به المصريون ، وهو جد كبير ، فى مختلف مناحى الحضارة فى الشرق الادنى القديم ، حتى تكون دراستنا عن التاريخ المصرى القديم متكاملة ، وليس لبيان فضل الحضارة المصرية القديمة على غيرها من الحضارات ، فذلك أمر لا يستطيع أن ينكره جاحد ، أو يرفض الاعتراف به منصف ، كما أن « أستاذية » مصر فى كثير من مناحى الحياة حقيقة لا يرفضها حتى الكارهون ، أو يمارى فيها الناقمون ، مهما شاعت لهم نقيمتهم ، والى أى مدى بلغت كراهيتهم لكنانة الله فى الارض .

وتقع هذه الدراسة فى جزأين ، الواحد عن الحياة الاجتماعية ، والتنظيمات السياسية والادارية والعسكرية والقضائية ، فضلا عن دراسة للديانة المصرية القديمة ، وهو الجزء الخامس من هذه السلسلة ، وأما الجزء الثانى ، فقد خصصناه للاداب والعطوم ، وهو الجزء الرابع من هذه السلسلة .

كانت الأسرة فى مصر القديمة ، كما فى غيرها ، نواة المجتمع الاولى ، وكانت الروابط الاسرية أقوى الروابط الاجتماعية فى مصر القديمة ، كما كانت العلاقات الزوجية وطيدة قوية ، وفى الواقع أنه ليس هناك فى تاريخ

القوم ما يشير الى هضم حقوق الزوجة أو التهوين من شأنها ، فقد كان المصريون من أحرص الناس على أسعاد زوجاتهم ومعاملتهم بالحسنى ، وقد عدد حكمهم المشهور « بتاح حوتب » في تعاليمه بعض الواجبات الزوجية وأوصى بآدائها ، ومن ذلك قوله « اذا كنت عاقلا فأقم لنفسك بيتا ، وأحب زوجك حبا جما ، وآتها طعامها ، وزودها بالثياب ، وقدم لها العطور ، لينشرح صدرها ما عاشت ، فهي حقل مثمر لصاحبه ، وإياك ومنازعتها ، ولا تكن شديدا عليها ، فباللين تستطيع أن تمتك قلبها ، واعمل على رفاهيتها ليدوم صفاؤك وتتصل ساعاتك » .

وهكذا كانت العلاقة بين الرجل وزوجه تقوم على المودة الخالصة والحب المتبادل ، صحيح أن الرجل كان بحكم طبيعته قواما على المرأة في حدود ما يصون عزتها ويحفظ كرامتها ، ولكنه صحيح كذلك أن المرأة في مصر القديمة قد تمتعت بكثير من الحقوق ، ونالت حرية واسعة ربما تفوق حرية النساء في بعض مجتمعات عصرنا الحالى ، فقد كانت تخرج الى الاسواق وتمارس البيع والشراء ، وتحضر الولائم والحفلات ، وتزاول الموسيقى والغناء ، كما كانت أقرب ما تكون على قدم المساواة مع الرجل ، فقد كانت لها حقوق الوراثة والشهادة والتملك والتعاقد ، بل لم يكن هناك في أغلب عصور الفراعين تفريق جوهري بين الرجل وزوجة ، حتى أن العرش في مصر القديمة انما كان ينتقل عن طريق المرأة ، بل ان المرأة المصرية انما قد كتب لها أن تصل الى العرش نفسه ، كما حدث على أيام الملكات « نيتوكريس » و « سوبك نفرورع » و « حنشسوت » و « تالوسرت » .

وهكذا بلغت المرأة في مصر القديمة درجة من التقدم لم تصل اليها نظيراتها في بلاد الشرق الأدنى القديم ، واحتلت مكانا رفيعا في المجتمع المصرى ، واكتسبت مكانة ونفوذاً ، جعلها خليقة بأن تكون أما لتلك الأجيال التى انشأت هذا الوطن وأقامت حضارته الرفيعة ، وأعطته لواء الزعامة في العالم القديم .

كانت مصر تنقسم الى قسمين كبيرين ، الواحد : مصر العليا (الصعيد) ويمتد من أسوان جنوبا ، وحتى أطفيح بمحافظة الجيزة شمالا ، والآخر : مصر السفلى (منف والدلتا) ، وكان كل منهما ينقسم الى عدة محافظات أو أقاليم ، وقد ثبتت أقاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة عند اثنين وعشرين اقليما ، وان تراوحت أقاليم الدلتا فيما بين أربعة عشرة اقليما في الاسرة الرابعة ، وثمانية عشر اقليما في عهد الدولة الحديثة .

وكان على رأس الدولة الملك المؤله الذى استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات ، وأن يقيم حكومة كان فيها هو المحور ، بل هو الروح التى تبعث الحياة فى الدولة ، وكل ما يحدث فيها وحى منه ، بل كان فى نظر رعاياه اله حى على شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق ، فله حق الاتصال بهم ، كما كان له على شعبه ، ما لغيره من الآلهة ، من التقديس والمهابة ، وهكذا كان الأساس الاجتماعى والسياسى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد ، كل التأكيد ، بأن مصر يحكمها اله ، وأن هذا الاله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة وأنه عليم بكل شئ فى أرض الكنانة ، وأن البلاد ، بما فيها ومن فيها ، ملك يمينه ، ومن هنا كانت السلطات كلها ، فى أغلب العصور ، تتركز بشكل واضح فى يده ، وقد باشر الملوك ، وخاصة الأوائل منهم ، سلطانهم بصورة تكاد تكون فعلية .

غير أن هذا الموضع غير مقبول من الناحية العملية ، ذلك لأن الملك لن يستطيع وحده أن يقوم بمسؤوليات الحكم الادارية والدينية والقضائية وغيرها فى جميع أنحاء البلاد ، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى أداء تلك الاعمال ، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات ، ويشبه « جون ويلسون » الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم ، فيضع فى أعلى هذا الهرم ، هرم صغير مستقل ، ويروى أن هذا الهرم الاخير ممثلا للملك ، الذى يحكم فوق وزرائه الذين كانوا بدورهم فوق حكام الاقاليم الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى .

على أننا يجب أن نشير الى أنه رغم هذه المكانة الفريدة وتلك الزالة المقدسة التي كان يتمتع بها الفرعون في مصر ، فقد كان يخضع للقانون ، وطبقا لرواية ديودور الصقلي فلم يكن الملوك المصريون يعيشون على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى فيعملون ما يشاؤون تبعاً لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، في حياتهم العامة والخاصة سواء بسواء ، فقد كانت سلطات الملوك مقيدة في حدود القانون •

ومن المدهى أن التاريخ انما يسجل بحروف من نور أن مصر قد كتب لها في عصر الامبراطورية نجحاً بعيد المدى في أن تضع للبشرية الكثير من المبادئ العسكرية التي ما يزال يسير على منوالها القواد العسكريون العالميون المحدثون ، وينهجون نهجها ويتخذونها مثلاً يحتذى • فالتاريخ يسجل بكل فخر أن المصريين انما كانوا أول شعوب الارض التي فكرت في تقسيم الجيش الى فرق ثم الى فيالق ، والى قلب وجناحين ، والمصريون هم أول من فكر في مفاجأة العدو بحركة التفاف حوله ، والمصريون هم أول من ابتدع فكرة الكماشة وأول من استعمل القوات البحرية الى جانب القوات البرية ، والمصريون أول من أنشأ فرقاً هائلة من العربات كانت تهجم هجوما مباشرا ، فتوقع الذعر في صفوف الاعداء ، تنتشر الهلع ، الذي يكون من أثره أن تحقيق الهزيمة بالعدو •

كان الدين في مصر القديمة ذا أثر خطير على كل مناحي الحياة ، وقد أخذت الديانة المصرية حين نشأتها ، وفي مراحل طويلة من تاريخها ، بتعدد المعبودات شأنها في ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرها في وفرة نصوصها ووضوح قضايها ، وثباتها على مبادئها ، ورفق تطوراتها ، التي انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد ، وفي الواقع ، فلقد كان الدين المصري ، كما ظل حتى أيام اخناتون ، وطوال ألف وخمسمائة عام ، ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الأصلية • وكان لكل

مدينة معبودها الخاص ، ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية
الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات فرمزوا الى
كل قوة عليا ، وعلّة خفية ، تخيلوها برمز حسي يعبر عن سر من أسرارها
ويحمل صفة من صفاتها ، والتسموا أغلب رموزها هذه فيما عمر بيئاتهم
من حيوانات وطيور وأشجار وزواحف •

على أن هناك في نصوص القوم الادبية ما يشير الى أن هناك طائفة
منهم انما قد آمنت برب واحد خالق مسيطر على الكون كله ، ومن ثم
فاننا نقرأ في نصوصهم « أن ما يحدث انما هو أمر الله » أو « الاله »
و « أن صائد الطيور قد يسمى ويكافح ، ولكن الله أو الاله قد لا يجعل
النجاح من نصيبه » ، و « أن ما يزرع في الحقل وما ينبت فيه انما
هو منحة من الله » و « أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته » و « أن الله
لا يعرف أهل السوء » ، وأيا ما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو
الاله) ، فالذي لا ريب فيه أن القوم انما قد ساورتهم فكرة ، حتى وان
كانت غامضة ، عن « الله » جلا جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق
الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وأن الذين
يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وأن أولئك الذين منحهم الله هدايا
حق عليهم شكره •

ومن ثم فان قوما هذا شعورهم ، وتلك أحاديثهم ، لم يكونوا بمنأى
عن العقيدة الحقّة ، وبالتالي فقد كان من المتّظر أن يتطور ذلك الى
التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الالهية وتطورها في قوة عظمى
هي « الله » سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وبقي التّوهم
قريبين من التوحيد ، ينسبون كل شيء في هذه الدنيا الى قوة خارقة
يذكرونها في نصوصهم على أنها « الاله » الا اذا كانوا يعنون بها الذات
العليه ، وهذا ما لا نستطيع التيقن منه •

وهكذا كان هؤلاء القوم الذين يعتقدون في تعدد الالهة ، انما كانوا
في نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد بطريقة خاصة في التفكير ، لا ندركها

نحن اليوم ولا نستسيغها ، ومن هنا فان كلمة « الاله » التي جاءت في النصوص الآنفة الذكر ، وفي غيرها من النصوص ، انما يظهر فيها « الاله » بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيئاً طبيعياً للغاية ، ما دامت هذه الاعمال قد خرجت من نفس الاوساط المثقفة التي خرجت منها النصائح الآنفة الذكر ، ومع ذلك فلم يصل القوم الى التوحيد الصحيح ، وانما بقوا كذلك مذبذبين بين التوحيد والوثنية •

واستمرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون قبيل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فدعا الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيدة « أتون » أول صيحة عالمية عرفت الانسانية جمعاً ، تدعو الى التوحيد ، أو على الاقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان اخناتون أول من نادى « من غير الانبياء » بدعوة الوجدانية ، حين بشر الناس ، باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه في تسبيحاته « اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذي ليس معه سواه ، برأت الدنيا وكنت فرداً ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بنقدم ، ويخلق في الفضاء بجناح » ، ومن هنا كان اعجاب العلماء باخناتون اعجاباً كاد أن يرفعه الى مرتبة الانبياء •

وهكذا اهتدى القوم الى معرفة الاله الواحد الاحد ، يوم أن كانت الشعوب الاخرى تضطرب جهلاً بين العديد من الالهة ينسبون اليها ما يعجزهم من ظواهر وأحداث ، ومن هنا كان شعبنا العظيم أول شعب في الدنيا ، شق طريقه نحو الايمان بالاله الخالق الاعظم ، وآمن بخلود الروح ، وبنظرية الجزاء ، ليست كلاماً يقال ، ولا كتباً تروى ولكنها

رسوم عجزت الايام عن أن تمحوها أو تزيلها من جدران المعابد في كل مكان من أرض الكتانة من عصور الفراعين العظام .

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع ، والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين .

« وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

بولكلى فى { الثامن من المحرم عام ١٤٠٩ هـ
٢٠ أغسطس عام ١٩٨٨ م }

الباب الأول

الحياة الاجتماعية

الفصل الأول

الأسرة

(١) الزواج

كانت الأسرة هي النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية المصرية ، ويبدو أن الأسرة كانت في بادئ الأمر ذات اطار محدود ، قوامها زوج هو رأس الأسرة ، وزوجة هي ربة البيت ، وأطفال يعيشون في كنف الاثنين وتحت رعايتهما ، ثم سرعان ما أخذت تتعدى ذلك الى العمات والخالات ، بل الاعمام والاخوات ، كما يشير الى ذلك نص أمير قوص من الأسرة السادسة^(١) ، فضلا عن بردية من اللاهون (كاهون) يشير فيها جندي يدعى « سنفرو » أن أسرته انما كانت تتكون من أمه وجدته لابيه وثلاثا من عماته^(٢) ، ومن ثم فالأسرة بهذا المعنى انما كانت تشمل جميع الافراد الذين يعيشون في كنف رب الأسرة ، أيا كانت درجة القرابة التي تربطهم به ، ويبدو أن رب الأسرة انما كان يتكفل عادة بنساء الأسرة غير المتزوجات^(٣) ، أو أن الأسرة كانت تشمل الوالدين والاولاد والاخوة الاخوات والاصهار والموالى والمحظيات والخدم ، فقد كانوا جميعا يخضعون لسلطة رب الأسرة^(٤) .

هذا وقد تفاوتت حظوظ الأسرة المصرية في مقومات سمادتها ،

- 1) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Prive de l'Ancienne Egypte, I, Bruzelles, 1932, P. 357.
- 2) F.L. Griffith, Wills in Ancient Egypt, in Law Quarterly Review, 1898, P. 45.
- 3) J. Pirenne, in Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 33.
- 4) A. Moret, Le Nile et la Civilisation egyptienne, Paris, 1962, P. 318.

ومقومات شقائها ، وفي كفايات أزواجها وزوجاتها ، وفي نجاح نسلها ، ولكنها ، رغم هذه التفاوت الطبيعي الذي شهدته الأسرة في كل مجتمع وزمان ، فقد نعمت بنصيب من الاستقرار لم تعهده الشعوب القديمة الأخرى ، هذا وقد اختلفت كذلك عوامل الاستقرار الأسري بين طبقة وأخرى ، وكان أوضحها بين الطبقتين الثرية والوسطى نوعا من التوازن المقبول ، عدل المجتمع به بين أوضاع الزوجين في الأسرة ، فالزوج بالنسبة الى زوجته انما كان يوصف بأنه « هي » بمعنى البعل ، و « نب » أى ولى الأمر ، و « سن » أى أخ ، وكانت الانثى بالنسبة الى زوجها « حمة » أى حرمة ، و « مرة » أى حبيبة ، و « سنه » أو « سونة » (ولعلها تشبه اللفظ العربى صنو) أى أخت ، واذا تحدث الناس عنها قالوا « نبت بر » بمعنى ست البيت (٥) .

ويزعم كتاب الاغريق القدامى ، ويتابعهم في هذا بعض المؤرخين المحدثين ، أن الزواج بين الاخوة كان أمرا شائعا بين القوم في تلك الايام الغابرة ، فعل ذلك الفراعين (٦) ، كما فعله بعض آلهة القوم مثل أوزير وايزة ، وست ونبت حت ، وأن هذا الزواج بين الاخوة انما كان ثمرة الالفة والمودة والترابط العائلى ، فضلا عن الرغبة في الاحتفاظ بأمولاك الأسرة دون تبديد لها عن طريق الزواج من الاغراب ، ولعل هذا الامر

(٥) عبد العزيز صالح : الأسرة في المجتمع المصرى القديم - القاهرة ١٩٦١ ص ٦ .

(٦) هناك ما يشير الى أن بعض ملوك العرب قد تزوجوا من أخواتهم ، كما حدث مع ملك الانباط « مالك الثانى » بن الحارث الرابع « حيث عثر على عملات فضية وبرنزية نقشت عليها صورته وصورة زوجته التى وصفت بأنها « شقيقة الملك » مما يشير الى أن بعض الملكات العربيات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين ، هذا وتشير كتابة أخرى على تمثال الملك « عبادة » بأن إحدى زوجات الحارث كانت أخته كذلك ، والامر كذلك بالنسبة الى اليهود ، وطبقا لرواية التوراة فقد تزوج إبراهيم من أخته سارة ، حيث تقول « وبالحقيقة هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى ، فصارت لى زوجة » ، وإن كنا نرى أنها ابنة عمه وليست أخته (محمد بيومى مهران : مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة ، الرياض ١٩٧٧ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، سفر التكوين ٢٠ : ١٢) .

الآخير انما كان سنة عند الشعوب القديمة ، كالعرب واليهود ، بل أنه أمر ما تزال بعض آثاره عندنا في الصعيد حتى الآن ، غير أن الأمر عند المصريين انما كان غير ذلك ، صحيح أن الاساطير قد أشارت الى زواج أوزير بايزة ، وست بنبت حت ، وصحيح أن بعض الملوك قد تزوجوا من أخواتهم^(٧) ، ذلك لأن نظرية تولى العرش في مصر انما كانت تجعله وقفا على من تكون أمه من نسل ملكي ، وكذلك يجب أن يكون أبوه ، ولعل هذا هو السبب في زواج الاخ بأخته الذي لجأ اليه بعض الفراعنة لتأكيد صفاء الالهية ، ولتقليل عدد المتطلمين الى العرش^(٨) .

على أن ذلك كله لا يسوغ لنا القول بأن القوم انما كان الواحد منهم يتزوج بأخته ، ذلك لأن عبارة الاخت تطلق على الزوجة على سبيل الاعزاز والتكريم فحسب ، ومن الثابت أن ذلك التي كان يطلق عليها اسم الاخت انما كانت تقيم في سكن بعيد عن سكن الرجل ، فهي اذن ليست أخته حقيقة ، كما أننا لم نعثر حتى الآن على مثال واحد كان الزوجان فيه أخا واختا ، سواء أكانا من طبقة النبلاء أو من الطبقة الوسطى ، بل حتى من عامة القوم ، هذا فضلا عن أن الملك تميز بقدر سأل المتضاة الملكيين عما اذا كان القانون يسمح لمن يشاء أن يتزوج من أخته ، فأجابوه بالنفى ، وإن أجازوا للملك أن يفعل ما يريد ، على أن هناك ما يشير الى زواج الخال من ابنة أخته ، ذلك لأن من تسمى « باكت آمون » ، انما تظهر في مقبرتها وهي تجلس بجوار خالها « أمنمحات » وكأنها هي زوجته^(٨) .

وكان الزواج يتم في مرحلة مبكرة ، كما هي العادة في الشرق ، وإن لم تصلنا تفاصيل عن المرحلة السابقة له ، ولا عن الطقوس التي كانت تمارس بهذه المناسبة ، لكن يبدو أن مراسيم عقد الزواج انما كانت

7) J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 97.

8) A. Moret Op. Cit., P. 110, 318-319.

تتم في المعبد بحضور أقرباء الزوجين ، كما أنه لم يعثر حتى الان على عقد زواج يرجع الى ما قبل عصر الدولة الحديثة ^(٩) ، غير أننا نعرف أنه في العصور المتأخرة كان الزواج يتم عن طريق عقد مكتوب ، وهو أمر لا بد وأنه انحدر الى تلك العصور من مراحل سابقة ، ربما كان العقد فيها اتفاقاً مشافهة بين كبار الاسرتين ، ثم تطور فيما بعد الى نص مكتوب ، كما أن هناك ما يشير الى أن الزواج في تلك الفترة انما كان قد اصطبغ بالصبغة الدينية اذ كانت مراسيمه تتم عن طريق كاهن آمون ، مما أسبغ عليه نوعاً من القدسية ، وان فقد صفته الدينية منذ عهد أخوريس ، وأصبح شأنه شأن غيره من العقود .

وعلى أى حال ، فإن أقدم عقد زواج مصرى وصل إلينا انما يرجع الى عام ٥٩٠ ق . م ، وبما أن نصه انما يتفق تماماً مع عقد آخر يرجع الى عام ٥٥٠ ق . م ، فمن المرجح أنهما كانا نموذجاً ظل متبعاً حقبة طويلة ، وأغلب الامر أنه كانت هناك فترة تصل الى العام بمثابة مرحلة تجريبية يتم الزواج بعدها ، أو يلغى ، مقابل تعويض ، ولما كان الشاب في سن الخامسة عشرة يزوج من فتاة في الثانية عشرة ، فإن أمر التجربة لا قيمة له في تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وأغلب الامر أن الاتفاق بين الاسرتين أو الاختلاف بينهما كان العامل المرجح لاتمام الزواج أو الغائه ، وكانت تحدد ليلة للزفاف تنصر فيها الذبائح وتولم الولائم وتعزف الموسيقى ، ويمرح القوم ويلهون ^(١٠) .

وهناك ما يشير الى أن أولى أمر العروس انما قد ظل ينوب عنها في كتابة العقد حتى القرن السابع قبل الميلاد ، ثم أباح المجتمع للعروس ، وبخاصة الثيب ، أن تحضر كتابة العقد بنفسها ، وكان عقد القران يشهده الشهود من القرية أو الحى وتسجل أسماءهم به ، ويقسم الزوج خلال العقد على تعهداته بأسماء أربابه واسم فرعونته ، وينص كتابة على

٩) F. L. Griffith, PSBA, 1920, P. 212.

(١٠) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ - ٣ .

قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكاييل الغلال ، فضلا عن مؤجل معين يدفعه اذا نشب بينه وبين زوجته ما يدعو الى الانفصال ، وفي عقد متأخر تعهد زوج أن يقدم لزوجته نصيبا من الحنطة كل صباح ، ومقدارا من الزيت كل شهر ، وراتبا لنفقاتها الشخصية كل شهر ، وراتبا مفروضا لتكاليف زينتها كل عام ، كما تعهد كذلك أن يدفع تعويضا اذا سرحها وتزوج سواها ، وتضمن العقد نفسه عبارة مقصودة أكد الزوج بها لزوجته أنه يعلم تمام العلم أن نفقات زينة العام تخالف راتبها الشهري المعلوم ، ولم يكن تأكيده هذا بدعة وإنما كان مما يقضى به العرف ، لاسيما أن شغف المصريين الموسرات بملابسهن وحليهن وصنوف العطور والدهون والزهور والمرايا والمكايل والمراوح ، فضلا عن الشعور المستعارة للخروج والمخاطف ، كان شغفا فريدا تشهد به صورهن الباقية والنماذج الكثيرة التي وجدت من أدوات زينتهن في مخلفات المقابر (١١) .

وهناك ما يشير ، وبخاصة في عهد الدولة الحديثة ، الى أن أموال الزوجين انما كانت مشتركة بينهما ، وكان الزوج يأتي بالثلثين ، والزوجة بالثلث (١٢) ، فلذا ما توفي أحدهما كان للزوج الآخر حق الانتفاع بنصيب المتوفى ، على أن تؤول ملكية هذا النصيب الى الورثة (١٣) ، أما نصيب الزوج الباقي على قيد الحياة فله أن يتصرف فيه بما يشاء من التصرفات ولعل في هذا اشارة الى أن الزوجة انما كانت تأتي معها الى زوجها بقدر من المال ، وهو ما يسمى البائنة (الدوطة) (١٤) .

(١١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(١٢) J. Pirenne, Op. Cit., P. 40.

(١٣) يذهب « سيدل » الى أن الرجل الذي يتزوج ثانية بعد وفاة زوجته الاولى ، عليه أن يجعل الاموال التي كانت مشتركة في الزواج الاول ملكا لاولاده من هذا الزواج ، وأن يستبقى لنفسه الثلث الباقي (E. Seidl, Low, in the Legacy of Egypt, P. 24).

(١٤) A. Montet, Scenes de la Vie Privée, P. 54.

J. Pirenne. Histoire des Institutions et du Droit Privé de L'Ancienne Egypte Bruxelles, 1932, II, P. 40.

وابتغى حكيم من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد — كان وزيراً يدعى «بتاح حوتب» — أن يصور لفتاه بعض الواجبات الزوجية في تعاليمه ، وأوصى بآدائها ، فقال : « إذا كتبت علقلاً فأسس لنفسك داراً ، وأحبب زوجك حباً جما ، وآتتها طعامها ، وزودها بالثياب ، وقدم لها العطور ، لينشرح صدرها ما عاشت » ، ولا شك أن حكيمنا المصرى إنما كان خبيراً بفطجات الروح وطبائع النفوس ، فالوصية الأولى أن يحب الزوج زوجته ، فالحب أساس العشرة الزوجية ، حتى تسود المودة والالفة وروح التعاطف الأسرة ، وفي الواقع أن آثار القوم إنما تدل على أن الحب كان في طبع الزوج المصرى القديم وسليقته ، وكان الاخلاص قبلته ، والمعطف شريعته ، وكانت الوصية الثانية اشباع غريزة الجوع ، التى كانت وما تزال أولى حاجات الانسان ، ذلك أن مطلب الانسان الاول أن يسد رمقه ويشبع جوعه ، ويسد عوزه وهى حاجة طبيعية أرلية قديمة قدم الانسانية نفسها .

ويشبع حكيمنا سد هذا المطلب بمطلب آخر ، وهو الكساء ، فينصح فتاه بأن يزود زوجها بالثياب ، ونحن نعرف كيف كانت المرأة تزهو بملبسها ، وتنتيه به فخراً ، أن كان جميلاً ، ونستطيع ادراك ذلك ، ومبلغ ما كانت تعلقه النساء في مصر القديمة على أناقة ثيابهن ، من مجرد النظر الى الثوب الذى ترتديه الاميرة «نفرت» زوج الامير «رع حوتب» (من الدولة القديمة) ، وهو ثوب ضيق يبلغ في ضيقه ضيق ثياب المرأة الحديثة ، وهو ينسكب على جسدها ويلتصق به التصاقاً شديداً ، فيبرز محاسن هذا الجسد الغض ومفلاتته في تناسق جميل وحسن خلاب ، فالملابس الهفافة ، الجميلة الشفافة ، التى تشيع في بعض أجزاءها الثنايا (البليسيه) والتى تبين منها مفاتن الجسد وحسنه الوضاء ، كانت تغرى المرأة المصرية القديمة بقوة الاغراء نفسها التى تثيرها عند المرأة الحديثة ، ومن ثم فقد أوصى الحكيم المصرى الزوج بالاهتمام بهذا الامر الذى يقدر أهميته وخطره عند المرأة وقوة تأثيره عليها .

ولم يكتف حكيمنا بذلك ، وإنما أضاف اليه فن تجميل المرأة عن

طريق إبراز مناعتها في إطار رقيق جذاب يفوح بالعطر الذي يبعث في النفوس الفسوة والافتتان ، فيقول « قدم لها الدطور لينشرح صدرها ما عاشت » ثم يشبه الحكيم بعد ذلك المرأة بالحقل الطيب الذي يؤتي ثماره ، ويعود بالخير الوفير على صاحبه ، فهي « حقل مثمر لصاحبه » ، ثم يوصي فتاه بعد ذلك « أياك ومنازعتها ، لا تكن غنلا ولا غليظ القلب ، فبالذين تستطيع أن تملك قلبها ، وأعمل دائما على رفاهيتها ليدوم صفاؤك وتتصل سعادتك » .

وفي الدولة الحديثة يوصي الحكيم « آنى » ولده بالا يمثل دور الرئيس مع زوجه ، وأن يراها في صمت ، حتى يمكنه التعرف على أعمالها الحسنة ، ويؤكد أنها ستكون جدا سعيدة إذا كانت يده معها ، فيقول : « لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك ، ولا تقس عليها في دارها ، إن أدركت صلاحها ، لا تسألها عن شيء أين موضعه إن كانت قد وضعت في مكانه المناسب ، افتح عينيك وأنت صامت تترك فضائلها ، وإن شئت أن تسعدها فاجعل يدك معها وعلونها ، تعلم كيف تمنع أسباب الشقاق في بيتك ، إذ لا مبرر لخلق النزاع في البيت ، وكل امرئ قسادر على أن يتجنب إثارة الشقاق في بيته ، إذا تحكم سريما في نزعات نفسه (١٥) » .

واستحب المصري القديم الزوج الغيور ، وأبى الخلاعة من الانثى ، وارتضى القتل عقابا للزانية ذات البعل ومن زنى بها ، وبالع الحكماء في تحذير الفتيان من مخالطة النساء ، فقال « بتاح حوتب » لفتاه « أحمذر مخالطة النساء ، فما طاب مكان حللن فيه ، ومن سوء الرأي أن يتلصص عليهن انسان ، وكم من امرئ ضل عن رشاده حين استهواه جسم براق ، ثم تحول عنه الى هباء ، وأصبحت فترات استمتاعه القصصار أضغاث أهلام ، وأفضت به الى الهلاك » . ويقول الحكيم « آنى » : « كن على حذر من المرأة الغريبة (أى غير زوجته) ، لا تطل النظر اليها عندما تمر بك ، لا تكن لك بها أية صلة ، ولا تقضى منها وطرا ، انها ماء عميق

15) J. Wilson, ANET, P. 413, 420.

الغور ، لا يعرف المرء حناياه ، أحذر المرأة التي يخيب عنها زوجها ، فقد
تكشف لك عن مفاثنها ، وتراودك عن نفسها ، وتشهدك ألا رقيب عليها ،
وتحيك شباكها لأصطيادك ، لا تستجب لها حتى في غفلة من الناس ، فإن
فعلت ، فإنه العار الذي يستحق الموت عندما يعرف الناس أمركما ، ومع
ذلك فهناك رجال لا يتورعون أن يقعوا في هذه الخطيئة الكبرى^(١٦) .

ولعل هذا كله إنما يدل على أن عقوبة الزنا عند القوم من أقصى
العقوبات ، وأشدّها ضراوة ، وطبقا لما جاء في بردية وستكار ، فقد كان
يكتب على الزانى والزانية الموت ، غرقا أو حرقا ، غفى روايتها عن علاقة
شاب بامرأة كاهن ، أن الشاب قد اغترسه تمساح من صنع الكاهن
نفسه وأن المرأة اللعوب إنما قد اقتيدت الى ساحة في شمالي القصر ،
حيث احترقت علنا ، والمقى رمادها في النهر^(١٧) ، ولعل ذلك إنما كان عقاب
الزانية المحصنة ، وفي ذلك يقول حكيمنا بتاح حوتب « أن الزنا لجرم
عظيم ، وإن الزانى ليستحق الاعدام ، وإن من يرتكب جريمة الزنا إنما
يسهل عليه بعد ارتكاب تلك الخطيئة الكبرى ، أن يرتكب كل ذنب مهما كان
عظيما »^(١٨) .

بيد أنه على الرغم من دعوة التحفظ التي دعا الحكماء أبناءهم
اليها ، لم يؤد حرص المصرى على زوجته الى إلزامها المحجب وإبقائها
حبيسة دارها ، فظل لسيدات الطبقتين الثرية والوسطى نصيب من
الاشتراك في شئون المعابد وحفلات الدين وخدمة الأرباب ، ولم ير
المصرى بأسا في أن تخرج زوجته بأطفالها لزيارة معارفها ووراءها بعض
خدمة أو خدمها ، وإذا مرضت لم يكن يأبى أن يعودها الطبيب في دارها ،
ولم يؤد تحفظ الاسرة المصرية ازاء الاغراب الى أن توعد بابها دون
الاقارب والاصدقاء ، ولم تخل ليالى الاسر الغنية من دعوات للرجال

(١٦) عبد العزيز صالح المرجع لسابق ص ١٠

17) G. Lefebvre, Romans

et Contes Egyptiens de L'Epoque, Paris, 1949, P. 70-77.

18) E. Davaud, les Maximes de Ptohotep, Fribourg, 1916.

والنساء ، يجلس فيه كل زوج مع زوجته على أريكة عريضة أو يتخذ الرجال مجاسا يجمعهم ، وتجلس النساء في مجلس يجمعهن ، ولم تكن محافل السراة تخلو عادة من رقص وموسيقى وتطريب وشراب ، ومع ذلك فقد كانت التقاليد المصرية تستنكف زيارة البيت في غيبة صاحبه ، أو دخوله دون استئذان ، أو الاختلاط بنفسائه ، وتشير بردية تعداد سكان بلدة اللاهون في الدولة الوسطى الى أن خدم البيت كانوا جميعا وبصفة دائمة من الاماء وأطفالهن الصغار ، دون أن يكون بينهم شاب بالغ ، وكا أصحاب السراى يحولون بينهم وبين الاتصال بالخارج فيما يريب (١٩) .

وكان نصيب المرأة في الحياة المنزلية كبيرا ، وهى وان كانت على دراية تامة بكل ما يقع على عاتقها من أعمال المنزل ، الا أنها لم تكن تهمل في شئون نفسها أو مظهرها ، فهى تلبس عادة ثوبا طويلا يصل الى ما فوق القدمين بقليل ، وان كان يترك جانبا كبيرا في أعلى الجسم عاريا ، يشده الى الكتفين شريطان (٢٠) . وهى تطفى شفيتها بالاحمر ، وترجج

(١٩) عبد العزيز صالح التربية والتعليم في مصر القديمة ص ٧٠ -

٧١ .

(٢٠) كان أول رداء لبسته المرأة المصرية ثوبا ذا أهداب ، ثم أخذت ترتدى ازارا مصنوعا من خيوط الكتان البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، وامتدليا الى ركبتيها ، وفي عهد الاسرة الرابعة ابتكر القوم صنع الثنثايا (وان رأى البعض أن ذلك كان في الاسرة الثامنة عشرة) في أثواب الطبقة الراقية لتساعدن على التحرك في سهولة ويسر ، وفي الاسرة الخامسة بدان يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكعبين ولها اكمام ضيقة ، وفتحتان عند العنق ، واحدة من الامام والاخرى من الخلف ، تسهلان لهن ارتداه ، وكان لكل من الفتحتين شريط يستعمل في ضم حرفيها عند الحاجة ، وقد خضعا هذان الشريطان للتطور ، فأحيانا كانا يمتدان في وضع رأس من القميص الى الكتفين ، وأحيانا يتقاربان من بعضهما في ميل عن الاتجاه الرأسى ، وأحيانا يتقاجعان ، وقديما كانا هذان الشريطان يغطيان الثديين تماما ، ثم أصبحا يضيقان أو يختفيان تماما فيبرز الثديان ، وقد تحولت المرأة قوة ثوبها العادى غلالة رقيقة من الكتان الابيض ، كما يرى في تمثال الاميرة «نفرت» من الاسرة الرابعة ، وفي عصر الدولة الحديثة تطور لباس المرأة فأصبح من قطعتين على الأقل ، احدهما على هيئة قميص داخلى ضيق رقيق ، والاخرى على هيئة غلالة فضفاضة مفتوحة ينعقد

=

حواجبها وتطلّى أجفانها ورموش عينيها بالكحل ، وهو من نوعين ، أخضر يلون به الجفن الاسفل ، وأسود ترجع به الحواجب وتطلّى به الاجفان ، وكانت المرأة شغوغة بالحلى فكانت تترين بالخواتم والاقراط والاسوار والقلائد والخلاخيل ، وبخاصة في المآدب والولائم التي كان القوم مغرمين بها كثيرا ، ويطيرون الفرص لاقامتها •

ولم يكن يليق بامرأة تحترم نفسها في مصر الفرعونية أن تخرج الى حفل أو مأدبة دون أن تقضى وقتا تقرين فيه ، ودون أن تكتحل زينتها ، ودون أن تتعطر ، وتبدو على ما ترضاه لنفسها ، وهو أمر بالغ العسر ، ولكنها كانت تحاول ، على أية حال ، أن تبدو نظيفة ملتزمة جذابة معطرة الحواشي أنيقة الهندام ، وكان لا يفوتها قبل أن تخرج من البيت أن تمزج المر بالترتم وحسا البان والعجرم وغيرها وتدقها ثم تضعها على النار ، لتجعل رائحة المنزل والملابس زكية مستحبة ثم تضيف اليها عسل النحل ، وتتناول بضع حبات تمضغها في طريقها للزيارة ، فتجعل أنفاسها بذلك طيبة النكهة زكية الرائحة (٢١) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن من عقود الزواج

رباطها فوق الثديين ، ثم تنسدل الغلالة فوق أحد الذراعين ، على حين تبدو الاخرى حرة مكشوفة ، وكلاهما من الكتان الشفاف الذي يظهر تقاسيم الجسم ، وأن رأى البعض أن اظهار تقاسيم الجسم كانت بسبب دينى وليس بسبب شفافية الملابس ، وعلى أى حال ، فأحيانا يعلو القطعتين ثوب ثالث ، أو معطف قصير وكانت الثياب توشى أحيانا بالنطريز أو تنحرف بخطوط في هيئة الريش ، هذا وقد وجد زى آخر يختلف عن الطراز المألوف ، ويتكون من ثوب طويل له أكمام ومعطف قصير متركب بهداب يوضع فوق الاكتاف ، ومن الامام ينسدل رداء يشبه الزقبة ، ولكنه يمتد من الرقبة الى القدمين ، هذا وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رؤوسهن ويضعن فوقها شعرا مستعارا ، وكانت الفتيات والسيدات وبخاصة في الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة يصفن شعور رؤوسهن ، ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان تتدليان من الامام وواحدة من الخلف (محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الادنى القديم ص ٤٩ - ٥٠ ، وكذا

(W.M.F. Pertrie, Social Life in Ancient Egypt,) London, 1932 P. 127-128.

(٢٠) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ .

ما يشير الى أن هوارق الطبقات لم يكن لها أثر كبير في التفرقة بين مستوى الرجل وزوجته ، فقد تتزوج الفتاة أحد أتباع ولى أمرها اذا راقته وراقها ، أو يتزوج الفتى خادمة أسرته ، اذا راقته وراقها ، غير أن هذا الترخيص لم يكن متاحا دائما ، لاسيما في بيوت الفراعنة التى استقلت تزويج بعض أمرائها بأخواتهم ، عن رغبة منها في أن تستبقى الدم الفرعونى خالصا بغير شبهة ، وأن توثق الاواصر بين أبناء الملكات المضائر ، وتقلل من منازعتهم على وراثة العرش ، غير أن الامراء والاميرات البعيدين عن صلب الفرعون الحاكم لم يتقيدوا بهذه السنة ، كما أن بعض الفراعنة استطاعوا أن يتحللوا منها ، ولم يأبوا أن يصهروا الى العائلات الكبيرة من رعاياهم ببنااتهم وبانفسهم ايضا^(٢٢) .

وهكذا رأينا الفرعون «شبسكاف»^(٢٣) آخر الفراعين الرجال من الاسرة الرابعة ، يزوج ابنته « خع ماعت » بغنى شريف يدعى « بتاح شبسس » ربى فى القصر الملكى على أيام « منكاورع » وتعلم فيه على أيام شبسكاف الذى أعطاه ابنته الكبرى خع ماعت زوجة له ، «لأن جلالته رأى أن تكون معه أفضل من أن تكون مع رجل آخر » ، وقد تزوج الفرعون « ببى الاول » من ابنة « خوى » أمير أبيدوس التى تنجب له ولى عهده «مرى ان رع» ، وحين يوافقها أجلها المحتوم يتزوج من أخت لها تنجب له طفلا آخر يعلى العرش بعد أخيه باسم « ببى الثانى » ولعل الذى دفعه الى هذا الزواج مؤامرة زوجه الاولى « ايمتس » ضد عرشه ، واحساسه بالحاجة الى عون كبير يشد أزره، ويسنده فى الخطوب الجسام اذا ألمت به يوما ما ، فلجأ الى مصاهرة هذه العائلة القوية فى الصعيد ، ويتزوج الفرعون « أمنحتب الثالث » بفتاة من عامة القوم ، من مدينة أخميم بالصعيد ، هى الملكة « تى » التى أصبحت بمرور الايام السيدة الاولى فى الامبراطورية المصرية ، واحتلت من قلب فرعون مكانة لا تتناول اليها واحدة من نساء العالمين فى دنياها .

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٠٥
 (23) ARE, I, P. 115.

ولكن من ناحية أخرى ، فإن المصريين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الأمم القديمة الأخرى ، كالعرب^(٢٤) ، واليهود^(٢٥) ، إنما كانوا يرو أن زوج البنت يجب أن يكون مصرياً ، ومن ثم فما كانوا يقبلون أن تتزوج المرأة من غير بنى جنسها ، ولعل السبب في ذلك أن المصريين إنما كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتكبرون ، وأنهم الشعب الوحيد حقاً الذى يحق له أن يحمل عن جدارة لقب « رومى » (بمعنى جنتلمان) وأما الأجانب فلا ، كان القوم يسمون أنفسهم « الناس » أو « الرجال » تمييزاً لهم عن جيرانهم من الليبيين والأفريقيين والآسيويين ، والذين كانوا يزودونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب « وغد »^(٢٦) ، ونقرأ في رسائل العمارنة أن الملك البابلى « كادشمان أنليل الأول » سأل « أمنتب الثالث » أن يزوجه من امرأة مصرية ، فرغض فرعون هذا الملتبس باحتقار ، بحجة أنه « لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية الى أى انسان » ، وحين يعيد الملك البابلى سؤاله لم يكن نصيبه هذه المرة بأفضل من الأولى ، ومن ثم فهو يطلب من فرعون أن يزوجه بأية امرأة مصرية ، حتى يفخر بأنه تزوج من امرأة من مصر ، ولعله شرف كان يصبو الى تحقيقه ، حتى يموه به على شعبه ، ولكنه لم يحقق من ذلك شيئاً^(٢٧) .

(٢) تعدد الزوجات

عرف المصريون تعدد الزوجات ، كما عرفته الشعوب القديمة جميعاً^(٢٨) ، أو تكاد ، ومن ثم فقد مارسه المصريون والفرس والعرب

(٢٤) انظر : محمد بيومى مهران ، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة ص ١٢٧ - ١٤١ .

(٢٥) انظر : محمد بيومى مهران : اسرئيل الكتاب الثالث الحضارة ص ٢٤٧ - ٢٥٤ .

(٢٦) محمد بيومى مهران الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ١٦٢ ، ٢٠٩ وكذا وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 37.
27) S.A.B. Mercer, The Tell-El Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, P. 13, 63.

28) M. El Amir, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage, BIFAO, LXII, P. 14 F.

واليهود وغيرهم ، ومارسه أصحاب الديانات السماوية الثلاثة الكبرى ، اليهودية والمسيحية والاسلام (٢٩) ، وهناك من يعتبر تعدد الزوجات نظام بدائي ، ومن يعتبره تابعا لحال المرأة انحطاطا ورقيا ، وأن تحريرها منه إنما هو خطوة في سبيل تقدمها (٣٠) ، وفي الواقع أن موقف المرأة نفسها ازاء تعدد الزوجات إنما هو موقف مضطرب ، بل أن الانسان كثيرا ما تأخذه الحيرة ازاء العواطف المتضاربة للنساء بشأنه ، فهذه زوجة عاقر تطلب من زوجها الزواج عليها ، وتلك تلحن ضرائرها ، وثالثة تفضل لزوجها أن يتزوج عليها ، بدلا من أن يفرق في علاقات غير مشروعة مع نساء أخريات ، ينفق عليهن في بذخ ، ويجلب لها ولأولادها العار ، ورابعة تحلم بالزواج من رجل متزوج ، وهكذا .

وعلى أى حال ، فإن تعدد الزوجات له دوافعه القوية ، منها أنه يحفظ للمرأة حريتها التي يتشقق بها أعداء تعدد الزوجات ذلك لأن أباحة التعدد لا يحرم المرأة حريتها ولا يكرهها على قبول من لا ترضاه زوجا لها ، ولكن تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها ، حين تلجئها الضرورة الى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة ، وبين عزوبة لا يعملها فيها أحد ، وقد يعجزها أن تعول نفسها (٣١) .

ومنها أن المرأة قد تعجز عن الوفاء باحتياجات الحياة الزوجية ، وذلك بسبب عقمها فلا يتحقق التناسل ، وهو من المقاصد الرئيسية للزواج ، أو بسبب عيبها الجنسي ، مما يؤدي الى منع الاتصال الجنسي بين الزوجين ، أو يحول دون كماله ، أو بسبب مرض عضال يصيب الزوجة فيثقل حركتها عن القيام بما تتطلبه الحياة الزوجية من أعباء ، ومنها عودة المطلقة الى عصمة زوجها السابق ، فقد يفرق الزوجان بطلاق

(٢٩) محمد بيومي مهران : مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة ص ١٦٢ - ١٨٠ ، إسرائيل - الكتاب الرابع ص ٢٧٠ - ٢٧٨ ، الحضارة المصرية القديمة ص ٥١ - ٥٩

(٣٠) قاسم أمين : تحرير المرأة ص ١٢٩
(٣١) عباس العقاد : المرأة في القرآن ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٨ - ١١٩

أو تطليق ، ثم يرى الزوج بعد زواجه بأخرى أن يضم الى عصمته زوجته السابقة ، وتبدله هذه الأخيرة تلك الرغبة ، بعد أن عفى الزمان على أسباب الخلاف بينهما ، أو بدافع رعاية أبنائهما ، أو لغير ذلك من الأسباب ، وتعدد الزوجات في هذه الحالة هو الحل الاجتماعي الوحيد الذي يبقى على الزوجة الجديدة دون فراق ، ويعيد المطلقة الى زوجها السابق ، ويكفل لأولاد المطلقة العودة الى البيت الذي يجمع والدهم ووالدتهم معا .

وقد تتسع الدائرة ، فيهدف الرجل من زواجه الجديد على امرأته الى توثيق صلة القرى ، فيعمد الى الزواج بأحدى قريباته في حالات تبرز فيها حاجة هذه القرية الى الزواج من قريبها ، كأن يكون لها أولاد لا يرعاهم زوج غريب عنهم ، مثلما يرعاهم زوج قريب لهم ، وكأن تكون المرأة أرملة لاخ قريب توفي أو استشهد ، ويكون الاخ أو أحد أقرباء المنوف أصلح من يتولى رعاية الاولاد ، أو يكون هناك حرج على مثل هذا القريب اذا دخل بيت هذه المرأة لرعاية الاولاد ، فيعمد الى الزواج بوالدتهم على امرأته ، حتى لا يلوك المتطفلون أو الطامعون سمعته بالقول السوء ، أو حتى يحفظ لهذه المرأة شبابها ، أو حتى يحول بينها وبين الانحراف الاجتماعي أو الانحراف الخلقي ، أو حتى يحفظ مثل هذا القريب نفسه من أن تصدته بالسوء ، وقد تكون هذه القرية عانسا يرى الزوج أن يضمها الى رعايته ، أو مريضة لا يرعاها غير هذا الزوج ، فيتزوجها حتى لا تكون أقل مستوى من زوجته ، الى غير ذلك من الأسباب التي تتحقق بها حاجات الناس ومصالحهم ، هذا الى أن تعدد الزوجات انما يبتلع في أوقات الحروب مشاكل خطيرة ، تنشأ من الزيادة المذهلة في عدد الارامل من النساء ، فضلا عن أنه قد يعوض الامة أو بعض أفرادها عما فقد من الأولاد ، ويمدحها الأمل في استعادة قوتها ، ومتابعة النضال (٢٢) .

(٢٢) عبد الناصر توفيق العطار : تعدد الزوجات ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٣٥ - ٤٦

وأيا ما كان الامر ، فلقد عرف المصريون تعدد الزوجات ، وان كان الاستقرار بين الأزواج المصريين قد أدى الى تقليصه بينهم الى حد معقول ، وذلك على الرغم من أنه كان مشروعاً لديهم ، وأن فريقاً من الفراعنة والاثرياء وأواسط الناس وطغاهم أخذوا به وتمادوا فيه ، وان بعض الزوجات ارتضيته وتساهجن فيه ، وانه قد استمر طوال العصور الفرعونية ، وان لم تخل بيوت السراء في عصور الرخاء والترف من وجود الجوارى والسرايا وملك اليمين ، وهكذا لوعدنا الى الالف الثالثة قبل الميلاد ، لوجدنا أن المصريين يتبعون نظام تعدد الزوجات ، ولا نريد أن نتوغل كثيراً في التاريخ ، ولا نقدم كثيراً من الامثلة ، ويكفى أن نذكر أن « خوفو » صاحب الهرم الاكبر ، قد تزوج أكثر من واحدة ، وولد له أبناء من كل منهن ، حتى انقسمت أسرته الى ثلاثة فروع (٣٣) ، وأن « تتى » مؤسس الاسرة السادسة كانت له زوجتان ، الواحدة « خويه » والاخرى « ابيوة » (٣٤) .

وهناك « أمنحيب الثالث » ، من الاسرة الثامنة عشرة ، وقد فاق كل أقرانه من الفراعين ، حتى كان قصره يضم ، الى جانب زوجته الاثيرة تى ، كثيراً من الزوجات من بلبل وميتانى وآشور ، فضلاً عن عشرات المفتيات اللاتى كن يرسلن كل عام من ملوك الشرق وأمرائه ، فضلاً عن الجسوارى اللاتى كن يأتين في ركاب الزوجات ، كما حدث مع « جيلوخيبا » ابنة ملك الميتان التى زفت الى فرعون وفي ركبها ٣١٧ غادة حسناء ، وهكذا امتلأ قصر فرعون في طيبة بالنساء الجميلات حتى زاد عددهن على ٤٢٨ فتاة وامرأة (٣٥) .

33) G. Reisner, Mycerinus, 1931, P. 241 F.

34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 93; PM, III, P. 84, 129.

35) A. B. Mercer, Op. Cit., I, P. 185-187.

عبد المنعم أبو بكر : اخفائون ص ٣٥ ، وكذا
J.H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 343, 347-8; Engelbach, ASAE,
40. 1940. P. 659-663.

وهناك رعمسيس الثانى ، وكان تحته نساء كثيرات ، أشهرهن الملكات « نفرتارى » و « است نفرت » (آسيا) وابنة خاتوسيل ملك الحيثيين ، حتى أن الرجل قد رزق بعدد من الأبناء يفوق ما رزق به أى فرعون آخر ، وما يزال المؤرخون مختلفين فى عددهم بسبب ظهور أسماء جديدة من آن لآخر ، وإن كنا نعرف من بينهم حتى الآن أسماء ٥٩ بنتاً ، ٧٩ ولداً ، وإن كان البعض إنما يؤكد أنهم يزيدون على مائة ولد (٢٦) ، وهناك رعمسيس الثالث والذى حبرت إحدى نسائه مؤامرة لقتله حتى تحتفظ بالعرش لولدها ، دون غيره من أبناء علاتها ، وإن انكشفت المؤامرة وقبض على المتآمرين ، وأحيلوا الى المحاكمة التى انتهت ببراءة البعض ، والحكم على البعض الآخر بجذع الانف وطمع الاذنين ، وحكم على فريق ثالث بالاعدام (٢٧) .

هذا وكان تعدد الزوجات مباحا عند غير الملوك كذلك ، فمن الأسرة السادسة هناك الأمير « مري رع » الذى تصوره النقوش محاطا بست زوجات ، غير أن هناك ما يشير الى أن واحدة منهن وتدعى « ايزة » إنما تظهر فى النقوش الى جانب زوجها وفى حجمه ، كما أنها تحمل دون غيرها لقب الاميرة ورغم أن الزوجات الخمس الاخريات يظهرن فى حجم صغير ، وهن يقدمن واجب الاحترام للزوجين ، الا أنهن كن مثل ايزة زوجات شرعيات للأمير ، وقد أنجبن له أولاد شرعيين كذلك (٢٨) ،

36) H. Gauthier, *Le Livre des Rois d'Egypte*, III, P. 15-17, 84 F, 102-103.

W.M.F. Petrie, *History of Egypt*, III, 1927, F. 35 F, 82 F; PM, I, P. 45.

وأنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٨٣ - ٩٧ ، ٢٧٧ - ٢٩٣ ، ٣١٨ - ٣٢١
(٢٧) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٩٠ - ٣٠٦ ، وكذا

A. de Buck, *JEA*, 23, 1937, P. 152-164; J.H. Breasted, *ARE*, IV, Parag, 416-456.

38) J. Capart, *Une Rue de Tombeaux*, P. 70; A. Moret, *Op. Cit.*, P. 262; P. Montet, *Op. Cit.*, P. 346, 366.

وعلى أى حال ، فلقد كان من المؤلف أن يكون للرجل زوجة واحدة ، أما تعدد الزوجات فمع إباحته في شريعة القوم ، إلا أن الظروف الاقتصادية قد حددته فأضحى مقصورا على الأسرة المالكة وطبقة النبلاء ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن التعدد كان معروفا في الطبقات الوسطى ، وربما كذلك الفقيرة .

وعلى أى حال ، فقلما نرى أطفالا من زوجتين أو أكثر لاسر الطبقات العليا التي تركت آثارا ماثلة في عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعة من تلك التماثيل ، تمثل زوجة رب الأسرة الأولى ، وكانت عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لمن كلهن أطفال ، عددهم اثني عشر ، خمسة بنين وسبع بنات ، ويبدو أن الزوجة الأولى تزوجها رب الأسرة ، وهي في سن متقدمة ، لأسباب اجتماعية ، فقد كانت من المزيينات الملكيات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبة في مصير الابناء ، فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الام التي أنجبتهن ، على أن الكهنة انما كانوا يتزوجون بواحدة ، وربما كذلك علما الشعب .

وأخيرا فلعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن القوم ، كما عرفوا تعدد الزوجات ، عرفوا الطلاق كذلك ، والذي كان من حق الزوج وحده ، وهناك عقد زواج يتعهد فيه الزوج بأنه اذا هجر زوجته كارها اياها ، أو بسبب رغبته في الزواج بأخرى ، يقوم برد البائنة « الدوطة » — ويستثنى من ذلك هجره اياها لارتكابها جريمة الزنا — وبأن يورث من تنجبه له من الاطفال نصيبا يذكر مما تركه له والداه ، وكانت صيغة الطلاق المصرى كالاتي « لقد هجرتك كزوجة لى ، واننى أفارقك وليس لى مطلب على الاطلاق ، كما أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت (٣٩) » .

هذا وقد سجلت المصادر المصرية أخبارا طريفة عن ضرائر راضيات

39) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N. Y., 1970, P. 112-113, 115.

متسامحات ، فصورت احدها مع أبناء ضرائرها الخمسة يشاركونها متع الحياة في مناظر مقبرة زوجها ، ويقدمون الهدايا اليها ، وهى على أعتاب الاخيرة ، وروت أن عجوزا يئست من عقمها ، فأوحت الى زوجها أن يبنى بجاريته ابتغاء الخلف ، ففعل وأنجبت له الجارية بنين وبنات وقرت عينه بهم ، فرضيت العجوز بالامر الواقع وتبنت أبناء جاريته ، وخصصت لهم نصيبا من ثروتها المتواضعة ، وزوجت بنتا منهم لاختيها (٤٠) ، وأن « امينى » ، أحد نبلاء الدولة الوسطى ، والذي كان يحمل لقب زعيم عشرة الصعيد العظيم ، كانت له زوجتان ، الواحدة « حنوت » والاخرى « نبت سخت نت رع » (ويختصر اسمها عادة الى نبت) كانتا تعيشان في وثام ومحبة ، حتى أن الاولى قد أنجبت ثلاث بنات وولد واحد ، وأنجبت الثانية ولدين وخمس بنات وقد أسهمت حنوت بناتها جميعا باسم ضرتهما « نبت سخت نت رع » وسمت « نبت » ثانية بناتها باسم ضرتهما « حنوت » (٤١) .

هذا وقد عرف القوم كذلك التسرى منذ عهد الدولة القديمة ، فقد كان للرجل القادر عدد من السراى ، غير الزوجات ، ويبدو أنهم كن من المخدرات ، وكن يقمن في « حریم » ولا يظهرن أبدا ، فهناك رسم يمثلهن وهن يندبن رجلهن عند مرور الجنازة أمام باب الحریم (٤٢) ، ورغم أن النقوش قد أشارت اليهن كثيرا ، الا أنها تجاهلت أسماءهن ، واستمر نظام التسرى قائما في عهد الدولتين الوسطى والحديثة .

وهناك من الاسرة الحادية عشرة ما عرف باسم « رسائل حقا نخت » ، والتي كتبها لولده الاكبر « مرسو » ، وفيها يتحدث عن محظية له تدعى « أبوت ان حب » كان قد اصطفاها لنفسه من بين خدمه وامائه ، بعد وفاة زوجته ، ويبدو أنه قد سافر من طيبة الى منف لبعض أعماله

(٤٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٩ - ١٠ .

(٤١) أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ١٥٩ .

42) J. Capart, Op. Cit., P. 70.

لفترة طالت عن العلم ، فكتب له محظيته تشكو اليه احدى الخادمت
واسمها « سنن » فكتب الى ولده الاكبر « مرسو » يأمره أن « أطرده
الخادمة سنن من دارى فوراً ، واذا بقيت سنن فى الدار يوماً واحداً ،
وأساءت الى جاريتى فأنت المولوم ، والا فما الذى تستطيع جاريتى أن
تفعله معكم وأنتم خمسة أولاد ، سلم لى على أمى ايبى ألف مرة ، بل
ألف ألف مرة » ، وفى رسالة أخرى يقول له « لاحظ أنها جاريتى ، وأنه
ينبغى أن تعامل بالحصنى ، والا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة ، ان
لم تحترموا جاريتى من أجل خاطرى (٤٣) » .

(٣) التماسك العائلى فى الأسرة المصرية

هناك الكثير من الأدلة التى تشير الى التماسك العائلى بين الزوجين
من ناحية ، وبينهما وبين أولادهما من ناحية أخرى ، فلقد حرص الفنان
المصرى فيما أخرجه من مجموعات التماثيل على أن يجعل ممن يمثلهم من
أفراد العائلة وحدة واحدة مؤتلفة تجتمع حول رئيسها وتعتمد عليه، وكان
يصدر فى هذا بطبيعة الحال عن تقاليد مصرية، عما كان يستحب بين أفراد
الأسرة من أواصر ، فلذا جلست الزوجة بجانب زوجها أو وقفت بجانبه
عبرت عما يصلهما من روابط بحركات احدى يديها أو بهما معا ، فخطوته
باليمينى وتلمسه باليسرى، أو العكس ، وكثيرا ما يظهر الابن ممسكا بعضا
أبيه أو محيطا اياها بذراعه ، أو يعتمد على ساق أبيه بيده أو تتماسك
يداهما معا ، وحتى فى مناظر الصيد والمرح كثيرا ما كانت العائلة تصور
فى وحدة واحدة .

وهناك منظر للعائلة المالكة فى النهاية الجنوبية للحائط الخلفى لصالة

43) E Revillout, *Precis du Droit Egyptien*, P. 888-889;

وكذا

T. James, *The Hekanakhte Papers and other Early middle Kingdom Documents*, 1961.

وانظر : أحمد فخرى : مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١

مقبرة « ماحو » رئيس الشرطة في العمارنة^(٤٤) يمثل أسرة اخناتون ،
وهي في طريقها من أو الى المعبد ، ويمثل الملك وهو يمسك بالسراج في
غير اكتراث ، ويستدير نحو الملكة كأنما يوشك أن يقبلها ، بينما هي
تمسك بكلتا يديها المقضبان المنفصلة عن هيكل العربة ، وتتجه بمحياها
نحو زوجها الملك ، وأمامهما ابنتهما « مريت آتون » الصغيرة ، وهي تنفخ
مؤخرة الخيل المليئة بالحيوية ، والمحلاة بريش النعام ، بعصا صغيرة ،
وأحيانا تقبع الاميرات أبويهن كل في عربتها ، ويحيط بهن الحراس على
الجانبين ، وعند المعبد يرحب الكهنة وعاظفوا الجنك بهم جميعا ، ثم يصعد
الملك الى المذبح تصحبه الملكة ليقدم القرابين الثمينة للاله ، بينما الاميرات
الثلاثة ، الواحدة تلو الاخرى ، يصلصلون بالصلاصل ، وربما كان القوم
قد اعتادوا أن يذهب الزوجان معا الى المعبد ، كما رأينا من قبل ، وكما
فعل « نفر حوتب »^(٤٥) « حارس قطعان آمون الاول » عندما رافقته
زوجته ، سيدة الدار ، الممدوحة من حتحور ، سيدة القوصية ، ومغنية
آمون ، الى المعبد ، بل ان الرجل المتزوج عندما كان ينوى الحج الى
أبيدوس انما كانت تصحبه دائما زوجته .

وهناك في العمارنة تمثال صغير في مصنع أحد المثالين الملكيين لم
يقتصر فيه المثال على تمثيل الملك جالسا وابنته الصغيرة فوق حجره ،
وهو يضمها كما يضم الاب الملكي أميرة صغيرة ، بل مثل فرعون وهو
يقبل ابنته الصغرى ، كما يفعل أى أب عادى من عامة الناس أو
خاصتهم ، الامر الذى كان شائعا بين القوم^(٤٦) .

وهناك رسم للملك اخناتون والملكة نفرтитى جالسين ، وقد احتضنت

44) Eleonore Bill De-Mot, The Age of Akhenaten, London, 1965, P. 81.

45) P. Montet, La Vie Quotidienne en Egypt au Temps des Ramses, Paris, 1948.

— (٤٦) محمد حمادة : التصوير في التراث المصرى القديم ص ٤٦ وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, 1946, P. 295.

الملكة زوجها الفرعون ، والتصقت به تماما ، وهي جالسة بجواره ، فاخفى كل جسدها تقريبا ولم يظهر منه غير أثر بسيط كظل الملك ، ولعل الفنان قد قصد أن يظهر الملك وزوجه في شكل يعبر عن تقاضى الزوجة في حبها وإخلاصها لزوجها الملك ، وخاصة عندما كان الزوجان الملكيان في أتم وفاق وسعادة في حياتهما الزوجية لتفاهمهما على المبادئ العليا في الحياة الانسانية ، وهناك من صور الحياة الزوجية الهائلة ما يمثلها أروع تمثيل تلك الصور التي على عرش « توت عنخ آمون » ، حيث نرى الفرعون وقد جلس في راحة واسترخاء ، وقد مالت زوجته نحوه في رشاقة ودلال ، تعطر ثيابه وتنسجها في رفق وحنان (٤٧) .

وهناك الملكة « تى » زوج أممنتب الثالث التي نقرأ أنها نجحت الى أبعد الحدود في أن تستأثر بلب زوجها وتستوى قلبه وتنال تقديره طوال حياته ، وقد بنى لها قصرا في طيبة الغربية ، وحفر في حديقته بركة كبيرة في غضون خمسة عشر يوما (٤٨) ، وسرعان ما ملئت بالمياه ، وزرع بها زهر السوسن واكتظت بالاسماك ، وأحاطت بها نباتات مزدهرة ، وهكذا حق للفرعون أن يبتهج وهو أنه أحب أكرام أثيرته « تى » فحفر لها هذه البحيرة لترفه فيها عن نفسها (٤٩) ، ولعل في تمثال « تى » الضخم في المتحف المصرى ، والذي يمثلها جالسة بجانب زوجها أممنتب الثالث ، دون أن يتميز عنها في الحجم ، ما يشير الى أن الملكات انما كانت تقام لهن التماثيل مع أزواجهن ، بل ان الفرعون انما قد سمح لزوجته الحبيبة بأن تكتب اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية (٥٠) .

ومجمل القول أن الزوجة المصرية انما كانت دائما بجانب زوجها

(٤٧) انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون القاهرة ١٩٧٩ ص ٤٣٠ - ٤٤٠ .

(٤٨) انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته - ص ١٢١ - ١٢٤ .

49) C.D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1965, P. 115-116; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 212. وكذا :

50) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 330.

J. Wilson, Op. Cit., P. 203. وكذا :

أينما وجد ، تلازمه في البيت وفي الحقل ، وتشاركه في الجسد واللهو ، وتقاسمه أعباء الحياة ومسئولياتها ، حقيقة أن الرجل بطبيعته كان قواما على المرأة ، في حدود ما يصون عزتها ويحفظ كرامتها ، ولكنها في نفس الوقت تمتعت بكثير من الحقوق التي كان يتمتع بها زوجها ، وبخاصة حق التصرف في أملاكها ، وحسب المرأة المصرية أنها اثبتت بايزة في الوفاء والطاعة وحسن المعشرة ، والحنو الصادق والبر الخالص والسيرة الطيبة ، فهي تبذل كل ما في وسعها لرعاية زوجها وتدبر شئون حياته ، وإذا مات عنها حزنت عليه حزنا شديدا ، ومظاهر حزنها مصورة في رسوم بعض القبور ، حيث نرى الزوجة باكية نادبة ، وقد شقت الجيوب ، وأخذت تصرخ وتلطم خديها ، وتود لو لحقت به لترعاه في العالم الآخر ، لأنها لا تعرف كيف تعيش بعده (٥١) .

غير أننا لا نود من استعراض هذه النواحي الطيبة للحياة العائلية المصرية أن نفترض أمثالا لكل أسرة مصرية قديمة ، فما من شك في أن الأسرة المصرية القديمة قد تفاوتت حظوظها في تألفها وتنافرها وفي مسراتها وأثراحها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الأسر في كل مجتمع وزمان ، بل وما من بأس في أن نضيف استكمالا للحياة القديمة أن بعض التعاليم المصرية تضمنت عدة أمثال سائرة هدفت الى تحذير الأزواج من نزوات الزوجات ، فضلا عن النساء الغريبات ، فكان منها ما يحذر من أن يسلم قياده لزوجته أو يجعلها تملأ رأيها عليه ، وكان منها ما يحذره من أئتمانها على سره أو إطلاق يدها في ماله ، وما يحذره من الزوجة الجميلة والزوجة الذليلة والزوجة المتفطرسة ، فضلا عن الزوجة الفاسقة ، وكان منها ما يسمح له باستخدام العصامع زوجته بشرط ألا يشوهها بها وعلى أية حال ، فقد اعتبرت الأمثال المصرية الزوجة انعكاسا حيا لشخصية زوجها في صلاحها وفي طلالها ، فقالت غيما قالت « المرأة جسم من حجر لين تتخذ طبع أول من يشتمل فيها » ، وقالت « إذا عشت

(٥١) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٢٢ ، وعبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٤

الانثى تمساحا تطيعت بطبعه » ، وقالت « تفجر المرأة برضى زوجها » ،
وقالت « (زوجة الاحمق يمكن أن تضرب أحمقها) » (٥٢) .

(٤) الاطفال

كان الزواج عند المصريين القدامى وغيرهم من الامم سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، هذا فضلا عن اشباع حاجة الرجل والمرأة الطبيعية ، بل ان الزوجة انما كانت في عقيدة القوم ضرورية لزوجها في الحياة الاخرة ، وقد كان يوضع في قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، واذا عز ذلك يستبدل بها نماذج من الفخار عليها صورة الزوجة ، هذا فضلا عن أن الرجل منهم ما كان يرى سعادته في كثرة بهائمه واتساع أراضيه ووفرة محصولها ، أو حتى في منصبه مهما علا ، بقدر ما يراها في زوجه وأولاده ، فقد كان الاطفال فخر الأبوين وقرة أعينهما ، ييذلان غاية الجهد لتنشئتهم تنشئة سليمة .

وقد كان تبكير المصريين في الزواج يعين الابوين على تربية اولادهما قبل زمان الشيخوخة ، وقد أيد الحكيم المصري « بتاح حوتب » من الدولة القديمة هذا الاتجاه حين قال لابنه وهو يعظه « يابنى : اتخذ لنفسك زوجا وأنت صغير حتى تنجب لك طفلا ، فان أنت أولدتها اياه في شبابك ، أمكنك أن تقوم على تنشئته حتى يغدو رجلا ، أن السعيد من كثر أهله وعياله ، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه » ، وليس أبلغ دلالة على عظم السعادة التي كان يتخيلها الناس في كثرة الابناء من أن يصف أحدهم حاله وقد نجح مع رجاله في أداء عمل جليل ، بأنها أشبه بحال رجل له « سبعون ولدا ولدوا من امرأة واحدة » .

ومن ذلك يتبين أن الاكثار من الاولاد انما كان هدفا يبتغونه ويسعون اليه ويعملون على تحقيقه ، وفي الواقع أن شغف الآباء والامهات في مصر القديمة لم يكن عن رغبة في اشباع غرائز الابوة والامومة وبهذه ، وانما

(٥٢) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة ص ٦٦

كانت وراءه دوافع اجتماعية ودينية كثيرة ، ذلك أن الاطفال في مصر الفرعونية لم يكونوا عبثا على آبتهم وذويهم ، بل كانوا عوناً لهم ، اذ كانت الزراعة في حاجة الى الايدي العاملة ، وكلما كثر الاولاد زادت الايدي العاملة في العمل ، وبالتالي زاد دخل الاسرة ، سواء عملت في أراضيها أو استؤجرت في أراضي غيرها ، فالاطفال بهذا الوضع انما هم مصدر كسب لا خسارة لذويهم *

وهكذا رحب المصريون بالذرية واعتبروها نعمة من الله ، وشجعت البيئة المصرية أهلها على طلب العيال دون خشية العوز المدقع والاملاق ، وكانت وسائلها التي أجراها الرحمن فيها هي تعاقب فيضانات النيل ويسر الانتفاع بمياهه وخصوبة الارض وسخاؤها ، ووفرة النباتات والمزروعات ورخصها ، وطمأن ذلك أهل القرى الى معيشة مأمونة بالعواقب لانفسهم وأولادهم ، وهون على فقرائهم نفقات الاسرة وتكاليف الاولاد ، وحين زار «ديودور الصقلي» مصر استرعت هذه الاوضاع نظره فكتب يقول « يربى عامة المصريين أولادهم في يسر واقتصاد ، فيطعمونهم عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة ، ومن سيقان البردى بعد شيها على النار ، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعامها نيئة ومطبوخة ومشواه » ، واطمأن المصريون كذلك الى أربابهم ، وسرت بينهم روح الايمان بالله رحيم ، وصفوه بأنه يدبر قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للطفل في بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر امره ، ووصفوه بأنه اله يعنى بأفراخ الحيوان ، كما يعنى بأجنة البشر ، ويمكن أن يوكل الامر كله اليه ، وسبحوا هذا الاله الكريم في بعض عهودهم فقالوا : « خلقت العشب لتحبي به البهم ، وخلقت شجر الحياة للبشر ، ووهبت الحياة أسماك الماء والطير في كبد السماء ، أرسلت الانفاس للفرخ في الدحية ، وأحييت الدودة في التربة ، قدرت ما يحيى النمل والزواحف والهوام ، ورزقت الجرذان في الحقول ، ورعيت الطير على الشجر » (٥٣) .

ويقول اخناتون في نشيده الكبير «أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو في المرأة ، ومن يصنع الماء في البشر ، أنت يا من يأتى بالحياة للوليد ، وهو في بطن أمه أنت يا من تسكنه بتوقف دموعه ، أنت يا من رعيته في الجسد ، ثم تعطى الهواء ليتنفس كل من خلقت ، أنه ينزل من الجسد ليتنفس في يوم مولده ، أنت يا من تفتح فيه ، وتخلق له مقومات الحياة ، أنت يا من جعل الكتكوت يشقشق في قشرته ، أنت يا من منحته الحياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميقاتا في البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح (يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه أبان خروجه من البيضة ... أنت يا من صنعت نيلا في السماء (المطر) حيث يموج الغيث فوق الجبال كالأخضر العظيم (البحر الأبيض) ويسقى الحقول بين القرى ، ما أجمل تدبيرك رب الخلود ، فيضان في السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواء لارض مصر ، يأتى اليها من دنيا العدم ... » (٥٤) .

هذا وقد اعتبر المصري القديم أن نكبة الفرد في أبنائه هي الكارثة التى تهون أزاءها نكبته في أمهم ذاتها وفي كل ما يمتلك ، وكان من الحكماء المصريين من يوثق الصلة بين ما يتعرض له المجتمع من وهن وبين قلة النسل لسبب أو لآخر ، وهكذا رأينا حكيم الثورة الاجتماعية الاولى « ايبيور » يدلل على الضعف الذى أصاب البلاد في تلك الفترة بقلة الولد ، فيقول : « حقا لقد غدت النساء مقلات وما من واحدة تحمل ، وما عاد خنوم بينى (يهب) أطفالا » (٥٥) ، ومن ثم فقد اهتم المصريون أشد الاهتمام بمصاربة العقم ، ومحاولة معرفة السر في خصب المرأة أو عقمها ، واستخدموا عدة طرق لتشخيص الحمل ومعرفة نوع الجنين ، ومن أطرف الوسائل التى لجأوا اليها تجربة انبات القمح والشعير عن طريق اروائه ببول الحامل ، فاذا خرج النبات عموما فهي غير عقيم ، واذا

(٥٤) محمد بيومى مهران : اخناتون - عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
 (٥٥) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

خرج نبات القمح فالجنين ذكر ، وإذا خرج نبات الشعير فالجنين أنثى ، وقد ضمت بردية كاهون الكثير من الملاحظات لتمييز العقيمت من النساء ، والتكهن بجنس الجنين ، وكانوا يعتمدون في ذلك على ملاحظة الثديين أو لون البشرة والعينين ، ثم على السحر واستخدام التعاويذ^(٥٦) .

وشارك فراعنة البلاد أهلها في تمنى كثرة الولد لانفسهم وللبلاد جميعا ، وانعكس صدى هذه الرغبة منهم على ما سجله بعضهم من نصوص تدور حول ما وعدت به الالهة من وفرة الخرية وامتلاء البلاد بالنسل ، وذلك على نحو ما ادعت حتشبسوت من أن أربابها قالوا لها «سيعمر الصعيد والدلتا بالذخاري ، وسوف يزكو نسلك الوفير بتعداد ثمراتك الخيرة التي غرستها في قلوب رعاياك » ، وإذا كان الزواج المبكر هو وسيلة عامة الناس لكثافة الخرية وكثرتها ، وإتاحة الفرص لتربية الابناء والانتفاع بهم ، فقد كن للاغنياء في بعض الحالات ، وللفراعنة خاصة ، من إباحة تعدد الزوجات والقسرى بما ملكت اليمين ، ما أشجع رغبتهم في وفرة النسل ، وفي ضمن انتجاب الورثة الذكور ، وإن ظل هذا التعدد أظهر منه لدى الملوك منه لدى أفراد الشعب^(٥٧) .

والادب المصرى القديم حافل بالكثير من الامثلة التى تعبر عن مبلغ حب الوالد لاولاده أو تعلقه بأمرته ، ففي « قصة ألبطار الخريق^(٥٨) » مثلا نقرأ أن الحية ربة الجزيرة التى طوحت به أمواج نحوها حدثته مطمئنة آياه بنجاته وعودته الى وطنه سالما ، فقالت : « لسوف تحقطن أبنائك وتقبل زوجتك ، وترى بيتك ، وهذا أشهى من كل شئ آخر » ولم

(٥٦) أحمد بدوى وجمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٥٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ - ١٣ .

E. Naville, The Temple of Dier el Bahari, III, Pl. LVII, 14-15.

G. Reisner, Op. it., P. 240-242.

وكذا :

(٥٨) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء

الثانى ص ١١٠ - ١١٥ .

A. Erman, LAE, 1927, P. 29-35.

وكذا

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 29-40.

وكذا

بتجرح الملوك أنفسهم من أن يسجل الفنانين مظاهر الود والمحبة والرعاية التي تفيض بها قلوبهم على أبنائهم وبناتهم ، فها هو ذا « تحوتمس الثالث » يسهر على تربية ولده البكر « أمنحتب الثاني » تربية عسكرية ، تمكنه من توطيد أركان الامن في دولته واتساع الهيبة في أرجائها الواسعة ، فقد كان حقا بارعا في كل فنون الحرب ، وكان أبوه العظيم فرحا بذلك ، مضطبا بحظ بكر أبنائه وولى عهده من الفروسية ، مطمئنا الى أنه سوف يغدو سيد أهل زمانه في الارض جميعا ، وكان رعمسيس الثاني مشغورا بأولاده وبناته الذين جاوز عددهم خمسين ومائة .

وفي صور الحياة من عهد اخناتون كثيرا مما يشير في صدق ووضوح الى حنو اخناتون على بناته ، فهو لا يجد شيئا من الحرج في أن يأخذ احداهن في حجره ليداعبها ثم يرفعها بين يديه ليقبلها قبلة الحنان والرحمة والابوة الحانية ، وهناك على جدران القصر الملكي في العمارنة منظر بمثل الاسرة المالكة في صورة رائعة ، حيث نرى اخناتون وزوجته نفرتيتي يجلسان على مقعدين خفيضين يواجه الواحد منهما الآخر ، وبينهما طفلتان تلعبان بجوار قدمي أمهما ، بينما تجلس الثالثة على حجر الام ، ولما اختطف الموت ابنتهما « مكت اتون » من بين يديهما ، بكاهما كما يبكي الناس موتاهم ، ووقف الفرعون وزوجته على نعشها باكين نادبين يودعانها الوداع الاخير ، كما تشير الى ذلك نقوش في المقبرة الملكية بالعمارنة (٥٩) .

هذا وقد اهتم القوم كثيرا بتربية أطفالهم ، بخاصة وأن مرحلة الطفولة هي أول مراحل الحياة وأجدرها بالرعاية ، وهي أدق مراحل التربية التي يجتازها الناشئ ، اذ هو أكثر مايكون استعدادا لتلقى ماينبغي له من مبادئ السلوك تنقش في صدره ، كما تنقش الصور والرسوم على الحجر ، ففي المنزل ، وبين أيدي الوالدين ، وفي تلك السن الحلوة البريئة الرخصة ينفع الارشاد ويمح التوجيه ، وفي تلك البيئة وحدها

(٥٩) محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٤٢، ٤٣، ١٠٦، ١٠٧، ٤٣٨ .

والوليد يدرج على مدارج الصبا ، ينبغي له أن يعرف ما يجوز وما لا يجوز ، وأن يفرق بين الحسن والقبيح ، وبين السلامة والعيب ، وقد شهد كتاب الاغريق باهتمام المصريين بتربية أطفالهم ، فهذا « ديودور » يقول « ان مما يميز حياة المصريين أن الطفل عندهم يلقي حظه الكامل من التربية والرعاية » ويقول « سترابو » من التقاليد التي كان يرعاها المصريون بوجه خاص ، الحرص على تهذيب كل من يولد لهم من الاطفال » .

ويدهى أن الملبئات الاولى في تربية الطفل وتهذيبه انما تضعها الام ، فهي المسئولة عن بناء طفلها جسدا وروحا ، قلبا وعقلا ، وهي التي تضطلع بحمله يقطن ونائما ، وهي التي ترعى صحته ، وهي التي تهدهده في المهد فتلقنه اللغة الاولى ، وهي التي تداعبه وتعاينه بالفاظ الحب والرحمة والحنان ، وتظل عاكفة على ذلك مدة قد تبلغ ثلاث سنوات تعمل خلالها على أن يجتاز تلك المرحلة الاولى لينمو بين يديها في صورة ترضاهما ، ثم يظل تحت رعايتها واشرافها حتى يدخل المدرسة ، وهكذا كانت الام هي الامينة على تلك الفلذات من كبدها حريصة على أن تجعل الايام منها لبنات قوية في بناء الوطن وأحجارا صلبة في أساسه .

وكان الاب هو الذي يمثل الرأس في بناء الاسرة ، والذي اقتضته ظروف العيش أن يدبر شئون حياتها لم يكن بعيدا عن أولاده ، بل كان يتولى دوره بالاشراف عليهم في دور التنشئة ، وبخاصة بعد سن الرابعة ، ويلقنهم مبادئ الرجولة وفضائل الاخلاق العالية ، والمبادئ السامية والتقاليد السوية ، وآداب السلوك وحسن المعاملة ، وكان بجانب ذلك يورثهم المهن والحرف ما يؤهلهم لاكتساب معاشهم ، أو يبعث بهم الى المدرسة ليتزودوا بالعلم والمعرفة (٦٠) .

وترتب على مسئولية الاب واجبات وحقوق ، فمن واجباته أن يلتزم

(٦٠) احمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٣٢ - ١٣٣ .

لولده المطيع كل شأن خير ، وأن « ترى عيناه وتسمع أذناه ما ينفع ولده » ، وأجمل « بتاح حوتب » ذلك في قوله لمولده وهو يعظه « اذا كبرت وكونت بيتا ، وأنجبت ولدا من نعمة الرب ، واستقام هذا الولد ونهيج نهجك واتبع تعاليمك ، وصلح حاله في داره ، وحفظ أملاكك وثروتك ، فافعل الخير له كله ، وتصر كل شأن فاضل من أجله ، فانه ولدك وفلذة كبذك ، فلا تصرف عنه نفسك^(٦١) » ثم على الأب أن يسعى لرفع مستوى ولده وتعليمه ، وأن يحافظ دائما على كرامته ، وأن ينزله المنزلة التي يستحقها « لاتدع عمل الخادم لولدك ، ان كان في مقنور الخادم أن يقوم به ، وإياك أن تتسبب في أن يفقد ولدك دخله » و « ولا تقل يا ولد لمن نضج ، ولا تتجاهل من جانبك من كبر » .

وفي مقابل هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الأب ، كانت له حقوق ، أولها الطاعة والاحترام ، ثم كان من حقه كذلك أن يأخذ ولده بالشدة ، ان ضل ولم يعمل بتعاليمه ، سواء بالضرب أو التأنيب أو التنكر له جملة ، « اذا ضل ولدك وابتعد عن تعاليمك ، وخالف نهجك ، وساءت تصرفاته في بيتك ، وتمرد على نصائحك ، وتفوه بقول تبجيح ، فانبذه فانه ليس ولدك ، ولم يولد لك ، انبذه واعتبره شخصا أدانه الاله وهو مايزال في رحم أمه^(٦٢) » ، واستنكر حكيم آخر أمر الأب ان تهاون في اظهار حزمه عند الحاجة الى الحزم ، وأصر على أن الوالد الرحيم شيء ، والوالد اللين شيء آخر ، وأنه ما من ابن هلك من تأديب أمه ، وأن العصا والحياء يقيان الابن شر الفساد .

هذا وقد تشابهت أسماء المواليد في مصر القديمة ، مع أسمائهم في مصر الحديثة ، في عدة نواح ، منها تسمية الطفل بيوم مولده ، مثل « طفل اليوم التاسع » ، وذلك على نحو ما نقول الان ، خميس وجمعة ،

61) J.A. Wilson, Op. Cit., P. 413.

Z. Zaba, Les Maximes de Ptah Hotep, Pargue, 1965, P. 59.

62) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 413.

وتسميته باسم مناسبة دينية أو وطنية ، مثل « حورمحب » أى الرب في عيد ، اذا صادفت ولادة الطل يوم عيد هذا المعبود ، وذلك على نحو تسمية أطفالنا رمضان وعيد ، وتسميته بما يعبر عن وضعه بين اخوته ويميزه عنهم ، كأن يكون ذكرا وحيدا بين اناث ، أو أنثى وحيدة بين ذكورا ، أو أن يكون أول من أنجباه والداه بعد عقم طويل مثل «نيسن» أى سيدهم ، و « ايتسن » أى أميرهم ، وتسميته باسم أحد والديه أو أحد جديه ، وباسم الفرعون الحاكم ، أو ولى عهده ، اذا ولد معه (وقد عثر على احصاء من الاسرة التاسعة عشرة أن الاطفال الذين ولدوا يوم ميلاد ولى العهد كانوا ١٧٠٠ طفلا ، وقد كان من حقهم أن ينشأوا معه في القصر الملكى) أو تسميته باسم يعتر به مثل « ياماي » أى السبع ، و « سرحات » أى الجسور ، و « سنجم ايب » أى مسمد القلب ، أو تسميته باسم يبعد الحسد عنه مثل «جار» أى عقرب ، و « بورخف » أى العبيط ، أو تسميته باسم ينسب فيه الى بلده أو مكان ولادته ، مثل المنفى والطيبى ، كما نقول طنطاوى وشبراوى وبصيلى وأسوانى ، أو اشتقاق اسمه من ظروف ولادته مثل يمحوتب أى جاء فى سلام ، كما نقول عسران تكنية عن عسر الولادة ، وكما سمعت زوج النبى يعقوب وادها « بن عونى »^(٦٣) تكنية عن العناية الذى لاقته فى الولادة ، كما ذكرت التوراة^(٦٤) ، هذا وكان معظم الالباء المصريين يؤثرون أن يضعوا أطفالهم تحت رعاية أحد المعبودات ، فالاطفال الذين ينتمون الى المعبود « حور » يسمون حورى ، والذين ينتمون الى « ست » يسمون سيتى ، والذين ينتمون الى « آمون » يسمى امينى ، وكان مؤرخنا مانيتو يعتبر نفسه تحت حماية الاله موننتو .

وهناك ما يشير الى أن الاطفال انما كانوا يسجلون أمام الهيئة

(٦٣) جاء فى الترجمة العربية للتوراة أن أمة راحيل اسمته «بن أونى» بسبب تعسر ولادته ووفاتها بعد الولادة ، وأن اسماء أبوه بعد ذلك «بنيامين» وهو شقيق يوسف عليه السلام (تكوين ٣٥ : ١٧ - ١٨) .
(٦٤) عبد العزيز صالح : الاسرة فى المجتمع المصرى القديم ص ٥١ ، ٥٣ ، ٧٨ .

المختصة بذلك في سجلات بيت الحياة^(٦٥) ، ربما رغبة من الآباء في أن يرث الابناء ممتلكاتهم ، وربما مناصبهم ، من بعدهم ، وربما رغبة من الدولة لحاجتها الى تجنيدهم وتجميعهم لخدمة مشاريعها الخاصة والعامة ، فضلا عن أنه نوع من الاجراءات المكتملة للانظمة الادارية والاحصائية التي ظهر منها من فترة الى أخرى تعداد السكان وقد عثر على مجموعة كبيرة من البردى في اللاهون ، على مبعده ٢٥ كيلا من الفيوم ، ترجع الى أخريات أيام الاسرة الثانية عشرة وأوائل الاسرة الثالثة عشرة . أغلبها يخص تعداد السكان ، والذي كان يتم في مكتب رئيس التعداد أمام موظف كبير ، ويسجل بواسطة كاتب توثيق أمام عدد معين من الشهود ، كما كان هناك تعداد للطوائف واحصاء للماشية والممتلكات العقارية ثم احصاء لمساكن الارض ومنتجات مناجم الذهب ، وعلى أى حال ، فإن السلطات المدنية كان لديها دون شك سجل للمواليد والزواج والوفيات . وكان المتهمون والشهود يذكرون في الوثائق القضائية باسمائهم يتلوها أسماء آبائهم وأمهاتهم ، مع ذكر مهنهم ، لان الاسماء التي كانت تطلق على كل طفل كانت كثيرة حتى أن التشابه بين الاسماء كان لا يحصى فمثلا كان أمنتب صفى الملك أمنتب الثالث يلقب أيضا باسم «حورى» ، ولما كثر هذا اللقب عند الآخرين أضف أمنتب الى اسمه ولقبه اسم والده «حابى» ولم تكن اضافة هذه الالتاب الى الاسماء محض مصادفة بل كان لها طابع رسمى مما يشير الى مدى غناية السلطات بسجلات الحالة المدنية للأفراد^(٦٦) .

(٥) البر بالوالدين

يسجل تاريخ المصريين المبكر أن حق كل فرد في التحلى بالاخلاق الفاضلة يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد

(٦٥) محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٦٢ .

(٦٦) بيير مونتيه : الحياة اليومية في مصر في عصر الرعامة ص ٧٨ -

أسرته ، وهم والده ووالدته وأخواته ، هذا وقد حث الحكماء الأبناء على طاعة الوالدين والبر بهما ، « فهما اللذان وضعاه على رأس المسبيل الى الخير » ، يقول الحكيم « أنى » لابنه وهو يعظه « قرب الماء لأبيك وأمك اللذين انتقلا الى قبرهما فى الصحراء ، وإياك أن تغفل هذا الواجب » وليفعل لك ابنك مثل ذلك (٦٧) » ، ويحدثنا نبيل من الاسرة السادسة عن بره بوالديه وأخوته ، فيقول « كنت مطيعا لأبى ، حفيا بأمى ، فرعيت عياليهما » اذ كانت رعاية الاطفال وقت ذاك فى مقدمة واجبات الراشدين من ذوى القربى والاوصياء ، وكان المسئول من القوم يرى من واجباته الاساسية دفن الموتى والوصاية الى خريتهم (٦٨) .

هذا وقد حرص الرحالة الشهير « خوف حر » ، محافظ أسوان ، فى عصر الاسرة السادسة على تسجيل محبة والديه ورضائهما عنه حين كتب سيرته على جدران قبره فى جبانة أسوان ، فقال : « كنت محبوبا من أبى ، مرضيا عنى من أمى ، ودودا لكل أخوتى (٦٩) » ، ويقول آخر « كنت عكاز الشيخوخة فى يد أبى ما بقى على وجه الارض ، وكنت أروح وأغدو وفق أمره ، ولم أخالف أبدا ما قرره فمه ، ولم أتعود أن أتطعن اليه بنظرات كثيرة وكنت أطاطىء له حين يتحدثنى ، كما كنت مثنيا على من أمى ممتازا فى تصرفاتى نحو أخواتى ، عطوفا على أختى (٧٠) » ، وكثيرا ما نرى أشراف الصعيد فى عصر الاهرام يجمعون صفاتهم النبيلة فى العبارة التالية « كنت انسانا محبوبا من والده ، وممدوحا من أمه ، محبوبا من أخوته وأخواته (٧١) » .

هذا وقد حرص كل ابن فى مصر القديمة على تزويد أبيه بكافة أزواد

67) ANET, P. 420.

68) Urk., I, 1932, P. 199.

69) ARE, I, P. 151.

70) J. Pirenne, La religion et la more, dans l'Egypte Antique, Suisse, 1965, P. 72.

(٧١) جيمس هنرى برستد : فخر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٣٦ ص ١٣٢ .

الحياة الاخرى ، يرى ذلك واجبا عليه مهما لقي في سبيله من صعاب وعقبات كئود ، ونقرأ على مقبرة « ميخو » و « سابنى » فى أسوان (٧٢) ، أن ميخو قد دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة فرعون ، فقد قتله رجال واحدة من قبائل النوبة . أبان عودته من احدى رحلاته الى هناك ، ويحدثنا أنه سابنى أنه قد خلف أباه ميخو فى امرة أسوان ، وأنه قد أسرع لاحتضار جسد أبيه من بلاد « واواى وارتنى » ، وليهدى الاحوال فى تلك المنطقة ، وهناك فى منطقة نائية حصل على بغيته ، وعاد بجثة أبيه ، ثم أرسل الى مولاه يخبره بما حدث ، فيأمر فرعون بارسال المخططين الملكيين من منف لتحنيط الجثة ، ثم دفنها فى أسوان بما يتفق ومكانة رجل ضحى بحياته من أجل مولاه الفرعون ، وأخيرا يصدر الملك أوامره بتولى « سابنى » وظائف أبيه ، ثم يكتب اليه قائلا « لقد فعلت كل هذه الاشياء العظيمة مكافأة لك على عملك النبيل ، لانك أحضرت جثة أبيك (٧٣) » .

وكان البر بالوالدين من أهم الفضائل البارزة فى عصر الاهرام ، ومن ثم فان نقوش جبانات الاهرام انما تذكر مرارا وتكرارا أن المقابر الضخمة التى بها انما كانت من صنع الأبناء البررة لأبائهم المتوفين ، وأن الابن انما كان يعد لوالده مدفنا فاخرا ، وكان الآباء يحرصون ، الحرص كل الحرص ، على تأكيد واجب أبنائهم نحو رعاية قبورهم ، وتأدية الشعائر الدينية فيها ، وتقديم القرابين صدقة على أرواحهم ، يسجلون هذا على صفحات القبور ، فيصورون الابن يقوم بوظيفة الكاتب القيم على تقديم القرابين يحصلها من أملاك أبيه ، ولعل من أوضح الأدلة التى وصلتنا من عصر الاهرام على حرص الابناء على أن يكونوا بجوار آبائهم فى عالم الغيب ، ذلك النبيل المدعو « زاو الثانى » الذى أوصى بأن يدفن مع أبيه فى قبر واحد ، وهو يحدثنا عن رغبته هذه على صفحات قبره فى

72) ARE, I, P. 164-169, Urk., I, P. 130-140.

(٧٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٦٣ - ٦٤ ، مصر الجزء الثانى - ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وكذا CAH, II, Part, 2, P. 195, ARE, I, P. 166.

دير الجبراوى بمركز منفلوط ، فيقول « لقد دفنت والدى الامير زاو فى موكب فخم فاق كل مواكب الاحتفالات التى أقيمت لأقرانه من أمراء الصعيد ، حيث توسلت الى جلالة مليكى « نفركارع » ملك مصر العليا والسفلى ، أن يأمر لوالدى زاو المتوفى بتابوت وأقمشة وقدر من العطور من الخزانة الملكية ، وقد عملت على وجوب دفنى فى نفس القبر مع زاو ، حتى أرى زاو هذا فى كل يوم ، ولأكون معه فى نفس المكان ، ولم يكن ذلك لأننى لست بقادر على بناء قبرين ، ولكننى أردت أن يتيسر لى أن أرى زاو كل يوم ، حتى يمكننى أن أكون معه فى نفس المكان (٧٤) .

هذا وقد كان من واجب الابناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا الثيران أرضا ثم يقوموا بنحرها وكثيرا ما نشاهد الابناء يفعلون ذلك ، كما كانوا يقومون بصيد الطيور وتقديم قرابين لأبائهم ، وقد فعل ذلك رعسيس الثانى لابه الملك سيقى الاول ، كما تشير الى ذلك نقوش معبد أبيدوس (٧٥) .

(٦) الميراث

ليس هناك فى وثائق العصور المبكرة ، وحتى نهاية عهد الدولة القديمة ، ما يشير الى قواعد صريحة لتقسيم الارث بين البنين والبنات ، وإنما كانت تركة الاب تنتقل ، فيما يبدو ، الى ورثته الشرعيين وهم الابناء وأبنائهم ، وإن نزلوا ، كما لم تكن وفاة الاب تمنع من توريث ابن الابن ، كما كانت المركة تؤول الى الاخوة والاخوات عند عدم وجود الابناء (٧٦) كما كا على الرجل ان كان له أولاد من زوجته الاولى المتوفاة أو المطلقة

74) N de G. Davies, The Rock Tombs of Deir el Gabrawi, I. London, 1902, P. 7 F.

ARE, I, Parg. 380-385.

75) F. Petrie, Op. Cit., P. 122.

76) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'ancienne Egypte, II, P. 335-6.

كانوا صغار أو أن يعهد به اليهم ان بلغوا سن الرشدا (٧٧) ، وهناك ما يشير الى أنه اذا مات أحد الوالدين دون وصية ، واختصم الابناء حرص الحكام والقضاة على ألا يحرّموا ابنا من نصيبه في تركة أبيه ، وكثيرا ما ردد من ولوا الحكم والقضاء من أن الواحد منهم كان عادلا ، حيث يقول « لم أحكم بين أخوين حكما يمنع أحدهما من أخذ نصيبه من ميراث أبيه (٧٨) » ، وفي هذا ما يشير الى أن كل الاخوة لهم نصيب في تركة الاب المتوفى سواء بسواء .

هذا وقد عهدت الاسرة المصرية بأوقاتها الى الابن الاكبر فيها ، في بعض عصورها ، ثم جعلت له الاشراف على ميراثها كله في عصور أخرى ، ولكنها في المملكتين لم تكن تسمح له بالتصرف في الميراث والاقواف لحسابه الخاص ، ولا أن يحتجز الاوقاف لابنائته دون غيرهم ، واشترطت عليه أن يظل اشرافه عليها فيما يفيد الاسرة أحياء وأمواتا ، وترتب على هذه الاوضاع أن حرص بعض الابناء الكبار على أن يرددوا في سيرهم التي نقشوها على جدران مقابرهم قولهم « أعددت ضريحي وأوقافه من ثروتى الخاصة وليس من ممتلكات أبى » ، وعنوا بذلك أنهم كونوا ثروتهم وممتلكاتهم بأنفسهم ، ولم يستغلوا حقوق أخواتهم في ميراث في مبانهم الخاصة (٧٩) ، وعلى أى حال ، فربما كانت التركة بعد وفاة الابن الاكبر تتوّل الى من يليه في السن من أخوته ، فيقوم هذا الاخ مقامه في تولي شؤون الاسرة ، وعند انقراض الاخوة كانت الاموال توزع بين الفروع ، فيأخذ فرع كل واحد من الاولاد نصيب أبيه كاملا (٨٠) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ليس هناك ما يدل على أن الانثى كالذكر تنقل اليها أموال التركة لادارتها نيابة عن أخوتها ، حتى

77) J. Cerny and T. E. Peet, Amarrige Settlement of The 20th Dynasty., P. 33-39.

78) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 81.

(٧٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٩١ - ٩٢ .

80) J. Pirenne, Op. Cit., III, P. 358, 458.

ان كانت هي الاكبر سنا ، هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن المرأة انما كانت تراث في الاموال التي حصل عليها المورث من غير طريق الارث ، أما الاموال التي آلت اليه من طريق الارث فلا حق لها فيها ، لانها لو انتقلت اليها لدخلت حتما تحت ولاية زوجها ، وقد يكون أجنبيا عن الاسرة بل هو أجنبى فعلا ، على أن المورث كان يستطيع أن يجعل للبنات حقا ، في الاموال الموقوفة على الاسرة . ذلك أن انشاء المؤسسات انما هو متروك لارادة المورث ، وليس هناك من خلاف بين الباحثين في أن البنات كن يرثن في المنقولات كالجواهر الثمينة ، فانها انما تنتقل من الام الى البنت عن طريق الارث (٨١) .

وهناك من عهد الدولة الوسطى والحديثة ما يشير الى أن التركة انما قد أصبحت تنتقل عن طريق الارث الى جميع الابناء ، دونما تفرقة بين الابن الاكبر وبين غيره من الاخوة ، صغارا كانوا أم كبارا ، ذكورا أم اناثا ، وأن المرأة قد أصبح لها حق الارث حتى في مال ابنها ابان حياة أبيه ، كما كان الابن يرث في مال أمه ، فالارث اذن تنقل به الاموال من الاصول الى الفروع ، ومن الفروع الى الاصول ، هذا وكانت الزوجة تراث ثلث المال المشترك بينها وبين زوجها وأما الثلثان الاخران فمن حقها أن تنتفع بهما مدى حياتها فحسب ، كما كان من حق الزوج أن يرث الاموال المشتركة بينه وبين زوجته اذا ما قدر لها أن تنتقل الى العالم الاخر ابان حياته ، وأخيرا فقد كان القوم يورثون أبناءهم المهن والحرف ، كما كانوا يطون مطعم في الاراضى والمصانع والمكاتب (٨٢) .

وهناك في العصر المتأخر ما يشير الى أن الابن الاكبر قد عاد اليه امتياز ، وأن المرأة قد فقدت حقها في الاستيلاء على نصيبها من التركة ، وقد بدأ هذا التطور بصدور الوصايا والهبات لمصلحة الابن الاكبر ، بشرط عدم التصرف في المال بطريقة تجمعها ينتقل من الابن الاكبر الى

81) Ibid., P. 360-363.

82) F. L., Griffith, PSBA, XIV, P. 238.

J. Pirenne, Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 39.

A. Moret, Op. Cit., P. 317.

ولده الأكبر وهكذا دواليك ، وقد انتهى الامر بأن أصبح هذا نظاما للتوريث لا يحتاج الى ارادة صريحة أو ضمنية تصدر من المورث ، غير أن القانون الذى كان سائدا في مدن الشمال انما كان يسوى بين الذكور والاناث في حق الارث . ثم ساد هذا النظام مصر كلها منذ الاسرة الخامسة والعشرين . فأصبح جميع الابناء متساوين في ميراث مال أبيهم (٨٣) .

وهناك بجانب الميراث، الوصايا، وقد أحيطت بعناية كبيرة ، اذ كانت تحدد لها وتعيدها وثائق ومستندات . وقد عثر على وصية لأحد أبناء الملك « خفرع » ، صاحب الهرم الثانى ، يوصى فيها « نيكاورع » لابنته بضيعتين . ولما توفيت وهو على قيد الحياة أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الاخرى في أربع عشرة قرية فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نسيب كل منهم ، وهناك وصية أخرى ترجع الى الاسرة الرابعة كذلك ، يوصى فيها المدعو « تنقى » بمال قد آكل اليه عن والدته الى زوجته وأخيه ، وقد نالت زوجته ما يعادل النصف من ذلك المال (٨٤) .

وهناك وصيتان من الاسرة الخامسة ، الواحدة من « نكعنخ » ، وتشمل في الواقع مجموعة وصايا . فهو قد أوصى بوظيفته ككبير لكهنة حتحور في قوص الى زوجته الى عدد من اولاده . فضلا عن كاهنين ، ثم أوصى بمؤسسة مساحتها ٦٠ أرورا من الارض الى زوجته وبعض ولده ، كما جعل ابنه الأكبر وريثه في جميع أمواله الاخرى ، على أن يخصص مرتبا محددًا لوالدته طوال حياتها . والتي جعلته أيضا وريثا لها في جميع أموالها (٨٥) . وأما الوصية الثاوية فقد أصدرها المدعو « لب ام نفرت » الى ولده الأكبر « أبى » أعطاء بمقتضاها حجرة الدفن الشمالية وهيكل

(٨٣) E. Revillout, in Revue Egyptologique, 1902, P. 172.

J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'Ancienne Egypte, Bruxelles, 1932, I, P. 52, 62, 64, II, P. 52, 45.

E. Revillout, Précis du Droit égyptien, 902

(٨٤) W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 113

(٨٥) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 213-235.

المقربين الشمالي ، على أن يدفن هو فيها ، وعلى أن تقدم له القربان دائما وأبدا ، وقد شهد على هذه الوصية ١٥ رجلا ، سجلت أسماؤهم وصنائعهم أمام صورة كل منهم ، ثم كتب أمام وجه الموصي «عملت هذه الوصية في حضرته ، وهو حي قائم على قدميه»^(٨٦) ، ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن كلا من الوصيتين قد جعلت لابن الأكبر مركزا ممتازا ، دون غيره من الأبناء ، مما يشير إلى أن الاتجاه نحو منح الابن الأكبر سلطة رب الأسرة إنما كان واضحا منذ أيام الأسرة الخامسة .

وهناك وصية ترجع إلى السنة الرابعة والاربعين من عهد أمنمحات الثالث — من الأسرة الثانية عشرة — ، يوصى فيها «(أحى سونب)» والشهير «(عنخ رن)» بجميع ضياعه وعقاراته وما ملكت يمينه إلى أخيه «(واح)» الذي أوصى بكل ذلك إلى زوجته «(شفقتوتيتا)» ، كما أطلق يدها في أن تهب هذه الوصية إبان حياتها أو بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين ولدتهم منه ، كما أوصى كذلك أن يدفن في مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون سواها^(٨٧) ، وهناك من عهد الأسرة الثانية عشرة وصية أخرى للمدعو «(مرى)» يوصى فيها إلى ولده «(أنتف)» بوظيفته ، ولكنه يلغى وصية سابقة صدرت منه إلى أم أنتف هذا ، وفي نفس الوقت يوصى بمنزله وأثاثه إلى أولاده من زوجته «(نبيت حن ستن)» ، ولعلها زوجة أخرى غير أم أنتف^(٨٨) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن العرف قد جرى في الأسرة الثانية عشرة إلى التفرقة بين الضياع التي يرثها الأشراف عن آبائهم والتي كان يحق لهم أن يوصوا بها لأبنائهم ، وبين الضياع الحكومية التي كان يمنحها الملك لهم طوال حياتهم جزاء لهم على إخلاصهم وولائهم له ، وكثيرا ما كان الأب المورث ينص في وصيته على

86) Salim Hassan, Excavations at Giza, II, Cairo, 1932, P. 190.

87) W. F. Petrie, Op. Cit., P. 113-114.

88) J. Pirenne, Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 33.

عدم تصرف الورثة فيما تركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئة ، كما لو كانت موقوفة ، وكان يذكر في بعض عقود التوريث « أنها موروثة لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد ، وربما يعين الشخص الثاني بأن يكون الحفيد أو الحفيدة^(٨٩) » .

وهناك وصية ترجع الى عهد الاسرة الثانية والعشرين ، يوصى فيها «يوريث» كاهن آمون لولده «خا ان وست» بمساحة تبلغ ٥٥٦ أرورا (حوالى ١٨٥ فداناً) بما فيها من أنفار وآبار وأشجار ومواشى ، والتي كان قد اشتراها من أشخاص أحرار بملء ارادتهم ، ودفع لهم ثمنها كاملاً ، على أن تكون لولده الأكبر «خا ان وست» ، دون غيره من أخوته ، وأن يرثها أولاده من بعده ، ثم أولاد أولادهم وهكذا^(٩٠) .

(٧) تعليم المرأة

ليست هناك نصوص واضحة صريحة تشير الى تعلم المرأة ، وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن نستنتج من عقيدة القوم في وجود « ربة للكتابة هي سشات » أن عبادها ومريديها كن نساء يؤمن بضرورة تعلم صناعة الكتابة ، وما لها في الحياة الانسانية من آثار خطيرة ، ومع ذلك فإننا لا نشك مطلقاً في أن المرأة على أيام الفراعين لم تكن سلعة تباع وتشترى ، ولم يكن نساء مصر من الخاملات ، بل هن كن يمارسن ألواناً من النشاط قد لا يقدر على ممارستها بعض الرجال ، وأن اختلاط بعض البنات بآبائهن وأخوتهن من المثقفين قد أعطاهن قدراً من المعرفة والثقافة ، وأن كثيراً منهن كن يتلقين في الدور ألواناً من التربية والتعليم تكفى لتكوين أبصارهن وبصائرهن ليستطعن سلوك سبل الحياة في سهولة ويسر ، وإذا كان هذا حال البنات من بيوت القادرين وأهل اليسار في مصر ، فمن المؤكد أن أمر التربية والتعليم كان الزاماً للاميرات من بنات

89) W.M.F. Petrie, Op. Cit., P. 121.

90) J. Pirenne, Op. Cit., I, P. 44.

فرعون وغيرهن من بيوت الامارة ، ونستطيع أن نتخذ من حياة
 «نفرور رع» ابنة «حتشبسوت» والاهتمام بتربيتها وتعليمها بين
 «سنموت»^(٩١) كبير رجال البلاط في قصر أمها مثالا لما كان ينبغي
 تكون عليه الاميرات من بنات فرعون ، بل اننا نجد في تراث
 ما يدل على ممارستهن ألوان الرسم والكتابة ، على أن الكتابة كما
 لم تكن من حظ المرأة المصرية ، وان كان من المؤكد أن منهن من
 من الثقافة والمعرفة بحظ وغير .

ولعل هذا كله قد يسمح لنا بالقول بأنه لم يكن هناك حائل مفر
 يحول بين الاناث وبين التعليم ، اذا دفعتهن الرغبة أو دفعتهن الظاهر
 اليه . وأن هذه الامثلة انما تتميز بأنها من عصور مختلفة ومن مد
 متنوعة ، هذا فضلا عن أن الشهيرات من النساء انما كن على حظ
 من الثقافة بألوانها المختلفة ، وعلينا أن نذكر منهن ، على سبيل المثال
 «حتب حرس» أم الملك خوفو ونيتو كريس وأحمس نفرتاري وحتشبسوت
 وتي ونفرتيتي وغيرهن كثيرات ، وليس هناك من ريب في أن الاولاد
 السياسية أيام الاسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين
 أدت الى وجود كاهنات من أميرات البيت المالك قد اقتضت أن
 أولئك السيدات على حظ من الثقافة أقل ما يمكن أن يقال في قدر
 مكنهن من معرفة القراءة والكتابة^(٩٢) .

ويقدم لنا «فلنדרزبترى» امرأتين من مثقفات الدولة القديمة
 الواحدة كانت تتولى كتابة رسائل الملكة ، والاخرى كانت تستطيع ق
 الهيروغليفية بسهولة ، وان لم تكن بقادرة على كتابتها بنفس القدر
 هذا فضلا عن ثالثة من الاسرة السادسة ، ربما كانت من نساء
 الملكى ، كان من ألقابها «قاضية القصر ، الوزيرة ، بنت تحوت» ، و

(٩١) J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 152.

(٩٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ١٦٧ - ١٧٠ .

(٩٣) W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 124.

صح أنها كانت تلى فعلا وظائف ما ادعته من ألقاب فإن ذلك يدل على تعلمها ازاء ما نعرفه عن ثقافة من ولاية الوزارة ، ويمكن أن نقرن هذه بأمر الملك أحسن في بداية الدولة الحديثة التي وصفها ابنها بأنها عالمة «رخت خت» ، كما تلتقب سيدة من سيدات قصور الاسرة الثالثة عشرة في الدولة الوسطى بلقب «الكاتبة» (٩٤) .

وهناك من الاسرة الحادية عشرة من يدعى «خنو اردو» ، وقد خدم في بلاط احدى أزواج منتو حوتب الاول ، وقد حدثنا عن سيدته ، وما كان لها من مركز أدبي ممتاز ، ثم يتحدث عن ثقة سيدته به ، وكيف أنها رفعتة الى طبقة الممتازين من رجال العصر بعد أن كان فقيرا معدما، وكيف أنه أخلص لها ، فجمع لها من الثروة كل ما استطاع ، ثم يروي لنا بعد ذلك أن سيحته لم تكن تهتم بشئونها الخاصة وحسب ، بل اهتمت أشد الاهتمام بشئون رعاياها من نساء الصعيد ، وأنه قد قام بأمرها على تدبير دار للثقافة في دنقرة ، كانت أكبر الظن لتعليم المرأة وتثقيفها وتعهدها بالرعاية ، لتستطيع أن تسلك طريقها في الحياة ، ولتستطيع أن تقوم بدورها الى جانب الرجل في النهوض بالوطن الى ما ينبغي له من مكان (٩٥) .

ويقدم لنا عصر الرعامسة أربع من صاحبات الرسائل ، لعل أهمها رسالة تلك التي تدعى «ستيك» موسيقية تتحور ربة الجميزة الجنوبية وقد وجهتها الى من تدعى «سخمت نفرت» موسيقية آمون ، التي في المدينة الجنوبية ، فقد نزلت «ستيك» منف زائرة ذات مرة ، ومن هناك كتبت الى صديقتها «سخمت نفرت» في طيبة ، تصف لها بأسلوب طريف روعة منف ، وأنها غادة شقراء ، وكتبت بهذا الوصف عن أسوار المدينة البيضاء ومبانيها البيض ، وكتبت لها عن غرائد منف الناعمات ، وما يؤثره من أنواع الزهور وأكاليل النباتات ، وصورت لها راحة المدينة :

(٩٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٩٥) P. E. Newberry, ZAS, 1936, P. 120.

وعابت على رقى الحياة فيها بأن البدوى الأثعث اذا نزلها تحول الى مدنى مرفه ، يتمضج بالعطور ، ويتجمل بالزهور ، ووصفت لها مواكب الجنود حين يشقون طرقات المدينة بين التهليل ودقات الطبول ، وهناك رسالة من نفس العصر ، كتبتها احدى سيدات الحريم الملكى فى الفيوم الى الملك سيتى الثانى تخبره فيها بنجاحها فى تثقيف وتدريب جماعة من الفتيان الاجانب عهد بهم اليها ، وأغلب الظن أنه لو لم تكن هذه السيدة على شئ من العلم فعلا وهن المكانة لما وجهت رسالتها الى الملك رأسا ولما عهد اليها بتثقيف أولئك الفتية (٩٦) .

(٨) مركز المرأة

تشهد أسماء الفتيات المصريات أن أغلب أسرهن كانت تتقبل مولد الانثى بقبول حسن ، وإن كنت أظن ، وليس كل الظن اثما ، أن المصريين انما كانوا يفضلون الذكر على الانثى ، وإن لم يكرهوا الانثى ، فقد كان الرجل يدعو ابنته « حبيبته » ، ولعل السبب فى تفضيل الذكر على الانثى أن الابن كان لابيهِ فى الحياة ظهيرا وسندا ، فقد كان رب البنين أظهر بين قومه ، وأكرم على قبيله من رب البنات ، وأن الفتى كان درء العشيرة دون الفتاة ، وأن رب الاسرة كان أحوج وأميل الى الولد يشاركه خبرته ، أو يخلفه فى أهله وثروته ، ان كان من أصحاب الثراء ، وأن الفتى كان أكثر حفاظا على روابط الاسرة من الفتاة ، وأكثر قدرة على أن يحمل اسم أسرته لمن يولد له من الابناء ، وأن جريرة الفتى اذا زل كانت أقرب الى النسيان ، فى رأى الاسرة والمجتمع ، من جريرة الفتاة (٩٧) ، هذا فضلا عن أن الذكر انما كان مرجوا فى الممات ، فهو الذى يقوم بالمراسيم الجنائزية بعد وفاته ، ويشرف على عمارة القبر ورعايته .

(٩٦) عبد العزيز صالح : المرجع اسبق ص ١٩١ ، ٢٨٢ ، وكذا

A. H. Gardiner, Ramesside Administrative Documents, London.

1940, 14-15.

(٩٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٦٥ .

ولعل الامر بالنسبة الى الفراعين انما كان جد مختلف ، ذلك أنه رغم اعتقاد القوم بأن خط العرش انما ينتقل عن طريق المرأة ، غير أنهم ما كانوا يتقبلون جلوسها على عرش الفراعين قبولا حسنا ، ومع ذلك فقد وصلت المرأة المصرية الى العرش ، فهناك الملكة «خنث كاواس» آخر ملوك الاسرة الرابعة ، وهناك الملكة «سوبك نفرو» آخر ملوك الاسرة السادسة ، وهناك الملكة «حتشبسوت» من الاسرة الثامنة عشرة ، وهناك الملكة «تا اوسرت» آخر ملوك الاسرة التاسعة عشرة ، وان كانت الوحيدة منهن التي كتب لها نجحاً في مهمتها انما كانت «حتشبسوت» ، وحتى هذه فقد لجأت الى كثير من الوسائل والاساطير لتثبيت عرشها، فارتدت زى الرجال ، واستخدمت ضمير المذكر في النصوص الرسمية ، وحين رأت أن ذلك لم يأت بالنتيجة المرجوة ، سارت في الشوط الى أبعد مداه، فأشاعت في الناس أسطورة مولدها الالهى ، من الاله آمون نفسه ، على جدران معبدها في الدير البحرى في طيبة الغربية (٩٨) .

وهكذا لم تكن تجارب أولئك النسوة في الحكم والسياسة ناجحة دائماً ، وانتهى تدخل بعضهن في الحكم الى انتقال السلطان من أسرهن الى أسر حاكمة جديدة ، ولكن حسب تدخلهن في الحكم والسياسة مايدل عليه من أن الانثى لم تكن تتردد في أن تتقدم الى الرئاسة لو دُعيت الى الظروف اليها ، وأن المجتمع لم يكن يأبى عليها نشاطها لو توقسع منها الكفاية .

وقريب من هذا ما فعلته «تى» زوج الفرعون أمدهت الثالث ، والتي كانت دون شك تمارس نفوذاً قوياً على تصرفاته ، فقد كانت ، شأنها شأن غيرها من النساء في كل زمان ومكان ، قد اتخذت من زوجها ومبالغته في إكرامها ، وسيلة لتحقيق آمالها ، فتدخلت في شؤون البلاد ، داخلية

98) E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, London, 1896, P. 46-56.

وانظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٦٢ - ٧٠ .

وخراجية ، وقد أدرك ملوك الشرق وأمرائه ذلك كله ، فكانت تصل اليها رسائل الود والزلفى ، يطلب أصحابها من سيدة القصر الاولى تحسين العلاقات السياسية بينهم وبين سيد ملوك العالم وقت ذاك ، حتى عرفت «تنى» بأنها وحدها التى استطاعت أن تروض صياد الوحوش هذا وأن تستحوذ آخر الامر على امتيازات ملكية أكثر بكثير من أية زوجة ملكية تربعت على عرش الكنانة ، وأن تصبح أمور البلاد ، فى أخريات أيام زوجها وأوائل عهد ولدها اخناتون ، بيدها وحدها ، كما تشير الى ذلك رسائل العمارنة بوضوح (٩٩) .

وهناك فى مقابر الملكات فى أخريات الاسرة السادسة ما يشير الى أنهن بدأن يحصلن على امتيازات كانت وقفا على الملوك وحدهم ، ككتابة نصوص الاهرام على جدران مقابرهن، مما يشير الى أن حق الملك فى أن يكون حكمه مطلقا لا يحده مكان أو أن هناك حدا لسلطته ، أصبح ينطبق على الملكات كذلك ، أى أن الاحتكار المطلق للملك فى الالهية ، الذى كن للفراعين دون سواهم من البشر ، قد تفكك وأصبح يتمتع به آخرون ، وكان مركز الملكة كلبنة اله ، وزوجة اله ، وأم اله ، مركزا ممتازا ، معترفا به فى نظام الدولة ، وكان لهذا المركز الممتاز أثره فى ذلك العصر الذى أخذت تسود فيه اللامركزية ، وعلى أى حال ، فلقد كانت الزوجة الاولى للملك زوج الاله ، التى كان لها حق الاتصال الجسدى به ، وهو امتياز لم يعط لسواها ، فاذا كانت ابنة ملك سابق ، فانها تكون قد ولدت من صلب جسد الهى ، ومن ثم يكن فيها شئ من الكيان الالهى .

وكان هذا من الاسباب التى ساعدت على قوة نظام وتسلط الام على الاسرة ، لوهى نظرية تولى العرش فى مصر ، والتى تجعل حق تولى العرش وقفا على من تكون أمه من نسل ملكى ، وكذا يجب أن يكون

99) S.A.B. Mercer, Op. Cit., P. 136,

A.H. Gardiner, Op. Cit., P. 212.

وكذا

وانظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٨٣ - ٩٠ ،
اخناتون : عصره ودعوته ص ٢٤٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٨ .

أبوه ، وكان من حق الفراعين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة يختارونها من جميع الطبقات ، ولكن الزوجة التي تمثل أنقى الفروع والتي يحق لها أن تحمل بذرة إله الشمس رع ، يجب أن تكون أما من صلب العائلة الملكية نفسها ، ولعل هذا هو السبب في زواج الإخ بأخته ، الذي لمعاً إليه بض الفراعين ، لغرض تأكيد صفات الإلهية ، فضلاً عن تقليل عند المتطلعين إلى العرش (١٠٠) .

هذا وقد شغلت المرأة مكانة دينية ممتازة بذلك أننا — إذا استثنينا عقيدة آتون التي لم يكن للمرأة دور واضح فيها — فإن التاريخ يحدثنا أن المرأة إنما قد شغلت وظائف كهنوتية ، من قبل عصر أخناتون ومن بعده ، فهناك من عهد الدولة الحديثة تلك الوظيفة التي كانت تسند إلى ملكات البلاد ، وأعني بها «زوجة آمون» ، ومن ثم فقد أصبح ينلن ، إلى جانب حقوق الوراثة ، مركزاً دينياً ممتازاً ، يتصل بالله الدولة الرسمي «آمون رع» ، هذا وقد نشأت هذه الوظيفة ، أول ما نشأت ، في السنوات الأولى من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «إيخ حوتب» و «أحمس نفرتاري» أول من شغلتا هذا المنصب الديني الهام ، وإن بدا في عصور متأخرة أن اللاتي كن يشغلنه أميرات ، وليس ملكات ، كما أصبح فيما بعد له أهمية سياسية عظيمة (١٠١) .

وهناك من عهد «أحمس الأول» لوحة غير عادية من الكرنك ، يصور فيها الملك أحمس الأول ، ومعه زوجه «أحمس نفرتاري» وابنتهما «أحمس عنخ» وهم يقدمون خبزاً للإله آمون رع ، وقد منح أحمس ، أوباع ، زوجه في سنة غير محددة من حكمه وظيفة «الكاهن الثاني لآمون رع» في الكرنك ، لتكون لها ولنسلها من بعدها ، وتظهر الملكة في المنظر المصاحب للنص في نفس حجم الملكة والإله ، فضلاً عن إشارة إضافية

100) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 96-97.

101) J. H. James, CAH, II, I, 1973, P. 307.

تدل على سمو مكانتها الخاصة^(١٠٢) ، وهناك «تويا» أم الملكة «تي» التي كانت تشغل وظيفة «رئيسة حريم الاله مين في أخميم»^(١٠٣) .

وهناك مظهر هام في التاريخ الفرعوني في عصوره المتأخرة ، وأعنى به تلك الاهمية التي اكتسبتها الاميرات الملكيات اللاتي حملن القاب «زوجة الاله» و «عابدة الاله» و «يد الاله» ، وكان اللقب الاول في العصور السابقة مقصورا على زوجات الفراعين ، وكان يتضمن من غير شك دلالة دينية لا تزال غير محددة ، ومنذ الاسرة الحادية والعشرين نجد أن هذا النعت ينتقل الى ابنة الملك التي أصبحت الزوجة الملكية المكرسة للاله آمون ، ولم يكن من المسموح به اطلاقا ، بل كان من المحرم عليها ، أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا^(١٠٤) ، وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخما ، وكانت تساوى الملك أباهما في كل الاهداف والمقاصد ، فهي لم تكن تملك الضياع الضخمة ، وتشرف على موظفين خاصين بها فحسب ، وانما كانت تتخذ مجموعة من الالقاب ، وتحيط اسمها بالخراطيش ، وتطلع على نفسها صفات ملكية ، وتحتفظ بأعياد اليربيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، هذا فضلا عما كان لها من السلطة التي تخولها حق تقديم القرابين للاله ، وهو حق ظل في الاماكن الاخرى من خصائص الفرعون وحده^(١٠٥) .

وهكذا أصبح لزوجة الاله كل هذه الحقوق ، مما دفع فراعين الاسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبني زوجة الاله لابنة الملك لتخلفها في وظيفتها ، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «بعنخي» و «بسماتيك الاول» و «بسماتيك الثاني» الذي نالت ابنته لقب «الكاهن

(١٠٢) محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢١٩ ، وكذا

J. G. H. James, CAH, II Part, 1, 1973, P. 307-338.

103) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, P. 206.

104) Ibid., P. 343.

(١٠٥) جان يويوت : مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٧ ،

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 343-344.

الاول لآمون» ، وهى وظيفة لم تحصل عليها أية «زوجة اله» من قبل^(١٠٦) ، وهكذا يبدو واضحا أن المرأة انما كانت تشغل وظيفة هامة فى كهنوت آمون ، منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة على الأقل ، وحتى نهاية الاسرة السادسة والعشرين ، أى طوال فترة تزايد عن الالف عام^(١٠٧) .

هذا وقد كان للمرأة مكانة خاصة كأم ، فقد كان القوم يدعون الى حب الام والمعطف عليها والبر بها والاحسان اليها ، ويذكرون أولادهم بخفض الام عليهم وبأهمية رضاها عنهم ، ومن ذلك قول الحكيم أنى لولده وهو يعظه «ضاعف كمية الخبز التى تقدمها لأمك ، احتملها كما احتملتك ، أنها بعد أن ولدتك بعد شهر من حملها بك استمرت تحملك هوق عنقها ، ثم أعطتك ثدييها ثلاث سنوات ، انها لم تتأذى يوما من ميضايك ، ولم تقل لك يوما لم فعلت ذلك ؟ لقد أرسلتك الى المدرسة لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك هناك كل يوم ، ومعها أطيب الطعام والشراب ، فاذا صرت رجلا واتخذت لك زوجا ، وأصبح لك بيت ، فلا تنس أمك حتى لا تغضب عليك وتشكوك الى الله ، لان الله سوف يستمع الى شكواها»^(١٠٨) .

وأما مكانة المرأة فى المجتمع ، فليس هناك من شك فى أن المرأة المصرية انما كانت تتبوأ مكانة لم تتطاول اليها المرأة فى أى مجتمع معاصر لقومها ، وان اختلفت هذه المكانة من عصر الى عصر ، ففى عصر الاسرتين الثالثة والرابعة كان الزوجان ، الرجل والمرأة ، يظهران فى تماثيل الاسرتين فى حجم واحد ، واقفين جنبا الى جنب ، مما يشير الى أن القانون كان يسوى بينهما ، بل أن المرأة المتروجة انما كانت بقادرة على أن تتعاقد وتتملك العقارات دون اذن من زوجها ، فأهلية الاداء عندها

106) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 354-355, ASAE, V, 1905, P. 84 F.

(١٠٧) محمد بيومى مهران : اخناتون - عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٧٨ - ٣٨١ .

108) J. A. Wilson, ANET, P. 420-421.

كانت كاملة ، مما يدل على أن ذمتها المالية انما كانت منفصلة تماما عن ذمة زوجها ، ففي مقبرة «مثن» ، من أخريات الاسرة الثالثة وأوائل الرابعة بسقارة^(١٠٩) نص يشير الى امتلاكه خمسين أرورا من الاراضي الزراعية انتقلت اليه من أمه بالوراثه ، وذلك من أملاكها الخاصة التي لا يشاركها فيها زوجها الذي كانت له أملاكه الخاصة ، كما أنها قد أوصت كذلك لأولادها الآخرين ببعض ماله^(١١٠) ، هذا وقد أوصى المدعو «تنتي» بنصف ما آل اليه عن والدته الى زوجته ، كما أوصى الوزير «نبكاورع» من الاسرة الرابعة ببعض ماله الى ابنته وزوجته ، بل ان البنات كن ينلن من هذه التركات نصيبا يزيد عما أوصى به لولده ، وجعل «تنتي» نصيب زوجته وأخيه من التركة متساويا^(١١١) .

على أن مركز المرأة انما بدأ يهتز في عهد الاسرة الخامسة والسادسة ، ومن ثم فقد رأينا النقوش والتماثيل انما تمثل المرأة في حجم أقل من حجم الرجل ، وفي بعض الاحايين تبدو راحة عند قدمي زوجها ، تقدم له الولاء والطاعة ، بل ان هناك ما يشير الى أنها قد أصبحت في مركز أقل من مركز ابنها البكر ، ومن ثم فلقد رأينا هذا الابن البكر يمثل ممسكا بعصا السلطة ، والى جواره ابنه في حجم صغير ، شأنها في ذلك شأن بقية أفراد السلطة ، ويبدو أن المرأة قد فقدت في هذه الفترة أهلية مباشرة الحقوق المدنية وأن زوجها كان يتولى عنها مباشرة هذه الحقوق ، ومن ثم فهي لم تكن بقادرة على أن تتصرف في أموالها بدون اذن من زوجها ، فإذا ما توفي هذا الزوج ناب عنه في ذلك الابن الاكبر ، او الوصي ، ان كان زوجها قد اختار لها وصيا ، على أنها في الوقت نفسه لم تفقد حق التملك ، فضلا عن العجة من زوجها ، غير أن المرأة سرعان ما تسترد بعض مكانتها في عهد الدولة الوسطى ، حيث تظهر جالسة

(١٠٩) J. H. Breasted, ARE, J.P. 175-175.

(١١٠) F. Dumas, La Civilisation de L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965. P. 196-197.

J. H. Breasted, Op. Cit., Parag. 190-199.

(١١١) J. Pirenne, Op. Cit., P. 358-359.

تطوق عنق زوجها بذراعيها أو تصاحبه في نزهاته ، وان رسمت بحجم أصغر منه ، كما أنها لم تكن تملك التصرف في أموالها ، وان استردت حقها في الارث ، وبقية ولاية التصرف في تلك الفترة للزوج أو الابن الأكبر أو الوصى الذي يختاره في حالة وفاته (١١٢) .

كان نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس بمثابة الشرارة الاولى التي أشعلت الحماس في قلوب المصريين ، فأبوا أن يستكينوا أو يثقفوا مكتوفي الايدي ، وانما شارك كل الرجال في القتال ضد الغزاة المعتدين ، وأسهم كل قادر على حمل السلاح في تطهير أرض الكنانة من دنس المستعمرين ، ولم تكن المرأة المصرية بعيدة عن أشرف الميادين هذا ، وانما أدت دورها ، واجاهدت في سبيل وطنها بما يناسب استعدادها ، وان كان التاريخ قد ضن علينا بأسماء الكثرات من المجاهدات من سيدات مصر وقت ذاك ، فانه قد احتفظ لنا بأسماء ثلاث سيدات أدين دورا في حرب التحرير ، كان له أكبر الأثر في تاريخ مصر ابان تلك اللحظات الخطيرة التي كانت تمر بها البلاد (١١٣) .

وأما أولى هؤلاء السيدات فهي «نتى شيرى» زوج «سقنن رع» ، وقد أدت هذه السيدة دورها في حياة زوجها ، حيث شهدت محنة البلاد ، وكتب لها أن تعيش في أيام حفيدها «أحمس الاول» ، فكانت بذلك على رأس سيدات الاسرة المالكة التي أنقذت الكنانة من أيدي الغزاة الهكسوس ، ومن هنا لم يكن غريبا أن تنال حتى آخر سنى حياتها تكريما عظيما من حفيدها أحمس العظيم ، وقد عثر لها على تمثالين لأبد أنهما كانا في مقبرتها الطيبية ، والتي يوصف فيها أحمس وكأنما يجلس الى زوجته «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما ،

(١١٢) شفيق شحاته : تاريخ القانون الخاص في مصر - الجزء الاول ، القانون المصرى القديم ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٢ ، ٣٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٤٢ - ١٤٣ ، وكذا

J. Pirenne, Op. Cit., P. 270, 383-384; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 123.

(١١٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢١١ - ٢٢٣ .

«قالت أخته (بمعنى زوجته هنا) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا في قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلاً : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى ، الزوجة العظمى للملك ، وأم الملك ، تتى شيرى المتوفىة ، ان لها اليوم غرفة دفن وضريحاً فوق أرض مقاطعتى طيبة وأبيدوس ، ولكننى أنتويت أن أصنع لها هرماً ومصلًى فى الأرض المقدسة (أبيدوس) ، على مقربة من أثر جلالتى ، ووضعت كل ذلك موضع التنفيذ^(١١٤) ، وفى لوحة أحمرس بجامعة ليدن نرى جدته الملكة تتى شيرى ، تقف خلفه فى الاحتفال بترميم محراب معبد الاله مونتو باعتبارها رأس الاسرة^(١١٥) .

وأما ثانية هؤلاء السيدات فهى الملكة «ايح حوتب» ، وقد احتلت مكانة أمها تتى شيرى وفاققتها اذ كانت تغذى الثورة ضد الغزاة ، وتحمل لواء التحرير ، وتعمل على خلق الروح الوطنية واذكائها ، فهى التى استطاعت بقوة شخصيتها وبذكائها الحاد ، من وراء رجال الاسرة العظمى ، أن تجعل شعب مصر يهب دفعة واحدة يطالب بالحرية ويحمل السيف ، ويثور على استبداد الغزاة وهجورهم بها ، ويعمل على اجلائهم عنها ، وتطهير أرض الكنانة من دنسهم ، وهى التى دفعتها دماء زوجها التى أهرقت على مذبح الوطنية الى مزيد من العمل من أجل الكنانة الحبيبة ، فدفعت بأبنها «كاموزا» الى الموت من أجل مصر وكرامتها ، وحين ودع هذه الدنيا دفعت بثان ، هو البقية الباقية من رجال الاسرة ، لينال ما ناله أخوه من قبل ، أو يكتب له النصر من بعد ، فيحرر وطنه ويصون شرفه .

وهناك لوحة عثر عليها فى الكرنك تتناول ، بعد ازجاء الثناء على أحمرس الذى كرس اللوحة ، حث جميع الرعايا على تقديم الاحترام لها ، وتمتدح فى هذه الفقرة التالية المعجبة بوصفها «ربة الأرض وسيدة الحاونبو ، اسمها يسطع فى كل البلاد الاجنبية ، هى التى تقود الشعوب ،

114) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 172.

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 14-16.

115) T.G.H. James, Op. Cit., P. 306.

زوجة ملك وأم ملك ، القديرة العالة التي تسهر على شئون مصر، جمعت صفوف جيشها ، وهيأت الحماس للناس ، وهى التى أرجعت الهاربين ، وجمعت شتات المهاجرين ، وهدأت ما حل بالصعيد من خوف ، وأخضعت من كان فيه من العصاة ، زوج الملك ، ايمح حوتب ، لها الحياة^(١١٦) ، وربما تدل هذه الصفات على أنها تصرفت بحزم لتثبيت دعائم الملكية فى فترة طرد الهكسوس ، وربما قامت بدور الوصى على العرش خلال السنوات الاولى من عهد ولدها أحمس ، وربما كان هذا تفسيرا لاشتراكها معه على مدخل معبده فى بوهن ، أمام وادى حلفا ، عبر النهر^(١١٧) .

وأما الثالثة السيدات هؤلاء فهى الملكة «أحمس نفرتارى» ، والتى كان لها من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يكن لكثيرات غيرها فى تاريخ مصر ، وتوحى ألقابها بوصفها ابنة ملك وأخت ملك وبأنها ربما كانت ابنة كاموزا وأخت أحمس ، وهناك — كما أشرنا آنفا — لوحة غير عادية فى الكرنك يصور فيها أحمس وزوجه أحمس نفرتارى وولدهما أحمس عنخ ، وهم يقدمون الخبز لامون رع ، وقد منحها ، أو باعها ، أحمس فى سنة غير محددة من حكمه وظيفة الكاهن الثانى لامون رع فى الكرنك ليكون لها ولنسلها الى الابد ، وتظهر الملكة فى المنظر المصاحب للنص فى نفس حجم الملك الاله ، فضلا عن اشارات اضافية تدل على سمو مكانتها الخاصة وربما كان هذا النفوذ الواسع الذى تمتعت به على أيام زوجها ليس أعظم من مثيل له تمتعت به تتى شيرى وايمح حوتب ، من قبل ، غير أن شهرتها قد فاقتهما بعد ذلك ، فقد عاشت أحمس نفرتارى حتى أيام ولدها «أمنحتب الاول» حيث يشتد الارتباط الوثيق بينهما ، وحيث تظل أكثر السيدات أهمية فى مصر قاطبة ، وأخيرا نراها تتشارك معه فى معبد جنزى ، وربما فى مقبرته كذلك^(١١٨) ، وقد عبدت منذ أخريات

116) J. T. Breasted, Op. Cit., P. 13-14.

117) H. E. Winlock, On Queen Tetisheri, Grandmother of Ahmos, I, Ancient Egypt, 1921, P. 16.

118) T.G.H. James, Op. Cit., P. 307-308.

الاسرة الحادية والعشرين حيث أقيم لها معبد في طيبة ، وأعتبرت هي وولدها أممختب الاول الالهين الحارسين للجبانة (١١٧) .

ولعل هذا كله انما كان سببا في أن تستعيد المرأة في عهد الاسرة الثامنة عشرة حرية التصرف في أموالها ، وأصبحت ليست في حاجة الى إذن من زوجها أو اجازته ، وهناك ما يشير الى أن من تدعى «تيتي عا» قد ورثت ابنها في حياة زوجها (١٢٠) ، وفي الاسرة التاسعة عشرة كانت حقوق المرأة بالنسبة الى زوجها انما تتحدد في عقد الزواج نفسه (١٢١) ، كما أصبحت تتولى الاشراف على الاسرة باعتبارها «ربة الاسرة» اذا ما توفي زوجها عن أولاد صغار (١٢٢) .

وهناك من عهد الاسرة التاسعة عشرة نفسها ، تلك القضية المعروفة بقضية موسى ، والتي سوف نشير اليها بالتفصيل فيما بعد ، وتتصل بالنزاع على قطعة أرض ، زعم موسى الشاكى أن الملك أحسن قد منحها مكافأة لسلفه نثى ، ونشير بوضوح الى مساواة الرجال والنساء بالنسبة للملكية ، فضلا عن الاهلية أمام مجلس القضاء وحيث نرى من القضية أن السيدة «ورنيو» قد عينت لزراعة قطعة الارض كوكيلة لاختها وأخواتها وقد اعترضت على ذلك أخت لها تدعى «تاخارو» ومن ثم فقد أعيد تقسيم الارض بين ستة من الورثة ، وقدم «حوى» والد موسى ، وكذا أمه «ورنيو» القماسا ضد هذا التقسيم ، وعند موت «حوى» قسامت أرملته «نوب نفرت» على زراعة الارض ، ولكن اعترضها من يدعى «خاعى» فرفعت «نوب نفرت» قضية ضده أمام المحكمة العليا في عين شمس ، ولكن الحكم صدر ضدها في العام الثامن

E. Drioton, BSFE, 12, 1953, P. 10-19.

H. Kess, Orientalis, 23, 1954, P. 57-63.

(١١٩) محمد ابو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الادنى القديم ص ١٥٨ .

120) J. Pirenne, Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 39.

121) E. Seidl, Op. Cit., P. 204.

122) A. Moret Op. Cit., P. 318.

عشر من عهد رعمسيس الثانى ، ولما وصل موسى الى مرحلة الرجولة ،
التمس تعديل الحكم ، بناء على أدلة مكتوبة تثبت حقه ، فضلا عن شهادة
الشهود من الرجال والنساء ، بأنه من نسل نثى ، وبأن أباه كان يقوم
بزراعة الارض عاما بعد عام ، ويؤدى الضرائب عنها ، فحكمت المحكمة
بحقه فى ملكية الارض (١٢٣) .

وعلى أى حال ، فلقد وصل الينا من وثائق المعاملات بين الناس فى
عصر الامبراطورية ما يثبت أنه كان للمرأة حق الملكية ، وحق البيع
والشراء ، واداء الشهادة فى المحكمة ، وفى الحقيقة فلقد كان المجتمع
على درجة كبيرة من الرقى ، ومن ثم فهو يستحق أن نطلق عليه مجتمعا
متمدنا أو متحضرا (١٢٤) .

وفى بداية عصر الانتقال الثالث خضعت المرأة لسلطة الزوج تماما ،
بل وربما الابن الاكبر كذلك ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، ففى عهد
الاسرة الخامسة والعشرين استردت المرأة أهليتها كاملة (١٢٥) ، وهناك
من عهد هذه الاسرة عقود تتعاقد فيها المرأة باسمها ودون إذن من زوجها
أو اجازته ، وربما كانت المرأة تضم بعض مالها الى مال زوجها وتصبح
أموالهما مشتركة بينهما ، وأما فى مصر السفلى فقد أصبحت المرأة منذ
أيام «(أخورييس)» (٣٩٣ — ٣٨٠ ق م) من الاسرة التاسعة والعشرين ،
سساوية تماما للرجل فى الحقوق والواجبات (١٢٦) .

123) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 268-270.

124) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 203.

125) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Prive de L'An-
cienne, II, P. 52, 45.

126) J. Pirenne,, Op. Cit., P. 138-147, 990-992.

وكذا

E. Revillout, Op. Cit., P. 138-147, 990-992.

الفصل الثانى

البيت المصرى القديم

كان المصرى القديم يعيش فى بيت بسيط راعى فيه من بناء أن يكون ملائما للجو الذى يعيش فيه ، فبناءه من اللبن والخشب ، وجعله فسيحا ، وأكثر فيه من الفتحات والنوافذ وغيرها حتى يجرى النسيم فيه دائما ، وكانت تتخلله الابهاء وقاعات الطعام والاستقبال تزين جدرانها أكاليل الزهور والفاكهة ، وقد لونت بألوان زاهية جميلة ، وفى الجزء الخلفى من البيت حيث يسود الهدوء ، بعيدا عن الجلبة والضوضاء ، توجد غرف النوم .

هذا ومن المعروف أن مدينة العمارنة ، كما أثبتت الحفريات ، انما تمثل مدينة بأسرها على مستوى زمنى واحد ، مكتملة بمعابدها وقصورها ومساكنها الخاصة فضلا عن حوانيتها وحدائقها الخاصة ، وقد أنشئت وسكنت ثم أخليت فى حقبة لا تكاد تتجاوز ربع القرن ، وربما عقدين من الزمان ، ولم يكن لها ماض ولا مستقبل ، فقد ولدت ذات صباح بارادة رجل فرد ، أجبر جميع القوى الحيوية بالدولة لتجتمع هناك ، ومن ثم تحول الجهاز الادارى المعقد لبناء عاصمة جديدة ، هذا فضلا عن أن نهاية المدينة لم تكن بسبب كارثة طبيعية ، وانما بسبب انهيار سياسى ، دفع المخربين لاستعمال أشد أنواع القسوة لتخريبها ، كما دفع المدينة لتعيش فى الظلام قرابة ثلاثة وثلاثين قرنا^(١) ، ودمرت معابدها وقصورها

١) J. Samson, *Amarana, City, of Akhenaten and Nefertiti*, London, 1972, P. 13.

J.J. Giles, *Ikhmaton*, London, 1970, P. 149-150.

E. Bill De-Mot, *Op. Cit.*, P. 57.

بغية القضاء على ذكرى المعبود آتون الذى أنشئت المدينة من أجله ، وذكرى الملك الذى دعا لعبادته ، ولم تشيد فوق أنقاضها مبان أخرى^(٢) ، ومن ثم فقد أخذت رمال الصحراء تطمرها ، وقد أمكن ترسم أجزاءها ، وتعرف كثير من تفاصيلها ، مما يسر تكوين صورة واضحة لا مثيل لها من أى عصر عن إحدى العواصم الكبيرة فى الزمن القديم ، فضلا عن أنها كانت مسرحا لحلوله جريئة فى الدين والفن معا^(٣) ، ومن ثم فقد أخذت بيوتها كنماذج للبيوت المصرية القديمة .

وتمتاز بيوت العمارنة بعدم وجود تفرقة بين أحياء الاترياء وأحياء الفقراء ، ومن ثم فهى ، باستثناء بيوت العمال التى خصصت لها منطقة معينة ، إنما كانت تخطط فيها بيوت الاشراف وكبار رجال الدولة والمكهنه ورجال الجيش والفنانين والصناع ، أى جميع طبقات المجتمع المختلفة ، حتى أن الكاهن الاكبر إنما كان يجاوره صانع النعال ، والوزير يجاوره صانع الزجاج ، وكانت المساكن الخارجية رحبة تحيط بها الحدائق والمحقات ، ومن ثم فقد كانت منازل العظماء بها صالات استقبال كبيرة مزينة بذوق سليم ، وكان هناك الكثير من غرف النوم والجلوس ، وعدد كبير من الماسل والحمامات ، وكان متوسط الطراز الافضل من هذه المنازل حوالى ٦٥ × ٧٠ قدما مربعا ، ولكن يبدو أن الضياع الشاسعة فى العمارنة إنما قد تخللتها فيما بعد مبان أكثر تواضعا ، ومع ذلك فإن أكثر الاشخاص فقرا كانت لديه صالة أمامية ، وجسرتين الواحدة

(١) تمثل مدينة اخيتاتون (العمارنة) فى الوقت الحاضر قرى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطة ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها المقابر ، وتقع على الضفة الشرقية للنيل على مبعده ٤ كيلا شمال مدينة دير مواس بمحافظة المنيا ، وتقع فى منطقة تتراجع فيها الهضبة الشرقية بحيث تترك بينها وبين النيل سهلا منخفضا على شكل نصف دائرة لاتزيد عن ١٠ كيلا ، ولا تقل عن خمسة ، ويمتد على مدى ميل شمالى قرية التل ، وحتى الحوطة شرقى النيل (محمد بيومى مهران : اخيتاتون ص ١٨٦ - ١٨٧) .

(٢) محمد أنور شكرى : العمارنة فى مصر القديمة ص ٨١ ، وكذا .
H. W. Fairman, Town Planning in Pharaonic Egypt, in Town Planning Review, 20, 1949, P. 31-51.

للجلوس والاخرى للنوم ، وربما كان لديه مطبخ أيضا ، وجميع المنازل ، بما فيها منزل الوزير ، كانت من اللبن ، وان غطيت بطبقة من الجص أو الملاط الابيض^(٤) ولنحاول الان أن نتحدث عن أنواع مختلفة من المنازل المصرية القديمة :

(١) القصر الملكي

كان القصر الملكي يشغل المنطقة التي أصبحت الان أرضا زراعية خصبة بجانب ضفة النهر اليماني يتكون من عدد كبير من الابنية وصالات الاستقبال ، التي لا تكاد تترك حيزا للجناحة الخاصة ، وكان الجناح الممتد شرقا يشمل قسم الخدم والمهرم الملكي ومخازن القصر ، ومن المؤكد أنه كان يوجد جناح مماثل في الغرب بحذاء النيل ، الا أنه اختفى تماما ، كما أن هذا الجزء لا بد وأنه كان له رصيف ملاحي للاتصال المباشر بين القصور والذهبية الملكية الراسية هناك على الدوام ، وربما وجدت هناك أيضا أجنحة للأميرة الكبرى «مریت آتون» بعد زواجها من «سمنخ كارع» الذي شارك اخناتون في الحكم ، بينما شيدت صالة تتويج في جنوب القصر ، وقد بنى اخناتون قصره الرسمي هذا من قطع الاحجار المرصوفة بعناية ، على خلاف أبيه أمنحتب الثالث الذي بنى قصره في ملقطه الغربية بالطوب اللبن ، وقد زينه بعدد من التماثيل المنحوتة من الحجر الصلب ، وكان البذخ في الزينة من نوع جديد ، وحتى رؤوس الاعمدة في صالات الاستقبال الشاسعة كانت مطعمة بالذهب ، وذات بريق عن طريق الحواجز ، ولما كانت الجدران معلقة بالنقوش على أحجار مختلفة ألوانها ، والافاريز الملونة مكلمة للزينة فلا بد أن تأثير الضوء الخافت كان مذهلا^(٥) .

(٤) جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل - الجزء الثاني

ص ٨١ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٩٧ .

5) H. Kess, Ancient Egypt, London, 1961, P. 296.

E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 77.

وكذا

وفي وسط القصر ، وفي وضع عمودي على المحور الرئيسي ، توجد ابهاء تؤدي فتحاتها الى القنطرة التي فوق الطريق الملكي ، فلا تسمح لأحد بأن يعبر مباشرة من القصر الى مقر الملك الخاص ، وقد بنى هذا الأخير فوق مرتفع أعلى قليلا من المباني المجاورة ، وتنقسم الى ثلاثة أقسام : البستان والمنزل والحدائق ، ويوجد منحدر بالقرب من القنطرة يؤدي الى بهو يطل على البستان والمنزل والاسطبلات حيث كانت تدخل العربات ، ويمتد البستان شمالا الى بوابة كبيرة في الطريق على جانبيه أحواض الزهور وصفوف الأشجار ، وفي الناحية الغربية كانت الخضرة والمظلات على امتداد أقل انخفاضاً⁽⁶⁾ .

وينقسم المنزل ذاته الى عدة أقسام ، فعلى مقربة من المدخل ، توجد مخصصات الخدم ، يفصلها عن الجناح الملكي أبهاء وغرف ، يبدو أن ثلاثة منها خصصت للحرس الملكي ، أما الجناح الخاص فيشمل رحبة ذات أعمدة ، هذا فضلا عن غرفة الجلوس ذات الأعمدة الأثني عشر والأربعين ، وعن هيكل خاص ، وإلى جنوب الهيكل توجد طريقة كبيرة تربط غرفة الجلوس بفناء كبير ، وتربط غرفة الجناح الملكي المكون من غرفة نوم فسيحة ، وحجرة الزينة للسيدات ، وحمام ودورة مياه ، يحجب مدخلها سواتر من الطوب ، وكان يحلى الغرفة المؤدية الى غرفة النوم الصور التي تمثل الملكين وجها لوجه ، الملك جالس ، بينما الملكة جاثية عند قدميه فوق وسادة مطرزة ، والأميرات الستة حولهما ، وترين المناظر الحية كل المقر الملكي ، بينما السقوف مطلية باللون الأصفر ، وعليها رسوم البط والطيور المائية ، وهي تطير في كل صوب ، ويفصل المقر الرئيسي عن القصر فناء فسيح يتكون من نبتة غرف صغيرة مقببة خاصة بمبيت الأميرات في صفين ، في كل صف ثلاثة غرف تشرف على دهليز ، وفي الواقع أننا لسنا بصدد قصر ملكي ، بل بمسكن بسيط ، وإن كان فخما بعض الشيء ، إلا أنه متواضع في جملة ، لم يكن يزيد عن صورة كبيرة

6) Samson, Op. Cit., P. 12;
E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 77-78.

لأحد بيوت عظماء العمارنة ، كما تظهر بسلطة أجزائه حياة تلك الأسرة المترابطة ، ويصور المدخل كلمات القسم الملكي « كم سعيد قنبي بالملكة وأطفالها » ، كما يصور « محبوبة سعادته ، سيدة النعمة ، الجميلة الحيا (٧) » .

هذا ويظهر في القصر الملكي الشمالى أو المقر الصيفى (مارو آتون) الذى يقع الى الجنوب قريبا من قرية الحوطة الحالية كثيرا من الصالات المزودة ببحيرات زخرفية وأرضيات ، طلية ، رسمت عليها حيوانات بأسلوب فننى ايقاعى ، وفي الواقع أن هذا القصر الشمالى ربما كان طرازاً فريداً بين المباني القديمة ، كان أشبه بمحديقة حيوان ، حيث كان الملك والملكة يستمتعان فيه بمشاهدة الحيوانات والطيور المختلفة ، وكان محوره من الغرب الى الشرق ، ومدخله يواجه النيل ، وكان يشتمل في كل من طوله وعرضه على ثلاث أقسام ، وكان من أهم أجزائه ، عدا الديكوالاالبهاء والمقاعات ومسكن موظفى القصر ، فناء تشغل معظمه بركة كبيرة كانت تترخر بأنواع مختلفة من السمك وطيور الماء ، وإلى اليسار منها حظيرة ، كانت تربي فيها الماعز البرى والغزلان الصحراوية ، وفي أحد الاركان كانت توجد حديقة يحيط بها «بورتيكون» وعدد من الحجرات التى تشير بزينتها الى أنها كانت خاصة بالطيور ، وأخيراً توجد في الشرق صالات وأبهاء ذات عمد ، تؤدى الى غرفة العرش ، وربما الى جناح الملكة والحريم (٨) .

هذا وتمتاز قصور العمارنة ، بصفة عامة ، بزخارفها المختلفة ، ومن ذلك تحلية الاساطين بزخرفة نباتية ، ومنها أساطين تبدو وكأن الكروم

(٧) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٦ .

E. Bill De-Mot., Op. Cit., P. 78.

J. Samson, Op. Cit., P. 11-12.

(٨) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٧ - ١١٦ ، وكذا

E. Bill De-Mot., Op. Cit., P. 59.

H. Frankfort, The Mural Painting of El-Amarna, London, 1929, Pls. II-IX.

تلتف حولها فى شكل طبيعى جميل ، وأخرى سطوحها غير منتظمة كأنها جذوع أشجار ، بينما يتدلى من غيرها بط ، ومن الاساطين النخيلية عراجين البلح وكانت تحلى أوراق تيجان الاساطين البردية رصائع من قشائى براق وزجاج ملون ، وكان من الجدران ما يرصع بقراميد من القاشانى بألوان مختلفة منها ما يطيه زهر الاقحوان الابيض على مسافات منتظمة ، ومنها ما تحليه صور أسماك وطيور ماء ، ومن السقوف ما كان يحليه ما يمثل عرش كرم تتدلى منه فيما يظن عناقيد من أحجام مختلفة من قاشانى أزرق ، وفى هذا من القاشانى والمزجاج وقد كان فى المدينة مصنعان كبيران للمزجاج والقاشانى ، عدا مصانع أخرى كثيرة ، وعلى أى حال ، فإن بقايا صور العمارة انما تدل على ابداع بلغ مايقرب من الكمال فى تمثيل التفاصيل الدقيقة ، وحسن اختيار الالوان الحية للاساطين التى ترفع السقف ، والحشايا التى يجلس عليها بعض أفراد الاسرة المالكة ، ولوانى الجعة والنبيذ وأغطية الكراسى الوثيرة حتى أن جمالها يفوق جمال أى صور أخرى ، ولا تزال الالوان غضة كأنما نفخ الفنان عنها يديه منذ زمن قريب (٩) .

(٢) منازل العمارة

نسقت منازل العمارة ، من حيث النظافة والاثاث ، بطريقة ربما ترضى حتى المتطلبات الحديثة الى حد ما ، وقد شغل الجزء الامامى من المنزل صالة مستعرضة حمل سقفها على أعمدة خشبية ، وأما المنزل نفسه فقد كان يبنى بالطوب اللبن ، ولم يستخدم فيها الحجر الا قليلا ، وذلك فى أطر الابواب وعتبها وقواعد الاساطين ، وربما كان ذلك ، فيما يرى البعض ، انما يتفق مع رأى المصرى وفلسفته ، حيث كان يرى أن كل انسان يجب أن يشيد مبناء لمدة حياته هو ، وفق ميوله الشخصية ،

(٩) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٧ ، ١٢٠ ، وكذا

E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 78.

J. D. S. Pendlbury and Others, The City of Akenaten. III, London, 1951, Pls., 62, 72, 67.

وعلى حسب ذوقه الخاص ، فلا يصح أن يفرض على من يأتي بعده منزلا مقاما من الحجر ، ربما لا يروق له ، ولا يتفق مع ذوقه ، هذا فضلا عن أن البناء باللبن انما يخفف من وطأة حرارة الشمس ، وبخاصة في فصل الصيف ، وأخيرا فإن المنزل انما هو المأوى الدنيوى الزائل ، الذى يقل كثيرا فى أهميته عن المقر الابدئ الدائم ، ومن ثم فلا بأس من أن يظل اللبن هو مادة بنائه الاساسية .

وتشغل بيوت عظماء العمارة مساحات كبيرة مربعة اختاروها فى أحسن المواقع على الشوارع الرئيسية ، ويقوم كل منها فى الغالب على قاعدة منخفضة من اللبن ، وواجهته عادة نحو الشمال ، وتختلف البيوت الكبيرة فيما بينها من حيث سعتها ونظام قاعاته ، ومع ذلك فأكثرها من طراز واحد ، يتميز بوضوحه وانتظام قاعاته فى وحدة متسقة ترضى حاجيات أصحابها ومطالبهم ، بل انما لقرضى مطالب الانسان فى العصر الحديث (١٠) .

وكان المنزل يتكون من طابق واحد ، ويشغل مساحة مربعة فى العادة ، ويحيط به حائط مرتفع ، به غرفة للبواب قرب المدخل ، فإذا دخل المرء الفناء وجد طريقا يؤدي بزاوية قائمة الى المنزل الرئيسى ، وهو مستطيل الشكل مشيد بحيث يحتوى على الاجزاء الثلاثة الرئيسية فى كل مسكن ، ولها قاعة فسيحة تشكل العنصر الرئيسى لمبنى الدار ، والمخصص لاستقبال الزوار ، ويشمل الجزء الاوسط من المبنى أكبر قسم من المنزل ، وهو المعد للسكنى ، وله سقف أعلى من سقف الغرف المحيطة به ، هو رفوع على عمد أربعة خشبية ، فوق قواعد حجرية فى حالة منازل الاغنياء ، والتي كانت تمتاز برحبة تطل على الغرب ، وتستخدم فى أيام الشتاء ، هذا غير رحبة أخرى من الناحية البحرية لاستقبال الشمس ، وتستخدم

(١٠) سليم حسن : مصر القديمة ٢٨٨/٥ ، محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ١٣٦ ، وكذا

H. Kees, Op. Cit., P. 293.

في الصيف ، كما أن هناك صالة داخلية تعرف باسم « حجرة النساء » ،
يتصلها عادة عن حجرة الجلوس الوسطى مجرد ستار ، حتى تتمكن
المتحجبات من الانصات الى ما يدور هناك ، وأخيرا فلقد نسيدت على
حانب من جوانب القاعة الوسطى حجرات يستخدمها رب الدار كمكاتب
له (١١) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن قصور الاغنياء في العمارنة
انما تمتاز باتساع رقعة الحدائق التي تحيط بها ، على الرغم من أن
المدينة قد شيدت في منطقة صحراوية على الشاطئ الشرقي للنيل ، ومن
الطريف أن واحدا من أغنياء أحييتاتون حدثنا عن حديقته الغناء والتي
كانت تحتوي على أكثر من عشرين نوعا من الاشجار المختلفة ، من بينها
٧٣ شجرة جميز ، ١٧٠ شجرة نخيل ، ١٢٠ شجرة دوم ، ٥٠ شجرة
تين ، ١٢ كرمة عنب ، ٥ أشجار من الرمان ، ٩ أشجار من الصفصاف ،
١٠ أشجار من الآثل ، ٣١ شجرة وارفة الظلال ، هذا غير أحواض الزهور
المختلفة بولعل هذا كله مما يدل على مدى تعلق المصري القديم بالحدائق
وولعه بالزهور ، وفي الواقع انما ينذر العثور على منظر لم يسجل
المصري القديم فيه رسوما مختلفة للزهور ، تارة يشم عبقها ، وتارة
أخرى ينظمها في باقات كثيرة ، كما كانت الزهور من أهم ما قدمه
المصري القديم قربانا للالهة والموتى (١٢) .

وأما القسم الثالث من المسكن فكان مخصصا للحياة العائلية ، ويفصله
عن بقية البيت دهليز مستعرض ، يتألف من قسمين يرتبط الواحد منهما
بالآخر ارتباطا وثيقا ، ويؤلفان معا وحدة متسقة داخل الوحدة الشمالية
للبيت جميعه ، ويشغل كل من القسمين نصف المساحة الخلفية للبيت ،
ويشمل أحدهما قاعة المعيشة الخاصة ، ويشمل الآخر غرفة النوم ، ولكل

11) C. D. Noblecourt, Op. Cit., P. 137.

E. Bill-De Mot, Op. Cit., P. 78-79.

H. Kees, Op. Cit., P. 298-299.

(١٢) عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ص ٨٤ - ٨٥ .

منهما قاعات جانبية ، وقاعة للمعيشة مربعة غالبا ، يعتمد مستقفا على اسطوان ، ويظن أن سيدة الدار انما كانت تنقضى فيها معظم يومها اذ كانت في مكان يقيها البرد الشديد في الشتاء ، ويحفظ جدرانها من حرارة الشمس في الصيف ، وتتصل بها قاعتان أو ثلاث وربما أربع ، كانت تودع فيها حوائج البيت ، ومنها ما كانت تنقش عضادات بابيه باسم صاحب البيت أو باسم زوجته .

وليس من شك في أن غرفة النوم انما هي أخص قاعات البيت، وتقع غالبا في الركن الجنوبي الغربي منه ، وهي قاعة مستطيلة في مؤخرتها مشكاة تشغلها منصة مرتفعة قليلا ، كان يستقر عليها سرير من خشب، فوق قواعد صغيرة من حجر ، ويظن أن سقف المشكاة كان مقببا ، وأنه كان يعلو سقف غرفة النوم ، وربما كان مفتوحا نحو السمان ، وكان السرير للرجل وزوجه معا ، وكان يلحق بغرفة النوم غرفة أخرى لاتعطير والزينة ، وتجاورها غرفة للحمام مزودة بأحواض مياه جارية ودورة مياه ، وعلى جانبي غرفة رب الدار كانت تصطف غرف النوم لبقية أفراد الأسرة ، وهي بسيطة للغاية ، وبكل منها عادة مضدع صغير النوم ، وكثيرا ما كانت توجد حجرات مستقلة يبدو أنها كانت للضيوف ، وكانت نوافذ الادوار العليا تحلق بشبابيك ذات أشكال مختلفة ، وفي متحف اللوفر بباريس نموذج من ألحاج لشباك منها مكون من قضبان صغيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس ، وفي أعلى أسطح المنازل أو طبقاتها العليا كانت توجد شرفة جيدة للتهوية في الجهة الشمالية او الغربية ، حيث يتمكن أهل البيت من التمتع بالنسيم العليل الذي يأتي من الشمال ، هذا فضلا عن أنها تمكنهم من النوم في حرية ، كما كانت العادة في الجنوب أثناء فصل الصيف (١٣) .

(١٣) محمد أنور شكري : المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٠، وكذا

E. Bill De. Mot, Op. Cit., P. 78.

H. Kees, Op. Cit., P. 299.

W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 177.

وكذا

وكذا

وتشبه بيوت العمارنة بأقسامها الثلاثة بيوت «اللاهون» التي أنشأها سنوسرت الثانى ، وتقع على مبعدة ٢٥ كيلا من الفيوم ، ٤٠ كيلا من «ايثت تاوى» عاصمة الاسرة الثانية عشرة ، غير أن بيوت العمارنة انما كانت تختلف عنها في أنها لا تشمل على قسم للحريم ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن الرجل انما كان يقتصر على زوجة واحدة ، تشاركه فاعله ، على خلاف ما كان عليه الامر في مدينة اللاهون ، حيث كان للزوج جناحه الخاص ، وللحريم جناحهن ، مما يشير الى ارتقاء مركز الزوجة في العمارنة عنها في اللاهون (١٤) .

وكانت المرافق الصحية في العمارنة معتنى بها كثيرا ، بل أن بهذه المرافق مقاعد يجلس عليها المرء عند قضاء حاجته ، ويبدو أن المصرى لم يكن ، قبل العصر الرومانى ، يعرف حوض الاستحمام ، وانما كان عنده في جميع الازمان حجرة للرشاش (دش) ، وكان من الضرورى عند الاغتسال العناية بالجلد حتى يحتفظ بمرونته ، الامر الشائع في أغلب البلاد الحارة ، ومن ثم فإن المرافق الخاصة في المنازل انما كانت تحتوى على حجرات للتدليك واستعمال الحمامات ، وكان يتم تصريف المياه الى الخارج بواسطة قناة من الفخار . وكان القوم يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يغطونها باسطوانات من الفخار ، ذات أطراف

(١٤) كانت بيوت الحريم في اللاهون في الجناح الايسر من البيت ، وتقع في مجموعتين تكتنفان فناء مربعا تحيط به الصعات ، وتتوسطه بئر ، وتتألف احدى المجموعتين من قاعة معيشة مربعة يتوسطها أسطون وقاعتين جانبيتين وحمام وغرفة نوم ذات مشكاة لسرير ، وتشبه هذه القاعات تلك التى للرجل ، ومن ثم فيظن أنها لزوجته أو للزوجة الرئيسية ، مما يدل على أن الزوجة كانت تتمتع بما كان يتمتع به الزوج من قاعات ، وإن زاد عليها القاعات التى كانت تقتضيها واجباته العامة ، وتتألف المجموعة الثانية من قاعات بسيطة وفناء ذى صفة ، ويشمل الجزء الجنوبى من الجناح الايسر على بقية مرافق البيت ، ويحتوى الجناح الايمن على دهليز ضيق ومجموعة من القاعات ربما كانت للملاباء المتزوجين والضيوف ، وربما كان بعضها مخازن (محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧) ، وكذا

W. F. Petrie, Illahun, Kahun and Gurab, London, 1891, Pl XVI,

مستوية المسطح ، ثم يغطونها باللبن ، وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة من اللبن لصرف المياه التي قد تتغذى الى باطن أرض الحجرات ، كما كانوا يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ، ومتدلية من سطح فوقه •

هذا ولم يكن هناك مطبخ بالمبنى الرئيسى للمنزل ، وإنما كان المطبخ فى الخارج فى فناء واسع منعزل عن الضوضاء وأتربة الطريق ، كما كان يوجد فى الفناء كذلك مساكن للخدم وفرن ، فضلا عن صوامع للغلال واسطبلات للخيل وحظائر للماشية وورشة صغيرة ، كما كان يوجد فى الفناء كذلك حديقة بها مقصورة للعبادة وبركة صناعية وكشكا للموسيقى ، هذا فضلا عن أشجار زرعت فى حفر ملئت بطمي النيل ، حيث كانت زراعة الحدائق تسلية للطبقة المثقفة ، وهكذا كانت منازل الاشراف فى العمارة بتصميمها الجيد للغاية مريحة وملائمة تماما للمناخ ، ومتفقة مع حب البذخ الذى ساد عصر الامبراطورية المصرية^(١٥) ، هذا ولم يحفظ من زخارف بيوت الافراد سوى القليل ، وان وجدت فى بيوت الطبقة الوسطى ، ومنها استدل على أن من المزارع المحبوبة تحلية أعلى الجدران فى بهو الاستقبال وقاعة المعيشة بأفاريز الزهر والفاكهة ، تتدلى منها فى بعض الاحيان أكاليل من الزهر وأشكال البط ، وكانت تحلى أحد جدران غرفة النوم فى أحد البيوت غيضة بردى من داخل اطار من خشب ، ويظن أنه لو كانت حفظت لنا صورة أخرى فى البيوت الكبيرة ، لكان منها ما يشبه صور الجدران فى القصور الملكية ، ومن السقوف ما كانت تحليه رسوم هندسية ووريدات^(١٦) •

(١٥) سلم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ ، وكذا

H. Kess, Op. Cit., 299.

E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 78-79.

وكذا

C. Aldred, Akhenaten, 1972, P. 168.

وكذا

W. F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, P. 178.

وكذا

(١٦) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وكذا

H. Frankfort, Op. Cit., Pls. 17, 19-20.

هذا وقد اختار أغنى الناس مواقع منازلهم على امتداد الشوارع الرئيسية ، أما الأقل ثراء فقد بنوا منازلهم في الأماكن الخالية خلف منازل الأولين ، بينما حشرت منازل الفقراء في الأماكن الملائمة التي أمكن الحصول عليها مع محاولة يسيرة للمحافظة على النظام ، وهكذا وجدت كل طرز المباني في كافة الأحياء ، ولم يشذ عن ذلك سوى حي الحكومة^(١٧) (الحي الأوسط من المدينة) هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن العمارنة ، بصفة عامة ، إنما أقيمت بواسطة مقاولين عموميين ، ذلك لأنه على الرغم من وجود بعض الاختلافات الطفيفة بين المنازل المختلفة ، إلا أن الصفة الغالبة عليها أنها قد شيدت على نفس الرسم تقريبا ، ولم تختلف إلا في النسب ، طبقا لعدد أفراد الأسرة التي سوف تشغل هذا المبنى ، كبيرة كانت أم صغيرة^(١٨) ، وأخيرا هلقد كان في البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال ، يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسمك حائطها سمك قالب من اللبن ، وكانت تبني تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها البعض قربا لا يسمح لأحد أن ينفذ بين اثنين منها إلا بشق الأنفس^(١٩) .

(٣) بيوت العمال :

هناك ما يشير إلى أن جزءا كبيرا من العمال قد انتقلوا من قرينتهم في طيبة الغربية ، وأقاموا على مقربة من عملهم في العمارنة ، سواء أكان ذلك في بناء المدينة أو في المقابر الملكية أو في مقابر الأشراف ، وقد بنيت لهم قرية في أخيتاتون (العمارنة) في مكان يكاد يتوسط المسافة بين المدينة والصحراء الشرقية ، ويحيط بها جدار من كل ناحية ولها مخرج وحيد عندما يسدل الليل أستاره^(٢٠) ، هذا وكان يحيط بيوت العمال من جهات

(١٧) محمد أبو المحاسن عصفور : التخطيط العمراني في مصر القديمة ص ٩٩ ، وكذا

C. Aldred, Op. Cit., P. 167-168.

18) E. Bill De Mote Op. Cit., P. 78.

19) W. F. Petrie, Op. Cit., P. 173.

20) E. Bill De Mot, Op. Cit., P. 79.

ثلاث طرق للحراسة ، الى جانب منازل للمراقبة مقامة على الطريق الرئيسى الموصل من القرية الى المدينة (أخيتاتون) ، وبدهى أن الهدف من الجدار أو السور الذى يصيط بقرية العمال لم يكن لابعاد الاعداء عنها ، وإنما لتحديد اقامة العمال بداخلها (٢١) .

ولعل السبب فى ذلك أن سكان العمارة انما كانوا ينظرون الى العمال نظرة ملؤها الشك ، ربما بسبب حرفتهم الجنزية ، وربما لان أجور العمال الضئيلة انما كانت سببا فى أن يثور العمال بين حين وآخر ، كما كان الحال فى طيبة (٢٢) ، مما أدى الى وقوع بعض الاضطرابات فى المدينة ، وقد أمكن سلطات الامن القضاء على شغب العمال ، وذلك عن طريق اسكانهم خارج المدينة ، وفى الوقت نفسه ليس بعيدا عن ثكنات الشرطة (٢٣) ، ولعل تفسير هذا السلوك السيئ الذى اشتهر به العمال والذى تميز بالعنف والشغب — وقد وصلتنا عنه شواهد مكتوبة على الاقل من جبانة طيبة — ربما يرجع الى أن حرفتهم كانت تحمل بعض الشوائب التى كانت متصلة بالحنطين ، وأن عمال المقابر كانوا يشاركون زملاءهم فى تلك الشهرة السيئة التى اكتسبها زملاؤهم الصاخبون فى طيبة ، ومن ثم فقد أبعد عمال العمارة بقدر الامكان عن المدينة (٢٤) .

وعلى أى حال ، فقد كانت قرية العمال تشكل مربعا كبيرا ، وتشمل ٧٤ بيتا ، تتخللها شوارع مستقيمة ومتوازية (٢٥) ، وتجرى من الجنوب

(٢١) جيمس بيكى : المرجع السابق ص ١١٤

(٢٢) أنظر عن ثورات العمال فى طيبة فى الاسرة العشرين مثلا (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٧٩ - ٢٩٠) .

23) E. Bill De Mot, Op. Cit., P. 79-80.

24) T. E. Peet and C. L. Woolley, The City of Akenton, I, London, 1923, P. 52.

(٢٥) كانت بيوت العمال فى اللاهون متلاصقة ، وتقع واجهة كل منها على شارع أو درب ، وهى وأن اختلفت فى تخطيطها بعض الشيء ، فقد كان كل منها يحتوى على فناء صغير وقاعة أو قاعتين أو ثلاث ، ومن هذه القاعات ما كان سقفها مقببا (محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٠٧) .

الى الشمال ، على أنها كانت ضيقة لا يزيد عرضها عن متر واحد ، ورغم أنها كانت تنقسم الى قسمين ، الا أن هذا التقسيم لم يكن الهدف منه فصل الطبقات ، ذلك لان المنازل ، ماعدا منزل قسائد المدينة في الركن الجنوبي الغربى ، انما كانت متشابهة ، ورغم أن منازل القسم الاصغر من مدينة العمال هذه ، كانت كلها على الشارع الوحيد ، الا أنها لم تكن متقابلة ، حتى لا يرى سكان أحد المنازل ما في داخل المنزل المقابل في الشارع ، وأما منازل القسم الاكبر فكانت كلها تطل على الغرب ، ولكل منها أربع قاعات موصلة خارجية ، وحجرة داخلية بها عمود ، وفي خلف المنزل توجد غرفة النوم ، والمطبخ الذى تخرج منه سلالم تؤدي الى السطح ، وبعض المنازل كانت تحتوى على أماكن لاصطف الماشية ، مما يوحي بأن السكان كانوا يحتفظون بحيواناتهم داخل منازلهم ، هذا وقد كان في الزاوية الجنوبية الشرقية من حي العمال بالقرب من مدخله ، بيت كبير يظهر أنه بيعت ملاحظ العمال ، يتألف من تسع قاعات تتوسطها قاعة المعيشة ، ومنها غرفة نوم ومخازن ودرج يؤدي الى السطح (٢٦) .

(٤) الاثاث :

كان المنزل المصرى القديم يضم أثاثا ممتاز في جميع العصور ببساطته وملاءمته للغرض الذى صنع من أجله ، ويعد السرير من أهم قطع الاثاث المنزلى ، ففي أقدم المقابر عثر على أسرة كانت أوطأ من التى صنعت بعد ذلك ولكن أرجلها كانت محفورة على صورة سيقان الثور ، ففي أحد منازل الاسرة السادسة جاء ذكر لسرير وصف بأنه « من أجود أنواع خشب الصنوبر » ، وكان من أبهج الاشياء عند « سنوهى » الذى قضى الجزء الاكبر من حياته عند البرابرة في سورية أن يستبدل في شيخوخته النوم في مصر على سرير بدلا من النوم على

(٢٦) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٢ ،

T.E. Peet and C. L. Wooley, Op. Cit, Pl. I.

E. Bill De Mot, Op. Cit, P. 79.

وكذا

وكذا

الرمال التي اعتاد أن ينام عليها هناك (٣٧) .

هذا وكان السرير يتكون من اطار من الخشب منخفض يرتكز على أربعة قوائم صماء نحتت على شكل ساق أسد ينتهي بمخالبه ، وان صنعت بعضها على شكل أرجل الثور الوحشي في مهارة كبيرة ، وهناك من الارجل ماصنع من العاج أو الابنوس ببراعة فائقة ، هذا وكان فراغ الاطار يملأ بخيوط كتانية ناعمة مصفورة صفرا متقاربا وتربط الى جوانب ونهايات الاطار ، فتكون هذه الشبكة من الخيوط المجدولة هشة ليينة تكفل الراحة لمن ينام عليها ، وبخاصة اذا وضعت عليها حشيات ووسائد مترفة ، وكانت الاسرة الممتازة مرتفعة نوعا ما بحيث تتطلب نوعا من السلالم للوصول اليها أو كرسيًا منخفضا لا استعماله لهذا الغرض ، وكانت هناك أسرة للمعسكرات ذات مفصلات في قوائمها الطويلة بحيث يمكن «تطبيقها» ، ويشير هيرودوت الى أن الاثرياء ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون حول المستنقعات ، انما كانوا يستخدمون نسيجا مثل الشباك ينامون تحته أو هو ما يعرف اليوم (بالمكبة أو الناموسية) حتى يقيهم شر لدغ البعوض ، ولعل الامر كذلك بالنسبة الى سكان القرى التي كانت حول أو في مجاورات الاراضي الزراعية .

وكان الرجال والنساء ، سواء بسواء ، يستخدمون مساند الرأس التي كانت تدفن معهم بعد موتهم لترفع رؤوسهم في الآخرة ، كما كانت ترفعها في الدنيا ، وكان مسند الرأس أحيانا من الحجر الجيري ينقش عليه اسم صاحبه بمعجون أزرق أو أخضر ، وكانت المساند أحيانا من الخشب المطعم بالعاج وتزين جوانبها المستديرة رأس المعبود « بس » غالبا ، أما المساند ذات القوائم المعتدل فقد تطورت وحل محلها قائمان متعارضان يربط لهما مسمار بحيث يمكن أن يرتفع المسند أو ينخفض حسبما يتطلب المرء ، وكان طرفا الضلعين الجديدين ينتهيان برأس أوزة ،

27) W. F. Petrie, G. A. Wainwright and A. H. Gardiner, Tarkhan, I, and Memphis V, 1913, P. 8 F.

ذلك لان الاوز في نظرهم يمثل الانتباه واليقظة وتنبيه النائم للخطر ، وكان المصريون يصنعون تماثيم على شكل مساند الرأس توضع مع الموتى تنقش عليها عادة مقرة من الفصل ١٦٦ من كتاب الموتى ، وكانت صلابة المسند تخفف أحيانا بوضع مساند لينة فوقها (٢٨) .

وهناك في مقابر ما قبل الاسرات ما يشير الى أنه كان من أثاث البيوت حصير وأسرة عليها حشايا من نسيج أو جلد محشوة بالقش ، وأوان فخارية من أشكال مختلفة ، بعضها عاقل من أى زخرف ، وبعضها تحليه رسوم متنوعة ، ومن الاواني ما كان من عاج أو أحجار مختلفة ، وتتميز ببساطتها وجمال أشكالها ودقة صنعها وجودة صقلها مما أبرز جمال مادتها ، ومنها ما كان على شكل الطير أو الحيوان ، وهناك الكراسى والمقاعد ، والتي منها البسيط والفخم ، وتخرط قوائمها عادة على شكل قوائم الاسد أو غيره من الحيوان ، وأقدم أنواع المقاعد ما كان بغير سند من الخلف ، على أنه لم يلبث أن أصبح منها ما يزود بسند يعتمد عليه ظهر الجالس ، وبعض المقاعد واطىء ، وبعضها الآخر يتميز بارتفاع عادى ، وكان للأنواع الجيدة منها تمعدات من شرائط متعارضة من جلد ، ومنها ما كان يزود بمشيمة من جلد .

وفي قبر الملكة «حوتب حرس» كرسى مصفح بالذهب ، فيما عدا الظهر والقعدة ، وقوائمها على شكل أرجل الاسد ، وتحلى كلا من جانبيه ثلاثة أغصان بردي ، ومنها كذلك محفة مصفحة دوافيها بالذهب ، ولها حاملان أطرافهما مصفحة بالذهب في شكل تاج نخيلي ، وظهرها مطعم من أمام ومن خلف بشرائط من خشب أسود مرصع باسم الملكة وألقابها في خط هيروغليفي جميل من ذهب سميك ، وكانت الملكة تترقد على سرير مصفح بذهب سميك ، ذى قوائم أرجل الاسد ، وله مسند للرأس من خشب مصفح أعلاه بالذهب وأسفله بالفضة ، وموطىء

(٢٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٠٧ - ٢٠٨ وكذا
J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 22.

للاقدام مطعم بالقاشانى ، وكان للشرير ظله هيكلا من خشب مصفح بالذهب ، تحليه زخارف تحاكي الحصر ونقوش بديعة تسجل أسماء زوج حوتب حرس الملك سنفرو وألقابه (٢٩) .

وكان من أثاث البيوت كذلك المناضد المصنوعة من الخشب أو المرمر المصرى أو حجر التست ، وهى واطئة صغيرة لشخص واحد ، ومنه أوان من أشكال شتى وأنواع مختلفة من الحجر ، لتقديم الفاكهة والاطعمة الباردة ، ولحفظ المعطور والحبوب ، وصنوف الدلعم والمشرب المختلفة ، وتمتاز جميعها بدقة صنعها وجمال أشكالها بما يفوق ما صنعته أية أمة أخرى ، وكانت ملكيتها متاحة للطبقة الوسطى ، فضلا عن العليا ، وبخاصة ما كان منها من المرمر المصرى ، وكان القوم يستعملون الصناديق الخشبية ، بدلا من الاصونة (الدواليب) لحفظ الملابس والحلى وأدوات الزينة وكان لهذه الصناديق أرجل ، وهى عادة مستطيلة ولها غطاء مقبب من أحد طرفيه ومسحوب من الطرف الآخر ، وللصندوق منها مزلاجان (اكرتان) ، الواحد فى الجزء المقبب ، والاخر على حافة الصندوق العليا ، ويشد اليهما حبل أو خيط يلف ثم يختم عند قفل الصندوق .

هذا وكان بعض الصناديق التى وحصلتنا من أثاث الملك توت عنخ آمون دون زخرف ، وبعضها شاخر مذهب أو مطعم بأبنرس وعاج أو برما وبقاشانى وزجاج ومرمر مصرى ، وتحلى بعضها سطور منقوشة من كتابه أو رموز شيروغليفية مذهب أو محسوة بمادة ملونة ، ومنها ما نحليه مناظر سيد أو قتال أو صورة الملكة فى ثياب تشف عن جسدها

(٢٩) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٥ ، محمد

بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ١٤١ - ١٤٢ ، وكذا

G. A. Riser and W. S. Smith, A History of the Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.

I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, P. 135-136.

الرشيقي ، تمثلها وهي تهدي الى زوجها الشاب (توت عنخ آمون) باقات من الزهر ، وقد بلغ فيها الفنان غاية الدقة والابداع .

هذا وتدل رسوم الحصر على جدران بعض مصاطب بداية الاسرات، وما يكسو جدران بعض قاعات هرم سقارة المدرج من قراميد صغيرة من القاشاني والابواب الوهمية المحلاة بما يمثل حصيرا ملونا ، على أن من جدران القصور وبيوت العظماء ما كان يحليها من حصر ملون ، ومن نواهلها ما كانت تتدلى عليه ستائر من حصر ذي زخارف مختلفة بألوان شائعة ، وكانت البيوت تحوي أيضا مرايا من معدن مذهب أو مفضض تظهر فيه صورة الناظر كما تظهر في مرايا الزجاج الآن ، ومقابضها في شكل غصن بردي أو في صورة حتمسور الهة الحب أو في هيئة فتاة عارية (٣٠) .

وكانت أرضية غرف الجلوس تغطي بقطع الحصر الملون ، كما كانت تحتوي على القواعد المنبسطة التي كانوا يستدفئون بها شتاء في ساعات الصباح والمساء الباردة ، فضلا عن القناديل التي كانت تستعمل للإنارة، وهي صحاف كانت تملأ بالزيت وتطفئ فيها الذبالة (الفتيلة) توضع أحيانا على قواعد عالية للانتفاع بضوئها الضعيف الى أقصى حد ممكن .

وكانت وجبات الطعام ثلاثا ، وإن كنا لاندرى على وجه اليقين أكانت الوجبة الرئيسية عند الظهر أو في المساء ، وكانوا يتناولون الطعام قبل التعرف على الموائد المرتفعة وهم جلوس على الأرض ، وكان الطعام يوضع على الحصر ، وحين حلت الموائد المرتفعة محل الحصر أو الموائد

(٣٠) محمد أنور شكري : المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٥٩ ، وكذا N de G. Davies, The Mastaba of Ptahhetep and Akhetetep at Saqqarah, I. Pl. 20.

P. Fo. Tutankhamun's Treasure, Pls. 15, 39, 50.

Noblecourt, (ch. D.), Tutankhamen, London, 1963.

وأنظر : الترجمة العربية (كريستيان نوبلكور : توت عنخ آمون - ترجمة أحمد رضا ومحمود النحاس - القاهرة ١٩٧٤ ص ٥٩ وما بعدها .

الخفيفة (الطبلية) اقتعدوا كراسي يتناسب ارتفاعها مع ارتفاع الموائد، ولم تكن الصواني الكبيرة معروفة لخدمة المجموعة ، وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعده ، ويستخدمون لذلك ابريقا وطستا ، وكانت الموائد تزين بالزهور التي توضع كذلك حول جرار النبيذ والجمعة، وكان الطعام الرئيسي الخبز وكان الشراب الجمعة ، وكانت مؤونة الشخص انايين من الجمعة ورغيفين أو ثلاثة أو أربعة ، وكذا بعض الخضر وقطعة أو قطعتين من اللحم ، ان كان ذلك ميسورا ، ولم يمنع هذا ألوانا من الترف لا تقل عما نطعمه اليوم ، ولعل ألد الاطعمة لديهم انما كان الاوز المشوى الذي تظهر له صور كثيرة ، وكان الخبز من أنواع وأشكال عديدة ، كما كانت الانبذة كذلك من درجات متفاوتة^(٣١) .

وكانت المنازل الكبيرة ، وبخاصة منازل الاشراف وعلية القوم،تحتاج الى عدد كبير من الخدم والموظفين يعملون في الداخل وفي الخارج ، فضلا عن أولئك الذين يعملون في المزارع والضياح ، وكانت منازل الاثرياء تضم مشرفين على مخازن الحبوب يقومون بإدارة غرف مخازن المنزل ، ومشرفين على المخابر وعلى معاصر الجمعة ، وكان يقوم على رأس المطبخ مشرف ، وعلى مخازن المشروبات كاتب ، ويضاف الى هؤلاء حارس البيت والقصاب والخباز والبستاني وغيرهم من الخدم الاقل شأنًا ، وكذا العمال والعاملات ، ومنهن بعض السوريات الجميلات اللاتي كن ينتقين لكي يقمن على الخدمة الشخصية لرب البيت ، وكانت المطابخ تردحم بالرجال والنساء من الخدم ، وكان الشواء يتم على موقد مملوء بالفحم الملتهب ، ويدار اللحم على سفود أفقى^(٣٢) .

(٣١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩

(٣٢) محرم كمال : تاريخ الحضارة المصرية ، ص ١٤٨

الفصل الثالث

طبقات المجتمع المصرى القديم

شبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع المصرى القديم بالهرم ، ثم وضع فى أعلى الهرم ، هرم صغير مستقل ، رأى أنه يمثل الملك الذى يحكم فوق وزرائه ، الذين كانوا بدورهم فوق حكام الأقاليم ، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى ، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء الذين كانوا بدورهم فوق الفنانين وصغار التجار والعمال والفلاحين ، أما عن التنظيم الدينى فكان فرعون هو حلقه الاتصال الوحيدة مع الآلهة ، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب ، وهذه التسبيلات الهرمية ليست فى الحقيقة الأشياء واحدا ، لأن كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة انما كانوا فى درجة واحدة ، فقد كانوا جميعا يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة ، وكان ينيبهم عنه فى تادية المهام الخاصة به^(١) ، وهكذا كن المجتمع المصرى القديم يتكون فى أول أمره من طبقتين بينهما فرق واضح ، طبقة عليا وهى الحاكمه ، على رأسها فرعون وأسرته وحاشيته ، ومن حولهم كبار موظفى الدولة وامراء الأقاليم وكبار الكهنة ، ثم طبقة دنيا وهى العاملة المخادحة تتكون من عمال الزراعة والصناعة والصيادين والملاحين والرعاة والخدم وجميع أصحاب الحرف الذين يعملون فى الخدمات العامة والخاصة^(٢) .

١) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1964, P. 73.

(٢) لم يتفق الكتاب القدامى على تحديد عدد طبقات المجتمع المصرى القديم ، فجعلها بعضهم ثلاثا ، وبعضهم الاخر سنا ، وجعلها آخرون سبعا ، وأرقى تلك الطبقات اثنتان ، طبقة الكهان وكانوا أغنى الطبقات مالا وأعلىها قدرا ، وأقواها نفوذا ، وأعظمها حظا من الثقافة ، ثم طبقة المحاربين ، ويسمىهم هيرودوت « كلاسيرس » وكانوا غالبا فى الدلنا ذات الابواب المفتوحة للدفاع عنها ، وكانوا يقطعون أرضا يرتزقون

وتشير آثار الادباء والحكماء وأصحاب التأملات الى هذا النظام الطبقي ، ومنهم حكيم الثورة الاجتماعية الاولى «اييو - ور» الذي حدثنا كيف ساد الوضع على الرفيع ، وكيف أن الذين لم تكن لهم أسر معروفة قد أصبحوا من أصحاب اليسار ، وكيف أخذت محن الجوع والفقر بأبناء البيوتات من جميع أقطارهم ، يقول الحكيم المصري «انظر : لقد حدث هذا بين الناس ، فمن لم يكن في قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناء مسورا ، انظر : ان النبيلات يرقدن الآن على الفراش الخشن ، والامراء ينامون في المخزن ، ومن لم يكن ميسرا له أن ينام على الجدران ، أصبح الآن صاحب فراش وثير ، انظر : ان الرجل الغنى أمسى يمضى ليله ظمآن ، ومن كان يستجدي بقية سوره أصبح يمتلك جعة قوية ، انظر ، ان الذين كانوا يلبسون الملابس الفخمة أصبحوا الآن في خرق بالية»^(٣) ، ولعل هذا انما يشير الى أن حكيمنا المصري ربما كان من طبقة ارسقراطية ، ومن ثم فلم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة عنها الى غيرها أقل منها منزلة ومكانة في المجتمع المصري القديم .

وتقدمت الحياة بالناس الى زمن الدولة الوسطى ، ونشأت بين الطبقتين المذكورتين طبقة ثالثة ، هي الطبقة الوسطى ، طبقة حرة قوامها صغار الموظفين والتجار وأصحاب الحرف الممتازة ، واذا كان

منها ، كما كانوا يعملون في خدمة الملك ، ثم تاتي طبقة رعاية البقر والخنازير ، وكان رعاية الخنازير أحط الطبقات ، وهناك طبقة التجار وطبقة التراجمة ، وأخيرا رجال الملاحه وطبقة عمال زراعة ، ونلاحظ أن هذا التحديد ، على اختلاف الاراء فيه ، لا يمكن أن يكون مضبوطا ، إذ ينبغي أن يكون أكثر من ذلك عدا (هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وكذا

(Didorus, I, 73, 2.

3) A. H. Gardiner, Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, P. 10-11.

وانظر : محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفراعنة ص ١٣٣ - ١٣٤ .

بعض الباحثين يحاول انكار هذه الطبقة ، فان منطق الحياة قد يهتم وجودها ، ذلك لاننا اذا سلمنا بوجود طبقة الاشراف الحاكمين من أعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الرأي فيها ، وسلمنا بوجود طبقة عاملة من الزراع والعمال الكادحين وأصحاب الحرف المختلفة ، فان منطق الاشياء يقتضينا أن نفترض وجود طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء ، والا فإين نضع صغار الموظفين وصغار رجال الجيش ومن يماثل أولئك وهؤلاء من الناس^(٤) ، ولنتحدث الان عن طبقات المجتمع المصرى الثلاث :

(١) الطبقة العليا :

كان على رأس هذه الطبقة فرعون الذى آمن المصريون القدامى ، راغبين أكثر منهم مكرمين ، بأنه اله تكرم وأقام فوق أرض مصر ليحكم الناس بمقتضى الحق الالهى الموروث ، وليدبر أمورهم وفقا لمشيئة الله ، فدانوا لسلطانه فى الدنيا وآمنوا باستئنائه فى الآخرة ، وكانوا يدعوه الاله الطيب فى حياته ، والاله العظيم بعد مماته ، فهو الاله الصقر («حور» الذى تجسم فى هيئة بشرية - ومن ثم فهو ، فى نظر رعاياه ، اله حى فى شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الالهة فيما لهم من حقوق ، فله حق الاتصال بهم ، كما له على شعبه ما لغيره من الالهة من التقديس والمهابة ، وفى الواقع أن هذا أمرا لم تنفرد به مصر بين بلاد العالم ، وإنما هو شئ كان يسود أهم الدنيا المعروفة فى العصور القديمة ، أو يكاد .

على أن فرعون رغم هذه المكانة المقدسة التى كان يحتلها ، لم يعيش فى برج من عاج ، ولم يعزل نفسه عن شعبه ، بل كان شديد الاتصال به ، ذلك أنه على الرغم من الحقوق التى كان يتمتع بها فرعون ، كان عليه عدة واجبات ، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة والطامعة فى خيراتها ، ثم يستمع لشكوى الناس ، ويعنى بشئونهم ، ويهتم بمراقبة موظفيه ورعايتهم ، ويجزل

(٤) أحد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٤٧

العطاء لمن أخلص منهم ، فأحسن وأجاد ، ثم هو يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع وإقامة الجسور لتيسير فلاحه الأرض وزراعتها ، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان ، وتشجيع الصناعات والفنانين ، فضلا عن القيام بواجبه نحو الآلهة ، فإن أهمل ذلك حق للآلهة ألا تعترف به كواحد منها ، فأما بلاطه فكان مكونا من حاشية كبيرة من عظماء أمته ، والمقدمين من أمراء جنده ، وكبار كهنته ، يستشيرهم في أمور دولته ، ويستعين بهم على تبرير شئون شعبه ، وهكذا يبدو واضحا أن الملكية ، وإن أفادت على الملك ثوبا من القداسة ، فقد حددت ، في الوقت نفسه ، من سلطانه ، بما فرضت عليه من واجبات ، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد بالتفصيل .

هذا وقد كان للملك وضع خاص بين رعاياه ، ربما يبعده عن وضع الطبقات التي كان يتكون منها المجتمع المصري ، فقد كان القوم يعتقدون أنه إله ، وليس بشرا ، ورغم ذلك فهناك نصوص ، وإن كانت نادرة ، إلا أنها تكشف في ومضات قصيرة عما كانت تنطوي عليه نفس هذا الإله من مشاعر نبيلة ولمسات إنسانية نحو رعاياه ، تبدو في بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة ، فهناك نبوءة «نفرتي» والتي تتحدث عن الملك «سنفرو» على أنه كان ملكا محسنا ، وأنه حين يخاطب أحد رجال رعيته يقول له «يا صاحبي» ، وحين يوجه حديثه إلى أحد رجال بلاطه مخاطبا إياهم بقوله «يا اخواني» ثم حين ينتزل من عليائه الإلهية ليقوم بعمل كاتب ، فيمد يده إلى صندوق مواد الكتابة ويأخذ قرطاسا وقلمًا ومدادا ، ثم يدون ما تحدث به الكاهن المرتل «باست»⁵⁾ ، كل ذلك يجعل هذا الفرعون فريدا بين أقرانه .

وربما أراد نفرتي بذلك الدعاية للملك قادم يأمل القوم أن يكون على

5) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, P. 112.

هذه الصفات ، وأن نفرتى قد ذكرها لتكون هديا للملك القادم فى معاملة رعاياه ، قد يكون ذلك ، وقد لا يكون ، ولكنها مع ذلك تشير ولو بطريق الاساطير الشعبية ، أن هناك من الفراعين من يعاملون رعاياهم بالود والحنان ، ولعل هذا يفسر لنا أسباب تلك المكانة التى كان يحتلها «سنفرو» فى نفوس رعاياه ، حتى استمرت عبادته فى أكثر من مدينة مصرية حتى عصر البطالة ، وقد احتفظوا له بذكرى طيبة ، ومن ثم فقد صورته آدابهم الشعبية متواضعا ، يميل الى المعرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستماع اليهم ، ويكتب بنفسه ، كما وصفوه بأنه « ملك فاضل » (٦) .

وهناك ما يروى عن « نفر اير كارع » ثالث ملوك الاسرة الخامسة من أنه لم يترفع عن أن يترضى أحد رجاله (رع ور) عندما لطمت عصا الفرعون ساقه عن غير قصد ، بل انه يأمر بان ينقش ذلك على حجر يوضع فى قبر « رع ور » وهناك قصة أخرى تبين مدى حزن الفرعون نفسه على مدى ما أصاب وزيره « وائش بتاح » الذى وافته منيته فجأة عندما كان فرعون يتفقد وربما يفتتح أحد المنشآت الملكية ، وأن الملك حاول اسعائه ولكنه فشل ، ثم عاد الى حجرته يدعو ربه رع أن يشمل وزيره برحمته ، ثم سمح لولده أن يسجل ذلك كله على قبره الذى منحه اياه (٧) ، وهناك كذلك فراعين كانوا يرأسلون وزراءهم ويردون على رسائلهم بخط أيديهم ، ومن ذلك ماكتبه الملك « جد كارع » (اسيسى) الى وزيره « شيسرع » حيث يقول : « الحق أن رع أكرمنى بأن وهبنى اياك » (٨) ، وان رأى « فيكتنيف » فى حسوث واقعتى « رع ور » و « وائش بتاح » فى عهد ملك واحد (نفر اير كارع) ما يدل على أن لفرعون مصلحة فيهما ، وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين ، فنحس

(٦) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة ص ٧٦ - ٧٧ .

7) J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 242-249.

8) Urk., I, 179.

أحدهما بعصاه التي ربما كانت مسمومة ، وسم الآخر بطريقة ما ، ثم أظهر حزنه عليه ، وان كنت أميل إلى أن الحادثين لا يستحقان كل هذه التخمينات التي ذهب إليها « فيكتيف » ، وليس بدعا أن يكرم الفرعون موظفيه العاملين والمقربين إليه بعد وفاتهم .

وأيا ما كان الامر ، فلقد كانت الطبقة الحاكمة ترتبط بالملك بروابط كثيرة ، ففي النصف الاول من الدولة القديمة كان الامراء يعينون في مناصب الوزارة ، وأكثرهم من أبناء الملك أو من ذوي قرباء ، كما حدثت مصاهرات بين أفراد البيت المالكة وبين أفراد من الشعب ، كما حدث في زواج « بتاح شبسس » من « خع ماعة » ابنة « شبسكاف »^(٩) ، وزواج « ببي الاول » من ابنة أمير أبيدوس ، وهكذا فان وجود أبناء الملك وأقاربه يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الأخرى غير واضح المعالم ، ولكن من ناحية أخرى ، فقد كانت الطبقة الحاكمة بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته ، وأنها تمكنت من احتلال المناصب الكبيرة ، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفا على الملوك دون سواهم^(١٠) .

وكان هؤلاء الحكام ومن حولهم حاشيتهم من كبار الموظفين يعيشون عيشةترف ورفاهية ، فيسكنون الدور القخمة ، ويقتنون الضياع الواسعة ويقيمون الولائم المترفة ، ويتنقلون في محفلات تحمل على أكتاف الرجال ، حتى اذا ما كانت أيام الدولة الحديثة^(١١) . وعرفت مصر الخيل والعجلات استبدلوا بها المحفلات وابتاتوا ينتقلون عليها ، ويمارسون فوقها ألوان المفروسية والصيد والرياضة ، ويستروحون عليها بين المزارع والحقول وعلى شواطئ النهر .

9) J. H. Breasted, Op. Cit., Parag. 257.

(١٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٧٨ - ٧٩ ، وكذا J.A. Wilson, Op. Cit., P. 75.

(١١) هناك في التوراة ما يشير إلى أن القوم قد أستعملوا المركبات منذ عهد الهكموس (تكوين ٤١ : ٤٣)

وكان لكبار الكهنة مركزا ممتازا لدى الشعب ، وهيبة كبيرة ، وكانوا يبرعون كثيرا في اخضاع سلطان الدين لكثير من التاويل والتعقيد : ويحتفظون بأسرار تعاليمهم الدينية ، ويزعمون القدرة على استددام السحر ، كما كانوا متبحرين في العلم والمعرفة مما يسر أمورهم وسهل سيطرتهم على الشعب ، وزاد في هيبتهم وسلطانهم ، كما بنفوا جانبها كبيرا من الثراء (١٢) ، وبخاصة كهانة آمون التي تضخمت ثرواتها ، وبمرور الزمن تكونت في مصر ملكية خاصة بالاله آمون ، منفصلة عن أملاك هرعون ، بل أنها لم تكن مقصورة على مصر وحدها وإنما امتدت الى النوبة التي كاد أن يصبح ذهبها وقفا على الاله آمون .

واستغل كهان آمون ذلك كله في توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم ، حتى بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أمثالهم في العالم المعروف وقت ذاك ، فغالوا نصيبا من الكوز التي سلبت من العدو ، ومعابد بأوقافها من الاراضي في الاقاليم المستولى عليها ، هذا فضلا عن هرق من الاسرى لاجل اعمال السخرة ، ومبان ملكية حول المعبد ، وطلعت شهرة آمون فعمت البلاد ، بحيث لم يعد لارباب الاقليم شيء من قوة ، الا في بلاطه وتحت رايته (١٣) ، حتى انتهى الامر بكهانة آمون الى القبض على زمام الحكم في البلاد بقيام دولة الكهنة في أعقاب الاسرة العشرين (١٤) ، وان كانت هناك آراء تذهب الى غير ذلك (١٥) .

(٢) الطبقة الوسطى :

لم يكن هناك نظم طبقات صريح يظل فيه النبلاء والصناع

(١٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار المرجع السابق ص

٥٠ - ٥١ .

(١٣) سيرج سونيرون : كهان مصر القديمة ص ١٩٧

(١٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر

رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ .

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٣٤٠

٣٤٨ -

والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلا بعد جيل ، فكان المجتمع ينظم على أساس استمرار الاشياء الموروثة ، فيستمر ابن الفلاح ليكون فلاحا ، ونتوقع منه أن ينجب أبناء يعملون فلاحين ، والامر كذلك في طبقة النبلاء ، ولكن المصريين كانوا عمليين متسامحين ، ومن ثم فلم يجبروا شخصا على أن يظل أبد الدهر في طبقته التي توارثها اذا وافته الفرصة أو الضرورة للتغيير ، هفى العصور التي نمت فيها الدولة وتقدمت كانت البلاد في حاجة الى خدمات الرجال ذوي المقدرة الذين يعتمد عليهم ، هفى مثل تلك العصور يمكن أن يوجد الصناعات بين الفلاحين ويصبح خدم المنازل عمالا مهرة ، ثم يكافأون بالامتلاك والوظائف والمميزات ، ومن ثم يصبحون ضمن زمرة الارستقراطيين^(١٦) .

وهناك أمثلة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين الى طبقة كبار الموظفين في الدولة ، فهناك مثلا « ونى » الذى يفهم من نصه المشهور الذى تركه لنا على لوحة بقبيره فى أبيجوس^(١٧) أنه نشأ نشأة مواضعة ، ثم استطاع أن يرتفع الى أحد المراكز المرموقة فى البلاد ، ذلك أنه بعد أن خدم كموظف صغير فى عهد « تنى » مؤسس الاسرة السادسة ، ارتفع فى عهد « بى الاول » الى أن يصبح سميرا ، أو رجل بلاط مقرب ، وقد صاحب هذا التشرىف تعيينه فى مركز كهنوتى فى مدينة هرمه ، وسرعان ما كسب ثقة الملك الذى عينه عقب ذلك قاضيا ، وقد برز فى هذا العمل فظهرت قدرته كمساعد للوزير ، ليستمع الى قضايا مؤامرة أفرخت فى الحريم الملكى والستة بيوت الكبرى (قضية الملكة ايمتس) ، وحين أنهى هذا الواجب الهام أصبح القائد العام لخمس حملات جريئة أرسلها الملك الى آسيا ، واحدة منها كانت برية وبحرية معا ، حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة ، وقد كتب له فيها جميعا نجحا بعيد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، ثم أصبح فى عهد « مرى ان رع » حاكم

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 75.

17) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 134-135, 140-144, 146-150.

المصعيد ، وأنهى حياته مؤدبا لابناء الملك ، ورقيقا في مخدعه (١٨) .

وهناك مثل آخر من حياة المهندس المعمارى « نخبو » الذى يرون أن فرعون وجد فيه بناء جادا ، ثم رقاء الى وظيفة مفتش بنائين ثم مشرفا على طائفته ، ثم رفعه جلالته الى مصمم وبناء للملك ، ثم مصمم وبناء ملكى تحت اشراف الملك ثم رقاء جلالته الى وظائف الرفيق الوحيد ومصمم وبناء الملك فى البيتين . لان جلالته كان يعطف عليه كثيرا (١٩) .

وسواء تمت هذه الترقيات بعطف من الملك ، كما يذكر نخبو ، أو بجدارة كل منهما ، أو حتى بالميراث ، وهذا ما لا ينطبق على « ونى » على الاقل فان ذلك يدل على أن الوظائف انما كانت متاحة لكل من تتوفر فيه الصفات اللازمة لشغل هذه الوظائف ، مما أدى آخر الامر الى أن يرتفع بعض أبناء الطبقة الدنيا الى طبقة أعلى ، وفى عهد الدولة الحديثة نرى الكثير من نصوص الاسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميتهم ، وبأن الواحد منهم انما قد بدأ وظيفته « دونما تأثير من أقاربه » أو أنه « من أسرة غير ميسر عليها فى الرزق كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه فى مدينته » .

وهكذا ظهرت طبقة وسطى قوامها الطبقة الوسطى من المواطنين ، فضلا عن صغار ملاك الاراضى الزراعية وأصحاب الحرف الممتازة وهؤلاء انما كانوا من الفنانين والصناع ، ولعل السبب انما يرجع الى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة للحضارة المصرية ، تلك الحضارة التى كانت فى أخص صفاتها حضارة فنية راقية ، وفنونها وصناعاتها هى أجل ما امتازت به ، حتى لا يعادلها ، فيما يرى البعض : شئ من

(١٨) محمد د. د. د. : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٤٦ - ٥٠ وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 95-96.

19) D. Dunham, The Biographical Inscriptions of Nekhebu, JEA, 24, 1938, P. 4-5.

عقائدها وآدابها وعلومها ، ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه لكان من المستحيل أن يبلغا ذروة الابداع مع كثرة الانتاج ، كثرة لا يدانيها انتاج أية أمة أخرى ، وليس أدل على قيمة الفن والفنان من أن رئيس كهنة منف كان يعد في عهد الدولة القديمة رئيسا أعلى للفنانين ، ويحمل لقب المشرف العام على الفنانين ، ويبدو أنه كان فعلا يزاوِل هذه المهنة^(٢٠) والسبب الذي جعل هذا الكاهن العظيم يشرف على رجال الفن أن الاله « بتاح » اله منف انما كان يعتبر بمثابة الفنان بين الالهة المصرية ، ومن ثم فقد تحتم على كبير كهنة هذا الاله أن يكون أكبر فنان في مصر ، كما تحتم على كهنة آلهة الحق والعدالة أن يكونوا المشرفين على أعمال القضاء ، وقد استمر اشراف كبير كهنة بتاح على أهل الفن في مصر طوال العصور التي بقى فيها بتاح رب منف^(٢١) .

كان المرجو أن تكون حياة الصانع والفنانين ميسرة ، جزاء لما أنتجوا من فن رائع ، ولكن ليس هناك من دليل على أنهم كانوا من أهل اليسار ، وان لم يكونوا في معيشة ضنكا ، كبقية الطبقة العاملة ، وقد وضعهم « جيمس هنرى برستد » الذي قسم المجتمع الى أمراء وعبيد ، بين هاتين الطبقتين ، ودعاهم بالطبقة الوسطى التي احتكرت الصناعات والفنون الجميلة وبرعت فيها كثيرا^(٢٢) ، وقد كانت هذه الطبقة بمثابة حلقة اتصال بين الحاكمين والمحكومين ، فهي أصلا من المحكومين ، ولكنها تحتك كثيرا بالحاكمين بسبب طبيعة عملها ، فهي تحس بالآلام المحكومين وما يلاقونه من شظف العيش وعنت الحياة ، وترى بأعينها ما ينعم به الثروة من القوم من متع الحياة وزخرفها ، واننى لاميل كثيرا الى أنها غالبا ، كغيرها من أبناء الطبقة الوسطى ، لم تفسد عن انغماس في الشهوات ، وهى في نفس الوقت لم تنزل عن فقر واملاق ، ومن ثم فان

(٢٠) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٢١) أدولف أرمان وهرمان رانك : المرجع السابق ص ٤٨٥ .

22) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 83.

الطبقة الوسطى في كل الشعوب انما هي في الغالب تحمل سمات المجتمع وما فيه من نقائص وعيوب ، وكذا بما فيه من حسنات وأفضال .

هذا وقد دأب أهل الطبقة الوسطى على ارسال أولادهم في سن مبكرة الى المدارس التابعة لمصالح الحكومة وغيرها من مدارس اعداد الموظفين لتأهيل أنفسهم لمهنة الكاتب ، والحياة التي تقتضيها ظروف وظيفته ، وكان صغار الموظفين والكتبة الذين يعملون في الحكومة المركزية أو الادارات المحلية أو المضياع الكبيرة من أسعد أفراد الطبقة الوسطى حالا ، فهم أهل المعرفة والخبرة ، وأصحاب العلم والثقافة ، وبين أيدينا طائفة من المتعاليم التي كان يوجهها الآباء الى الابناء ، يوضحون لهم فيها أن مهنة الكاتب مهنة راقية تفوق جميع المهن الاخرى ، ومنها وصية « خيتى بن دواوف » الى ولده «بى» بثها اياه حين صاحبه ليلحقه بالمدرسة ، فبين له فيها قيمة التعليم ، وما يمكن أن يكون له من نتائج خطيرة في حياة الناس ، فهو يغريه بما ينتظره من مستقبل عظيم ، وينبئه أن التعليم يؤهله لان يكون رئيسا لمجلس الاعيان (مجلس الثلاثين ، والذي خلف مجلس عشرة الصعيد العظام) ثم يصور له قبح الجهل ، ويغريه بالعلم ويحبه الى نفسه ، ويوصيه بأن « يضع قلبه وراء الكتب » وأن « يحبها كما يحب أمه » لان مهنة الكاتب تفوق كل مهنة في هذه الدنيا ، مقدرا له أنه اذا بلغها فسوف يصبح من سعداء الدارين ، شارحا له أن المتعلم لن تستطيع الدولة أن تسخره في عمل شاق ، وانما يعفى من ذلك كله لانه متعلم ، ثم أخذ الرجل بعد ذلك يقبح لولده المهن الاخرى كصناعة النحاس والنجارة والتجارة والبستنة والفلاحة والدباغة وخرب الطوب وصيد الطيور وغسل الملابس وغيرها من الصناعات (٢٣) .

(٢٣) انظر

A. Erman, LAE, 1927, P. 67-72.

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 329-336.

وكذا

وفي تراث المصريين كثير من أمثال تلك الوصية ، وبخاصة في عهد الدولة الحديثة التي ازدادت فيها الحاجة الى الموظفين ، نظرا لاتساع الدولة في الداخل والخارج وتضخم أعبائها ، وحسن ألهمت قصص البطولة نفوس الشباب بين أيدي الجنود العائدين من آسيا ، ودفعتهم الى الانخراط في صفوف الجيش ، انزعج أدباء العصر وأصحاب المعرفة والثقافة من اقبال الشباب على الجندية ، وانصرفهم عن صناعة الكتابة ، وأخذوا يسطرون القصص والطوال من المقطوعات الادبية ، يصورون فيها الحياة الخسنة التي يحياها الجندي ، ويحذرون الشباب من الاندفاع في هذا السبيل ، ويرغبونهم في الوظائف الكتابية ، ومن ذلك ما جاء في بردية « أنسطاسي » حين اخذ الكاتب يقبح كافة المهن ويعدد مساوئها ، ثم يختم حديثه بقوله « بيد أن الكاتب هو الذي يرأس أعمال جميع الناس ، وهو معفى من الضريبة ، لانه يؤديها عملا عن طريق معرفته ولن يكون مستحقا عليه شيء ، وعليك أيها الكاتب أن تظن الى ذلك وتترع من فكرك أن الجندي أحسن حالا من الكاتب » .

ويقول آخر لولده وهو يعظه « أنظر ليست هناك طبقة غير محكومة أما الكاتب فقط فهو الذي يحكم نفسه » ويقول آخر لولده كذلك « وطن نفسك على أن تكون كاتباً حتى تستطيع أن تدبر أمور العالم كله » ، وأخيراً ينصح شيخ ولده قائلا « لكن كاتباً لتعفى من السخرة ، وتحمى نفسك من كل عمل شاق ، فالكاتب يتخلص من العزق بالفأس ، ويكون في غنى عن حمل السلال ، ان مهنة الكاتب تخلصك من تحريك المجذاف ولا تسبب لك هما ولا نكدًا ، ولا يكون لك فيها رؤساء كثيرون ، واعلم أن مهنة الكاتب تكسب صاحبها غنى ومالا ، فالتعلم يصبح عن طريق عمله ، ومهنته عظيما ، بل ان زينة صاحبها من أدوات وقراطيس انما تخلق البهجة والسرور (٢٤) » .

(٢٤) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٥١ - ١٥٥ ، وكذا .

(٣) الطبقة الدنيا :

وتشمل التجار والعمال والفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة كالنجار والحلاق والبستاني وصانع السهام وطواف البريد والدباغ والاسكافي وغيرهم ، أما طبقة التجار ، فالمقصود بهم هنا أولئك الذين كانوا يعملون في التجارة الداخلية ، والتي كانت محدودة الى حد كبير ، ولذا فان النصوص لا تتحدث عن التجار مما يدل على أن التجارة الداخلية في مصر القديمة ابان تلك الفترة لم تكن ذات أهمية ، اذ أنها لا تعدو المعاملات المحدودة والتي تجرى في الاسواق المحلية ، وقد رأينا حكيما ينصح ولده بالآ يكون تاجرا يجب الوادى متنقلا بين أقاليمة ومدائنه وقراه ، معرضا نفسه لآخطار الطريق وما يلقي في ذلك من أذى الهوام والحشرات ، في سبيل الحصول على ربح تافه يكاد لا يضمن ولا يغنى من جوع .

وأما طبقة العمال ، فهم الذين كانوا يعملون في المناجم والمحاجر وغيرها ، وفي بناء الاهرامات والمقابر والمعابد ، وكانت الدولة هي التي تحتكر استغلال ، المناجم والمحاجر ، وهي التي تشرف على العمال بطريقة تضمن العناية بهم والسهر على مصلحتهم ، فكانت تجند طوائف من العمال المختصين تحت اشراف رؤساء للعمال ومفتشين ، وتعمل على نقلهم تحت حماية جندها الى مقر أعمالهم في الصحراوات المصرية ، وقد كان العمال يقسمون الى فرق ثم الى زمر ، وكانت كل فرقة تحمل اسما معيناً ، وكان هناك كاتب يسجل أسماء كل فرقة ، كما يسجل عملها وتاريخ انجازه ، هذا الى جانب مفتشين يمرون يوميا أو أسبوعيا، وقد عثر في منطقة الاهرام على مساكن للعمال الذين بنوا هذه الشوامخ ، وهي قاعات ضيقة طويلة يبلغ عددها قرابة المائة ، يتسع كل منها لنحو

=

A. Blakman and E. T. Pect, JEA, XI, 1925, P. 290-291.

Van de Walie, La Transmission des Textes Literture Egyptians, Bruxelles, 1948, P. 47.

خمسین عاملاً^(٢٥) ، وقد أسهمت طبقة العمال بنصيب وافر في بناء هذه الشوامخ من الاهرامات الخالدة والمعابد والمقابر البديعة ، مما يثبت تلك الانتصارات المادية التي لم يسبق لها مثيل ، ذلك لانه لم يوجد شعب آخر في بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره ، مثل ما ناله المصريون القدامى في وادي النيل ، فقد بنى القوم بنشاطهم الجرم صرحا من المدنية المادية ظهر أن الزمن يعجز عن محوه تماما^(٢٦) .

غير أنه رغم هذا الجهد العظيم ، فإن طبقة العمال لم تعيش حياة تتفق والمجد الذي حققته للمدنية المصرية ، ربما كان النظام الدقيق الذي اتبع مع العمال قد أعطاهم بعض حقهم ، وضمن لهم مأكلا وملبسا ، وربما كانوا أحسن حالا من الفلاحين ، حتى أن حكيم الثورة الاجتماعية « ايبو — ور » عندما أراد أن يبين أن الصناعة قد تعطلت ، وأن الفنون قد أفسدها أعداء البلاد ، انما يقول « حقا قد أصبح بناء الاهرام فلاحين »^(٢٧) ، وربما كان هذا دليلا على أن المشتغلين في بناء الاهرام من العمال أفضل حالا من المشتغلين بالفلاحة ، كما أنهم كانوا يأخذون أجرا في مقابل عملهم ، فهناك نصوص كثيرة نقشت على مقابر القوم تدل عباراتها على أن العامل انما كان يعمل دائما بأجر ، ولا يجبره أحد على عمل يكرهه ، من ذلك ما نقرؤه على قاعدة تمثال جنزى «لقد طلبت الى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل ، وكان راضيا عن الاجر الذي دفعته له » .

ويقول مدير ضيعة يدعى «منى» من الاسرة الرابعة «ان كل رجل عمل في تشييد قبرى هذا ، سواء أكان صانعا أو حجارا فلقد

(٢٥) أنظر عن منازل العمال في اللاهون والعمارنة ما سبق هنا ص ٨٤ — ٨٦ .
 (٢٦) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115-116.
 (٢٧) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٢ ، وكذا A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage. P. 32.
 وكذا G. A. Reisner, Mycerinus, 1931, P. 257.

أرضيته عن عمله » ، مما يشير الى أن كلا من هذين الرجلين انما اراد أن يعلن أنه قد حصل على معداته الجنزوية من طريق شريف ، وأن كل من عمل في اعدادها قد أخذ أجره ، كاملا غير منقوص ، ومنها ما نقرؤه «جميع من عملوا في هذه المقبرة قد نالوا أجرهم كاملا ، من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح ، وبكميات وافرة ، كما أننى لم اكره أحدا على العمل » ، هذا فضلا عن أن الملك «منكاورع» كان قد أمر ببناء مقبرة لأحد رجال بلاطه ، وقد عمل فيها خمسون عاملا ، وقد جاء في النص الذى يروى هذا الحادث أن فرعون «أمر ألا يسخر أحد في هذا العمل، فضلا عن عدم اكراه العمال في أى عمل» (٢٨) .

وهناك ما يشير الى أن أحوال طبقة العمال انما قد تحسنت كثيرا في الدولة الحديثة ، فقد كان عمال الجبانة الملكية في طيبة الغربية يتكونون من مجموعات خاصة من الرجال الذين عاشوا ، وكذا أسلافهم من قبل ، لعدة أجيال مضت في نفس القرية بجبانة طيبة يعملون في نحت وزخرفة متابر الفراعين ، الذين كانوا يعتبرون عملهم هذا في منتهى الأهمية ، فقد كان من أهم الاهداف التى كان القوم يعيشون من أجلها، اعداد حياة الفرعون الخاصة بعد الموت ، بصفته «الاله الطيب» بين الالهة العظام ، ومن هنا فقد كان هؤلاء الرجال الذين يؤدون هذه المهمة العظيمة أبعد مايكونوا أقل رعايا الفرعون حظا ، بل أن من المشرفين على بناء المقابر الملكية من وصل الى مركز هام في الدولة (٢٩) .

وعلى أى حال ، فلقد كان هؤلاء العمال يقسمون الى فرق ، كل فرقة تنقسم الى قسمين ، على رأس كل منهما مقدم عمال ، كان يلقب «كبير الفرقة أو الجانب» ، وكان لكل مقدم وكيل يعاونه في مهمته ،

28) J. Pirenne, Op. Cit., II, P. 321

J. H. Breasted, ARE, I, P. 95, 114.

- A. Volten, Acta Orientalia, 9, 1931, P. 370.

29) W. F. Edgerton, The Strikes in Ramesses III's Twenty-Ninth Year. JNES, 10, 1951, P. 137.

كما كان هناك كاتب يحتفظ بسجل يسجل فيه ما أنجز من العمل ، فضلا عن أسماء العمال الذين تخلفوا وأسباب تخلفهم ، وكان الكثير منهم مثال الجد والاجتهاد ، يكاد الواحد منهم لا يتخلف يوما طوال أيام السنة ، على حين جانب البعض التوفيق ، فانقطعوا أكثر من نصف شهر ، وكانت أعذار التخلف كثيرة كالمرض ولدغة العقرب ، وإن كنا نجد في القليل النادر الكسل قد ذكر أمام بعض الاسماء ، وهناك عدد من العمال كانوا أتقياء ورعين ، ومن ثم فقد تفييسوا بسبب تقديم القرابين للالهة ، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة سببا كاهيا ، وإن يكن غريبا ، يسوغ أحيانا التخلف عن العمل .

هذا وقد كان من المتبع أن يستمر العمل طوال أيام السنة ، ويمنح العمال في كل شهر ثلاثة أيام كعطلة ، كانت تقسم في اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، كما كان العمال يمنحون إجازات في المناسبات الخاصة بالاعياد الكبرى للالهة الرئيسية ، وكانت كثيرا ما تصل الى أيام متتالية ، وكان العمال يأخذون أجرهم على عهدهم حبوبا ، من قمح أو شعير ، فضلا عما كانوا يتقاضونه من تعينات منتظمة ، فقد كانوا يمنحون من وقت لآخر ، وفي مناسبات خاصة مسافات من فرعون ، وتشمل النبيذ والملح والفترون (وكان يستخدم بدلا من الصابون) ، وجعة آسيوية مستوردة ولحوم . فضلا عن بعض الكماليات الأخرى المتشابهة⁽³⁰⁾ .

وهكذا يمكن القول أن هؤلاء العمال لم يكونوا مسخرين في العمل في المقابر الملكية ، وإنما كانوا يعملون لقاء أجر ، ويمنحون المسافات في المناسبات الرسمية ، كما كان البعض منهم يتخلف لأسباب مرضية . بل أننا نرى الفراعين ينفرون بمعاملتهم بغير حق وسخاء . فها هو « سيدتي الاول » من الأسرة التاسعة عشرة يحدثنا عن بعض حاله . من أن «

30) J. Cerny, Egypt from The Death of Ramesses, III, to the End of the Twenty-first Dynasty Cambridge, 1965, P. 18-21.

منهم انما كان يتقاضى أربعة أرتال خبز ، وحزمتين من الخضروات ، وقطعة من اللحم المشوى كل يوم ، وثوباً من الكتان النظيف مرتين كل شهر^(٣١) ، وفي الواقع ان كان مايقوله « سیتی الاول » صحيحاً ، لكان عماله يعيشون في مستوى قد لا يقل كثيراً عن مستوى العمال في العصر الحديث .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الوثائق لم تصدنا عن شكايات من التعمينات أو تأخر الرواتب قبل أخريات عهد رعمسيس الثالث ، وربما كان ذلك بسبب الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها البلاد ، وربما بسبب عدم أمانة الموظفين ، وربما بسبب تلك المنازعات السياسية التي بدأت تظهر في أخريات أيام رعمسيس الثالث^(٣٢) ، وإن ذهب البعض الى أن السبب انما كان وباء علما اجتاح البلاد ، مما جعل الحكومة تفشل في أن تمد عمال دير المدينة بطيبة الغربية بمخصصاتهم^(٣٣) ، الامر الذي جعلهم يقومون بأول اضراب وصلتنا أخباره في التاريخ ، ذلك «أنه في اليوم العاشر من الفصل الثاني من الشهر الثاني من العام التاسع والعشرين من عهد رعمسيس الثالث اخترق فريق من العمال في الجبانة الاسوار الخمسة صائحين نحن جياع» ، وتجمهروا خوف معبد تحوتمس الثالث الجنازي ، ولم يعودوا الى منازلهم الا عندما حل الليل ، رغم الوعود بأن أمرا من الفرعون قد صدر باجابة مطالبهم ، وفي اليوم التالي تقدموا حتى بوابة الحدود الشمالية لمعبد الرمسيوم ، ولكنهم في اليوم الثالث وصلوا الى المعبد نفسه وقضوا الليل في فوضى عند بوابته ثم دخلوا المعبد نفسه .

وعندئذ تطور الموقف فأخذ مظهرها خطيرا مهددا ، فقد كان العمال

31) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 414.

(٣٢) محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجي في مصر رعمسيس الثالث ص ٢٨١ - ٢٨٤ .

33) E. F. Wente, A Letter of Complaint to The Vizier (To), in JNES, 20, 1961, P. 252.

المضربون مصممين على موقفهم ، لكنهم لم يخرجوا على النظام ، وكان هجومهم على المكان المقدس ذا أثر فعال ، واضطرت السلطات المسئولة الى تهدئتهم ، فأرسلت اليهم ضابطين من الشرطة ، كما عمل كهنة الرمسيوم على تهدئة الامور ، واجابهم المضربون «لقد أتينا الى هنا بسبب الجوع والعطش ، حيث لا يوجد لدينا ملابس أو دهان أو سمك أو خضروات ، ألا غلقتلوا الى فرعون سيدنا الطيب بذلك ، واكتبوا الى الوزير الذى يشرف علينا ، افعلوا ذلك لنعيش » ، ثم صرفت لهم مخصصات الشهر السابق في ذلك اليوم (٣٤) .

وهكذا نجح العمال في تحقيق أهدافهم ، وعلمتهم التجربة ألا تثنيهم المترضية الجزئية عن وصولهم الى حقهم كاملا ، وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالى ، الامر الذى تم في اليوم الثامن من الاضراب ، وتهدأ الاحوال الى حين ، حتى اذا ما أتى الشهر التالى ، ورأى العمال أن أجورهم لم تصرف لهم ، أضربوا عن العمل «واخترقوا الجدران وجلسوا في الجبانة ، وحاول الموظفون اعادتهم ، ولكن الصانع «موسى بن عاعنخت» أقسم بآمون وبالفرعون ألا يعسود ، فاضطر الموظفون الى ضربه بذلك أنه تجرأ فحلف باسم الفرعون هنا ، وأدى ذلك الى ثورة العمال ، ودفع بهم غضبهم الى تهديدهم لرؤسائهم واتهامهم بغش الملك (٣٥) ، وتهدأ الاحوال قرابة الشهرين ، وعساد العمال الى الثورة من جديد ، واخترقوا الاسوار ، وبينما كانوا متجمهرين خلف معبد «با ان رع مري آمون» (معبد مرنبتاح الجنزى) مر عمدة طيبة الغربية فشكوا اليه حالهم ، فأمر بأن تصرف لهم خمسين غرارة من المصبوب ، حتى يصرف لهم فرعون مخصصاتهم ، غير أن كبير كهنة آمون سرعان ما اتهم العمدة بأنه أخذ قرابين معبد رعمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ثم وصف عمله هذا بأنه «جريمة كبرى» (٣٦) .

34) W. F. Edgerton, Op. Cit., P. 140.

35) Ibid., P. 142.

36) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 277.

وأما طبقة الفلاحين التى أريد لها أن توضع فى المقاع من هرم المجتمع المصرى القديم ، هذه الطبقة كان المرجو لها فى بلد يعتمد ، أول ما يعتمد ، فى موارده الاقتصادية على الزراعة ، أن تحتل مكانة لا يتناول اليها صاحب حرفة أخرى ، غير أن الفلاح هو الذى لم يتناول الى مكانة غيره من أصحاب الحرف الأخرى ، كان حظه فى الحياة أقل من حظ غيره ، وكانت الفرص المتاحة له أقل بكثير من الفرص المتاحة للصانع أو حتى خادم المنزل أو العبد الخاص بالنبيل ، ومع ذلك فقد كان هو العنصر الأساسى فى اقتصاد البلاد .

وكانت نظرة المجتمع اليه على أنه انسان بائس لا يستحق سوى الرثاء ، فهناك خطاب سجله أحد الكتاب الى تلميذ له متحدثا فيه عن نصيب الفلاح من الحياة ، جاء فيه «لقد سرق الدود نصف الحبوب ، ثم أكل فرس النهر النصف الآخر ، هناك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول ، كما هبطت جحافل الجراد ، أما الماشية فهي تاكل ، والعصافير تسرق ، ولكن واحسرتاه على الفلاح فمما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص ، كما نفقت ثيرانه من الدرس والحرث ، ثم وصل الكاتب بسفينته الى الشاطئ وهدفه أن يتسلم المحصول ، وقد حمل موظفوه عصيهم ، فى حين أمسك الزوج بمقارعهم ، وكلهم يقولون له : اعطنا الحبوب ، فإذا لم تكن هناك حبوب خربوه وقيدوه وقذفوا به فى القنائة فيغرق ، أما امرأته فهي تقيد أيضا أمامه ، أما أولاده فيربطون ويتركهم جيرانهم ويولون الادبار ، ويسرعون لكى يحافظوا على حبوبهم» (٢٧) .

وهكذا كان الفلاحون : كما هم الان ، يؤلفون الغالبية العظمى من الشعب ، وقد كانوا فريقين . الواحد يمتلك أرضه وحقله ، والآخر أجير عند فرعون . بادىء ذى بدء ، ثم عند النبيل أو حاكم الاقليم ، حين شارك هؤلاء سيدهم فى الغنيمة ، أما الفريق الاول فهم يملكون أرضهم

ولم يكونوا خاضعين الا لاداء الضريبة المقررة عليها من قبل الدولة ، وأما الفريق الثانى فهو الاكثر عددا فقد كانوا مرتبطين بالارض لا ينفكون عنها بحيث اذا انتقلت ملكيتها انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم الى المالك الجديد ، ولكنه انتقال للذمة ، وليس للملكية ، ذلك لان القوم اذا كانوا جميعا أحرارا ، وأن الرق في جميع العصور الفرعونية لم يمتد الى أية طائفة من سكان الكنانة ، وانما كان ذلك من نصيب الاسرى دون سواهم (٣٤) .

وطبقا لمرسوم من عهد الملك «ببى الاول» ، فان العامل الزراعى انما كان يعمل بأجر ، وفي مرسوم آخر ، وهو المرسوم الثالث من مراسيم معبد الاله «مين» نرى أن الفلاح انما كان يعمل ساعات معينة من النهار (٣٥) ، فالمزارع اذن انما يعمل بأجر ، وفي ساعات معينة من النهار ، فهو ليس مملوكا لصاحب الارض ، وانما هو يعمل بعقد معه ، ولا يتصور هذه العلاقة التعلقية الا اذا كان الفلاح حرا ، وهناك ما يثبت أن الفلاح كان يدفع لصاحب الارض جزءا من المحصول ، فهو اذن كان يستأجر الارض من المالك ، وكان بينهما عقد مزارعة ، الامر الذى لا يمكن أن يتم الا اذا كان الفلاح حرا (٣٦) .

وبدهى أن هذا كله انما يشير الى أن العامل الزراعى لم يكن أبدا

(٣٨) هناك ما يشير الى أن أسرى الحرب كانوا يعملون في مزارع الدولة بلا أجر ، وتسميهم النصوص «المزارعين الملكيين» وفي مرسوم قفط من عهد ببى الاول ما يشير الى أن الملك لا يعتبر الفلاحين والصناع المصريين من الزراع الملكيين ، كما أن هناك ما يشير الى أن الدولة كانت تتنازل عن حقها في هؤلاء الزراع الملكيين الى الافراد اذا باعت لهم بعض املكها التى يعمل بها هؤلاء الاسرى ، فقد جاء في ترجمة « متن » من عهد سنفرى ، أنه « أشتري مائتى أرور مع عدد كبير من الزراع الملكيين » والذين كانوا من أسرى الحروب .

- (J. Pirenne, Op. Cit., II, P. 257, 250, 318 أنظر)
 A. Morel, Journal Asiatique, 1916, P. 296-322) وكذا
 39) R. Weill, les Decrets Royaux de l'Ancien Empire egyptien, P. 118.
 A. Moret, Op. Cit., P. 329-331. وكذا
 (٤٠) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١٦ .

مملوكا لصاحب الارض التى كان يعمل بها - وان تان هذا لا يمنع من القول بان الفلاحين انما كانوا يعملون ، الى جانب الزراعة : فى حفر الترع والقنوات واقامة السدود ، وليس هناك على اى حال - مجال للثول ، بان هؤلاء الاتباع كانوا يستغلون استغلالا سيب خليا من الرحمة ، كما أنه لا أساس لما يذهب اليه البعض من أن ذلك العهد انما كان يتسم بالظلم والاستبداد لمصلحة الملك أو الامراء . فليس هناك دليل يمكن الاطمئنان اليه لتقرير ذلك ، هذا ويروى هيرودوت ان النيل كان اذا ما آكل جزءا من أرض أحد الفلاحين (نحر النهر) فانه يتقدم الى فرعون بأمره هذا ، حتى يرسل لجنة تقرر مقدار ذلك الجزء الضائع حتى يدفع الضرائب على ما تبقى عنده من الاراضى (٤١) ، وهذا يشير الى أن ايراد الاراضى الزراعية انما كان من نصيب صاحبها ، بعد أن يدفع الضرائب عنها ، على أنه فى الوقت نفسه انما كان يخضع لرقابة الدولة فيما يقوم به من عمل ، وأنه لا يترك وسافه فيما يتولاه من شؤون الزراعة ، وقد تعوضه الدولة عن الخسارة ، اذا ما جاءت نتيجة لكوارث طبيعية ، وقد تريد الدولة من نصيبه (ربما عن طريق تقليل الضرائب) عند ازدياد حاجاته المعيشية . ولعل ذلك كله انما يشير الى أن الدولة انما كانت تنظر الى الزارع على أنه يقوم بوظيفة اجتماعية ، ومن ثم فهي توجهه الوجهة التى تحقق المصلحة العامة (٤٢) .

وأما بقية أفراد الطبقة الدنيا الذين ورد ذكرهم فى كتب المؤرخين الاغريق ، فهم رعاة الاغنام ورعاة الخنازير والصيادون والملاحون فلم يكن أحد منهم يمتلك أرضا زراعية ، وكانت أعمال الطوائف الثلاث الاولى مقصورة على التنقل فى الاراضى القاحلة الخالية من السكان طلبا للكلأ وبحثا عن صيد (٤٣) .

وهكذا كان أفراد الطبقة الدنيا يمثلون الكثرة الساحقة من سكان

(٤١) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤٢) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١٣١ .

43) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N. Y., 1970, P. 14.

هذا الوطن ، يعيش معظمهم فى القرى المتناثرة على طول الوادى وبين
ذراعى النهر فى شمال الوادى ، يمارسون حرفةهم التقليدية من زراعة
وصناعة ورعى وصيد وملاحة ، وكانوا من أرق الطبقات حالا ،
يسكنون مساكن بسيطة لا تعدو الحجرة أو الحجرتين ، وليس بها
من الاثاث والرياش ما يجاوز الحصى وبعض المقاعد الخشبية
والصناديق وآنية الفخار ، كما كان طعامهم لا يعدو الخبز والخضر ،
فأما لباسهم فكان نقبة من نسيج الكتان يستتر بها الرجل فيغطى
بها وسطه الى أعلى الركبتين ، كما كان لباس المرأة بسيطا أيضا ، فهو
عبارة عن ثوب ضيق وبخاصة أسفله ، غير مكتم ، مصنوع من الكتان
الابيض ، يصل من الكتف الى العقبين ، ويثبت فوق الكتف بشريطين
من النسيج نفسه .

ولم يكن للفلاحين من الحرية ما لغيرهم من الطبقات الاخرى ،
وانما كانوا يعملون فى مواسم الزرع ، حتى اذا ما جاء الفيضان
ومزّت المياه الاحواض وتوقفت أعمال الزراعة ، حشدت الحكومة
جيوثا من هؤلاء الفلاحين للعمل فى المحاجر والمناجم وأعمال البناء
وجميع المشروعات الحيوية العمرانية العامة ، أو أعمال الرى ، وبرغم
ما يسود هذا النظام من عيوب ، فقد كان من مزاياه أنه جعل الشعب
عاملا قويا دؤبا ، لا يعرف المال ولا يركن الى الراحة التى تدفع
للناس علا اجتماعية وبدنية ، كما أكسبه مهارة فنية كبيرة ونافعه .

تلك كانت طبقات المجتمع المصرى القديم ، وهى على الرغم مما نرى
فيها من تباين وتفاوت ، لا تكاد تحملنا على أن تجعل ذلك المجتمع
طبقيا ، كما تعنى هذه الكلمة تماما ، ففى مثل ذلك النظام يحدد المولد
الطبقة الاجتماعية التى ينتسب اليها الفرد ، أما فى مصر فبالرغم من
أن الابن كان يزاوِل مهنة أبيه فى أغلب الاحايين ، فقد كان من الممكن
لاى شاب يمتلك مواهب مناسبة أن يحتل مكانا أرفع مما وصل اليه
أبوه ، وقد يصعد الى أعلى الوظائف ، أو بمعنى آخر لم تكن هناك

حدود فاصلة تماما بين الطبقات ، اذ كان من الممكن الانتقال من طبقة الى أخرى ، اعتمادا على المواهب والمؤهلات ، كما أشرنا من قبل .

هذا فضلا عن أن الحياة في مصر الفرعونية انما قد جمعت سائر أفراد الشعب ، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الحيوية، في وحدة متماسكة قوية ، لان طبيعة الحياة الزراعية وظروف العيش قد أدت الى ذلك ودعت اليه في الحاح ملح وفي عنف شديد ، ولم يلجأ المصريون الى ثورات ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي الا في العصر الوسيط الاول (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) ، والا بعض اضطرابات للعمال في الاسرة العشرين نتيجة المسغبة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا (الثورات أو الاضطرابات) ، ومن ثم فقد تميز المجتمع المصري بذيوع ذلك الروح الصفو العذب ، الذي شمل الناس جميعا ، كما جرت أيام الحياة لدى المصريين سهلة بسيطة يسودها جو من المرح المصافي ، وعلى نغمة حلوة مرضية ، ويسود أهلها الرخاء المادي الذي تجرى لهم به الحياة بين يدي النيل العظيم^(٤٤) .

(٤٤) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص

الباب الثاني

التنظيمات السياسية والادارية والعسكرية

الفصل الأول

التظيم السيامى

١ - الملك المؤله

١ - نغارية الوهية الملك :

استطاع مؤسس الاسرة المصرية الاولى أن يكون لمصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حكومة مركزية قوية ، على رأسها الملك المؤله ، الذى كتب له نجحا بعيد المدى فى أن يجمع بين يديه كل السلطات حكومة كان الملك فيها هو المحور ، بل الروح التى تبث الحياة فى الدولة ، وكل ما يحدث فيها وحى منه ، قامت على أسس دينية عميقة الاثر ، فهو الاله العظيم ، وهو الاله حور ، الذى تجسد فى هيئة بشرية ، ومن ثم فهو ، فى نظر رعاياه ، اله حى على شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الالهة الاخرى فيما لها من حقوق ، وبالتالى فله حق الاتصال بهم ، وله على شعبه ، ما لغيره من الالهة ، من المهابة والتقدیس ، ومن هنا كان الاساس السيامى والاجتماعى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد بأن مصر يحكمها اله ، وأن هذا الاله الجالس على عرش الكتانة غير محدود المعرفة والمقدرة ، وأنه على علم بكل ما يدور فى البلاد ، ومن هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك والدولة ، اذ كانت كلمته قانون ، ورغبته أمر ، ورعيته ملك يمينه ، يتصرف فيها متى شاء ، وكيف شاء ، وهكذا كانت الضرائب تؤدى لتملأ خزائنه ، والحروب تقوم من أجل شهرته واعلاء ذكره ، والعمائر تنقام تكريما له ، وتشريفا لمقدره ، وكل أملاك البلاد خالصة له ، وهى حقه ، فاذا سمح لمخلوق ما أن يكون له فيها نصيب ، فان هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها عندما يشاء .

هذا وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم في كيفية ايمان المصريين بأن
الجالس على العرش اله يحكم بشرا ، وكيف أصبحت ألوهية فرعون
عقيدة الدولة الرسمية ؟

كان مبدأ ألوهية الملك مذهباً وصلت اليه الحكومة المصرية خلال
عصر الاسرات المبكر ، بغية الاطمئنان على حسن تأسيس الحكم
الجديد ، وذلك عندما وجد الحاكم ضرورة أن يرفع نفسه من مرتبة
بشر متميز ، من الجائز أن ينازعه في سلطانه بشر آخرون أقوياء ، الى
مرتبة اله لا يمكن منازعته^(١) ، وهكذا ظهرت عدة آراء بشأن عقيدة
القوم في ألوهية ملوكهم ، فهناك رأى ينادى بأن عقيدة الملكية الالهية
انما كانت وليدة أسباب انتصار الملك على منافسيه من أهل الدلتا ، ثم
اصطناعه صفات الهية ، حتى غدا الها بين الالهة^(٢) .

وهناك وجه آخر للنظر يذهب الى أن الصعب التي لاقاها مؤسسو
الوحدة من ملوك عصر التأسيس في تحقيق الوحدة تحقيقاً مادياً طوال
ذلك العصر ، انما قد دفعتهم الى القول بأن مصر يحكمها اله تتمثل
فيه القوى التي تهيم على القطرين ، ومن ثم فقد نجح الملك الاله في
أن يتباعد بنفسه عن أن يكون من البشر ، فضلاً عن أن يكون من
الصعيد ، موطن الملوك من مؤسسي الوحدة ، وسرعان ما سرت في
نفوس القوم على مر الايام تلك العقيدة التي تدعو أصحابها الى
الايمان بأن هذا الجالس على عرش مصر ، ليس انساناً زائلاً ، وانما
هو اله حى يتساوى مع غيره من الالهة فيما لهم من حقوق التقديس
والمجابهة^(٣) .

1) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, P. 45.

(٢) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦
ص ٨٠ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول -
النظم الاجتماعية - القاهرة ١٩٦٢ ص ١١١ .

وهناك وجه ثالث للنظر يعزوها لاسباب جغرافية ، تسند لها طريقة التفكير المصرى ، ذلك أن مصر انما كانت من الناحية الجغرافية بلدا لا توجد بينه وبين غيره صلات طبيعية ، ولذا فقد تمتعت بالاحساس بالطمأنينة وبأنها بلاد ذات امتياز خاص ، كان نصيبها في الوجود غير عادى ، ذلك لان العناية الالهية جعلتها وحدها هريدة بنفسها ، ومنفصلة عن جيرانها ، فلم يكن آلهة الكون العظام في حاجة الى التحليق فوقها ، وارسال بشر ينوب عنهم في الحكم ولكنهم احتفظوا لانفسهم بالعناصر الفعالة للقوة والحكم ، بل كان في استطاعتهم أن ينصرفوا مطمئنين ليرعوا شئون الكون ، لان واحدا منهم ، وهو فرعون ، الذى كان هو الآخر الها ، أخذ على عاتقه وظيفة الحكم والسلطان وأقام في مصر ، هذا فضلا عن أن المصرى كان لا يهتس بضرورة تحديد الانواع تحديدا صريحا ، ومن ثم فقد سهل عليه أن ينتقل من البشرى الى الالهى ، وأن يقبل العقيدة التى تنص على أن الفرعون الذى كان يعيش بين الناس ، كأنما هو من دم ولحم انسانى ، كان في الحقيقة الها تكرم فأقام فوق الارض ليحكم أرض مصر ، وليس من المستبعد أن عقيدة الملكية الالهية كانت سهلة وطبيعية في مصر ، وربما كانت متصلة الجذور في أيام ما قبل التاريخ^(٤) .

وهناك رأى رابع يجعلها نتيجة أسباب دينية ، ذلك أن القوم كانوا يمتقدون — فيما تروى أساطيرهم — أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الآخر على الارض في مصر ذاتها قبل أن يعرجوا الى السماء ، أو فيما يختص غيمن ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا الى الجحيم ، وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم ، بل وتحدد سنى حكمهم ، كما تفعل بردية تورين ، وقد ترك « أوزير » آخر ملوك مصر من الالهة الحكم لابنه « حور » ، ومن هذا الاخير تصدر في زعمهم كل ملوك مصر ، ومن ثم يصبح حق الملك قائما على طبيعته الالهية التى

4) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45, 47.

كانت تنتقل مع الدم ، وفي عهد الاسرات الاولى لم تكن الوهية الملك مؤكدة الا تبعا لتسلسله من « حور » اله الاسرة ، بغض النظر عن أية مؤانسة دينية ، ومن ثم كان الاسم الذى يتسمى به الملك عند توليته العرش يكتب داخل اطار مستطيل يمثل صورة مؤخرة للقصر الماكى ، وترسم فوقه صورة حور ، وكان الملك يتخذ هذا الاسم عند توليته العرش ، أى عند تنصيبه فى صورة حور ، وبما أنه من دم الهى ، فإنه يصبح اذ ذاك صورة من حور ذاته (٥) .

وهناك وجه خامس للنظر يذهب الى أنها نتيجة أسباب اقتصادية ، ومن ثم فإنه يتجه الى أن الوهية الفرعون انما تتصل اتصالا وثيقا بالعناصر الاساسية التى شكلت المبادئ والقيم المصرية منذ البداية ، والتى تتركز فى تأثير الانسان بكافة المقومات البيئية المحلية بطريق مباشر أو غير مباشر ، فخلد بدأ الانسان حياته المستقرة بالزراعة ، وسرعان ما نشأ المجتمع الزراعى المستقر ، والمعتمد على ضمان توفير مياه الري ، ومساعدة العوامل الطبيعية المختلفة اللازمة للانتاج السليم ، ثم سرعان ما أدرك الانسان بتجاربه المستمرة ضرورة ضمان الحياة المستقرة ، وفى نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به ، والمسيطرة على البيئة ، وشعر بارتباطه ، حياة ومستقبلا ، بتلك القوى الكونية المسيطرة على العالم ، واعتبر الملك أحق من يقوم بوظيفة الوساطة بين الانسان والالهة ، بغية ارضاء تلك القوى ، وبالتالي اطمئنان الانسان على حياته الحاضرة والمستقبلية ، ومن ثم فقد ارتبط ملوك مصر بعالم الالهة ارتباطا كبيرا لم يألفه المؤرخ فى نظم الحكم الاخرى فى الشرق القديم (٦) .

(٥) ايتان دريوتون وجاك فاندييه : مصر - ترجمة عباس بيومى - القاهرة ١٩٥٠ ص ٩٠ - ٩١ ، وكذا

A. Morct, Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris 1962, P. 68.

(٦) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا - الكتاب الاول - بيروت ١٩٦٨ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وهكذا نرى المؤرخين يختلفون في تفسيرهم لألوهية الملك الفرعون وكيف نشأت ؟ وكيف اقتنع المجتمع المصرى وآمن بألوهية ملوكه .

وإذا أردنا مناقشة وجهات النظر المختلفة ، لوجدنا أن الأسباب العسكرية لا تستطيع أن تصل بالمغلوبين الى الايمان بالوهية غالبيةهم ، ذلك لان الغزو قد يجبر قوما على الخضوع لآخرين ، وقد يخلق من زعيم المنتصرين دكتاتورا يأمر فيطيع المغلوبين ، ولكنها لا تخلق منه ، بحال من الاحوال ، لها يؤمن الناس به كواحد من آلهتهم الاخرى ، وحتى لو آمنوا به في فترة الغزو ، وفي أعقابها لفترة قد تطول أو تقصر ، فكيف تسنى للفراعين أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها القوم حتى نهاية العمود الفرعونية ، وعلى مدى قرابة آلاف ثلاثة من الاعوام ؟

وأما النظرية التي تجعل من الصعاب التي لاقاها مؤسسو الوحدة دافعا للتقوى بأن مصر يحكمها الله تتمثل فيه القوى التي تهيمن على المقطرين (الصعيد والدلتا) ، فقد يكون الامر كذلك الى حد ما ، وأن خالط وجهة النظر هذه الكثير من الخيال ، فضلا عن الحدس والتخمين ، اذ لدينا ما يثبت أن الوحدة التي أقامها « مينا » لم يكتب لها البقاء حتى نهاية عصر التأسيس ، فقد انهارت في النصف الثاني من عصر الاسرة الثانية ، كما تشير الى ذلك آثار الملك «خمس سخم» والتي اقتضت على مدينة نخن (البصيلية) : الموطن الاصلى لمؤسس الوحدة ، فضلا عن جهود «خمس سخم» في سبيل استرجاع الدلتا ، وتوطيد الوحدة ، الا اذا كن حذيجا ما ذهب اليه البعض من أن انفصال الدلتا في الاسرة الثانية إنما كان نتيجة غزو لبيى للدلتا ، احتلالها وانفصالها عن الصعيد ، ومع ذلك فهناك ما يشير الى قيام بعض ملوك عصر التأسيس بعمليات عسكرية ضد تمرد أو آخر في الدلتا^(٧) ، وعلى أي

(٧) انظر : محمد ميمى مبراز ، حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ دس ٦٤ - ٦٨ ، مصر - الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٧ - ٥٧ .

حال ، فان صحت وجهة النظر هذه ، وقبل الوجه البحرى هذا المبدأ ، فما كان من حقه أن يعارض حكم انسان كانت عائلته تقيم في الصعيد ، فقد كان مقررا أن هذا الانسان لم يكن تابعا لمنطقة جغرافية ، ولكنه كان من عالم الالهة^(٨) .

وأما الرأى الذى جعل العوامل الجغرافية سببا في الايمان بالوهمية الفرعون ، فيعارضه أن في طبيعة مصر متناقضات جغرافية تفسد علينا طرفي المحاورة ، فاذا نظرنا اليها في عزلتها عن الخارج ، فهي بلد متحد قائم بنفسه ، واذا نظرنا اليها من ناحية انقسامها الى جزأين ، فانها بلد غير متحد ومنقسم ، وكانت مصر في نظر المصريين ، بلدا واحدا ، وفي الوقت ذاته هي بلدان منقسمان ، مصر العليا ومصر السفلى ، ومن هنا كان من أسمائها المعروفة «تأوى» بمعنى الارضين ، أرض الصعيد (تأسمعو) وأرض الدلتا (تامحو) ، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الالف الرابعة قبل الميلاد ، على أقل تقدير ، متأثرين في ذلك بالفوارق الاقليمية بين الصعيد والدلتا ، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر فيما قبل عصر التأسيس ، هذا فضلا عن القلب المفاعين أنفسهم انما ترمز الى الثنائية ، في اثنين منها على الأقل ، كما في لقب السيدتين ولقب مصر العليا والسفلى ، وعلى أى حال ، فان هذه النظرية انما تضعف الى حد كبير ، اذا ما تذكرنا الوهمية الفرعون انما كانت مرتبطة الى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها ، وليس بالعوامل الجغرافية فيها ، وأنه في أية فترة من الفترات التي كان يضعف فيها الحكم ، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الآخر ، ولم يمسك عليهما وحدتهما ، الا اعتمادها المشترك على مياه النيل^(٩) .

وأما وجهة النظر التي أرجعتها الى أسباب دينية ، فهي تعتمد على

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45-46.

(٨)

(٩) محمد بيومى مهران ، مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45-46.

ص ٢١ وكذا

الاساطير ، أكثر من اعتمادها على الأدلة التاريخية ، اذ لو كان الامر كذلك ، وكان مؤسس الاسرة الاولى ، أو غيره من ملوك عصر التأسيس ، معترفا بالوحيته على أساس أنه سليل الاله حور ، الذى ورث ملك مصر عن أبيه أوزير ، لما احتاجت الوحدة الى كل هذه الحروب التى خاضها ملوك نخن (البصيلية) من أمثال نعرمر . ولما احتاجت كذلك الى جهود خلفائه بعد النكسة التى أصيبت بها الوحدة في عصر الاسرة الثانية ، واستعادتها مرة أخرى ، من موطنهم الاصلى من البصيلية (نخن) — مركز ادفو — بمحافظة أسوان (١٠) .

وأما النظرية الاقتصادية : فرغم الاحمية الكبرى لضمان توليد الامن الاقتصادى وغيره من مظاهر الاستقرار فى المجتمع ، على أساس امكانية توسط الفراعين بعد حملهم لتلك الصفة الالهية لدى التسوى الالهية من أجل تحقيق ذلك . فان ذلك لم يلبس بكاف لايمان المصريين بالوحيه ملوكهم ، ذلك لان الامن الجغرافى متوفر فى مصر ، بصورة لم يتوفر فيها فى العراق القديم ، ومن ثم فلو كان الامر أمر أمن جغرافى لكان ملوك العراق القديم أحق بالالوحيه من فراعين مصر . فبلاد المرافدين كانت معرضة بصورة مستمرة للقلبات الجوية التى تحول دون الاستقرار والطمأنينة ، مما أدى الى تحدد القوى الالهية ، وظواهر التنبؤ والتمايم ، بينما كانت البيئة المصرية توحى بالاطمئنان الى حد كبير (١١) .

وانطلاقاً من هذا كله . فالرأى عندى أن هذه الاسباب مجتمعة هى التى عملت على تاليه الفراعين فى ارض النانة ، وان واحدا منها بمفرده ليس كافيا لتاليه الملوك عندا لمصريين القدامى . ذل ان بعض

(١٠) أنظر التفصيلات (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى — ص ٤٧ — ٥٧) .

(١١) رشيد الناضورى : التطور التاريخى للفكر الدينى — بيروت ١٩٦٩ ص ١٦١ ، ١٦٣ ، وكذا

J. A. Wilson, Op. Cit. P. 45.

الباحثين انما يذهب الى أن هناك اتحاد في عصر ما قبل الاسرات ، ثم تلاه انفصال استمر بضعة قرون ، فاذا كان ذلك كذلك ، فقد أعطى هذا الاتحاد ملوك عصر التأسيس سابقة لاتحاد مصر ، تحت حكم اله على الأرض ، وان كانت الاخرى ، فربما يمكن أن تنسب الى عصر التأسيس تلك القصص الخيالية عن الاتحاد ، مبررين بذلك الاتحاد الذي تم على أيديهم ، والذي كان نتيجة حرب ضروس خاض غمارها أبناء المصعيد ضد الدلتا ، وكتب لهم فيها فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا في تحقيق وحدة البلاد ، وانطلاقا من هذا ، فربما كانت هناك فكرة أصيلة عن الملكية في مصر ، ولكنها غير منظمة ، فجاءت الاسرة الاولى وانتهزت فرصة وجود هذا الرأي لتأييد النظام الجديد ، فرفعت الفرعون من مرتبة بشر ، من الجائز أن ينازعه بشر آخرون أقوياء ، الى مرتبة «اله» لا يمكن منازعته^(١٢) .

وهذا كنت عقيدة الملكية الالهية ، كما نعرفها ، قد صيغت وعدلت كثيرا ، ثم وجدت قبولا رسميا في أوائل عهد الاسرات ، وهذا قول لا يمكن اتبائه بالتأكيد ، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية وحاجة الفوم الى وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم ، لتحقيق ما نسميه بالامن الوقائي ضد كل ما يصيبهم من أذى من قريب أو بعيد ، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم ، بعد اخضاع الدلتا وقيام الوحدة ، الى الاله حور، خليفة أبيه أوزير، آخر الالهة العظام الذين حكموا مصر في عصور ممعنة في القدم ، ومنذ الاسرة الخامسة يصبح الفراعين أبناء للاله رع من صلبه^(١٣) ، وسنرى في عصور تالية فراعين ينتسبون للاله آمون ، حين يصبح هذا سيد الالهة وكبيرهم ، كما فعلت حتشبسوت وأمنحتب

12) Ibid., P. 47.

13) A. Erman Die Mearchen des Papyrus Wastcar, 2 Vols, Berlin, 1890.

JEA, 22, 1963, P. 42 F. 37, 1951, P. 114.

وكذا

الثالث^(١٤) ، وفي الواقع أننا لا ندري مدى تصديق المصريين لهذه الادعاءات ، ولكن حسبها ما تدل عليه من اعتقاد الفراعين بأن الامر الواقع في ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لا يكفى ، وانه لابد من تأييده بسند من الدين يرضى الكهان والخاصة والعوام .

وأيا ما كان الامر ، ملقد آمن المصريون القدامى ، ربما راغبين لا مكرهين ، بأن الجالس على عرش الخزانة اله تكرم واقام فوق ارض مصر ، ليحتم بنى الانسان ويسعدهم . كما يتضح ذلك من القاب الملك الخمسة الرسمية ، التي كن يتخذها منذ الدولة القديمة وحتى نهاية المعصور الفرعونية ، واما الاتصاف الشخصي بهذا الملك فلم يكن متاحا الا لخاصته واقرب المقربين اليه ، أما الانساح العاديون فلم يكن في مقدورهم ان يجرؤا على الاقتراب من هذا الملك الذي يفوق البشر ، الا وقد استولى الهلع على قلوبهم وارتعدت فرائضهم ، وخروا على الارض سجدا ، كما لو كانوا أمام تمثال للاله ، على ان هذا الملك الاله لم تكن تقام له في عصر التأسيس المعابد . بما كانت تقام لغيره من الالهة ، كما لم نكن نقدم له القرابين . وان تسميته بالاله العظيم لم تتف حائلا دون ان تكون له شخصية بشرية . وان طبيعته الالهية لم تمنع النوم من ان ينظروا اليه كحسانم بشرى ، نه امارته الخاصة ومجازته ومضمته ودواوينه الخاصة^(١٥) على انه يجب ان نلاحظ ان الوصية الفرعون لم تكن بمعنى انه خالق لتكون ومدبره ، او ان له سلطان في عالم الاسباب

(١٤) انظر

J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 78-89, 344.

وكذا

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

وكذا

A. Gayet, le Temple de Louxor, Cairo, 1895, Pls. 62-73.

(١٥) أدولف أرماني وهرمان راش: مصر والعبيد المصريين: العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر - انشره ١٩٥٢ من ١٢٠٤٧ وكذا

A. Mariette. Les Mystères de L'Ancien Empire. Paris, 1889, P. 70, 100.

الكونية ، وانما كان يدعى الالهوية بمعنى أنه حاكم هذا الشعب بشريته وقانونه ، وأنه بارادته تمضى الشئون وتقضى الامور ، كما أن المصريين لم يتعبدوا الى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له ، فقد كانت لهم الهتهم ، كما كان لفرعون آلهته بدليل قوله تعالى « ويذكرك والهتك » ، كما أنهم لم يقيموا المعابد لفرعون (١٦) .

وبدعى أنه في مقابل الحقوق التي كان يتمتع بها الفرعون ، كان عليه عدة واجبات ، فهو المسؤول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة في خيراتها ، وهو الذى يعمل على تدعيم العدالة ونشر لواء الحق بين أفراد شعبه ، وهو الذى يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترغ وإقامة الجسور ، لتيسير فلاحه الارض وزراعتها ، وتوزيع جزء مما انتجته من محاصيل على رعاياه كل حسب حاجته ، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان ، وتشجيع الصناع والفنانين ، فضلا عن إقامة المعابد للالهة وتقديم القرابين لها ، والاحتفال بأعيادها ، وإقامة الطقوس الدينية المختلفة ، فإن أهل في واجباته هذه فقد قدسيته ، ومن ثم يحق لغيره من الالهة ألا يعترفوا به كواحد منهم ، وهكذا يبدو أن الملكية ، وإن أفاعت على الملك القداسة والالهوية ، فإنها في الوقت نفسه قد حدثت من سلطانه ، بما فرضت عليه من واجبات .

ومن عجب أن واجبات الملك نحو شعبه لم تكن تنتهى بوفاته ، وانما تستمر في حياته الاخرى ، ذلك لان الملك المؤله ، فيما يعتقد القوم ، لا يمكن أن يموت ، وانما يبدأ حياة خارقة للطبيعة ، حياة يكون فيها الوسيط بين الاموات من الناس وبين الالهة ، فيظل الحامى والشفيع الذى يرفع الموتى ، كما كان يرفع الاحياء ، ومن هنا جاءت لهفة القوم

(١٦) أنظر : (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثانى - مصر - بيروت ١٩٨٨ ص ٢١٢ - ٢٢١ ، وعن الالهية الملك في العراق القديم : أنظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - في العراق - بيروت ١٩٨٨)

على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى ، ولتهيء له وسائل خاصة ملائمة وخالدة ، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس في سقارة وأبيدوس إنما تشهد على أن المصريين منذ عهد الأسرة الاولى كانوا يطلقون أهمية كبرى على شفاعاة الملك الميت لهم عند الالهة^(١٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن الترتان الكريم انما حدثنا في قصة موسى مع فرعون ، عن الملكية الالهية في مصر ، وأوضح لنا أن ألوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبي الكريم والملك الفرعون ، بل ان تلك الالهية المزعومة انما كانت الصخرة التي تعطلت عليها كل أوجه التقارب بينهما ، ولعل مما يزيد الامور وضوحا أننا لا نعرف دعوة من دعوات الانبياء الكرام ، يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل اليه ، أنه اله الناس ، الامر الذي كان يعرفه الكليم جيدا منذ تلك السنين التي عاشها في كتف الفراعين ، بل ان فرعون انما يهدد النبي نفسه « لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين »^(١٨) ثم يعلن للناس عامة « ما علمت لكم من اله غيري »^(١٩) ، وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى ، ما كان منه الا أن يرفض الدعوة كلها « ثم أدبر يسمي ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الاعلى »^(٢٠) .

(٢) الالقاب الملكية :

كان من مستلزمات توطيد عقيدة ألوهية الملك أن يظهر عدد من الالقاب الرسمية لتوضيح تلك الفكرة ، وكانت ألقاب الملك أو « اسمه العظيم » ، على حد تعبير القوم ، يتكون من خمسة ألقاب زيدت عليها

(١٧) عبد المنعم عبد الحليم : حضارة مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٧٧ ص ٤٠ - ٤١ .

(١٨) سورة الشعراء : آية ٢٩ . وانظر (محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثاني - في مصر ص ١٦٣ - ٢٢١ بيروت ١٩٨٨) .

(١٩) سورة القصص : آية ٣٨ .

(٢٠) سورة النازعات : آية ٢٢ - ٢٤ .

منذ الدولة الوسطى كُتبت خمس ، وهي جميعا توضح ، بل تؤكد حق الملك الالهى فى حكم جزأى مصر ، كبلد واحد ، وأما الالقاب الخمسة فهى : أ - اللقب الحورى : وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بما له من دخلات وخرجات ، يعطوه حقر حور ، اله الاسرات لسل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت^(٢١) ، ويؤكد هذا اللقب الحورى انتماء حامله الى عالم الالهة ، الى الاله حور ، ويجعل منه وريثا لحور ، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذلك لان حور انما قد ورث حكم مصر عن أبيه اوزير ، ثم ورثه الملك للفرعون .

هذا ويتجه بعض الباحثين الى أن «الصقر» انما يشير الى أنه الاسم الابدئ للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون الى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة اوزير ، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس على عرش مصر انما هو ابن اوزير وخليفته^(٢٢) . بينما يذهب فريق ثالث الى أن الصقر انما هو اله مدينة نخن (البصيلية) ، ومن ثم فهو يشير الى أن الملك انما جاء من هذا الاقليم ، أى من مدينة الصقر ، عاصمة الصعيد ، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد ، وقيام اول ملذية فى التاريخ ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى ظهور اللقب الحورى منذ أيام الملك المعقرب (أى منذ ما قبيل التوحيد) وعلى أيام نعرمر . كما كان لهذا اللقب الاسبقية على كل الاسماء الاخرى عندما كان يذتر على الاثار^(٢٣) .

ب) اللقب النبتى : كان اللقب النبتى (السيدتان) هو الذى يلى اللقب الحورى مباشرة على الاثار ، ويمثل فى صورة رخمة تشير

21) W. B. Emery, *Archaeic Egypt*, P. 106.

22) W.M.F. Petrie, *The Royal Tombs*, I, P. 35-36.

23) P. E. Newberry, *The Horus Title of the Kings of Egypt*, PSBA, 26, 1904, P. 295-297.

الى الالهة «نخبت» (نخابة) الهة الصعيد ، وحية ترمز الى الالهة «وادجيت» الهة الدلتا ، وكان يذكر فوق الاسم الثانى للملك ، ويشير الى المنة التى تربط الملكية المزحوجة بوادى النيل ، فضلا عن علاقة الملك بالالهتين الرئيسيتين فى الصعيد والدلتا فيما قبل الوحدة ، وأنهما قد اتحدتا فى شخص الملك الذى يمثل مكانتهما الدينية فى البلاد ، وتقومان بحفظه (٢٤) .

ج) اللقب النسوبيتى : يدل هذا اللقب على أن الملك انما ينتسب الى نبات البوص أو الاسل ، شعار مملكة الصعيد ، والى النحلة ، شعار مملكة الدلتا ، ومن ثم فهو يمثل «ملك مصر العليا والسفلى» (٢٥) ، وتذهب «باومجارتل» الى أن لقب «بيت» انما كان يرتبط بالاله «مين» ، وأنه قد أخذ عنه بعض صوره وألقابه ، كذيل الثور ، الذى كان يكون جزءا هاما من الزى الملكى وبعض ألقابه مثل الثور القوى ، فضلا عن لقبه «بيتى» هذا وقد ظهر لقب «نيسو - بيت» منذ أيام الملك «وديمو» ، وان كان هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن مستعملا من قبل (٢٦) .

وعلى أى حال ، فإن الملوك عندما كانوا يستعملون اللقبين ، النبى والنسوبيتى ، انما كانوا دائما وأبدا يقدمون آلهة الصعيد وشعاره على آلهة الدلتا وشعارها ، لان ملوك التوحيد انما كانوا من الصعيد ، من نحن (البصيلية) ، ومن ثم فقد جعلوا آلهة ملوكهم وشعارهم أولا ، ثم آلهة الدلتا وشعارها ثانيا (٢٧) ، بل حتى اللفظة الشائعة (نسو) عن الملك فى مصر الفرعونية انما كانت شعار الصعيد ، وليس الدلتا (٢٨) .

د) لقب حور الذهبى : أو «حور الذى من ذهب» ، وقد ترجم

24) A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 1966, P. 73.

25) W. B. Emery, *Op. Cit.*, P. 107.

26) E. J. Baumgartel, *Some Remarks on the Origins of the Titles of the Archaic Egyptian Kings*, JEA, 61 1975, P. 29.

27) H. R. Hall, *Op. Cit.*, P. 99.

28) A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, Oxford, 1966, P. 75.

البض هذه العبارة بمعنى الاسم الذهبي أو اسم الذهب ، وما يزال معناها غامضا ، فقد تشير الى انتصار حور على عدوه ست ، وقد يشير استخدام علامة الذهب في الألقاب الملكية للملك الاسرات الاولى الى تقديس الملك ، وذلك بتجسيده لحور الذى لا يفقد لمعانه مثل الذهب ، أو الذى يشع مثل الذهب ، وعلى أى حال فاللقب انما يعبر عن القوة العظيمة والمجد (٢٧) .

هـ) ابن رع : ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل انه انما كان تصريحاً من الملك الفرعون ببنوته للاله رع ، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين بصفة متقطعة منذ الاسرة الرابعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع انما دخل فى ألقاب الملوك منذ الاسرة الثانية مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى ، وعلى أى حال فكثيراً ما كانت تجيء بعد لقب «ابن رع» (سارع) صفة أخرى ، وهى «رب التجليات» أى الظهور الالهى ، أو رب التيجان ، ثم يتلو ذلك خاتمة ملكية تحوى اسم الملك الذى عرف به منذ ولادته ، وهو فى الغالب اسم عائلى ، مثل اسماء الملوك الذين كانوا يسمون أمنمحات أو سنوسرت أو تحوتمس أو أمنحتب أو رعمسيس (٢٨) ... وهكذا .

ولعل من الجدير بالإشارة الى أن كتاب الدولة الحديثة لم يروا فى تلك الألقاب الخمسة ما يكفى لإظهار الولاء والاخلاص للملك ومن ثم فقد أضافوا ألقاباً أخرى مثل الثور القوى ومحبوب آلهة الحق وحامى مصر وقاهر الشعوب الأجنبية وكثير الأعوام وكثير الانتصارات ، رع القوى فى الحق ، محبوب آمون رع رب الكرنك ، الاله الطيب ، الباشق الذهبى الجليل ... وهكذا .

29) H. Frankfort, *Kingship and Gods*, Chicago, 1948, P. 46.

JEA, 4, 1917, P. 249.

30) J. A. Wilson, *Op. Cit.*, P. 102.

تمددت أعياد المصريين ، وخاصة في عهد الدولة الحديثة ، فهناك الأعياد الزراعية كمعيد رأس السنة وعيد الحصاد وعيد الفيضان ، وهناك الأعياد الدينية كمواكب آمون وأعياد الآلهة المختلفة وأعياد الجبانة ، ثم أعياد الفرعون ، والتي تميزت بما شاع فيها من ألوان الترف والتبرج ، وبما طغى عليها من اتجاهات لتمجيد فرعون ، واعلاء شأنه في نظر شعبه ، وربطه بركب الآلهة ، ووصل حاضره ومستقبله بماضى أسلافه الامجاد ، وكان من أهم تلك الأعياد ، عيد الاحتفال بتتويج فرعون وجلوسه على العرش ، وكانت تتلى في هذا العيد صلوات خاصة ، وتجري طقوس دينية متوارثة ، وقد حرص فراعنة الدولة الحديثة بوجه خاص على أن يظهر فرعون في هذا العيد على رأس موكب عظيم ، يحمل الكهنة فيه تماثيل الفراعنة ، «ميناء» موحد القطرين ورأس الدولة القديمة ، و « منقوتب » الاول ، معيد الوحدة ، ورأس الدولة الوسطى ، و «أحمس» محرر البلاد ومعيد وحدتها ورأس الدولة الحديثة (وكلهم من السعيد ، الاول من البصيلية بمحافظة أسوان ، والثاني والثالث من الاقصر بمحافظة قنا) ، وعلى أن يشرق فرعون أمام شعبه المبتهج السعيد ، وفي الواقع لقد كان لحفلات التتويج أهمية كبيرة ، فهي الى جانب كونها احتفالا بارتقاء الملك لعرش بلاده ، كانت بمثابة تذليل لذكرى قيام وحدة القطرين تحت تاج فراعينه (٣١) .

وعلى أى حال ، فلقد كان تتويج فرعون يتم بظهور كاهن الآلهين حور وست مقنعين بقناعهما ، ثم يقودان الملك ليفسلاه ويطهراه ثم يقدماه لبقية الآلهة ، ثم يوضع على رأسه التاجين الابيض والاحمر ، ثم يتم الطواف المرتبط باتحاد القطرين ، وهو الطواف حول الحائط الابيض ، ثم يحتضن اله الدولة الملك الجديد بين ذراعيه ، ويخالد اسمه على أغصان الشجرة المقدسة ، وكان يحتفل سنويا بهذا اليوم

(٣١) محمد جمال الدين مختار : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول ص ١٥٣ - ١٥٤ .

المبارك ، ولكن الاحتفال الاعظم والاھم انما يكون عندما يتم فرعون
ثلاثين عاما على عرش الكتانة (عيد سد أو الحب سد) .

وكان «عيد سد» (حب سد) من أهم أعياد فرعون ، وقد أطلق
المصريون اسم «عيد سد» على عيد يقام بمناسبة مرور ثلاثين عاما
على جلوس الفرعون على العرش المصرى ، فهو بذلك «العيد الثلاثينى» ،
ولدينا ما يثبت الاحتفال به منذ الاسرة الاولى (٣٢) ، وحتى نهاية
التاريخ الفرعونى ، بل انه دون شك انما كان معروفا قبل عصر التوحيد ،
واستمر القوم يمثلون بعض مناظر طقوسه على جدران المعابد فى
جميع العصور ، حتى تلك التى شيدت على أيام الرومان ، وان كان عيد
سد قد خضع لبعض التغييرات فى مراسيمه على مدى العصور ، هذا
ويبدو أن فكرة العيد الثلاثينى ترجع الى العصور البدائية الاولى حين
كان الناس يتمثلون فى الحاكم قوة تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط
بها ، بحيث يتحتم عليهم التخلص من الحاكم بعد مرور ثلاثين سنة على
حكمه وذلك بقتله ، حتى لا تتأثر مظاهر الطبيعة بشيخوخته وضعفه ،
فتقل المحاصيل ونتاج الماشية ، فكانوا يسارعون بقتله ، واحلال شاب
قوى صحيح الجسم خلوا من مظاهر الضعف فى مكانه .

هذا وماتزال طبيعة «أعياد سد» غامضة ، وان كان من الواضح
أنها كانت تھى فى صورة ما تجديد القوة الملكية ، وكان يؤتى بصورة
لمختلف الالهة الاقليمية الى العاصمة ، حيث كانت تقام الاحتفالات ،
ويقدم «حجر رشيد» فى نصه اليونانى اصطلاح «عيد العام الثلاثين» ،
والواقع أن الكثيرين من الفراعنة احتفلوا بأول عيد لهم فى العام
الثلاثين من الحكم ، ومع ذلك فهناك شذوذ فى القاعدة لا يمكن توضيحه ،
وان ذهب بعض الباحثين الى أن مدة الثلاثين عاما انما كانت تحتسب
من يوم اعلان ملك المستقبل ولما للمهد (٣٣) ، وافترض البعض الآخر

32) B. Gunn, ASAE, 28, 1928, P. 158.

33) H. Frankfort, Kingship and the Gods, 1948, P. 79.

أن الذى يحدد الاحتفال بعيد سد انما هو حالة الملك الصحية ، ومن ثم
 ليس هناك ما يدعو لتحديد عدد من السنين ليقوم الملك بالاحتفال بهذا
 العيد^(٣٤) ، فقد احتفل تحوتمس الرابع بعبيدين فى أقل من عشر سنوات ،
 بينما انتظر أمنحتب الثالث ثلاثين عاما — وان عاد فاحتفل بهذا العيد
 فى أعوام حكمه الرابع والثلاثين والسابع والثلاثين — وربما كانت حالة
 تحوتمس الرابع الصحية هى التى دفعته الى الاحتفال بهذا العيد ،
 وعلى أى حال ، فان اخناتون لم ينتظر طويلا للاحتفال بعيد سد ، فقام
 باعادة تجديد الاحتفال بهذا العيد فى السنة الثانية عشرة ، والسنة
 الخامسة عشرة ، وأما رمسيس الثانى فقد احتفل بعيد الثلاثينى
 ثلاث عشرة مرة ، على الأقل ، ابان فترة حكمه الطويل الذى أربى على
 سبع وستين سنة ، كما يبدو ذلك من نقوش جبل السلسلة الستة فضلا
 عن نقوش أرمنت والكاب وجزيرتى سهيل وبيجة^(٣٥) ، فيما بين الشلال
 الاول ودابود .

وهناك عيد يتصل باحتفالات التتويج ، وهو عيد احتفال الملك بأبيه
 مين ، رمز الاخصاب ، ذلك لانه من البدهى أن يبدأ الملك حكمه فى مصر ،
 البلد الزراعى بتقديم القرابين للاله مين ، رمز الاخصاب واله الحقول .
 فقد كان فرعون يمثل وهو «بتألق كالشمس المشرقة» فيبأرح قصره ،
 «ويتخذ مكانه فى المحفة موليا وجهه شطر بيت أبيه مين ليشاهد جماله»
 وهو محمول على عرشه فوق محفة يحملها عادة اثنا عشر شخصا وإلى
 اليمين واليسار حاملا المروحيتين الملكيتين ، وربما يكونان من أولاده ،
 ويتقدم الموكب كاهنان يحملان المباخر ، يليهما الكاهن المرتل ، حتى
 يصل الموكب الى مقر الاله مين ، الذى يخرج من قدس أقداسه ويتقدم
 لملاقاة الملك فى المعبد فى موكب عظيم يتقدمه العجل الأبيض المقدس عند

34) K. Sethe, AZA, 26, 1898, P. 64.

35) F. L. Griffith, JEA, 5, 1918, P. 16-64.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 207.

ASAE, 42, 1943, P. 29 F;

وكذا

وكذا

وكذا

H. Gauthier, Le Temple d'Amada, Cairo, 1913, XXIX, 133, 136.

مين ، ثم صف من الكهنة يحملون الشارات الملكية والرموز الالهية
 وصور ملوك الوجهين القبلي والبحري الاقدمين ، ويقف الملك على شرفة
 بها ساريتان عليهما لباس رأس الاله ، ثم يطلق الكهنة أربع أوزات الى
 أركان السماء الاربعة لتتقل الانباء بأن حور بن أوزير وايزة قد وضع
 على رأسه التاجين ، الابيض والاحمر ، وعندما يتم اعلان فرعون للالهة
 ملكا على أرض الكنانة ، يتقدم برفع قربانه الى تماثيل أسلافه ، ثم
 يقطع حزمة من سيقان القمح كأول ثمار للأرض وذلك بمنجسل موسى
 بالذهب ، وتكريما لأوزير أول ملك علم شعبه الزراعة ، ثم يعود الملك
 بعد ذلك الى قصره الملكي ليمارس سلطانه ويتقبل التهاني من رجال
 بلاطه (٣٦) .

(٣٥) أرمان ورائكه : المرجع السابق ص ٥٥ - ٥٧ ، نجيب
 ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٣ .

(١) في الدولة القديمة :

كان الملك في عهد التأسيس وفي النصف الاول للدولة القديمة الها وحاكما وسيدا لشعبه . حتى دعيه بالاله العظيم ، وكان شخصه الالهى لا يمس ولا يقترب أحد منه : بل ان القوم اعتبروا اسمه مقدسا لا يجوز ابتذاله أو النطق به ، وانما يكفى عنه ببعض الالفاظ والعبارات تقديسا واحتراما . فكان يقال عنه «الاله» أو «جلالته» أو «حور الذي في الاتصر» ، أو يشيرون الى القصر نفسه بدلا من أسم الملك ، فيقولون «البيت العظيم» أو «البيت الملكى» أو «المقام» أو «المكان المحروس» وكانوا يذيلون أسم الملك أو لقبه بالدعاء له «له الحياة والسعادة والرحمة» ، كما كانت هناك ثلاث صفات آلهية متصلة بالملكية وهى «حو» أى اللغظ ذو السلطة أو الامر الخالق ، و «سسيا» ومعناها الادراك أو الفهم ، و «ماعت» ومعناها العدل (١) .

وتستمر هذه الهالة من القداسة والتأليه ، وبخاصة في عهد الاسرة الرابعة ، حيث نرى المتخية الالهية في قمة سطوتها ، وعنفوان قوتها ، في تسلطها على شعبها ، وايمانها بنفسها ، فضلا عن ايمان شعبها بها ، ولتتنا في نفس الرقت تكاد نحس بأن شيئا ما سيحدث ليرقق من هالة التقديس . حيث نرى الملك «خفرع» يلقب نفسه بلقب «سارع» أى «ابن رع» (٢) : وأن كان هناك من يذهب الى أن هذا اللقب إنما ظهر منذ أيام «خوшо» ، بل من أيام «سنفرو» (٣) .

1) J.A. Wilson, The Intellectual Adventure of Ancient Man, Chicago, 1911, P. 57, 75, 53 F.J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 105.

2) A.H. Gardiner, Op. Cit., P. 71.

3) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Égypte. Paris 1907, P. 64, 77.

W.M.F. Petrie, Op. Cit., Pl. VIII, 12.

R. Weill, Sphinks, 15, P. 11-12

وكذا
وكذا

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح الى أن الفرعون انما كان يهدف من ذلك الى مسيطرة مذهب الشمس في نشاطه الواضح خلال عهد هذه الاسرة ، وهي مسيطرة بدأها الملوك منذ عصر الاسرة الثانية ، وفي أوائل الاسرة الثالثة ، وربما سار عليها سنفرو ، حين شاد معبد شعائره ، ومعبد شعائر أبيه الى الشرق من هرميهما ، بدلا من ناحية الشمال ، ثم استمر خوفو في هذه المسيرة حين سمى بعض أبنائه بأسماء يتداخل فيها اسم رع ، مثل جد فرع وبافرع وخفرع ، وأما الهدف الثانى ، فيما يرى يونكر ، فهو رغبة الفرعون على التدليل فى أنه يمتلى العرش بناء على بنوته للاله رع ، وبتفويض منه ، وربما عن رغبة منه كذلك فى أن يتبرك بأسمه ، وأن يكتب له دوام مثل دوامه ، ولو خلال حياته الثانية ، وكثيرا ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الامل الاخير للموكها ، وكانت تدعو لكل منهم بقولها « عاش مثل رع ، والى الابد » (٤) .

وفى عهد الملك « من كلورع » (منقرع) تبدأ سياسة جديدة يظهر فيها نوع من الميل نحو الانحراف فى صميم عقيدة الملكية الالهية ، ومن ثم فقد بدأ فرعون يسمح لابناء المقربين من كبار الموظفين بتلقى تعليمهم مع أبنائه فى القصر الملكى ، فهناك « بتاح شبسس » الذى تعلم مع الاطفال الملكيين فى القصر ، وفى القاعات الخاصة ، وفى الحريم الملكى وربما كانت رغبة الفرعون فى أن يشب هؤلاء الاطفال مخلصين للعرش ، مؤمنين بتقاليده (٥) ، ويستمر « شبسكاف » فى سياسة التقرب الى رعاياه ، بل ويخطو خطوة هى الاولى من نوعها فى تاريخ الفراعين ، فيزوج ابنته « خع ملعة » من « بتاح شبسس » (٦) وفى هذا الزواج ما فيه من خروج على التقاليد التى تؤمن بها الاسرة المالكة التى تعتقد فى

(٤) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول - ص ٣٤٨ ، وكذا

H. Junker, Die Politische Lehre, P. 63-64. وكذا

G. A. Wainwright, JEA, 25, 1939, P. 30 F. وكذا

5) H. Kess, ZAS, LXIV, P. 93, Urk., I, 1932, P. 251 F.

6) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 257.

ألوهية ملوكها ، فضلا عن خطورته على العرش نفسه ، والذي كان ينتقل عن طريق خط المرأة ، فقد كانت الزوجة الكبرى للملك هي الوريثة التى يستطيع الملك الوصول الى العرش عن طريق الزواج منها ، ذلك لان الملكة ملكة بحق المولد ، بينما كان الملك ملكا بحق الزواج (٧) .

وتنتهى الاسرة الرابعة بنهاية لا نعرفها على وجه اليقين ، ثم تاتى الاسرة الخامسة ، وترجع حقها فى العرش الى ارادة ربانية قديمة ، وأصل مقدس ، فتخرج على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وكانت ديانتة قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، ولعل قيام هذه الاسرة بهذه الوسيلة ، انما كان ضربة للملكية الالهية ، اذ بدأت تفقد الكثير مما كان لها من قداسة لولعل السبب أن هذه الاسرة انما قامت أصلا بدافع من كهانة عين شمس (ايون) ونفوذها ، ومن هنا كان فراعين الاسرة الخامسة يدينون بالولاء لرع نفسه ، صاحب الفضل فى أرتقائهم عرش الكنة ، ثم لكهانتة الذين ساندوهم وعضوهم فى حكمهم ، وكان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الماو ك ونجاح رع فى تحدى السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين .

وهكذا أصبح الاله رع سيد البلاد بعد أن كان الفرعون سيدها ، وأصبح لكهانتة جزء غير قليل من ثروة البلاد عن طريق المعابد ، بعد أن كان الفرعون يملك كل خيرات مصر ، اذ سار ملوك الاسرة الخامسة على سنة أقامة المعابد الكثيرة لرع ولغيره من الالهة ، وايقاف الاموال للصرف عليها ، رغبة منهم فى ولاء كهانتها ، فضلا عن الظهور أمام الشعب بمظهر الثقا ، هذا الى جانب التودد الى كبار رجال الدولة ،

7) A. M. Margaret, the splendour that was Egypt, London, 1950, P. 102.

وانظر (محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة ص ٣٤ - ٣٦) .

حتى وصل البعض منهم الى منصب الوزارة ، والذي كان من قبل مقصورا على الامراء دون سواهم ، حتى أنه لم يل الوزارة اiban عهد هذه الاسرة سوى اثنين من الامراء ، هما « سخم كارع » و « نفرششم شسات » ، هذا فضلا عن السماح للكثيرين بمصاهرتهم ، ومن ثم فقد تزوج البعض بأميرات من البيت المالک ، بل أن واحدا من الفراعين زوج أحدى الاميرات بقزم يدعى « سنب » كان يعمل في بلاطه ^(٨) ، أضف الى ذلك كله أن الفراعين قد سمحوا لكثير من الابناء الذين تربوا في قصورهم بأن يرثوا مناصب آبائهم بعد موتهم ، بل أن الفراعين انما بدأوا يتراخون في استعمال حقهم في نقل حكام الاقاليم من اقليم الى آخر ، الامر الذي يشير الى مدى ما أصاب الملكية من تردد ، والى اعطاء حكام الاقاليم سلطة في اقاليمهم تنافس سلطة الملكية نفسها .

وبدأت الاسرة السادسة بالمالک « تنسى » الذي يقرب اليه كهانة منف ويضفى على نفسه لقب « المصبوب من بتاح اله منف » ، ربما لانه اعتمد عليهم في توليته العرش ، ولكن سرعان ما يستطيع كهانة عين شمس من استعادة سلطانهم في عهد « مري ان رع » الذي يصيف اسم رع الى ديباجه اسمه ، وعلى أى حال ، فلقد ازداد نفوذ الامراء المحليين ، وازداد اغداق الملك على المعابد ، وفقد ملوك الاسرة من وراء ذلك الكثير من المال والسلطان ، فلبأوا الى علاج ذلك بأعادة تربية أبناء الحكام في قصورهم حتى يضمنوا ولاءهم حين يتولون حكم اقاليمهم ، فضلا عن إعادة منصت « حاكم الصعيد » الذي كان في الاسرة الخامسة

8) A. Mariette, Op. Cit., P. 112-113, J. H. Breasted, ARE, I. P. 257, Urk., I, P. 51-53.

وعن المولد الالهى للاسرة الخامسة : انظر : محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الثانى ص ١٥٦ - ١٦٠ ، وكذا

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 81-90.

A. Erman, LAE, P. 43-47.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 220-222.

R. O. Faulkner, JEA, 37, P. 114.

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 25-30.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

يؤكد اليه جمع ضرائب الصعيد ، والاعتراف على حكمه ، ولكنه ألغى في عهد «تتسى» ، غير ان ذلك لم يغير من الامر شيئا . شدد اصبحت الان تشريفا لحامله ، احتر منه لقب فعليا ، ومن ثم عقد اشترك فيه اسر من واحد في وقت واحد ، كما في حالتى حاكم النوصيه وحاجم ادمو ، ومع ذلك فقد رأى فيه حكم الاقاليم اضعافا لعمودهم ، وربما عابا في سبيل استقلالهم باقاليمهم ، فعملوا جاهدين على العله امان تسيخوخه (ببى الثانى) الطويلة ، التى ظهر فيها واضحا ضعف سلطان فرعون (١٧) .

(٢) عصر الثورة الاجتماعية الاولى :

ظهرت اللا مركزية في احرية ايام السولة القديمة ، فطلت من الوهية الارعون ورفعت من هله المتقديس الى خان يهط بها . او يحيط بها نفسه . ومن هنا فزاد من سدر الملك ومرتزه . بينما مى ن الوقت نفسه نزع من نسان السبرء وحكام الاقاليم ، وبذلك اصبحت فكرة المساواة مقبولة من الناحية النظرية ، ومحدد لم يعد الملك ذلك الاله المنزوع ، والحاكم الجبار فوق البشر ، والذى يوجبو رعاياه عنده ورضاه ، لملمهم يبالون من وراء ذلك مرمى ورحمه في الدنيا والاخرة ، وانما اصبحت شخصا غير معصوم يتحد عن ضعفه وعن خطاياه ، دما يتحدث الآخرون من رعاياه ، ويغدم لنا « خيتى » ملك اهناسية في وصيته المشهورة لولده « مرى كارع » صورة للاتجاه الجديد ، الذى ساد هذا العصر في لغة ملؤها التواضع غير المألوف عند الفراعين ، ففى حديثه عن الحروب التى دارت رحاها بين طيبة وأهناسية على الأرض المقدسة في أبيدوس ، يحاول أن يبرر موقفه بأن أنتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه ، وأنه لم ينبأ بها الا بعد وقوعها بومع ذلك فقد أستحق العقاب من الالهة (١٨) ، وفي نفس الوصية نجد نصا تزداد أهميته لأن قائله فرعون مصر ، الذى يعترف له شعبه ، ولو

(٩) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٣٦ - ٤٢ ،
ايتين دريوتون وجاك فاندييه : مصر ص ٢٣٨ ، ٢٦٢ .
10) J. A. Wilson ANET, 1966, P. 417 .

نظريا ، بالالوهية الملكية ، وهو أن سعادة الانسان لا تتوقف على رضى
الفرعون ، وإنما على ما قدمه من خير في الدنيا ، ومن هنا فإن الحياة
الطيبة الخيره في الدنيا هي عهد الحياة في الآخرة « فالروح تذهب الى
المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها » (١١) .

وفى هذا العصر كذلك تجرأ شخص على التشهير بالفرعون ، ففى
« تحذيرات أيو - ور » نرى الحكيم المصرى يتهم فرعون بأنه سبب
الفوضى والاضطرابات التى سادت البلاد ، فرغم أنه قد أعطى الحكمة
والسلطة ، إلا أنه بقى فى قصره يحيط نفسه بمجموعة من المنافقين ،
حتى ساءت الحال وفقد الناس الامن والامان ، حتى اذا سار ثلاثة فى
الطريق فلا يعود الا اثنان ، فالعدد الاكبر يقتل الذين أقل منهم عددا ،
ثم يقص عليه بلايا الناس ثانية ، ثم يبلغ به العنف أشده فيتمنى له أن
يذوق البؤس بنفسه ، وبيت القصيد فى هذه المناقشة أن مكانة فرعون
لم تمد كما كانت ، ففيها اتهام مرير من مصرى لفرعونه الاله بأنه سبب
البلايا التى عمت البلاد ، ثم التمنى له بأن ينال نصيبه منها ، وحين يرد
الفرعون على الاتهام بأنه حاول جهده أن يحمى شعبه ، يتهمه محدثه
بالجهل وعدم الكفاءة للمنصب الخطير (١٢) ، ولم يقتصر الحكيم المصرى
على ذلك وإنما رسم لفرعونه صورة للملك الامثل ، انه الحاكم العادل
الذى لا يحمل فى قلبه شرا لرعيته ، والذى يعمل جهده على جمع كلمتها

11) Ibid., P. 415.

وعن الوصية أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة
- الجزء الاول - ص ٣٠٦ - ٣٢٦ ، وكذا

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 180-190.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 97-109.

A. Gardiner, JEA, I, P. 20-36.

A. Erman, LAE, 1927, P. 75-84.

RdE, 7, 1950, P. 176-180, 12, 1960, P. 90-91.

(١٢) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٩٠ - ١٩٣ .

وتوحيد صفوفها ، انه كالراعى يصرف يومه فى جمع قطيعه بعضه الى البعض الآخر (١٣) .

٣ - فى الدولة الوسطى :

ظل المصريون المfidemy ، كما خائفوا قبل التوراه الاجتماعيه ، على مبادئهم المfidemy ، لم يفرطوا فى المبدأ الذى ينادى بان الحجم من نصيب الملك الاله ، ولكن نظرتهم اليه قد تغيرت ، فلم يعد للملك تلك الصفات التى كان يتمتع بها الفرعون ابان سطوة المثنىة الالهيه ، والتى دن ليها الملك الحجم الاحماء ، واقوى الاقوياء . واخضع العظماء ، وانه لا يسحق ان يناله ضعف أو تمتد اليه يد البشر بسوء ، واما اصبح يحسى ما يحشاه غيره من الناس ، ويفهم لنا «امنمحات الاول» راس الاسره الماديه عشره الدليل على ذلك حين يحكى لولده «سنوسرت» قصه المواقفه التى حيتت صده ، فيحدره من الناس لان نجاريه الشخصيه عرفنه ان اقرب الناس اليه هم الذين غدروا به . وينصحه بان يحافظ على نفسه بنفسه ، وانه قد هوجم فى مضجعه فى استراحه له بعد العشاء (١٤) ، مما يشير بوضوح الى ان مكانة الملك قد تغيرت ، وأن الملوك أنفسهم قد أحسوا بذلك ، فنفد رأينا فى هذه القصة كيف أصبح الاله عرضه للمقتل ، بل أن البعض أنما يذهب الى انه قتل فعلا ، وكيف انهار ، وكيف يعترف بانه لا شجاع فى ظلمة الليل ، حتى ولو كان هو الملك الاله ، وكيف أصبح لا يجد من يثق فيه ويعتمد عليه فى الخطوب الجسام غير ولده ليحميه من أى شر يراد به ؟ بعد أن كان هو الذى يحمى نفسه وبيته وشعبه .

ولو نظرنا الى الآثار لوجدنا اختلافا واضحا ، فالأهرام التى

13) A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, 1927, P. 105-106.

14) Ibid., P. 72-73.

ANET, P. 418-419

JNES, 16, P. 17n-190

BIFAO, 34, P. 63-74.

وكذا

وكذا

شيدت لتكون مقرا للملوك تعكس الفرق بين مكانتهم في الدولة القديمة ومكانتهم في الدولة الوسطى ، فالاولى تمتاز بفخامتها وانتقانها المعجز في هندستها ، واندقه في تخطيطها . نالهرم الاكبر مثلا هو أعظم مقبرة في العالم أجمع ، بنيت لتكون قبرا لفرد واحد ، كما أنه أشهر بناء أثيرى في الدنيا كلها ، ولم يحدث قبل أيام خوفو أو بعده ، أن يبنى ملك مثل هذا المستقر الابدئ الفخم ، وأما مقابر الدولة الوسطى فلم تكن في ضخامة وعظمة مقابر الدولة القديمة ، كما تعكس الاهرامات مكانة الملوك في الدولتين ، حتى أن المؤرخين قد اختلفوا في قيمة الفن في الدولتين ، ومن ثم فان « برستد » يرى أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بها الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة (١٥) ، وأما « هول » فالرأى عنده أن النقش البارز وتماثيل الملوك في الدولة الوسطى تقدم لنا صورا لقوى لم يستطع فنانون الاسرة الرابعة أن يقدموا على مناعتها أو الوقوف أمامها (١٦) .

ولكن الرجلين بعدا حقا عن محبة الصواب ، فليس الامر أمر حيوية وفردية ، ولكنه أبعد من ذلك كثيرا ، ان العصرين يختلفان فعلا ، ان فنان الاسرة الرابعة رسم ومثل ما يراه ، وكذلك فعل فنان الدولة الوسطى ، ان الاول رأى الما يحرك قوته في عنفوانها فاستشف ما وراء الصورة وأستلهمه ، فخرج تمثال خفرع المشهور في جلاله وقديسيته ، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلا من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك العضون تسرى في أنحاء وجهه وجبهته ، انه رجل وليس لها ، ان فيه العواطف الانسانية ، وفيه الضعف البشري ، ورسم الفنان ونحت ما رآه لم يحد عنه ، والفنانان أتقنا عملهما من غير شك ، وقدموا الصورة التي كان يفترض من فنان

15) J.H. Breasted, A History of Egypt, N. Y., 1946, P. 201.

16) H. R. Hall, The Ancient history of The Near East, London, 1963, P. 163.

مارس فنه دهرًا طويلًا أن يقدمها على وجهها الصحيح (١٧) .

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك رأس تمثال الملك سنوسرت الثالث
بمتحف جامعة كمبريدج والمصنوع من حجر الجرانيت الأسود ، حيث
نجد في ملامح هذا التمثال ما ينم عن قوة الإرادة ، واعتزاز صاحبه
بنفسه وأعماله ، كما يدل في الوقت نفسه على بعض مشاعر الأسى
والحزن التي تترسم على عيني التمثال ، وخاصة تلك الجيوب الواضحة
في أسفل العينين ، والتي تدل على أن صاحبا ما كان يتمتع بحياة ملؤها
الرخاء والهدوء ، وإنما كان رجلاً شديد البأس ، قوى التسكيما ، هذا
فضلا عن الفم والتصاق الشفة العليا بالسفلى ، وذلك الخط العميق
الذي يترسم على الذقن في كل نواحي الفم ، مما يشير إلى نفس المشاعر
والاحاسيس بوضوح على وجه هذا الملك ، والتي ما كان في مقدرة الفنان
على تسجيلها إلا في حالة بدء تداعي عقيدة الملكية الالهية ، وأحلام
عقيدة أخرى تقوم مقامها ، خلاصتها أن الملك ، وإن كان حسب القابله
التقليدية ، إنما يعتبر نفسه من أسرة الالهه ، وأنه هو نفسه الله ، غير
أن واقع الامر أنما يدل على أنه كان يمارس حياته اليومية وينفذ
مشاريعه ويقود جيشه في حملاته الحربية ويدير شئون دولته ، كرجل
ناجح ، أستطاع أن يقضى على نفوذ الامراء وحكام الاقاليم بما يحقق
الخير والامن لبلاده (١٨) .

هذا وقد أبقت الثورة الاجتماعية على المبدأ الذي ينادى بأن
الحكم من نصيب الملك الاله ، ولكنها في الوقت نفسه ، نادى بحقوق
الافراد وبالعادلة الاجتماعية ، مما جعل الملك الاله راعيا لشعبه يسهر
على مصالحهم ويفنى نفسه في سبيل سعادتهم ، ومن ثم فقد أعطت
الثورة للملوك مركزا جديدا ، فلم يعد الملك ذلك الاله الجبار ، الحاكم

(١٧) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الاول
ص ٣٧٠ .
(18) A. Shorter, Every Life in Ancient Egypt, London, 1932, P. 191.

فوق البشر ، وانما غذا انسانا له ما للانسان من ضعف ونزوات ، وحاكما يعمل لخير شعبه ، ويجهد نفسه على ان يكون دائما اليقظة حتى لا يؤخذ على غرة ، شأنه مع شعبه ، وشأن شعبه معه ، شأن أى انسان قديفعل الخير فيجد خيرا ، وقد لا يجد سوى الشر ، وخلاصة القول أن الملك قبل الثورة كان الها أكثر منه انسانا فأصبح بعد الثورة انسانا أكثر منه الها ، ذلك لان ضعف الملكية في العهد الاقطاعى وضياح قدسيته ، قد هبط بها كثيرا من عليائها ، كما أن الدعوة الى العدالة الاجتماعية أدت الى ارتفاع شأن الشعب ، ومن ثم فلم تعد للملكية تلك الهالة القديمة من المهابة والتقدیس التي كانت لها فيما قبل الثورة الاجتماعية الاولى (١٦) .

(٤) في الدولة الحديثة :

أستطاع فرعون الدولة الحديثة أن يكونوا لمصر امبراطورية واسعة ، امتدت من أعلى نهر دجلة والفرات شمالا ، وحتى مدينة نباتا عند الشلال الرابع جنوبا ، بل حتى النجعة على مقربة من شندى على مبعة ٧٠ ميلا الى الشمال من الخرطوم ، وكان الفضل في تكوين هذه الامبراطورية يرجع ، في عرف القوم ، الى الهين هما « الملك الاله » الذى قاد الجيوش ، والاله الذى بارك الجيوش ، وأذن بالحملات ضد الاسيويين ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود طريقهم في المعركة ، وكان على الجيوش أن تدفع ما عليها من دين للاله آمون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر ، وكان عليهم أن يزيدوا من القرابين التي يقدمونها اليه أعترافا بفضلها ، ومع مضي الايام زادت ثروة آمون كثيرا ، وأصبحت مصر وعانتها مثل بآعباء الكهنة وأملاك المعابد التي كانت تتمتع بامتيازات

(١٦) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر
 الفراعنة ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

خاصة ، وفي نفس الوقت فإن الامبراطورية استدعت جنود محترفين ، ولهذا أصبحنا نرى تنظيما للجيش بصفة مستمرة ودائمة وكان رجاله يحصلون مرادز اجتماعيه ممتازة في البلاد ، كما كان الضباط العاملون في الميدان الذين يظهرون شجاعة في القتال يخافون بهدايا من الذهب والاراضى والارقاء ، أو تعطى لهم وظائف مريحة في السلك المدنى ، وأصبح كثيرون منهم ينفلون وظائف رؤساء مديرى البيوت في الضياع الملكية ، وهكذا أصبح القوم يقدرون للضباط الممتازين قدرهم ، بل لقد أنهى الامر في أخريات أيام الاسرة الثامنة عشرة بأن فاز العسكريون بالكفة الراجحة (٢٠) .

ومع هذا كله ، ورغم قوة الكهنة من ناحية ، وقوة الجيش من ناحية أخرى ، فلقد دخل المبدأ القائل بأن الملك وحده هو الدولة ، هو المبدأ الرسمي ، فقد كان فرعون على رأس الكهانة والادارة المدنية والجيش ، سيدا مطاعا ، هذا حقه الآن ، كما كان حقه دائما في الماضي ، وهو يعتمد في ذلك على مركزه المندس حابن لزلته آمون رع ، راعى الملك لها تقدم له مشاعر التقديس في كل البلاد الأجنبية الخاضعة للامبراطورية المصرية . وبخاصة في النوبة ، وتأتدت كذلك قدسية فرعون بوصفه الها عندما جرت العادة منذ ايام الاسرة الثامنة عشرة بأن يتزوج الملك من سيدة تحمل لقب «الزوجة الالهية لآمون» ، وهو لقب كان دائما يعطى لابنة الملك التى اختيرت لتصبح فيما بعد ملكة ، وبذلك تتأكد صفتها الملكية الخاصة على أساس أنها تنحدر من دماء ملكية خالصة (٢١) ، وهذا فضلا عن أن يصبح ولدها حاكما شرعيا من ورثة آمون ، رب طيبة : وساحب مصر . وسلطان الامبراطورية جمعاء .

وليس هناك من ريب في أن حكم الفرعون في الدولة الحديثة انما

20) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 185-186, 188.

(٢١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر - القاهرة ١٩٥٠ ص ١٣٠ - ١٣١ .

كان حكما مطلقا ، وأن القانون لم يكن أكثر من مجرد تعبير رسمي لأرادته ، فضلا عن أن يتفق مع ما يصدره فرعون من أوامر تسند الى صفاته الالهية الثلاثة وهي «الحو والسبا والماعت» أى السلطة والادراك والعدل ، وبدهى أنه كانت هناك تشريعات ملكية تناسب بعض الحالات الخاصة ، كما كانت هناك سوابق من تشريعات ماضية^(٢٢) .

وبدهى أن الفرعون كان يعتمد فى ذلك على ألوهيته التى قامت الروايات الكهونئية بدور بارز فى تقويتها ، وإن كان الأساس المتين فى قوة الفرعون إنما يعتمد كثيرا على اشرافه الكامل على ادرات الحكومة المختلفة ، بما فيها الجيش والشرطة ، كما كان الفرعون هو الذى يقوم بتعيين القضاة ، على اعتبار أنه القاضى الاعلى ، ثم يشرف على كل هذه الوظائف عن طريق مكاتب مختلفة ، من الوزراء الى أقل الموظفين ، بل هو نفسه ، كما يصفه أحد الوزراء (رخمى رع) إنما كان «سريع الادراك ، خبيرا ببواطن الامور وظواهرها ، ما كان يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها ، فكان فى ذلك كالاله تحوت فى معارفه ، يكاد يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها ، وما عرف أمر التوى على الناس الا وجد الملك منه مخرجا»^(٢٣) .

وكان من حقوق فرعون تعيين رجال الدين وفصلهم ، ومن ثم فقد ذهب «رعمسيس الثانى» الى طيبة بعد اعتلائه العرش ليشارك فى الاحتفالات الخاصة بعيد «أبوت» (وفيه يقوم الاله آمون من الكرنك لزيارة الحرم الجنوبي ، أى معبد الاقصر ، ولمدة أحد عشر يوما ، زادت فى الاسرة العشرين الى ٢٧ يوما) ، وقام بحور الكاهن فيه ولكنه لم يكتف بلبس رداء الكهنة فحسب ، وغيه الفراء الذى كان يلبس فوق الملابس الملكية ، بل أتى بعمل فذ فى التاريخ المصرى ، وذلك بأن نقش على المنظر العبارة التالية «الكاهن الاول لامون ، ملك مصر العليا

22) N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-mi-Re at Thebes, N. Y., 1943, P. 88.

23) ARE, II, P. 276.

والسفلى ، رعمسيس الثانى معطى الحياة» ، وينتجز الفرصة في عودته الى الشمال ويتوقف في أبيدوس ليقدم اللواء للاله «أوزير أونوفر» (الكائن الجميل) ، وليصدر أوامره بتعيين «نب أو ننف» الكاهن الأكبر للاله «أونوريس» في «ثنى» وللاله حاتحور في دندرة ، كاهنا أكبر للاله آمون (٣٤) .

وقد برر رعمسيس هذا التعيين على أنه وحى من آمون ، وهكذا نرى الدوافع السياسية تلعب دورا هاما في هذا التعيين ، ذلك لان «نب أو ننف» لم يكن واحدا من كهان آمون في طيبة ، وانما كان من كهان «أونوريس» في أبيدوس ، وحاتحور في دندرة ، مما يشير بوضوح الى أن رعمسيس الثانى انما كان صاحب الرأى في اختيار كهنة آمون في طيبة ، وان استطاع أن يترجمه بمهارة على أنه كان بارادة من آمون نفسه ، ومع ذلك فهناك من يعتبر يوم تسليم «قوت عنخ آمون» للكهنة بجميع مطالبهم بعد فشل ثورة اخناتون الدينية ، هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعين سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن السلطان السياسى لكهنة آمون لم يكن قويا كما تصوره الناس الى سنوات مضت ، فمعابد الالهة يجب أن ينظر اليها كغيرها من مصالح الحكومة ، وأن الفرعون ، من الناحية النظرية ، عليه أن يقوم بآداء الطقوس اليومية في كل معابد البلاد ، وأن الكهنة كانوا يقومون بآداء الطقوس كممثلين للفرعون ، ومن هنا فان الكهنة وموظفى المعابد الاخرى كانوا في الحقيقة وكلاء للفرعون ، شأنهم في ذلك ضباط الجيش وجامعى الضرائب ، وأن الفرعون له نفس القوة في تعيين وفصل الكهنة ، كما في المصالح الحكومية الاخرى . صحيح أن الكهنة كان في امكانهم أن يورثوا وراثتهم لابنائهم من بعدهم ، ولكنه صحيح كذلك أن هذا الامر كان يمكن أن يحدث في أقسام الحكومة الاخرى ، وصحيح كذلك أن الكهنة

24) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 257-258.

الغنية ، وبخلاصة في الكرنك قلعة آمون ، كانت تشكل خطرا محتملا الوقوع ضد الفرعون الضعيف ، ولكنه صحيح كذلك أن الجيش وأهل بيت الفرعون نفسه انما كانوا يشكلون نفس الخطر ، وهكذا فقد كان الفرعون القوي ، في أغلب الاحايين ، يشرف على الكهانة اشراها تماما بنفس الطريقة التي كان يدير بها قصره وجيشه (٢٥)

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى مصر لم تعرف عبادة الملك الحى الا في عهد الدولة الحديثة ، اذ كان القوم حتى تلك الفترة ، يستنكفون ببناء المعابد وتقديم القرابين للملك ، وهو ما يزال بعدد على قيد الحياة ، ومن هنا فان فكرة ألوهية الملك الحى لم تمثل ماديا الا منذ عهد «أمنمستب الثالث» الذى لم يشأ أن يخامر بذلك في مصر ، وانما بدأها في السودان عندما انتشرت الديانة المصرية هناك ، وذلك عندما شيد معبده في «صولب» ، على مبعده ٥٥ ميلا شمالى الجندل الثالث ، بغية أن يعبد فيه بجوار الاله آمون ، بل انه رفع زوجته «نتي» الى مرتبة التقديس ، فشيدها معبدا في «سدنجا» ، على مبعده ١٣ كيلا شمالى صولب ، غير أن هناك من يرى أن فرعون لم يعبد بعد وفاته ، كما كان منتظرا ، لان ولده اخناتون انما يظهر في معبد صولب بملابس ملكية عادية ، وليس بالملابس الخاصة بعبادة الملك ، وان تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته (٢٦) .

وأما رعمسيس الثانى فقد أدخل عبادة شخصه بين الالهة في معابده التى أقامها في النوبة ، كما أقام مدينة عسكرية في «هربيط» مركز كثر صقر شرقية ، أدخل فيها عبادة شخصه وهو حى (٢٧) ، وأما رعمسيس الثالث فهناك لوحة عثر عليها في منف عام ١٩١٥م ، تشير الى عبادته

25) W.F. Edgerton, The Government and Governed in the Egyptian Empire, JNES, 6, 1947, P. 156.

(٢٦) سليم حسن : مصر القديمة ١٠٥/٥ - ١٠٦ وكذا محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث ص ٢٥٤-٢٥٥ .
(٢٧) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ١٩٥ .

وهو حى فى مدينة منف ، والى تعيين اثنين من الرجال ، واثنين من النساء ، لخدمة طقوس تمثاله ، فضلا عن احصائيات تفصيلية للقرايين اليومية والشهرية المختلفة من الطعام والشراب والازهار والملابس التى صنعت لتمثال الملكى ، بل أن هناك من يذهب الى أن عبادة الفرعون انما كانت فى العاصمة المصرية «بى - رع مسيس» (قنتير) كذلك ، رغم أن بردية هاريس وسجلات الفرعون فى مدينة هابو لم تشر الى أى شىء يتصل بعبادته وهو حى (٢٨) .

28) A.R. Schulman. A Cult of Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22. 1963, P. 177-184.

ثم قارن أعلاه ص ١٢٧ - ١٢٨ .

الفصل الثانى

التنظيم الادارى

كان الاساس الاجتماعى والسياسى الذى قامت عليه الحضارة المصرية القديمة هو التاكيد بان مصر يحكمها اله ، وأن هذا الاله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة ، وانه عليم بكل شىء ، وأن البلاد بما فيها ملك يمينه ، ومن هنا كانت السلطات كلها — خاصة عهد التأسيس والنصف الاول من أيام الدولة القديمة — تتركز بشكل واضح فى يده ، وقد باشر الملوك ، وبخاصة الاوائل منهم ، سلطاتهم بصورة تكاد تكون فعلية ، ومع ذلك فان هذا الوضع غير مقبول من الناحية العملية ، ذلك لان الملك لن يستطيع وحده أن يتحمل مسئوليات الحكم الادارية^(١) والقضائية والدينية فى جميع البلاد ، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى تلك الاعمال ، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات .

-
- (١) يتكون التنظيم الادارى فى العاصمة من الادارات و المصالح الحكومية التالية :
- ١ - الادارة الملكية المركزية ، وتسمى بيت الملك (بر - نحر) وهى غير القصر الملكى (بر - عا) وكانت المقر الرئيسى للحكومة ، وتتكون من ادارة الوثائق الحكومية وادارة السجلات أو الاختام وادارة النسخ والمسؤوليات وادارة الخزائن ، ولذل منها فرع فى مختلف الاقاليم .
 - ٢ - مصلحة الحقوق : وتتبعها الاراضى الزراعية على ذفاف النيل ، فضلا عن تلك الواقعة على حدة الصحراء والمحيط بالمقابر والاهرامات المائية .
 - ٣ - مصلحة الخزائن : وتسمى بيت المال الابيض (برجج) ، وتترأس ادارتها تحت اشراف الوزير ، مدير البيت الابيض المزدوج ، ونبا خروج فى الاقاليم ، كما كانت تنقسم الى قسمين ، بيت الذهب وبيت النخلة .
 - ٤ - مصلحة الاشغال والمبانى ، وتخصص ببناء المنشآت المختلفة ، واهمها المقابر والمقابر الملكية ، وهى الادارة الوحيدة فى مصر التى لم يجعلها التوهم مزدوجة .

ويشبهه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم فيضع في أعلى الهرم هرم صغير مستقل ويرى أن هذا الهرم الحجري ممثلاً لذلك الذى يحكم ثوق وزرائه ، الذين بدورهم فوق حكام الاقاليم ، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى ، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء ، الذين كانوا بدورهم فوق خدام الاراضى ، أما عن التنظيم الدينى ، فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الالهة ، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب ، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة الا شيئاً واحداً ، لان كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة كانوا فى درجة واحدة ، فقد كانوا جميعاً يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة وكان ينيبهم عنه فى تأدية المهام الخاصة به على وجه التحديد^(٢) ، غير أن هؤلاء الموظفين انما كانوا موظفين لدى فرعون يعينهم هو ، وهم مسئولون أمامه ، وبقاؤهم فى وظائفهم رهن رضائه الالهى ، وأما هؤلاء الموظفين فهم :

(١) الوزير :

كان منصب الوزارة هو أعلى المناصب وأسماءها ، وكان منتهى آمال الموظفين طوال العصور الفرعونية ، كما كان الوزير أكثر موظفى الدولة محبة فى نفوس الشعب ، ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أنه الذى يقيم الحق ويمحق الباطل ، هذا وقد اتفق المؤرخون على أن هذا المنصب انما قد وجد بصورة فعلية فى الفترة ما بين عصر التأسيس والاسرة الرابعة ، وان اختلفوا فى الاسرة التى بدأ فيها ، فمن يذهب الى أنه انما وجد منذ الاسرة الاولى ، وأن أحد الموظفين اللذين كانا يلازمان الملك «نعرمر» على لوحته المشهورة كان وزيراً له ، وأن اسم الوظيفة انما كان يكتب «ثت» فى ذلك الوقت^(٣) ، وهو لقب كتبه الفنان المصرى بصرغين هجائين - وهى المرة الاولى التى ظهرت فيها الحروف الهجائية فى كتابة المصريين - مقربين ذلك الى كلمة «ثاتى» بمعنى وزير ، الا

2) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 73.

(٣) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٩٣ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 601.

أن هذا التقريب لم يلق قبولا من بعض الباحثين ، فنظروا اليه على أنه ربيب الملك نعرمر^(٤) ، واعتبره آخرون موظفا اداريا^(٥) . ورأى فريق ثالث أنه كان كاهنا^(٦) ، ونادى فريق رابع^(٧) بأنه انمسا يمثل كاهن «(سم)» وأن اللقب المكتوب لقب رمزي ، ثم قرب هذا الفريق بين هيئته وملابسه وبين رجل آخر يشبهه في منظره بنى حسن لقب بكاهن «(سم)» .

وبدهى أنه كان هناك موظف هو حلقة الاتصال بين الملك وباقي الموظفين ، وأن توحيد القطرين أدى الى ازدياد أعمال الحكومة مما يعتبر فرصة مناسبة لوجود منصب الوزير ، ورغم أن ما لدينا من آثار لا يكفى لاثبات وجود مثل هذه الوظيفة ، ولكنه لا ينفي قيامها في الوقت نفسه ، هذا فضلا عن أن هناك من يسج على «حماكا» لقب الوزير الاول أو الموظف الاول للملك «(وديمو)»^(٨) ، الى جانب أن أكبر لقب ظهر في نهاية عصر التأسيس انما كان لقب «(تبي خرنيسو)»^(٩) ، بمعنى الاول لدى الملك أو الاول بعد الملك أو رأس أتباع الملك أو كبير رجال بلاطه^(١٠) ، وربما كان ذلك بمعنى الوزير الذي كان على رأس الادارة المركزية والثاني بعد الملك .

على أن أهم الأدلة على وجود وظيفة الوزير منذ عصر التأسيس ما عثر عليه من أوان يبلغ عددها ٢١ آنية أسفل هرم الملك نثرخت (زوسر) المدرج تحمل اسم «(من كا)» وقد لقب بلقب «(الوزير)» (ثاتي)، وأن المكتابات التي عثر عليها في مكان هذه الاواني انما تؤرخ بعصر

(٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

5) A. H. Gardiner, JEA, 24, 1938, P. 17-171.

6) R. Weill, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire, 1961, P. 30.

7) F. L. Griffith, Beni Hassan, I, London, 1883, Pl. XVII.

(٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٣٩ .

9) W. F. Petrie, The Royal Tombs, II, 1901, P. 165.

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الاسترتين الاولى والثانية ، ولم يحثر على أية نقوش تخص الملك زوسر نفسه ، ومن ثم فإن «من كا» هذا انما يكون سابقا للاسرة الثالثة ، وربما كان من الاسرة الثانية وبالتالي فإن وظيفة الوزير قد وجدت منذ عهد تلك الاسرة الثانية على الاقل (١١) .

وهناك فريق ثان يرى أن وظيفة الوزير انما قد ظهرت منذ عهد «ايمحوتب» وزير زوسر ، وطبقا لما جاء في نقش من وادى الحمامات، يرجع الى الفترة فيما بين عامي ٤٩٥ ، ٤٩١ ق م ، فقد كان ايمحوتب يحمل لقب الوزير (١٢) ، هذا ويذهب فريق ثالث الى أنها بدأت منذ أيام «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة ، وأن أول وزير له لقب مشهود به على الآثار بصفة قاطعة انما هو «نفر ماعت» ابن الملك سنفرو (١٣) ، وعلى أي حال ، فليدرك ان يعلون الملك مستشاران ، الواحد للصعيد ، والاخر للدلتا (١٤) ، وربما كانت أعلى وظيفة في عصر التأسيس هي وظيفة «حامل الختم» (١٥) والتي تدل على الختام والخازن الامين ، وربما ظهرت لأول مرة في عهد الملك «دن» (١٦) فقد حملها «حماكا» (١٧) ، وفي أخريات عهد الاسرة الثانية ظهر لقب «حامل أختام الاله» وأصبح اختصاصه أكبر من اختصاص أصحاب اللقب الاول (١٨) .

هذا وقد كان الوزير من أبناء الملك في عهد الاسرة الرابعة ، وكان من بين ألقابه الهامة لقب «كاهن تحوت» ، ومن أشهر وزراء ذلك العهد ابني «سنفرو» (كانفر ماعت) ثم ابن «نفر ماعت» ويدعى «حميون»

11) W. S. Smith. The Old Kingdom in Egypt, CAH, J. 1965, P. 18.

12) B. Gunn, ASAE, 26, 1926, P. 195.

J. Hurry, Imhotep, 1928, P. 194-196.

13) G.A. Reisner and W. S. Smith A History of the Giza Necropolis II, the Tomb of Hetep Heres, Cambridge, 1955. P. 9.

(١٤) ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ص ١٦٤ .

15) A.H. Gradiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 593.

16) W.M.F. Petrie, A History Egypt, I, London, 1924, P. 26.

17) W.F. Petrie, The Royal Tombs, I, Pl. XV, 16.

(١٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٦٨ .

وكذا «نباكورع» ابن خفرع ، ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملوك جعلوها في أكبر أبناء الملكات الثانويات، شويضا لمن عن ورائة العرش وارضاء لأمهاتهم^(١٩) ، وتسير الاوضاع الاجتماعية والسياسية في سبيل التطور المحتوم خلال عصر الاسرة الخامسة ، ويدرك ملوكها أنهم يعملون في ظروف تختلف بعض الشيء عن تلك التي كان يعمل فيها أسلاف لهم من الملوك الاقوياء أو الالهة العظام ، فيزيدون من التزاماتهم المادية نحو أفراد الطبقة العليا ، ويسمعون لكبار أفرادها بتولى منصب الوزارة ، بل أنها تخذ تكون مقصورة عليهم ، اذا استثنينا الاميرين «سخم كارع» و «نفر سشم سشسات» اللذين توليا هذا المنصب من الامراء ، ولعل من ألم وزراء الشعب في عهد الاسرة الخامسة انما كان الوزير «بتاح حوتب» صاحب التعاليم المشهورة^(٢٠) ومن الاسرة السادسة «كاجمني»^(٢١) فضلا عن «زعو» : والذي كان صاحب النفوذ الاول في البلاد على أيام طذولة ابن أخته الملك «ببى الثانى» ووصاية أمه عليه^(٢٢) .

كان الوزير رأس الادارة المركزية والثانى بعد الملك ، وحلقة الاتصال بين الملك وموظفيه : وكانت ترسل اليه تقارير الادارة المحلية ثلاث مرات في العام . كما أصبح الوزير محافظا للعاصمة ورئيسا للسلط والديوان الملكى ، ويتولى الاشراف على الخزائن وشئون الغلال والمنشآت الدائمة والاستغال المعمارية الكبرى . ولاسيما الملكية منها ، فضلا عن الاشراف على دور النضاء والمحفوظات والسلاح ، وكان منذ الاسرة الرابعة يحمل لقباً قضائياً يجعله «كبير خمسة دار تحوت»

19) G. A. Reisner, Op. Cit., P. 9

20) Z. Zaba Les makimes de Ptahhotep, Paris, 1965.

وانظر : محمد بىومى مهران : الحضارة المصرية القديمة الجزء الاول ص ٢٣٤ - ٢٤٦ .

21) A. H. Gardiner, JEA., 32, 1946, P. 71-74 .

22) A. H. Gardiner, ZAS, 79, 1954, P. 95-96.

وربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الى «نصوت» رب العدالة والحساب والكتابة ، ثم تلقب في الاسرة الخامسة بلقب «خادم العدالة» ، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ، ربة العدالة ، ولقب «رئيس الدور الست» أو «رئيس المدواوين الست الكبرى»^(٢٣) ، وهناك ما يتيسر الى وجود مجلس استشارى لمعاونة الوزير في شئون الصعيد يتكون من عشرة من الشخصيات الهامة الذين كانوا يحملون لقب «عظماء الصعيد العشرة» (ور مع شمو) حيث كان يسند الى كل واحد منهم ادارة احدى المصالح الهامة^(٢٤) .

وعلى أى حال ، فقد كانت وظيفة الوزير أعز الوظائف وأقربها الى قلوب الشعب ، وكان الشاعر اذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف الى وصفه «أن فيه وزيرا يتولى الحكم عطوفا على مصر» ، ومن ثم فقد كن الاهتمام شحيذا باختيار الوزراء من أصحاب الكفاءة والخلق الكريم .

واستمرت الامور كذلك حتى اذا ما كنا في منتصف الاسرة الثامنة عشرة زادت مهمات وظيفة الوزير ، حتى أصبح الامر يستوجب تقسيمها على أسلس جغرافي بين اثنين من الوزراء ، وزير للصعيد وكان مقره طيبة ويثرف على ادارة ملوك طيبة الاوائل ، حتى القوصية^(٢٥) ، على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط ، ووزير للدلتا والجزء الباقي من

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٣ ، وكذا .
PSBA, XIII, P. 121 F.

24) J. Pirenne, Histoire de Institutions et du Diva de L'Ancient Egypt, II, Bruxelles, 1934, P. 101-110.

(٢٥) تسجل نقوش (رخمي رع) وزير الصعيد في عهد تحوتمس الثالث أن دائرة اختصاصه قد أنقسمت الى قسمين ، الواحد يمتد من أسوان الى قفط (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) ، والاخر من قفط الى القوصية (على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط) ، كما أنها أنقسمت الى أربعين وحدة ادارية (مركزا) على رأس كل وحدة موظف مسئول ، من مهامه جمع ضرائب المركز وتوصيلها الى القصر الملكى .

الصعيد ، وكان مقره هليوبوليس أو منف^(٢٦) ، وكانت دائرة اختصاصه تمتد من مصر الوسطى الى مصر السفلى ، وبمعنى اخر المنطقة التي كان يحتلها الهكسوس من قبل .

وعلى أى حال ، فلم تصلنا معلومات ، تفي عن مهمة وزير المشمار ، وان كان هذا لا يعنى انها اقل اهمية من مهمة وزير الصعيد ، ولعل الذى دفع بعض العلماء الى القول باهمية وزير الصعيد من وزير الدلفا ، ان اختصاص وزير الصعيد اذ كانت تشمل منطقتيه التحرير ومقر ابطاله ، كما ان فى دائرة اختصاصه تنم حبيبه ، عاصمة الامبراطورية ، وربما لاسدم أو ندره اناز تخص وراء السمن ، فى مقابل الانار النخيرة التى ترخها وزراء الصعيد^(٢٧) ، وعلى أى حال ، فطوال عصر النولة الحديثه لم يظهر ما يثبت وجود قرابة بين الملك ووزرائه .

وكان الوزير فى منطقتيه يمتد السلطنة العليا فى كل ستون الدولة ، حتى المعابد ، وهو يتقدم كبار المنه من حيث المنصب ، وكنت تعرض عليه كل قضية جنائية ، وكان ينرف على الضرائب ونميتها وموعد جبايتها ، ويحاول دائما ان يتدبر ستون المال مع المنرف على بيت المال ، بحيث يمكن توزيع الدخل على اوجه الصرف المطلوب من الحكومة ، نما كن يبلغ دائما عن ارتفع منسوب مياه الفيضان حتى يتسنى تقرير ما يمكن ان يزرع من الاراضى التى تحصل اليها المياه ، وبالتالي تنمية الضرائب التى ستقرض وموعد سدادها ، فقد كانت هناك سجلات فى بيت المال تتضمن قوائم بالاملاك من حقول وندزل وحدائق وغيرها ، وكان لابد أن يسجن كل تغيير يتناولها حتى يمكن تعديلها وفقا للظروف . وكان الوزير يشرف على الضرائب ، فضلا عن الاشراف على تلقى جزى الدول التابعة لمصر . فى حين يتولى مسؤوليه

(٢٦) أنظر :

H.W. Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs. Leiden, 1958, P. 14-15 27.

(٢٧) عبد الحميد زابد : مصر الخالدة - القاعة ١٩٦٦ ص ١٧٥ .

مراقبة هذه الضرائب والجزى ويسجلونها أولا بأول في سجلاتهم *

وكان الوزير هو القائد الاعلى للشرطة في مصر ، وكان كذلك رئيس القضاة ، ويشرف على مجلس الشورى الكبير والقضاء العالى ، ويقضى في ادخنام المدنية الهامة التى ترفع اليه من المحاكم الجزئية او من محام ادغاليم ، كما كان من حقه مهر الوثائق القانونية والمحافظة في مكتبه على سجلات الدولة القانونية والادارية ، وفتح وخلق مصانع القصور ، وصحبه حامل الختم الملكى ، واستقبال السفارات والجزى الاجنبية ، ومراقبة ضياع معبد آمون ، والاشراف على البعثات الخاصة بالمدن أو قطع الحجارة ، وحشد وحدات الجيش والتفتيش عليها ، وعلى جبانة طيبة *

ولعل من الجدير بالاشارة أنه قد حدث أكثر من مرة في الدولة الحديثة أن أختير لمنصب الوزير شخصية كهنوتية هامة كانت ، اما كبير كهنة آمون اله الدولة الاعظم ، أو كبير كهنة الاله بتاح اله منف ، وهكذا كان يجمع كل منهما أعلى منصب دينى وديوى في شخصه ، ومن ثم فهو لم يصبح «رئيسا لعظماء الصعيد والدلتا» فحسب ، بل مشرفا على كهنة الصعيد والدلتا» (٢٨) أيضا *

(٢) حكام الاقاليم :

يذهب بعض الباحثين الى أن مصر قد قسمت الى أقاليم (سبت أو سبات ، وقد سميت أيام الاغريق نوم Nome) منذ ما قبل التاريخ ، عندما استفل المصريون مياه الفيضان في الزراعة ، فقد قسموا الارض الى أحواض أحاطوها بالجسور ، وشقوا فيها القنوات ، وأن هذه الاحواض هي نفسها الاقاليم التى نشأت فيها الامارات المصرية قبل

(٢٨) عبد المنعم ابو بكر : المرجع السابق ص ١٢٥ ، أدولف ارمان وهرمان رانكه ، المرجع السابق ص ١٠٤ وكذا .
J. H. Breasted, ARE, II, P. 266-279 N. de G. Davies, the Tomb of Rekh-Re at Thebes, N. Y., 1943, P. 88-94.

التوحيد، وهي أيضا الاطارات التي احتوت المقاطعات بعد التوحيد^(٢٩)، وأن عددها في عصر التأسيس ٢٢ في الصعيد ، ١٦ في الدلتا^(٣٠) ، ثم أصبحت ٢٢ في الصعيد ، ٢٠ في الدلتا .

وهذه الأقاليم يجب ألا نتصورها خيرة ، فقد كانت في العصر الذي بدأنا نعرفها فيه ما هي الا دوائر ادارية يتكون كل منها من مدينة كبيرة ومجاوراتها من أراضي ترتبط بها اقتصاديا ، وكان لكل اقليم عاصمة يقيم فيها الحاكم وجهازه الاداري ، فضلا عن معبد تعبد فيه الالهة الاقليم ، وكان الاقليم ، وكذا العاصمة ، يحملان اسما واحدا ، ماعدا نهاية الاسم المخصص الذي يدل على كلمة مدينة ، فمثلا يتمثل اقليم الصولجان ، وعاصمته بنفس العلامة (واست) ، وقد كان لبعض المعواصم اسمان ، أحدهما يتعلق باسم الاقليم ، والآخر مستقل تماما، فمثلا كانت عاصمة الاقليم الاول للدلتا كانت تسمى «الحائط الابيض» ثم «الحائط» فقط ، ثم أخذت منذ الاسرة السادسة اسم قصر الملك «ببى الاول» (من نفر) ، وكتبها الاغريق «ممفيس» هذا ولم تستقر العاصمة دائما في مكان واحد ، فمثلا نقلت عاصمة الاقليم الثالث (نخن) من المدينة القديمة نخن (البصيلية) الى نخب^(٣١) ثم الى اسنا في عصر البطالمة .

هذا وكان على رأس كل اقليم حاكم يعينه الملك ليقوم بكل النشاط الحكومي ، وبخاصة النشاط الزراعي الذي كان يعتمد على فيضان النيل . ومن ثم فقد كان من أهم أعمال حاكم الاقليم التفتيش على القنوات والمحافظة عليها وعلى تطورها ، وربما كان هذا أصل وظيفة حاكم المقاطعة ، فمنذ عصر التأسيس نرى ظهور لقب «عديج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات ، وهو اللقب الرسمي لحاكم المقاطعة عند

29) A. Moret, the Nile and Egyptian Civilization, London, 1972, P. 38-53.

(٣٠) جان يويوت : المرجع السابق ص ٣١ .
(٣١) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ابتداء الدولة القديمة ، وقد حفلت آثار عصر التأسيس بالعديد من النقوش التي ظهر فيها لقب «(عديج مر)» مع أسماء أشخاص من عهد الملك «جت» ، ومنهم واحد يبدو أنه كان حاكما لمدينة «(دب)» (بوٲو) (٣٢) .

وكان من واجبات حاكم الاقليم القيام باحصاء عام ، كان يجري كل سنتين ابتداء من الاسرة الثانية بانتظام ، ويوضح حجر بالرمو اجراء هذا التعداد كل عامين في عهد الملك «(ننى نثر)» وان كانت بدايته ترجع الى أيام الملك «(دن)» (٣٣) .

هذا وقد عرفت الدولة القديمة — الى جانب حكام الاقاليم ومن بينهم — عددا من كبار الشخصيات حملوا لقب «(ورمج شمعو)» وهو لقب ملازال بعض غامض القراءة والمدلول ، فهو قد يترجم بمعنى «(كبير عشرة الصعيد)» أو «(أحد كبار عشرة الصعيد)» ، وربما يدل على عشرة يكونون المجلس الاستشاري للوزير ، فيما يختص بشئون الصعيد وقضاياه ، وهناك ما يشير الى رئاسة الوزراء لهذا المجلس ، كما أن بعض الوزراء قد حمل لقب «(مفتش عشرة الصعيد الكبار)» وحمل آخرون لقب «(المشرف على بيوت عشرة الصعيد)» ، أو هو قد يدل على عشرات (مجو) وليس عشرة فقط ، بتحليل ظور لقب «(كبير عشرة الصعيد)» و «(كبير عشرة عين شمس)» (٣٤) .

وكانت ألقاب حكام الاقاليم كثيرة ، منها اللقب القديم «(عديج مر)» بمعنى المشرف على حفر القنوات ، ومنها لقب «(زاب)» بمعنى القاضي أو المحترم ، ولقب «(سشم تا)» بمعنى موجه الارض أو مديرها ، ولقب «(حقا حت)» بمعنى حاكم القصر أو متولى زمامه أو بمعنى رئيس القرية ، ومن هنا فالقصر المراد هو قصر الحكم والادارة في الاقاليم ، وليس

32) W. B. Emery, Great Tombs, I, fig. 55, P. 95, II, fig. 151-152.

33) J. H. Breasted Op. Cit., P. 106, 118-132.

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٥ ، وكذا
Urk., I, 1932, P. 281. R. Weill, Op. Cit., P. 19. وكذا

القصر الملكي «حقا حث عا» ومع ذلك فقد حمل هذا اللقب (حقا حث عا) بعض حكام أقاليم الصعيد ، وحثهم يسترجعون بتسكل اسمى ذلك النظم الاقطاعى الذى كان سائد قبل التوحيد ، والذى استبدل بموظفين ينبعون الادارة المركزية ، نما حمل بعض حكام الاقاليم لقب «ايمرا حث عا» بمعنى مدير القصر الملكى ، وحمل آخرون لقب «حقا نيسوت» بمعنى النواب الملكيين ، ولقب «رخ نيسوت» بمعنى المعروف لدى الملك ، ولقب «امر أبوت» بمعنى مدير الارسلات الملكيه ، وهناك كذلك لقب «كاهن ماعت» ، وماعت هى الهة الحق والعدالة ، ولما كان القضاء فى الاقاليم يخضع للحكام ، فهم رؤساء المحاكم وما يتصل بها من ادارات قضائية محلية ، ومن هنا اعتبروا كهنة لها ، كما حمل بعضهم لقب «كاهن حقت» .

وهكذا كان حكام الاقاليم يشرفون على كل النشاط الحكومى والادارى فى الاقاليم ، فكانوا يشرفون على جمع الضرائب ، وعلى شئون الزراعة اذ كانوا مطالبين بان يحصلوا من الارض بالرسائل المناسبة على احسن غلة ممكنة ، وهذا يقتضى حفر الترع واتساع الجسور ، وغير ذلك من وسائل تنمية الزراعة والمحصول ، وبذا يمكنهم ان يساهموا فى الثراء العام للبلاد ، وعلى الاخص ثراء الخزانة الملكية ، كما كان عليهم كذلك ان يدونوا ارتفاع فيضان النيل .

وكان حكام الاقاليم مسئولين عن الامن ، وتنظيم جمع الافراد لتجنيدهم وارسالهم فى حملات لصد ما قد يتهدد الحدود من اخطار ، وأن يقوموا بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وبين رعاياهم ، فكانوا يتلقون أوامر الملك ومراسيمه ، ثم يذيعونها بين الناس من سكان أقاليمهم ، ومن ثم فقد لقب الواحد منهم نفسه «المستشار لالوامر الملكية» ، كما كانوا يرأسون محاكم الاقاليم وما يتصل بها من ادارات ، فقد كانت هناك فى الاقاليم محاكم محلية تقوم بمحاسبة الزراع ، ومحاكمة الموظفين — حتى حاكم الاقليم نفسه — اذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب بسبب ضرر أصابه منهم ، هذا فضلا عن أنهم كانوا من

الناحية الدينية كبارا كهنة الاله الرئيسى فى أقاليمهم •

كانت الحكومة الفرعونية فى عهد التأسيس والنصف الاول من الدولة القديمة ، تسير على نظام المركزية المطلقة ، مما جعل منها ادارة رخوة غير متماسكة ، بمعنى أنه كلما كان الجالس على العرش فى منف قوى البأس ، كان حكام الاقاليم موظفين لديه يعملون بوحى منه ، ويبقون فى وظائفهم ماداموا حائزين على رضا الالهى ، فاذا ماحدث العكس وتراجعت سلطته ، انتهز حكام الاقاليم الفرصة وتصرفوا بوحى من أنفسهم ، واعتبروا أقاليمهم دويلة صغيرة للحاكم فيها ما للفرعون من سلطات وحقوق ، الامر الذى رأيناه فى النصف الثانى من الدولة القديمة ، والذى أدى آخر الامر ، بجانب عوامل أخرى ، الى اضعاف تلك الحكومة المركزية ، ثم انهيار الدولة القديمة نفسها وقيام الثورة الاجتماعية الاولى (٣٥) •

كان حكام الاقاليم حتى منتصف الدولة القديمة موظفين لدى الملك يعملون بوحى منه ، ويتصرفون فيما أوكل اليهم من أمور حسب رغبته ، يتساوى فى ذلك من كانت أقاليمهم على مقربة من العاصمة ، ومن كانت فى أقاصى الصعيد أو الدلتا ، وينالون فى مقابل ذلك غذاءهم وكساءهم ، وكان الواحد منهم يعمل جاهدا ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، على أداء واجباته حتى ينال رضى مولاه الملك ، لانه ان قصر فى ذلك ، فإن مصيره الى العزل من منصبه ، وربما هو أقسى من العزل ، هذا فضلا عن أن الواحد منهم انما كان يخضع لنظام النقل من اقليم الى آخر ، وربما من وظيفة الى أخرى ، ومن ثم فإن واحدا منهم لم يذكر اسم الاقليم الذى كان يحكمه ، وكانوا حين يتوفون أجلهم فى هذه الدنيا يدفنون فى جبانة العاصمة ، على مقربة من مقبرة الملك الاله الذين

(٣٥) أنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر ص ٤٦ - ٤٨ • وكذا
J. Pireme, Histoire des Institutions et du droit Prive L'Ancienne Egypte, III, 1932, P. 172-173.

قضوا حياتهم في خدمته ، لعل وعسى أن ينالوا ذلك الشرف العظيم في الحياة الثانية ، هذا فضلا عن الواحد منهم انما كان يأمل أن ينتهي المطاف به في آخر حياته الوظيفية الى احدى الوظائف المركزية في العاصمة كمدير لاحدى المصالح الحكومية ، ثم قد تمتد آماله فيرنو الى أن يصبح عضوا في محكمة الستة العليا أو مستشارا سريا أو نائبا لفرعون في نخن (البصيلية) وربما يصبح وزيرا .

هذا وقد كان القوم يعتقدون في الحياة الأخرى ، ومن هنا فقد كانوا يرغبون في قبر جميل واسع يحفظ فيه جسد المتوفى ، ولعل هذا هو الذي دفعهم الى تحنيط أجسادهم ، الامر الذي توصلوا اليه منذ أوائل عهد الاسرة الثالثة ، وربما كان ذلك سببا في أن يذهب البعض الى أن المصريين القدامى انما كانوا يهتمون بالموت أكثر من اهتمامهم بالحياة ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد كانت أغلب الجبانات في الصعيد انما تنقع على حواف الصحراء . ومن ثم فقد احتفظت لنا الارض الجافة بكثير من المقابر ، بينما كانت المنازل والقصور تقام على مقربة من الاراضي الزراعية ، وبالطوب اللبن في معظمها ، ومن ثم فقد اختفت بسرعة (٣٦) .

وعلى أى حال . غان القوم لم يقتصروا في اهتمامهم بالحياة الثانية على تشييد القبور وتحنيط الاجساد ، وانما كانوا يعتقدون كذلك في ضرورة تقديم القرابين واقامة الصلوات في هيكل يشيّدونه ، الى غير ذلك من مطالب الخدمة الجنزية . ولم يكن أحد في استطاعته أن يقوم بذلك كله ، لان الملك انما كان هو المالك الفعلى لكل شيء في مصر ، الارض والمهاجر ومن عليها وما عليها . ومن هنا فان المقبرة ومطالبها الجنزية انما كانت جميعها هبة من الملك ، يقدمها لمن يشاء من رعاياه

36) J. Vandier, la Religion Egyptienne, Paris, 1944, P. III;

R. Engelbach, Op. Cit., P. 190-200.

وكذا

F. Daumas, la Vie dans d'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 120.

المخلصين ، وقد نال ذلك العطف الملكى كثيرون ، اذ تفضل الملك فوهمهم من الارضين ما يكفى ذلك كله .

ومن هنا بدأت أول خطوة فى الطريق الى انهيار الملكية المطلقة السلطة ، فقد بدأ يظهر ملاك جدد ، يقابله من الناحية الاخرى ، نقص فى املاك التاج الخاصة ، فضلا عن أن هذه الاراضى الممنوحة للملاك الجدد كانت معفاة من الضرائب ، ثم سرعان ما بدأ حكام الاقاليم خطوة أخرى نحو اللامركزية ، والبعد عن رقابة الفراعين ، فبدأوا ببيتعدون بمقابرهم عن مقبرة الملك ، اذ فضلت أسرهم الاقاليم فى الصعيد الدفن فى اقاليمهم ، غفى الشيخ سعيد ودشاشة بمحافظة بنى سويف ، وفى زاوية الميتين فى محافظة المنيا ، وفى دير الجببراوى بمحافظة أسيوط ، وفى قصر الصياد بمحافظة قنا ، وفى أسوان وفى أماكن أخرى عديدة ، حفر حكام هذه الاقاليم مقابر فخمة منقورة فى صخور بلادهم ، كما لو كانت جبانة العاصمة قد أصبحت غير صالحة لتكون مثوى جنثهم^(٣٧) ، بل ان الامر انما كان أعمق من ذلك ، فهناك المقاصير التى كشف عنها فى جزيرة أسوان لاسرتى «سرنبوت» و «حقا ايب»^(٣٨) تقدم لاصحابها من أمراء الاقاليم هناك فروض العبادة ، كما كانت تقدم للملوك من قبل ، والامر كذلك بالنسبة الى «ايسى» والى ادفو فى بداية عصر الاسرة السادسة^(٣٩) .

وما أن يمضى حين من الدهر حتى تصبح الارض الممنوحة خاضعة للتوريث ، ثم سرعان ما تنتقل عن طريق الزيجات الى أسر أخرى ، ثم تخضع لعمليات البيع والشراء وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة اقطاعات واسعة ، وتمكن آخر الامر بعض الحكام من أن يجعلوا وظائفهم خاضعة للوراثة ، وخاصة فى الصعيد ، وقد أدى ذلك

(٣٧) أدولف أرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٨٦ .

38) J. Pinenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, P. 25.

39) Alliot, BIFAO, 37, 1937, P. 93.

• وانظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية ص ٤٩ - ٥٠ .

الى أن أصبحت تلك الوظائف وقفا على أفراد أسرة واحدة ، استقروا في اقليم بعينه وهمنوا عليه ، وأبقوا على علاقاتهم الطيبة بالمعاصمة ، مادام الملك قسويا ، ولكنهم يصبحون في حبل من ذلك ، ان اختلفت الظروف (٤٠) ، الامر الذى حدث في أخريات الدولة القديمة وذلك عندما استغل حكام الاقاليم المنح الوراثية التى اسبغها الجالس على العرش في منف على الاقوياء منهم ، فضلا عن الالقاب التى منحت لهم وجمعت بين أيديهم السلطات الادارية والدينية والعسكرية بأقاليمهم ، هذا الى جانب المظاهر التى تشبهوا فيها بالملوك ، كبناء المقابر وتسجيل أعمالهم عليها ، فضلا عن ضخامة حجم البلاط المحيط بهم ، مما يوحى وكأن كل اقليم انما قد أصبح دولة داخل الدولة ، فقد كان حاكم الاقليم هو الكاهن الملكى باقليمه (خرحب) ، كما كان من الناحية الادارية مدير القصر (حقا ح) وحامل الختم الملكى (سجاوتى بيتى) ، وهى الوظيفة التى كانت من اختصاص الوزير من قبل (٤١) .

وهكذا أصبح الملك غير قادر على كبح جماح حكام الاقاليم ، وبدأ الفراعين يفكرون في وسيلة ينقذون بها عرشهم من الانهيار ، ويهتدون في أخريات الأسرة الخامسة الى اختيار واحد من أهل الثقة ليكون وليا على الصعيد ، وعهدوا اليه بالرقابة على ضرائب الصعيد وشئون حكامه . ولكن ذلك لم يأت بالنتيجة المرجوة ، اذ انتحل لقب حاكم الصعيد أكثر من واحد في وقت واحد ، بل ان بعض حكام الاقاليم انما قد انتحل لقب حاكم الصعيد ، فضلا عن لقب الوزير ، دون أن يقوم بما كان يفرضه عليه اللقبان من واجبات ، وانما لكيلا يتميز عليه أحد من موظفى الحكومة المركزية (٤٢) .

(٤٠) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٦٥ .

41) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, P. 25.

(٤٢) ايتين دريوتون وجاك فاندييه : المرجع السابق ص ٢٢٨ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٢ ، ٥٢ .

وينتهد حكام الاقاليم فرصة الثورة الاجتماعية الاولى ، ويستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم ، فهناك ما يشير الى امتناع «(آبو)» (اليفانتين) و «ثنى» عن الضرائب يقول حكيم الثورة «(ايو — ور)» : لماذا لم تدفع اليفانتين وثنى ، وهما من ممتلكات مصر العليا ، الضرائب بسبب الحرب ، وهناك حاجة الى الفاكهة والقمح ، وكل أنواع التجارة وكل ما ينتجه الصناع ، فما فائدة الخزانة بدون دخل^(٤٣) ، ثم سرعان ما استقل كل أمير اقليم باقليمه ، وأصبح وكأنه ملك صغير ، له بلاطه وجيشه وخزائنه وموظفوه ، فضلا عن المشرفين على الجنود ومخازن الغلال ، ويستمر الامر كذلك حتى يستطيع «(منتوحتب الاول)» أمير طيبة إعادة توحيد البلاد ، بعد انتصاره على الاهناسيين وطرد الاسيويين من البلاد ، ومن ثم فقد كتب له أن يخفض أمراء الاقاليم لسلطانه .

ومن ثم فقد شكل من موظفي الحكومة ومن أمراء أقاليم الصعيد الاعلى الذين كانوا عوناً الاساسى فى صراعه ضد الاهناسيين «مجلس الثلاثين» أو «مجلس الثلاثين العظام» (قنبت) بمعنى المجمع ، وربما مجلس القضاة ، والذي بدأت نواته الاولى منذ العصر الاهناسى ، وقد حل هذا المجلس الجديد محل «مجلس العشرة العظام» الذى كان على أيام الدولة القديمة ، وذلك للحد من سلطة حكام الاقاليم الاخرى التى استشرت فى ذلك العصر ، فضلا عن معاونة الملك فى ادارة شئون البلاد ، وتقوية سلطة الملكية ، ودعم الادارة المركزية ، كما عمل «منتوحتب الاول» على أن تكون اهناسية وأسيوط ، أعداؤه القدامى ، تابعتين للادارة المركزية مباشرة ، وان أبقى على ما كان لحكام الاثمنين من امتيازات بسبب موقفهم الى جانبه فى صراعه ضد الاهناسيين ، والامر كذلك بالنسبة الى أمراء بنى حسن الذين التزموا الحياد أول الامر ، ثم انضموا اليه ضد أعدائه فى اخريات أيام الحرب الاهلية ، وعلى أى حال ، فلقد نجح الرجل فى أن يفرض سلطته على أمراء الاقاليم ، وأن

43) A.H. Gardiner, the Admonition of an Egyptian Sage Leipzig, 1909, P. 43.

يربطهم بالادارة المركزية بطريقة فعلية ، الامر الذى استمر على أيام خلفائه من ملوك الاسرة الحادية عشرة (٤٤) .

وجاء «(أمنمحات الاول)» مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وعمل على أن يبسط سلطانه على الاقاليم التى كانت قد استقلت منذ نهاية الدولة القديمة ، وحكمها امراء أقوياء ، كانوا أشبه بالملوك فى اماراتهم ، ومن ثم فقد جهد على أن يحسم النزاع بين هذه الاقاليم ويرسم حدودها من جديد ، وكانت مهمته عسيرة وشاقة ، ذلك لأنها لم تقتصر على ترويض الحكام المستقلين ، وجعلهم ولاية خاضعين للتاج فحسب ، بل انه اضطر الى أن ينتزع من البعض منهم أجزاء من أملاكهم ، فبان الحدود القديمة للاقاليم كانت قد استمرت زمنا طويلا غير سليمة، ذلك لان الحكام الاقوياء قد استولوا على أراضى جيرانهم الضعفاء ، فكونوا بذلك دويلات صغيرة فى أقاليمهم ، مما اضطر «(أمنمحات الاول)» الى التدخل ، فجاس الديار «(مشرقا كاله الشمس أتوم نفسه لكى يزهرق الباطل ، ويعمر ما تخرب ويرده الى ما كان عليه ، ويعيد الى كل مدينة ما اغتصبته الاخرى منها ، ويجعل لكل مدينة حدودها التى تفصلها عن الاخرى ، وقد أرسى أحجار الحدود ثابتة كالسماء)» ، «كما عين تبعية كل قناة وثبت نصيب كل اقليم فى النيل» ، «ولما كان يجب الحق كثيرا فقد اتخذ أساسا لتقسيمه ما ورد ذكره فى الكتب ، وما وجدته فى الكتابات القديمة» .

هذا وقد عمل «(أمنمحات الاول)» كذلك على السيطرة على النواحي الاقتصادية فى البلاد عن طريق الضرائب التى كانت تدفع للتاج ، مما استلزم معرفة الحكومة المركزية بالوضع الاقتصادى فى البلاد ، ومن

(٤٤) محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الثانى - ص ٣٣٢ ، وكذا عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٢٧ ، ايتين دريوتون وجاك فاندييه : المرجع السابق ص ٢٧١ ، وكذا

A H. Gardiner, JEA, 4, 1917, P ٢5-38.

ثم فقد عين موظف أطلق عليه «رئيس المراقبين لاراضى الخزانة الملكية» كان يقوم بجباية الضرائب ، وفقا لما فى حوزة كل حاكم اقليم من اراضى زراعية ، وما تدره عليه من انتاج ، طبقا لما فى سجلات الاراضى التى تحت يدى الملك ، وبدعى أن هذا الاشراف المالى انما كان يزيد من دخل الخزانة الملكية التى كان لها أسطولها الخاص الذى كان يديره موظفون ملكيون تابعين للبلاط ، ومستقلين تماما عن حكام الاقاليم، هذا فضلا عن الاشراف الملكى على الحكومات الاقليمية ، والذى كان يزداد عاما بعد آخر ، نتيجة تزايد الاشراف على الافراد والاراضى والمقطبان الخاصة بالتاج فى الاقاليم ، أضف الى ذلك أن أمنمحات الاول انما كان قد حدد لكل اقليم الكمية التى كان عليه أن يقدمها من المواد الغذائية ، وعدد السفن اللازمة للأسطول ، واعداد الرجال للجيش المرباط ، وذلك للمشروعات الملكية فى أقاليمهم أو خارجها .

وهكذا يبدو واضحا أن أمنمحات الاول انما أراد أن يستعيد السلطات الملكية تدريجيا ، وان ترك لامراء الاقاليم قدرا كبيرا من السلطة والحرية فى ادارة أقاليمهم ، كما أن تثبيت الحدود الاقليمية ، فضلا عن استرجاع الاراضى الحكومية المسجلة ، انما كانا فى نفس الوقت اعادة للتدخل الملكى فى الادارة الاقليمية ، وبمرور الزمن زاد هذا التدخل الملكى عن طريق سيطرة الحكومة المركزية فى الثلاث (ايثت تاوى) والاراضى التى ضمت للتاج فى كثير من الاقاليم ، على أن هناك ما يشير الى أن هناك ضرورة ماسة لاتخاذ احتياطات واسعة للحفاظ على سلطات فرعون ، وربما كان أمنمحات الاول يقرب من أواسط العمر حين اعتلى العرش ، ومن ثم فقد أشرك معه فى الحكم ولده الاكبر «سنوسرت الاول» فى العام العشرين ، ثم حكما معا عشر سنوات ، وقد اتبعت هذه السنة طوال عهد الاسرة الثمانية عشرة ، وهو أمر هناك ما يشير الى أن ببنى الاول قد فعله فى الاسرة السادسة فى أغلب الظن ، وربما كان الهدف منه انتقاء خطر أمراء الاقاليم الاقوياء

في لحظات الضعف المؤقت عند نقل التاج من ملك الى آخر (٤٥) .

وفي الواقع رغم أن أمنمحات الاول قد يكون أزرق الباطل وأعاد الاستقرار بقوة السلاح ، وجعل وراثته الابناء لاقاليم آبائهم مقيدة بموافقة الشخصية ، الا أنه لم يتمكن من أن يخضع هو ، أو منقر حثب الاول من قبله ، تماما امراء الاقاليم الذين كانت شوكتهم قد ازدادت الى حد كبير ، فظلوا سادة في أقاليمهم طالما كانوا يدفعون الضرائب ، ويقدمون آيات الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا مع الملك ، ومن ثم فقد رأينا منذ بداية هذه الاسرة عودة اللقب القديم «رئيس المقاطعة الكبير» الى الظهور في مصر الوسطى ، بعد أن كان قد اختفى في عهد الاسرة الحادية عشرة في كل مكان ، أما في الصعيد الاعلى فلم يعد أمراء الاقاليم يحملون لقب «الامير الوراثي» منذ ارتقاء «أنتف الاول» عرش طيبة والامر كذلك بالنسبة الى لقب «رئيس المقاطعة الكبير» ، وان ظهر في عهد هذه الاسرة الثانية عشرة ولاية أقسويا في «آبو» (جزيرة أسوان) يحملون الى جانب لقب «رئيس المقاطعة الكبير» كل الالتاب الاخرى الهامة في الادارة الاقليمية ، كما ظل الاهالي في هذا الاقليم وغيره ألصق بحكامهم منهم بالملك .

وفي كل اقليم تسمى ثلثا سلكنيه بأسماء كانت شائعة الاستعمال بين أسرات أمراء الاقاليم ، كما اتبعوا طريقة غريبة في التاريخ ، فبينما كانوا يؤرخون في أحوال أخرى حسب سنى الملك ، نجدهم الآن يزيّدون على ذلك التاريخ حكم أمير الاقليم ، كما فعل «اميني» أمير بنى حسن عندما أرخ أحد الاحداث بالعام ٤٣ من حكم الملك ، والعام ٢٢ من حكم أمير الاقليم (أى حكمه هو) ، كما أسبق على نفسه لقب «القائد العام

(٤٥) محمد ببيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٣٤١ - ٣٤٩

R. O. Faulkner, *Egyptian Military Organization*, JEA, 39, 1953, P. 36 F.
W. C. Hayes, *CAH*, I, Part, 2, 1971, P. 482-483; J. Vercoutter, *Op. Cit.*,
P. 365-361; P. E. Newberry, *Beni Hassan*, I, P. 44; *El-Bersheh II*, P. 15.
A. A. Gardiner, *Op. it.*, P. 596.

لجيش اقليم الوعل» مما يدل على أن لديه قوادا تحت قيادته ، وأن قوته كانت صورة مصغرة من جيش الدولة .

وهكذا يبدو واضحا أن حكام الاقاليم كانوا حتى أوائل الدولة الوسطى مايزالون على قسوتهم التي كانت لهم على أيام الثورة الاجتماعية ، وبإختصار يمكننا أن نلاحظ التوصل من الحكومة البيروقراطية في عهد الدولة القديمة الى حكومة اقطاعية في عهد الدولة الوسطى ، ومن ثم فلم يلبث التاريخ أن أعاد نفسه فازداد نفوذ حكام الاقاليم من جديد وتضخمت ثرواتهم ، فكان من الضروري وضع حد لهذا كله ، ولم يكن هناك أقدر من سنوسرت الثالث لتسديد هذه الضربة ، وان بدا هذا الاتجاه منذ عهد سنوسرت الاول ، الذي عمل على أن يكون حكام الاقاليم مجرد محافظين مكلفين بإدارة شئون الزراعة ، وتنظيم قوات الامن المحلية ، وجمع المكلفين بالعمل لحساب الملك (٤٦) .

هذا وقد سار خلفاء سنوسرت الاول على سياسة الاحتفاظ بمكاسبه بالنسبة لحكام الاقاليم ، فأمنمحات الثانى كان قد اشترك مع أبيه في الحكم فترة لا تقل عن سنتين (٤٧) ، واتبع مع أمراء الاقاليم نفس سياسة أبيه ، فأكد لبعضهم حقوقهم الوراثية ، مع الحفاظ على هيمنة العرش على أقاليمهم ، ويبدو أن حياة الهدوء والاستقرار التي عاشتها البلاد على أيامه قد أتلفت له فرصة الاشراف عليهم ، يولى منهم من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويقيم لهم حدود أقاليمهم ، ومع ذلك فهناك

(٤٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٦٣ - ٣٦٦ ، وكذا جان يويوت : مصر الفرعونية ص ٨٣ ، وكذا

W. C. Hays, Notes on The Government of Egypt in Late Middle Kingdom, JNES, 12, 1953, P. 31-33.

R. D. Faulkner, JEA, 39, 1953, P. E. Newberry, Op. Cit., P. 12,

J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, 1962, P. 302, 307.

(٤٧) أنظر عن أنواع الحكم المشترك (محمد بيومى مهران :

أختاتون ص ١٣٦ - ١٣٨) .

ما يشير الى أن حكام اقليمى الاشمونين وبني حسن قد استعادوا كثيرا من سلطاتهم ، وبدأوا منافسة فرعون في الثراء والتفاخر .

وفي الواقع فإن سعة الالقاب التى ادعاها أمراء الاقاليم حينذاك ، واحتفاظ أغلبهم بقوات محلية كبيرة فى أقاليمهم ، وجرأة أمينى أمير بنى حسن على تأريخ نصوصه بسنوات ولايته ، كما أشرنا من قبل ، قد دفع بعض الباحثين الى القول بأن النصف الاول من عصر الاسرة الثانية عشرة إنما يعد عصر اقطاع من نوع جديد ، لم تكن فيه سلطة الملوك ، ولكن تضافت فيه سلطات حكام الاقاليم ، برضا الملوك ولصالح الرعية ، واستمرت هذه الاوضاع طوال عهدى أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى (٤٨) .

وجاء سنوسرت الثالث فجرد حكام الاقاليم من مزاياهم ، وخلع عنهم ألقابهم ، بل إنه بدأ منذ أوائل عهده بالغاء منصب حاكم الاقليم ، وإن كنا لا ندري سبب ذلك على وجه اليقين ، فربما حاول أمراء الاقاليم الثورة على الرجل فى أوائل عهده ، وربما رأى هو أن سيطرته على الدولة لا تتفق واستقلال أمراء الاقاليم ، وأيا ما كان السبب ، فليس هناك من ريب فى أن سياسة الرجل نحو أمراء الاقاليم كانت سياسة ناجحة ، أزلت كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، ظل قويا طوال عهد الثورة الاجتماعية .

وعندما نجح «منتو حتب الاول» فى اعادة وحدة البلاد أخضعهم لسلطانه ، واستغل أمنمحات الاول ما فى نفوسهم من حفيظة ، وانتهج سياسة وسط ، فلم يعمد الى القضاء الحاسم على نفوذ أمراء القطاع الذى ظل قويا ، على الرغم مما فعله بهم منتو حتب الاول ، وإنما علك على مهادنتهم ، بشريطة أن يعطوا ولاءهم للسلطة المركزية ، ويقدموا

(٤٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٦٩ ،

H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 318; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 129,

لها المال والرجال ، ويعترفوا بالاشراف المركزى على شئونهم الداخلية، كما رأينا من قبل ، كما كان يقرب اليه الامراء الذين يرتضون هذه الشروط ، ويعلمون له الولاء ، ويأخذ بشدة أولئك الذين تسول لهم أنفسهم التمرد ، ومناصبته العداء ، وهكذا وجد نوع من العداء المستمر المستقر بين الملك وأمرء الاقاليم ، وأحيانا كان هذا الصراع يأخذ مظهرا عليا حين زاد نفوذ بعض هؤلاء الامراء ، وتضخمت ثرواتهم ، فضلا عن اصرارهم على توريث أبنائهم حكم أقاليمهم ، حتى لو كان التوريث طفلا صغيرا ، ولم يكن هناك أقدر من سنوسرت الثالث على تسديد الضريبة القاضية لحكام الاقاليم .

وهكذا رأينا النصوص المصرية ، حوالى منتصف عصر سنوسرت الثالث ، ومنذ حوالى عام ١٨٦٠ قبل الميلاد ، لا تتحدث كثيرا عن أمرء الاقاليم ، فالاسرات المحلية القليلة ، والامراء المتعطرسون الذين أرخوا الأحداث بسنوات حكمهم ، والذين رسمت صورهم على المعابد فى هيئة تماثيل ضخمة بحجم كبير كالموك تماما ، لم تعد تظهر فى المناظر المصرية، فقد أصبحت الاقاليم تدار مباشرة من القصر الملكى عن طريق ثلاث ادارات حكومية تسمى «نوعرت» واحدة لمصر العليا (وعرت رأس الجنوب) ، وأخرى لمصر الوسطى (وعرت الجنوب) ، وثالثة لمصر السفلى (وعرت الشمال) ، ويرأس كل ادارة منها موظف كبير،يساعده معاونون ومجلس شورى (جاجات) ، ثم هيئة حكومية ثانوية ، وكانت كل تلك الاجهزة الادارية ، وخاصة ادارات العدل والزراعة والخزانة، تحت اشراف الوزير ، هذا فضلا عن تكوين جيش ثابت للملك اعتمد عليه فى تدعيم سلطته الداخلية والخارجية ، الى جانب تكوين فرقة خاصة من الضباط ، أشبه بالحرس الملكى الخاص ، أطلق عليهم اسم « أتباع الحاكم » (شمسو) كانت على صلة مباشرة بفرعون تتبعه حيثما انتقل ، وكان أفرادها فى غالب الظن من طبقة النبلاء^(٤٩) .

49) R. O. Faulkner, Op. Cit., P. 38; J. Vercoutter, Op-Cit, P. 373-374; W. C. Hayes, JNES, 12, 1953, P. 31-33; W. Helck, Zur Vedlärung des Mitteren Un Neuen Reichs, Leiden, 1958, P. 241-243.

وهكذا كتب للملك سنوسرت الثالث نجحاً بعيد المدى في القضاء على نفوذ حكام الاقاليم ، وبخاصة حكام اقليمى الاشمونين وبنى حسن (الخامس عشر والسادس عشر من اقاليم الصعيد) ، ومع ذلك فهناك ما يشير الى أن نزع ملكية أمراء الاقاليم إنما قد تم بصورة تدريجية ، بل أنها حتى لم تكن شاملة ، ذلك لأنها إنما وجهت أساساً الى حكام الاقاليم الاقوياء ، وبخاصة في اقليمى الاشمونين وبنى حسن ، ذلك لاننا نعرف أن الاقليم العاشر من اقاليم الصعيد (انتيوبوليس=قاو الكبير) إنما قد احتفظ أميره «واح كا الثانى» بكل سلطاته وبلقب «الحاكم الكبير للاقليم» في عهد أمنمحات الثالث ، ربما لأن أمراءه كانوا على صلة نسب بفرعون منذ عهد مؤسس الاسرة أمنمحات الاول، والامر كذلك بالنسبة الى أمير الكاب (اقليم نخن = البصياية) ذلك لان هناك ما يشير أن حكام اقليم الكاب حتى عصر متأخر يقومون باحياء لقب « الحاكم الكبير للاقليم » ، وحمله من فترة الى أخرى⁽⁵⁰⁾.

هذا فضلاً عن أن سياسة سنوسرت الثالث هذه لم تؤد الى الاجحاف بالحقوق المشروعة ، والثروات المعقولة ، للعاملين المخلصين من حكام الاقاليم في عهده ، يدل على ذلك أن تضمنت مقبرة « تحوت حوتب » في وادى البرشا ، ما يصور تمثالاً ضخماً يمثلته ، باذن فرعون باقامته في مقبرته ، وقد بلغ ارتفاعه قرابة سبعة أمتار ، ووزنه ٦٠ طناً ، وتكفل بنقله ١٧٢ رجلاً ، وقد وصف لنا «تحوت حوتب» طريقة نقل هذا التمثال الضخم بأن الطريق من المحاجر الى مكان اقامته إنما كان جداً صعباً ، وأن قوى الرجال قاربت أن تخور ، وان استمروا في نقله على هذا الطريق ، ومن ثم فقد أنشأ طريقاً جديداً ، وأن سكان المدينة قد تجمعوا عندئذ لنقل التمثال ، راخصين غير مكرهين ، وأن ذلك قد أسعده كثيراً ، بخاصة وقد كان من بين المتطوعين للعمل رجلاً هرماً كان

50) W. C. Hayes, *The Scepter of Egypt*, I, P. 506; J. Vandier, *Reflexions Sur L'histoire de La Xlle Dynestie*, 1958, P. 18; Drioton et J. Vandier, *L'Egypte*, 1962, P. 302-307; J. Vercoutter, *Op. Cit.*, P. 374.

يستند على طفل ، وأن الجميع كانوا يصفقون ويغنون (٥١) .

وهكذا استطاع سنوسرت الثالث أن يعيد المركزية المطلقة الى الادارة الحكومية ، مركزية أقرب ما تكون الى تلك التي كانت على أيام الدولة القديمة ، ومن ثم فلم يكن أمرا مفاجئا أن نرى ظهور طبقة اجتماعية جديدة ، ربما يمكننا أن نطلق عليها — فيما يرى ولیم هيز — اسم «الطبقة الوسطى» وتتكون من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية ، وقد استطلت هذه الطبقة الجديدة ثروات في اقامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة أقاموا لانفسهم في معبد أوزير في المدينة المقدسة أبيدوس (٥٢) .

هذا وليس هناك ما يثبت أن موظفى الاسرة المشالطة عشرة أقاموا نظاما اقطاعيا جديدا ، وساهموا بذلك في سقوط الدولة الوسطى ، وإن كانت هناك لوحة بالمتحف المصرى ، عثر عليها فى الكرنك ، وترجع الى عهد الملك « سواج ان رع » وتحتوى على عقد مسجل يبيع بمقتضاه « كبسى » وظيفته كأمير للكلاب ، والتي ورثها عن أبيه الوزير «آى مرو» لرجل يدعى « سبك نخت » على أن يدفع له ٦٠ دينا من الذهب مما دفع بعض العلماء الى القول بأن نظام الاقطاع ربما قد بعث من جديد ، ألا أننا نعرف سنوسرت الثالث قد قضى على نظام الاقطاع ، ولم يبق من آثاره فى غير أمارة الكاب صورة واحدة ، وفى الواقع فلقد ظل أمراء الكاب يحفرون مقابرهم هناك فى الصخر ، ويمثلون الامارة الموحيدة فى الصعيد التى نشأت فيها أبان ذلك العهد عائلة اقطاعية لها نفوذ كبير (٥٣) .

(٥١) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٣٦٥ .

P. E. Newbery, El-Bersheh, I, 1895, Pl. 15.

52) J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374, W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953.

53) JEA, 37, P. 53; JNES, 12, P. 36, ASAE, XI, P. 1-20, BIFAO, 30, P. 881-884, 32, P. 22-33.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النظم الادارى فى عهد الدولة الوسطى قد استخدم ما يتبته « بطاقات الاحصاء » فى حصر دخول الافراد وموارد الثروة ، فكان لزاما على كل رب أسرة أن يقيد فى بطاقته عدد أفراد أسرته ومواليه ، ثم يقسم يمينا أنه صادق فيما دونه ، ثم تتجمع البطاقات فى مكتب الوزير من كل أنحاء البلاد ، وقد عثر على عدد كبير منها فى اللاهون ، وبدهى أن الهدف منها أنما كان تيسير جمع الضرائب ، فضلا عن أنهما كانت تساعد الادارة على معرفة حالة سكان البلاد (٥٤) .

وتصاب مصر بمحنة الهكسوس ، ويتم تحرير على أيدي أبناء الصعيد المغاوير ، ويعمل احمس الاون على الاستيلاء على جميع املاك النبلاء وضمها لاملاك التاج ، وربما كان فتحه لمصر الوسطى والسفلى زمن الهكسوس قد أعطاه الحق فى تملك هذه الاراضى ، وعدم الاعتراف بملكية أمراء الاقاليم لما كانوا يملكونه منها ، وأنطلاقا من هذا فان هذه القاعدة الاساسية المستحدثة فى عهد الاسرة الثامنة عشرة انماذن من نتائجها تركيز السلطة والثروة تركيزا فعليا فى يد فرعون ، يتصرف فيها كما شاء ، مما كان له اكبر الاثر فى كيان مصر فى ذلك الوقت ، حيث أستطاع الفرعون أعداد جيش قوى منظم أستطاع أن يوسع املاك مصر فى الخارج ويجعلها صاحبة المركز الاول فى المحيط العالمى ، وتكوين الامبراطورية الواسعة التى امتدت من أعالى الدجلة والفرات شمالا ، وحتى النجعة ، على مقربة من شندى ، والى الشمال من الخرطوم بسبعين ميلا .

وعلى أى حال ، فاننا لا نجد فى عصر الامبراطورية هذا ، أسرار حاكمة فى الاقاليم تتصرف فيها كما تشاء ، ولا لتلك اللامركزية التى كانت قد اتضحت منذ أخريات الدولة القديمة ، وأنما نرى الان حكومة مركزية

(٥٤) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٨٤ .

قوية تسيطر على البلاد ، وتتبع نظاما ثابتا ، وتخضع البلاد جميعا لنظمها وقوانينها وأصبحت الوظائف في الاقاليم تتكون أساسا من العمدة ، أو رؤساء المدن ، ويطلق القوم عليها أسم « حاتى عا » للمدن الرئيسية ، وتمتد دائرة اختصاص هؤلاء العمدة على المدن نفسها ، فضلا عن مرافقها على النيل والمنطقة الزراعية المحيطة بالمدينة ، وكانوا منذ عهد الدولة الوسطى مسئولين أمام مكتب الوزير مباشرة ، وكان عليهم جمع الضرائب ونقلها ، فضلا عن إمداد دور العبادة ، وبخاصة في طيبة ، بما تحتاجه من مؤن ، ومن ثم قد كان البعض منهم يحمل لقب « المشرف على الكهنة » (٥٥) .

هذا وهناك الكثير من نصوص الاسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميته (٥٦) ، وبأن الواحد منهم إنما قد بدأ وظيفته « دونما تأثير من أقاربه » ، أو أنه « من أسرة غير ميسر عليها في الرزق ، كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه في مدينته » ، على أن هناك ما يشير الى أن بعض الوظائف إنما كانت تشغل بأشخاص كانت لابائهم مكانة أكبر من مكانة الفلاحين ، وفي أغلب الامر من أولئك الذين كانوا على علاقة بالملك منذ أيام الصبا ، أو الذين رافقوه في المعارك الحربية ، أو أزواج وأبناء أولئك اللاتى كن يخدمون في القصر الملكى ، وفي كل الحالات كان يفضل من كانوا يتمتعون بقدرات خاصة من الكفاءة والمقدرة والخبرة ، ولعل هذا كان سببا في أن تحتكر بعض العائلات بعض المناصب لعدة أجيال ، كما هو الحال على سبيل المثال في وظيفة وزير الصعيد على أيام حتشبسوت

55) H. W. Helck., Op. Cit., P. 237-238.

(٥٦) حدث هذا في عصر الثورة الاجتماعية الاولى عندما ظهرت طبقة لا تعتز بالحسب والنسب ، وإنما تمجد العصامية ، حتى أن الواحد منهم يفخر بأنه مواطن يتحدث بوحى من نفسه ، ويعمل بساعده ويحرث بمواشيه وينتقل بقاربه ، وأن ذلك لم يرثه من ابيه وإنما أحرزه بساعديه ، كما يشير نص «ابن وجا» و «حقا ايوب» (محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفراعنة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وتحتتمس الثالث ، حيث أنتمت من أحسن (عموش) الى ولده آمون
أوسر ، ثم حفيد الأخير « رخمى رع » وزير تحتتمس الثالث المشهور ،
وقد أدى ذلك بالتدريج الى أن تنشأ طبقة أرستقراطية جديدة كرس
نفسها لخدمة العائلة الملكية ، وإن كانت أقل ثباتا في البيوتات من
الأرستقراطية الوراثية القديمة (٥٧) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن اتساع الامبراطورية في عهد
الدولة الحديثة أدى الى اتخاذ عواصم إدارية لسهولة التحكم في إدارة
أقاليم الامبراطورية ، ففي آسيا كانت غزة هي مركز الإدارة ، ثم عين
في بقية أنحاء الامبراطورية الاسيوية مشرفا في كل منطقة ، فضلا عن
مفتشين مقيمين في المدن الكبرى (٥٨) ، ولكن لم يحدث في آسيا ما حدث
في النوبة حيث عين « نائب الملك » لان الظروف في سورية وفلسطين
تختلف عنها في النوبة ، ذلك لان كل هذه المنطقة إنما كانت بها مدن
وولايات مستعدة لان تدخل في معارك مع بعضها البعض أو أن ترتبط من
جديد ببعضها البعض ، وكان ولاؤهم لفرعون يهزه دائما تهديد القوات
الكبرى التي تضغط من ناحية الشمال (٥٩) .

أما في النوبة فقد كانت عنيفة — وربما بوهن — عاصمة للأقاليم
الجنوبية ، ويقيم فيها « نائب الملك في كوش » والذي أضيف اليه فيما
بعد لقب « حاكم الأراضي الجنوبية » ، وإن كان ليس هناك ما يدعو الى
التفكير بأن واحدا ممن حملوا هذا اللقب كان أبنا حقيقيا للفرعون

57) H. W. Helck, Op. Cit., P. 302-4, 385,386,370-JNES, 14, 1955, P. 25, 30, BMMA, 32, 1937, P. 11, 61.

58) AJSL, LV, 1938, P. 352.

(٥٩) محمد بيومي مهران : أخناتون ص ٣٠ - ٣١ ، وأنظر
M. Abdul-Kader, The Administration of Syre-Palestine during The
New Kingdom, Cairo, 1960, P. 1-33.

الحاكم (٦٠) ، وعلى أى حال ، فلقد كانت سلطات حاكم النوبة تتغير من وقت الى آخر ، فبينما نراها أول الامر من نباتا حتى أسوان ، نراها بعد ذلك تمتد حتى « نخن » (البصيلية) بسبب الرغبة فى جعل مناطق أستغلال الذهب فى كل من مصر والسودان تحت ادارة موحدة •

(٣) الاقاليم فى مصر الفرعونية :

أطلق المصريون على مصر ، من بين ما أطلقوا عليها من أسماء كثيرة ، اسم «تاوى» بمعنى الارضين ، أرض الصعيد وأرض الدلتا (تاسمو ، وتامحو) ، وهو اسم ابتدعه القوم منذ أخريات الالف الرابعة قبل الميلاد على أقل تقدير ، متأثرين فى ذلك بالفوارق الاقليمية بين الصعيد والدلتا ، وباستقلال الواحد منهما عن الآخر ، فيما قبل التوحيد ، وكانوا يعنون بأرض الصعيد تلك المنطقة التى تمتد من أسوان جنوبا ، وحتى شمال أطفيح شمالا ، ويعنون بأرض الدلتا منف والدلتا ، هذا وقد قسم القوم كذلك كلا من الصعيد أو مصر العليا ، والدلتا أو مصر السفلى الى أقاليم ، عرفت فى المصرية القديمة باسم «سبات» ، وفى اليونانية Nomes •

وكان لكل أقليم شعاره الرسمى الذى كان عادة ما يعلو فوق سنارى ، فضلا عن معبود يتمجدون اليه ، كما أن هذه الاقاليم انما كانت عرضة للتغير ، وأن ثبتت قاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية عند اثنين وعشرين اقليما ، وان كان الامر بالنسبة الى الدلتا جدا مختلفا ، وطبقا لما ذهب اليه « هلك » فقد كانت أقاليم الدلتا حتى الاسرة الرابعة ، أربعة عشر اقليما ، ثم أصبحت فى الاسرة الخامسة سبعة عشر اقليما ، وفى الاسرة الثمانية عشرة ستة عشر اقليما ، وفى عهد الدولة الحديثة زادت الى ثمانية عشر اقليما ، ثم أصبحت فى الاسرة الخامسة والعشرين أربعة عشر اقليما ، وزادت فى العصر الفارسى الى

60) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 170

وهذا يعنى أن أقاليم الدلتا طوال العصور الفرعونية إنما كانت تتراوح بين ١٤ ، ١٨ اقليما ، بينما ظلت أقاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية ثابتة عند اثنين وعشرين اقليما (٦٢) ، كما أن هذا يتعارض مع ما ذهب اليه البعض من أن أقاليم الدلتا كانت ٢٠ اقليما ، وأن بلغت في العصر اليونانى أو البطلمى اثنين وعشرين اقليما (٦٣) .

61) W. Helck, Die Alagyptischen Gaue, Wiesbaden, 1974, P. 19-23, A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1973, P. 589.

(٦٢) أرمان ورائكة : المرجع السابق ص ١٠ .

(٦٣) سنقدم - ان شاء الله - دراسة خاصة في كتاب مستقل عن الاقاليم والعواصم السياسية في مصر القديمة تحت عنوان «المدن الكبرى في مصر القديمة» ، تليها دراسة أخرى عن «المدن الكبرى في الشرق الأدنى القديم» ، وكلا الدراستين تحت الطبع ، أرجو أن يريا النور قريبا ، ان شاء الله .

الفصل الثالث

الشرطة والجيش والاسطول

(١) الشرطة

يرى « جوردن تشيلد »^(١) أن قيام أى نظام فى المجتمع يعنى بالضرورة وجود هيئة تحفظ له صفة الالتزام ، وهى التى نعبر عنها بالشرطة ، ولكن ليس معنى هذا أنها وجدت بقيام النظام فى المجتمع الاول ، بل ان الشرطة بهذه الصورة لم تعرف الا منذ بداية الدولة الحديثة ، أو على الأقل ، لم تعرف بوصفها جهازا مستقلا عن أجهزة الدولة ، بما فى ذلك الجهاز الادارى والجيش ، الا منذ هذه المرحلة ، ولم يكن التخصص الدقيق معروفا ، بل ظل كذلك الى العصور الحديثة ، فلم يكن هناك ما يمنع من أن يكون رجل الجيش أو الادارة شرطيا .

وكان الوزير على رأس جهاز الشرطة فهو الرئيس الاعلى لها فى العاصمة ، وكانت تقدم له من رجاله تقارير عن أغلاق المخازن وفتحها فى المواعيد المقررة ، فضلا عن الداخلين والخارجين فى ديوان ادارة البلاد^(٢) ، بل وفى البلاد نفسها ، ونعلم من نص موظف الحدود من عهد مرنبتاح كيف كانت سلطات الامن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية ، حيث يذكر التقرير أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح لرعى ماشيتهم

1) Gordon Childs, What Hapened in History, (Penguin Books), 1969.
(٢) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٤١ .

بالقرب من بيثوم (تل المسخوطة ، على مبعدة ١٥ كيلا شرقى الاسماعيلية
أو مكان قريب منها) (٣) .

هذا وقد كان من مهام الشرطة الرئيسية ، تحت اشراف الوزير ،
حراسة فرعون ، وهناك من عصر أخناتون ما يشير الى أنه قد تعرض
لمؤامرة كادت أن تودي بحياته ، لولا يقظه «ماحو» رئيس شرطة مدينة
«أخيتاتون» (العمارة) الذى أسرع بالقبض على المتآمرين ، ثم
ساقهم الى المحاكمة بين يدى القضاء الذى يتزعم رأيته الوزير ، وطالب
بالقصاص منهم جزءا ما اقتترغوا من اثم فى حق فرعون (٤) ، كما كان على
الشرطة حراسة الجبانات ، فضلا عن توفير الامن والامان للمواطنين فى
داخل البلاد وفى الصحراوات المتاخمة ، والتي ربما كان لها شرطة خاصة
يحمل رئيسها لقب «رئيس شرطة الصحراء» ، كما أن هناك ما يشير الى
وجود لقب «رئيس المجاى وشرطة الصحراء» منذ عهد الملك سيتي
الاول ، كما كان من واجبات الشرطة جباية الضرائب على البضائع
الخارجية فى مناطق معينة عند الحدود ، أو عند نهاية الطرق الصحراوية ،
فضلا عن جمع المجندين وفرزهم ومراقبة بعثات المهاجر .

وكان رجال الشرطة يمارسون وسائل مختلفة للتحقيق الجنائى تقرب
من الوسائل الحديثة ، فكسان هناك أولا حلف اليمين ، ثم الاستعانة
بالخبراء أثناء اجراء التحقيق ، فى المسائل التى تتطلب خبرة خاصة ، وكذا
مواجهة الشهود ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الموت أنما كان عقوبة اليمين

(٣) محمد بيومى مهران : اسرائيل - الكتاب الاول - التاريخ
الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤١٥ ، ٤٤٤ وكذا

J. Wilson, ANET, P. 258-259.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 274. وكذا

J. H. Breasted, ARE, III, No. 636-638. وكذا

(٤) محمد بيومى مهران : أخناتون - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٨
وكذا

N. de G. Davies, The Tombs of El-Amarna, IV, Pls. 21-26.

الكذب لانها تنطوى على جريمتين كبيرين ، هما الكفر بالله وضياع أكثر ضمان للثقة بالناس (٥) .

كانت الكلمة المصرية القديمة « مجايو » تطلق في عهد الاسرة الثامنة عشرة على نوع معين من القبائل النوبية الصحراوية ، وغالبا ما كانوا من البجا (البشارية) الذين كانوا يعملون ككتشافة ويقومون ببعض العمليات الخفيفة في الجيش المصرى ، ويحملون أسلحة خفيفة ، وبمرور الزمن شاع استعمال كلمة المجايو أو المازوى في الشرطة الى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تطلق على رجال الشرطة نوان لم يكونوا نوبيين أو من هذه القبيلة بالذات ، اذ أنه من المؤكد أنه على أيام الدولة الحديثة انما كان معظم ضباط المجاي من المصريين ، كما كانت قوات الشرطة تكون من فرق خاصة من المصريين ، كما تشير الى ذلك مقابر العمارنة والكااب (٦) .

وكان رئيس المجايو يشرف على كل القوات الخاصة بالشرطة ويعاونه واحد أو أكثر من معاونيه الذين كانوا يسمون «ادنو أن مجاي» ، وكان لكل مدينة كبيرة أو إقليم جماعة من الشرطة خاصة به ، يرأسها « قائد المجايو » (حرى مجايو) ، ولكنه يتبع رئيس المجاي ، وكان يجمل في مدينة طيبة لقبا من ألقاب قواد الجيش (حرى بجدت) وقد صورت وحدات المجاي على قبر قائد الشرطة في طيبة « نب أمون » في عهد تحوتمس الرابع ، وهم يحملون الاعلام الحربية ، وأغلبهم قد سلح بالاقواس ، ولو أن بعضهم يحمل سهاما ودروعا (٧) .

وهناك أشارات من عهد الدولة الحديثة الى قيام المجاي بحراسة الحدود ، والطواف في دوريات تجوب الصحراء ، هذا وقد اكتشف في

(٥) نجيب ميخائيل : المرحم السابق ص ١٤٣ .

(٦) J. Tylor, The Tomb of Paheri, 1894, Pl 7.

(٧) A. R. Schulman, Military, Rank, Title and Organization in The Egyptian New Kingdom Berlin, 1964.

العمارة تكنات للشرطة عند حافة الصحراء ، وإلى الشرق من حي الحكومة (إلى الوسط) عند السهل الذى يمتد سطحه المنبسط فيكون أرضا صالحة للمناورات ، فضلا عن السماح بالدخول السريع الى نقطة حيوية بالمدينة أو الصحراء ، وحتى اليوم يمكننا تتبع الطريق الذى يقودنا الى قمة الجبل ، حيث كان الحرس يقفون ليل نهار للمراقبة ^(٨) ، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير الى أن حصن الجبانة في طيبة الغربية إنما كان مركزا للشرطة ، كما أن هناك بردية من العصر المتأخر تشير الى أنه من بين ١٨٢ بيتا في طيبة الغربية ، كان اثنتان من أصحابها من رؤساء الشرطة ، واثنتان من ضباطها وسبعة من الجنود .

وكانت هناك فرق مختلفة من الشرطة لها اختصاصات متباينة ، فالشرطة المحلية لحفظ الامن الداخلى ومناطق الصحراء ، والاولى تخضع لرؤساء الشرطة وتوزع في بيوت حراسة ، والثانية تخضع لرئيس شرطة المجاى وكانت تقوم بحوريات منتظمة للمرور على الطرق وتفتيشها ، وأما الشرطة الخاصة ، ومنها الحرس الملكى فليضمن سلامة فرعون ، وضمان ولاء الشعب له ، وهناك كذلك شرطة نهريه لحراسة السفن ، وكان للمعابد شرطتها الخاصة ، وتعمل على حفظ النظام داخل المعبد ، وصيانة ممتلكاته في خارجه ^(٩) . كما كان من واجبات الشرطة الاشراف على جمع الضرائب المفروضة على البضائع الخارجية في مناطق الحدود عند فوهات فروع النيل ، وعند حدود الدلتا الشرقية (ربما عند ثارو) ، وفي التوراة (تكوين ١٠/١٢ — ٢٠) ما يفيد من أن سيدنا ابراهيم كان عند دخوله مصر ، بقادر على أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهابا .

ولعل من الاهمية بمكان أخيرا أن نشير الى أن هناك جدلا طويلا قام بين العلماء حول «المجاى» وموطنهم الاصلى ، فذهبت آراء الى أنهم

8) E. Bill De-Mot, The Age of Akhenaten, London, 1965, P. 79.

(٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٢ — ١٤٣ .

أنما كانوا قبائل نوبية كانت تعيش في الصحراء الشرقية في النوبة السفلى ، فيما بين « كستمنة » (إلى الشمال قليلا من كوبان) شمالا ، وبين « الدر » (إلى الشمال قليلا من عنيبة) جنوبا ^(١٠) ، وذهبت آراء أخرى إلى أنهم كانوا يعيشون إلى الجنوب من الجندل الثاني ، وربما في المنطقة التي ينحني فيها النيل على هيئة حرف S فيما بين الجندل الثاني ، وحتى منطقة قريبة من الخرطوم حيث يلتقي النيل الأزرق بالابيض ^(١١) ، على أساس أن هرخوف لم يذكر قبائل المجاي في رحلاته ، كما أن هناك حصنا عرف باسم « صد المجايو » يقع فيما بين وادي حلفا وعنيبة ، وربما في « فرس » ^(١٢) حيث أطلق على قلعتها « قاهرة المجايو » (أو المازوي = Mazoi ملتوي Matoi في القبطية) مما يشير إلى أن خطر هذه القبائل كان يأتي من جنوب هذه المنطقة ، وعلى أي حال ، فإن المجايو كانوا في عهد الاسرة الثالثة عشرة يسكنون جنوب الشلال الثاني ذلك لأن رسائل سمنة التي عثر عليها في الرمسيوم أنما تسجل وصول عدد صغير من المجايو إلى سمنة لبيع بضائعهم ، ثم العودة مرة أخرى إلى مناطق أقامتهم ^(١٣) .

وهناك مرسوم الملك « ببي الاول » الذي يعفى أتباع هرمي سنفرو من خدمات معينة ، فلتقى فيه بفقرة تحرم التدخل معهم بواسطة « النوبيين المسلمين » وهو اصطلاح يظن أنه رجال البوليس مثل المجايو في العصور المتأخرة ^(١٤) ، على أنه منذ الدولة الوسطى وحتى فيما بعدها بقليل كان أسم المجايو أو المازوي يعنى النوبيين بالمعنى العام ، حيث كان يذكر وحده ليعنى أي قوم من النوبة وما بعدها ، كما أن كاموزا أنما يشير

10) R. Weigall, A Report on The Antiquities of Lower Nubia, Oxford,

11) J. H. Breasted, A History of Egypt N. Y., 1946, P. 137.

(١٢) فرس : هي باخورمس القديمة ، على مسافة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثاني وعند الحدود المصرية السودانية الحالية .

13) A. H. Gardiner, Onom, I, P. 75, II, P. 217.

14) T.G.H. James, CAH, II, Part, 2, 1973, P. 291.

كما في لوحة كارنارفون ، الى « جند النوبيين » الذين أشتروا معه في حرب التحرير ، ولعل ذلك أستمرارا لتقليد قديم ، يرجع الى أيام الدولة القديمة ، كما نعرف من نص « ونسى » حيث كان النوبيون ، بما فيهم المجايو ، يلتحقون بالجيش المصرى (١٥) .

وأما أستعمالهم في الشرطة فقد كان في الاسرة الثامنة عشرة ، كما أشرنا من قبل ، وان ذهب البعض الى أن ذلك ربما ظهر منذ أيام سنوسرت الثالث من الاسرة الثانية عشرة ، حيث وجد بين موظفى معبد اللاهون أحد رجال المجايو ، كما أن هناك لوحة من الاسرة الثالثة عشرة عليها لقب « مجاي » وقد منح لرجلين يحملان أسمين مصريين ، هما « رس » و « بتاح ور » ، وأن أحدهما كما وصفه البعض كان أحمر اللون (١٦) .

وعلى أى حال ، فإن رجال الشرطة أصبحوا فيما بعد من المصريين ، أو أن معظمهم على الاقل كان كذلك ، ففي مقبرة « ماحو » رئيس شرطة العمارنة ليس هناك ما يدل على أن منظر رجاله يشير الى أنهم من دم غير مصرى ، كما أن أسم « ماحو » نفسه مصرى كذلك ، هذا فضلا عن أن « مجاي » الكاب ، الذى دون أسمه على مقبرة أمير الكاب «(باحيرى)» أنما هو ابن أخته ، كما أن مقبرة «(سنب أمون)» في طيبة الغربية ، والذى ختم حياته الوظيفية بأن أصبح ضابط مجاي في غربى طيبة أنما كان مصرى (١٧) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن كثيرا ممن كانوا يحملون لقب

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٢٣٣ ،
ANET, P. 227-228. وكذا

16) JEA, 25, P. 24 F; AZS, XI, P. 114.

17) N. de G. Davies, The Tombs of Two officials, Pl. 17; J. Tylor, Op. Cit., Pl. 7;

« رئيس الشرطة » انما كانت لهم وظائف أخرى فمثلا الملك « سيتى الاول » (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق م) انما كان قبل ان يصبح ملنا ، وحببا لما جاء في لوحة الاربعمئة ^(١٨) - يحمل بين المقاب لنسب « رئيس المجاي » وترطه الصحراء ، كما ان من بين نواب الملك في النوبة من سافوا يتسعلون وظيفه رئيس الشرطة ، قبل ان يعين الواحد منهم نائبا للملك في دوش ، بل ان هناك من الكهنة من كان يحمل لقب « رئيس الشرطة » كما حدث مع « آمون أم أوبت وذن نفر » كاهن آمون الاخير على أيام رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) ، كما كان رئيس الشرطة يخاف احيانا من بين الضباط الحاملين لرتبة « حامل العلم » في حرس الملك الخاص ، كما حدث مع « ددي » رئيس الشرطة في طيبة النوبية (الاقصر غرب) على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٢٦ ق م) وولده « منحتب الثاني » (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق م) ، وكذا مع « نب آمون » رئيس الشرطة في عهد تحوتمس الرابع (١٤١٣ - ١٤٠٥ ق م) ^(١٩) .

وهناك ما يشير الى أن القوم قد عرفوا نوعين من رؤساء الشرطة أولهما : رؤساء شرطة العاصمة طيبة ، وأمهاة المدن الكبرى مثل « منف » ، فضلا عن مدن أخرى ، ذات أهمية خاصة ، مثل « قفط » (وهي « جبتيو » أو « جبتيو » في المصرية ، وكوبتوس في الانغريقية ، وقفط في العربية) وتقع على مبعده ٢٢ كيلا جنوبى قنا) . وكانت تقع عند بداية الطرق الموصله الى محاجر الصحراء الشرقية وموانى البصر الاحمر ، ومن ثم فقد أشتهر معبودها « مين » كحامى للقوافل والطرق الصحراوية ، بجانب صفته كاله للاخصاب ^(٢٠) ، ومن هنا كانت ضرورة وضع نقط شرطة قوية

(١٨) انظر

P. Montet, la Stele de L'an 400, in Kemi, IV, 1933, P. 199-216.

(١٩) سليم حسن : مصر القديمة ٥٥٢/٤ ، بهاء الدين ابراهيم

الشرطة والامن الداخلى في مصر القديمة - القاهرة ١٩٨٦ ص ١٧

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 45, 129-130.

(٢٠)

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, I, P. 56, VI P. 105.

هناك ، وفى عهد الاسرة الثامنة عشرة كان رئيس شرطة قفط يعمل باتصال وثيق مع مدير مناجم الذهب التابع لمدينة قفط ، وقد ظهر فى الرسوم التى على مقبرة «عن خبر رع سنبل» عند تسليم الذهب لرئيس الكهنة فى عهد أمنحتب الثانى •

وكان النوع الثانى من رؤساء الشرطة ، رؤساء شرطة الصحراء ، الشرقية والغربية ، وهم رجال خفاف الاجسام ، سريعو الحركة ، معظمهم نشأ فى الصحراء نفسها ، ويشرف عليهم رجل يحمل لقب «مدير الصيادين» ، ويقومون بتعقب الفارين الى الواحات ، وحماية عمال قطع الاحجار من غارات البدو بحماية الطرق المؤدية الى مناجم الذهب^(٢١) •

وهناك ما يشير الى أن الواحات انما كانت ضمن السيطرة الادارية للملوك منذ أيام الدولة القديمة ، وربما كانت قد احتلت فى عصر الانتقال الثانى بعناصر من الموالين للهكسوس ، مما كان سببا فى أن يرسل «كاموزا» بن القيس (سلوك القديمة) — وتقع على مبعدة ه كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظة المنيا — كتيبة من جيشه ، احتلت الواحات البحرية ، لمنع أى اتصال بين الهكسوس وأمير كوش^(٢٢) •

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى أعادة السيطرة المصرية عليها منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وأن هناك نوعا من الرقابة الادارية قد فرض على الواحات ، فضلا عن ظهور لقب «محافظ الصحراء» الذى كان يعمل أحد كبار موظفى الملك أمنحتب الاول (١٥٥٠ — ١٥٢٨ ق م) ،

(٢١) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٧ — ١١٩ •

(٢٢) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٢٢٦ ، وكذا حركات التحرير فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وكذا

H. Fisher, JNES, 16, 1957, P. 226-227.

L. Haliachi, ASAE, 53, 1955, P. 202.

J. G. H. James, Op. Cit., P. 310-311.

J. Vercoutter, Op. Cit., P. 413.

وكذا

وكذا

وكذا

كما كان المصريون ، منذ أيام أمنمحات الاول (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق م) ، يرسلون الدوريات البوليسية لتأمين الطرق الصحراوية ، حتى لنرى لقبا جديدا يظهر في هذه الفترة ، هو لقب «مراقب الصحراء الغربية» الذي حملة كبار الموظفين (٢٣) .

وعلى أية حال ، فان الامن في الصحراء الغربية — فيما يبدو — انما كان تحت اشراف رئيس شرطه الصحراء (المازوى) الذى كان هو الآخر تحت الاشراف المباشر للوزير وان ثان في الامكان ان يشهد شخص واحد ، وظيفه عمد المدينة ورئيس المازى ، كما حدث بالنسبة للمدعو «ستى» الذى كان يلقب في عهد الملك تحوتمس الثانى (١٥١٠ - ١٤٩٠ ق م) برئيس المازوى ، وفي نفس الوقت كان يحمل لقب «عمدة المدينة الجنوبية» — طيبة — (٢٤) وهناك ما يشير الى ان تموين الشرطة بالمواد الغذائية ، انما كان يشبه في نظامه تموين الجيش ، فقد كان لرجال الشرطة نائب يسمى «نائب رجال الشرطة» وقد ظهر ممثلا على جدران مقبرة «نب آمون» بوصفه مرؤسا له ، كما نشاهد «مناحو» رئيس شرطه تل الممارنة يشرف بنفسه على أحضار مواد الطعام لجنوده ، التى كان يقدمها الاهلون خريية لمخازن رئيس الشرطة مباشرة (٢٥) ، وهو نفس النظام المتبع في تموين الجيش ، حيث نرى — منذ عهد أمنمحات الاول مثلا — أن الفرعون قد حدد حميه المواد الغذائية التى يقدمها كل اقليم للجيش ، فضلا عن عدد السفن اللازمة للاسطول ، وأعداد الرجال للجيش الم رابط (٢٦) .

(٢٣) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ،

H. Fisher, Op. Cit., P. 226-227.

J. G. H. James, Op. Cit., P. 310-311.

(٢٤) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٩ .

(٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٢١ .

(٢٦) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى — ص ٣٤٢ ، وكذا

R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, in JEA, 39, 1953, P. 36 F.

وهناك ما يدل — من تقارير سرقات المقابر في الاسرة العشرين وغيرها — على أن هناك سجلات للجرائم والمجرمين ، وأن هذه السجلات كانت مقسمة في بعض الاحلين طبقا لانواع الجرائم ، وأن رجال الشرطة انما كانوا يرجعون اليها لمعرفة الجاني أو الجناة في الجرائم المجهولة ، مما قد يشير الى أن طريقة (M. O) الحديثة ، كانت معروفة لدى المصريين القدامى ، أو على الأقل أن الاسس الرئيسية فيها، كان المصريون في تلك الدهور الخوالي يستعملونها لمعرفة المجرمين (٢٧) .

هذا وقد استخدمت الشرطة الفرعونية الكلاب البوليسية للقبض على المجرمين ، فضلا عن الاعداء ، ففي مقبرة «عنخ تيفي» أمير نخن ، في «المعلا» (٢٨) ، وتقع على مبعدة حوالي ٣٥ كيلا جنوبى الاقصر ، منظرا يمثل صفا من عساكر الرماة ، وقد أخذ كل منهم بزمام كلبه ، وليس هناك من ريب في أن أصحاب المصارين لكلابهم على هذا النحو ، انما يدل على استخدام الكلاب في مطاردة الاعداء والقبض عليهم ، هذا فضلا عن نقش في معبد «بيت الوالى» (٢٩) — أول معبد نحته رع مسيس الثانى في الصخر في بلاد النوبة ، ويقع على مبعدة ٥٥ كيلا جنوبى أسوان — يمثل الفرعون وهو يضرب ليبيا ، بينما يقبض كلبه على العدو (٣٠) .

هذا وقد استخدم المصريون القدامى النوبيين في اقتضاء الاثر ، كوسيلة من وسائل البحث الجنائى ، وهناك تقرير عن الامن عند الحدود

(٢٧) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٣ .
(٢٨) انظر :

J. Vandier, la Tomb d'Ankhtifi a Moala, le Caire, 1950.
(٢٩) انظر : جيمس بيكى : اثار المصرية في وادى النيل — الجزء الرابع — القاهرة ١٩٨٧ ص ١٣٢ — ١٣٤ (مترجم) ، محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، محمد أنور شكرى : العمارة في مصر القديمة ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٣٠) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٥ — ١٤٧ .

الجنوبية ، من حصن «صد بلاد المجاي» (٣١) ، عند الجندل الثاني ، جاء فيه «أن الدورية التي خرجت لتمر على حافة الصحراء على مقربة من حصن «صد المجاي» في السنة الثالثة ، الشهر الثالث من الفصل الثاني ، آخر يوم في الشهر ، جاءوا ليبلغوني قائلين : «وجدنا أثر أقدام اثنين وثلاثين رجلا ، وثلاثة حمير » .

وأخيرا غلامد استخدمت الشرطة المصرية في عصور الفراعين المرشدين لمنع الجريمة قبل وقوعها ، وضبط المجرمين ، وهناك من الوثائق ما يدل على أن القوم قد كتب لهم نجما بعيد المدى في تحقيق مهمتهم ، فقد جاء في «بردية ماير أ» — وقد تحدثت عن سرقة صناديق صغيرة فيها كنوز محفوظة في بيت المال لمعيد مدينة حابو — أن رئيس الشرطة إنما قد د في القبض على اللصوص متلبسين ، وقد وضعوا أيديهم على صناديق النفائس (٣٢) .

(٣١) أنظر عن هذه الحصون الثلاثة عشر التي أقيمت في عهد سنوسرت الثالث ، فيما بين أموان وسمنة :
W. B. Emery, in *Kush*, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10, 1962.
G. A. Reisner, *Excavations at Semna and Uronarti, by the Harvard-Boston Expedition in Sudan, Notes and Records*, 12, 1929, P. 141-161.
(٣٢) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٢) الجيش

يكاد يكون من شبه المسلم به أن مصر لم يكن لها جيش ثابت منظم حتى نهاية الدولة القديمة ، فلقد كان لكل مقاطعة ، أو أقليم قواته الخاصة به ، كما كان لكل معبد من المعابد الكبيرة قواته الخاصة ، ولم تكن هناك وحدة بين هذه القوات ، الا في حالة الضرورة الملحة ، كما حدث عندما عين «ونى» في الاسرة السادسة ، قائدا عاما لهذه القوات ليصد عن البلاد خطر الهجوم من قبل الاسيويين .

وفي الواقع فان أقدم النصوص التى تعرضت للأوضاع والتقاليد العسكرية انما كان نص «ونى» ^(١) هذا ، والذي قاد عدة حملات جريئة في غربى آسيا ، وقد أشار الى أنه جمع الجيوش من عشرات الالاف من المجندين ، من جزيرة أسوان ، وحتى «أطفيح» — على مبعده ١٥ كيلا شمالى مدينة الواسطى ، ١٨ كيلا جنوبى مدينة الصف بمحافظة الجيزة — أى من الصعيد كله ، ومن النوبيين والليبيين ومن البلتا ، وأنه قد أدى مهمته بنجاح .

غير أننا نلاحظ ، أنه على الرغم من أن «ونى» انما يشير الى انتصاره الساحق ، والى ذبحه لعشرات الالاف من رجال عدوه ، ثم عودته الى أرض الكنانة منتصرا ، ومع الكثير من الاسرى ، فانه سرعان ما يضطر الى القيام بأربع حملات أخرى ، منها واحدة كانت برية وبحرية معا ، حصر فيها عدوه الاسيوى بين فكي الكماشة ، وقد كتب له فيها نجحا بعيدا

1) A. Wilson, ANET, P. 227-228.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, California, 1973, P. 18.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 95-96.

المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، ثم يحدثنا ونى بعد ذلك عن تمرد عند «أنف الرئم» ، وهو أقليم يظن أنه جبل الكرمل ، وقد عبر بجيوشه الى ما وراء منطقة التلال حتى أرض سكان الرمال ، بينما نصف الجيش يقترب على الطريق الصحراوى ، وقد عول «ونى» على القضاء على كل المتمردين (٢) .

ويدهى أن تقرير «ونى» لم يبرأ من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه وحين أدعى أن جنوده لم يحميدوا عن جادة الصواب فى كل كبيرة وصغيرة، ولكنه لم يخل من دلالات تاريخية صرفة ، منها أن القوم قد تعودوا على أيامه أن يجندوا قطاعا واسعا من أماكنات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم ، كلما آن أوانها ، ومنها أنهم اطمأنوا الى اخلاص بعض النوبيين والليبيين وأستعانوا بهم فى جيوشهم ، ومنها أن رجال الدين كان لهم دور فى الحروب ، وربما كانوا يثيرون حماس الجنود ، ويذكرونهم بالارباب والولاء للحكام والرؤساء ، والحرص على تقاليد الدين ، ومنها أن التراجمة كانوا يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المدن المفتوحة ، ومنها أن رؤساء عهده ، ممثلين فى شخصه ، كانوا يقدرون من تبعات القيادة أربع واجبات وهى : محاولة تغليب روح الطاعة فى الجيش ، وتقليل دواعى الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بمؤنة مناسبة تصرف رجاله عن الدنية ، وعن محاولات النهب والعدوان (٣) .

على أن هناك اتجاها آخر يذهب الى أنه على الرغم من عدم وجود أدلة كافية على وجود جيش ثابت فى عهد الدولة القديمة ، فإنه من الصعب التسليم بمثل هذا الرأى ، ذلك لانه من الصعب أن نتصور أن

2) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 95-96.

(٣) عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول - ص ١٣٥ .

الملوك كانوا قادرين على الاستغناء كلية عن وجود الجيش ، فعند حدوث أزمة طارئة أو خطر بغزو أو حتى ثورة ، كان الاعتماد على المتطوعين المحليين قد يجبر البلاد الى حافة الخطر ، اذ يحتاج جمعهم الى وقت طويل نسبيا ، ومن ثم فمن المرجح أن النوبيين الذين يمكنهم تعبئتهم على عجل ، هذا فضلا عن أن مناظر المعارك في سقارة وفي دشاشة انما تعطى انطباعا بأن عملية الاستيلاء على الحصن ، كما في دشاشة ، لا يمكن أن يقوم بها مجندون أخذوا مباشرة من الحقول أو من أعمال تجارية ، دون أن يكون بينهم نظاميون يقودون الطريق في جبهة القتال (4) ، حيث نرى المصريين في المنظر يلتحمون مع الاسيويين رجلا ضد رجل في أرض خلاء، وما يكاد الاسيويون يحسون وطأة المصريين حتى يعمدوا الى الفرار والتحصن في قلعتهم ، غير أن المصريين يحاصرونهم في دقة تسترعى الاعجاب ، ثم ينقبون أسوار المدينة بخوابير مديبة من الخشب ، ويقيمون السلاسل لاعتلائها لاتمام عملية الاستيلاء على القلعة .

وفي أوائل عهد الدولة الوسطى كان هناك شبه استقلال لحكام الاقاليم ، من ثم فقد كانوا يحتفظون لانفسهم بقوات مشكلة على غرار جيش الدولة ، وان كانت أصغر منها حجما ، كما كان للفراعين أنفسهم حرس خاص ، ولم تكن هذه القوات الخاصة بالحكام أو الدولة تستخدم في الحروب فحسب ، وانما كانت تقوم بأعمال أخرى وقت السلم ، كحمية البعثات التجارية ، وبعثات استغلال المناجم والمحاجر في الصحراء ، حتى جاء «سنوسرت الثالث» وكتب له نجحا بعيد المدى في القضاء على نفوذ أمراء الاقاليم ، ومن ثم فقد رأى أن اعتماد الملكية على جيوش حكام الاقاليم انما كان يمثل أشد الخطورة على العرش ، ومن ثم فقد أسرع بتكوين جيش ثابت للملك (5) .

4) R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, JEA, 39, 1953, P. 32-35.

5) Ibid P. 37.

وأنة قد أتجه من اللشت حتى أبيدوس ليختار المجندين من هناك ،
هذا فضلا عن نص آخر يحدثنا فيه ابن أمنمحات الثالث نفسه ، نيف انه
كان يختار رجلا من بين كل مائة رجل لتدوين فرقته لسيده الملك .

ومع أنه من المعروف ان مهمة التجنيد اما كانت تؤدى عادة الى تدريب
الجيش ، الا أن قيام ولى العهد بها انما كان يعنى انه اختار هذه الفرقة
لوالده ، ربما لكى يستخدمها فى مقاطعاته الخاصة . وربما كان هؤلاء
الرجال هم الذين اطلق عليهم اسم «نابع الحكيم» (سمسو) . والدين
كانوا على صلة مباشرة بالملك يتبعونه حينا انتفض بحماينه من غائلة
المخاطرة فى الداخل والخارج ، وربما كانوا أصلا طبقة عسكرية أفرادها
من عليا القوم المتصلين بالملك (٦) .

وكان الملك هو القائد الاعلى للجيش ، غير أن هناك ما يشير الى أن
بعضا من القواد انما كانوا يقومون بقيادة الجيش نيابة عن الملك ، ومن
ثم فقد حملوا لقب «قائد الجيش» (أمى - ار - مشع) ، ومن هؤلاء
«نعمونت» ، وتبين لنا لوحته التى ترجع الى فترة الحكم المشترك بين
أمنمحات الاول وولده سنوسرت أن هذا القائد انما أشهر الحرب ضد
الاسيويين الرحل ، ودمر حصونهم ، وان كنا لا ندرى الى أى مدى بلغ
نشاطه فى الاقاليم الاسيوية (٧) ، ومنهم كذلك «منتوحتب» وقد خدم
فى النوبة على أيام سنوسرت الاول ، ومنهم «سعنخ» وقد أشرف على
القوات المسئولة عن الامن فى الصحراء الشرقية على أيام أمنمحات
الثالث (١٨٤٣ - ١٧٩٧ ق م) .

هذا وقد ظهر كذلك فى عهد الدولة الوسطى لقب «قائد الصدام»
و «قائد الجنود الجدد» ، وقد عين على رأس قوات الهجوم جميعها

6) Ibid., P. 38.

7) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132, ARE, I, Parag. 469-471.

«المسجل الجيش» وقد كان كثيرون في الجيش يحملون هذا التلقب ، حتى اننا نجد في إحدى الحملات إلى وادي الحمامات ما لا يقل عن عشرين من هؤلاء المسجلين من رتب مختلفة ، أعلاهم مرتبة ذلك الذي كان ينولى مسئولية الدب لها ، كما ظهر كذلك لقب «كاتم اسرار الملك في الجيش» والذي حملة «سرنبوت» قائد حامية الجنوبيه عند اسوان ، وقد يعنى التلقب ان صاحبه انما يجب أن يكون على علم تام بمجريات الامور في القصر الملكي ، فضلا عن تحركات الجيش ، وربما كان منوطا به نقل حالة الجيش ومعنويات الجنود إلى الملك (٨) .

كان نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس بمنابه السرارة الاولى التي اشعلت الحماس في قلوب المصريين ، فابوا ان يسحقوا او يقفوا مدحوفى الاينى ، وانما تبارت في الرجاى الفادرين على الحرب في حمل السلاح ضد الغزاة وتطهير الكنانة من دنسهم ، وفي نصوص الاسرة السامه عشرة ظاهرة صغيرة ، ولكنها ذات مدلول كبير ، ففي العصور الاخرى كنت لغوات المصرية تسمى «جيش جلالته» أو «فرقة امون» أو ما شابه ذلك عن الاسماء التي توحى بحصر السلطة في قيادة ذات طابع القوى ، ولكن في هذه الفترة ، عندما بدأت مصر في اظهار قوتها ، تحدثت النصوص عن «جيشنا» وتعنى بذلك اشتراك البلاد كلها في هذا الجيش ، وهكذا تجمعت عدة عوامل فجعلت من هذه الفترة فترة وطنية شعبية خالصة ، اذ تجمعت هذه العوامل مع بعضها على الرغبة في الانتقام ، والاعتزاز بتحرير البلاد ، وزاد عليها حب الغنيمة ، وما اكتشفته مصر في نفسها من قوة ، لم تكن هذه الحرب حرب فرعون وحده ، ولكنها كانت حرب الشعب كله ، حربا اشترك فيها كل قادر على حمل السلاح (٩) .

8) R. O. Faulkner, JEA, 27, 1941, P. 42.

9) J. H. Breasted, ARE, II, 1906, P. 17.

J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 167.

وهكذا أستطاع هذا الشعب الذى أمكنه يوما أن يغير مجرى النيل فى فجر التاريخ ، وإن بينى الاهرامات فى وائل الالف الثالثة قبل الميلاد ، أستطاع ، حين تحرك تحت قيادة رشيده شجاعة ، نجحت فى أن تستشير مكامن الخير فيه ، وأن تضرب على الوتر الحساس من نفسيته ، وأن تكون الاسوة الحسنة له فى الجهاد ، أستطاع أن يطرد الغزاة ، وأن يهز الدنيا ، وأن يذهل التاريخ ، وأن يسود العالم المعروف وقت ذلك ، وأن يصبح جيشه أكبر قوة ضاربة فى الشرق الادنى القديم .

غير أننا لا نستطيع أن نحدد على وجه اليقين الوقت الذى وصل فيه الجيش المصرى الى قمة كفاءته وتنظيمه الذى عرف به فى العالم ، وإن كانت أكثر التغييرات أهمية ، وأكثر التنظيمات العسكرية فاعلية ، إنما تعزى الى عبقرية تحوتمس الثالث ، أعظم الفراعين المحاربين قاطبة ، فلقد اشتهر الرجل العظيم فى التاريخ ، كقائد حربى من الطراز الاول يضع الخطط الحربية وينفذها ، ويبتكر أساليب جديدة فى فن القتال ، قلده فما من جاء بعده حتى العصر الحديث ، كما كان يتحلى بشجاعة نادرة ، ولا يطلب من جنوده أمرا لا يستطيع هو أن يفعله ، وأنه ما كان يقدم على خطوة جديدة دون دراسة وتمحيص للموقف ، ودون أن يعرف كل شئ عن العدو ، فمثلا ، قبل اجتيازه ممر «عارونا» عرف عن طريق طلائع الكشافة مكان وجود العدو وتمركزه ، كما تأكد من خلو طريق عارونا من جند العدو ، وخاصة عند المخرج .

هذا فضلا عن أن الرجل عندما وضع خطته الحربية إنما كان قد قدر عنصر المفاجأة فى الحرب فضلا عن عنصر المخاطرة ، التى وصفها «نابليون بونابرت» بأن فن الحرب لو خلا منها ، لاصبح المجد فى متناول الاشخاص العاديين ، ثم أن الرجل إنما كان أول من لجأ الى الحرب الخاطفة المفاجئة ، فكان يهجم بالآلاف العربات ، يباغت بها العدو فينزل به الرعب والفرع ، ويضطره تحت هذا التأثير الى الفرار ، ثم أنه أول من قسم الجيش الى قلب وجناحين ، وأول من استعمل القوات البرية والبحرية .

هذا وقد عبرت حروب تحوتمس الثالث عن تقليد عسكري مستحب، وهو حرص الفرعون على تبادل الرأي مع ضباط جيشه ، عند مواجهة مفاجآت الحرب ، وقبل دخول المعارك الكبيرة ، ويحدثنا التاريخ أن الملك المصري انما كان قد وضع مبدأ عسكريا جديدا ، قلده فيه «للورد اللنبى» في عام ١٩١٨م أثناء الحرب العالمية الاولى ابان معاركه مع الاتراك ، وذلك حين سلك الطريق الوعر ، مضحيا بسهولة الطرق الاخرى التى يتوقع العدو قدومه منها ، وقد حقق من وراء ذلك أن كسب الوقت اللازم ليحقق المفاجأة على عدوه ، وابقاء زمام المبادرة بيده دوما ، وبكتمن تحوتمس الثالث لاسرار تحركات جيشه، استطاع أن يحقق المناورة البارة التى قام بها جناح جيشه الايسر في معركة مجدو ، عندما تحرك الى الشمال الغربى من المدينة ، وكانت النتيجة أن خرج جيش العدو من المعركة وهزم ، قبل أن تبدأ المعركة .

والامر كذلك بالنسبة الى «المارشال مونتجمرى» الذى قلده في فكرة بنائه للسفن في منطقة بعيدة جدا عن مسرح العمليات (حوالى ٤٠٠ كيلا) ، ثم نقلها من مجاورات جبيل (بييلوس) ، على هيئة أجزاء مفككة ، على عربات تجرها الثيران ، ثم أعيد تركيبها في قرقيش ، مما يدل على عبقريته العسكرية الفذة ، ذلك أن الفرعون انما كان أول من فكر في نقل جيش مهاجم عبر نهر ، وهكذا فعل مونتجمرى بعد آلاف السفن في الحرب العالمية الثانية ، عندما عبر نهر الراين على سفن جىء بنا برا من الساحل ، على غرار ما فعله تحوتمس الثالث (١٠) .

وكان جيش الدولة الحديثة يتكون من قسمين رئيسيين : المشاة والعربات الحربية ، وكان سلاح المشاة دعامة الجيش ذلك لان جنوده هم الذين يحتلون الاراضى المفتوحة ، ويقيمون الحصون لحراسة الممرات المؤدية الى الوطن ، وتلك التى تؤدى الى مواقع القوات ، ولم يكن المشاة جميعا من طراز واحد ، فهناك تشكيلات المشاة العادية ،

(١٠) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٦ - ٣٧ .

وهذا تشكيلات مشاة القوات الخاصة ؛ فضلا عن القوات الاجنبية ، هذا وكانت الوحدة الرئيسية في تشكيزات الجيش هي السرية ، والتي تنقسم الى فصائل ، وهذه الى جماعات ، وتتكون الجماعة من عشرة أفراد ، ويتلقى قائدها أوامره من قائد الفصيلة الذي يعسرف بقائد الخمسين ، حيث تتكون الفصيلة من ٥٠ جنديا فضلا عن قائد السرية أو حامل اللواء ، ثم أركان حرب السرية ، ثم كاتبها ، وهناك كذلك ما يسمى «كتيبة» وتتكون من سريتين^(١١) ، هذا وكان أفراد المساة ينقسمون الى رماة وحملة الرماح ، ويفتح الاولون الطريق للآخرين الذين يدخلون المعارك متلاحمين مع العدو ، وقد صور الرماة وكانما هم جماعة سائرة يرسلون السهام من داخل الحصون ، أما حملة الرماح فكانوا يتحملون أكبر قسط من المسؤولية في المعركة .

وأما القوات الخاصة فكان أفرادها يتميزون بصغر السن ، ويتلقون تدريبات معينة تؤهلهم لخوض المعارك الحاسمة ، كما حدث في موقعة قادش ، حوالي عام ١٢٨٥ ق م ، حيث تعرض رعمسيس الثاني وقواته الى كمين أحكم الحيثيون تدبيره ، فوجهوا الى فيلق رع ضربة أصابته في الصميم ، بل وكادت الدائرة تدور على الفرعون وجنوده ، لولا أن جاءتة نجدة ممثلة في فرقة «نعرين» فانحطت على جيش العدو ، وأوقعت به الهزيمة ، وهكذا عملت فرقة نعرين على تغيير رياح الحرب ، وان كان الفرعون قد أرجع النصر الى عون ربه آمون وإلى شجاعته النادرة .

هذا وقد اختلف المؤرخون في أمر «نعرين» هؤلاء ، فذهب فريق الى أنهم نجدة من شبلب الفلسطينيين المجندين وصلت الى ميدان المعركة تحت امرة الضباط المصريين ، وأنهم كانوا على علاقة خاصة بالفرعون ويمثلون جزءا من قواته الحربية ، وأنهم كانوا على اتصال

11) A. R. Schulman, Op. Cit., P. 29-30.

بالمعادن والحياة العسكرية المصرية لفترة طويلة^(١٢) ، وذهب فريق ثان الى أنهم كانوا جزءا من الحامية التي كان الفرعون قد تركها في قاعدته البحرية في حملة السنة الرابعة ، وقد أخذهم معه في مسيرة نحو قادش ، وقد وضعهم اما في قلب الجيش أو في مؤخرة فيلق رع أو في مقدمة فيلق بتاح^(١٣) ، وذهب فريق ثالث الى أنهم جزء من القوات المصرية كانت ترابط في أرض آمور ، وأنها تقدمت من مجاورات طرابلس على الطريق الذي يعترض نهر الليطاني^(١٤) .

والرأى عندى أنهم فرقة من الجيش المصرى ، ولكنها ليست واحدة من غيلقه الاربعة ، كان الفرعون قد تركها في حملة السنة الرابعة في الشام ، وربما كانوا فرقة قد أعدها الفرعون لجسام الامور ، أو ما نسميه في الوقت الحاضر بالفدائيين ، ربما كانوا فرقة فدائية أو انتحارية ، أعدها الفرعون اعدادا خاصا من المشبان المصريين ، ولعل ذلك يبدو واضحا في نسبتها اليه «قديوم نحرين المفعولون من أرض آمور» ، وأنها كانت في أرض آمور منذ حملة السنة الرابعة^(١٥) .

وأما سلاح العربات أو المركبات فربما ظهر منذ أيام تحوتمس الثالث ، وان كانت رتبة العسكرية قد ظهرت منذ أيام امنحتب الثالث مثل رتبة «حامل لواء مقاتلو العربات الحربية» ، وكان لكل عربة قائد ومقاتل ، الواحد يقود الخيل ، والاخر يرمى السهام من قوسه ، أو يقذف بمزارق كانت توضع في جعبتين عند حافة المركبة لتكون في متناول يده ، وقد عرف سائق عربة فرعون «بالسائق الاول لجلالته» ، كما كان على رأس كل فصيلة صغيرة نسبيا من العربات «قائد كتيبة العربات» يشرف عليه ضابط قديم يسمى «قيم الاصطبل الملكي»

12) H. Goedicke, JEA, 52, 1966, P. 79-80.

13) A. Burn, JEA, 7, 1921, P. 194.

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 263.

(١٥) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٨٧ - ٨٨ .

يعاونه ضباط ومدرّبون لهم خبرة بالخيول يعرفون باسم « رؤساء الاصطبل » ، وكانت العربات الحربية تتقدم الجيش خلال المعارك ، ثم تتبعها المشاة ، كما كانت العربات تعمل كذلك على إيقاف تقدم العدو ، إذا لم يكتب للجيش النصر ، وأخيرا فلقد كانت العربات الحربية تقوم بحماية مقدمة الجيش ومؤخرته ، فضلا عن جناحيه ، أثناء التحركات العسكرية ، كما كان عليها أثناء الاشتباكات أن تتبع العدو ، وأن تمزق مشاته بعد انكساره (١٦) .

كان فرعون هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وقد قام أغلب ملوك التحامسة في زمن الحرب بتدمير وإدارة المعارك الحربية ، كما أشرفوا على توجيه فرق المركبات في المعركة ، فضلا عن إدارة المعارك البحرية من الاساطيل الملكية أثناء التحركات البحرية الهامة (١٧) ، ولكن الفرعون كان ينيب أحيانا ولى العهد في ذلك ، وكان الوزير غالبا ما يقوم بوظيفة وزير الحرب ، فقد كان يرأس جماعة عامة الموظفين في الجيش في الدولة الوسطى ، وربما استمر الامر كذلك في الدولة الحديثة ، وعلى أى حال . فلقد كلفت جماعات كثيرة من المكاتب العسكريين (سش مشع) بأعمال التجنيد والامدادات وحفظ سجلات المعارك الحربية ، فضلا عن بعض الوظائف الادارية الاخرى التى كان يكلف بها الجيش وقت الحرب والسلم ، وكان رأس هؤلاء المكاتب ، رئيس كتاب الجيش والكاتب الملكى للتجنيد ، كما كانت الرقابة الادارية العامة للجيش على عاتق ضباط قادة وأركان حربهم (١٨) ، وهكذا كان من بين ضباط الجيش من يقومون بعمليات التمويل والحسابات والسجلات والمواصلات وكافة الشؤون الادارية ، كما كان بينهم رجال المخابرات ، وجهاز خاص للتجسس على تحركات العدو .

16) A. R. Schulman, Op. Cit., P. 43.

17) R. O. Foulkner, Op. Cit., P. 42.

18) A. R. Schulman, The Military Establishment of The Egyptian, Empire Chicago, 1958, P. 37-79.

وأما أدوات القتال فقد كانت الهراوة (دبوس القتال) هو السلاح الشائع منذ فجر التاريخ ، وقد ظلت ، كما يبدو من النصوص ، كسلاح تقليدى يستخدمه الفرعون فى تحطيم رؤوس أعدائه حتى أخريات العصور الفرعونية ، وإن أشارت «باومجارتل» الى خناجر من النحاس ، وأخرى من الفضة ، ترجع الى ما قبل الاسرات (١٧) .

وفى عهد الدولة القديمة كان الجنود يسلحون بفتوس للقتال وبالقسي والسهام ، وفى عهد الانتقال الاول ظل استخدام القسي والسهام ، فضلا عن استخدام الحراب الطويلة فى حالة الالتحام عن قرب ، ولم يزد تسليح الجنود فى عهد الدولة الوسطى عن ذلك كثيرا ، غير أن بعض الجنود إنما كانوا يكتفون فقط بمقلع ، وربما يستعمل الخنجر فى مختلف العصور ، وإن لم يمثل مع الجنود فى صورهم إلا نادرا ، وقد تغير شكل الفأس النحاسية فى الدولة الوسطى حتى أصبحت تبدو وكأنها السلاح الذى تطور الى السيف المنحنى ، والمعروف باسم «خبش» ، وهو على شكل المنجل ، وكان يحمله ملوك الدولة الحديثة (٢٠) ، كما كانت بعض فصائل الجيش ، كجنود إمارة أسيوط ، إنما كانت تتسلح بالتروس والرماح أو الحراب ، هذا وقد عثر على مجموعة من النصى والاقواس ورؤوس الدبابيس التى كانت تستخدم فى الطقوس بكثرة فى عصر الدولة الوسطى ، على الرغم من عدم العثور على أسلحة كثيرة من هذه الفترة (٢١) .

هذا وقد اهتم القوم فى الدولة الحديثة بالأسلحة الدفاعية ، فلقد ظهر استخدام الدرع أو قميص الحرب وقاية من سلاح العدو . وكان

19) E. J. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt, II, London 1960, P. 10.

(٢٠) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ٩٨ .

21) R. Engelbach, Introduction To Egyptian Archaeology, Cairo, 1961. 1961, P. 252-4.

يصنع من الجلد والبرونز ، وغالبا ما يكون من نسيج مغطى بحراشيف من البرونز على هيئة فلوس السمك ، هذا فضلا عن أن بعض الجنود انما كانوا يتسلحون بفأس كبيرة ورمح معا ، على أن أهم سلاح في مصر انما كان العربة ، وقد اعتمد القوم عليها كثيرا منذ أيام الدولة الحديثة .

هذا وقد اهتم المصريون كثيرا بالحصون ، وتدل البقايا الاثرية على وجود هذه الحصون عند الحدود الجنوبية منذ عهد الدولة القديمة ، وفي عهد الدولة الوسطى وجدت حصون على حدود الدلتا الشرقية ، كأسوار الحاكم التي شيدت لقرى السيتو (الاسيويين) ولتقضى على المتنقلين على الرمال (٢٢) ، كما بنيت سلسلة من القلاع في المنوبة السفلى للسيطرة عليها ، وحماية الممتلكات المصرية هناك ، ذلك لان منطقة المنوبة السفلى انما كانت تحتلها القوات المصرية ، بعد أن تم اخضاعها نهائيا للنفوذ المصري ، وبعد أن بنى فيها من الحصون ما بلغ عدده سبعة عشر حصنا (٢٣) .

وهناك بردية تقدم قائمة بها ثلاث عشرة قلعة بين اليفانتين وسمنة عند الطرف الجنوبي للجندل الثاني ، ومعظم هذه القلاع أمكن التعرف عليها وتخطيطها ، أما تلك التي تقع الى شمال وادي حلفا فمقامة على الارض السهلة ، ومن الواضح أنه كان يقصد بها أن تكون نقاط مراقبة يخط على المواطنين ، وهناك على الاقل سبع قلاع واقعة في الرقعة التي تمتد مدى أربعين ميلا من الجندل الثاني ومعظمها فوق روابي ، وعدد منها فوق جزر ، وقد صممت بغير شك لتكون مواقع دفاعية كما يتضح

22) JEA, I, 1914, P. 105.

(٢٣) أنظر : محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثاني ص ٤٩٤ - ٤٠٦ ، وكذا

Onom. I. P. 10-11.

23) W. B. Emery, in Kush, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10, 1962

G.A. Reisner, Excavations at Semna and Urnarti by

The Harvard-Boston Expedition, 1929, P. 141-161.

من أسمائها «التي تطرد القبائل» و «التي تكبح الصحراوات» ، وهي منشآت ضخمة لها جدران سمكية تدور حول مسافة تكفي لايواء العديد من الموظفين والكتاب ، وكذا الحاميات اللازمة ، وان كنا لا نعرف تاريخ بنائها على وجه التحديد ، فاننا نعرف من غير شك أن الفرعون الذي بذل جهدا ونشاطا ليؤكد سلطانه في هذه الناحية هو «سنوسرت الثالث»^(٢٤) (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق م ٠)

ومن ناحية أخرى ففي بني حسن تبين خبرة المصريين بالقلع وطرق حصارها منذ الدولة القديمة ، كما رأينا في مناظر دشاشة، وهناك في بني حسن مناظر تمثل حصار أحد الحصون ، حيث يتقدم اليه المهاجمون تحت مظلة واقية ، وهم يدفعون قضيبا طويلا للدم ويرمون المدافعون عنه بوابل من السهام^(٢٥) .

وأما في عهد الدولة الحديثة فلم تكن الحاجة تدعو في أول الامر لانشاء مثل هذه الحصون ، وربما استعاضوا عنها بانشاء مدن عسكرية في الدلتا ، كمدينة هربيط (مركز كفر صقر شرقية) والتي أقسامها رعمسيس الثاني هناك ، وان كان هناك ما يثبت أن الركن الشمالي الغربي للدلتا كانت تحميه سلسلة من القلاع على طول شاطئ البحر الابيض المتوسط ، بناها رعمسيس الثاني كذلك ، مثل حصن الغربانيات، على مقربة من برج العرب ، وحصنا آخر عند العلمين ، على مبعده ١٠٢ كيلا غربى الاسكندرية ، وحصنا ثالثا عند زاوية أم الرخم ، على مبعده ١٨ كيلا غربى مرسى مطروح^(٢٦) .

هذا وقد امتازت كل جماعة وسرية في الجيش بلواء خاص ينم

24) A. H. Gardiner, Op. Cit, P. 134-123.

25) P. E. Newberry, Beni Hassan, I, London, 1893, P. 14, II, 1895, P. 15.

(٢٦) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث ص ٢٤١ - ٢٤٢

R. O. Fulkner, Egyptian Military Standards, in JEA, 27, 1941, P. 38.

عليها وينافح عنه أصحابها ، ويعلو اللواء عادة رمز يصور حيوانا كاسرا أو غير كاسر ، أو يصور جنديين يتصارعان ، أو صورة معبود ، أو هيئة ترس بسيط ، أو فرسين متقابلين ، أو شارة من شارات البلاط ، وذلك تبعا لاختلاف تكون الجماعة ، ان كانت من المشاة أو الخيالة أو حرس المعابد والقصور ، وتلقبت كل جماعة وسرية باسم خاص يدل عليها ، وقد ينسبها اسمها الى فرعون أو معبود يشتهر أمره في عهد من العهود ، كأن يقال سرية «ماعت كارع» (حتشبسوت) أو «سرية بهاء آتون» أو «السرية اللالة كآتون» أو «سرية آمون حامى الجنود» ، وقد تبعت السرايا كتائب كبيرة تألفت في الدولة الحديثة من مشاة وخيالة ، وتضمن بعضها الى جانب مشاته نحو خمسين عربة حربية بفرسانها ، والتأمت الكتائب في فيالق تراوحت أعدادها المضاربة خلال عصر الدولة الحديثة بين فيلقين وثلاثة وأربعة وتألفت كل منها من خمسة آلاف راكب وراجل ، وقد جرى العرف على تسمية بعض هذه الفيالق بأسماء أرباب الدولة الكبار ، تيمنا بهم واعترافا بفضلهم (٢٧) ،

فمثلا نظمت قوات الجيش المصرى في معركة قادش من أربعة فيالق — آمون ورع وبتاح وست — فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن هليوبوليس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ، ومن بى رع مسيس أتى فيلق ست (٢٨) .

ومن أسف أننا لا نعرف الكثير عن نظام التجنيد ، وان كان هناك ما يشير الى أن كاتب المجندين في الدولة الوسطى انما كان يختار رجلا من بين كل مائة رجل ، وفي الدولة الحديثة كان يختار رجلا من بين عشرة رجال ، ثم سرعان ما أسند اختيار المجندين الى مجلس عسكرى ، وان كان هناك ما يشير الى أن التجنيد كان وراثيا فكان أبناء المجندين

(٢٧) عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول - التربية العسكرية ص ٢٠١ .
 (٢٨) محمد بيومى مهران ، مصر - الجزء الثالث - ص ٢٥٣ .

يفضلون على غيرهم ، وقد حظى التدريب بعناية كافية بغية الوصول بالجيش الى مستوى رفيع ، ويغلب على الظن أن أولى تدريبات الجيش كانت تستهدف تنظيم الخطوة ومشية الصف ، وهذه وإن لم يتخلف من المتون المصرية ما يتحدث عن مراحل تعليمها ويسجل نداءاتها ، إلا أن من تبقى من صور رجال الحرب ومجموعات التماثيل ، يدل على أن الجندي المصري كان يلتزم خطوة منتظمة واسعة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، على أقل تقدير ، فسير الجندي تلو زميله في الدوريات المحدودة ، يسير الجنود في صفوف يتكون كل منها من أربعة جنود في تشكيلات الكتائب والفرق الكبيرة ، وكان يعاون عادة في تنظيم مشيتها الرتيبة وبث الحيوية والحماس فيها فلفح بوق ، أو ضارب طبل ، فضلا عن مقدم الجماعة الذي يلتزم مقدمة الصف أحيانا ويلتزم نهايته أحيانا أخرى (٣٧) .

واهتمت تدريبات الجيش بالعدو والسباق ، فضلا عن المصارعة التي تمتلئ بمقابر بنى حسن بصور لها ، وقد تعتمد الفنان فيها أن يعطى لونين مختلفين للخصمين المتباريين حتى يفرق الواحد منهما عن الآخر ، ويوضح الحركات الرياضية المختلفة التي يقوم بها أثناء اللعب ، هذا فضلا عن مناظر لبض الجنود وهم يرقصون رقصة الحرب ، التي هي نوع من التدريب على الحركات السريعة والانقضاض لملاقاة العدو في هجوم خاطف ، وكلهم يصيحون صيحة القتال التي تلتى الرعب في قلوب الأعداء ، كما يفعل رجال الصاعقة والجنود المهاجمون في القتال المتلاحم الآن ، هذا وقد شارك أبناء الفراعين في التدريبات ، وخاصة في الرماية والفسروسية ، ولعل من أبرز الامثلة على ذلك «أمنحتب الثانى» الذى تتلمذ في مدينة جرجا على حاكمها القائد «مين» وتدرّب معه على رماية المشاة ، وقد صور «مين» في جانب من مقبرته درسا في الرماية ظهر خلاله يعلم الأمير أمنحتب كيف يستغل قوة ساعده في شد

القوس الى نهاية مداه ، وحتى يتعدى أذنيه ، وكيف يثبت السهم فيه ، وكيف يطلقه ، وعندما أتم تدريباته في جرجا انتقل الى منف ، فانضم الى معسكراتها الكبيرة ، وشاطر جنودها معيشتهم والتحق بفرقة الخيالة وبدأ بأدنى درجاتها ، حتى تخرج منها فارسا لا يشق له غبار .

هذا وقد انتفع أمنتب بالتربية العسكرية التي تعهده بها أبوه العظيم في توطيد أركان الامن في دولته ، وأشاع الهيبة في أرجائها الواسعة ، فقد كان الرجل حقا بارعا في كل فنون الحرب ، منذ أن بلغ الثامنة عشرة من عمره ، يوم أن اعتلى عرش أجداده^(٣٠) ، كان يحسن التجديف أن ركب الشراع ، يعاند بها تيار النهر أميالا ، وهو نابل يحسن الرمي ويصيب الهدف ، كان يرمى في أهداف النحاس ، ينصبها له رجال جيشه ، أربعة أربعة ، ينطلق اليها عدوا بعجلة الحرب ، فيصيبها بمهارة فائقة من فوق أعراف الخيل ، وكان فارسا أصب الخيل منذ نعومة أظفاره ، يسعد بقربها ويفرح برعايتها ويفهم طباعها ، ويحسن ترويضها ويجيد تدريبها ، وكان أبوه العظيم فرحا بذلك ، مغتبطا بحظ بكر أبنائه وولى عهده من الفروسية مطمئنا الى أنه سوف يخذو سيد أهل زمانه في الارض جميعا ، ومن ثم فقد عهد اليه بخيرة جياد حظائره ، التي مرنها بحيث تستطيع قطع مسافات طويلة دون أن يتصيب منها العرق^(٣١) .

وفي الواقع ، فلقد وهب أمنتب الثاني قوة جسمانية غير عادية ، إذ يقال أنه كان في استطاعته أن يصوب نحو هدف معدنى سمكه قبضة يد فيخرقه بحيث يبرز سهمه من الناحية الاخرى ، ومن ثم فقد كان يردد مفتخرا «ليس هناك رجل بقادر على أن يشد قوسه ، بين رجاله أو بين حكام البلاد الاجنبية أو من بين أمراء رتنو ، لان قسوته تفوق

30) W. F. Petrie, A History of Egypt, II, London, 1927, P. 154.

(٣١) أحمد بدوى : في موكب الشمس - الجزء الثانى ص ٥١٣ ،

وكذا .

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 198-199.

كثيرا قوة أى ملك عاش قبله (٣٣) .

هذا وقد قدرت القيادة المصرية بسالة المحاربين خلال المعارك وبعدها ، وعبرت عن تقديرها بالانعام عليهم بالالقباب التشجيعية والتشريفية والالوسمة والانواط والمكافآت المسخية وجواز الترقى من تحت السلاح الى أرقى مناصب الضباط ، فشاع من الالقباب التشجيعية لقب الفتاك أو المقاتل (عماوتى) والجسور (قن) والقناص (كفمو) والقناص الهمام (كفموقن) ، وقد سجل كثير من شجعان الجيش أنهم غازوا بمكافآت تشجيعية (٣٤) ، ومن ذلك القائد الكابى (أحمس بن ابانا) الذى شارك فى حرب التحرير ضد الهكسوس ، حيث يحدثنا فى نصوص مقبرته بمدينة الكاب (١٩ كيلا شمالى ادفو) أنه قد حصل على نوط «ذهب الشجاعة» مرات كثيرة ، فضلا عن مجموعة من الاسرى والاماء ، وعدة أفدنة من الاراضى الزراعية فى الكاب (٣٤) .

وهناك من عهد أحمس الاول كذلك مدير السفن «مس» وقد أعطى حقولا واسعة فى منف ، ونقرأ على لوحة حدود أن تحوتمس الاول قد منح راكب العربة «كرى» حقلا واسعا ، وهناك ما يشير الى اعفاء أراضى العسكريين من الضرائب ، وبخاصة فى عهد الرعامسة ، حيث نقرأ فى خطاب رعمسيس الثانى لجنده فى معركة قادش «لقد كنتم من قبل فقراء فأغنيتكم بأفضالى المستمرة ، وأقامت الابن منكم على أملاك أبيه ، وتجاوزت عن ضرائبكم» (٣٥) .

هذا وقد كان للدين أثره الكبير فى الحروب المصرية ، ومن ثم فقد كان القوم يرسلون مع جيوشهم نفرا من الكهان ليثيروا حماس الجنود،

32) A. M. Badawi, ASAE, 42, 1943, P. IF.

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٨ .

34) J. H. Breasted, ARE, II, P. 6-9.

35) A. H. Gardiner, The Kadish Inscriptions of Ramses, II, Oxford, 1960, P. 8.

ويذكرونهم بفضل الارباب ، وترتب على ذلك كله أثر لا يغفل في الترقيق من حواشي القادة ، وتهذيب خشونة الجنود ، بل أن الملوك أنفسهم انما كانوا يضعون ثقتهم في آلهتهم ، وأن النصر انما يأتي من عند الاله ، وانهم لا يشنون حربا على عدو ، الا اذا تعطف وأذن بالحملات ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود الجيوش فى طريقها الى المعركة ، بل انهم انما كانوا يفرعون الى آلهتهم عند الخطر الاكبر ، يبدو ذلك واضحا عندما تعرض رعمسيس الثانى وجيشه الى كمين أحكم تدبيره قبل معركة قادش (١٢٨٥ ق.م) ، فاذا بالفرعون يتوجه الى ربه آمون وحده يطلب نصرته ويرجو عونه ، وطبقا لما جاء فى نصوص الفرعون ، فان آمون سرعان ما يسمع نداء ولده الفرعون ، ويستجيب لدعواته ، فيسمع رعمسيس صوت أبيه آمون ، وهو يهتف به مليا ، آمرا اياه «أن أقدم فانى معك ، وانى أبوك ، وان يدى معك ، وانى لأكثر نفعا لك من مئات الالوف من الرجال ، انى رب النصر الذى يحب الشجاعة» (٣٧) .

والامر كذلك ، عندما تتعرض مصر فى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح لغزو من «رييو» ، بعون من شعوب البصر ، فاذا بفرعون يفرع الى أقرب الالهة الى نفسه ، الى الاله بتاح ، ويبتهل اليه أن يمنحه النصر على عدوه ، وأن يحمى أرض الكنانة من شر الغزاة المتبربرين ، فضلا عن المغامرين المتوحشين ، فلا يلبث ربه بتاح أن يسمع لندائه ، ويستجيب لدعوته ، ويتجلى عليه فى منامه ، فيبشره بالنصر ، ويشجعه على الخروج للقتال ، ويعطيه بيده سيف القتال والنصر ، ليضرب به عدوه وعدو مصر ، يقول النص «وبعد ذلك رأى جلالتة ، فيما يرى النائم ، كأن تمثال بتاح واقف أمامه فتكلم اليه : خذ أنت ، ومد له يده بالسيف ، واقص عنك أنت القلب الوجلل» (٣٧) .

36) H. Goedicke, JEA, 52, 1960, P. 72-80, A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 7-9.

37) J. H. Breasted, ARE, III, 1907, P. 245.

وفي عهد رمسيس الثالث ، وأثناء الحرب الليبية الاولى ، وعندما يعلم الفرعون بأن الغزاة قد قدموا من الغرب ، يتجه مباشرة الى «أفق الاله المسيطر» (معبد آمون رع) ليسأل ربه النصر ، ولينال سيفاً بئارا من والده آمون سيد الالهة ، وقد بعثه بالقوة ، ويده معه ، ليقضى على أرض التمحو ، الذين تعدوا حدوده ، وقد كلن الالهان مونتو وست حمايته السحرية عن يمين وعن شمال ، كما كان الاله «وب واوات» يفتقر الطريق أمامه ، وقد جعلوا سلطانه قويا ، وقلبه شجاعا ، ليطرح أرضا هذه البلاد المتفاخرة (٣٨) ، ويقدم لنا المنظر الاول لهذه الحرب رمسيس الثالث كمفوض من آمون للقيام بالحرب الليبية ، اذ نشاهده وهو يتسلم سيفه المعقوف بحضور الالهين تحوت وخونسو ، وهذا يرمز للتصريح للفرعون بالصرب ومنحه النصر ، وفي منظر آخر يخرج رمسيس الثالث من المعبد ممسكا بالسيف المعقوف والقوس ، ويتبعه اله الحرب مونتو ، ويسبقه كهنة يحملون أربعة أعلام ، هي أعلام «وب واوات» فاتح الطريق ، ثم خونسو وموت و آمون (ثالث طيبة) ، ثم نقش جاء فيه «لقد أرتحل جلالته وقلبه قسوى ، وفي شجاعة وبطولة ، الى بلاد تمحو (٣٩) الخاسئة ، وقد سيره والده آمون في رزاة من قصر طيبة ، وقد منحه سيفاً يصد به أعداءه ، ويلهب من لم يكن خاضعا له ، وقد فتحت أمامه الطرق التي لم تكن مطروقة» ، ويشاهد بعد ذلك كل اله من الالهة يخاطب الملك ويعدده بالمساعدة ، كل فيما أمتاز به ، فاله الحرب مونتو يذبح له الاعداء ، والاله «وب واوات» يفتح له كل طريق يؤدي الى النصر ، والاله خونسو يجعل يديه قويتين على الاقواس المتسعة ، والالهة «موت» تكون له حرزا وسحرا الى الابد ، والاله آمون يذهب

38) W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramses, III, Texts in Medinet Habu, Chicago, 1936, P. 7-8.

(٣٩) أنظر عن « التمحو » : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رمسيس الثالث ص ١٤٥ - ١٥٣ وكذا

W. Holscher, Libyen und Agypter, N. Y., 1937, P. 50.

A. H. Gardiner, Onom., I, Oxford; 1947, P. 115-117.

وكذا

معه الى المكان الذى يرغب فيه ، جاعلا قلبه فرحا فى كل البلاد الاجنبية ،
ناشرا الرعب منه فى كل أرض أجنبية (٤٠) .

وهكذا يبدو واضحا أن الالهة انما كانت تلازم الفرعون فى حروبه ،
كل منهم يحمل علمه ويؤدى وظيفته الخاصة به ، مما يدل على مدى تغلغل
الدين ورجاله فى كل أمور الدولة ، حتى فى حروبها ، ولعل السبب فى ذلك
أن القوم انما كانوا يعتقدون أن الفضل فى انتصاراتهم ، ثم تكوين
أمبراطوريتهم تبعا لذلك ، كان راجعا الى الهين هما «الاله الملك» الذى
قاد الجيش ، والاله الذى بارك تلك الحروب ، ذلك أن الاله آمون رع قد
تعطف واذن بالحملات الحربية ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لئلا
يقودهم الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على الجيوش أن تدفع ما عليها
من دين لآمون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه
رعاها وحماها من الخطر (٤١) .

وأما شريعة الحرب عند المصريين فكانت تفوق غيرها من شرائع
الحرب وأعرافها فى العالم القديم ، خلقا ونبلا وسماحة ، فليس هناك من
شك فى أن رجال الحرب المصريين قد أتوا فى حروبهم ما يؤتى عادة فى
الحروب من صنوف العنف والنهب والتدمير ، غير أن تنكيلهم بأعدائهم
إذا قيس بمقاييس عصورهم ، وقورن بتنكيل المجتمعات المحاربة الأخرى
التي عاصرتهم أو أعقبت عصورهم ، لذل ذلك على أنهم كانوا أخف
المجتمعات القديمة كلها فى حب البطش والانتقام والتنكيل ، حتى إذا
وضعت الحرب أوزارها لم يؤثر عنهم اسراف فى اذلال الأسرى ، فى غير
القليل النادر ، ولم يؤثر عنهم ميل الى القهوين من شأن معبودات
الخاضعين لهم ، ولم يعمد فراعنتهم الى هرق عيون كبار أسراهم ، كما
فعل حكام سومر فى المصراق ، ولم يجطوا جماجم أعدائهم مشاعل
يوقدونها فى محافلهم ، كما فعل الآشوريون ، ولم يجعلوها كؤوسا

40) Ibid., P. 4-6.

41) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 185.

للشراب ، كما فعل الرومان ، ولم يجبروا أسراهم على مقاتلة بعضهم بعضا ، ومنازلة الوحوش الضارية ، كما فعل الرومان ومن قبلهم البابليون (٤٢) ، ولم يفلطوا كما فعل بنو إسرائيل ، من احراق الناس في الأفران ، والقائهم في أتون النار ، وسلخ جلودهم ، ووشرهم بالمنشار ، ووضعهم تحت نوارج الحديد وفؤوسها ، هذا فضلا عن الذبح المنظم بالجملة للعمونيين وعاصمتهم عمان (٤٣) .

وضرب جبار الحرب تحوتمس الثالث مثلا طيبا في بره بأعدائه المستسلمين ، وكان قد حاصر مدينة «مجدو» سبعة شهور بعد هزيمة أمرائها ، حتى إذا ما شعر المحاصرون بقسوة الحصار وطولته ، قرروا في النهاية الاستسلام والخضوع للفرعون ، ومن ثم فقد أخرجوا أبناءهم يحملون السلاح والهدايا إلى فرعون ، بينما كسان الجنود الاسيويون « يقفون فوق الأسوار يرددون المديح لجلالته ، ويسألونه أنفاس الحياة » ، ومن ثم فقد عفا الفرعون عن المحاصرين وقبل هداياهم ، ثم سرعان ما خرج إليه حلفاؤه من الأمراء الثائرين المحاصرين وأعلنوا استسلامهم كذلك ، فقبل فرعون جزاءهم وسرحهم إلى مدنها ، واصطحب معه بعض أبنائهم إلى مصر ليكونوا ضمانا لاختلاصهم ، ولعل من الجدير بالاشارة إلى أننا لم نعثر حتى الآن من بين نصوص فرعون ما يشير إلى أنه كان يفاخر بالاتلاف العظيم والتخريب العام ، كالذي أتى به ، مثلا ، ملوك آشور ، وباهوا به (٤٤) .

وعلى أي حال ، فلقد أثبت تحوتمس الثالث أنه رجل عظيم وحكيم ، كريم الأخلاق ، فقد كان تصرفه مع الأعداء المنهزمين نبيلًا ، فهو لم يأمر بقتلهم أو التنكيل بهم ، بل اعتبر المعركة مباراة تقتضي الرحمة بالهزوم وكان بذلك عنوانا لشعبه العظيم ، الذي وصفه الأثرى الانجليزي

(٤٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٤٣) صموئيل ثان ١٢ : ٢٩ - ٣١ .

44) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 292; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 179.

«آرثر ويجال» بأنه «أعظم شعوب العالم القديم رحمة وإنسانية»، وفي الواقع لو كان في مكانه حاكم آخر للجأ الى الوحشية بقتل أعدائه من الامراء في حفل رسمي ، ولكن تحوتمس الثالث أستحق بحكمته وتبصره أعترافهم بالجميل ، فقد طلب منهم يمين الولاء له طيلة حياته ، ثم شيعهم الى مدنها آمنين ، واكتفى بأن جعلهم يستعيزون بالحمير عن الخيول ، عقابا يسيروا ، وهونا من هوان ، لانه كان في حاجة الى خيولهم ، فكان هذا الترفسح الكريم من تحوتمس الثالث هو حجر الزاوية في صرح الامبراطورية المصرية (٤٥) .

وهكذا أثبت الفرعون العظيم أن كفايته الادارية ، لا تقل عن كفايته العسكرية ، وأنه كان سياسيا محنكا ، واداريا ماهرا ، أتبع من الوسائل ما يمكن أن نعهده آخر صيحة في عالم الدبلوماسية الحديثة ، فلقد حاول أن يطوى تحت جناحيه أمراء الدول المغلوبة بعد أن أخضعهم ، وذلك بالمفو عنهم ، وبذل الكرم لهم ، ولم يطلب منهم سوى كلمة شرف على أن يكونوا على الولاء له مقيمين ، وللجزية دافعين ، عن رضى وليس عن بد وهم صاغرون ، وزاد على ذلك بأن أخذ أبناءهم لتتشتتهم تتشئة مصرية ، مع أبناء كبار رجال الدولة في مصر ، حتى يشبوا على حب مصر وصداقتها ، وحتى يأخذوا بحظهم من الثقافة المصرية ، وحتى يمارسوا الحياة المصرية في القصور الملكية ، التي تحبب لهم الاقبال على مصر ، وتتيح لهم فهم حضارتها الرشيدة المترفة ، وتسهل على فرعون أن يجعل منهم حكاما في ولاياته الاسيوية ، يقدرون الخطر الذي يترتب بها على حدود آسيا الصغرى ، ويدركون قيمة الوحدة بين مصر وأقاليم الشرق العربى القديم .

ومن هنا فقد أنشأ فرعون في طيبة — مركز الثقافة العالمية وقت ذاك — مدرسة يتعلم فيها ولى العهد مع العديدين من أبناء ضباطه وكبار

45) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 179-180.

وانظر : السيد فرج : القيادة والقادة العظماء — القاهرة ١٩٥٥ ص ٥٦

رجال دولته ، فضلا عن أبناء الامراء الاسيويين ، ليشبوا جميعا —
مصريين وأسيويين — وقد أرتبطوا مع ولى العهد برباط الود والصداقة ،
أملا في أن يخدموه في مستقبل الايلم ، خدمة الصديق للصديق ، وهى
دون شك أفضل وأجدى من خدمة العبد للسيد ، وعلى هذا النحو نمت
أواصر الصداقة والخضوع بين الاسرات الحاكمة في الشام ، وبين
الفرعون والادارة المصرية ، والتي نجد صداها بعد خمسين سنة في
رسائل العمارة .

ومن هنا فقد كان العتب شديدا على ولده أمنحتب الثانى حين قامت
الولايات الاسيوية بثورة عنيفة تبغى من ورائها التخلص من السيادة
المصرية ، وعز ذلك على الفرعون الشاب ، وعده أستخفافا به شخصا ،
وهو الذى تفتحت عيناه في هذه الدنيا ليرى الشرق كله يحضى الرأس
لابيه ، وهكذا أندفع أمنحتب الثانى نحو سورية على رأس جيشه ، بكل
ما فى الشباب اليافع من اندفاع ، وهزم كل من لم يقدم له الولاء ، وكان
انتقامه شديدا ، أذ مال الى التتكيل بأعدائه ، بطريقة لم يعهدها المصريون
من قبل ، وتآبأها الحضارة والخلق المصرى ، فضلا عن تعارضها مع
السياسة الحكيمة التى أرسى دعائمها والده العظيم من قبل ، حتى وان
كانت القسوة تعتبر فى تلك العصور موضع فخار ومباهاة ، ومن ثم فما
كنا نرجو له أن يلجأ الى هذا الاسلوب ، حتى وان كانت نتيجته توطيد
دعائم الامبراطورية (٤٦) .

(٤٦) محمد بيومى مهران : أخناتون ص ٣٧ - ٤٥ ، عبد العزيز
صالح : المرجع السابق ص ٢١٢ أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٥٠٥ -
٥٠٩ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، وكذا

Urk., IV, P. 690.

J. A. Wilson, ANET, P. 239-240.

وكذا

(٣) الاسطول

شهد متن النيل من نشاط العسكريين المصريين ما شهد البر ، وقد تمرس المصريون على ركوبه منذ فجر تاريخهم القديم ، ونقلوا عليه الجنود والعتاد ، ومع ذلك فالتنصوص التاريخية جد مختصرة ، لا تقدم لنا تفاصيل كثيرة فيما يتصل بالمعارك التي أدت رحاها على صفحة الماء في النيل أو البحريين ، الاحمر والابيض ، وأما النقش على الجدران فأمره أشد عسرا ، ورغم ذلك فأننا نلتقي منذ عهد الدولة القديمة برجال يحملون لقب «رئيس السفينة» و «هائد المركب» ، ولعلهم كانوا يعملون على سفن كانت تقوم بنقل الاحجار في النيل من طبره الى منطقة الاهرامات .

ويحدثنا حجر بالرمو بأن «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة قد أرسل أسطولا بحريا مكونا من أربعين سفينة لاحضار كتل من أخشاب الارز من لبنان ^(١) ، وأن كثيرا من هذه الكتل الخشبية قد عثر عليها في هرمه القبلى في دهشور ، وأنها ما زالت في حالة جيدة تؤدي المهمة التي أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الاحجار أو سنداها في أماكنها ، رغم مضي أكثر من أربعة الاف وسبعمائة سنة ^(٢) ، وهناك في المعبد الجنزى للملك «ساحورع» ثانی ملوك الاسرة الخامسة ، منظر رائع للسفن العائدة من سورية ، والاسيويون على ظهورها وأسلحتهم مرفوعة ولواء الفرعون ، وربما كان ذلك بمناسبة حملة الى لبنان للبحث عن الخشب في غاباتها ^(٣) .

ولعل أول إشارة نلتقي بها للخروج الى البحر في معارك حربية أنما كانت في الاسرة السادسة ، وهي في الوقت نفسه ربما كانت أول إشارة

(١) محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثاني - ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،

J. H. Breasted, ARE, I, 146.

وكذا

2) A. Fakhry, The Bent Pyramid at Dahshur, Cairo, 1954, P. 559.

3) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 88; urk., I, 1932, P. 169,

في التاريخ للخروج الى البحر في سفن أعدت للنقل ، كما أنها المرة الاولى في التاريخ المصري التي يشترك فيها الجيش والاسطول معا في حملة الى غربي آسيا ، حصر فيها عدوه بين فكي الكماشة ، وقد كتب له فيها نجما بعيد المدى في تأديب العصاة من سكان الرمال ، ذلك أن «لوني» يحدثنا في لوحته المشهورة ، أنه ذهب الى آسيا على رأس جيش كبير للقضاء على تمرد عند «أنف الرثم» ، وهو إقليم يقطن أنه جبل الكرمل ، وأنه عبر البحر بجيشه الضخم ، ونزل الى الشاطئ في منطقة التلال في شمال أرض سكن الرمال ، بينما كان هناك جزء آخر كبير من الجيش يقترب على الطريق الصحراوي ، وأنه قد حصر العدو بين هذين الجيشين ثم قضى عليه (٤) .

ومن عهد الاسرة السادسة كذلك يحدثنا «ببى نخت» أو «حقا ايب» ، كما كان يكنى» بأن مليكه قد أرسله الى بلاد الاسيويين ، وربما كانت تقع في مكان على شاطئ البحر الاحمر ، لارجاع جسد موظف يدعى «عن عنخت» والذي كان يحمل لقب «رئيس البحارة وقائد القوافل» وقد ذبح مع كل رفاقه بواسطة البدو ، وهو يبنى سفينة لرحلة الى بونت (٥) .

وهنا لعل سائلا يتساءل : كيف وصلت الاوانى السورية التي عثر عليها «بترى» في مقابر الاسرة الاولى (٦) ، وكذا الاخشاب الفينيقية التي استعملت في هرم زوسر المخرج بسقارة ، وهرم سنفرو القبلى بدهشور ، ثم أخشاب مركب خوفو التي كشف عنها عام ١٩٥٤ م ، فضلا عن الادوات التي جاءت بها بعثة ساحورع ؟

4) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 95-96, ANET, P. 227-228.

وكذا

F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, P. 292.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 18.

5) J. H. Breasted, ARE, 360

6) W.M.F. Petrie, Royal Tombs, II, P. 46.

K. Sethe, Urk., I, P. 131-135.

والاجابة واضحة ، لقد أستوردوا المصريون ونقلوها على سفنهم التي كانت تتجول في البحر الابيض المتوسط منذ أوائل العصور الفرعونية ، ويبدو واضحا من السفن التي أرسلها سنغرو أو ساحورع أنها تمثل رسوم مراكب مصرية تعالما ، وتشبه تلك المراكب التي صنعت للنقل على النيل ، ولئن لم تكن مراكب النقل النيلية قد زودت بمجاديف أو شراع واعتمد القوم على سحبها بالحبال التي يجرها البحارة سيرا على الشاطئ ، كما أعتمدوا على قوارب صغيرة مزودة بمجاديف لسحبها ، فلقد أستخدموا نفس الطراز في المراكب البحرية مع تزويدها بالشراع والمجاديف للتجول في البحر .

وهكذا سبق المصريون الشعوب القديمة في بناء مراكب كبيرة للتجوال في البحرين الاحمر والابيض ، وأختاروا شكلا لهذه المراكب يطابق تماما مراكب الشحن في النيل ، وهي مراكب كانت ظلوا من العوارض الداخلية التي تربط جوانب السفينة بعضها الى بعض ، وتغلب المصري على هذه المعضلة بأن مد حبالا سميكاً من مقدمة السفينة الى مؤخرتها ، وجعله يرتكز في امتداده على قوائم خشبية تشبه الشوكة في طرفها الاعلى ، ثم لف هذا الحبل بقطعة من الخشب ، فكان كلما زاد اللف قصر الحبل وتماسكت أطراف السفينة ، وقويت على تحمل ارتطام مقدمتها بأمواج البحر ، كما اعتاد القوم طوال عهد الدولة القديمة أن يمدوا حبالا قوية سميكة حول الطرف العلوى لجوانب السفينة فيساعد بذلك على تماسكها وترابطها ، ويقوى من احتمالها لامواج البحر (٧) .

وأما رحلات المصريين البحرية الى «بونت» (٨) فقد بدأت منذ الاسرة الخامسة ، وطففت تتعدد بشكل واضح في عصر الاسرة السادسة ، حيث

(٧) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ البحرية المصرية - القاهرة ١٩٧٣ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٨) انظر عن موقع بونت (محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ص ٣٠٧ - ٣١٠ - الرياض ١٩٧٦) .

سجل أحد رجالها أنه سافر الى بونت احدى عشرة مرة (٩)، ومن المعروف أن المصريين كانوا ينقلون سفنهم مفككة من مدينة «قفط» بطريق البر الى شاطئ البحر الاحمر ، ثم يشيدونها هناك في ميناء يقع على مقربة من القصير الحالية ، وكانت الرحلة تستغرق أياما عديدة ، وكانت السفن لا تسير الا نهارا ، فاذا قدرنا أن الملاحة في البحر الاحمر لا تزال حتى عصرنا هذا من أشق الرحلات لتكاثر شعاب المرجان على مقربة من الشواطئ ، والمعاصف الشديدة التي تهب عليه من حين لآخر ، فإن ارتياد المصريين لهذا البحر منذ عصر الدولة القديمة بمراكبهم إنما يعتبر عملا يستحق منا كل أعجاب وتقدير (١٠) .

ولعل أول المارك المصرية التي خاض المصريون غمارها على صفحة الماء إنما كانت أبان الحرب الاهلية بين أهناسية وطيبة في عهد الانتقال الاول ، ويحدثنا «تف ايوب» أمير أسيوط من قبل الاهناسيين أنه أضطر لمنازلة الطيبين عدة مرات ، يصف واحدة منها بأنها دارت في عرض النهر حيث يتول : «وصلت الى الضفة الشرقية مبجرا الى الجنوب ، وجاء العدو مع جيش آخر من حلفائه فخرجت للاقاته ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية ، وأستخدمت الريح الشمالية كما استخدمت الريح الجنوبية ، وكذا ربح الشرق والغرب ، وسقط العدو في الماء وغرقت سفن أسطوله ، وكان جيشه كثيران حين تهاجم بحيوانات مقدسة ، فتجرى وذيلها الى الامام» (١١) ، وهكذا كانت هذه الموقعة ، فيما نعلم ، هي الاولى من نوعها في التاريخ المصري ، فلم يحدثنا المؤرخون من قبل عن معارك دارت رعى الحرب فيها على صفحة الماء .

ومن الجانب الآخر ، يحدثنا «زارا» أحد موظفي «غنج واح» أمير طيبة بأن أميره قد منحه سفينة لحماية الاقاليم الجنوبية من اليفانتين حتى

(٩) جورج فضلوحوراني : الملاحة في المحيط الهندي ص ٣٠ وكذا J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, Antiquity, 15, 1941, P. 240-246.

(١٠) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٩٧ .

(١١) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية ص ١٣٩ - ١٤٠ ،

J. H. Breasted, ARE, I, P. 183.

افروديتوبوليس (كوم أشقلو ، على مبعده ٥ كيلا شرقى مشطا) ، ومن عهد «مرى كارع» ، والذي كان قد أمضى العرش بعد أبيه «خيتى» الذى ترك له تعاليمه المشهورة يحدثنا «خيتى الثانى» الذى تولى اماره اسيوط بعد وفاة أبيه «تف ايب» بأنه أدب مصر الوسطى وأخضع الثوار وأعاد النظام ، وصفى سماء مصر من الفيوم ، «ولم يكن هناك شئ أمام الاسطول الذى وصلت مقدمته الى شاس حوتب (الشطب الحالية جنوبى اسيوط) ، بينما كانت مؤخرته فى «حو» (ربما كانت جبل أبو فوده على مبعده ٣٠ ميلا الى الجنوب) ، ولقد عادوا عن طريق المياه ، ورسوا بأرض أهناسية ، وجاءت المدينة فرحة بسيدها وابن سيدها ، وأختلط الرجال بالنساء والمسيوخ بالاطفال (١٣) .

وهناك من عهد «سعنخ كارع منتوختب» من الاسرة الحادية عشرة ، ما يشير الى صراع مع «الحاونبو» ، وهم الكريتيون ، أو على الاقل سكان بعض جزر البحر الابيض المتوسط ، وإلى غلبته عليهم ، ولكنه لا يشير الى طبيعة هذا الصراع أو أسبابه ، وقد دارت رحاه فى البحر أو فى الجزر نفسها عن طريق حملة بحرية أرسلت الى هناك ، ويبدو أن «حنو» كان هو القائد الذى نيطت به هذه المهمة ، كما كلف بغيرها من المهام فى السنة الثامنة من حكم نفس الملك ، حيث يشير بعد ذلك الى خروجه الى البحر الاحمر ، وإلى تجهيزه سفينة ضخمة زودها بكل ما يلزمه ، توجه بها الى أرض الاله (مونث) وعاد عن طريق البحر الاحمر فوادى النمامات الى العاصمة ، وعلى أى حال فهناك الكثير من الدلائل التى تشير الى الجهود البحرية على أيام الدولة الوسطى ، فهناك مثلاً «خنوم حوتب» أمير بنى حسن ، على أيام أمنمحات الاول ، الذى يحدثنا أنه صاحب الملك فى حملة قوامها عشرون سفينة مصنوعة من خشب الارز ، أستهدفت طرد عدو معين من مصر ، أشير اليه بضمير الغائب (١٣) .

غير أن أكبر المعارك التى دارت على النيل انما كانت على أيام حرب

(12) Ibid., P. 185-186.

(١٣) نجيب ميخائيل : تاريخ البحرية المصرية ص ٦٦ .

التحرير ضد الهكسوس في أوائل القرن السادس عشر ق م ، حيث يحدثنا «كاموزا» قائلا : «أبحرت شمالا في عزم وقوة لاغلب الاسيويين بأمر آمون أعدل الناصحين ، وكان جيشي القوى أمامي كلفحة اللهب ، وكان جند «المجاي» يقفون عاليا فوق قمراتنا ليراقبوا السيتيو ويدمروا مواقعهم » (١٤) وهكذا خرج كاموزا حاملا لواء الجهاد ، متمما رسالة أبيه «سفتن رع» ، ويستمر بطلنا الشجاع في تقدمه نحو الشمال ، ويكتب له نجحا بعيد المدى في طرد الهكسوس من مصر الوسطى ، ثم الاستيلاء على منف ، وبعض مدن الدلتا ، ومن هنا نستطيع أن نقدر أن الهكسوس قد أرتدوا — إلى الشمال ، وأعتصموا بعاصمتهم أفاريس ومن حولها كانت خوايتهم حرب التحرير ، اذن لقد وصل الاسطول المصرى الى مقاطعة أفاريس — ، وسرعان ما يعمل كاموزا على قطع الامدادات التي كانت تصل الى الهكسوس عن طريق فروع النيل ، وبعد أن يشتبك مع الهكسوس يتحدث بعد ذلك عن حرب خاض غمارها على صفحة الماء ، فيذكر انتصاره على عدوه ويعد الغنائم التي أستولى عليها ، ومن بينها ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الارز (١٥) .

وفي الدولة الحديثة أرسلت الملكة «حتشبسوت» بعثتها المشهورة الى «بونت» ، والتي دونت على جدران معبد الحير البحرى (١٦) ، طبقا لنظام يتفق الى حد كبير مع الموقع الجغرافى لبلاد بونت ومع اتجاه السفن فى سفرها اليها والعودة منها ، فقد صورت بثية بونت على الجدار الجنوبي من البهو ، فى أربعة صفوف ، صورت السفن فى رحلة الذهاب والعودة على النهاية الجنوبية للجدار الغربى للبهو ، وفى رحلة الذهاب ظهرت السفن وقد أوجهت مقدمتها الى الجنوب (فى اتجاه بونت) ،

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٨٠ - ١٩٧ .
(١٦) أنظر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 102-122;

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, III, London, 1898, Pls. 69-

وفي رحلة العودة اتجهت مقدمتها الى الشمال ، أى فى اتجاه مصر ، وعلى أى حال ، فربما أخذت الرحلة الى بونت طريقها من النيل عند مدينة قفط، وأنتقلت برا الى وادى جاسوس ، وبنييت السفن على شاطئ البحر الاحمر ، ومع ذلك فليست هناك أشارات فى النقوش الى نقل الاحمولة ، وما دامت السفن التى يشار اليها بأنها شقت طريقها فى البحر الاحمر ، تظهر مرة أخرى على النيل ، فربما أتخذت طريقها فى قناة خلال وادى طميلات الذى كان يربط النيل بالبحر الاحمر ، وربما كانت هذه القناة قائمة منذ الاسرة الثانية عشرة .

وتشير النصوص الى أن عملية بناء السفن تمت بواسطة قطع أشجار الجميز من كل البلاد ، كما يشار فى مناظر أخرى فى نفس المعبد الى قطع مسطتين ونقلهما من أسوان الى الاقصر وقد تمت العملية بوضعها على سفن نقل مربوطة فى ثلاثة صفوف من سفن التجديف بكل صف منها به تسع سفن ، على رأسها سفينة القيادة ، وتصب سفينة النقل حاشية من ثلاثة سفن (١٧) .

وليس هناك من شك فى أن جبار الحروب تحوتمس الثالث هو الذى أدرك ما للقوات البحرية من أهمية خاصة فى تذليل المواصلات عندما خرج الجيش من مصر ، اذ لا يمكن السيطرة على شرقى البحر الابيض المتوسط ، دون وجود قوة بحرية تسيطر على تلك المنطقة ، ومن ثم فقد وجه عنايته خاصة الى الموانئ الفينيقية عندما أتجه نحو الشمال ، فأمدّها بحاجياتها من الخبز وزيت الزيتون والبخور والنبذ والعسل والفواكه ، كما أستولى على كثير من السفن لكى يسهل المواصلات فى مصر واليه (١٨) .

هذا الى جانب الاهتمام بمدينة منف التى اتخذها مركزا للاسطول

(١٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨١ - ٨٢ .

18) Save-Soderbergh, The Navy of The Eighteenth Egyptian Dynasty- P. 34 F; D. G. Hogarth, Egyptian Empire in JEA, I, 1914, P. 9F.

المصرى ، ومن ثم قد أنشأ بها ميناء بحريا (الميناء الجميل) أو ترسانة ملكية (برو - نوه) تجهز فيها السفن الذاهبة الى آسيا ، كما تصنع بها جميع أنواع السفن ، النهرية والبحرية ، وتشير النصوص الى أنها غدت مقر ولى العهد (أمنحتب الثانى) بوصفه المشرف على مؤونة الاخشاب للسفن ، فضلا عن تدريبيه عسكريا واعداده لقيادة الجيش ، ومن ثم فقد كانت المدينة تقوم بدور عسكرى هام ، ومنها كانت تخرج السفن للقيام بالمعطيات الحربية فى غربى آسيا ^(١٩) ، وهناك بردية فى المتحف البريطانى تسجل نشاط بناء السفن فى «برو - نوه» أيام تصوتمس الثالث ، وقد سجل فيها أنواع الخشب التى صرفت لرئيس بنائى السفن لمدة ثمانية أشهر يوعين فيها أنواع السفن والقوارب التى كانوا يقومون ببنائها ^(٢٠) .

هذا وقد ظلت البحرية المصرية تسيطر على الشاطئ السورى سيطرة تامة خلال عصر تحوتمس الثالث وولده أمنحتب ، بل أن رسائل العمارنة توحى بأن مصر كانت ما تزال فى عهد خليفتيهما تمر دون عائق الى حلفائها ، وكان الاستيلاء على مدن الشاطئ السورى مما مكن لمصر أن تظل بغير منافس فى البحر المتوسط فترة طويلة ، على أن أهم المعارك الحربية التى دارت رحاها على صفحة الماء فى البحر المتوسط ، أو الاخضر العظيم كما كانوا يسمونه ، انما كانت على أيام رمسيس الثالث ضد شعوب بحرية كثيفة فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وتقدم لنا نقوش مدينة هابو بطيبة الغربية منظرا لخمسة سفن من سفائن شعوب البحر ، تطاردها بشدة أربعة سفن مصرية ^(٢١) ، ويرى «نفسون» أن المناظر تبين لنا أن سفن العدو تبدو ، وكأنها لم تستعد للقيام بمناورة اذ كانت أشرعتها مطوية ، بينما تبدو السفن المصرية تهاجم بطريقة منظمة بمقدمتها المتجهة جيما نحو العدو ، بينما لا يوجد لدى السفن الاخرى مثل هذا التشكيل ، وربما كان هدف الفنان من ذلك أن يظهر لنا مدى اضطراب أسطول

19) T. Save-Soderbergh, Op. Cit., P. 37.

20) SAZ, 66, 1930, P. 105, 68, 1932, P. 7-14.

21) W. E., Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Rameses, III, The Texts in Medinet Habu, Chicago, 1936, Pls. 37-39, P. 41.

العدو ، حين يقارب ذلك بالتقدم المنتظم للأسطول المصرى ، والذي يبدو واضحا أنه قد قبض على عدوه بمهارة (٢٢) .

ومن ثم فإن الفنان حين رسم هذا المنظر انما قد وقر فى ذهنه ما كان يفكر فيه الكاتب المصرى حين كتب يقول «شبكة كانت معدة لهم لاصطيادهم ، وأما الذين دخلوا فى مصبات النيل فقد كانوا كالطيور التى وقعت فى أحبولة» (٢٣) ، وحين كتب يقول : وأما الذين أتوا بجموعهم معا عن طريق البحر ، فإن اللهب الشامل كان أمامهم عند مصبات النيل ، فى حين أن سياجا من الحراب قد أحاط بهم على الشاطئ (٢٤) ، وبمعنى آخر فإن الأسطول المصرى قد قطع انسحابهم عن طريق البحر ، كما منع الجيش فرارهم عن طريق البر ، وهكذا كانت الخطة كاملة لدرجة أن العدو قد وقع فى المصيدة التى أعدت له ، ومن هنا فقد دمروا تماما عندما التقى المصريون بهم فى أماكنهم كما يقول النص .

وأما مكان المعركة البحرية ، فإن النصوص مضطربة فى ذلك ، ذلك لأنها تحدثنا عن تجمع العدو فى بلاد الاموريين ، وأن رعمسيس الثالث قد سار على رأس جيشه حتى زاهى ، حيث أوقع بشعوب البحر هزيمة منكرة ، ومن ناحية أخرى ، فإن صور المعركة البحرية انما تشير الى أنها وقعت عند مصبات النهر أو النيل ، وربما نستطيع أن نفسر ذلك المتضارب بأن الفرعون قد حصن حدوده عند زاهى حقيقة ، فى حين أنه قد حصن مصبات النيل كذلك وأن العدو الذى كان معظم أسطوله البحرى يرافقه جيشه البرى ، قد فصل بعض قطعه البحرية حتى تقوم بهجوم هاجئ على مصبات النيل ، وبذلك تستطيع أن تحدث الذعر فى صفوف الجيش البرى الذى كان يتقدم فى آسيا متجها نحو زاهى ، فى الوقت نفسه ، حتى اذا استطاع المصريون الانتصار عليهم فى زاهى ، فإنهم ،

22) H. Nelson, The Naval Battle Pictures at Medinet Habu. JNES. 4. 1943, P. 46.

23) W. F. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 41.

24) Ibid., P. 55.

على الأقل ، سيضعفون من هزيمتهم بالاستيلاء على جزء من أرض
الكثانة عن طريق مصبات النيل ، ويبدو أن رعمسيس الثالث قد فطن لهذه
الخطة ، ومن ثم فقد أعد خطته الحربية على أساسها (٢٥) .

ويرى «نلسون» أن موقع المعركة البحرية ، على الأقل ، بقدر ما أراد
الفنان أن يصوره ، ربما يتفق كذلك مع تقرير النقش ، قد حدث
عند مصب نهر ، ربما كان واحدا من غسوع النيل بالدلتا (٢٦) ، وأما
«ادجرتون وويلسون» فيميلان الى أن المعركة قد حدثت عند مصبات
النيل (٢٧) ، وأن كنت أفضل أنها قد حدثت في مكان ما الى الشرق من
بور سعيد قريبا من مخرج الفرع البيلوزي للنيل ، وأن السفن المصرية
التي أشتكت في المعركة خرجت من منف الى الفرع البيلوزي ومنه الى
البحر الابيض حيث أشتكت في المعركة مباشرة (٢٨) وهناك ما يشير الى
معارك بحرية دارت على صفحة النيل بين قوات «تف نخت» و «بعنقى»
الواحدة حدثت عند هرموبولس حيث نجح النوبيون في هزيمة أسطول
الدلتا والاستيلاء على الكثير من سفنه ، والثانية حول العاصمة القديمة
منف ، والتي كانت تقع على النيل الذي كان يجري في الناحية الشرقية من
أسوارها ، وقد أدرك بعنقى وجبود نقطة ضعف في تحصينات المدينة
تصلح مركزا للهجوم . فقد كان النيل مرتفعا ، وكانت السفن الراسية
في النيل أمام أنجانب الشرقى من المدينة مربوطة في المساكن المشرفة على
النيل بسبب ارتفاع مستوى المياه ، وهكذا فكر بعنقى في أن يأتي المدينة
من مأمها ، ومن ثم فقد أمر بالاستيلاء على تلك السفن ليلا وضمها الى
أسطوله ، وبذا أمكنه من أن يتسلق حوائط المدينة غير المحصنة من الشرق
وأخذ قواتها المدافعة على غرة ، فلم يسعها سوى التسليم ، وهكذا دخل

(٢٥) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس
الثالث ص ٢٢٥ - ٢٣١ .

26) H. Wilson, Op. Cit., P. 45.

27) W. F. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 31.

(٢٨) . محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٢٩ .

بعنخى منف وأعلن نفسه ملكا (٢٩) .

وهناك اشارات كثيرة الى الاسطول المصرى فى عصر النهضة ، ومن ثم فقد نجح «نخاو» فى أن يخضع المدن الساحلية مثل عسقلون وأشدود وغزة ، وهناك نص بالهيريوطيفية عثر عليه فى صيدا يشير الى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقي ، وقد يسر ذلك امتلاكه لاسطول فى البحر الابيض المتوسط ، الامر الذى يفسره لنا كثرة القاب «قباطنة الملكية فى البحر الاخضر الكبير» فى نصوص عهده (٣٠) ، هذا فضلا عن قيامه بمحاولة جريئة لربط النيل بالبحر الاحمر عن طريق قناة تجرى فى الفرع البوباستى القديم حتى البحر قرب ميناء الاسماعيليه ، وهى قناة أنشئت على أيام الدولة الحديثة على الأرجح ، إلا أن يد الاهتمام كثيرا ما امتدت اليها ، حتى عفت آثارها آخر الامر ، ثم جاء نخاو وأعاد تنفيذ المشروع ، ونقرأ فى هيرودوت أن المشروع قد أوقف فجأة بمجرد أن نفذ الجزء الأكبر منه ، وبعد أن هلك فيه مائة وعشرون الفا من المصريين ، لأن نبوءة بوتو جاءت بأن الالهة تأمره بترك المشروع ، لأن القناة ليست فى صالح مصر ، ولن يستفيد منها سوى الاجانب ، وان نفذ المشروع دارا الفارسي بعد ذلك (٣١) .

ولكن نخاو نفذ مشروعا آخر هو القيام بدورة ملاحية حول أفريقيا ، فطقد أرسل أسطولا صغيرا فى البحر الاحمر لكشف سواحل أفريقيا ، وقد عاد بعد ثلاث سنوات عن طريق جبل طارق محملة بجميع خيرات أفريقيا من الموانئ التى مر بها ، وكان مما ذكره الملاحون أنهم ساروا دائما على مقربة من الشاطئ ، وأن الشمس كانت تشرق عن يسارهم ، ولكنهم وصلوا الى نقطة أشرقت الشمس فيها عن يمينهم ، وقد رفض هيرودوت

29) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 364-365.

30) A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 358; De Meulenaere, Herodotus et. la., 26-Dynastie, 1951, P. 60-61.

31) G. Posener, Le Canal du Nile a la Mer Rouge in Chronique d'Egypte, 26, 1938, P. 372.

تصديق ذلك ، رغم أن هذه النقطة بالذات هي دليل صدق أنباء الرحلة ، لان ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح (٢٢) ، وجاء بسماتيك الثانى وفجح في أن ينشئ أسطولا كبير من البحر ثم تحرك الى قبرص حيث دمر المحطات الفينيقيّة هناك ، وطرده الاهلين منها (٢٣) .

وفي عهد الاسرة التاسعة والعشرين كان الاسطول المصري قوة يحسب حسابها ، فاشتترك في النزاع بين الاغريق وفارس ، ومد الفرعون نفرطيس الاول الملك الاسبرطى «أجسيلاوس» بأسطول من مائة سفينة من ذوات الثلاث صفوف من المجاديف ، عليها ما يقرب من ٨٠٠ ألف مكيال من الحبوب وان استولى الاعداء عليها (٢٤) ، وعندما عقد الصلح بين فارس وأسبرطه عقد أخوريس حلفا مع ايفاجوراس ملك سلاميس في قبرص ، وأمدّه بخمسين سفينة حربية ويمدد من قمح ومال ، ثم بدأ فرعون في إعادة تنظيم الجيش والاسطول المصري من جديد ، وبدأ البحارة المصريون يظهرون تفوقا منقطع النظير ، وسيطرت مصر على فلسطين وفينيقيّا ، وترك أخوريس نقوشا في معبد أشمون شمال صيدا ومذبحا في عسقلون من جرانيت أسوان الرمادى (٢٥) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن طاقم السفينة المقاتلة انما كان يتكون من بحارة (خنيت) يبلغ عددهم في السفينة الكبيرة حوالى مائتى جنديا ومدربا ، على رأسهم حامل علم وضابط من رتبة قائد بحارة (حرى خنيت) وكان أسلوب الترقى في البحرية أن ينقل من يراد ترقيته الى سفينة أكثر شهرة من التى يعمل فيها ، فهناك من عهد امنحتب

(٢٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٤٢٥ .

Herodotus, II, 159-160.

33) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 36L.

34) Ibid., P. 374.

35) A. T. Olmstead, History of Palestine, and Syria, Chicago, 1931, P. 398-399; A. Rowe, Catalogue of Egyptian Scarabs, 1936, P. 295-296.

الثالث أسم أحد حملة الاعلام عمل في السفن الاربعة التالية على التوالي «نجمة منف» و «لواضح في المعدل» و «الحاكم القوي» و «آتون» ، والسفينة الاخيرة هي بارجة الملك ، وتحمل علم الاميرالية ، كما تسمى في عصرنا هذا (٣٧) .

هذا ويشير نوري من عهد سيتي الاول الى أن مرتبة «وعو» بمعنى «نفر» الان ، يمثل أدنى المراتب في سلم الجندية ، ثم يليه «حامل اللواء» الذي يشرف على تدريب البطارة ، ويحمل عادة لقب «حامل لواء تدريب فرقة المجدفين» كما ينسب النفر أو «وعو» الى السفينة التي يعمل بها ، فيقال «وعو السفينة كذا» أو «عوخنيت» مضاعفا اليها أسم السفينة ، أو بغير ذكر لاسمها ، وكان يشرف على الفرقة أحيانا رجلان ، الواحد «حري خنيت» ، والآخر «تاسريت» (حامل اللواء) ، وان كان يكتفى بالآخر في بعض الاحوال ، ولم يكن هناك من يحمل اللقبين معا في نفس الوقت ، ذلك لان الترقية من «وعو» تكون لاحد المنصبين فقط .

هذا ولم يكن لقب «حامل اللواء» مقصورا على البحرية ، وانما نراه في الجيش كذلك ، ومن ثم فهو يضاف الى «سا» كما يضاف الى «خنيت» ليميز الوحدة ان كانت برية أو بحرية ، وفي الحالة الاخيرة يذكر غالبا أسم السفينة فيكون اللقب مثلا «تاسريت ان ايونسوه» أي حامل لواء فرقة السفينة الملكية ، وليس من شك في أن حامل اللواء لسفينة هامة كان له مركزه الاجتماعي الممتاز ، وبخاصة في عصر الرعامسة، حتى لنجد حامل اللواء لفرقة المجدفين ، يسبق في ترتيب قائمة الموظفين عمدة طيبة نفسه ، وهناك اصطلاحان يعبر بهما عن قائد السفينة الحربية ، أولهما هو «نفو» وثانيهما هو «هر» أو «حري» الذي يضاف الى كلمة «سفينة» ، وأحيانا لم يكن لقائد السفينة أحد اللقبين ، بل كان يكتفى بذكر أسم السفينة الذي يردف اليه أسم الشخص (٣٧) .

36) T. Save-Soderbergh, The Navy of Eighteenth Egyptian Dynasty. Uppsala 1946, P. 83.

(٣٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٦٩ .

هذا وقد كان من ضباط البحرية «المشرغون على السفن» ويمثلون
 قسما من قواد الاسطول البحرى ، وأما اللقب الكبير فهو «المشرف على
 كل سفن الملك» ، ولعله مثل أمير الحبر أو قائد الاسطول (٣٨) ، هذا وقد
 كان الضباط يعملون فى القوات البحرية والبرية فى آن واحد ، ومثالنا
 على ذلك «سوامنوت» ، والذي كان يعمل حامل علم فى سرية من المشاه
 ورئيس أصطبل فرقة من مركبات الجيش ، ثم عينه «أمنحيب الثانى»
 قائدا للاسطول (٣٩) . وأما مركز الاسطول الرئيسى فقد كان فى منف ،
 كما أشرنا آنفا ، ثم سرعان ما تكونت مراكز أخرى فى هليوبوليس وفى
 «قنتير» وفى طيبة عندما اتسعت الامبراطورية المصرية كثيرا ، وأخيرا
 فهناك نصوص من الدولة الحديثة تشير الى عدة امتيازات لضياغ المعابد
 التى كانت لها أساطيل خاصة ، فمرسوم نورى من عهد سيتى الاول ،
 ومرسوم اليفانتين من عهد رمسيس الثالث انما تشير الى أنه ليس
 من حق الموظفين المالكين التدخل بأية وسيلة فى شئون السفن الخاصة
 بالمعابد والتى تستطيع أن تضر حرة دونما أى قيد ، وأنه لا يجوز
 الاستيلاء على هذه السفن أو بحارتها وتكليفها بأداء أى عمل آخر (٤٠) .

38) T. Save-Soderbergh, Op. Cit., P. 88-89.

39) Ibid., P. 90.

40) F. Griffith, The Abydos Decree of Seti I at Nouri, JEA, 13, 1927,
 P. 200.

(٤) دور المؤسسة العسكرية السياسية

١ - الملوك العسكريون :

لا ريب في أن المؤسسة العسكرية في مصر الفرعونية لم يكن لها دور سياسي فيما قبل عصر الامبراطورية ، بل وحتى نهاية عصر العمارنة من أيام الامبراطورية ، ذلك لانه من الصعب أن نتصور في تلك الفترة أن أية مؤسسة مصرية — أيا كان نفوذها — كانت بقادرة على أن تمثل تهديدا حقيقيا للفرعون ، اذا ما أستقر على العرش ، وأعترفت البلاد بسلطانه (١) .

صحيح أن الكهنة في امكانهم أن يورثوا وظائفهم لابنائهم من بعدهم ، وصحيح كذلك أن الكهانة القوية — وخاصة كهانة آمون في الكرنك — انما كانت تشكل خطرا محتمل الوقوع ضد الفرعون الضعيف ، ولكنه صحيح كذلك ، أن الجيش وأهل بيت الفرعون نفسه ، انما كانوا يشكلون نفس الخطر ، وهكذا كان الفرعون الملقوى — في أغلب الاحايين — يشرف على الكهنة اشراغا تاما ، بنفس الطريقة التي يدير بها شئون قصره وجيشه (٢) .

غير أن الامور سرعان ما بدأت تتغير في أعقاب موت داعية التوحيد «أخناتون» (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق م) ، ومن ثم فقد بدأ زعماء المؤسسة العسكرية يظهرون على المسرح السياسي ، حتى أن البعض انما يذهب الى أن البلاط الملكي لم ينتقل من العمارنة الى طيبة (الاقصر) ، وانما أنتقل الى العاصمة القديمة «منف» ، حيث المقر الرسمي للقيادة العامة للقوات المسلحة المصرية ، وحيث يتركز أيضا سلاح المركبات الحربية ،

1) Giles, (F.J.), Ikhnaton, Legend and History, London, 1970, P. 128-130.

2) W. F. Edgerton, The Government and Governed in The Egyptian Empire, in JNES, 6, 1947, P. 156.

وذلك استنادا الى وجهة النظر القائلة أن طيبة كانت لم تشكل مقاومة فقد تكون خطيرة ضد السياسة الطموحة التي أنتهجها الضباط العسكريون (٣).

ومن ثم فقد بدأ العسكريون ، فيما يرى بعض الباحثين ، يقومون بدور سياسى فى الحياة المصرية بعد ثورة العمارنة ، معتمدين فى ذلك على أمرين ، الواحد : أن طبقة النبلاء من كبار الموظفين التقليديين فى طيبة انما كانت — فيما يرى فون بكراث — قد سقطت فى عصر العمارنة (الاسرة الثامنة عشرة) وأن النتائج السياسية لثورة العمارنة ظلت قائمة حتى بعد القضاء على الازمة ، وأن بعض القلائل والاضطرابات التى حدثت أثناء — وفى أعقاب الازمة — انما قد أضعفها الجيش بعنف ، وأن الخطر انداحم فى غربى آسيا قد أضر قادة الجيش ، وعلى رأسهم آى وحور محب وأتباعهما من كبار الضباط ، الى ضرورة توفير الامن والسلام الداخلى فى البلاد ، حتى يمكن تحقيق الإصلاحات التى قام بها آى وحور محب ، وأن حور محب انما كان بمثابة الرجل الثانى فى الدولة فى أعقاب موت «توت عنخ أمون» (٤) .

وأما ثانى الأمرين ، فإن ثورة العمارنة الدينية انما قد أدت الى ضياع معظم أمبراطورية مصر الشاسعة فى آسيا ، ومن ثم فقد أستغل هذا الموقف أولئك الحاقدون من الكهان ومرترقة المعابد ، فأوقدوا نار الحقد فى نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك الهبات الضخمة من الأسرى والسبائيا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود ، سواء بسواء ، بخاصة وقد أقسم الفرعون بربه «آتون» أنه لن يترك حدود مدينته «أخيتاتون» (العمارنة)

3) Ahmed Kadry, *Officers and Officials in The New Kingdom*, Budapest, 1982, P. 85-86.

وانظر الترجمة العربية : أحمد قدرى : المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية — ترجمة مختار السويفى ومحمد العزب موسى — القاهرة ١٩٨٥ ص ١٦٧ .

4) J. Von Beckerath, *Tanis und Theben*, Gluckstadt, 1951, P. 21-22. A. Kadry, Op. Cit., P. 88-91.

لاى سبب من الاسباب ، ومن ثم فقد تأكدوا أنه لن يخرج على رأسهم — كما كان يفعل أسلافه من الفراعين المحاربين — وبالتالى فان هذا انما يعنى فى الوقت نفسه ضياع الهبات الضخمة التى كانوا يأملون أن ينالونها بقوة سواعدهم ، وبحد السيف ، فى جميع أرجاء الامبراطورية المصرية الشاسعة ، الامر الذى دفعهم الى أن يقفوا ضد دعوته (٥) ، فضلا عن أن يكون لهم دور فى الاحداث المقبلة ، خاصة وقد قضت الثورة الدينية على نفوذ كهنة آمون ، وطبقة النبلاء من كبار الموظفين فى طيبة .

هذا فضلا عن اضطلاع الجيش بحمل أعباء السياسة الداخلية للدولة ، بالإضافة الى مواجهة الاضطرابات والمشاكل الدينية ، سواء فى أثناء ثورة العمارنة أو فى الفترة التى تلتها ، انما كان هو الخيار الوحيد أمام انتعاج السياسة العسكرية الدفاعية فى الاقاليم الاسيوية التابعة للامبراطورية المصرية (٦) .

هذا وقد بدأ الدور السياسى للعسكريين عندما تولى «آى» عرش الكنانة (١٣٣٩ — ١٣٣٥ ق.م) بعد موت المصبى «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ — ١٣٣٩ ق.م) ، ومن المعروف أن مركز «آى» الهام فى بلاط «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق.م) وخلفائه ، انما يعتمد على أن الرجل كان أخا للملكة «تى» ، وخالا لداعية التوحيد «أخناتون» (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق.م) (٧) ، وإن كان الزميل الدكتور أحمد قدرى انما يرى أن التبرير الصحيح لارتقاء «آى» العرش بعد موت «توت عنخ آمون» انما يستند الى ازدياد الدور الفعال للطبقة العسكرية فى توجيه السياسة الداخلية للبلاد منذ أيام العمارنة وما بعدها ، فضلا عن مركز «آى» القيادى فى القوات المسلحة ، باعتباره عضوا فى النخبة الممتازة من طبقة العسكريين ، وأعلامهم منصبا وأقواهم نفوذا (٨) .

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون — القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٨٨ .

(٦) A. Kadry, Op. Cit, P. 99.

(٧) محمد بيومى مهران : اخناتون — ص ٩٧ — ١٠٠ ، مصر — الجزء الثالث ص ٤٥ .

(٨) A. Kadry, Op. Cit, P. 92.

وعلى أى حال ، فلقد خلف «آى» الفرعون الصبى «توت عنخ أمون» على عرش الكتانة ، ونراه فى مقبرة الاخير يقود الموكب الجنائزى ، مما يشير الى أنه كان القوة المحركة للعرش على أيام سلفه الفرعون الصغير ، بل أن هناك من يذهب الى أنه اصطنع الانقلاب الملكية ، حتى قبل وفاة «توت عنخ أمون» ، وقد يشير ذلك الى أنه ربما قد أشترك فى الحكم على أيام الفرعون الصبى ، وربما قد حكم فعلا ^(٩) ، ويشير «هورنج» الى جمران — لم يدرس علميا بعد — وقد وصف عليه «آى» بلقب «الاب المقدس» و «ولوى العهد» و «الامير الوراثى» ، ثم يؤيد «هورنج» ما ذهب اليه من قبل الاساتذة «هلك» و «سيلى» و «نيوبرى» الى أن «آى» انما كان يشغل منصب الوزير فى عهد «توت عنخ أمون» .

وجاء «حور محب» (١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق م) بعد «آى» على عرش الكتانة ، وقد حاول أن يبرر جلوسه على العرش ، وأن يبعد عن نفسه نقيصة أصله ، واقتضاه الى الدم الملكى ، فنسب نفسه الى المعبود «حور» ، فالرجل — كما جاء على تمثال فى متحف تورين يمثل حور محب وميت نجمت — انما كان مواطنا عاديا فى بلدة غير مهمة ، هى «حنس» — وربما كانت «حوت نسوت» على مبعدة ه كيلا جنوبى شارونة بمركز مغاغة — وأنه يدين بالولاء للمعبود «حور» ، وقد عمل على أن يستميل كهانة أمون القوية ، وكان الاحتفال بعيد «أوبت» هو الفرصة المثالية لتتويجه ملكا ، وان كان «هارى» ^(١٠) طبقا لدراسة أثار عن حور محب — يرفض وجهة النظر القائلة بأن «حور محب» مدين بتوليته العرش لكهانة أمون فى طيبة ، على أساس أنهم هم الذين أختاروه ونصبوه ملكا

(٩) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — ص ٤٥ ، اخناتون ص ١٠٠ .

A. Kadry, Op. Cit., P. 92.

E. Hornung, Untersuchungen Zur Chronologie und Geschichte des Neue Reiches, Wiesbaden, 1964, P. 92-93.

10) R. Hari, Horemheb et la reine Montnedjemet, Geneve, 1965, P. 419 F.

A. Kadry, Op. Ci., P. 105-106.

وكذا

على مصر ، ومن ثم فقد أمر بتدمير آثار ملوك العمارنة ، ومحو ذكراهم من الوجود ، بما فيهم «آي» نفسه ، وإن استئنا آثار أمنحتب الثالث ، كما يرى أن تقلد «حور محب» لمنصب الوزير ، إنما كان سابقا على تقلده لمنصب «القائد العام للجيش» بل ويستعين بالدور الذي قام به ضباط الجيش .

ومن ثم فهو — فيما يرى الدكتور أحمد قدرى — إنما يخالف الحقيقة التي تؤكد حدوث التطور الذي أدى الى وصول ضباط الجيش الى تولى منصب «القائد العام» والذي كان من قبل مقصورا على أعضاء الأسرة المالكة ، بل وعلى «تولى المهدي» بصفة خاصة ، الى أن حدث التطور وتولاه «حور محب» ، كما أن منصب الوزير إنما كان مقصورا على الضباط العسكريين ، منذ أن تولاه «راعموزه» (رع موسى) على أيام أمنحتب الثالث ، كما أن استهانة «هاري» بدور ضباط الجيش ، واعتبارهم مجرد «مجموعة من الضباط» ، إنما هو اغفال للظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت الى ظهور طبقة العسكريين وازدياد أهميتها تدريجيا ، وبالتالي فهو لم يقدر «حور محب» حق قدره ، وأنه أحد أقطاب طبقة العسكريين ، وأنه أعطى منصب «القائد العام» ، فضلا عن كثير من المناصب العليا المدنية ، ومع ذلك فقد توصل «هاري» الى بعض النتائج التي تتفق وسياسة التوظيف في المناصب العليا في الدولة ، منذ أنتهاء أزمة العمارنة وتولية حور محب العرش ، مع مصالح الطبقة العسكرية المتنامية التي أخذت تخطط الضوء من طبقة كهانة آمون وحلفائها من النبلاء وكبار الموظفين التقليديين (١١) .

هذا ويعضد «هورنج» وجهة النظر التي تذهب الى أن «حور محب» إنما قد وصل الى مناصبه الرفيعة على أيام «توت عنخ آمون» بتركية من «آي» الذي كان يعتبره من اقرب معاونيه ، مما ما مثلما ارتقى

11) A. Kadry, Op. Cit., P. 106-107.

وفي الترجمة العربية ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

«رعمسيس الاول» عرش مصر بتركية من «حور محب» (١٢) .

وعلى أية حال ، وأيا كان الصحيح من هذه الآراء ، فإن «حور محب» إنما قد أكمل شرعيته للعرش بالزواج من الاميرة الملكية «موت نجمت» ، (موت نرمت) — أخت نفرتيتى زوج اخناتون — وهناك من يذهب الى أن «موت نجمت» قد ماتت بعد أن حققت للفرعون هدفه ، وأكسبته الشرعية في ارتقاء عرش أسلافها من الفراعين العظام ، ثم كتب لها أن تكون أول ملكة تدفن في الوادى الجنوبى لجبسانة طيبة ، والذي عرف في عصر الرعامسة بأسم «وادى الملكات» (١٣) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد تم الاحتفال بتتويج «حور محب» ملكا على مصر ، وكما يقول «جاردينر» (١٤) ، فليس من الصعب أن نتخيل صورة تفصيلية لاحتفالات تتويج الملوك التى كانت تجرى في معبد الكرنك ، فقد تقدم الملك أمام جمع مهيب من ضباط الجيش وحكام الاقاليم الرئيسية يصلفون خلفه ... بينما يقوم الكاهن الاكبر بعرض الصورة التقليدية الجميلة للمعبود «حور» ، ثم سرعان ما بدأ «حور محب» يعمل على اقرار النظام العام في البلاد ، وإعادة الضبط والربط في فرق الجيش وفروعه ، وفي نفس الوقت كان يكفىء ضباط الجيش الذين كانوا قد ساعدوه على اعتلاء العرش ، وذلك بأن أعطاهم الفرصة في تولي الوظائف الكهنوتية في المعابد، الامر الذى يعنى سيطرتهم على أهم جانب من موارد الاقتصاد القومى في البلاد ، ومن ثم فقد كان وصول «حور محب» للعرش إنما يمثل بداية مرحلة تاريخية مميزة ، تولي فيها العسكريون

12) E. Hornung, Op. Cit., P. 93.

A. Kadry, Op. Cit., P. 92.

(١٣) محمد بيومى مهران — مصر — الجزء الثالث ص ٤٦ ، وأنظر

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 242:

JEA, 39, 1953, P. 22.

D. C. Noblecourt, Op. it., P. 281.

ثم قارن :

وكذا

(١٤) انظر :

A. Gardiner, The Coronation of Har-emheh, in JEA, 39, 1953, P. 13-31.

الإشراف المباشر على موارد المعابد الاقتصادية ، والتي تمثل أكبر جانب من موارد البلاد الاقتصادية .

ومن عجب أن انفصال الأقاليم الشرقية للإمبراطورية ، والذي أدى إلى تقلص النشاط الحربى المصرى خارج الحدود ، إنما قد أدى فى نفس الوقت إلى انغماس الجيش والطبقة العسكرية فى الزيمنة على مقدرات البلاد الداخلية ، وكانت تلك ظاهرة عامة لونت شكل الحياة الداخلية بمصر ، وكان لها أخطر العواقب وأسوأها فى أخريات أيام الدولة الحديثة (١٥) .

وجاء بعد «(حور محب)» على عرش مصر ضابط آخر ، هو «(رعمسيس الاول)» (١٣٠٨ ق م) ، وهو سليل احدى العائلات العسكرية التقليدية ، وكان أبوه سيتى ضابطا بالجيش برتبة «قائد وحدات عسكرية» ، أو «قائد جيوش» عادى ، وقد رفعه «حور محب» إلى رتبة «الوزير» ، ومن تمثالين عثر عليهما فى الكرنك عام ١٩١٣ م ، نراه يحمل الألقاب التالية : «قائد الرماة ورئيس المركبات ورئيس القلعة ورئيس أفواه النيل والمنصرف على الجياد ورسول الملك إلى جميع البلاد الأجنبية والكتاب الملكى والمكلف بجمع الرماة ورئيس مشاة سيد الأرضين» ، ولعل مما يلفت النظر دعواه بأنه كان نائب جلالته فى الوجه القبلى والبحرى» (١٦) .

وهكذا يبدو واضحا أن «(حور محب)» إنما كان يتقلد «رعمسيس الاول» هذه الوظائف توطئة لقوليه العرش من بعده ، الأمر الذى مكّنه من أن يجلس على عرش الكنيسة بعد موت «(حور محب)» دونما أى

15) A. Kadry, Op. Cit., P. 100-101.

وفى الترجمة العربية ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(١٦) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - ص ٢٦٩ - ٢٧٠ وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 247-249.

F. Petrie, A History of Egypt, III, London, 1927, P. 2-5. وكذا

H. Gauthier, Op. Cit., III, P. 2-3. وكذا

H. Winlock, The Temple of Ramses, I, at Abydos, P. 10, 17.

اضطراب أو نزاع ، ذلك لان القوم ، فيما يبدو ، قد ألفوا حكم العسكريين ، وأنهم قد رأوا فيه خيرا كثيرا ، وربما لم يكونوا بقادرين على أن يقفوا ضد المؤسسة العسكرية ، وان ذهب البعض الى أن الرجل انما يدين بعرشه الى عون كبير قدمه له كهان أمون في الكرنك ، مما دفعه الى اقامة مبان ضخمة لامون في معبد الكرنك (١٧) .

وجاء بعد «رعسيس الاول» وليده «سيتي الاول» ، وهو ضابط أيضا ، وطبقا للوحة الاربعمائة (١٨) ، فقد كان «سيتي» يحمل لقب حامل المروحة على يمين الملك ، والشرف على كتائب الفرسان ، فضلا عن لقب «الوزير» ، وعلى أى حال ، فلقد اعتبر «سيتي» نفسه بعد وفاة أبيه الملك وصاحب الكلمة العليا في البلاد ، بل أنه اعتبر ولايته للمهد فاتحة عهد جديد ، وبشيرا باستعادة مجد مصر السالف ، ومن ثم كان يكتفى بلقب «مجدد الميلاد» (أو تكرار الولادة) (وحم مسوت) ، وتعنى «بدء عصر البعث» ، وهى الصفة التى أرفقها الى تواريخ العام الاول والثانى من حكمه (١٩) .

٢ - من مظاهر العسكرية فى عصر الرعامسة :

لا ريب فى أن ارتقاء رعسيس الاول عرش الفراعين — أول ملوك

- (١٧) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٦٩ .
(١٨) انظر :

- P. Montet, in Kemi, IV, 1933, P. 199-216.
(١٩) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٧١ ، وكذا
J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 235-237.
J. Vercoutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, P. 89-90.
G. Posener, Op. Cit., P. 244,
BIFAO, 72, 1972, P. 112-114.
J. Cerny, A Note on The Repeating of Brith, in JEA, 15, 1929, P. 194-198.
J. H. Breasted, ARE, III, P. 51.
A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 249.

الرعامة — انما كان استمرارا لتقليد بدأه «آى» وقد أختير رعميسى الاول من البطانة العسكرية لسلفه «حور محب» ، وهى التى كانت تمثل النخبة الممتازة لطبقة العسكريين ، هذا ولم يكن رعميسى الاول يمت بأية رابطة عائلية بالملك «حور محب» ، وانما كان فقط مساعده فى عمله ، وكان الاثنان يعملان كضباط كبار فى الجيش ، ومن ثم فلن اعتلاء العرش انما يعد أمرا بالسخ الدلالة بالنسبة لتطور الاجتماعى العام للطبقة العسكرية خلال قرن ونصف القرن ، منذ انشاء الامبراطورية فى الدولة الحديثة ، كما أنه من المستحيل افتراض أن تعاقب ثلاثة من العسكريين «آى وحور محب ورعميسى الاول» على عرش الكنانة خلال الثلاثين سنة الاخيرة التى أعقبت وفاة «توت عنخ آمون» ، انما كان مجرد مصادفة تاريخية ، أو نتيجة لنفوذ فردى لبعض ضباط الجيش .

هذا فضلا عن أن خلفاء «رعميسى الاول» الذين كانوا يذحدرون من أسر الضباط المقاتلين ، انما كانوا بالضرورة متأثرين نفسيا بهذه النشأة العسكرية ، وكان العصر بأكمله مصبوغا بالطابع العسكرى العميق ، وقد أدت الحروب الهجومية والدفاعية التى حدثت على أيام الرعامة الى زيادة نمو الطبقة العسكرية ، هذا فضلا عن أن المناظر العسكرية التى سجلت على الصروح الضخمة فى معابد أبيدوس والاقصر والكرنك والرمسيوم ومدينة هابو والنوبة ، والتى كان فيها الفرعون يبدو فى قمة قوته ، انما كانت تعكس اتجاه العصر الذى كان يذخر بالنفض العسكرى ، كما أن المعبد فى الدولة الحديثة — وخاصة فى عصر الاسرة التاسعة عشرة — انما كان يستلهم فى عمارته ونقوشه وتخطيطه الروح العسكرية البارزة (٢٠) .

وهناك ما يشير الى مشاركة العسكريين من ضباط الجيش كقضاة فى المحاكمات الرسمية الهامة ، وفى مرسوم «نورى» — على مبعده ٣٥ كيلا شمال الجند الثالث — الذى أصدره «سيتى الاول» لحماية مخصصات

20) A. Kadry, Op. Cit., P. 140-141.

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 297.

وكذا

«أوزير» في أبيدوس ، نلاحظ كثرة عدد الضباط والمسؤولين العسكريين ، بالمقارنة بالمسؤولين الآخرين الذين يخاطبهم الرسوم ، فلقد وجهه الفرعون مرسومة الى «الوزير والموظفين ورجال البلاط ومجالس القضاء وابن الملك في كوش وقواد الجيش المشرفين على الذهب وعمد ورؤساء قرى مصر وقادة العربات ورؤساء الاسطبلات وحملة الالوية ، وكل وكيل لبית الملك ، وكل شخص أوغد في مهمة للعرش» (٢١) .

هذا وتشير بردية أنستاسي الثالثة الى روح العصر كثيرا ، حين تمتدح اقامة «مرنبتاح» في الدلتا حيث «مكان تصميم الخطط لمركباتك الحربية ، مكان احتشاد جنودك ، مكان رسو سفنك» ، وتعطى «بردية هاريس» مدي «عسكرة» مصر على أيام «رعمسيس الثالث» (١١٨٢) — (١٥١ ق م) (٢٢) .

وعلى أية حال ، فنتيجة للحروب الطويلة التي خاضتها مصر على أيام الرعامسة ، انما أصبحت الحياة المصرية تنضج بالروح العسكرية ، حتى لتأخذ مصر مظهر الدولة العسكرية ، وحتى يصل الفن العسكري الى قمته في تلك الايام ، وخاصة على أيام الاسرة التاسعة عشرة ، اذ تعتبر معركة قادش (حوالي عام ١٢٨٥ ق م) نموذجا رائعا لتكتيك الكر والفر ، وهي المعركة الكبرى التي استخدمت فيها الاستراتيجية الجديدة والمناورات التكتيكية للمركبات الحربية ، كما أن المعارك الدفاعية الكبرى التي وقعت في شمال شرق الدلتا وغربها ، بقيادة رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر ، انما تعتبر أول عمليات حربية كبرى ضد العدو في التاريخ القديم (٢٣) .

- 21) A. H. Gardiner, JEA, 38, 1947, P. 32.
W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.
J. H. Breasted, ARE, III, P. 84-85.
- 22) R. Schulman, Op. Cit., P. 100, 121-122.
A. Kadry, Op. Cit., P. 144-145.
- 23) S. Curto, Op. Cit., P. 14.
A. Kadry, Op. it., P. 164.

هذا وقد أصبح توظيف الضباط في المعابد ، سواء في المناصب الادارية أو الدينية ، تطبيقا شائعا ، ظهرت آثاره في أواخر عهد الاسرة العشرين ، وقد أستقرت في العاصمة — وكذا في الاقاليم — عائلات يرتبط فيها العسكريون والكهنة برباط الدم ، حتى كاد أن يكون ذلك ظاهرة مميزة في عصر الرعامسة ، وكانت تقوم بين هذه العائلات روابط قوية عن طريق التزاوج بين أعضائها ، وبالتالي فقد نشأت طبقة جديدة قوية تتمتع بسيطرة حاكمة^(٢٤) ، وأنتهت الامور باغتصاب الطبقة الجديدة — ممثلة في حريحور — عرش الكنانة من «رعسيس الحادى عشر» (١١١٤ — ١٠٨٧ ق م) ، آخر ملوك الاسرة العشرين — وأن الطبقة الجديدة قد اعتمدت على القوة الحربية ، أكثر من اعتمادها على القوة الكهنوتية ، بل ويذهب البعض الى أن هناك انقلابا عسكريا قد حدث لنزع السلطة من يد العصابة الحاكمة ، ولم يكن تولى الدكتاتور العسكرى الجديد (حريحور) للوظيفة الكهنوتية (الكاهن الاكبر لآمون) سوى وسيلة ليجمع أعنة السلطة كلها في يده ، وأنه حين أعتلى العرش سلم الوزارة ووظيفة كبير الكهنة الى ابنه ، ولكنه كان أكثر حذرا من أن يسلم اليه قيادة الجيش ، لان حكم الدولة كان يتوقف على قوة الشرطة في حفظ النظام^(٢٥) .

24) H. Kees, Das Priestertum im ägyptischen Staat Von Neuen reich bis zur spatzeit, Probleme der Agyptologie, I, Leiden, 1953, P. 121 F.

(٢٥) أنظر

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 288.

J. Cerny, CAH, II, Part, 2 B, P. 638-642.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 303-305.

W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 153.

C. F. Nims, JNES, 7, 1948, P. 157-162.

H. Gauthier, Op. Cit., III, P. 237.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

(٥) الجند المرتزقة في الجيش المصرى

لا ريب في أن مصر الفرعونية لم تستخدم المرتزقة في الجيش قبل الأسرة التاسعة عشرة (١) ، إلا بأعداد قليلة ، وفي حالات معينة ، كما يشير الى ذلك نص «لبنى» (٢) من الأسرة السادسة ، وكما تشير الى ذلك بعض آثار عصر الانتقال الاول (٣) ، وكما تشير الى ذلك أيضا بعض وثائق حرب التحرير ضد الهكسوس (٤) .

غير أن نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس ، انما كان بمثابة الشرارة الاولى التى أشعلت الحساس في قلوب المصريين ، فأبوا أن يستكينوا ، وأن يقفوا مكتوفى الأيدي ، وانما شارك كل الرجال القادرين على الحرب ضد الغزاة المعتدين ، وأسهم كل قادر على حمل السلاح في تطهير أرض الكنانة من دنس المستعمرين .

(١) قدمت الدكتور سوزان عباس عبد اللطيف المدرس بكلية التربية بجامعة الاسكندرية ، دراسة أكاديمية جادة عن « الجند المرتزقة ودورهم السياسى والحضارى في مصر الفرعونية في العصر المتأخر » للحصول على درجة الماجستير - تحت اشرافى - وقد نوقشت الرسالة في ١٩٨٣/٢/٢٠ م ، وأجيزت بتقدير ممتاز .

(٢) أنظر : محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الثانى ص ٢٣٢ - ٢٣٩ ، وكذا

A. Gardiner, Op. Cit., P. 95-97.

K. Sethe, Urk., I, 1903, P. 98-110.

J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 140-144.

F. Daumas, Op. Cit., P. 292-293.

J. A. Wilson, ANET, P. 227-228.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 18-20.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

3) B. Trigger, Nubia under The Pharaohs, London, 1976, P. 55, 75-76.

(٤) محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٨٥ (القاهرة ١٩٧٦) وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

T. G. James, CAH, II, 1965, P. 4-5.

وفي نصوص الاسرة الثامنة عشرة ظاهرة صغيرة ، ولكنها ذات مدلول كبير ، ففي العصور الاخرى كانت القنابات العسكرية تسمى «جيش جلالته» أو «فرقة أمن» أو ما شابه ذلك من أسماء توحى بحصر السلطة في قيادات ذات طابع الهى ، ولكن في هذه الفترة ، عندما بدأت مصر في اظهار قوتها ، تحدثت النصوص عن «الجيشنا» ، وتعنى بذلك اشتراك البلاد كلها في هذا الجيش (٥) .

وهكذا تجمعت عدة عوامل ، فجمعت من هذه الفترة في تاريخ مصر . فترة وطنية نسبية خالصة ، اذ تجمعت هذه العوامل مع بعضها على الرغبة في الانتقام ، والاعتزاز بتحرير البلاد ، وزاد عليها حب المغتية ، وما اكتسفته مصر في نفسها من قوة ، لم تكن هذه الحرب ، حرب فرعون وحده ، ولكنها كانت حرب الشعب كله ، حرباً أشترك فيها كل قادر على حمل السلاح في مصر (٦) .

وهكذا استطاع هذا الشعب الذى أمكنه يوماً أن يغير مجرى النيل في فجر التاريخ ، وأن يبنى الاهرامات منذ قرابة الآف خمسة من الاعوام ، استطاع — حين تحرك تحت قيادة رشيدة شجاعة ، نجحت في أن تستثير مكان الخير فيه ، وأن تضرب على الوتر الحساس من نفسيته ، وأن تكون الاسوة الحصنة له في الجهاد — استطاع أن يطرد الهكسوس المغزاة ، وأن يهز الدنيا ، وأن يذهل التاريخ ، وأن يسود العالم المعروف وقت ذاك .

ومن ثم فقد كتب لمصر نجحاً بعيد المدى في أن تكون لنفسها امبراطورية واسعة ، ابتداء من أعالي الدجلة والفرات شمالاً ، وحتى «نباتا» عند الجند الرابع جنوباً ، امبراطورية كانت في جوهرها دفاعية وليست هجومية ، ذلك لان غزو الهكسوس لمصر ، لم يثر في نفوس القوم

5) J. H. Breasted, ARE, I, P. 17.

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 167.

6) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 167.

العاطفة الوطنية فحسب ، بل أيقظ كذلك الشعور بالخطر عند الحدود الشرقية .

ومن هنا أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية انما تبدأ في سورية ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولهم عن الشرق الاوسط تقريبا ، ومن ثم فقد توسعت الامبراطورية المصرية الى حدودها القصوى ، كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر «السلام المصرى» ، بل اننا يمكننا أن نزعم بقليل من خشية ، أن الامبراطورية المصرية كانت في جوهرها ، وفي معنى ما «امبراطورية دفاعية» أساسا ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة في الشرق الادنى القديم (٧) .

ومن البدهى أن هذه الامبراطورية الشاسعة انما قامت على أكتاف الجنود والضباط المصريين ، ومن ثم فقد ندرت الاشارة الى الجنود النوبيين على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، وان كان هناك ما يشير الى استخدام بعضهم في الحرس الملكى (٨) .

على أن الامر سرعان ما تتغير في الاسرة التاسعة عشرة ، حيث تزداد أعداد الجنود الاجانب في الجيش المصرى ، وذلك لاسباب منها أن الفتوحات الخارجية على أيام الاسرة الثامنة عشرة انما أدت الى زيادة ثروة أولئك الضباط والجنود الذين اشتركوا في الحرب ، وما أن توطدت أركان الامبراطورية حتى اتجه بعض قادة الجيش الى الاهتمام بإدارة شئون اقطاعياتهم وتفرغوا لحياتهم المدنية ، الامر الذى أدى الى الاستعانة بالجند المرتقة في النصف الثانى من عصر الامبراطورية ، ومنها أن الفتوحات والحروب الخارجية قد أتت بأعداد هائلة من الاسرى الاجانب ، فعمل القوم على تجنيدهم في الجيش ، كما مكنت الثروات

(٧) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - ص ١٩٥ - ١٩٦ ، جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥٦ .
(٨) محمد بيومى مهران : أخناتون ص ١٠٨ وكذا

B. Trigger, Op. Cit., P. 76.

N. D. G. Davies, The Tombs of two officials of Thoutmasis, The fourth,

المهائلة التى أتت بها الحروب من أستتجار الجند الاجانب بأعداد كبيرة ، ومنها أن المصريين فى أخريات أيام الدولة الحديثة بدأوا يفقدون الاهتمام بالنواحي العسكرية ، بعد تكوين الامبراطورية ، وسرعان ما شغل قاداته بالتدخل فى شئون الحكم ، وخاصة فى الفترة فيما بين أزمة العمارة وعهد سيتي الاول ، وبالتالي فقد الجيش مكانته وسمته كقوة مقاتلة ، ومع ذلك فإن الانصاف يقتضينا أن نذكر لرعمسيس الثانى ما بذله من جهد ليعيد للمصريين حميتهم العسكرية القديمة ، وليجيبهم فى الانخراط فى سلك الجندية ، فمنح رجاله الكثير من الامتيازات ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فقد كانت طبقة المماربين هى الطبقة الوحيدة — فيما عدا الكهنة — التى كانت تتميز بامتيازات خاصة ، فوهب كل فرد منها اثني عشر فدانا معفاة من الضرائب ، وكان الجميع يتمتعون بهذا الامتياز .

ومع ذلك ، ورغم كل ما بذله رعمسيس الثانى وهرنبتاح ورعمسيس الثالث من جهود خارجية ، فانها لم تكن ذات أثر حاسم ، لان المصريين كانوا قد فقدوا الاهتمام بالنواحي العسكرية ، وساعد على ذلك اعتلاء فراعين ضعاف عرش الكنانة لم تكن لهم اهتمامات حربية ، فضلا عن انشغالهم بالتطاحن على العرش ، فلم يكن لديهم الوقت لانتهاج سياسة حربية قوية ، أضف إلى ذلك أن الظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت برعمسيس الثالث انما اضطرته الى أن يلجأ الى تجنيد الاجانب فى الجيش ، وليكونوا عوناً له ضد أعدائه فى الداخل (٩) .

وهكذا استخدم القوم — الى جانب النوبيين والليبيين — الفوق والشردان والمشوش (١٠) ، وآية ذلك أن الجيش الذى ورد ذكره فى عهد رعمسيس الثانى انما كان يتكون من ٣١٠٠ من الاجانب ، ومن ١٩٠٠ من

(٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٧٨ — ٣٨٠ ، سوزان عباس عبد اللطيف : دراسة تاريخية للجند المرتزقة ودورهم السياسى والحضارى فى مصر الفرعونية فى العصر المتأخر ص ٥٠ — ٦٢ .
(١٠) أنظر عن هذه الشعوب (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٥٣ — ١٩٠) .

الرماء لم تحدد جنسيتهم ، ومن ٥٣٠ من الشردان ، ١٦٢٠ من القهق ، ١٠٠ من الزنوج ، ٨٨٠ من المشوش (١١) ، كما يشير رعمسيس الثانى الى استعداداته لمعركة قادش (١٢٨٥ ق م) ضد الحيثيين فيقول «وجهز جلالته مشساته وعجلاته والشردان أسرى جلالته الذين أسرههم بانتصار ذراعه القوى» (١٢) .

وتقدم لنا معارك الحرب على جدران معبد مدينة هابو الملك رعمسيس الثالث ، وهو يتقدم الى ميدان المعركة يقبعه حرسه الخاص وجنوده من المصريين والاجانب ، حيث تظهر فرقة قهق وفرقة الشردان ، وهم يطاربون بجانب المصريين ، وقد اخترقوا صفوف الاعداء وأستولوا على عجلاتهم ، كما أستبكوا فى قتال مع بنى جلدتهم فى معركة بحرية (١٣) .

وجاء بعد رعمسيس الثالث مجموعة من الملوك الضعاف لم يستطع واحد منهم أن يحتفظ لصر بمكانتها الدولية . ومجدها العريق ، فقد كانوا جميعا متشابهين فى ضعفهم ، وفى خضوعهم لسلطان الكهنة ، وفى عجزهم على التغلب على الازمة الاقتصادية ، التى بدأت تطحن البسلاد ، ومتشابهين أيضا فى عدم قدرتهم على ايقاف الفوضى فى جميع مرافق البلاد ، وزاد الطين بلة لأن القوات المصرية المسلحة قد ضمت أعدادا كبيرة من الاجانب بين صفوفها ، فى وقت كانت البسلاد تقاسى فيه الامرين فالى جانب الازمة الاقتصادية ، كان هناك نزاع داخلى بين أفراد العائلة المالكة حول العرش ، فلذا أضفنا الى ذلك قلة الحروب فى الاسرة العشرين بعد عهد رعمسيس الثالث ، وعدم توفر المال اللازم لدفع أجور الجنود الاجانب الذين كانوا يعملون كمرتقة فى الجيش ، لتبين لنا أن الخطر — كل الخطر — فى تلك السياسة ، ومن غان الفراعين انما كانوا

11) J. Wilson, ANET, 1966, P. 476.

12) H. Goedicke, JEA, 52, 1966, P. 72-73.

وكذا

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, P. 8-9.

13) N. K. Sandars, The Sea-People, London, 1978, P. 185.

يضطرون — حين يعجزون عن دفع أجور هؤلاء المرتقة — الى اقطاعهم أراضى زراعية واسعة كمرتبات دائمة ، وتشير «البردية ويليور» الى أن من بين ملاك الاراضى فى عهد رمسيس الرابع ، عددا من الشردان ، وآخر من الليبيين (١٤) .

وهكذا أصبح الجنود المرتقة يمثلون قوة الدفاع شبه الرسمية عن بلد لا يحسون بالاخلاص نحوه ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت هذه الفرق الاجنبية نفسها — مرة أخرى — دون مرتبات منتظمة : ودون حروب تشغلها وتغنيها ، فبدأت فى سلب مصر نفسها ، مع قليل أو كثير من العقاب الكامل ، أو حتى بدون عقاب ، كما تشير الى ذلك عدة وثائق معاصرة ، وحتى أصبحنا نقرأ عن العمال الذين توقفوا عن العمل خوفا من المشوش ، وأن عمال الجبانة قد كتبوا للوزير محذرين بأن المشوش قد أتوا الى طيبة ، ومع ذلك فلم تكن العلاقات مع المشوش دائما عدائية ، وقد أقامت منهم فى اهتاسيا جماعة سيكون منها مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، كما أن هناك من يزعم أن الليبيين قد هاجموا طيبة فى عهد رمسيس الحادى عشر ، كما أنتشروا فى الدلتا ، فى اتجاه فرع رشيد ، حيث كان ملوكهم أصحاب السيادة فى الاسرة الثالثة والعشرين (١٥) .

وفى بداية عصر النهضة ، تمكن «بسماتيك الاول» (٦٦٤ — ١٦٠ ق م) من طرد الاشوريين من مصر (١٦) ، على أننا ، وإن كنا نحمد له ،

(١٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، وكذا

J. Cerny, CAH, II, Part, 2 B, 1980, P. 606.

A. H. Gardiner, Willour Papyrus, II, Oxford, 1948, P. 80.

R. O. Faulkner, JEA, 39, 1953, P. 45.

W. Hayes, Op. Cit., P. 374.

(١٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٢٠ — ٣٢٦ ، جان

يويوت : مصر الفرعونية ص ١٤٢

T. E. Peet, JEA, 12, 1926, P. 258.

J. Wilson, AJSL, LI, 1935, P. 81.

(١٦) أنظر عن طرد الاشوريين من مصر (محمد بيومى مهران :

حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢٦٩ — ٢٢٦ ، مصر — الجزء الثالث ص ٦٣٨ — ٦٤٢) .

جهاده لتحرير البلاد ، وإعادة الوحدة القومية لها ، فانا لا نحمد له تشجيعه للأجانب ، من مدنيين وعسكريين على الإقامة في البلاد ، مما كان له أسوأ الأثر في الفترة اللاحقة من تاريخ الكنانة ، صحيح أن هناك قسما خاصا من السكان الوطنيين كان مكرسا للحرب ، ولكنه صحيح كذلك أن اليونانيين الذين تعمد الفرعون بسماتيك تشجيعهم على الانضمام الى جيوشه ، ربما لتقم بهم الموازنة مع آل «ماخيموى» (أى المحاربين) الذين كانوا تحت النفوذ المباشر للأمراء المحليين في أقاليمهم الخاصة ، كانوا سببها مباشرا ، أو غير مباشر ، في إضعاف الروح القومية ، وإبعاد المصريين تدريجيا عن الجيش .

وسرعان ما أقيم لهؤلاء المرتزقة حاميات ، أنتشرت على الحدود الشمالية الشرقية والغربية والجنوبية ، ويشير «هيرودوت» الى مثل هذه الحاميات في «دقناى» — وهى كوم دفنة الحالية ، وتقع على الفرع البيلوزى للنيل ، وعلى مسافة ١٥ كيلا من القنطرة — وفي «ماريا» — وتقع مكان الهوارية على مسافة ٤٠ كيلا ، جنوب غرب الاسكندرية قريبا من سيدى كرير — وفي «اليفانتين» — جزيرة أسوان — (١٧) .

وكان الملك «ابريس» (واح ايب رع ٥٨٩ — ٥٧٠ ق م) يقرب اليه الأجانب كثيرا ، وخاصة الاغارقة والكاريين الذين كان يفضلهم على جنوده الوطنيين — مما أدى في نهاية الامر الى الصراع بين العناصر المصرية والأجنبية في الجيش ، فضلا عن قتله .

وجاء بعده «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ — ٥٢٦ ق م) في وقت كانت مشكلة الأجانب أصبحت خطيرة ، ذلك أن أحمس انما كان يدرك تماما أنه لا يمكنه أن يطمئن على سلامة البلاد وأمنها ، الا بوجود هؤلاء

(١٧) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٦٤١ — ٦٤٢ ، Herodotus, II, 154, 164.

A. H. Gardiner Op. Cit., P. 356-357.

M. E. Gyles, Pharaonic Policies and Administration, 663 to 323 B.C., 1959, P. 20-23.

J. H. Breasted, ARE, IV, No. 989-995.

المرتقة من الاجانب ذلك لان الحالة في غربى آسيا وصلت الى ابد حد من السوء ضد مصر ، كما أن قوة هؤلاء اليونانيين بوجه عام قد ازدادت في البحر المتوسط ، ولم يكن من حسن السياسة اضعاف الجيش وجلب عداوة جميع الدويلات اليونانية ، وشل اقتصاديات مصر ، اذا ما تعرض للتجار الاجانب وطردهم من مصر ، وقد حدثت عدة اضطرابات من الجنود المصريين ضد التجار اليونانيين المتفرقين في الدلتا ، ومن ثم فان عملا ما كان يجب أن يتم ليخفف من حدة الموقف ، فضلا عن ارضاء الوطنيين الذين كان يدين لهم بعرضه ، وقد لجأ الفرعون لحل هذه المشكلة أو المعادلة الصعبة كما يقولون ، الى أنه ارضاء للشعور الوطنى في مصر ، وبخاصة الجيش ، فلقد أمر باستدعاء اليونانيين من الاحاميات التى على الحدود ، وارسال الجنود المصريين ليطولوا محلهم ، ثم أمر باسكان هؤلاء الاجانب في احياء معينة من العاصمة القديمة «منف» — والتى كانوا قد أعادوا لها دورها القديم ، كعاصمة عسكرية للبلاد — وذلك ليظلوا تحت رقابة بلاط الفرعون ، وليكونوا قلة في مجموع منف الكبير ، كما ألحق بعضهم بحرسه الخاص (١٨) .

هذا وقد بالغ بعض المؤرخين في أعداد الجنود المرتقة في الجيش المصرى في عهد الاسرة السادسة والعشرين ، فيذهب هيروdot الى أنهم كانوا في عهد «ابريس» ثلاثين ألفا (١٩) ، وذهب «بترى» الى أن قوة حصن تل دفنة انما يصل الى عشرين ألفا (٢٠) ، ونحن لا نستطيع أن نحدد عددهم على وجه اليقين ، ذلك لان هؤلاء المرتقة لم يكونوا

(١٨) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٤٤ — ٦٤٥ ، وكذا :
 Herodots, III, 47, هيروdot يتحدث عن مصر ص ٢٨٧ ، وكذا
 Diodours of Siculus, 1, 67 وكذا
 J. Bury, History of The Greece to the death of Alexander the Great, 1904, P. 332.

(١٩) هيروdot يتحدث عن مصر ص ٢٩٦ .

(20) W. F. Petrie and F. Griffith, Tanis, II, P. 43.

مجموعة خاصة بهم في الجيش ، كما كانت أعدادهم تزيد أو تنقص تبعا للحاجة اليهم ، ولظروفهم الخاصة (٣١) . وعلى أية حال ، فلقد حاول الفراعين أن يحدوا من نفوذ المرتقة الاغريق والكاريين ، فوضعوهم تحت قيادات مصر ، وان ذهب «أوستن» الى أنهم انما كانوا يخرجون الى الحرب تحت قيادة قوادهم التابعين لهم ، ولم تكن هناك سلطة عليهم ، غير سلطة الفرعون (٣٢) ، وأيا ما كان الامر ، فلقد ظل الجنود اليونان والكاريين يحتفظون بمكانتهم وأهميتهم الحربية في الجيش المصرى خلال عصر الاسرتين ، التاسعة والعشرين والثلاثين .

21) M. Austin, Op. Cit., P. 15.

وأنظر : سوزان عباس : المرجع السابق ص ١١٨ - ١٨٦ .

(٢٢) جان يويوت : المرجع السابق ص ١٨٩ ، سوزان عباس : المرجع السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ ، وكذا

M. Austin, Op. Cit., P. 15,21.

R. Hall, CAH, III, 1929, P. 301.

A. Rowe, ASAE, 38, 1938, P. 169-170.

وكذا

وكذا

الفصل الرابع

القضاء

١ - مصادر القانون المصرى وفلسفته :

لا ريب فى أن مصر الفرعونية التى بهرت العالم بتراتها المجيد فى جميع مناحى الحياة ، سواء أكان هذا التراث فكريا أم ماديا ، أنها قد تركت آثارا كذلك فى عالم القانون ، وقد بذل علماء الآثار الجهود الجبارة للكشف عن معالم تلك المدنية ، ومن ثم فيجدر بعلماء القانون من المصريين أن يتناولوا الآثار القانونية التى خلفتها تلك المدنية بالدراسة والتحليل ، وتلك لاشك أنها من أولى المهام التى يجب أن تضطلع بها كليات الحقوق فى الجامعات المصرية^(١) .

ورغم أن القانون كان فى مصر منظما تنظيما جيدا ، غان معلوماتنا عن شئون القضاء فى مصر قليلة ، ذلك لانه بينما دون الناس ، فى بابل مثلا ، قوانينهم ، لم تصل إلينا صورة واحدة كاملة لأى قانون مصرى كتب على بردية من عصر الدولة القديمة ، وبدهى أن هذا لا يعنى أبدا أن المصريين لم يعرفوا القانون ، وإنما يعنى أننا لا زلنا نفتقد هذه الوثيقة التى لا بد وأنها كانت موجودة فى يوم ما ، وأن لم تصل إلينا بعد^(٢) .

وهناك من يرى أن الملك «ميناء» مؤسس الملكية المصرية ، حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م ، قد جعل التقنين الذى أصدره المعبود «تحتوت» (تموتى

(١) شفيق شحاته : القانون المصرى القديم - القاهرة ١٩٥١ ص ٧

(٢) الكسندر شارف : تاريخ مصر - ترجمة عبد المنعم أبوبكر -

القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٥ .

أو جحوتى ، كما ينطق فى المصرية القديمة) — والذي اعتبره المصريون القدامى القاضى الذى حكم فى السماء ، ويقضى فى المنازعات بين الالهة ، ثم نسبوا اليه أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء (٣) — سائدا فى مصر العليا والسفلى ، سواء بسواء ، ويبدو أن تقنين تحوت هذا انما كان تقنيينا مكتوبا ، وأن أول ما أستعملت فيه الكتابة انما هو هذا القانون بالذات ، والذي لم يصل إلينا منه شيء ، هذا فضلا عن أن نصوص المقابر من عهد الدولة القديمة انما تحوى أدلة على وجود قانون متقدم مكتمل ، فى مجموعات من الوصايا والمعقود والهبات ، وغير ذلك مما يتصل بنظام الملكية والحقوق الميمنية (٤) .

ومناك كذلك من الأدلة الاثرية ما يشير الى وجود قانون جنائى ، أو على الأقل نصوص محددة للعقوبات فى عهد الدولة القديمة ، وكانت المحكم تطبق هذا القانون على عامة القوم ، فضلا عن كبار القوم من الموظفين والكهان ، ومن ثم فقد سجل لنا «ببى عنخ» من وزراء الاسرة السادسة ، على جدران مقبرته أن محكمة السراة برأته من تهم وجهت اليه عندما كان الكاهن الاكبر للمعبود «حاتحور» فى مدينة قوص ، وأن هذه الاتهامات انما كانت عقوبتها السجن (٥) .

هذا فضلا عن أن بعض أحكام من قانون العقوبات قد وصلتنا من «بردية وستكار» ، حيث كان يكتب على الزانية والزانى الموت — غرقا أو حرقا — فلى روايتها عن علاقة شاب بأمرأة كاهن ، أن الشاب قد أفرسه تمساح من صنع الكاهن نفسه ، وأن المرأة اللعوب انما قد أقتيدت الى ساعة شمالى القصر حيث أحرقت علنا ، وألقى برمادها فى النهر (٦) ،

(٣) أنظر غن المعبود «تحوت» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٣١٣ — ٣١٥) .

(٤) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١١ ، ١٦ ، ١٧ .

(٥) سليم حسن : مصر القديمة — الجزء الثانى — ص ٦٢ .

(٦) أنظر عن بردية وستكار : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الاداب والعلوم — الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٧ — ٧٩ ، وكذا A. Erman, TAE, 1927, P. 36-47.

ولعل ذلك انما كان عقاب الزانية المحصنة ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى تخفيف هذه العقوبة ، فيما تلا ذلك من عصور ، فأصبحت بدع الإنف (٧) .

وهكذا كان على المؤرخين والقانونيين أن يعتمدوا على بعض الوثائق المتفرقة ، والتي منها ما هو منقوش ، ومنها ما وصلنا على بردية ، حتى يستخلصوا منها شذرات عن القانون المصرى القديم ، غير أن عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م) انما يمتاز بوفرة المصادر الاثرية التى تشير الى وجود قانون جنائى ، وآخر مدنى ، وتتمثل فى البرديات والنقوش التى تسجل أنواع العقوبات واجراءات التقاضى ، الى جانب كتابات المؤرخين والكتاب من الاغارقة والرومان ، ومن ذلك «ديودور الصقلى» (حوالى ٨٠ - ٣٠ ق م) الذى أشار الى وجود قانون مصرى مدون فى ثمانية كتب توضع بجانب القضاة (٨) .

هذا وقد أشارت مقبرة «رخمى رع» وزير «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م) - قبل ديودور بحوالى خمسة عشر قرنا - الى مجموعة قوانين مصريه ، حيث رسمت أمام صورة الوزير أربعة حصر مفروشة ، وفوق كل منها رسمت عشرة أشياء مستطيلة الشكل ، تمثل أربعين اضمامة من الجلد نقشت عليها مواد القانون الذى يقضى على هداه «رخمى رع» فى قضايا الشعب ، وان ذهب «ديفر» الى غير ذلك اذ كان من المنتظر أن تكون أكثر سمكا وأقصر مما نشاهده ، كما كان يجب أن تكون مخروطية بخطط مثل اضمامات البردى العادية ، هذا فضلا عن أنه

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 215-222.

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 15-30.

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

E. Brunner-Traut, Op. Cit., P. 11-24.

K. Sethe, ERL, 1927, P. 32-45.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

(٧) ديودور الصقلى : فقرة ٧٨ .

(٨) ديودور الصقلى : فقرة ٧٥ .

لم يشر إليها في النقوش قط ، ومن ثم فهو يرى أنها تشير الى الاربعين مرخلفا الذين كانوا في حضرة الوزير ، أو الى الاربعين أقليما التي تتألف منها البلاد ، وتدفع الضرائب للفرعون ، غير أن أقاليم مصر لم تكن أربعين أقليما وقت ذاك ، كما أن ادارة «رخمى رع» انما كانت مقصورة على الصعيد فقط ، كما أن هذه العصى الاربعين قد تكون عصى سلطة وضعت في أيدي موظفى الاقاليم بمثابة تفويض لتنفيذ القانون ، وقد شوهدت مستعملة للعقاب في أيدي الحجاب (٧) .

وعلى أية حال ، فلقد ذهب بعض الباحثين الى أننا يمكن أن نعتمد في مصادر القانون المصرى القديم على عدة مصادر ، منها : المؤلفات الادبية ، حيث تضمنت بعض البرديات (من الوجهة الفكرية) اعترافات ، وخاصة الاعترافات السلبية ، مثل : لم أسرق ، لم أرتكب خطيئة كذا وكذا . . . ، وقد جاء كثير منها في «كتاب الموتى» (١٠) ، ومنها الدعاوى الجنائية التي جاءت في الوثائق المصرية ، مثل «بردية تورين» التي تحدثت عن مؤامرة الحريم ضد الملك «رعسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق م) (١١) .

ومنها روايلت المؤرخين والكتاب الاغريق والرومان من أمثل «ديودور الصقلى» و «هيروdot» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق م) ، و «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق م) - المؤرخ المصرى ، وقد وصف مانيتو الملك «بوخوريس» - ثانى ملوك الاسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ - ٧١٥

(٩) سليم حسن : مصر القديمة - الجزء الرابع - القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٨٤ - ٥٨٦ ، وكذا

N. de. G. Davies, The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thebes, 2, Vols. New York, 1933.

(١٠) أنظر عن كتاب الموتى : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى ص ٤٥١ - ٤٥٢ ، سليم حسن : تاريخ الحضارة المصرية ص ٢٢٧ - ٢٣٢ ، وكذا :

T. G. Allen, JNES, II, 1952, P. 177-186.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, P. 122-729.

11) A. de Buck, JEA, 23, 1973, P. 152.

H. Goedicke, JEA, 49, P. 154-163.

وكذا

ق.م) - بأنه كان مشرعا عظيما ، وذهب «ديودور» الى أنه من بين الستة المشرعين الكبار في مصر ، وأن له مجموعة من الشرائع والاصلاحات الاجتماعية والقضائية التي وجدت آثارها في الوثائق الديموطيقية ^(١٢) ، ونسب «هيرودوت» الى «أحمس الثانى» (امازيس ٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) أنه سن قانونا يقضى على كل مصرى بان يتقدم سنويا لحاكم مقاطعته ببيان عن مصادر دخله ، وأن يثبت له خلالها من حرامها ، وأن من يهمل ذلك أو يعجز عن اثبات موارد رزقه حق عليه الاعدام ، ثم أضاف ان المشرع الاغريقى «سولون» (حوالى ٦٣٥ - ٥٥٩ ق.م) قد اقتبس هذا القانون المصرى وطبقه في أثينا ، وقد يكون غرض أحمس من قانونه هذا ، فرض ضريبة على الكسب أو الحد من البطالة والتواكل بين الشعب ^(١٣) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن هيرودوت وديودور ، كما رأينا آنفا ، انما يذكران أن أشهر المشرعين الاغريق «سولون» انما قد جاء الى مصر (حوالى عام ٥٩٥ ق.م) ، ولا عاد الى بلاده ، وقام بوضع التشريع المنسوب اليه (قانون سولون) في عام ٥٩٤ ق.م ، ضمنه الكثير من القواعد التي اقتبسها من «مجموعة بوخورييس القانونية» ، والتي كانت تمثل القانون المصرى وقت ذاك ، هذا فضلا عن أن الرومان عندما سمعوا عن القانون المصرى ، مما رأوه وشاهد به المؤرخ هيرودوت في الاحتفالات الاوليمبية ، قاموا باقتباس الكثير من نصوصه وقواعده وضمنوها أول قانون مدون لهم في عام ٤٥١ ق.م (قانون الالواح الاثنى عشر) ، ومن وقتها ، والرومان يوصون بالاخذ بمبادئ القانون المصرى ،

(١٢) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٥٨٢ ، وكذا A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 340.
J. Yoyotte, in Melanges Maspero, Fasc, 4, P. 120-159, ASAE, 54, P. 153-177.

(١٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٤٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، عبد الرحيم صدقى : القانون الجنائى عند الفراعنة - القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٤ - ٢٥ ، وكذا J. Dagallier, Les institution Judiciaires de l'Egypte ancienne, Paris, 1914, P. 174-175.

مع صبغها بالصبغة الرومانية ، ناهيك أن واضع قانون الاالواح الاثنى عشر ، انما قد ذهبوا الى بلاد اليونان وأطلعوا على قانون سولون الذى نهل من القانون المصرى ، وضمنوا الكثير من قواعد قانونهم الذى وضعوه فور عودتهم الى روما (١٤) .

٢ - الهيئات القضائية :

تعرض بعض الباحثين عن علاقة السلطة القضائية بغيرها من السلطات فى مصر الفرعونية ، فذهب فريق — ومنهم دى بو ، وبوسيه ، ومونتسكيه — الى أن مصر قد أخذت بمبدأ الفصل بين السلطات ، على أن فريقا آخر — ومنهم تونيسين — ذهب الى أن مصر لم تعرف مبدأ الفصل بين السلطات فى تلك الازمنة الممعة فى القدم ، بينما ذهب فريق ثالث — على رأسه رينييه رولان — الى أن نظام الفصل بين السلطات على صعيد المبادئ النظرية لم يعرف فى هذه الفترة التاريخية ، وان كان من المحتمل أنه كان مطبقا على الصعيد العملى ، بمعنى أن السلطة القضائية كانت نظريا فى يد الملك ، ولكنها عمليا انما كانت تفوض من جانبه الى أشخاص آخرين ، فيما عدا الحالات الهامة (١٥) .

وأيا ما كان الامر ، فمن المعروف أن القضاء كان فى مصر منظما تنظيما جيدا ، ورغم أن البعض قد تردد فى امكانية وجود قانون مكتوب منذ تلك العصور المبكرة لعدم العثور عليه حتى الان ، فان البعض انما

(١٤) محمود السقا : معالم تاريخ القانون المصرى من العصر الفرعونى حتى نهاية العصر الرومانى - القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٦ - ٢٧ وأنظر :

E. Revillont, es Origines Egyptiennes du droit Civil Roman, Paris, 1912, P. 21 F.

J. Gaudement, Institutions de L'antiquite, Paris, 1967, P. 384.

(١٥) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٦٦ - ٦٨ ، وكذا

J. Thonissen, Etudes sur L'Orgnaisation

Judiciaire les Lois Penales et la Procedure Criminelle de L'ancienne Egypte, 1868.

يمتقدون أن التشريعات بوجه عام لم تكن مدونة على أساس أنها كانت محفوظة في أذهان القضاة ، أى حكرا عليهم ، وأن هذا الامر ظل ردحا طويلا من الزمن في عصر الفراعين القدمى ، وعلى أى حال ، فمن المعروف أن هناك ما يدل على أن الفراعين انما كانوا يتحرون العدالة ، بل ان العدالة انما كان لها من القوة ، بحيث لا تنافسها قوة أخرى ، ومن ثم فقد جسدها القوم في شكل الهة أسموها «معات» أو «ماعت» بمعنى العدل أو الصدق أو الحق ، وكانوا يمثلونها في هيئة امرأة جالسة أو واقفة على رأسها ريشة نعم ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز الى وظيفته ، ومن ثم فقد حظيت «معات» بتقدير كبير من القوم ، وخاصة في أوساط المثقفين ، ولا غرابة في ذلك ، فالحقيقة هي باستمرار أهم دعامة للكمال الخلقى في عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وأنى أشرب من نداها» *

وكانت «معات» — بمعنى الحق أو العدل أو الصدق أو الاستقامة — انما هى القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار ، نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضروري أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر ، أى ملك مؤله ، ففى المناظر المسطرة على جدران المعابد ، نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم للالهة الاخرين ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بـالنيابة عنهم ، كأنما هناك شىء لا يتغير ، أبدي عالمى ، يحيط بماعت (١٦) *

هذا وتحتوى بعض نصوص الاهرام (١٧) على أدلة قاطعة لا تقبل

(١٦) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الجزء الثانى — ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، وكذا

De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, P. 206 F.

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48.

V. Lons, Egyptian Mythology, 1968, P. 115-116.

(١٧) انظر عن نصوص الاهرام :

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939.

J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912.

الشك ، على أن طلبات العدالة والحق انما كانت قوتها أقوى من سلطان الملك نفسه ، وكان المفراعين يخشون التصدى لالغاء أى قرار قضائى ، بل أنه من الثابت — كما يقرر بلوتارك — أن فراعنة مصر انما كانوا يطلبون من القضاة أن يقسموا أمامهم بألا يطيعونهم ، اذا ما طلب الملوك منهم الاجحاف أو الظلم بأحد من المتقاضين ، ومن الصفحات المشرقة من هذا العهد ، والتي أبهرت رجال تاريخ القانون والمؤرخين ، سواء بسواء ، أن فرعون انما كان يلح فى آداء القاضى لهذه اليمين عند توليه مهام منصبه ، ومن ثم فلم يكن الملك يتدخل بالتوجيه أو الفصل الشخصى فى أى نزاع مهما كان يسيرا ، حتى لا توجد أية شبهة حول تدخله فى توجيه العدالة تجاه الظلم أو الاجحاف بحقوق الغير ، وعلى هذا الاساس فلم يكن فرعون بمستطيع أن يعاقب كما يحلو له ، فهو ملزم باحترام واتباع القوانين المقررة لكل حالة ، صحيح أنه كان يتدخل أحيانا لمصالح المعذبين ، كما ظهر فى أشعار بنتاؤور التى تمجد رعمسيس الثانى ، فضلا عن بعض الدعاوى العمالية ، ولكنه صحيح كذلك أن تدخله هذا لا يجعل منه قاضيا منذ القاضى العادى ، فهو لا يرأس محكمة ، ولا يعد اللجوء اليه درجة من درجات التقاضى (١٨) .

ويذهب ديودور الصقلى الى أن ملوك مصر لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الاخرى ، يعملون ما يشاءون تبعا لأهوائهم ، غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت القوانين للمفراعين حدود تصرفاتهم فى حياتهم الخاصة والعامة بسواء بسواء ، وكانت ساعات الليل والنهار مرتبة بحيث يعمل الملك فى الوقت المحدد ما يفرضه القانون عليه ، وهكذا كان الملوك يلتزمون جادة الصواب والعدالة ازاء رعاياهم ، ومن ثم فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيرا عما يكونه لأهلهم من حب ، حتى أن الكهنة وسكان مصر ما كانوا يولون نساءهم وأولادهم

(١٨) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٧٤ ، وكذا

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 127.

J. Dagallier, Op. Cit., P. 136.

ومقتنياتهم الثمينة ، ما كانوا يولونه من الاهتمام بسلامة فرعون ، ومن ثم فقد احتفظوا رحا طويلا من الزمان بالنظام السياسى الذى وضعه الملوك الاوائل (١٩) .

هذا وقد بلغ من أحترام المصريين للقضاء وحبهم له ، وإيمانهم بعدالته ، أن الوزير الذى كان — بحكم مركزه — الرئيس الأعلى للقضاء ، وكان يتلقب منذ عصر الاسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠ — ٢٤٨٠ ق م) بلقب قضائى يجعله «كبير خمسة دار تحوتى» ، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الى المعبود تحوت (تصوتى) رب العدالة والحساب والكتابة ، ثم تلقب خلال عصر الاسرة الخامسة (٢٤٨٠ — ٢٣٤٠ ق م) بلقب «خادم العدالة» ، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ربة العدالة (٢٠) .

وكان الوزير يضع فى صدر ألقبه الكثيرة لقب «الوزير كبير القضاة» أو «كبير الرؤساء القضائيين» ، كما كان يرأس «محكمة الستة العليا» ، وهى محاكم ذات صبغة معينة ، ربما كانت كمحاكم الاستئناف الان ، وربما كانت هذه المحكمة تنقسم الى ست دوائر ، يرأس كل منها «قاضى فم نخن» (٢١) .

وسرعان ما اكتملت للقضاء تنظيماته ، ففضلا عن لقب القاضى «زاب» أو «ساب» ، وجد أيضا لقب «الكاتب القضائى» (زاب سش) أو (سش ساب) ، وكاتب الشكاوى «سش سبرو» ، وذلك مما يعنى الحرص على تسجيل القضايا ، فضلا عن تقديم الشكايات مكتوبة ، هذا

(١٩) ديودور الصقلى فى مصر — ترجمة وهيب كامل — القاهرة ١٩٤٧ ، فقرات ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ .
(٢٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها — القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٧٣ ، وكذا

A. F. Mariette, Mastabas, P. 228, 407-409.

A. Weil, Die Veziere des Pharaonenreiches, 1908, P. 10-12.

21) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 127, 209-210.

R. O. Faulkner, JEA, 41, 1955, P. 18-20.

وكذا

فضلا عن وظيفة «مدير الادارة القضائية» (زأب ايمى شش) ، وقد كان هؤلاء الموظفون القضائيون هم الذين يعرفون القوانين وطريقة تطبيقها وطريقة متابعة القضايا في المحاكم أو أمام القضاة ، ويستطيعون متابعتها وتنفيذ الاحكام ، ثم تسجيل كل هذا ، ومن هؤلاء الكتبة القضائيين كانت تتكون الادارات القضائية التى تنظم هذه الناحية وظروفها وملازماتها ، هذا ولما كان تنفيذ الاحكام القضائية يحتاج الى بعض رجال الشرطة الذين يمكنهم استعمال القوة في هذا الامر ، فان من بين اختصاصات المشرفين على الادارات القضائية ، كان أيضا الاشراف على بعض تنظيمات الشرطة حتى يضمن تنسيق التعاون بين اصدار الاحكام وتنفيذها ، وذلك مما يتضح من دراسة ألقاب بعض الموظفين في عصر الدولة القديمة (٢٣) .

وكان في عاصمة الدولة ادارة رئيسية للعدالة (حت ورت) ، وتشمل على قلم قضايا للفصل في قضايا العقارات والضرائب ، وتشرف على المحاكم الفرعية في الاقاليم ، وأما محكمة الاقليم أو المحافظة فكانت تتكون من مجموعة من الاشراف يجلسون للحكم كقضاة في المسائل المتصلة بالعقارات والاراضى ، وترتكز الاجراءات القضائية على أساس مكتوب يحوى وثائق لها أصل في السجلات ، ولكن كان يمكن تجنب اللجوء الى هذه المحكمة ، ان نص في العقد ابان كتابته على ذلك ، على أن يفصل في المخاصمات عن طريق لجنة تحكيم من الكهنة الذين يمثلون الوقف ، ويصبح حكمهم نهائيا بمجرد صدوره .

وكان حاكم المقاطعة يحمل لقب «مهورخيت» أى قاضى المدنيين ، ومنذ الاسرة الخامسة أصبح يحمل هذا اللقب كذلك رجال محكمة الستة العليا ، والذين كانوا يباشرون عملهم تحت اشراف الوزير ، الذى كان يحمل لقب «مدير محكمة الستة» أو «مدير كل المحاكمات» ، وكان أعضاء

(٢٢) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - القاهرة ١٩٦٢ ص ١١٦ .

هذه المحكمة يختارون من بين أعضاء «مجلس عشرة الصعيد العظام» :
وقد يحمل بعضهم ألقاباً أخرى مثل «رؤساء الاسرار» أو «رؤساء الكلام
السرى الخاص بمحكمة الستة» ، وأهمهم جميعاً «القاضى فم نخن» .

هذا وقد كان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون يسمون
«خري سثتا» أى القائمون على الاسرار : وهم من طبقتين : مستشارو
التحقيق (من أعضاء مجلس عشرة الصعيد العظام) ، ومستشارو
الجلسات (من أعضاء مجلس الستة - أو من القضاة رؤساء الكتاب) :
كما كان هناك قضاة تحقيق ، وكذا قضاة تحضير الاحكام التى ينطق بها
رئيس الجلسة أو القضاة (٢٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن مصر قد عرفت أنواعاً
مختلفة من القضاء - غير القضاء العادى - وهى ١ - القضاء العسكرى
٢ - القضاء التجارى ٣ - القضاء الأسرى .

١ - القضاء العسكرى :

ويختص بمحاكمة العسكرين - والذين كانوا فى الدولة الحديثة
يشاركون كقضاة فى المحاكمات الرسمية الهامة ، وفى مرسوم نورى الذى
أصدره سيتى الاول لحماية ممتلكات أوزير فى أبيدوس ، نرى بوضوح
كثرة عدد الضباط والمسؤولين العسكرين بالمقارنة بالمسؤولين الآخرين
الذين يخاطبهم المرسوم (٢٤) - ثم أصبح لهم قضاء خاص بهم ، يمثلون
فيه العنصر الغالب ، ان لم يكن كل أعضاء القضاء العسكرى من العسكرين ،
وطبقاً لما جاء فى بردية تورين ، فقد نزلت احدى المحاكم العسكرية
قضية نزاع على ملكية منزل فى طيبة (الاقصر) بين أحد قواد القاعدة

(٢٣) نجيب ميخائيل الحضارة المصرية القديمة ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٢٤) انظر :

F. L. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-195.

J. H. Breasted, ARE, III, P. 84-85.

W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

وكذا

وكذا

العسكرية في «أمبوس» (٢٥) وبعض الحنين ، وقد شكلت المحكمة من محافظ الاقليم رئيسا ، وأحد قواد الحرس الخاص للملك ، وأحد سكان المدينة وبعض العسكريين ، ثم قضت في الدعوى لصالح الرجل المدني ضد القائد العسكري .

٢ - القضاء التجارى :

ظهر القضاء التجارى - كقضاء متخصص مستقل عن القضاء العادى - وذلك للنظر في منازعات اليونانيين الذين يزاولون التجارة مع سكان وادى النيل ، وقد حاول الملك «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ - ٥٢٦ ق م) انعاش التجارة الخارجية ، فأزال أسباب النزاع التجارى بين المصريين والاجانب ، وهكذا فقد قام - ارضاء للتجار المصريين الذين كانوا يبغضون التجار اليونانيين لثرائهم الفاحش - عمل على أن يقتصر نشاط اليونان التجارى على المدينة اليونانية «نفراتيس» (٢٦) ، ولكنه في نفس الوقت سمح لها بأن تكون مدينة يونانية صرفة ، في سكانها

(٢٥) أمبوس : وتسمى في المصرية «نبت» أو «نوبت» ، ربما بمعنى الذهبية لقربها من الصحراء الشرقية حيث مصادر الذهب ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على اطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية (مركز نقادة بمحافظة قنا) ، وقد عرف تاريخ نوبت عن طريق حفائر «بتري» و «كوبيل» فيما بين نقادة والبلابص ، وكانت أول عاصمة للاقليم الخامس باقلايم الصعيد ، ثم تلتها «جسى» (كوسى = قوص الحالية) ثم «جبتو» (قفط الحالية على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) (انظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٢ ، وكذا : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول - ص ٢٦٥ - ٢٦٦

H. Gauthier, Op. Cit, I, P. 56, VI, P. 105.

A. Gardiner, Onom, II, 1947, P. 28.

W. F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas, London, 1896, P. 33.

(٢٦) نفراتيس : وهى مركز تجارى اسمه اليونانيون القادمون من «ميليت» حوالى عام ٦٦٤ ق م ، على مقربة من فرع رشيد ، لم يبق منها الآن الا بضعة أكوام تسمى كوم جعيف والنقراشى وتيبيرة ، بمركز ايتاى البارود بمحافظة البحيرة ، وعلى مبعدة ٨٥ كيلا من الاسكندرية ، وكانت نفراتيس مدينة يونانية صرفة ، وقد أقام اليونانيون فيها معابدهم وأسواقهم ، فسبقت نفراتيس بذلك الاسكندرية (انظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - ص ٦٤٢ ، ٦٤٦) .

ومعابدها وأسواقها ، ثم سرعان ما تمتع أهلها بقضاء تجارى خاص ،
وان ذهب البعض الى أن هذا القضاء سرعان ما أمتد ليشمل الجرائم التى
يرتكبها اليونانيون فى مصر ، وخاصة فى مدينة نقراطيس .

٣ - القضاء المصرى :

عرفت مصر القضاء المتخصص فى منازعات الاسرة ، فضلا عن
الجرائم المرتكبة فى الوسط العائلى ، وكانت أحكام هذا القضاء تسرى
على كل أفراد الاسرة ، فضلا عن العبيد والعاملين فى خدمة الاسرة ، وأما
سرقاات الخدم والعبيد فكان يقضى فيها رب الاسرة (٣٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن القضاء المصرى إنما كان
جدا حريصا على تسجيل القضايا ، فضلا عن تقديم الشكاوى مكتوبة ،
ويبدو أن المتبع فى محاكم تلك العصور أن تقدم اليها الدعاوى مكتوبة
باختصار ، وقد أمتدح «ديودور الصقلى» (٣٨) هذا النظام كثيرا ، ولعل
السبب فى تقديم الدعاوى مكتوبة ، أن المرافعة الشفوية ، فيما يرى
البعض ، إنما كانت ، فى نظر القوم ، أسلوب خداع ، يقوم على حسن
العرض والمهارة التى قد تبعد ذهن القاضى عن حقيقة الامور ، وكانت
المذكورة المكتوبة تمر على القضاة (اذا كانت المحكمة مشكلة من أكثر
من قاض) للمداولة قبل صدور الحكم (٣٩) .

وهناك فى متحف برلين بردية قديمة تحوى حكما صادرا من قاض
لمدع كان يطالب بحقه فى ميراث ، وتعتبر هذه البردية أقدم بردية من
نوعها ، ودلتنا الاثار على قضايا خاصة كان الحكم فيها الوزير نفسه ،
وأحد القضاة المنتمين الى مدينة «نخن» (البصيلية) .

وهكذا يبدو واضحا أن ادارة العدل فى مصر كانت منظمة تنظيميا

(٢٧) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ .
28) Diodorus, I, 75-76.

(٢٩) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٥٩ .

حسنا ، وكانت تقوم بدورها في نشر العدل في الدولة ، وكان للقضاة — كما أشرنا من قبل — ربة حامية هي «ماعت» ، ربة الحق والعدل والصدق ، وكان جميع القضاة من ذوى المناصب الرفيعة يخدمونها ككهنة ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه المسبودة يرمز الى وظيفته (٣٠) ، وغلاصة القول أن العدالة انما كانت مطلب فرعون ورجال حكومته المركزية والمحلية ، وأنه كان يميل جاهدا على نشرها بين رعاياه .

وفي عهد الدولة الوسطى — كما في عهد الدولة القديمة — كان يشرف على تطبيق العدالة رجال الادارة (حكام الاقاليم) والذين كانوا يحملون لقب «القاضى» ، وحاكم الاقليم (زاب عذج مر) ، وقد كتب أحد موظفى المالية الكبار مفتخرا «كنت أعرف القانون جيدا ، وأطبقه بكل حزم وحرص» ، وقد سجل رجلان من كبار القوم في عهد «سنوسرت الاول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) من الاسرة الثانية عشرة ، في ترجمة حياتهما أنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتيهما بالعدل ، وبدون أية محاباة ، وأنهما لم يفكرا أبدا في أخذ مكافأة (ربما المراد رشوة) من أحد (٣١) .

وكانت هناك ست مصاكم كبيرة تدعى «الببوت الكبيرة» ، وتعتقد جلساتها تحت اشراف الوزير ، وهناك كذلك محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف باسم «بيت الثلاثين» وتعتقد برياسة الوزير كذلك ، وإن كنا لا نزال نجهل علاقتها «بالببوت الكبيرة» ، وتدلنا الاثار على وجود أكثر من محكمة في الصعيد تتكون كل منها من عشرة قضاة ، وتعرف باسم «قضاة الصعيد العشرة» يعينون بأمر ملكي للفصل في قضايا الاحصاء والضرائب ، وإن كنا كذلك نجهل علاقتها بالقضاء الادارى .

30) M. A. Murray, Op. Cit., Pl. 28.

(٣١) انظر

F. L. Griffith Proceedings of The Society of The Billical Archaeology XVIII, 1896, P. 195 F, Plate, II, 15-16.

B. Gunn, JEA, 12, 1926, P. 282, AZ, 63, , 1928, P. 76-78.

وانظر : جيمس هنرى برستد : فجر الضمير — القاهرة ١٩٥٦ ص ١٧٣ .

هذا وكان المصريون القدامى يحسون — بفطنتهم وذكايتهم — أن العدالة أساس ازدهار المجتمع ، وأن عدم سلامة جهاز القضاء أو انحراجه يهدد أمن المجتمع ، خاصة إذا تفشت فيه الرشوة ، ذلك لأن المعبث بميزان العدالة إنما يؤدي إلى ادانة البريء ، وتبرئة المذنب ، ومن ثم فالثابت أن لقب « قاضى » ما كان يعطى إلا لمن ينتمى إلى أسرة كبيرة عريقة ، على شريطة أن يكون على معرفة جيدة بالقانون ، وأن تكون له خبرة عملية بالوظائف القضائية ، وهذا يحى أن تدخل السلطة الحاكمة فى مصر فى اختيار القضاة إنما كان جدا محدودا ، كما كان مقصورا على اختيار القضاة من أكفأ العناصر ، وأكثرها هبة ، إذا تساوت الكفاءات والمكانة الاجتماعية ، هذا فضلا عن أن طريقة الانتخاب — كأسلوب لتعيين القضاة فى مصر — لم تكن معروفة لدى « القوم » ، ان لم تكن مرفوضة من أساسها .

وعلى أية حال ، فلقد كانت العدالة فى مصر الفرعونية حقا ثابتا على الدولة أن توفره للناس وجونما أية التزامات مادية من جانبهم ، فهو واجب الدولة نحو المواطنين ، أن لم يكن أهم واجباتها ، ولهذا فقد كان القضاة يأخذون أجورهم من الدولة ، بل انه من الثابت تاريخيا أن رئيس المحكمة إنما كان يتقاضى مرتبا ضخما ضمنا لنزاهته ، الامر الذى يدل على رغبة الدولة فى وضع الحوافز المادية للقضاة كنوع من التقدير الادبى لعملهم الهام والخطير كذلك ، فضلا عن تحقيق العدالة ، وجعلها فى متناول المواطنين جميعا (٣٢) .

هذا ومن المؤكد أن قانون تلك العصور الغابرة إنما كان فى غاية الاحكام والوضوح ، وان كنا لم نعثر على نسخة كاملة منه حتى الان ، ومما يثبت دعوانا هذه ، ذلك العقد الذى أبرمه أمير أسيوط بين ذاته باعتباره حاكما للاقليم ، وبين ذاته باعتباره الرئيس الدينى الاكبر لمعبد

(٣٢) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٨ .

مدينته ، ولاشك أن كل هذه الدقة تثبت منتهى الحرص والحذر في تنفيذ القانون ، وصيانة الحقوق المعهود بها الى هذا الشخص (٣٣) .

٣ - القانون الجنائي :

لعل من الاهمية بمكان - وقبل أن نتحدث عن القانون الجنائي في مصر الفرعونية - أن نشير ، بادىء ذى بدء ، الى أن القانون المصرى القديم انما قد أستمد وجوده من أرض مصرية خالصة ، فجاء قانونا متجاوبا تماما مع المجتمع الذى نبتت فيه بذوره ، وأينعت على أرضه ثماره ، وإذا ما أردنا أن نتعرف كينونة هذا القانون رأينا فى مجمله ، قانونا متطورا ، سبق فى مفهومه كثيرا من القوانين التى عاصرتة فى المجتمعات القديمة ، ولم يقف هذا القانون فى أية مرحلة من مراحل تطوره عند حد الجمود ، بل أخذ من المجتمع وأعطاه ، وهذا يمثل قمة المفهوم الناطق بالنسبة للقوانين المتطورة .

هذا ورغم أن المصريين انما كانوا أكثر الشعوب القديمة تمسكا بأهذاب الدين ، غير أن القانون الفرعونى لم يصطبغ البتة بالصبغة الدينية ، وان كان الباحث يحس عند تحليل قواعده أنه قانون أسس على الفضيلة الدينية ، فلقد كانت الاخلاق هى الطابع الغالب للقانون الفرعونى ، وكانت العدالة سمة من سماته ، وهدف من أهدافه ، ومن ثم فان القانون الفرعونى انما يعتبر بحق أعظم ترجمة لمفهوم القانون الحقيقى بأنه «فن الخير والعدل» ، فهو قانون قائم على اللازمة الاخلاقية ، فيه روح العدالة ، وفيه التعايش الكامل مع أحداث المجتمع المصرى القديم الذى عاشه عبر قرونه التى كونت عمره التاريخى (٣٢٠٠ - ٣٣٣ ق م) (٣٤) .

33) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 164-65.

(٣٤) محمود السقا : المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ ، ببيرمونتيه : الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة ص ٦٢ (مترجم) وكذا J. Pirenne, la religion et la Morale dans L'Egypte dantique, Paris, 1965, P. 39 F.

وقد ظل هذا القانون الفرعوني يطبق على المصريين في أيام البطالة (٣٣٢ - ٣١ ق م) ، بل ان هناك من يذهب الى أن البطالة أنفسهم قد تولوا تقنين القانون المصرى في حالته التى أستقر عليها بعد عهد الملك «بوخوريس» من الاسرة الرابعة والعشرين ، وأطلق عليه «القانون الوطنى المصرى» (Khoras Nomos) ، وحدث نفس الامر في ظل حكم الرومان، حيث قنن القانون المصرى تحت اسم (Aegyption Nomos) (٢٥) .

ويذهب الدكتور السقا الى أن القانون الرومانى في مسيرته الاولى، وابن مرحلة نظامه وتكوين قواعده ، انما قد عرف القانون المصرى وأخذ عنه ، بل وأوصى فقهاء الرومان باعتماد مبادئه ، ثم جاءت المرحلة التالية عندما أصبحت مصر ولاية رومانية ، وطبقا لفكرة تلاقى القانون الرومانى والمصرى ، وما تم من أثر متبادل بين القانونين ، فاننا نقرر أن القانون الرومانى الذى قنن في عهد «جستنيان» (٥٢٧ - ٥٦٥ م) تأثر بكثير من أحكام القانون المصرى .

ثم ينتهى الدكتور السقا الى أن مجموعات جستنيان انما تعتبر مصدرا رئيسيا من مصادر القانون الفرنسى الذى نقل عنه المشرع المصرى خلال القرن التاسع عشر الميلادى ، مبادئه وقواعده القانونية ، ابان تلك الفترة التى بنى فيها الحكام المصريون تلك القنطرة التى وصلت ما بين مصر والحضارة الغربية ، وفرنسا بصفة خاصة ، ومن ثم فلا مناص من أن نقرر الآن بوجود ذلك الخيط الممتد من القانون المصرى الفرعوني عابرا الزمن مؤثرا ومتأثرا بالقانون الرومانى الذى قدم الاساس القانونى للقانون الفرنسى ، الذى أمد بدوره القانون المصرى الحديث بمبادئه وقواعده القانونية ، وهكذا التقت رواند القانون المصرى الفرعونى في مصب واحد في العصر الرومانى مع القانون الرومانى ، ومن هذا المصب الجديد كان المجرى طبيعيا مع تيار القانون الفرنسى ، ليصب مباشرة موادا في التشريع المصرى الحديث (٢٦) .

(٢٥) محمود السقا : المرجع السابق ص ١٩
(٢٦) محمود السقا : المرجع السابق ص ٢٧ .

وعسودا على بدء ، الى القانون الجنائي الفرعونى ، حيث نرى «ديودور الصقلى» (حوالى ٨٠ — ٣٠ ق.م) يسجل لنا بعضا من نصوص القانون الجنائي المصرى القديم ، ومنها : الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، وعلى من يمتنع عن تقديم العون لمن يتعرض للموت ، وهو قادر على انقاذه ، ربما لان القوم رأوا فى موقفه السلبي نوعا من الاشتراك فى القتل ، أما اذا لم يستطع المساعدة ، فعليه أن يسارع بالتبليغ عن المعتدى ، وأن يقدم المعلومات التى لمسها بنفسه ، وفى هذه الحالة فإن الدعوى الجنائية ترفع بناء على تبليغ الشاهد ، بل وتسمى المحاكمة باسمه الخاص ، واذا ما قصر الشخص فى واجب التبليغ عما شاهده من جرائم بوجه عام ، تعرض لمقاب بدنى ونفسى يتمثل فى الجلد بعدد معين من الجلدات التى كان يعنى المشرع بتحديددها ، فضلا عن تركه بدون غذاء لمدة ثلاثة أيام (٣٧) .

هذا ويحكم بالاعدام أيضا على من يزور فى البيان الذى يقدمه للسلطات الحكومية عن مصر دخله ، أو أن يكون دخله من مصدر حرام (٣٨) ، وعلى من يقتل انسانا حرا كان أم عبدا ، فضلا عن جرائم الرشوة والاختلاس ، ويذهب «رولان» الى أنه فى وسط دينى — كمصر الفرعونية — لم يكن غريبا أن يعاقب بالاعدام قاتل الحيوانات المقدسة ، كما يعاقب بالاعدام على السحر — رغم بلوغ المصريين فيه شأوا بعيدا ،

37) Diodore de Sicile-Histoire Universelle-Traduite en Français Par M. L'Abbe Terrasson de L'Academie française, Paris, P. 164 F.

(٣٨) يذهب « داجالير » الى أنه كان هناك اقرار ذمة يقدم كل خمس سنوات ، ولكن الكذب فيه لا يستوجب الحكم بالاعدام (J. Dagallier, Op. Cit., P. 177) ، هذا ولدينا من عهد « سنوvert الثانى » (١٨٩٧ — ١٨٧٧ ق.م) من الاسرة الثانية عشرة برديات تتحدث عن التركات واحصاء السكان ، وفى احدى الحالات : نرى من بين ما تركه الرجل زوجة وأربعة من العامو ، وبضعة عبيد أسويين ، وكانت مثل هذه الوثائق تتطلب شهودا من الناحية الرسمية ، وتودع فى مكتب السجلات الحكومية ، وفى عملية احصاء السكان كان يتطلب الامر أن يذهب رب الاسرة الى مكتب حكومى ، يتبع ديوان الوزير فى منطقته ، ويدلى ببياناته عن أسرته ثم يقدم شهودا على صحة بياناته (انظر : محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٣٦٢) .

حتى كانت معجزة موسى عليه السلام من نوع السحر الذى برع فيه المصريون^(٣٩) — الذى يستغل لضرر الناس ، كتعجيز بعضهم فى قدرتهم الجنسية ، كما كان الحرق بالنار عقاب الزانية والماهرة التى تنتمى الى الطبقات الاولى فى المجتمع ، ثم أصبح بعد ذلك عقابها جدد الانف^(٤٠) .

وكان الحنث باليمين يعاقب عليه بالاعدام ، وكانت العقوبة لايجوز التسامح فيها أو العفو عنها ، ولعل الحكمة من تقرير هذه العقوبة عند القوم انما تتمثل فى أن هذه الجريمة كانت تعتبر اعتداء على مصلحتين هامتين فى المجتمع ، أولهما : الاحترام الواجب للالهة ، وثانيهما : احترام العقيدة ، والموضح من هذا العقاب أن المجتمع المصرى القديم انما قد لجأ الى القانون لحماية الاخلاق والدين — فضلا عن الضمير — من الانحراف ، وأنه قد وجد فى تخطيط العقوبة الوسيلة المثلى لتحقيق المجتمع المثالى ، كما أن العقاب لم يكن ليتغير ، اذا وقع اليمين بحياة الملك ، أو على قبر «أوزير» ، وكان الحلف على قبر هذا المعبود من أنواع الحلف المقدسة الشائعة عند القوم^(٤١) .

هذا ويسجل لنا «ديودور الصقلي» نصوصا أخرى من القانون الجنائى المصرى — غير القتل — منها الحكم بالجلد بالسياط ، والحرمان من الطعام ثلاثة أيام على من يهمل فى الابلاغ عن جريمة قتل — كما أشرنا من قبل — والحكم بنفس العقوبة على من يتهم بريثا بجريمة لم يرتكبها ، والحكم على الالباء والامهات الذين يقتلون أبناءهم ، بعرضهم على ملا من الناس ، وقد حملوا جثث أبناءهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواليات ، أما قتل الوالدين — أحدهما أو كليهما — فعقابه قطع أجزاء

(٣٩) أنظر (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء الثانى — فى مصر — بيروت ١٩٨٨ ص ١٨٩ — ٢١٣) .

(٤٠) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٣١ .

(٤١) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٢٧ — ٣٨ ، وكذا Diodore de Sicile, Op. Cit., P. 164.

وكذا De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, P. 271 F.

صغيرة من جثة القاتل بالتدريج ، ثم حرقه حيا فوق الاشواك (٤٢) ، وكانت الحوامل يؤجل تنفيذ حكم الاعدام فيهن حتى يضعن حملهن ، ولعل من الجدير بالذكر أن اليونانيين قد اقتبسوا هذا الحكم من التشريع المصري الفرعوني ، وأما سبب تأجيل عقوبة الاعدام على المرأة الحبلى ، فلأن عقابها انما يعنى عقاب شخصين عن جريمة ارتكبتها أحدهما ، وهذا ما يتعارض مع العدالة ، ثم ان العقاب لا يصح أن يشمل الجنين الذى لم يرتكب أى ذنب ، وأخيرا فان تنفيذ عقوبة الاعدام على الحامل انما يعنى حرمان الاب من ابن ينتمى اليه ، كما ينتمى الى أمه المذنبه ، وهذا ما يخالف قواعد العدالة (٤٣) .

وأما عقوبة الزنا بغير اكراه ، فكانت ألف جلدة للزانى ، وجدة أنف الزوجة ، حتى تحرم تلك المرأة التى تزين المعصية للناس من أكبر مقومات الجمال ، فضلا عن أن تكون عبرة وعظة لغيرها ، وان ذهب «ميخائيل سليمان» الى أن عقوبة الزنا انما كانت الاعدام ، حتى وان كانت ما تزال فى مرحلة الشروع ، كما أنها كانت تتطلب شاهدين ، وان لم تبين النصوص جنسهما ، كشرط أساسى لتطبيق عقوبة الاعدام (٤٤) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الزنا فى مصر الفرعونية خطيئة كبرى ،

(٤٢) كان الأساس فى عدم اقرار عقوبة الاعدام على الآباء والامهات الذين يقتلون أبناءهم انهم سبب وجودهم ، ومع ذلك فقد عمل الفراعين على عدم انتشار هذا النوع من القتل ، فوضعوا عقابا تهديديا مشينا ، هو ربط القاتل بالفتول ، وهناك ما يدل تاريخيا على تطبيق هذه العقوبة (انظر :)

J. Dagallier, Op. Cit., P. 184.

وكذا

Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formatio des societes Jusqu'a L'établissement du Christionisme, Paris, 1845, P. 19.

(٤٣) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٣٩ وكذا

Diodore de Sicile, Op. Cit., P. 166.

44) M. Soliman, la repression de L'adultere en Egypte, These, 1925, P. 14, 25.

ومن ثم فقد كان الرجل ، دائماً وأبداً ، يقر على نفسه في وصيته أنه لم يرتكب في حياته هذا الفعل القبيح ، بل ان القوم انما كانوا يخفرون عن خطيئتهم حينما يرتكبون فعل الزنا بالاعدام ، بل ان الشروع في الزنا — كما أشرنا من قبل ، انما كان يواجه بنفس العقوبة — كما جاء في بردية لييد (Papyrus moral de Leyde - Colonne 8) ^(٤٥) ، بل ان القوم — حتى في أساطيرهم — انما كانوا يشيرون بوضوح الى عقوبة الاعدام كجزاء لزنا المرأة ^(٤٦) .

هذا وتقدم لنا الآثار والوثائق التاريخية ثلاثة وقائع تاريخية محددة تشير الى عقوبة الاعدام على الزناة ، بل انها تقرر كذلك اقرار الفكر والقانون المصري لعذر الغضب (عذر الاستفزاز) . أى أنهما يقران عدم عقاب الزوج المخدوع اذا قتل زوجته ^(٤٧) ، وفى «قصة الأخوين» نرى «انبو» (أنوبيس) يقتل زوجته الداعرة — والتي حاولت اغواء أخى انبو على فعل الفاحشة معها ، ولكنه استعصم — ثم رمى بها الى الكلاب ^(٤٨) ، وفى قصة الكاهن «أوبا أونر» أمر الملك التمساح (وكان الكاهن قد صنعه من شمع ثم قرأ عليه عزائم السحر) بأن يفك بالفتى الزانى جزاء جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق ، وذر رمادها

45) J. Dagallier, Op. Cit., P. 177-178.

M. Soliman, Op. Cit., P. 178.

وكذا

46) Kornfeld, L'adultere dans L'Orient, in Rev. Biblique, 57, 1950, P. 106.

(٤٧) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٤٩ وكذا

Kornfeld, Op. Cit., P. 106.

(٤٨) انظر عن القصة : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية —

الاداب والعلوم ص ٧٣ — ٧٤ .

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 137-158.

وكذا

J. Wilson, ANET, 1966, P. 23-26.

وكذا

E. Brunner-Traut, Op. Cit., P. 28-40.

وكذا

A. Erman, LAE, 1927, P. 150-161.

وكذا

E. F. Wente, Op. Cit., P. 92-107.

J. Yoyotte, RDE, 9, 1952, P. 157-159.

J. Vandier, Op. Cit., P. 45-46, 105, 106.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 203-211.

وكذا

في النهر ، ولعل ذلك انما كان جزاء الزانية والزاني عند القوم ، القتل غرقا أو حرقا^(٤٩) ، وأخيرا قصة «بيتان» والذي رفع دعوى ضد زوجته الزانية أمام محاكم فرعون ، وتأكيده «حاتحور» بان الزانية قد لقيت عقاب الاعدام ، تقطيعا بالسكين .

وأما قتل الزوج المخدوع لزوجته الزانية ، حال تلبسها بالفعل الاجرامي الدنيء ، فقد كان يعد بمثابة تنفيذ شرعي لعقوبة الاعدام على الزوجة الزانية^(٥٠) .

ومن عجب أن يزعم «ديودور الصقلي» أن السرقة كانت حرفة عند أفراد من القوم ، وإن يوافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين^(٥١) ، غير أن «كابر»^(٥٢) قد انتقد أخبار ديودور ، كما جاءت في وثيقة بمتحف موسكو ، وكذلك فعل «تونيسين»^(٥٣) ، على أساس معارضة هذا الاتجاه للروح الدينية السائدة عند القوم .

وذهب «دي جاردان» الى أن أخبار «ديودور الصقلي» يجب أن لا تؤخذ على عمومها ، وإن أخباره المتعلقة بحرفة السرقة لم تكن موجودة إلا في خارج المدن ، أي في الصحراء خارج نطاق السلطة ، وبعيدا عن قبض فرعون ، وأما «دي بو» فيذهب الى أن ديودور الصقلي انما

(٤٩) انظر القصة : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٢٠

١٢٦ -

E. Brunner - Traut, Op. Cit., P. 11-24.

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 15-30.

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 215-222.

A. Erman, Op. Cit., P. 36-47.

G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

50) Kornfeld, Op. Cit., P. 108.

51) J. Dagallier, Les institution Judiciaires de L'Egypte ancienne, Paris, 1914, P. 182.

52) J. Capart, Esquisse d'une histoire du droit Penal egyptien extrait de la Revue de L'universite de Bruxelles, V, 1899-1900, P. 15.

53) J. J. Thonissen, Etude sur L'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmanique, Egypte, Jure, I, Paris, 1869.

يعنى «قطاع الطرق» من عصابات البغو الهمجية ، ومن ثم فلا ينطبق قوله على اللصوص^(٥٤) ، والامر كذلك عند «أرك بييت» حيث يذهب الى أن «داجالير» عندما تعرض لموضوع السرقة عند قدماء المصريين أقر صراحة بأن سرقة المقابر كانت جريمة معاقب عليها جنائيا بشدة ، وأن هذا التأييد كان يستوجب بالتبعية القول بأن السرقة من أماكن أخرى — غير المقابر — انما كان جريمة يعاقب عليها أيضا عقابا صارما فليس هناك من فرق بين طبيعة السرقة ، اذا ما تمت في المقابر ، أو في غير المقابر ، وان كانت الاولى أشد نكرا^(٥٥) .

ومن ثم فقد ذهب علماء التاريخ والقانون المصرى القديم الى أن السرقة انما كانت جريمة جنائية عامة تمس المجتمع كله ، وليس الضحية فحسب ، بل أن قانون الملك حور محب انما يجعل عقابها ألف جلدة ، وفي بعض الحالات كانت تصل العقوبة الى الحبس أو الاعدام بالخازوق ، كما بين أن السارق كان يوصم بعلامات ظاهرة في خمسة أوضاع مختلفة من جسمه^(٥٦) .

وهكذا يذهب «دى بويه» الى أن عقاب جريمة السرقة انما كان جدد الانف^(٥٧) ، بينما يذهب «بيدل» الى أن عقاب جريمة السرقة انما كان الاعدام ، وان رأى أن فرعون كان يملك اصدار القرار الاخير حيال السارق ، وأن المصريين القدامى انما كانوا يأخذون بمبدأ المساواة

54) A. De Pauw, Recherches Philosophiques sur les egyptiens, II, P. 366.

55) E. Peet, The Great Tomb - robberies of The Twentieth Egyptians Dynasty, Oxford 1930, P. 18.

(٥٦) باهور لبیب : من التاريخ القانونى — القانون العقابى الفرعونى ص ١٣٧ — ١٤٧ وكذا

Broal, Le Crime et la Peine, Paris, 1899, P. 40.

B. Baldwin, Crim and Criminals in Graeco-Roman-Egypt, P. 256, 263.

57) A. Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes jusqu'a L'etablissement du Christianisme, Paris, 1845, P. 20.

فى العقاب ، أى أن عقاب السرقة إنما كان يوقع على الرجل والمرأة سواء بسواء^(٥٨) ، على أن «تونيسين» إنما يذهب الى أن عقاب جريمة السرقة إنما كان الجلد ، وإن اتفقوا جميعا على أن جريمة السرقة إنما أصبح عقابها ماليا فى أخريات العصور الفرعونية^(٥٩) .

وعلى أية حال ، فلقد سجل ديودور الصقلى أيضا عقوبة الحكم بقطع اليدين على كل من يطفف فى الكيل والميزان أو يزيف الاختتام أو النقود أو يغش فى المعاملة ، وكذا الكاتب العمومى الذى يغير فى نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، والحكم على من يفتصب امرأة بالخصى حتى يحرم من رجولته التى دفعته الى هذا العمل الشائن .

٤ - نماذج من القضايا الجنائية :

هناك الكثير من القضايا الجنائية التى تثبت مدى حرص الفراعين على العدالة ، واعطاء كل ذى حق حقه ، فضلا عن إتاحة الفرصة للمتهم فى أن يثبت براءته - أن كلن حقا بريئا - ولنقدم هنا مثالين من هذه القضايا :

١ - قضية الملكة ايمتس :

كانت الملكة «ايمتس» زوج الملك «ببى الاول» من الاسرة السادسة (٢٤٨٠ - ٢٣٤٠ ق.م) قد اتهمت بالاشتراك فى مؤامرة لا نعرفها على وجه اليقين ، فقد تكون ضد العرش ، أو ضد صاحب العرش ، وقد تكون غير ذلك . وفى هذه القضية لا يحكم الملك على الملكة بما يريد ، وإنما يعهد بذلك الى هيئة قضائية ، تكونت من صفيه «ونى» ، ومعه القاضى «حارس نخن» ، بغية أن يعرفوا وجه الحق فى هذه القضية ، فضلا عن أن يتحققوا ان كانت الملكة مذنبه ، أم هى براء مما نسب اليها؟ وفى الواقع فإن هذه القضية إنما تعكس الى حد كبير روح العدالة

58) E. D. Bedell, Criminal Law in The egyptien Ramesside Period, michigan, 1973, P. 147-148.

59) Bluche, La Peine de mort dans L'Egypte, Rev. Tnt. desdr. de L'astique, 22, 1975, P. 144 - 168.

وانظر : عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤٤ .

عند الفراعين ، فان موضوع القضية لابد وأن يكون أمرا خطيرا ، والا لما تكونت هذه المحكمة من «لوني» و «حارس نخن» ، اذ لو كانت أمرا سهلا لما استدعيت كل تلك الاجراءات ، فلذا كان ذلك كذلك ، وكانت التهمة الموجهة ضد الملكة أحد الفرضين السابقين — ضد العرش أو ضد صاحب العرش — فلما أن نتصور مدى حرص الفرعون على أن لا يدين المتهمة ، قبل أن يعقد لها محكمة تحقق فيما نسب اليها ، وتمطى الفرصة لثبوت براءتها ، ان كانت بريئة ، وتتل العقاب ، ان كانت مذنبه ، وان كنا لا نعرف نتيجة المحاكمة^(٦٠) .

٢ - مؤامرة الحريم ضد رمسيس الثالث :

يقدم لنا تاريخ الرعامسة قضية جنائية عرفت بين المؤرخين باسم «مؤامرة الحريم» ، وقد حفظت لنا أحداث هذه المؤامرة في عدة برديات: بردية تورين القضائية ، وبرديتي رولين ولى ، ولعل الاولى أهمها وهي محفوظة في متحف تورين ، ومكتوبة بحروف هيراطيقية كبيرة ، تتفق ووثيقة من وثائق الدولة الخطيرة ، ويرجح «جاردنر» أنها كانت مودعة في مكتبة المعبد بمدينة هابو في طيبة الغربية (الاقصر غرب)^(٦١) .

(٦٠) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ٥٢ - ٥٣ ، وكذا

H. Goedick, JAOS, 1954, P. 88-89.

J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 294-307 F.

(٦١) أنظر عن مؤامرة الحريم : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث ص ٢٩٠ - ٣٠٦

A. de Buck, The Judicial Papyrus of Turin, in JEA, 23, 1937, P. 152-164.

H. Goedick, Was Magic used in Harem Conspiracy against Ramesses, III, in JEA, 49, 1963, P. 175-91.

R. O. Faulkner, in CAH, II, Part, 2 B, Cambridge, 1980, P. 246-247.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 289-291.

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 267-269.

J. Wilson, ANET, 1966, P. 214-216.

J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 416-453.

JEA, 42, 1965, P. 8-9.

BIFAO, L, P. 107 F.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الملكة «تى» — زوج الفرعون رمسيس الثالث — بدأت تحس أن الفرعون بدأ ينصرف عنها الى غيرها من نسائه ، وأنه ربما كان راغبا أيضا في اقضاء ولدها «بنتاؤر» عن عرش الكنانة ، ومن ثم فقد أخذت تسعى — بعون من موظفى الحريم الملكى — الى قتل الفرعون ، ويبدو أن هناك من كانت له مصلحة في ذلك أيضا ، ومن ثم فقد تم توقيف المؤامرة مع وصول سفينة آمون الى البر الغربى في عيد الوادى ، ليضيف بذلك سببا آخر لاهداف المؤامرة ، ذلك لان الفرعون كان في هذا اليوم الهام من الناحية الدينية — كبداية لعيد الوادى — انما كان يتمتع نفسه مع حريمه الخاص ، بدلا من الاشتراك في الاحتفالات الدينية التى ربما كان ينظر اليها نظرة تختلف عن مكانتها عند القوم ، فان صح ذلك ، فربما كان هذا العمل من جانب الفرعون يعكس وجهة نظره نحو «آمون» بطريقة تختلف تماما عن الصورة التى قدمتها لنا بردية هاريس^(٦٢) ، والتى كتبت بعد وفاته ، وربما كانت هناك محاولة للتقليل من شأن آمون ، مما يفسر اغتيال الفرعون بسبب الغضب للاساءة الى المعبود «آمون» .

ومن ثم فلم يكن الاهتمام بأمر الامير «بنتاؤر» هو الدافع الوحيد — بل وحتى لم يكن الرئيسى — لجميع المشتركين في المؤامرة ، ورغم أن واحدا من كهان آمون لم يشترك في المؤامرة ، فقد كان لدى كهانة آمون استياء من حكام الدلتا (وقد نقلت العاصمة من طيبة الى بى — رمسيس = قنتر) ، كما أن هذا الانقلاب المفاجئ قد أعد بحيث يتفق مع عيد آمون في الضفة الغربية ، وهى المناسبة التى يجتمع فيها أنصار آمون الذين يكونون سندا قويا في الهجوم على الملك ، هذا فضلا

(٦٢) انظر عن بردية هاريس (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٣١ — ٤٣٧)
 سليم حسن : مصر القديمة — الجزء السابع ص ٣٣٧ — ٤٩٣ ،
 J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 101-412, P. 79-235.
 W. Erichsen, Papyrus Harris, I, Bibliotheca Aegyptiaca, V, 1933.
 H. D. Schaedel, Die Listen des grossen Papyrus Harris, Leipzig, 1936.

عن أن الذين سوف يحضرون من طيبة الشرقية لا يثيرون أية ريبة ، كما أن واحدا من القوم لن يستطيع أن يعترض الشعور الدينى .

ومن ثم غربما كان كهان آمون قد اشتركوا فى المؤامرة ، روحيا وماديا ، قاصدين من وراء ذلك قهر ملك الدلتا ، وهو الهدف الذى حققه «حريحور» بعد ذلك فى أخريات أيام الاسرة العشرين^(٦٣) ، وهناك ما يشير الى توتر فى العلاقات بين البيت الملك وكهانة آمون ، وآية ذلك أن كاهن آمون الاول لم يشهد نهاية حكم رعمسيس الثالث (ربما وفاته) ، بل لم يشهد ذلك أحد من أصغر الرتب الكهنوتية ، كما أن الهبات الكثيرة التى خصصت لآمون فى بردية هاريس ، فضلا عن صلات الملك ، لا تشير الى تناسق بينهما^(٦٤) .

وهكذا كانت مؤامرة الحريم هذه ، تهدف الى القضاء على رعمسيس الثالث ، وقولية ولده «بنتاؤور» من الملكة «تى» عرش الكنانة مكانه ، وربما استغل كهان آمون الفرصة ، وانضموا الى المؤامرة بطريقة ما ، ليثأروا من ملوك الدلتا الذين نقلوا عرشهم الى هناك ، فى «بى رعمسيس» (قنتير - بمركز الحسينية بمحافظة الشرقية) ، بعيدا عن مركز آمون فى طيبة ، كما أنهم رفعوا من شأن الههم المطقى «ست» ، فضلا عن شأن الالهة الكبرى الاخرى ، حتى غدا آمون ، ليس الاله

(٦٣) تميل الدراسات الحديثة الى أن «حريحور» انما كان يعتمد على القوة الحربية ، أكثر من اعتماده على القوة الكهنوتية ، بل أن هناك من يذهب الى أن هناك انقلابا عسكريا قد حدث لنزع السلطة من يد العصابة الحاكمة ، ولم يكن تولى «حريحور» - الدكتاتور العسكرى الجديد - للموظيفة الكهنوتية ، سوى وسيلة لجمع أعنة السلطة كلها بين يديه ، لانه كان ضابطا فى الجيش ، ولم يكن أبدا كاهنا ، وأنه حين تولى العرش - فيما يرى ويلسون - سلم الوزارة ووظيفة كبير الكهنة الى ابنه ، ولكنه كان أكثر حذرا من أن يسلم اليه قيادة الجيش ، الذى تعتمد عليه الدولة فى فرض سلطتها وحفظ النظام (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، وكذا

W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 153.

64) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84-91.

الوحيد ، وانما الاول بين أقرانه فحسب ، ومع ذلك فان أمر اشتراك كهانة أمون في المؤامرة ، ما يزال يحتاج الى أدلة أكثر — أثرية ووثائقية — تؤكدده ، نظرا لما قدمه رعمسيس الثالث من ثروات ضخمة لكهانة أمون ومعابده .

وأيا ما كان الامر ، فان الملكة «نتي» وأنصارها ، انما قد استطاعوا أن يخططوا لمؤامرتهم بدقة ، وأن يعدوا لها كل سبل النجاح ، حتى أننا لأزلنا نجهل السبب الحقيقي في فشلها ، رغم ما أعد لها من مقومات النجاح ، فهناك التوقيت المناسب أثناء الاحتفال بعيد الوادي (حيث يزور الاله أمون الوادي في طيبة الغربية) ، وهناك جمع الانصار في داخل الحريم الملكي وخارجه ، وهناك استمالة العمل بدفع أجورهم قبيل تنفيذ المؤامرة ، وهناك السحر الذي رأوا فيه وسيلة لضعاف قوى من ينتظر أن يتصدوا لهم ، بل ان هناك استغلال بعض القوات العسكرية في انجاح المؤامرة ، حيث اتفق المتآمرون مع قائد الجيش في النوبة ، على أن تقوم الفرقة العسكرية هناك بشق عصا الطاعة ضد الملك ، والقيام بالهجوم على مصر نفسها .

وكانت خطة المتآمرين أن تتم جريمتهم أثناء الاحتفالات بعيد الوادي ، ففي هذا اليوم تتحرك سفينة أمون نحو الغرب — عبر النهر — الى مبد مدينة هابو ، حيث تبدأ الاحتفالات بعيد الوادي في الشهر الثاني من فصل الصيف ، ولادة يومين ، وهكذا كان اختيار هذه المناسبة الدينية الهامة لتنفيذ المؤامرة اختيارا موفقا ، ذلك لان المهرج يسود المنطقة «بسبب عيد وصول الاله ، وهيجان الناس» ، مما يقلل قدرة الحرس على ضبط الامن ، وبمعنى آخر ، فان الشعور الديني يستيقظ في الناس فجأة عند وصول سفينة أمون المقدسة ، حتى ليكاد أن يصبح من المستحيل السيطرة على الامور .

هذا فضلا عن أننا اذا ما قبلنا تفسير «جدكة» لعبارة « هييجان الناس » ، على أن كلمة «رمت» (Rmt) بمعنى «الناس» ، لا تعنى هنا

المقوم بصفة عامة ، وانما تعنى من في عهدتهم أبواب مدينة هابو بصفة خاصة^(٦٥) ، لتبين لنا مدى الفوضى القائمة ، وترك الابواب دونما اية حراسة ، وذلك حين ينفعل حراسها بشعورهم الدينى عند وصول سفينة الاله آمون ، الامر الذى يعطى المتآمرين ، دونما ريب ، فرصة نادرة للدخول الى الحريم الملكى ، وتنفيذ مؤامرتهم ، ومن هنا كان الاختيار الموفق فى التوقيت ، كما أشرنا آنفا .

هذا وقد عمل المتآمرون على جمع الانصار ، فالملكة «نتى» قد عملت — بمساعدة «بباى بكامون» — على جمع الانصار فى داخل البلاط الملكى وخارجه ، فقام «بكامون» بدور الوسيط بين نساء الحريم المخلصات للملكة «نتى» وبين أمهاتهن وأخواتهن اللائى كن يقمن بضم الرجال الى هذه الحركة ، واثارتهم ضد سيدهم الفرعون ، كما أشارت الى ذلك بردية تورين^(٦٦) بوضوح ، وهكذا نجح المتآمرون فى أن يضموا اليهم عددا من حريم الموظفين ومشرف الحريم ونائبه ، واثنين من الكتبة وستة من المفتشين .

وهناك استمالة العمال الى جانب المتآمرين عن طريق دفع أجورهم قبيل المؤامرة ، ويذهب «جدة» الى أن هناك ما يشير الى أن الرجل الذى دفع للعمال أجورهم انما يحمل اسما غير عادى «با ان نشم» بمعنى أحد الثائرين ، وليس هناك من تفسير محتمل سوى أن «با ان نشم» انما هو اشارة الى أحد المشتركين فى المؤامرة ، وليس اسما لشخص بذاته ، وأن هذا الرجل قد دفع بمخصصات العمال فى هذا الوقت كجزء من المؤامرة ، أو على الأقل بغية انصرافهم عنها ، الامر الذى يوضح لنا تفاصيل اعداد المؤامرة ، فضلا عن اتساع نطاقها ، بصورة أو بأخرى ، هذا ويشير «جدة» أيضا الى أن العمال انما قد

65) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84.

66) A. De Buck, Op. Cit., P. 154.

شخص أشير اليه باسم «با ان باخنتي» ومن المحتمل كذلك أنها تسمية لمبعوث المتآمرين الى العمال (Hnty) ، وليس اسما لشخص بعينه ، وقد اعتبرت هذه المخصصات بمثابة مكافأة للعمال على سلوكهم في أيام المؤامرة المبرجة (٦٧) .

وهناك السحر ، وقد رأى فيه المتآمرون وسيلة مساعدة لتنفيذ مؤامرتهم ، وكان الهدف منه اضعاف أجسام موظفي القصر المخلصين للفرعون ، حتى لا يستطيعوا أن يكتشفوا المؤامرة ، أو ينجحوا في القضاء عليها ، هذا فضلا عن أن السحر انما يمد المتآمرين بقوة غير عادية ، كما حاول بعض المتآمرين عمل تعويذة ضد حراس الحريم ، حتى لا يكتشفوا ما يحمله من رسائل المتآمرين الى داخل الحريم الملكي ، والتي كانت تصل اليهن عن طريق مفتش الحريم «ادرم» ، كما تقى «بن — حوى — بن» أحد المتآمرين ، حجابا من احد السحرة ، من شأنه أن يمدّه بقوة جبارة ، لا يمكن أن تكون لأحد غير الملك «وسر ماعت رع ، مري أمون ، له الحياة والفلاح والصحة ، الاله الطيب سيده ، (رعسيس الثالث)» (٦٨) .

على أن هناك من يذهب الى أن فحص بقايا البردية الخاصة بمؤامرة الحريم ، انما تثبت أن استعمال السحر والخرافات في المؤامرة ضد رعسيس الثالث لم يحدث اطلاقا ، فليس هناك أى أثر لاي عمل خارق للمعاده في التقرير الكامل ، بل — على عكس ذلك تماما — فان المتآمرين انما يظهرون في ذكاء مشهود ، لكي يحققوا أهدافهم ، وأما الاشارة المزعومة في النص فقد كانت بسبب تحريف في المعنى ، وأن الوثائق انما قد رسمت لما دور كل شريك في المؤامرة .

هذا ورغم أننا لا نملك مادة علمية تساعدنا على تحديد نشاط الشخصيتين الرئيسيتين في المؤامرة ، أعنى دور الملكة «تي» ، ودور

67) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84.
68) Ibid., P. 78.

«عنعت» والذي حور اسمه الى «بباى بكلمون» (ذلك الخادم الاعمى)، فان النصوص قد أمدتنا بمعلومات عن دور «بنتاؤور» و «بن حوى بن» مشرف القطعان (ربما قطعان أمون) ، فلقد عمل الاثنان جنبا الى جنب ، رغم أن دوائر نشاطهم مختلفة ، فبينما كان نشاط «بنتاؤور» الى جوار الملك ممهدا الطريق للمتآمرين ، كان «بن حوى بن» واحدا من الذين نظموا دخول المتآمرين للقصر حيث كان الملك ، وان لم يقرر ذلك صراحة ، وهكذا يمكننا القول أن الاستعدادات انما كانت قد أعدت في تاريخ سابق للانقلاب السياسى الخطير (٦٩) .

وعلى أية حال ، فلقد تمت الاستعدادات للانقلاب السياسى ، وبدأ المتآمرون فى تنفيذ خطتهم ، وأرسلوا الى قائد الجيش فى النوبة لى تقوم الفرقة العسكرية هناك بشق عصا الطاعة ضد الملك أولا ، ثم الهجوم على مصر ثانيا ، ثم أوحى المتآمرون الى عمال الجبانة بمساعدة الثورة ، أو على الأقل صرف انتباههم عنها ، وأما الحريم فقد كن على من فيه مساعدة المتآمرين فى الوصول الى «ذلك المكان العالى جدا» ، ويذهب «سير الى جارحتر» الى أن الحريم الذى اشترك فى المؤامرة انما قد أطلق عليه اصطلاح «الحريم المرافق» ومن المحتمل أنه حريم متنقل لا يستقر فى مكان معين ، مثل الحريم المقيم فى «منف» أو فى «مى ور» فى الفيوم ، وانما هو حريم يصاحب الملك فى رحلاته (٧٠) ، وهكذا يمكننا أن نرسم الصورة التالية لتنفيذ المؤامرة .

انتهر المتآمرون فرصة الاحتفالات بعيد الوادى ، والهيجان أو الفوضى التى تحدث بين الناس عند وصول سفينة الاله أمون الى معبد مدينة هابو ، واجتمعوا فى مكان ما قرب الحريم الملكى فى جنوب الدقى المسور من مدينة هابو ، وربما تقدم «بن حوى بن» ومعه قلة من المتآمرين الى القصر ، وكان الملك يتمتع نفسه فى مقر حريمه الخاص فى

69) Ibid., P. 90-91.

70) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 290.

البرج الغربى ، حيث أراد أن يبتعد عن الضوضاء عند وصول سفينة
الاله أمون الى المرسى على الجانب الآخر ، بينما كانت كل الاحتياطات
قد ركزت عند بداية المعبد الكبير .

وتسلل المتآمرون الى الحريم الملكى عن طريق مدخل جانبي
لا يستطيع تحديده الان ، منتهزين فرصة انصراف الحراس وانشغالهم
بوصول سفينة الاله أمون ، نتيجة مشاركة وجدانية للمحتفلين بها ،
أو نتيجة انفعال دينى صاحبهم فى هذه اللحظات المقدسة عندهم ، ثم
ينضم المتآمرون الى «بنتاؤور» — والذي ربما كان قريبا من مكان الملك ،
حيث يستطيع أن يعطى أمرا بالدخول على الفرعون ، ويتمكن المتآمرون
من تنفيذ جريمتهم .

هذا ويؤكد بعض الباحثين أن المؤامرة قد نجحت فى اغتيال الملك ،
الامر الذى سنناقشه حالا ، ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها الاساسى ،
وهو تنصيب «بنتاؤور» ملكا على مصر ، وذلك لان الاله رع — كما تقول
الموتثقى — لم يسمح بأن ينال المتآمرون هاربهم ، وأن ينتصروا فى
مؤامرتهم ، ومن هنا فليس أمامنا سوى أن نفترض بأن أحد الامراء
الملكين — وربما رعمسيس الرابع فيما بعد — ربما قاوم سريعا ،
واستطاع أن يخمد الثورة ، وهى ما تراه فى بدايتها ، وربما كان فشلها
نتيجة أسباب أخرى ، وأيا ما كان الامر ، فلم تقل الوثائق شيئا عن
ذلك ، وان كان المتآمرون قد قبض عليهم ، وأدينوا أمام القضاء .

هذا وقد قام جردل طويل بين المؤرخين حول مصير «رعمسيس
الثالث» ، فبينما يرى البعض أن الفرعون قد لقى حقه فى هذه المؤامرة ،
يرى آخرون أنه قد مات ميتة طبيعية بعد وقوع المؤامرة بوقت طويل .
وهكذا رأينا «جركه» يذهب الى أن النصوص لا تحتوى على تفاصيل
فى هذه النقطة ، وان كنا لا نجد سببا فى أن نشك فى أن موت رعمسيس
الثالث انما كان مرتبطا بطريقة مباشرة بالمؤامرة^(٧١) ، وأما «جون

71) H. Goedicke, Op. Cit., P. 91.

ويلسون» فلقد تردد في أول الامر^(٧٣) ، ولكنه سرعان ما ذهب الى أن الملك قد مات ، على الأرجح ، نتيجة المؤامرة^(٧٣) ، وأما «برستد» فالرأى عنده — بعد أن لاحظ أن الملك قد وصف في بعض فقرات النص بلقب «(الاله الطيب)» ، وهو لقب كان يطلقه القوم على الملوك المتوفين — أن المؤامرة كادت أن تنجح ، لدرجة أن الفرعون قد جرح ، وأنه قد بقى حيا حتى وجه محاكمة مغتاليه ، غير أن المؤامرة قد عجلت بنهاية الملك المسن ، حتى وان كان قد نجا أثناءها^(٧٤) ، ويذهب «(دى بك)» الى أن النصوص توحى بالاعتقاد بأن رعمسيس الثالث انما قد مات نتيجة المؤامرة ، وان كان ليس هناك ما يمنع من القول بأنه قد عاش فترة بعد وقوع الاعتداء عليه ، وأن هذه الفترة كانت كافية لتعيين أعضاء المحكمة، كما أخبر هو بنفسه^(٧٥) .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أنه ليس هناك من ريب في أن البردية القضائية انما قد كتبت بعد وفاة رعمسيس الثالث، وبأمر من ولده رعمسيس الرابع الذى أراد أن يتخض تهمة القسوة التى ما يزال هناك تضارب بين الباحثين حولها ، وأنه ليست هناك أدلة من الوثائق المعاصرة تشير الى موت رعمسيس الثالث^(٧٦) ، ومن هنا فليس هناك من سند حقيقى ، لافتراض أن المؤامرة قد نجحت تماما ، أو نجحت نصف نجاح ، فمومياء رعمسيس الثالث التى عثر عليها في خبيئة الدير البحرى تشير — كما يرى ماسجيو — الى أنها لرجل في حوالى الخامسة والستين ، وليس بها ما يدل على وجود جراح ، بل ليس هناك ما يدعو الى تأريخ المؤامرة بقرب نهلية حكم الفرعون ، وانما حدثت قبل ذلك بكثير ، اذ لا يرد لها ذكر في بردية هاريس العظيمة^(٧٧) .

72) J. A. Wilson, ANET, P. 214.

73) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P.267.

74) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 418, P. 210.

75) A. De Buck, JEA, 23, 1937, P. 163.

76) A. H. Gardiner, JEA, 42, 1956, P. 8-9.

77) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 291-292.

ولعل هذا الرأي أقرب الى الصواب من غيره ، خاصة وأنه ليس هناك أى تفسير لدى المؤرخين فيما يتصل بحقيقة أن مومياء رمسيس الثالث ليس بها ما يدل على وجود جراح ، فضلا عن أن النصوص لا تشير الى أن الفرعون قد قتل بخنجر او بسلاح مشابه ، وربما كانت المؤامرة قد حدثت فى أخريات أيام رمسيس الثالث ، وأنه لم يصب فيها بجرح قاتل ، ثم مات بعد فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين . وأيا ما كان الامر ، فإن المؤامرة قد فشلت فى تحقيق هدفها الاساسى ، وهو تنصيب «بنتاؤور» ملكا على مصر ، ذلك لان المؤامرة قد كشفت أمرها بطريقة ما ، ويبدو أن الفرعون قد استطاع الحصول على أدلة تثبت ادانة المتهمين ، ومن ثم فقد أحيلوا جميعا الى القضاء .

وأصدر الفرعون أمره بتشكيل المحكمة من أربعة عشر قاضيا ، كان من بينهم أربعة تدل أسمائهم على أنهم لم يكونوا مصريى الاصل، وان كانوا جميعا من طبقة الموظفين التى ينتمى اليها كثير من المتهمين ، كانوا من ضباط الجيش ومن موظفى الخزائنة ومن رجال البلاط وغيرهم ، فنتج عن ذلك خطر جسيم ، لانهم اكتشفوا قبل أن ينتهى التحقيق أن بعض أقارب المتهمين استطاعوا أن يرشوا ثلاثة من القضاة وضابطين، ولكن أمرهم انكشف وتحول القضاة الثلاثة والضابطان الى متهمين ، وحكم على قاضيين وضابطين من المرتشين بجدة العار والذل ، وسلم الاذنين، فعزت على أحد القاضيين نفسه ، أو صحا ضميره ، فانتحر ، وبرأت المحكمة زميله الثالث (٧٨) .

ويذهب «ارمان وراى» الى أن الفرعون لم يرد أن يكون له دخل فى المحاكمة ، لان المجرمين كانوا من أقرب الناس اليه ، هذا فضلا عن أن المؤامرة انما كانت بالنسبة اليه جد خطيرة ، بحيث لا يحسن تطبيق اجراءات القانون الرسمى العادى ضد المجرمين ، حتى لا تعلن أمور

78) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 268-269.

A. De Buck, Op. Cit., P. 154.

كان من الخير أن تبقى مكتومة عن الشعب ، وحتى لا يضطر الملك الى أن يوقع بنفسه العقوبة على الآثمين ، ومن ثم فقد أعطى سلطات مطلقة لهؤلاء الذين وثق بهم ، وشكلت المحكمة منهم ، وكان عليهم حتما أن ينجزوا هذه المهمة الكريهة بكل ما يمكن من الهدوء والسرعة ، وكان عليهم كذلك أن يتحاشوا اصدار عقوبات مثيرة ، فكل من استحق الموت كان عليه أن يموت منقرا (٧٩) .

ويستمر الملك في تعليماته للقضاة مشددا عليهم بأن يأخذ كل مجرم جزاءه ، محذرا اياهم — في الوقت نفسه — من أن توقع أية عقوبة — مهما كانت تافهة — على أى متهم بغير وجه حق ، ولعمري — كما يقول برستد. أن ذلك من الامثلة النادرة في التاريخ الانساني ، ونموذجا حيا لعدالة الفرعون الذي كانت بيده مقاليد الامور في البلاد ، يفعل بها كيف شاء ، ومتى شاء ، مع أن شخص جلالته كان هو المقصود بالقتل (٨٠) ، هذا فضلا عن أنه بقراره هذا ، انما نقل سلطة القانون من شخصه الى القضاة ، الذين كانوا يعملون باسمه من ناحية المظهر فقط ، ولكنهم في الحقيقة انما كانوا يتمتعون بالسلطة الكاملة كحكام ينفذون العدالة (٨١) . وتنتهى اجراءات المحاكمة ، ويصدر القضاة أحكامهم ، ببراءة عامل العلم ، والاكتفاء بقرار لومه ، والحكم على أربعة من المتهمين بجذع الانف واصلم الاذنين ، أما «بنتاؤر» ذلك الابن العاق ، والذي كان المتآمرون يحاولون أن يرفعوه الى العرش ، فقد حكم عليه — مع ثلاثة آخرين — بالاعدام ، وأما الملكة «نتي» فلم تشر وثائق المحاكمة الى مصيرها ، وهى رأس المتآمرين ، والتي كانت تسعى لدفع ولدها الى العرش ، والتي أذاعت الفتنة بين الناس ، وهزكت الثورة ضد بعلا الفرعون ، وربما احتفظ الملك لنفسه بحق محاكمتها،

(٧٩) ارمان وريانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة — القاهرة ١٩٥٣ ص ١٤٥ (مترجم)

80) J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, P. 499.

وكذا

81) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 268.

وربما كانت قد قدمت لحكمة خاصة لم نعر على حكمها بعد ،
وأيا ما كان الامر ، فلقد انتهت حياة رعسيس الثالث بكارثة ، أو أن
المؤامرة قد عجلت بحياته (٨٢) .

٥ - الاجراءات القضائية في الدولة الحديثة :

ظل الوزير في الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) - كما في
الدولة القديمة والوسطى (٣٢٠٠ - ١٧٨٦ ق.م) - رئيسا للقضاة ،
وقد سجلت مقبرة «رخمى رع» (٨٢) وزير «تحتمس الثالث» (١٤٩٠ -
١٤٣٦ ق.م) جانبا من قاعة الوزير مصطفى الناس خارجها مترقبين
للمثول أمام الوزير وعرض شكاياتهم ، وكان ينبغي أن ترفع الشكايات
للووزير مكتوبة ، وحينئذ يبدأ الوزير مناقشتها ، مستمينا بالقوانين
المكتوبة في ملفات رتبت أمامه ، يرجع اليها كلما أراد التأكد أو
الاستشارة ، ومن حوله يجلس مستشاروه أو الموظفون المتصلون
بنواحي القضاء .

ولم يكن للوزير - رغم سلطاته الواسعة - أن يصدر أحكامه حسب
ما يترأى له ، وانما كانت هناك قوانين تنظم مختلف الحالات
وما يلزمها من ظروف ، بل ان هذه القوانين انما كانت تلزم الوزير
نفسه بالعمل تبعا لنظام موضوع ومعترف به ، فاذا كانت الشكوى
المقدمة له تتعلق بنزاع على الارض مثلا ، فقد حدد القانون أن يصدر
الوزير حكمه فيها خلال ثلاثة أيام ، ان كانت الارض موضوع النزاع
في طيبة - مركز الوزير - أما ان كانت بعيدة عن العاصمة شمالا أو
جنوبا ، فقد سمح القانون للوزير بمهلة شهرين ، حتى يستطيع أن
يبحث الامر .

ومن البدهى أن الوزير ما كان بمستطيع أن يبت في الحسابات

(٨٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٩٠ - ٣٠٦ .

83) N. de G. Davies The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thebes, 2 Vols,
New York, 1943.

المعروضة عليه بسرعة ، الا اذا كان هناك «أرشيف» كامل منظم ، يستطيع الرجوع اليه ليمده بالمعلومات المطلوبة ، وكان هذا هو الواقع ، هذا فضلا عن القضايا ومراحل بحثها ، ووجهات النظر المختلفة ، وشهادة الشهود ، والحكم الصادر في القضية ، انما كانت كلها تسجل في مكتب الوزير ، وكانت قاعة الوزير ، من ناحية أخرى ، تضم نسخا من وثائق الاقاليم ، وسجلات بالملكيات وحدود الاراضي والعقود والتركات ، حتى يستطيع موظفو قاعة الوزير أن يمسدوه بالمعلومات الكافية عن الموضوعات المتعددة ، والمنازعات التي تعرض للبحث ، وقد حتم القانون أيضا أن تقدم الطلبات والشكاوى المرفوعة للملك مكتوبة عن طريق قاعة الوزير ، وبذلك تهيأ للوزير أن يسيطر على التنظيم الإداري للقضاء في العاصمة^(٨٤) .

ولعل من الاهمية بمكان أن نقدم هنا دليلا على ذلك من اجراءات محاكمة ، كان موضوعها ملكية رقعة من الارض في مجاورات العاصمة القديمة «منف» ، وكان الشاكي يدعى «موسى» ، وقد زعم أن قطعة الارض قد منحها الملك «أحمس الاول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق م) مكافأة لسلفه «نشى» قائد سفينته ، وقد قامت منازعات كثيرة بشأنها في الاجيال اللاحقة ، وفي عهد «احور مصب» (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق م) أرسل مجلس القضاء الاعلى المنعقد في عين شمس (أون = هليوبوليس) والذي كان يرأسه الوزير ، أرسل مندوبا الى الاقليم الذى تقع به قطعة الارض ، حيث كانت هناك سيدة تدعى «ورنيو» معينة لزراعة الارض ، كوكيلة لآخوتها وأخواتها ، وقد اعترضت على هذا الترتيب أخت لها تدعى «تاخارو» ، ومن ثم فقد حدث تقسيم جديد للضيعة التى لم تكن مقسمة من قبل ، فوزعت بين ستة من الورثة .

وقدم «حوى» والد موسى التماسا ضد هذا القرار ، وشاركته فيه

(٨٤) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ الحضارة المصرية ص ١٢٦ ، وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 165.

أمة «ورنيو» ، ولكن «حوى» مات عند هذه المرحلة ، ولما أقدمت أرملته «نوب نفر» على زراعة الأرض الموروثة لزوجها ، تعرض لها بالقوة رجل يدعى «خاعى» ، وكنتيجة لذلك رفعت «نوب نفر» قضية ضد «خاعى» أمام المحكمة العليا نفسها ، ولكن الحكم صدر ضدها مؤرخا بالعام الثامن عشر (حوالى ١٢٨٢ ق م) من عهد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) .

ولما وصل موسى الى مرحلة الرجولة التمس تعديل الحكم ، وتبعت شهادته على الفور شهادة المدعى «خاعى» ومن قضيتها المشتركة نستطيع أن ندرك ما تم ، ذلك أنه عندما فحص الوزير عقود التمليك أدرك أن هناك تزويرا ، وعندئذ اقترحت «نوب نفر» ارسال مندوب مع «خاعى» لمراجعة السجلات الرسمية لخزانة فرعون ولشونة العاصمة الشمالية «بى - رعمسيس»^(٨٥) (قنتير - مركز الصينية بمحافظة الشرقية) ولكن الخيبة أصابتها حين لم يوجد اسم زوجها في السجلات التى جاء بها الاثنان - متواطئين معا - وتبعنا لذلك أصدر الوزير الحكم - بعد تحريات أكثر - لصالح «خاعى» الذى تسلم نتيجة لذلك ١٣ أورورا من الأرض (حوالى تسعة أفدنة) .

وأما بالنسبة لموسى الذى أصر على استعادة حقوقه ، فانه لم يكن هناك من وسيلة لديه ، سوى أن يقيم الدليل عن طريق شهود الخلف بأنه من نسل «نشى» ، وبأن أباه كان يقوم بزراعة الأرض عاما بعد

(٨٥) أنظر عن «بى رعمسيس» (محمد بيومى مهران المرجع السابق ص ٤٦-٦٢ ، وكذا : مصر : الجزء الثالث ص ٢٨٤-٢٨٧ ، وكذا J. A. Wilson, Op. Cit., P. 239, ANET, P. 470 F. R. Wilson, JEA, 21, 1935, P. 10-17. M. Hamza, ASAE, 30, 1930, P. 31-68. A. H. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 127 F JEA, 19, 1933, P. 122-128, Onom II, 1947, P. 171-173. L. Habachi, ASAE, 52, 1952, P. 443-559. W. Hayes, Op. Cit., II, P. 338-340.

عام ، وأنه كان يؤدي الضرائب عنها ، وكانت الشهادة التي قدمها الرجال والنساء الذين ذكرهم ، بالاضافة الى الدليل المكتوب السابق تقديمه ، مما لا يدع مجالا للالتباس بالنسبة لصحة دعواه ، ورغم أن نهاية النص الهيرغليفى قد ضاعت ، فاننا لا نشك في أن المحكمة العليا — مع المحكمة الاقل شأنًا في منف — قد أصدرت حكمها النهائي باعادة ميراث موسى اليه .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هذه القضية المدنية التي قدمناها أكثفا ، انما تبرز نقطة هامة أمامنا هي مساواة الرجال والنساء بالنسبة للملكية ، ومن ناحية الاهلية أمام مجلس القضاء^(٨٦) .

٦ - من القوانين في الدولة :

كان سن القوانين في الدولة الحديثة (١٥٧٥ — ١٥٨٧ ق م) من اختصاص الملك وحده ، ويعد قانون الدولة تعبيرًا عن رغبته ، وينشر — كلما سنحت الفرصة — في صورة مراسيم ، كما كان للملك أن يبطل بعض القوانين ، أو يضيف اليها بعض ما يرى اضافته من تلك القوانين التي أصدرها من سبقه من الملوك^(٨٧) ، وربما كان هناك دستور للقانون منذ عهد الاسرة الثانية عشرة على الاقل^(٨٨) ، وقد شوهد الوزير ، كما أشرنا من قبل ، وقد بسط أمامه أربعين شيئًا من جلد ، وهى في الواقع ليست سوى الملفات الخاصة بالقانون الفرعونى في شكلها الدستورى^(٨٩) .

وتقدم لنا تشريعات الملك «صور محب» (١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق م) نموذجًا للتشريعات التي يصدرها الملوك — خاصة في أوقات الازمات —

86) A. H. Gardiner, *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1961, P. 268-271.

87) W. F. Edgerton, *The Government and Governed in The Egyptian Empire*, in JNES, 6, 1974, P. 154.

88) W. C. Hayes, *A Papyrus of The Late Middle Kingdom*, Brooklyn, 1955, P. 41-42.

89) N. de. Davies, *The Tomb of Rekh-Mi-Re*, at Thebes, N. Y., 1943, P. 31-34.

وهناك لوحة كبيرة عثر عليها «ماسبيرو» في الكرنك عام ١٨٨٢م، تتحدث عن اصلاحات حور محب الادارية^(٩٠) ، بخاصة فيما يتصل بتلك التصرفات الجائرة التي حرمت المواطنين من قواربهم وحمولاتها ، أو ضربهم وسرقة مائيتهم وجلودها ، فقد كانت طريقة جمع الضرائب أن يقوم كل مزارع بتقديم ضريبة عينية ثم حمل الحبوب أو ما شابهها في مراكب وتوصيلها الى مخازن الفرعون ، وقد تعرضت السفن لكثير من أعمال السلب والنهب ، واعتدى على أوقاف المعابد ، كما أن كثيرا من رجال الادارة في الاقاليم كانوا يفرضون على الاهلى اتاوات معينة .

ومن ثم فقد عمل حور محب على القيام بالتفتيش على المواطنين ، وحذر القضاة من الاتصال بالناس ، فضلا عن مصادقتهم أو قبول أية هدايا من أحدهم ، وقد عاقب بالموت كل من يخالف ذلك ، وأصدر مرسومه الذى سجله على لوحة وضعت في إحدى قاعات معبد الكرنك (بالاقصر) ، وسن فيه التشريعات اللازمة للقضاء على الفساد ، ونشر الامن والامان في ربوع البلاد ، فضلا عن حماية دافعى الضرائب، وعمال المزارع ، ففرض على المعتدين والمرتشين عقوبت رادعة ، تتمثل في الجلد بالسياط وجذع الانف والنفى الى مدينة «ثارو»^(٩١) .

90) T. M. Davies and G. Maspero, The Tombs of Haremhab and Tautankhamoun, 1912, P. 46-57.

U. R. K, IV, 2140 F.

وانظر

P. Lacau, Steles du Nouvel Empire, I, Cairo, 1909, P. 203.

(٩١) ثارو: هو الاسم المصرى القديم لموقع «تل أبو صيفة» الحالى، في مجاورات مدينة القنطرة شرق ، وقد ظهر الاسم على أيام تحوتمس الثالث، وأن ذهب «وليم أولبرايت» أنه اسم سامى ، وليس مصرى ، وقد ظهر منذ أيام الهكسوس ، ثم عرفت «ثارو» على أيام اليونان باسم «زل» (زيلو - سيلى - ميلا - سيلة) وأصبحت عاصمة الاقليم الرابع عشر من اقاليم مصر السفلى ، ثم انتقلت العاصمة الى «تانيس» (صان الحجر - مركز فاقوس) ، وكانت ثارو ذات أهمية استراتيجية في العصور الفرعونية ، فانشأ الفراعين فيها مجموعة حصون لصد غارات البدو ، وفي عهد «حور محب» أصبحت أشبه بمعقل الطور ، وكانت أهميتها بالغة الخطورة على أيام الامبراطورية ، فكانت مقر تجمع الجيوش ، وبداية الطريق الحربى الرئيسى الى سورية وفلسطين (انظر :

هذا وقد أتجه «حور. محب» الى تنفيذ مراسيمه من تاريخ صدورهما، والعمل على استرداد المسروقات ، واعفاء صاحب الماشية من الضرائب المستحقة عليه ، اذا سرقت ماشيته أو نفقت — بشرط أن يثبت ضياعها أو هلاكها — وكان حازما مع رجال جيشه ، على الرغم من أنه كان منهم ، فعمل على المساواة بينهم وبين غيرهم في الردع والعقاب (٩٢) .

ولعل أهم مواد تشريعات حور محب :

- ١ — كل من يتعرض للسفن التي تحمل الضرائب الى خزانة الدولة يعاقب بجدة الانف ، فضلا عن النفي الى ثارو .
- ٢ — كل موظف يجد مواطنا عاجزا عن الحصول على سفينة لتوريد الضرائب ، عليه أن يعمل على ايجاد سفينة له .
- ٣ — كل مواطن اغتصبت حمولة سفينته يعفى من الضرائب .
- ٤ — كل من يسرق سفنا تحمل ضرائب للحريم أو المعابد ، يجده أنفه وينفى الى ثارو ، والامر كذلك بالنسبة الى الموظفين الذين يعملون بمكتب قرابين الملك ، ويختصبون نبات «كث» ، ويستخدمون عبيد أناس آخرين ، دون استشارتهم في أعمال خلصة بهم .
- ٥ — كل جندي يدخل بيوت الفلاحين لسلب الجلود ، دون وجه حق ، يحكم عليه — منذ اليوم — بمائة جلدة ، ويشق جلده بعد ذلك في خمسة مواضع ، ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .
- ٦ — معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين نبات «سم» لمعامل الجعة،

A. H. Gardiner, Onom, II, P. 203-204.

M. Hamza, ASAE, 30, 1930, P. 66.

(٩٢) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم — مصر والعراق — القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٠٣ .

بحجة أنه ضرائب للعرش ، وأن هذا النبات يجب أن يؤخذ من حدائق
وبيوت فاكهة فرعون (٩٣) .

٧ — منع استخدام القوة أو زيادة العمل ضد الارقاء .

٨ — منع الابتزاز والرشوة في تحصيل ضريبة الدخل العام ،
وانزال العقاب بمفتشى الضرائب ، وذلك حين يتفقون مع المحصلين ،
بغية الكسب والتلاعب ، وكذا تنظيم تحصيل الضرائب المفروضة على
محاصيل الخضر المزروعة في أرض التاج (٩٤) .

٩ — معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين حبوبا أو خضروات بدون
أذن من فرعون .

١٠ — اختيار القضاة من الرجال الأكفاء الامناء العدول،العارفين
بتوجيهات فرعون ، ونظم الادارة ، لنشر العدالة ومعاقبة المنحرفين ،
ثم اختيار وزيرين ، الواحد في طيبة ، والاخر في منف ، ثم حدد لكل
منهما مرتبا ثابتا يأخذه كل شهر ، دونما أى تأخير — وكذا فعل مع
القضاة — وقد حذر من الرشوة ، وأن من يثبت عليه أنه حكم بغير
العدل ، وتخطى حدود ما نص عليه القانون ، فجزأؤه الموت .

١١ — إلغاء رسوم الذهب والفضة ، كما حرم على محاكم «قنب»
فرض أية رسوم على أى شئ .

١٢ — زيادة مرتبات الموظفين لمنع الرشوة ، وارسال مندوبين لتفقد

(٩٣) ربما كان العقاب الذى لم يحدد فى النص ، انما ترك تقديره
للقاضى على حسب جسامه الفعل الضار الذى آتاه الجانى ، أو قياسا على
عقوبة الحالات المماثلة (انظر : أحمد محمود حسين صابون : دراسة
تاريخية لشخصية حور مصب — حياته وعصره — الاسكندرية ١٩٧٩ ص
٢٣٩) .

(٩٤) لعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن تشريعات حور مصب ، انما
كانت أقرب الى الاصلاحات الادارية ، منها الى التشريعات القانونية .

أحوال البلاد كل شهر ، وكان الملك يستقبلهم في قصره قبل سفرهم ،
لكي يصدق عليهم العطايا ، مناديا كل منهم باسمه (٩٥) .

وأما عن الهيئة القضائية في عهد الدولة الحديثة ، فلقد كان الملك
هو الذي يقوم بتعيين رجال القضاء في مناصبهم ، بصفته القاضي الأعلى ،
هذا وقد لوحظ اختلاف في تشكيل المحاكم من حالة الى أخرى في الاسرة
الثامنة عشرة ، وذلك في القضاء العالي الخاص بوزير الصعيد — وكذا
وزير الدلتا — فضلا عن المحاكم المحلية في الاقاليم ، كما كانت الهيئة
القضائية تشتمل على اداريين من مستويات عليا ، وكذا على ضباط من
الجيش وكهنة .

وفي دعوى مننية هامة نظرت على أيام «تحتوتمس الرابع» (١٤١٣ —
١٤٠٥ ق م) لوحظ أن الوزيرين — وزير الصعيد ووزير الدلتا — كانا
يرأسان المحكمة في طيبة (الاقصر) ، وكان الى جانبهم أعضاء خمسة ،
لهم رأى استشاري في الدعوى ، وكان أحد الوزيرين — ولعله وزير
الصعيد — هو الذي يصدر الحكم ، ويتحمل مسؤوليته .

هذا وقد كتبت سجلات هذه الدعوى — مع أخرى من أخريات أيام
الاسرة الثامنة عشرة — بمعرفة من يدعى «مسسيا» ، وقد ألفت علينا
بعض الضياء نحو اجراءات المحكمة في هذا العهد وسير الدعاوى ،

(٩٥) انظر عن تشريعات الملك حور محب (محمد بيومي مهران :
مصر — الجزء الثالث ص ١٢٢ — ١٢٥ ، أحمد محمود حسين صابون :
المراجع السابق ص ٢١٢ — ٢٥٧ ، تشريع حور محب : ترجمة وتعليق
باهور لبيب ، صوفى حسن أبو طالب — القاهرة ١٩٧٢ ، وكذا
M. Muller, Decree of Administrative
Reforms by King Haremheb, Egyptological Researches, I, 1906, P. 56F
E. Seidl, Einführung in die Aegyptische Rechtsgchichtt bis Zam Endo
des Nenen Reiches, Gluckstadt, 1951, P. 20.
K. Pfluger, The Edict of King Harmheb, JNES, 1946, P. 260-276.
J. H. Breasted, ARE, III, 1906, P. 22-33, Parag. 45-67.
V. De Walle, in Chronique d'Egypte, 44, 1947, P. 230-238.

فتمت مقدمة مع تلويخ دور انعقاد الجلسات ، واسم الفرعون الحاكم وقت ذاك ، وأقوال المدعى والمدعى عليه ، أو مستشاره (محاميه) ، ثم قرار المحكمة ، وقائمة بأسماء القضاة ، فضلا عن أشخاص آخرين ، من بينهم مسجل المحكمة (كاتب الجلسة) ، ثم الشهادة في المحكمة ، والقسم الذي كان يحلف به الشاهد ، وهو عادة قسم بالاله أو بالملك ، والعقوبات التي كانت توقع في حالة الالحث باليمين .

هذا ويمكن لقارئ اجراءات الدعوى أن يلاحظ بوضوح : عدم المصابة تماما ، والتمسك الشديد بالقانون ، وحماس في الاجتهاد للوصول الى الحقيقة ، وذلك بتقدير وتكييف الحقيقة بعناية تامة (٩٦) .

وظلت المجالس القضائية — كما كانت من قبل — تحت اشراف الوزير ، فما زال هو المشرف على «البيوت الستة العليا» ، كما أصبح «عظماء الصعيد العشرة» أعضاء في مجلس يرأسه الوزير ، كما أنشئت محكمة «قنبت» وهي محكمة تتميز بتغير أعضائها ، وهم عادة من الامراء يجتمعون على هيئة محكمة كبرى في يوم معين عند بوابة أحد المعابد ، وهناك «محكمة فرعون» ، وقد تردد ذكرها في كثير من النصوص ، ولما كان القضاة يتغيرون فقد سميت المحكمة باسم «محكمة ذلك اليوم» .

ولم يكن من الضروري أن يكون أعضاؤها من المتفقيين في القانون ، بل كان من بينهم الكهنة والمجبر الملكي كاتب فرعون ، والمدير الملكي مذيع فرعون ، وحامل المروحة وأمير المدينة ، وكلهم تحت امرة الوزير الذي يرأس المحكمة ، وفي يوم آخر فرى سبعة من الكهنة والمشرفين

(٩٦) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٦٧٧ ، وكذا

E. Seidl, Op. Cit., P. 64.

JEA, 41, 195, P. 22-23.

وكذا

H. W. Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs, Leiden, 1958, P. 28, 47, 61-64, 240.

على المعبد ، وكتبا واحدا هو المختص المتفقه الوحيد بينهم ، وهو الذى يحرر أوراق القضية (٩٧) .

وهكذا نظم القانون أمور القضاء فى مصر الفرعونية ، وأصبح العدل مكفولا تحت اشراف الوزير ، وقد جرت العادة عند تنصيب الوزير أن يتمهده الملك بالتعليمات والتوجيهات ، وكلها تحذير من التمييز والمحاباة ، الى جانب التزام العدل والنزاهة والرحمة والانسانية ، وقد جاء فى خطاب وجهه الملك «تحتومس الثالث» الى وزيره «رخمى رع» عندما قلده منصب الوزارة :

«يا أبى الرب التحيز ، وهذه تعاليم يجب اتباعها ... تطلع الى منصب الوزارة هذا ، وكن يقظا لكل ما يحدث فيه ، فهو عماد الارض كلها ، انه ليس بالمنصب الهين ، وان كان مر المذاق ، انه لا يعنى احترام أشخاص الامراء والمستشارين ، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد الشعب ، فاذا قصدك شك من الصعيد أو الدلتا ، أو من أية بقعة فى الارض ، فعليك أن تتأكد أن كل شئ يجرى وفقا للقانون والعرف ، وأن يعطى كل ذى حق حقه» .

«احترس من الذى يقال عن الوزير «خيتى» ، فإنه كان يحكى عنه أنه جار فى حكمه على بعض ذوى قرباه ، منحازا الى غرباء ، حتى لا يقال عنه انه حابى ذوى قرباه خيانة منه ، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذى أصدره «خيتى» ضدهم ، أصر على اجحافه لهم ، ان ذلك أكثر من عدالة ، انه ظلم ، فلا تنسى أن تحكم بالعدل ، لان التمييز يعد طغيانا على الاله» .

«تذكر أن من يلى منصبا كبيرا يردد الهواء والماء كل ما يفعله ، ولا يمكن أن تستمر تصرفاته خافية ، تصرف بالعدل ، فالمحاباة يمتتها الرب ،

(٩٧) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ص ١٢٠ .

لا تتوان أبدا في إقامة العدل ، كن عادلا مع من تعرفه ومن لا تعرفه،
وعامل المقرب من الملك كالبعيد عنه ، لا تشح بوجهك عن صاحب
شكوى ، ولا تؤمن سريعا على قول من يحدثك ، ولا تغضب على رجل
لم تتحر الصواب في أمره ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه، كن
مهييا يهابك الناس ، والنبيل من يجله الناس ، وتأتى مهابته عندما يهق
الحق ، ويهق الباطل ، ولكنه اذا أخاف الناس ، وأسرف في ترويعهم،
كانت له نقيصة ، تنزل به عن مصاف الكبار من الرجال ، ولـسوف
تنجح في تحقيق الهدف من منصبك اذا نصرت الحق ، فالناس يتوقعون
العدل من كل تصرفات الوزير ، وتلك سنة القضاء منذ أن حكم الاله
الارض ، لا تتوان أبدا في إقامة العدل ، كن غنيا مع المتكبر ، فالملك
يفضل من يستحي على من يتكبر» (٧٨) .

وهكذا نجد أن سياسة الدولة — على أعلى مستوى فيها — انما
يجب أن تسير على مبدأ الحق والعدالة الاجتماعية ، فالوزارة — أسمى
المناصب وأرفعها شأنا — ليس الغرض منها تفضيل الامراء والمستشارين
على العامة من القوم ، انها ليست لاستعباد الناس ، وانما هى وسيلة
لتنفيذ العدالة والقانون على الناس جميعا ، دونما تفرقة بين قريب
وبعيد ، فليس من العدل أن يظلم من لا تربطهم صلات قرى بولى
الامر ، كما ليس من العدل كذلك أن يظلم الاقربون ، وانما العدل أن
يعطى كل ذى حق حقه ، كما يجب أن يكبح ولى الامر غضبه حتى
يستطيع أن يحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، وهكذا نجد أن
هذه الوثيقة الرسمية تضغط بشدة وبالحاح منقطع النظير على تطبيق
العدالة بين الناس جميعا ، هذا فضلا عن أن خطاب الفرعون انما هو

(٩٨) انظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٧٣ —

٧٥ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠١ — ٢٠٢ ، وكذا

J. H. Breasted, ARE, II, P. 266-281.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, P. 209-210.

R. D. Faulkner, The Installation of The Vizier, JEA, 41, 1955 P. 18-29.

A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 196. Urk., IV, 1090 F.

بمثابة تكليف رسمى من رئيس الدولة الى أكبر موظفيها يحوى المبادئ الاساسية للعدالة وتكافؤ الفرص وتطبيق القانون على المواطنين جميعا.

وهكذا نتصدر مصر مكانا ممتازا فى هذا المجال ، فعندما نفحص «قانون حمورابى» نجد أن اجراءات العدالة تستلزم فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية انه عن نفس الجرم تختلف العقوبة والاضرار طبقا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد الذى وقع منه الجرم ، ذلك أن «قانون حمورابى» انما قد سن : أن كل العقوبات والاحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعيه ، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعيه وهذه الحقيقة تفسر لنا ما دفع بعض كبار المؤرخين الى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية الى ارثنا الخلقى فى غربى آسيا قليل جدا^(٩٩).

ولو رجعنا الى قانون الملك حمورابى^(١٠٠) (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق م) لوجدنا مواد كثيرة منه لا تعترف بالمساواة بين الناس ، وانما تعاملهم على حسب طبقاتهم ، فمثلا المادة (١٩٦) تنص على أن من يتسبب فى ائتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تعلق عينه ، بينما تنص المادة (١٩٨) على أن من يفقد رجلا من العامة عينه يدفع مينا من الفضة ، وتنص المادة (١٩٩) أن من يفقد رجلا عينه أو احدى عظامه يدفع نصف القيمة.

وتنص المادة (٢٠٠) على أن من يسقط سن رجل من طبقة تكسر سنه ، بينما تنص المادة (٢٠١) على أن من يسقط سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة .

99) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 101-412, P. 79-235.

(١٠٠) انظر عن قانون حمورابى (نجيب ميخائيل : حضارة العراق القديمة ص ٥٢ - ٨١ ، عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٤٦١-٤٦٩ ، T. J. Meek The Code of Hammurabi, in ANET, 1966, P. 163-177.

A. Deimel, Codex Hammurabi, 1930.

W. Eilers, AO, 31, 1931.

R. F. Harper, The Code of Hammurabi, 1904.

G. R. Driver and J. C. Miles, The Babylonian Laws, I, Legal Commentary, 1952.

J. Nougayrol, RA, XLV, 1951, P. 67-79.

وتنص المادة (٢٠٢) على أن من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبة يجلد ستين جلدة بسوط من جلد الثور علنا ، بينما تنص المادة (٢٠٣) على أنه إذا لطم نبيل خد نبيل آخر من نفس المرتبة يدفع مينا من الفضة ، بينما تنص المادة (٢٠٤) على أنه إذا لطم رجل من العامة خد آخر يدفع ١٠ شوقل من الفضة ، بينما تنص المادة (٢٠٥) على أنه إذا لطم عبد خد نبيل تصلم أذنه .

وهكذا بينما يعترف القانون العراقي بأن الناس غير متساويين في أقدارهم أمام القانون ، وأن العقوبة انما تختلف طبقا للطبقة الاجتماعية التي ينتمى اليها الذى وقع منه الجرم ، فضلا عن الذى وقع عليه ، نرى مصر الفرعونية تعلن في وثائق الدولة الرسمية ، وفي توجيهات الفراعين لوزرائهم عندما يتسلمون مهام مناصبهم ، إلغاء مثل هذه الفوارق الاجتماعية ، وأن الناس — كل الناس ، رجالا ونساء — أمام القانون سواء ، لا فرق بين فقير وغنى ، وبين كبير وصغير (١٠٦) .

ولعل الفيلسوف اليونانى «افلاطون» (حوالى ٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) عندما قال في مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ربما لم يعلم الا قليلا ، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت — قبل مقالاته — هذا المثل الأعلى ، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة ، أو أن هذا دليلا آخر على أن «افلاطون» كان في مصر ، وأن ذلك رأى استحوذ عليه هناك في أرض الكنانة (١٠٧) .

(١٠١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٦٨ — ١٧١ .
(١٠٢) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة — ترجمة زكى سوس — القاهرة ١٩٦١ ص ٣٣٨ .

الباب الثالث

الديانة

القسم الأول

الديانات البشرية أو الانسانية

الفصل الأول

فكرة الخلق عند المصري القديم

حاول المصريون القدماء منذ عصورهم السحيقة التعرف على أسرار العالم ، وكيفية خلق الأرض ، وبدء الحياة عليها ، فضلا عن كنه السماء والكواكب التي تتحرك فوق صفحتها ، وقد استطاع رجال الفكر والدين منذ فجر التاريخ ، بعد أن استقرت الأمور في البلاد ، وأخذت الالهة الكونية تحتل مكانة سامية في النفوس ، أن يقدموا وجهات نظر مختلفة ، في أربعة مراكز حضارية مختلفة ، عن تفسير المنشأة الاولى للخلقة ، ظهرت كل واحدة منها بعد الاخرى ، وكانت هذه المراكز الاربعة على التوالي : عين شمس والاشمونين ثم منف وطيبة .

(١) نظرية عين شمس

كانت نظرية ايونو أو أون (هليوبوليس = عين شمس) أولى هذه النظريات الاربعة ، وقالت بماض سحيق قديم ، لم تكن فيه أرض ولا سماء ، ولا حس ولا حسيس ، وما من أرباب أو بشر ، وإنما عدم مطلق ، لا يشغله سوى كيان مائي لا نهائي عظيم ، أطلقوا عليه اسم «نون» ظهر منه روح الهى أزلى خالق هو «آتوم» ، لم يجد مكانا يقف عليه ، فوقف فوق «تل» ثم صعد فوق حجر «بن بن» في هليوبوليس ، على هيئة مسلة رمز الشمس ، أبو الالهة جميعا ، وظل آتوم هكذا حيناً من الدهر منفرداً بوحدهانيته ، حتى فرأ من نفسه — بامتزاجه بظله أو باستمنائه — عنصرين ، الواحد ذكر تكفل بالقضاء والهواء والنور ، وغدا يعرف باسم «شو» ، والاخر أنثى تكفلت بالرطوبة والندى ، وغدت

تعرف باسم «تفنوت» ، ثم تراوجا وأنجبا بدورهما «جب» اله الأرض ، و «نوت» اله السماء ، ثم أوحى الى «شو» أن يفصل بين السماء والأرض ، وقد كانتا في بداية أمرهما رتقا ، وأن يملا فراغ ما بينهما بالهواء والنور .

ثم ذهب أصحاب عين شمس الى افتراض حلقة وسطى بين الاوضاع المطلقة التي بدأ بها الوجود ، حينما كان خاصا لاربابه الكبار والاولاد التي استقر عليها أمر الوجود حينما عمره الانسان ، ودبت فيه حياة العمران ، فذهبوا الى أن «جب» و «نوت» انما قد رزقا بمواليد أربعة ، ذكران هما أوزير وست ، وأنثيان هما ايزة ونفتيس ، وقد عرف هؤلاء الالهة التسعة باسم «تاسوع عين شمس» أو «التاسوع الكبير» .

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى عدة نقاط تتصل بنظرية هليوبوليس هذه أو نظرية التاسوع ، منها (أولا) أن مفكرى عين شمس قد سبغوا مفكرى العالم بفكرة الفصل بين السماء والأرض ، ثم رددتها فيما بعد أساطير الخلق العراقية ، وفي القرن التاسع قبل الميلاد (وربما على أيام السبى البابلى في القرن السادس قبل الميلاد) ، وبعد ظهور النظرية المصرية بأكثر من ألفين من السنين سجل كاتب سفر التكوين في التوراة أنه «في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن جلد في وسط المياه ، وليكن غاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد» .

ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه النظرية أرادوا أن يتغلبوا على مشكلة انجاب نسل عن طريق اله وحيد ، دون آلهة أخرى بأن جعلوا أتوم يذنب شو وتفنوت عن طريق الاستنماء ، كما أنهم أرادوا أن يمثل الزوجان الاوليان من أبناء أتوم (شو وتفنوت وجب ونوت) عناصر كونية في العالم ، هي الهواء والرطوبة والسماء والأرض ، وأن يمثل

الزوجان الاخرين (أوزير وايزة وست ونفتيس) ظواهر أرضية في الكون ، فأوزير انما يمثل النيل الذى يسبب خصوبة الارض وانتاجها للمحاصيل ، وتمثل ايزة الارض السوداء التى تنتج المحاصيل بعد ارتوائها من مياه النيل ، بينما يمثل ست أرض الصحراء القاحلة الحمراء ، وتمثل نفثيس تلك الارض البور التى كانت مهيئة للإنتاج اذا ما وصلتها مياه النيل ، ومع ذلك غفل الفكر الدينى الهليوبوليتانى انما أراد من وجود هذين الزوجين تمثيل الكائنات التى تعيش فى هذا الكون ، بشرا أو آلهة ، بعد خلق عناصره ، على أن هناك من يذهب الى أن هذين الزوجين انما يمثلون جسرا بين الطبيعة والانسان ، وليسوا عناصر كونية أبدا .

ومنها (ثالثا) أن هذه النظرية لم تقدم لنا نظرية متكاملة عن الخلق، فقد بدأت عملية الخلق بارتقاء أتوم فوق تل ، ثم صعد فوق حجر «بن بن» فى هليوبوليس حتى ذرأ من نفسه الزوج الالهى الاول شو وتفنوت ، ولكنها لم تشر الى دور أتوم كخالق بالنسبة الى «الهولى» أو «الماء الازلى نون» (مادة الكون قبل خلقه) ، وهل أتوم هو الذى خلق نون ، أم ان نون هو الذى خلقه ، فان صح الاحتمال الثانى ، فلن يكون «أتوم» هو الاله الازلى الذى خلق نفسه بنفسه ، والامر كذلك بالنسبة الى التل البدائى الذى صعد فوقه ليمارس عملية الخلق.

ومنها (رابعا) أن آراء أصحاب هذا المذهب قد تباينت حول الطريقة التى ذرأ بها أتوم مخلوقاته الاوائل ، لاسيما ولديه القديمين شو وتفنوت ، فقال أيسرهم سبيلا ، انه خلقهما بماء اللقاح ، كما يخلق بنو البشر عادة ، غير أن هناك من حاولوا أن يخرجوا من المدلول اللفظى للاسمين ، شو وتفنوت ، بما يدل على طريقة خلقهما ، فقربوا بين كلمة «شو» وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا نفخ ، والانه اذا عطس كما قربوا بين كلمة تفنوت وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا تفل ، وانتخوا من ذلك الى أن ربهم الخالق أتوم نفخ ذات

مرة أو عطس عن قصد ، فصدر عنه «شو» روح الهواء ، وتفل مرة أخرى فصدرت عنه «تغنوت» روح الرطوبة والندى .

ومنها (خامسا) أنه حدث فيما أعقب تأليف المذهب من عهد أن تولى الزعامة في مدينة ايونو جماعة من أهلها أو من جوارها القريب (ربما من مدينة «ساخبو» على الضفة الغربية في مواجهة ايونو عبر النهر تقريبا ، وربما كانت ساخبو ممتدة الى ايونو ، أو أن ايونو قد امتدت ضواحيها الى ساخبو) دانوا بدين اله الشمس رع ، وأفلحوا في أن يجعلوا مدينتهم حاضرة رئيسية في ملك مصر العريض ، ولم ينشأ أنصار رع لأنفسهم زعامة الحكم وحده ، وإنما ابتغوا كذلك زعامة في الفكر والدين ، ولم يكن أقرب الى توطيد زعامة الدين في جانبهم من أن ينادوا بربهم رع كبيرا لبقية من كان يتعبد لهم أهل عصرهم من الارباب ، لولا أن مدينتهم ايونو (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) كانت من قبل قد آمنت بربها أتوم ، واعتبرته خالقا للوجود والارباب على سواء ، وتعين من ثم على أصحاب رع أن يتلمسوا للربط بين ربهم وبين أتوم ما يستطيعونه من الصلات والاسباب ، وتفتحت قرائعهم عن طائفة من قضايا المنطق والتلاعب باللفظ ، لم يسجلوها للانسف في عهودهم الاولى ، وإنما عبرت عن أمثالها عبارات أخرى تناقلها أشياع مذهبهم فيما تلاهم من عصور ، وسجلوها في متون لهم متفرقة خلال عصر الدولتين الوسطى والحديثة .

وفي جانب من هذه المتون نسب أنصار المذهب الى أتوم عبارة يقول فيها عن نفسه «ظلت أتوم حين كنت لردا ، غير أنك أصبحت رع منذ تجلياته القديمة» وعبارة أخرى يؤكد فيها ذات المعنى ، فيقول «ظلت أتوم حين كنت وحيدا في نون ، ولكك غدوت رع في جلاله منذ بدأ يشرف على ما خلفه وأبدعه» ، وبأسباه هاتين العبارتين ، ان لم يكن بنصهما ، خرج أنصار رع يعلنون على الناس أن ربهم رع لم يكن لها جديدا على الاطلاق ، وإنما هو أتوم الخالق القديم من بعد أن شاعت ارادته أن يتجلى على الناس في هيئة اله الشمس «وأن ينير

العالم من أفقه العظيم» ، فالامر انن في زعمهم لم يكن أكثر من تداول بين اسمين ، أما الرب الخلاق صاحب الاسمين ، فهو واحد .

وعلى نحو قريب من هذا المنطق تيسر لاصحاب ايونو أن يزاوجوا بين الاسمين ، فأصبح ربهم الخالق يدعى «لرع أتوم» ، وأخذ أتباعهم عصرا بعد عصر ، يضيفون الى أتوم كل النعوت التي كانوا يظلمونها على رب الشمس وحده عن سبب أو أكثر من سبب ، ومن هذه النعوت «خبرى» ، وهو من الفاظهم التي تلاعبوا بها تلاعبا واسعا ، وكانوا ينطقونه «خبر» ، ويكتبونه بصورة «الجل» أو الجمران في كتابتهم التصويرية القديمة ، ويدل هذا اللفظ في بعض صيغه على الافعال «حدث ونشأ وتكون وأصبح» كما دل في صيغ أخرى له على اسم «الوليد» وصفة «الحدث» بمعنى حديث التكوين ، وإذا أضيفت اليه «ياء» أخيره أو جرة ، فأصبح «خبرى» غدا. معناه «الكائن» أو «الموجود» وإذا كررت راؤه الأخيرة فأصبح «خبرر» دل على نفس معنى الكائن الموجود ، وزاد عليه خاصة الاستمرار ، فغدا يعنى «دائم التكوين ودائم الوجود» ، فضلا عن دلالة على حشرة الجمل التي يكتب اللفظ بصورتها .

وأطلق القوم لفظ خبر ومشتقاته على طائفة من المقدسات والارباب فأطلقوه تارة على كوكب الشمس حين الشروق ، وابتغوا بذلك أن يصفوه بصفة الحدث الذي ظهر لتوه ، ثم عادوا وأطلقوا الاشتقاق «خبرى» على رب الشمس ومسير كوكبها ، وابتغوا به معنيين ، أحدهما فقهي ، وهو تلقيبه بلقب الكائن أو الموجود ، والآخر شعري : وهو تصويره للناس بصورة الجمل العادي حين يدفع بويضاته أو كرة طعامه بين يديه ويدهرجها في طريقه منذ صباحه الباكر ، وادخّر أهل ايونو الاشتقاق الاخير من «خبر» ، وهو «خبرر» لربهم الخالق أتوم ، وابتغوا بل كذلك معنيين ، معنى فقهي يرمى الى تلقيبه بلقب دائم الوجود أو دائم التكوين ، ومعنى آخر شعريا أو مجازيا يرمى الى تشبيه ظهوره الفجائي القديم من نون ، بما يظهر للناس من حال الجمل العادي حين

كمن في باطن الرمل ثم يظهر فجأة على سطحه ، وكأنه ظهر من دنيا
العدم الى دنيا الوجود •

ومنها (سادسا) أن أتوم بصفته «خالق نفسه» ، فإن العمل التالي
الذى قام به انما كان خلق آلهة أخرى ، ونظرا لكونه كان وحيدا في
العالم وقت ذاك ، فقد خلق ذريته دون زوجة ، بامتزاجه بظله أو
بأستمنائه ، ومن ثم فقد اعتبرته بعض النصوص الها يجمع بين الذكورة
والانوثة ، وأطلقت عليه «عظيم هو — هي» •

ومنها (سابعا) أن تفتوت ، فيما يبدو ، كانت لها أهمية أقل في نظرية
المخلق الهليوبوليتانية ، باستثناء وظيفتها كزوجة لشو ، غير أن الكهنة
سرعان ما نادوا بأن «شو» انما كان عماد الحياة منذ وقت مبكر ، وأن
«تفتوت» انما هي أساس النظام في الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الالهة
الشهيرة «معات» ومن ثم فقد أصبح شو وتفتوت الهين صالحين لحمل
دورة الخلق وتأسيس النظام الاجتماعى ، وعلى أى حال ، فليس هناك
من دليل على المكان الذى وقعت فيه هذه الاحداث المبكرة ، فقد خلق
شو وتفتوت ، طبقا لبعض النصوص على التل الازلى •

ولكن طبقا لنصوص أخرى ، فإن أتوم ظل في مياه نون ، حيث
أنجب فيها ولده وابنته ، وتعهدهم بالرعاية عين أتوم ، وذلك طبقا
لأسطورة تذهب الى أن شو وتفتوت قد انفصلا عن أتوم في أحراش
مياه نون ، ومن ثم فقد أرسل أتوم عينه لتجىء بهما ، ولكنه في نفس
الوقت فقد استبدل هذه العين بعين أخرى أكثر لمعانا ، مما أغضب العين
الاولى كثيرا ، وحينئذ أخذها أتوم ووضعها على مقدمة رأسه ، حيث
تستطيع أن تحكم العالم الذى كان على وشك أن يخلقه ، وقد صورت
هذه العين كالهة مدمرة ، وكان أحد مظاهرها الشمس المحرقة في مصر ،
ثم ارتبطت مع الالهة الكوبرا ادجو ، التى مثلت على رؤوس الفراعين
كرمز لقوتهم ، وعندما عاد شو وتفتوت الى أتوم سالت دموعه من
الفرح ، ومن هذه الدموع جاء البشر ، وعندما عاد أتوم لاولاده كان
مستعدا لترك مياه نون وخلق العالم •

ومنها (ثامنا) أن أولاد جب (الأرض) ونوت (السما) الأربعة ، وهم أوزير وإيزه وست ونفثيس (فضلا عن حور بن إيزه ، والذي كان أحيانا ابنا لنوت) انما أدخلهم الكهنة الى نظرية الخلق الهليوبوليتانية كآلهة أقل مكانة من آلهة التاسوع الأصليين ، ومع ذلك فإن هذه الآلهة الذي أطلق عليها اسم تاسوع هليوبوليس قد بقيت كتقليد في الديانة المصرية القديمة ، وقد وضعت في مراكز العبادات الأخرى بنفس هذه الصلات الأسرية ، وربما ارتبطت ببعض العبادات الأخرى مع شيء من التغيير كما يبدو ذلك بوضوح في أصل أتوم فقد اعتبر بشكل عام أنه خلق نفسه بنفسه وان قيل كذلك إنه ابن «نوت» في محاولة لنسبة الخلق فيها الى نون وجب ونوت ، ومن ثم فهو — مع أخوته الأربعة ، أوزير وإيزه وست ونفثيس — انما كانوا مسئولين عن ولادة الناس على الأرض ، بينما تذكر نصوص أخرى أن «نوت» انما قد سميت «أم الآلهة» و «التي تحمل رع كل يوم» ومرة ثالثة نقرأ في متون الأهرام أن الفرعون «ببى» قد تتاسل من أتوم ، قبل خلق السموات والأرض والآلهة والناس والموت ، وفي فقرة أخرى يدعى «ابن نوت» وقد ولد قبل أن تخلق السموات والأرض (١) .

(١) عبد العزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة ص ٣٣ - ٣٧ ، محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق في مصر القديمة ص ١٠٣ - ١٣١ ، تكوين ١ : ١ - ٨ ، وكذا ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ترجمة أحمد قدرى - القاهرة ١٩٨٧ ص ٥٢ - ٥٥ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ - ٧٤ ، فرانسو دوما : آلهة مصر - القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٧ - ١٠٩ .

E. Naville, The Old Egyptian Faith, P. 122-129, V. Lons, Egyptian Mythology, P. 26-32.

S. Mercer, The Pyramid texts, I, P. 33, 125-126 E. A. Budge, Book of Dead, I, P. 8. 62, 285, J. A. Wilson A.N.E.T., P. 3, Intellectual Adventure of Ancient Man, P. 54; H. Frankfort Kingship and the Gods, P. 33, 125-126, 155-182.

B. Gunn, JEA III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 34-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians, 50, 52, 61-26-74-82.

(٢) نظرية الاشمونين

كانت نظرية الاشمونين أو الثمانية^(٢) أكثر تطورا من تلك التى سبقتها ، وقد ردت أصل الوجود الى ثمانية عناصر طبيعية أولية سبقت ظهور «رع أئوم» ومهدت لوجوده ، وتعصب هؤلاء لعناصرهم الثمانية ، وأطلقوا عليها اسم «الثامون» ، وخلقوا اسمها على مدينتهم فدعوها «مدينة الثامون» (الاشمونين) ، غير أنهم حين بدأوا بصياغة مذهبهم خلال اليهود الاواخر من فجر التاريخ القديم ، لم يكونوا قد اهتموا بعد الى سبل الكتابة والتدوين ، ومن ثم فقد كان على المذهب أن يظل على أفواه أصحابه حتى تبدأ عصور الكتابة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد أو نحوه ، حيث بدأت بهما العصور التاريخية .

غير أن ظروفنا أخرى ساعدت على بقاء مذهب أونو (خمنو) فى طى النسيان قرونا طويلة ، منها أن أمور السياسة والفكر لم تعد وقت ذاك تتقبل الاقليمية من أهلها ، وانما اتجهت الى دعم المركزية المطلقة فى عاصمة الدولة وحدها ، ومنها أن رجال الدين فى الدولة القديمة حين عمدوا الى تدوين أولى موسوعاتهم الدينية والمذهبية فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، كانوا من أنصار رع ومذهب التاسوع بالذات ، فعمدوا الى تجاهل مذهب خصومهم من أهل أونو ، ولم يذكروا غير

(٢) كان عدد الثمانية الذى عرفت به مدينة الاشمونين يشير الى الالهة الثمانية التى كان موطنها الاصلى مدينة «أونو» وقد نطق فى المصرية القديمة «خون» أو «خمنو» وفى القبطية «شمون» ثم ثنى لفظه فى اللغة العربية فأصبح «شمونين» ، وظال يطلق على الجانبين الواقعين على بحر يوسف من مدينة الاشمونين ، على أن هناك من يذهب الى أن اسم «خمنو» أو «خمنو» سبقه الى الوجود ، فيما قبل العصر الاهناسى ، اسم «أونو» التى اعطيت اسمها للاقليم «ونوت» وكانت تقع فى العصر التاريخى فيما وراء خمنو ، ثم أصبحت فيما بعد مدينة واحدة تتكون من جزأين ، الواحد «ونو» والثانى «خمنو» ، وكانت خمنو (الاشمونين) عاصمة الاقليم الخامس عشر من اقاليم الصعيد ، وقد عرف باسم اقليم الارنب ، الذى رمز له به ، وقد أطلق الاغريق على المدينة اسم «هرموبوليس» أى مدينة هرمس ، الاله اليونانى المقابل للاله تحوت اله الاشمونين ، والتى تقع على مبعده ، ١٠ كيلا شمال غرب ملوى (٤٥ كيلا جنوبى مدينة المنيا) .

أربعة من أسماء عناصره أو نحوها بين الأصول ، وفي العصر الاناسي لم يستطيع أهل أونو ، في مقابل منافسة أهل الشمس ، غير تسجيل أسماء أربابه الثمانية في عدد من النصوص دون شرح أو تفصيل ، وفي العصور المتأخرة نجح أصحاب مذهب أونو أن يسجلوا ما ترامى اليهم من صفات أربابه وعناصره ، فسجلوها في بضعة نصوص متفرقة يغلب عليها طابع التفلسف وطابع الاستغراق في الوقت نفسه .

هذا وتتلق نظرية الاشمونين أو الثمانية مع نظرية عين شمس أو التاسوع في أن العالم كان محيطا مائيا اسمه «نون» ، ولكنها تختلف عنها في أن إله الشمس هنا لم يخلق نفسه ، وإنما انصدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على هيئة ضفادع وحيات ، خلقت بيضة وضعتها فوق مرفق على سطح «نون هرموبوليس» ، ومن هذه البيضة خرجت الشمس ، فهذه العقيدة تنتهي الى الشمس ، ولكنها لا تبدأ بها ، والشمس ولدت في هرموبوليس ، وليس في هليوبوليس ، ومن ثم فإن للاولى (هرموبوليس) حق السيادة .

وأما آلهة الاشمونين الثمانية فكانوا عبارة عن أربعة ذكور في هيئة الضفادع ، وأربعة أنثى في هيئة الحيات ، وكل منهما مثل مظهرا من المظاهر التي كانت تسود العالم في البداية ، فالزوج الاول هو «نون» و «نونسه» (نونت) ويمثل الفراع اللانهائي ، والزوج الثاني هو «هوح» و «هوحه» (حوحيت) ويمثل الماء الازلي ، والزوج الثالث هو «كوك» و «كوكه» (كوكيت) ويمثل الظلمة ، والزوج الرابع «نيباو» و «نيات» و «آمون» و «أمونيت» ، ويمثل الخفاء وأن هؤلاء الثمانية قد خلقوا العالم مجتمعين ، ثم حكموا فترة من الزمن ، اعتبرت بمثابة عصر ذهبي ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى العالم السفلي ، وان استمرت قوتهم بعد موتهم لتكون سببا في فيضان النيل ، وفي شروق الشمس كل صباح .

ولعل من الاهمية هنا الاشارة الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن نظرية

الاشمونين هذه لم تصل اليينا من نقوش معاصرة أو حتى قريبا من ذلك ، كما حدث بالنسبة لنظرية عين شمس ، التي حفظت لنا في متون الاهرام ، وكما حدث بالنسبة الى نظرية منف التي حفظت في نقش حجرى ، يرجع الى أيام الملك شباكا (٧١٦ - ٦٩٥ ق.م) ، وان كانت دون شك ترجع الى تاريخ موغل في القدم ، ربما بجانب ما ذكرنا من قبل ، أن الاشمونين لم تكن يوما ما مقرا للعرش المصرى ، ومن ثم لم تجسد ملكا يهتم بها بالدرجة التى تجعله يأمر بنقشها في مقبرة أو هرم أو حتى على حجر ، وربما تعرضت المدينة للتخريب منذ عصور ما قبل التاريخ ، مما أدى الى ضياع تلك النظرية ، وهكذا لجأ العلماء الى البحث عنها في مقتطفات من نصوص تنتمى معظمها الى طيبةوالتي كان معبودها آمون ، واحدا من آلهة أونو (الاشمونين) الثمانية ، بل أن هذه المقتطفات نفسها انما يرجع معظمها الى العصر اليونانى الرومانى ، وليس الى العصور الفرعونية .

ومنها (ثانيا) أن تعاليم الاشمونين انما تبدأ بالبداية الاولى للكون ، بالهيولى (مادة الكون قبل خلقه) ، والذي تصوره القوم مياها أزلية موحلة بما علق عليها من طمى ، مستعدين هذه من المياه التى تغرق الارض وقت الفيضان ، ولعل تصور القوم الالهة الاربعة الذكور برؤوس ضفادع ، والالهات الاربعة الاناث برؤوس ثعابين ، انما هو من تأثير آخر فى هرموبوليس يربط هذه الالهة الثمانية بالحياة البرمائية التى تكونت نتيجة لخلق نفسها بنفسها فى الطمى الذى يخلقه عادة فيضان النيل كل عام ، وان ذهبت آراء الى أن تصوير الالهة الثمانية بهذه الاشكال انما يعنى فى التفكير المصرى انما كانت فى الواقع حيوانات من هذا النوع ، مخلوقات تكونت بنفسها من الطين ، وذهبت آراء أخرى الى أن الالهة الثمانية فى أشكالها هذه انما هى مناسبة لسكنى الاصل البدائى ، وأنهم لم يكونوا جزءا من الكون المخلوق ، وان كانوا من الهيولى نفسه ، كما تشير الى ذلك أسماؤهم ، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن الالهة الثمانية انما نشأت من قبل هرموبوليس البدائى ، أى نشأت بعد ارتفاع التل البدائى من الهيولى .

ومنها (ثالثا) أن القوم رغم أنهم لم يتركوا لنا نصوصا في تعليل ما دعاهم الى تخير رؤوس الضفادع لذكور الالهة ، ورؤوس الحيات لاناثها، غير أنه ما من بأس في أن يظن بهم نوع من القصد السليم وعمق التفكير ، فكل من الضفادع والحيات يناسب الحياة الاولى التى عاشتها الارواح الثمانية كل المناسبة ، فهى تحيا في الماء واليابس ، وتحيا كذلك عن قربيها ، وتبدو كما لو كانت تختزن في جوفها الهواء ، ولعلمهم زادوا كذلك فافترضوا في الضفدع على أقل تقدير ، تمثيلها لمرحلة عتيقة من صور الحياة الاولى ، ولا سيما أنه يتبدى من مظهرها الاغير وجلدها المغض ما يوحى بالقدم والتقدم لجنسها بالفعل ، فضلا عن أنه في الكثرة الهائلة التى تتوالد بها على شواطئ الماء ما يوحى باتخاذ مخلوقات الصغيرة رمزا للكثرة التى تعاقبت بها المخلوقات الاخرى الكبيرة وتم بها عمران الكون ، وهو أمر أخذ به المصريون في كتابتهم التصويرية القديمة ، فجعلوا من صورة يرقة الضفدع رمزا يعبر عن مائة .

ومنها (رابعا) أن النصوص انما تشير الى أن عمل الالهة الثمانية انما هو خلق النور ، أى خلق اله الشمس ، ومن هنا فقد أطلق عليها «الاباء والامهات الذين صنعوا النور ، والمياه التى صنعت الهواء ، آباء وأمهات الشمس» و «الارواح التى صنعت الشمس» و «والالهة القدامى الذين صنعوا مسكن الاقنق (رع) ، والذين خلقوا اله الشمس بعد الظلام» ، ويشير كتاب الموتى من عهد الدولة الحديثة الى أن خلق النور انما تم عن طريق الالهة الثمانية القدامى . التى تركت اله الشمس ينشأ في زهرة من زهور اللوتس عند مصدر الماء القديم ، ومنها خرج اله الشمس ، ويذهب «كورت زيتة» الى أن خلق النور انما قد حدث فوق التل البدائى لهرموبوليس ، ذلك لانه انما كان أول قطعة أرض صلبة انبثقت من مصدر الماء نون ، والتى يمكن أن يمارس فوقها هذا العمل .

ومنها (خامسا) انه ربما أمكننا القول أن نظرية الاشمونين هذه ربما تكمل نظرية عين شمس ، فكما أشرنا من قبل أن نظرية هليوبوليس

قدمت لنا نظرية خلق كاملة للكون الحالي وعناصره ، ولكنها أهملت جانباً هاماً من قصة الخلق يتمثل في مادة الكون وطبيعته قبل الخلق ، فضلاً عن التل البدائي الذي مارس فوقه أوتوم أول أعماله في الخلق ، ومن ثم فإن نظرية هرمبوليس تكمل هذا النقص عن طبيعة الكون ومادته قبل الخلق ، فتذهب إلى أن ثامونها إنما هو تشخيص وصفات للهيولي ، وهو مادة الكون قبل خلق العالم ، ومن ثم فإذا ضمت النظريتين إلى بعضهما لانتجا نظرية شبه متكاملة لا ينقصها سوى تفسير كيفية وجود التل البدائي ذلك لأن التعاليم الهرمبوليتانية لم تقدم لنا تفسيراً اثولوجياً مع ضرورة وجود هذا التل لتعيش الآلهة الثمانية ، فضلاً عن إشارة هذه التعاليم إلى قيام هذه الآلهة بخلق النور فوق هذا التل .

ومنها (سادساً) أن تعاليم منف وطيبة عن فكرة الخلق إنما تشير إلى أن كلا منهما تحاول أن تثبت تفوقها عن طريق تقرير أن الآلهة الخالقة في هليوبوليس وفي هرمبوليس أن هي إلا صور ومظاهر لبتاح منف وآمون طيبة ، مما يثبت أصالة عقيدتي أيونو وأونو ، كما أن كلا منهما لها طابعها الخاص ، هذا فضلاً عن أن طبيعة تعاليم هرمبوليس والمفهوم الذي تقدمه إنما يشير إلى أنها أقدم من تعاليم هليوبوليس ، وإذا ما قيل أن الأولى إنما قد وضعت لمنافسة الثانية فيما يتصل بنسبة الخلق إلى أوتوم اله أيونو ، فإن ذلك يمكن قبوله بالنسبة لتعاليم منف مثلاً ، حيث تنص صراحة على أن أوتوم من خلق بتاح ، أما تعاليم أوتو فقد أعطت تفسيراً لطبيعة الكون قبل الخلق ، ثم خلق النور بإفنتاج اله الشمس الذي لم يكن أوتوم ، وإنما اله آخر لقبه القوم «شيسى الذى فى خمنو ، الابن الرائع للثامون» ، فضلاً عن أنها تعاليم منطقية تعطى تفسيرات معقولة أكثر من عبارة «الذى خلق نفسه» التى نسبها كهان هليوبوليس إلى ربهم أوتوم ، الذى جعلوه مخلوقاً من نفسه ، ولم يخلقه أحد بل أنه خلق كذلك عناصر في الكون كأبناء له ، منها السماء التى هي في الواقع أعظم إذ أنه يسير في فلكها ، بل هي أمه التى تنجبه كل

صباح ، وهذا في حد ذاته يرجح أن عقيدة هرموبوليس لم تكن أحدث من تلك التي كانت لهليوبوليس (٣) .

(٣) نظرية منف

استطاع الملك مينا أن يوحد القطرين ، وأن يؤسس الاسرة الاولى المصرية ، وأن يقيم لمصر حكومة متحدة قوية حوالى عام ٣٣٠٠ ق م ، وأن يشيد له عاصمة جديدة ، هي «أنب حج» (منف) ، وسرعان ما بدأ أهلها يهتمون بتفوق مدينتهم الجديدة على المدن الاخرى ، ليس فقط لانها أصبحت مقر العرش الملكى ، ومن ثم فقد أصبحت لها الاهمية السياسية الاولى في البلاد ، ولكن كذلك على أساس أنها مركز دينى يفوق غيره من المراكز الدينية الاخرى ، وهكذا بدأت تظهر في منف مدرسة دينية ثالثة ، بجانب مدرستى عين شمس والاشمونين .

وفي الواقع فلقد كانت مدرسة منف هذه أكثر المدارس الثلاثة عمقا وأكثرها حبكة ، وأقربها الى المعنوية والمنطق ، وتذهب الى أن ربها «بتاح» هو الرب الخلاق القديم ، وأن الارباب الاخرى التي عرفها البشر لم تكن غير صور من «بتاح» ، وأنه منذ أن استوى على عرشه لأول مرة كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، وهكذا حاول المنفيون أن يجعلوا ربهم بتاح مطل أتوم ، رب عين شمس ، وأن يجعلوه على رأس تاسوع مكون من «ثلاثين» ثم أتوم ونون ونونة ، ثم أربعة آلهة أخرى هي : حور وتحوت ، ثم نفر توم والشعبان ، ومن ثم

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٩ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٣١ - ١٤٨ ، ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ - ٧٣ ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٥١ - ٥٢ ، وكذا

B. Gunn, JEA, III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 33-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians 1927, P. 298-301.

K. Sethe, Amina und die Achte Urgotter Von Hermopolis, P. 36-38 50-52, 61-62, 74-82; H. Frankfort, Op. Cit., P. 151, 155, 166.

فقد أعتبر أتوم في هذه المدرسة أقل شأنًا من بتاح ، كما أن شفتى أتوم وأسنانه التى تفل بهما شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كما اعتبر القلب واللسان من أطيايف بتاح ، وهذان كلنا يمثلان حور وتحوت ، وقد خلق اللسان (أى تحوت) كل شيء بواسطة الكلمة •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة نقصا ط ، منها (أولا) أن أصحاب منف قد أبتغوا في مذهبهم التجديد ، فضلا عن اعلاء شأن مدينتهم وأربابها المحليين ، وليس هناك من ريب في أنهم كانوا على دراية بما نادى به مذهب ايونو وأونو ، ومن ثم فاذا كان أصحاب عين شمس قد شبهوا ظهور ربهم الخالق القديم بظهور ربوة عالية أو طافية لمصدقهم القوم وأعتنقوا مذهبهم ، واذا كان أصحاب أونو بدورهم قد نادوا بوجود ربوة عالية ظهر عليها رب الشمس حين خرج من دحيته لأول مرة ، فلم لا تكون الربوة العالية أو الطافية الحقيقية هى منف ذاتها أو جزءا معينًا منها ، وهى بالفعل أرض طافية ومن غير مجاز من قبل أن يتحول عنها طوفان الماء القديم أو طغيان فرع النيل القديم ، ولم لا يكون ما حدث في منف من عمران وتنظيم منذ بداية أنشائها القديم عن تدبير حكيم ، قد حدث مثله عند نشأة الوجود لأول مرة ؟ •

ومنها (ثانيا) أن أصحاب المذهب المنفى انما اعتبروا بتاح ، اله منف الاكبر ، والمتحكم في القضاء والقدر ، انما هو الاله خالق العالم كله ، وهو «بتاح» بمعنى الفتاح أو البناء ، وربما الخلاق كذلك ، ويلقب أحيانا بلقب «تائنن» بمعنى رب الارض العالية أو الناهضة ، وهكذا أعلن المنفيون أن الارباب الذين عرفهم البشر جميعا لم يكونوا غير صور من بتاح أو اثنانيم له ، وأن بتاح هو الرب الخالق القديم ، وانه منذ أستوى على عرشه لأول مرة ، كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، كما كان روحا لليابس القديم أو الارض الطافية الناهضة على حد سواء •

وارتأى أصحاب المذهب أنه لما كان بتاح هو الإصل والجوهر ،

والارباب صوره وأقانيمه ، فقد حق له أن يتميز عنهم جميعا بحيث ظل «بمثابة القلب واللسان لهم جميعا» ، وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم أن القلب معناه «العقل» أو «الفهم» ، أما اللسان فهو رمز للنطق أى للدادة التى تبرز أفكار العقل وتعبّر عن أوامره، أى أنها تخرج مافيه من خير الى عالم الحقيقة الملموس ، وهكذا ، كما قالوا ، لم يكن القلب واللسان بالشئ الهين ، اذ كان لهما سيطرة على كل عضو فى الجسم ، واذا كان ثمة دليل سابق ، فهو «دليل قائم فى كل صدر ، وفى كل فم للارباب والبشر والانعام والزواحف على سواء» ، واذا كان ثمة دليل مرة أخرى على أهمية القلب فانما يكون مما يلاحظ من أن «ما تشهده العينان وتسمعه الاذنان ووتشمه الانف ، انما جميعه الى الفؤاد» و «أما الفم فهو الناطق بكل شئ» .

ومنها (ثالثا) أن أصحاب منف انما ذهبوا الى أن بتاح هو قلب ولسان الناسوع ، وقد قصدوا بذلك أن بتاح انما هو قلب ولسان الناسوع أتوم ، ومن ثم فقد سلبوا أتوم رب هليوبوليس بكل عمل خلاق وكل قدرة ونشاط فى الخلق والابداع ، مادام قلبه ولسانه اللذين خلق بهما الناسوع الهليوبوليتانى ، ليسا الا أحد مظاهر بتاح ، وهكذا نسب المنفيون عمل أتوم فى الخلق الى ربهم بتاح ، أى أن تعاليم منف جعلت كل النشاط الخلاق لأتوم من عمل بتاح .

ومنها (رابعا) أن هناك من يذهب الى أن فكرة وجود ثمانية أشكال لببتاح ، انما هى اقتباس من فكرة الخلق الهليوبوليتانية التى أعترفت به الشمس ، ولكنها فى نفس الوقت ذهبت الى أنه من انجساب الالهة الثمانية الذين يشخصون الهىولى (مادة الكون قبل أن يأتى أى شئ للوجود) ، وما دام هؤلاء الثمانية كانوا من مادة بتاح ، مظاهر غير مخلوقة لكيونته ، ومن ثم يصبح بتاح خالقا للشمس ولللهة جميعا .

ومنها (خامسا) أن حور كان فى مذهب المنفيين مظهرا لببتاح ، وقد مثل فى الطقوس كفرعون الحاكم ، وقد ظهر فى حجر شباكا (مصدرنا عن المذهب المنفى) كحاكم للأرض ومستول عن توحيدها وذكرها مع الاسم

الكبير «تائنن» ، وأصبح تائنن هو اسم بتاح في منف (بتاح التل الازلى) وقد قصدوا من ذلك أن يخلق الارض فحسب ، وانما هو الارض كذلك ، ولعل الهدف تفنيد مزاعم أصحاب هليوبوليس من أن معبدهم مقام فوق نون ، التل الازلى •

ومنها (سادسا) أن مفكرى منف انما كانوا يدركون أن كل هذه التمثيلات لبتاح انما هى مجرد رموز ، بمثابة أفكار فلسفية ، فقد كان بتاح يملك قوة الخلق من خلال الفكر والارادة ، وقد أستبعد أتوم ، وحل محله حور ، الذى ولد بارادة بتاح ، وقد اعتبره المنفيون بمثابة القلب ، كما اعتبروا تحوت بمثابة اللسان ، ربما كمحاولة لادخال عقائدهم في نظرية أكثر قدما من نظرية هليوبوليس ، فقد كان حور هو اله الشمس القديم ، وكان تحوت هو اله القمر ، واله الحكمة كذلك ، وقد كان من المفروض أن يكون قلب بتاح هو تحوت ، ولسانه هو حور ، ذلك لان تحوت انما هو العقل المفكر ، اله الحكمة والذكاء والعلم ، بينما كان حور ممثل السلطة الفرعونية ، سلطة الحاكم الذى يعطى أوامر تنفذ ، فهو اللسان أو المنطق القاطع البات ، هو الامر الذى يصدر لتنفيذ ما فكر فيه القلب •

ولكن النص صريح ويفرض الالتزام بما جاء به ويجعل الاجتهاد خروجاً عليه ، ولو أن المنطق قد لا يتقبل تشخيص القلب ب «هو» (حور) بعكس الحال بالنسبة لتشخيص اللسان ب «سيا» (تحوت) الذى يمكن قبوله على أساس أن تحوت أيضا سيد الكلام والصيغ السحرية ، الاله الذى ينطق الكلام بالمنطق الصحيح وبالمنفعة الصالحة ، على أنه يمكننا أن نتصور أن المذهب المنفى جعل من حور قلبا لبتاح ربما لان مؤسسى الوحدة ومشيدى منف كانوا من أتباع حور ، ومن ثم فقد نسب كهان منف، ارضاء لهم، الى حور الدور الفعال في مذهبهم، فجعلوه بمثابة القلب العضو الاكثر أهمية في تعاليمهم ، فهو الذى تنشأ عنه كل الافكار والاعمال ، بينما يقتصر عمل اللسان على مجرد تنفيذ هذه الافكار باصدار الامر بها •

ومنها (سابعاً) أن بتاح لم يكن في نظر المنفيين هو خالق الكون والروح الخالقه للعالم المادي ، والجامع لكل وظائف الالهة الاخرى فحسب ، وإنما كان كذلك خالق النظام الاخلاقي ، مما يشير الى تطور نظرية منف أكثر من نظرية ايونو ، وان كانت معلوماتنا عن الاخرة ليست كافية ، ويقرر حجر شباكاً (الذي دونت عليه تعاليم منف ، والموجود حالياً بالمتحف البريطاني) أن بتاح هو «الذي صنع الجميع، أحضر الالهة الى الوجود ، انه حقا تائنن ، الذي أحضر قديماً الالهة ، لان كل شيء انبثق منه ، الغذاء والمؤن وقربان الالهة ، وكل شيء طيب ، وهكذا اكتشف وفهم أن قوته أعظم من الالهة الاخرى ، لذا كان بتاح راضياً بعد أن صنع كل شيء ، وكذا كل أمر الهى ، لقد شكل الالهة ، وأسس المدن ، وأوجد الاقاليم ، ومن ثم فهو الذي خلق النظام السياسى ، لقد وضع الالهة في محاريبهم وصنع أجسامهم بالطريقه التى ترضى قلوبهم ، ولذا فقد دخلت الالهة في أجسامها من كل نوع من الخشب والحجر والطفل أو أى شيء مما ينمو فوقه ، قد يأخذون فيه أشكالهم ، ومن ثم فإن كل الالهة «كا» اتهم قد جمعت أنفسها له ، راضية ومقترنة بسيد الارضين» ، وهكذا كان بتاح هو «تائنن» الارض المرتفعة ، اله هذه الارض وروح الحياة الموجودة فيها ، ومن ثم فهو يقوم بتنظيم هذه الارض باقامة المدن والمقاطعات الى جانب أنه أتى بكل الالهة وبجميع الكائنات الى الوجود ، على أساس أن كل شيء في هذا الوجود انما هو انبثاق منه كالقلب واللسان .

ومنها (ثامناً) وصف بتاح بأنه «تائنن» التل البدائى الذى ارتفع من الهىولى ، والذى يمثل أول قطعة أرض برزت من هذا الهىولى ، وهذا التل هو الذى مارس فوقه أتوم أول أعماله فى الخلق ، وفقاً لنظرية عين شمس ، وهو المكان الذى تعيش فوقه ثمانية هرموبوليس، طبقاً لنظرية الاشمونين ، وقد أشير من قبل الى أن نظرية عين شمس لم تقدم تفسيراً ثيولوجياً عن الهىولى (مادة الكون قبل الخلق) والتل البدائى الذى ارتفع من هذا الهىولى ، وأن نظرية الاشمونين قد استوفت الهىولى بأن جعلت الثامون تشخيصاً ووصفاً للهىولى ، ولكنها

لم تقدم تفسيراً ثيولوجياً لكيفية وجود التل البدائى ، برغم الإشارة الى أن الالهة الثمانية خلقت اله الشمس فوق هذا التل ، وهكذا جاءت نظرية منف لتكمل نظرية عين شمس عن التل البدائى فنادت بأن بتاح تائثن هو هذه الارض الاولى التى ارتفعت من الهولى الكونى، وهكذا يمكن القول أن النظريات الثلاث انما تقدم معا قصة خلق متكاملة تقدم تفسيراً للكون وظواهره وكائناته قبل أن تأتى الخليقة الى الوجود وبعد أن أتت .

ومنها (تاسعا) أن كهانة منف حاولوا أن يربطوا مدينتهم بديانة أوزير ، وذلك بادعاء أن أوزير قد غرق عند شاطئ منف ، وأن ايزة وتفنيس قد انتشلتا جسده ثم دفنتاه فى أرض منف ، ومن ثم تصبح منف مخزن غلال الاله التى تمد الارضين بالغذاء ، نتيجة للخصوبة التى اكتسبتها أرضها بدفن أوزير فيها ، ذلك لان أوزير كان ، فيما يعتقد القوم ، مياه الفيضان الخصبة أو هو القوة التى تمنح الارض الخصب والحياة ، وبالتالى تصبح منف التى نسب اليها مكان غرق أوزير ودفنه هى أخصب الاراضى المصرية قاطبة ، وهكذا أصبحت مخزن غلال الاله التى تمد الارض بالقوت ، هذا فضلا عن أن المتنفين انما نسبوا الى أوزير ، شأنه فى ذلك شأن بتاح ، أنه علم الجنس البشرى فنون الحضارة ، مما يشير الى أن الكهانة المنفية انما أرادت أن تستميل أوزير وتجعله واحدا فى نظامها .

ومنها (عاشرًا) أن أصحاب المذهب المنفى انما أطلقوا على بتاح كذلك لقب الصانع الماهر المقدس ، كما كان الخالق العظيم ، وقد وحده الاغريق مع الههم «هيفايستوس» ، ولكنه كان كذلك سيدا للصدق ، ومن ثم فقد صحبه تحوت الى الحكمة فى كل مكان ، ولما كانت أفعاله أعمال عدالة كان مع تحوت يعمل كل شئ بصورة كاملة لم يكن مضللا أو مخادعا ولكنه كان صانعا ماهرا ، انه بتاح ومن هنا فقد نادى النظرية المنفية بأن العدالة تعطى لمن يفعل ما هو محبوب ، والمظلم لمن يفعل ما هو مكروه ، وأن الحياة تعطى للمسالمة ويحقيق الموت بالمجرم

الاثيم ، وفي التعبيرين «ما هو محبوب وما هو مكروه» نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الانسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء ، لانهما ذكرا هنا لأول مرة في تاريخ البشر .

ومنها (حادى عشر) أن بتاح قد مارس عمله في الخلق عن طريق القلب واللسان ، وهو أسلوب في الخلق لم يشهده في النظريات الاخرى ، فالنظرية المنفية جعلت من الخلق عملية عقلية معنوية صرفة لا تتصل بالمادية من قريب أو بعيد ، ومن ثم فلم يكن المذهب في حاجة الى تقديم تفسيرات عن كيفية خلق السماء أو الارض أو الهواء أو غيرها من الظواهر الكونية الاخرى ، هذا فضلا عن أن بتاح انما هو القلب واللسان في كل كائن ، سواء أكلن من البشر أو الالهة أو أى شىء يعيش على الارض ، وما دام كل عمل أو نشاط ينسب الى القلب الذى هو منبع كل فكرة ، واللسان الذى يقوم بتنفيذ هذه الفكرة بالنطق بها ومن ثم فان كل نشاط في هذه الحياة انما ينسب الى بتاح ، وهذا يعنى أن بتاح هو نشاط هذا العالم وحياته ولولاه لما وجد في هذا العالم حياة ، وهو مبدأ لم تتناوله النظريات الاخرى .

وهكذا كان اللاهوت المنفى الذى كتب قبل العبرانيين وقبل اليونان بأكثر من ألفى سنة ، كان اصراره على وجود عقل خالق ومسيطر ، عقل صور مظاهر الطبيعة وأمدّها منذ البداية بالمقاعدة والبرهان ، كان تفكيراً شاملاً في سموه ، قبل أن يوجد الفكر اليونانى أصلاً ، ولم يستطع المصريون بعد ذلك أن يصلوا الى علوه ، فضلاً عن أن يتجاوزوه ، هذا فضلاً عن أن هذا اللاهوت المنفى انما يزيل من ديانة المصريين القدامى سمة المادية ، فقد كانت ذات طبيعة روحية وفلسفية لا تبارى من قبل النظريات الاخرى ، فقد كان بتاح روحاً خلقت نفسها ، ومسبباً للأسباب التى أنتجت كل شىء وكل كائن مادي في السماء والارض والعلم السفلى ، وهكذا انتقل القوم من عالم المادة الى عالم الروح .

على أن هذا اللون من ألوان التفكير في الخلق وخالفه لم يجب

ما تقدمه من ألوان أخرى ، فنحن نرى الجديد على رقيه وتهذيبه الى جانب القديم على ما فيه من خشونة مادية وجفاف ، وليس ذلك بالشيء الغريب ، فان للقديم على جفافه وخشونته حرمة في ضمير الزمن وقديسية في نفوس الناس ، وآية ذلك ان نظرية منف على ما فيها من لطف وروحانية لم تستطع أن تجب نظرية هليوبوليس المادية المفترية بل ان هذه الطبيعة المعنوية التي انفردت بها تعاليم منف عن الخلق هي التي كانت عائقا أمام انتشار هذه التعاليم ، ذلك لان أفكارها الدينية والفلسفية السامية لم يتقبلها عامة القوم قبولا حسنا ، ربما لانهم لم يجدوا لها تفسيرا في الواقع المصسوس ، وربما لانها لم تترك شيئا لنشاط خيالهم أو لادراك عقولهم ، ومن ثم ازدهرت هذه العقيدة ابان سيطرة ملوك منف ، ومع ذلك فقد استطاع كهان رع أن ينشروا مذهبهم بنجاح في الاسرة الرابعة ، وان كان نجاحهم أكبر في الاسرة الخامسة ، على أن نهاية الاسرة السادسة ربما كانت بمثابة انهيار للعقيدة المنفية ، كما أن طبيعة بتاح الروحية لم تدعيها فيما بعد واحدة من الكهانات لمعبودها^(٤) .

٤ - نظرية طيبة

كانت المدرسة الرابعة قد نشأت في طيبة (واست) ، وهي مدينة نهياً لها حظ واسع في عالم الفكر والسياسة والدين خلال فترات قصار من عصر الدولة الوسطى ، وفترات طوال من عصر الدولة الحديثة ، حتى أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم من غير منازع ، وفي فترة

(٤) جيمس هنري برستد : فجر الضمير ص ٤٨ - ٦٠ ، أحمد بدوي في موكب الشمس ص ١٥٨ - ١٥٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٣ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٧٦ ياروسلاف تشرنى : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ ، فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٦٤ - ٧٠ .

J. A. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, P. 58-61.
ANET, P. 4-6; H. Frankfort, Op. Cit., P. 24-31; V. Lons, Op. Cit. P. 33-34; E. A. Budge, Op. Cit., P. 265-270, P. Boylan, Thoth the Hermes of Egypt, P. 110-111; J. Vandier, Op. Cit., P. 34.

لا تدرى تحديدها عن يقين خرج أهل الفكر والدين في واست (الاقصر) بمذهب جديد من مذاهب نشأة الوجود، وكان من ألبدهى لهؤلاء أن يبدؤا بمدينتهم ، وأن يلتمسوا لها من من الطبيعة وتقدم النشأة وقداسة السعة ، ما يكفل تصويرها للناس على أنها الموطن القديم للبدء والخلق والعز والمجد ، دون أية مدينة أخرى سواها ، وهكذا مهد أهل طيبة أو واست لأزلية مدينتهم ، ثم يفعلون الشيء نفسه بالنسبة لربها آمون، فأعلنوه ملكا للآرباب جميعا ، وتعهدوا أن يوحّدوا بينه وبين آلهة المذاهب القديمة جميعا ، وأن يجعلوه المصدر الأزلى القديم لها جميعا .

وانطلاقا من هذا فخلد بدأ أنصار آمون ينسبون إليه كل ما يليق بمكانة ربهم الذى أيدهم بنصره في مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة العالمية ، وردوا إليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا إليه ربوبية النشأة الاخيرة ، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لمذهب طيبة هذا ، والذى تاتر بمذهب الاشعونين ، هو الاله الاكبر الذى أوجد ذاته بذاته ، شأنه في ذلك شأن أتوم ، لم يكن هناك اله آخر غيره ليخلقه ، ومن ثم فلم يكن له أب ولا أم ، لم يكن مرثيا وانما ولد في الخفاء ، واستمر فردا حتى أتم عهده لبقدره لنفسه ، وحين ذاك تخير لنفسه مكانا مقدسيا آوى إليه واستقر فيه ، وظل أمر الاله خفيا باسمه وشكله والمقر الذى استقر فيه ، حتى ابتغوا أنصاره أن ينسبوا إليه ألقابا ثلاثة يرتضيها لنفسه ، فدعوه «آمون» بمعنى الخفى ، و «آمون رنف» أى خفى الاسم ، و «كم آتف» بمعنى الذى أتم عهده، كما جروا على أن يرمزوا إليه تجاوزا بهيئة الثعبان ، ويتخيلوا مأواه المختار في عالم سفلى بعيد يقع مدخله لدى مكان دعوه «يأت ثامو» على مقربة من مدينة «حابو» بغربى طيبة ، وظل أمره كذلك حتى اتجه الى خلق الارض ، وهنا أطلق عليه أنصاره لقبين ، الواحد آمون بمعنى الخفى ، والاخر «ايرتا» بمعنى خالق الارض ، أو صانع الارض .

وارتأى رب واست (الاقصر) بعد ذلك أن يفادر مقره القديم ، وأن يتزود له بقدرة الخلق والاحصاب فالتجه الى الاشعونين وهناك أصبح

واحدا من أربابها الثمانية الكبار ، وأن زعم الطبيعيون أنه كان قد خلق الارباب الثمانية من نفسه قبل أن يغادر طيبة في مكان معبد الاقصر المحلى ، والذي أقيم بعد ذلك بعشرات القرون ، ومن ثم فإن آمون حينما ظهر في ثامون الاشمونين انما استمرت له الهيمنة وظل صورتهم المثلى ، ولم يعدوا أن يكونوا أقانيمه أو توائمه ، و في هذا الوضع الاخير في الاشمونين أصبح آمون ربا للهواء وحفيظا على مقومات الحياة وشريكا في توليد شمس السماء ، وصورة أصلية من المهبأ في الوقت نفسه ، ومن ثم فقد اتجه أصحابه الى التعديل في ألقابه القديمة، افظا ومدلولا ، فخلعوا عليه لقب آمون القديم ، ولكن بمدلول جديد، وهو «الحفيظ» ، كما أضافوا اليه لقباً آخر فجعلوه «آمون رع» تنويعا بألوهيته للشمس وما يصدر عنها من حرارة ودفء ونور .

وأما الارباب الثمانية التوائم في أونو ، فقد نصبوا اله الشمس في هيئته الجديدة خليفة لهم ، ثم خرجوا معه بعد ذلك الى عدة مواضع أصبحت فيما بعد عواصم الدين والملكوت جميعا ، خرجوا به الى عين شمس (ايونو) فقصوا بها زمنا وجعلوا له فيها شأنا كبيرا ، ثم رجعوا به الى الاشمونين حيث أكدوا له ملكوات الهواء ، ثم انطلقوا به بعد ذلك الى منف حيث عهدوا اليه بعرش ربها ، وأخيرا عادوا به الى طيبة، حيث استقروا في عالمها السفلى ، على مقربة من مدينة حابو ، حيث استقر قبلهم «كم أئف» أصلهم الازلى القديم .

وكان من نتائج ذلك كله عدة دعاوى ، منها (أولا) أن رب الشمس الذى عهد الارباب الاوائل بخلافتهم اليه ، لم يكن رع ، أو رع أئوم، وانما كان آمون الذى يرجع نسبه الى طيبة وحدها ، ومنها (ثانيا) أن آمون رع انما قد جمع كل مظاهر السلطة والتقديس التى زعمها كهان عين شمس والاشمونين ومنف لأربابهم ، وأن آمون رع الذى ورث عروش الالهة لم يكن فى الواقع غير غيظ أخير للاله القديم «كم أئف»، معبود واست (ويزة) ، وخالق الارض ، واله التناسل .

ومنها (ثالثا) أن الروح الالهية التى اعتاد الناس أن يتعبدوها فى

معابد واست (الكرك و الاقصر وحابو وغيرها) لم تكن غير روح واحدة
تعددت أوضاعها ، ولكنها صدرت جميعها عن واحد ، وامتدت جميعها
الى واحد ، ومن ثم فقد ظل آمون رع رب معبد الكرك وملك الارباب
ورب العروش ، حريصا على أن يتردد على معبد الاقصر مرة كل عشرة
أيام ، ليؤكد قدرته على الخلق والاخصاب ، كما ظل كذلك يزور معبد
حابو من حين الى حين ليؤكد روابطه القديمة بكل من المصدر الاول
الذى صدر عنه وهو «كم آتف» والاقاليم الثمانية التى صدرت منه ،
والتى تواضع الناس على تسميتها باسم الثامون الازلى .

ومنها (رابعا) أن طيبة انما كانت أول مدينة ظهرت في الوجود ،
ثم تكونت بعدها المدن الاخرى ، وكانت واست المياء الاول (نون)
والارض الاولى (التل الازلى) وقد تأسست طيبة فوق التل ، ومن ثم
بدأ العالم ، ثم خلق الجنس البشرى ليشيد المدن الاخرى ، (شأنها
في ذلك شأن عين أتوم التى تشرف على شو وتغنوت في مياه نون) .

ومنها (خامسا) أن الكهانة الطيبية انما زعمت أن مدينتهم طيبة
انما كانت كذلك مكان مولد أوزير ، وليس هنسك من ريب في أن ذلك
انما يرجع الى الوقت الذى حاز فيه أوزير على مكانته الشعبية فضلا
عن ارتباطه بالبيت الملكى وبخصوبة الارض .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة أخيرا الى أن أصحاب المذاهب
المصرية لم يتصوروا خطة محددة لخلق الانسان ، وانما صدرت عنهم
آراء متفرقة يمكن اجمالها في ستة آراء منها (اولا) رأى قديم مادی
شائع رد أصحابه خلق الانسان الى أرباب عدة ، ردوه الى اله دعوه
«خنوم» ، وصوروه جالسا الى دولا ب الفخار يسوى الاجنة من
صلصال ، ثم جعلوا له شريكة في بعض الاحايين دعوها «مسخت» ،
وردوا الخلق تارة ثالثة الى ثلاث من الربات الاناث هن «حقث ورننت
ومسخت» ، وكانت «حقث» تصور علة بهيئة الانثى ورأس الضفدة،
و «رننت» يدل اسمها على معنى المربية ، و «مسخت» واحدة من
ربات الوضع والولادة .

ومنها (ثانيا) رأى جمع أصحابه بين المادية والواقعية ، واعتقدوا أن الانسان خلق أصلا من صلصال ، «لأن الاله هو مسويه» ، وأن هذا الاله «لايزال يرفع الناس ويخفضهم كل يوم ، فيجعل ألفا منهم توابع ان شاء ، وألفا رؤساء ان شاء» ، ومنها (ثالثا) رأى معنوى يذهب الى أن خلق البشر تأتى عن رغبة أرادها الاله وأمر بها لسانه ، فكان من أمر خلقهم وتناسلهم ما كان ، ومنها (رابعا) رأى ذهب الى أن الاله خلق الناس على صورته ومن ذات بدنه ، ولايزال يرعاهم أجنة وكبارا ، ومنها (خامسا) رأى شاعرى ذهب الى أن الاله خلق الناس من عينيه وأرسلهم على الارض مع دموعه .

ومنها (سادسا) رأى أسطورى ذهب الى أن خلق البشر تم في مصر وحدها ، لولا أن تمرد بعضهم على سلطان ربها ثم تخوفوا نقمته ، فغرقوا شر فرقة^(٥) ، وفرت جماعات منهم الى الجنوب حيث أصبحوا السلف القديم للسودانيين ، وهرع آخرون الى الشمال فكانوا أسلافا للاسيويين على حين تناسل الليبيون من الهاربين ناحية المغرب ، ونشأ أسلاف البدو من اللاذئين بالشرق^(٦) .

(٥) قارن : تكوين ١١/١ - ٩ .

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٦ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٥٥ ، فرانموا دوما : آلهة مصر .

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 130-131. V. Lois, Op. Cit., P. 37-38,

وانظر :

S. G. F. Brandon, Creation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

الفصل الثاني

المعبودات المصرية القديمة

تمهيد :

لم تكن هناك قوة في حياة الانسان القديم يسيطر أثرها على نشاطه — فيما يرى برستد — كما يسيطر الدين ، ذلك لان الدين كان منفذا للخيالات ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة بالانسان ، وهو يصدر دائما عن رغبة أو رهبة ، رغبة في المنفعة أو رهبة من المجهول والاضطراب ، والحياة لا تتأثر بالدين فحسب ، بل تختلط وتمتزج به امتزاجا ينفذ بالانطباعات الخارجية حتى يخرج من ذلك كله مزاج يتطور مع القوى الكامنة في الانسان ، هذا وكانت الطبيعة المبشر الاول للدين ، اذ فسر الانسان مظاهرها حين عجز عن فهمها بأن عزاها الى قوى خارجة عن نطاق تفكيره ، والالهة أو المعبودات في رأى الانسان القديم كالbشر يمكن أن نترضاهم بالقرايين والتقدمت حولهم صفات البشر أحيانا كذلك .

هذا وقد تكون عند المصرى القديم نوعان من الالهة ، آلهة عالمية ، وآلهة محلية ، وقد لعبت الاخيرة عنده الدور الرئيسى ، وقد ظلت تعبد حتى نهاية العصور الفرعونية ، وذلك لقربها منه ، ولتأثره المباشر بها ، حتى أصبح لكل أسرة ، ولكل قبيلة ، ولكل اقليم ، معبوداتها المحلية المتعددة ، غير أن نفوذ كل معبود انما كان أحيانا لا يقتصر على منطقته التى نشأ فيها ، وانما كان يمتد الى ما حولها من القرى حسب أحوال البيئة التى تحيط بمنطقة نفوذه ، وخاصة الاحوال السياسية ، فإذا ما عظم شأن قبيلة سياسيا تطلب اليها على ما حولها من القبائل الاخرى دينيا ، وأصبح اله هذه القبيلة هو صاحب النفوذ الاعظم .

واستمر الحال على هذا النحو حتى أصبح لمصر كيان سلبى ،

فاندمجت المناطق بعضها في البعض الآخر ، وانقسمت الى قطرين ، ثم اتحدت البلاد تحت امرة ملك واحد ، وهنا ظهر نوع ثالث من الالهة ، هو معبود الدولة الذي كان في الاصل أحد المعبودات المحلية ثم استطاع حاكم اقليمه أن يفرض سيطرته على مصر بأكملها ، وحتم على القوم أجمعين أن يقصدوا معبوده ، فيصبح بالتالى معبود الدولة بأكملها .

على أن المعبودات المحلية ، رغم أنها أساس الديانة المصرية القديمة ، فإن قوى الطبيعة العالمية قد قامت بدور هام في معتقدات القوم في كل عصور التاريخ المصرى القديم ، ولابد أن هذه الالهة كانت تعبد منذ الازل بصفة عامة ، غير أنها لم تحتل مكانة مرموقة ، على ما يظن ، في نفوس القوم الذين كانوا لا يؤمنون الا بعبادة الاشياء المحسوسة القريبة الى عقولهم ، وربما لم تتأصل عبادة القوى العالمية في نفوس القوم بسبب تطورات عقلية ، وربما بسبب توجيهات رجال الفكر والدين عندما أرادوا تفسير أصل العالم وتكوينه ، ولا نزاع في أن الالهة العالمية اذا ما قورنت بالالهة المحلية ، فإن الأخيرة تتضاءل أمام الاولى ، وربما كان من المرجح أن عبادة القوى الطبيعية البارزة لم تأت الا بعد اتحاد القطرين .

هذا وقد بدت لنا الالهة العالمية اما في صورة انسانية أو صورة حيوانية ، فقد ظهر اله الشمس في صورة انسان برأس صقر ، كما مثلت الهة السماء «نوت» في صورة بقرة كبيرة تعتمد على قوائمها الاربع التي تمثل دعائم السماء ، يبحر فيها قارب يحمل شمس الصباح ، وقد ظهرت السماء كذلك امرأة تحمل مثل البقرة أحيانا ، تنحني بجسمها المديد فوق الارض ، وتعتمد على ذراعيها وساقها التي تحمل مثل قوائم البقرة ، ومن ثم نفهم أن نظام عبادة القوى الطبيعية يرجع الى عهود قديمة جدا ، وربما قد عبدت هذه الالهة الطبيعية في بادىء الامر في صورة مبهمه ، ومن ثم غلم يكن لها مصاريب خاصة ، وأن محرابها انما كان الكون نفسه ، غير أن المصرى الذى لم يكن يؤمن الا

بالمرثيات والاشياء المحسة قد اتخذ لها أمكن عبادة كالتي اتخذها في
بادىء الامر لالهته المحلية .

هذا ومن المعروف أن الدين المصرى القديم انما كان — كما ظل
طوال ألف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية
الاصلية ، وكان لكل مدينة معبودها الخاص ، ومن ثم فقد تميزت كل
منطقة بمعبود خاص ، ربا كان في الاصل هو الكائن الغالب في البيئة
أو ذو التأثير الكبير في سكانها ، وهكذا عبد التمساح في المناطق التي
تكثر فيها الجزر أو البحيرات ، حيث يكثر وجوده هناك ، ومن ثم فقد
عبد في منطقة دندرة ، عند ثنية قنا ، حيث ينحنى النيل ويتخلف عن
انحنائه عدة جزر ، لاربيب في أن عددها كان في تلك الايام الغالبة أكثر
منه اليوم ، كما عبد في منطقة وادى كوم أمبو ، وفي الفيوم حيث توجد
بحيرة قارون العذبة ، وما يتصل بها من بحيرات صغيرة تتناثر بها
الجزر التي تأوى اليها التماسيح ، كما عبدت الثعابين والافاعي في
مناطق التلال القريبة من الوادى ، حيث يكثر وجودها هناك ، كما في
قاو الكبير ، وفي مستنقعات الدلتا ، كما في بومتو ، كما عبدت السبع في
الاقاليم المجاورة للدلتا .

وعبدت المصور في مناطق التقاء الوديان أو الطرق الصحراوية
بوادى النيل ، كما في ادفو حيث ينتهى وادى عبادى ، وفي قفط حيث
ينتهى وادى الحمامات ، فضلا عن المناطق التي تتاخم الصحراء والتي
تقع في أقصى شرق الدلتا ، وغربها ، كما في دمنهور وفي أوسيم ، وفي
منطقة صفط الحنة قريبا من فاقوس ، كما عبد الذئب وابن آوى في
تلال أسيوط شبه الجبلية وفي أقاليم مصر الوسطى ، وعبدت القطط في
بوابسة وعند وادى بنى حسن ، وأنشى النسر في ثالث أقاليم الوادى
من الشرق ، والمصر من الغرب ، وعبد الكباش في كثير من الاقاليم
المصرية من مطلع الوادى الى رأس الدلتا .

على أننا يجب أن نلاحظ أن القوم لم يقدموا حيوانا لذاته ، ولم
يقروا تماما لاربابهم بالتجسد المادى في هيئة حيوان أو طير ، وانما

كان اهتمام المتدينين منهم بما تخيره من الحيوان والطيير يستهدف رغبتين ، وهما : رغبة الرمز الى صفات اله خفى ببعض المخلوقات الظاهرة التى تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته ، ثم رغبة التقرب اليه عن طريق الرعاية التى يقدمونها ضمنا لما رمزوا به اليه من مذاوقاته ، هذا وقد ترتب على التفرقة بين كل اله ورموزه الحية من الحيوانات والطيور ، أن اختلف وضع هذه الرموز عندهم ، عنه عند شعوب أخرى ، فلم يكن اختيار المصريين لرمز أو غرد من الحيوان يؤدي الى تقديس كل أفراد نوعه ، ولم يكن من بأس على قرية ترمز الى ربها بهيئة الفحل مثلا ، أن تستخدم الفصول في الحقل والنقل والخبز ، وانما هو مجرد حيوان واحد منها يتخيره الكهان اذا توافرت فيه علامات حددها لهم الدين ونواميسه ، ثم يتركونه في مزاره آية مشهودة حتى ينفق ، وذلك على العكس من شعوب أخرى قدست أنواعا من الحيوانات بكافة أفرادها .

ومن ثم فاننا نلاحظ أنه ما من معبد من المعابد الكبيرة الباقية حتى الان ، مما خلفته العصور الممتدة من الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الحديثة على أقل تقدير ، أى خلال ما يقرب من ألفى عام ، قد تضمن مكانا معدا لحيوان ، مما يعنى أن رمز الحيوان المقدس اذا وجد لم يكن مقرا لعبادة فعلية على الاطلاق ، وان كنا نفترض من جهة أخرى ، بناء على نصوص وصور نادرة ، وعادات أخرى تتعلق بالعجل أبيس وغيره من عصور متأخرة ، أنه اذا قضت الظروف بالعناية بحيوان معبود ما ، وضع الكهنة هذا الحيوان المختار في مزاره منفصلا عن مكان العبادة ، بحيث ان شاء المتعبد زاره ، وان شاء تجاوزه .

وعلى أى حال ، فان القوم في معظم الاحوال ، انما قد اتخذوا آلهتهم ، في بادىء الامر ، من طبيعة البيئة التى كانوا يعيشون فيها ، مراعين في ذلك مدى افادتهم من هذه الالهة ، سواء أكان ذلك بكشف الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، بخاصة وأن التجارب قد علمتهم أن بعض الالهة قد يتأتى عنها كثير من الخير ، وبعضها الآخر قد يتأتى

عنها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها في جهلت بعينها ، وفي ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، الامر الذي لم يكن يخلو من اعجاز في نطق تصوراتهم التي كانت في عصورها الاولى لاتزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكباش الطلوق الى الاخصاب الطبيعي والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شئ من ذلك ، والى قوة البأس في مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع واللوات الى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا .

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس (فيتش Fetish) مادي ، ولكن في أغلب الاحيان في صور حيوانية ، وهكذا كانت القطة باست في بوياسته ، والالهة الصل ادجو في بوتو . والابيس تحوت في الاشمونين ، والاله وب واوات الاله ابن آوى في أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، وهكذا صور الاله آمون في هيئة آدمية برأس كبش، وصورت الالهة حتحور ، برأس آدمية ، ولها قرون بقرة .

ومع ذلك كله ، فلقد ندر أن قدس القوم معبودا ذا رمز حيوانى باسم الحيوان المادى الذى يرتبط به ، فهم لم يقدسوا هيئة الصقر مثلا باسمه الحيوانى «بيك» ، ولكن باسم ربانى هو «حور» ، ولم يقدسوا هيئة البقرة باسمها الحيوانى «آحت» (احة) وانما باسم «حتحور»، ولم يقدسوا هيئة اتمساح باسمه الحيوانى «مسح» ولكن باسم ربانى هو «سوبك» ، ولم يقدسوا هيئة الكباش باسمه الحيوانى «با» ولكن باحدا اسمين ربانيين ، هما «خنوم» و «آمون» ، هذا فضلا عن أن القوم لم يقدسوا السماء باسمها الطبيعى «بت» ولكن باسم ربيتها «نوت» ، أضف الى ذلك أن بعض أسماء معبوداتهم الانفة الذكر ، انما

كانت صفات في جوهرها أكثر منها أسماء ، فاسم «حور» يعنى العالى
أو البعيد ، واسم «سخمت» يعنى القادرة أو المقتدرة ، واسم «أتوم»
يعنى الكامل المنتهى ، واسم «آمون» يعنى الحفيظ والخفى ، وما الى
ذلك من أسماء يعز علينا تفسير معانيها بالتحديد .

هذا وقد كانت الهيئة البشرية هي أكرم ما تصور المصريون به
أربابهم ، ومن ثم فقد جرت العادة على تمثيلهم على هيئة الانسان في
أغلب الاحوال ، مع تميزهم عنهم بأزليتهم وأبديتهم ومطلق قدرتهم ،
ولو أن ضرورة تمييز كل معبود منهم عن الآخر دفعت أتباعهم الى
تمثيل كل واحد منهم بجسم انسان ورأس الحيوان أو الطير الذى
رمزوا به اليه ، وذلك ما نفذه الفنانون المصريون في صورهم وتمثيلهم
في توافق عجيب لم يستطعه فنان آخر قديم ، وتمثيلهم بهيئة الانسان
كاملة مع تمييز كل واحد منهم بشارة تدل عليه ، وكان من هؤلاء الارباب
الاخرى الذين احتفظوا بالهيئة البشرية الخالصة : أتوم وبشاح
وعنجتى ومين وجب ونوت وأوزير وايسه ونبت حت وششسات
وخونسو هذا وربما كان تمثيل الالهة في هيئة آدمية سببا في أن يظن
القوم أن لها من المشاعر ما يحاكي مشاعر البشر من حب وبغض وحنانها
تأخذ وتعطى، وتعاقب وتثيب ، مما لا يستطيعه الحيوان أو الجماد ، أو
أنهم أرادوا أن يضيفوا عليها صفاتهم الانسانية وعواطفهم ، ومن ثم
فقد جمعوا بين الانسان والحيوان الذى يعبدونه عند تصورهم الاله
بصورة تتفق مع واقعيته .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كثيرا من الالهة انما كانت
تكون أسرا الهية ، منها ما كان يؤلف في عهد الاسرات ثالوثا من الاب
والام والابن ، كما في ثالوث أوزير وايزه وحور ، على أن هذه الاشكال
الثلاثة لم تكن دائما في نظر القوم شخصيات مستقلة لها ذاتيتها
وفرديتها ، وانما هي أشكال أو صور لاله واحد جمع في شخصه درجات
المقاربة في العائلة الانسانية ، فهو الاب ، على أساس أنه العضو الاول
في الثالوث ، والام ليست سوى صورته المؤنثة ، وهو الابن ، على

أساس أنه العضو الثالث الذي يشبهه هو نفسه ، فهو أب لنفسه وابن لنفسه وزوج لأمه .

على أن هناك من يذهب الى أن الثالوث ماهو الا تشكيلة من معبودات ثبتت صفات كل منها منذ زمن بعيد ، مستقلة عن صفات الآخرين ، فاذا ماتركنا الثالوث جانبا ، وجدنا أنفسنا أمام آلهة لا صلة بينها ، فضلا عن الرابطة والتبعية ، هذا الى جانب أن الثالوث قد يتكون كذلك من زوج وزوجتين ، كما في ثالوث اليفانتيين ، المكون من خنوم وزوجتيه ساتت وعنقت ، بل ربما يتكون كذلك من أم وابنين ، كما في ثالوث دندرة والمكون من حتحور وولديها سماتاوى وايحى .

ولعل من أشهر هذه الاسر الالهية : ثالوث اليفانتيين ، ويتكون من خنوسم وساتت وعنقت ، وثالوث كسوم أمبو ، ويتكون من سوبك وحتحور وخونسو (الذى ظهر كخونسوهور) ، وثالوث ادفو ، ويتكون من حور وحتحور وحارسوماتيس ، وثالوث اسنا ، ويتكون من خنوم ومنحيت وحكا ، وثالوث أرمنت ، ويتكون من مونتنو ورع ايب تاوى وحور بارع ، وثالوث طود ، ويتكون من مونتنو وثنيت وحربو قراط ، وثالوث طيبة ويتكون من آمون وموت وخونسو ، وثالوث قفط ، ويتكون من مين ورشب وقدس (الالهان الاخيران أجنيان) ، وكذا أوزير وايزه وحور ، وثالوث دندرة ، ويتكون من حتحور وسماتاوى وايحى ، وثالوث أبيدوس ويتكون من أوزير وايزه وحور ، وثالوث منف ، ويتكون من بتاح وسخمت ونفرتم ، وثالوث عين شمس ويتكون من أتوم وتفنوت ، وفي أطفيح حتحور ونبت وسوبك^(١) .

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٩٧ - ٣٠٠ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٤٠ - ٥٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٨ وما بعدها ، تشرنى : المرجع السابق ص ١٣ - ٤٤ .
G. Maspero, Sur L'encaide, Bulletin de la religion Egyptienne, 1891, P. 42-43.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939P. 45, A History of Egypt, P. 53-54.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

المعبودات المصرية

١- حور

يجمع المؤرخون أو يكادون على أن إله السماء «حور» إنما قد أصبح الإله الأعظم في مصر منذ بداية العصر التاريخي ، وأن له معبدا في «نخن» (البصيلية مركز ادفو) عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد، وذلك منذ أخريات عصر بداية الاسرات ، ثم أصبح الإله العامي لحكام الصعيد المنتصرين على الدلتا وخلفائهم المبشرين ، ذلك لأن القوم إنما كانوا يرون أنه بتأييد من حور ومؤازرته استطاع ملك نخن أو ملك الصعيد «نعرمر» أن يحقق الوحدة لمصر بعد انتصاره على الدلتا ، وأن يؤسس الاسرة المصرية الاولى ، وأن يخلد هذا العمل التاريخي على لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) التي عثر عليها في نخن ، حيث يسجل على أحد وجهي اللوحة انتصاره على الدلتا ، وهو يرتدى تاج الصعيد الابيض ، فضلا عن مشاركة حور في احراز هذا النصر ، وذلك بتمثيله في صورة صقر مهيب يقف بأحدى قدميه فوق نبات البردى ، شعار الدلتا ، بينما تمتد قدمه الاخرى في شكل خراع بشرية لتمسك بحبل خزمت به أنف رأس بشرية متصل بشكل مستطيل ، ربما تشير الى بيئة الدلتا ذات المستنقعات ، اذ ينبثق منه نبات البردى الذي أشير من قبل أن حور إنما كان واقفا فوقه .

وأما الوجه الآخر للوحة ، وفيه يرتدى «نعرمر» تاج الدلتا الاحمر ، فتعبر نقوشه عن نتائج نصر الملك الصعيدى المبين على الدلتا ، وقد مثلت فيه أربعة ألوية للمعبودات التي شاركت في احراز النصر ، وهى لواء ان للصقر حور في المقدمة ، مما يشير الى سيادته على الصعيد والدلتا ، يليها لواء المعبود «وب واوات» (فاتح الطريق) ، ثم لواء رابع يصعب التعرف على مدلوله ، ويمثل في شكل أنفتاح شبه

بيضاوى ، بل ان هناك ما يشير الى أن الاله حور انما سبق تمثيله في نقش للملك المعرب ، وهو يقف في مواجهة الملك ويمسك في احدى قدميه بطرف حبل خزمت بطرفه الاخر أنف أحد زعماء البدو ، في صورة تشبه تمثيل حور في لوحة نعرمر .

وهكذا حقق حور لأتباعه من زعماء الصعيد وحدة الارضين (تاشمعو ، وتامحو) فأصبح بذلك اله الدولة ، فضلا عن الملكية الجديدة ومن ثم فقد اتخذ ملوك الاسرة الاولى شعارا ملكيا يعطوه صقر (السرخ) الذى كان يكتب فيه الاسم المصورى للملك في عصر هذه الاسرة ، والذى كان يتصدر غيره من الاسماء الملكية الاخرى ، كما تشهد آثار تلك الفترة ، والتي تشير الكثير منها الى أن الملكية انما هي منحة من الاله حور ، أول معبود رسمى للدولة والملكية في التاريخ المصرى القديم ، ومن ثم فقد تصدر حور مكان الصدارة بين غيره من الآلهة في عصر الاسرة الاولى ، ثم سرعان ما بدأت عبادة حور تنتشر في الصعيد في الاقليم الثانى والثالث والثانى عشر والسابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين ، وعبد في الدلتا في الاقليم الثانى والخامس والسادس عشر والسابع عشر والتاسع عشر والعشرين (١) .

هذا وقد قام جتل طويل حول الموطن الاصلى للاله حور ، فيذهب البعض ، اعتمادا على المصادر المتأخرة ، الى أن الموطن الاصلى لحور انما كان في الدلتا ، وليس في الصعيد ، وأن عبادته قد أنتشرت في الصعيد بعد انتصار الدلتا على الجنوب ، وقيام الاتحاد الاول في الربع الاخير من الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن هذا الاتحاد لم يعد فرضا من الفروض ، كما كان الامر من قبل ، وانما أصبح حقيقة مقررة بعد دراسة حجر بالرمو ، وغيره من آثار ذلك العصر ، وأن لم يكن لدينا

1) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, Pls. XXVI, XXIX; A. Gradiner, JEA, 30, 1944, P. 24-25-39; W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 120.

معلومات مؤكدة عن عاصمة المملكة المتحدة وقت ذاك ، فقد أصبح فيها
للالة حور مركز أهم من مركز الاله «سست» ، وأصبحت مدينة نخن
(البصيلية) مركزا رئيسيا لعبادته في أواخر عصر ما قبل الاسرات
حيث وجد أقدم رمز للاله أوزير في الصعيد على مدخل معبد حور في
نخن في أخريات عصر بداية الاسرات (٧) .

على أن هناك من يعترض على وجهة النظر هذه ، ذلك لان هناك ما
يشير الى وجود تماثيل له في نقادة منذ عصر ما قبل الاسرات ، وأن
عبادته كانت منتشرة في الصعيد ، في كوم أمبو وادفو والبصيلية والملا
وأصفون المطاعة ، فاذا كانت عبادة حور قد انتقلت من الدلتا الى
الصعيد ، فانه يصعب عدم فهم عدم أنشارها في أقاليم الدلتا ذاتها ،
فضلا عن مصر الوسطى ، من الجيزة الى سوهاج وان عبد في حبنو ،
جنوب زاوية الميتين ، (جنوب شرق المنيا عبر النهر) ، هذا ويذهب
«جاردنر» الى أن أصل حور من مستنقعات الدلتا الشمالية ، مع أن
الصقر طائر صحراوي ، وقد وصف في متون الاهرام تارة بكلمة
«أختي» وتارة بكلمة «أبتى» والأولى معناها «أفق الشمس» ، والثانية
معناها «الشرق» ، وكلا الكلمتين تشير الى المشرق .

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري — طيب الله ثراه — الى أن
هناك أشارات كثيرة الى أن الموطن الاصلى لحور ، انما كان في «بنوت» ،
والى أن اسم «حر» (حور) غريب على اللغة المصرية القديمة ، ولكنه
موجود في اللغات السامية ، وبعبارة أدق في اللغة العربية ، حيث تطلق
العرب اسم «حر» على الطائر المعروف باسم Faucon Pelerin .
وقد نقل الدميرى عن «ابن سيده» أن «الحر طائر صغير أنمر أصقع
قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقيل انه يضرب الى الخضرة
وهو يصيد» ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد مسن البزاة
والشواهين ، ومازالت كلمة «حر» تستعمل حتى الآن في كثير من بلاد

2) J. E. Quibell, Op. Cit., Pl. II; W. B. Emery, Op. Cit., P. 42.

ويرى بعض الباحثين أن الاله حور ، انما جاء مع أتباع حور الذين عبروا شبه جزيرة العرب الى الشاطئ الافريقي في أثيوبيا ، ثم صاروا مخترقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات ، وأن الاله الصقر حور ، قد أختلط مع الصقور التى كانت تعبد في مصر ، وأن ذلك الشعب لابس الريشة الذى وفد الى مصر من الشرق قادما من بلاد العرب في منتصف عصر حضارة نقادة الاولى ، ثم سرعان ما أستقر هذا الشعب في المناطق الجبلية التى تحد وادى الحمامات ، وفي الوادى نفسه ، حيث تركوا رسومهم ، ويذهب «مرسر» الى أن كلمة «مر» المصرية لم تكن في ذلك العصر المبكر تعنى «صقر» الا اذا كانت صيغة مصرية من كلمة «حر» العربية التى تعنى «صقر» وفي هذه الحالة فان الكلمة تدل على أصل عربى للاله حور ، وعلى أى حال ، ففي كل هذه الحالات ، فان أصل حور ليس من الدلتا ، وانما من بلاد العرب أولا ثم من الصعيد ثانيا ، وأن ذهب «بترى» الى أنه جاء من عيلام عن طريق الخليج العربى ، ثم أستقر في القرن الافريقي ، ثم اتجه الى الشمال ، ودخل مصر عن طريق القصير وقفط (٤) .

وأيا ما كان الامر ، فان مصر قبل قيام الاسرة الاولى كانت خاضعة لحكومتين ، الواحدة في الصعيد ، والاخرى في الدلتا ، وقد أطلق القوم على ملوك هاتين المملكتين «أتباع حور» أو «أنصاف الآلهة» ، كما كان

(٣) احمد فخرى : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ - ١٣٦ ، محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول - التاريخ ص ٣١٥ - ٣١٧ ، كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان ٤٢٢/١ ، ٩١/٢ ، وكذا V. Loret, B.I.F.A.O., III, 1903, P. 15-16. A. Gardiner, Onom., II, P. 5-7, 12-1, 27-29. 4) V. Loret, Op. Cit., P. 7-1; S. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, 1942, P. 87-90, W. F. Petrie, The Making of Egypt, London, 1939, P. 77 F, 226.

يعبد في احدى المملكتين احدى الآلهات التى كانت تحمى المملكة (نخبت ووادجيت) ، فضلا عن الاله حور ، وان ذهب «نكيس» الى أنه ليس لدينا ما يؤكد أن مصر كانت قبل «ميناء» مقسمة الى مملكتين حوريتين ، سادهما اله واحد هو «حور» صحيح أن عبادة الصقر كانت منتشرة جدا في الصعيد والدلتا ، ولكن كان لكل «صقر» شخصيته الخاصة به ، فمثلا لقد أصبحت هيئة الصقر (رمز حور) علما على أبواب مدن كثيرة في الصعيد ، مثل البصيلية وادفو ، وأرمنت وقوص وقفط والمهامية وبنى حسن والمطاولة ، ولو أنه ما من بأس أن نفترض أن بعض هذه المدن انما كانت ترمز الى أربابها بهيئة الصقر فعلا منذ زمن قديم ، دون أن تربط بين هذه الهيئة ، وبين رمز الاله حور (٥) .

وأيا ما كان الامر ، فقبل بدايه التاريخ ، قام الصعيد بتكوين اتحاد من أقاليمه كانت عاصمته نخن ، حيث كان يعبد الاله حور ، وقد تجمع حكام الاقاليم الاخرى ، وكذا الالهة المحلية الاخرى ، حول ملك نخن (البصيلية) ، وحول اله مدينته حور ، وكونوا اتحاداً ، وهؤلاء الذين يمكننا أن نطلق عليهم «أتباع حور» (٦) ، وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر آخر الامر ، وأصبح الاله حور الاله الاعظم في مصر ، والحاكم لحكام الصعيد المنتصرين ، ومن ثم فقد أصبح اللقب الحورى أول الالقب الملكية الخمسية التى حملها الملوك طوال العصور الفرعونية ، وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بماله من دخلات وخرجات ، يطواه صقر حور ، اله الاسرات لكل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت ، وكان هذا اللقب الحورى بمثابة تأكيد

5) H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F; ZAS, LXIV, P. 18, W.M.F. Petrie, the making of Egypt, London, 1939, P. 77.

(٦) انظر عن «أتباع حور» (محمد بيومى مهران) : المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧ (طبعة ١٩٨٨)

A. Weill, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Pharaonique, II, Cairo, 1961, P. 279.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 422.

H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, P. 90 F.

لأسماء حامله الى عالم الالهة ، الى الاله حور ، ويجعل منه وريثا لحور
يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذلك لان حور انما قد ورث حكم مصر
من أبيه أوزير ، ثم ورثه للملك الفرعون .

هذا ويشير الصقر — فيما يرى بعض الباحثين — الى انه الاسم
الابدی للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون الى أن اللقب
الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير ، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس
على عرش مصر انما هو ابن أوزير وخليفته ، على أن فريقا ثالثا انما
يذهب الى أن الصقر انما هو اله مدينة نخن ، ومن ثم فهو يشير الى
أن الملك انما جاء من هذا الاقليم ، أى من مدينة الصقر عاصمة الصعيد،
وصاحبة الفضل في توحيد البلاد ، وقيام أول ملكية في التاريخ (٧) .

هذا وقد أطلق القوم على حور القلبا كثيرة ، لعل من أهمها : حور
سيد السماء» أو «نجم في السماء» وقد ظهر ذلك اللقب على مشط من
عصر الأسرة الاولى ، وقد مثل فيه حور ناشرا جناحيه التى تمثل
السماء ، كما عبد محليا بأسماء مختلفة ، منها «حور المتقدم على
العينين» (حرخنتى ارتى) و «حور المنتقم لأبيه» (حرنج أتف)
و «حور موحد الارضين» (حرسما تاوى) و «حور الافقى» (حر أختى)
و «حور فى الافق» (حرام أخت) ، وقد عرف منذ الأسرة الاولى باسم
«حور الافق» ، وذلك لتمثيله فى قارب فوق أجنحة مثل الشمس التى
تبحر عبر السماء .

وعبر الفن بأكثر من طريقة عن ارتباط حور بالسماء والشمس ،
فكان قرص الشمس المجنح ، كما يظهر على مشط من الأسرة الاولى ،
وعندما يصور الاله «حر أختى» فانه يظهر كصقر أو رجل برأس صقر
متوج بقرص الشمس ، وهناك كذلك حور الذى نال شهرة بين القوم ،
بصفته الابن الذى فقد أباه أوزير ، وهو «حور ابن ايزه» حر — سا —

7) P. E. Newberry, PSBA, 26, 1904, P. 295-297; W. B. Emery, Op.
Cit., P. 106, F. Petrie, The Royal Tombs I, P. 35-36.

است) ، وان كان «فرانكفورت» يذهب الى أن الصقر حور اله السماء ،
 انما هو نفسه حور ابن أوزير وايزه ، وانه لمن الخطأ أن نفصل بين
 «حور الاله الكبير سيد السماء» و «حور بن ايزه» ، أو أن نفسر حقيقة
 هذا التوحيد على أنه يرجع الى التوفيق بين المذاهب في العصور
 المتأخرة (٨) .

وعلى أى حال ، فان حور الكبير ، المحارب في مدينة ليتوبوليس
 وغيرها ، يصبح في رأى البعض أبنا للاله أتوم ، أوجب ، وهو حين يكون
 أبنا للاله جب يصبح اخا لاوزير ، وليس هناك ما يشير الى أن حور
 كان ابنا للاله رع في عصور ما قبل التاريخ ، وانما كانا صديقين
 يتعاونان معا كالمهين في السماء والضوء ، وهما على قدم المساواة في
 متون الاهرام ، ومع ذلك فقد أصبح حور ادفو ابنا لرع في النصوص
 المتأخرة ، هذا وليست هناك علاقة بين حور المسمى «كننتشتاوى» معبود
 أثريب وبين حور «سبجو» ، وكلاهما عبد في شرق الدلتا في المنطقة التي
 كان يخرقها الطريق الموصل الى فلسطين ، وان كان هناك من يرى أن
 «سوبدو» من المقاطعة العربية ، كما سماها اليونان (الاقليم العشرون
 من الدلتا) ، و «خمن» من أسفينييس ، و «عانتى» من أنتيوبوليس
 (قاو الكبير) كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه في نفس
 صورة المباشق (٩) .

هذا وهناك كذلك «حور الطفل» (حور باخرد) وقد كتبه اليونان
 «حربو كراتس» (حور بوتراط) وقد مثل على هيئة طفل عار يضع
 سبابته اليمنى في فمه ، وتتدلى خصلة من الشعر على جانب رأسه ،
 ويمثل واقفا أو جالسا على ركبتى أمه ايزه ، وأخيرا فهناك «حور
 الادفوى» أى المنتسب الى ادفو ، وهو هنا ليس حور بن ايزه وأوزير ،
 كما في الثالث المشهور ، ولكنه كان الاله الاب والاله الابن في صورتين
 مختلفتين ، وهكذا نجد «حور — حتحور ، حور موحد الارضين» .

8) H. Frankfort Kingship and the Gods. Chicago, 1948, P. 38-41.

9) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 216.

وأما معابد حور فكثيرة ، لعل أقدمها في الصعيد معبد نخن (١٠) ، وأقدمها في الدلتا في دمنهور ، وإن كان أشهرها معبد حور في ادفو ، حيث صور هناك على شكل الشمس المجنحة ، وكما يبدو واضحا ، ليس هناك أى شبه بين صورة هذا الاله ، وصورة حور الحقيقية ، فلقد صور حور ادفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذى ألوان مختلفة وصفا بأنهما الجناحان ذو الريش المختلف الالوان التى تتمكن بهما الشمس من أن تطوف السماء ، وهذه الصورة (صورة حور ادفو) نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر ، لأنها كانت تعتبره حارسا يهول دون دخول الاشرار المعبد ، وما يزال معبده قائما في ادفو ، وهو معبد لا يضارعه معبد آخر في مصر في الاحتفاظ بمظهره العام ، وطوله ١٣٧ مترا ، وارتفاع الصرح ٢٦ مترا ، وإلى جانب أهميته المعمارية فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية في العصور المتأخرة ، من حيث بنيانه ، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة ، وقد استمر بناؤه قرابة القرنين ، حيث بدى في بنائه في عهد «بطليموس الثالث» الذى وضع أساسه في ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ ق.م ، إلا أن بناءه وزخرفته لم يتما الا في عام ٥٧ ق.م ، في عهد بطليموس الثانى عشر (١١) .

٢ - ست

يذهب العلماء الى أن الموطن الاصلى للاله «ست» (سوتخ) انما كان في الصعيد ، ربما في «شاس حوتب» ، وهى الشطب الحالية ، على

(١٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٧٩ ،

J. Quibell, Op. Cit., I, Pl. II.

وكذا وانظر عن المعبد والمدينة (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء

الثانى ص ٥٩ - ٧٤) .

11) E. A. W. Budge, the Gods of the Egyptians, I, N. Y. 1969, P. 466-499; E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, P. 186, 214.

H. Kees, Horus and Seth, II, P. 9, 29 F.

وكذا

وانظر : أحمد فخرى : الموسوعة المصرية ٨٧/١ - ٨٨ ، محمد بيومى

مهران : مصر الجزء الاول ص ٣٢٢ .

مبعدة ٦ كيلا جنوبى أسيوط ، وربما فى أهم مركز لعبادته فى الصعيد ، فى مدينة «نوبت» أو «نبت» بمعنى الذهبية ، لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على أطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية ، فى منتصف المسافة بين نقادة والبلاص ، مركز نقادة بمحافظة قنا ، وليس هناك شىء مؤكد عن الاوضاع السياسية والدينية فى نوبت خلال عهود حضارتها الاولى ، وان أعطت الاساطير معبودها «ست» (سوتخ النوبتى) شهرة واسعة ، وأعتبرته ربا للصعيد .

وقد كان معبده يقع الى الشمال الغربى قليلا من نوبت على مرتفع من الهضبة ، وان لم يمكن ارجاع أى أثر مادى اليه بصورة مؤكدة ، ولعل السبب فى ذلك عدم الاتفاق على نوع الحيوان الذى كان يمثله ، فبينما يرى البعض أن فرس النهر كان علامة ست فى عصور ما قبل التاريخ ، يرى آخرون أنه كان كلبا أو حمارا أو غزالا ، وعلى أى حال، ففى الازمنة المبكرة كان أتباع ست يمثلون قطاعا قويا من سكان الوادى، ويقطنون منطقة واسعة فى الصعيد ، مركزها نوبت ، وقد كانوا من القوة بحيث أصبح معبودهم ست ندا للاله حور ، بل انه حل مكانه كمعبود ملكى فى بعض فترات الاسرة الثانية ، هذا وقد عبد ست كذلك فى البهنسا بمركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، على هيئة سمكة مديبة الانف، كما كان الها له مكانته فى الصحراء الغربية وليبيا (١٢) .

هذا وقد قام ست بأدوار كثيرة فى الاساطير المصرية ، فكان واحدا من تاسوع أون ، كان ابنا لجب ونوت ، وزوجا لتفنيس ، كما مثل الشر فى أسطورة الصراع بين حور وست (١٣) ، حيث ذكر على أنه قاتل

12) E. J. Baumgartel, the Cultures of Prehistoric Egypt, II, P. 33; W. Emery, Op. Cit., P. 121; F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas P. 1-2, 65.

(١٣) أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ٣٣/١ - ٤٢ ،

J. Wilson, ANET, P. 14-18.

J. Capart, 8, 1933, P. 43-255.

وكذا
وكذا

أوزير ، ومفتصب عرش حور ، رأى الاغريق فيه المجهم «ثيفون» ،
الذى كان مثل ست الها للرعء والمعواصف ، وبمما أن ست كان يمثل
المعواصف فهو اذن ذلك الذى يعلو صريخه فى السماء ، وصوته هو
الرعء ، وهو الذى يهز الارض هزا ، وهو الذى يسلب القمر ، أى
عين حور ، وهو أحمر اللون ، وعينه حمراتان ، وما كان يصنعه من
أعمال شريفة انما كانت أشياء حمراء ، ومن المعروف أن المصريين
المقدامى كانوا يكرهون اللون الأحمر •

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أنه لم تكن هناك فى أول الامر ،
منافسة كبيرة بين عبادة ست وعبادة أوزير وايزة ، وكما رأينا من قبل ،
هلقد كان القوم يعتقدون أنهم جميعا ينتسبون الى أسرة واحدة ، فلقد
كان ست هو الابن الثالث للاله جب ونوت ، وأنه ولد فى اليوم الثالث
من أيام النسء ، وتزوج من أخته نفتيس ، وفيما بعد قاوم أتباع
ست أتباع حور الجنوبيين الذين وحدوا البلاد تحت قيادة مينس ،
وأنعكس ذلك فى الديانة كصراع بين القوتين ، ومن ثم فقد لطخ أتباع
أوزير شخصية ست بالسواد منذ لحظة مولده ، وادعوا أنه لم يولد فى
الموقت السليم ، ولا فى المكان الصحيح ، فلقد القى بنفسه من رحم أمه ،
وأنفجر من جنبها •

وهناك روايات أخرى عن النزاع بين ست وأوزير ، غير رواية
بلطوتارك ، فتذهب واحدة منها الى أن جب قد قسم مملكته بين ولديه ست
وأوزير ، على أن يأخذ الاول الصعيد ، ويأخذ الثانى الدلتا ، غير أن
ست ادعى بعد ذلك أن المملكة كلها له ، وأنكر مشاركة أخيه له فيها ،
وتذهب رواية أخرى الى أن أوزير وست قد رضيا بحكم أبيهما ، وبدأ
كل منهما يحكم نصيبه غير أن «جب» عاد فقرر أن ست حاكم سبى ومن
ثم فقد أعطى نصيبه لأوزير ، وبينما كان أوزير يغزو البلاد الاجنبية ،

==

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 214-223
A. Gardiner, LES, P. 37-60.

وكذا
وكذا

تاركا امرأته ايزة تصرف الامور في مصر ، بدأت عوامل الشر تتحرك في قلب ست ، بخاصة وأنه كاله للحرب ، كان يرى أوزير يستخدم الكثير من الوسائل السليمة ، ومن ثم فقد بدأ يفكر في الانتقام من أوزير ، وانتهاز مناسبة الاحتفال بعودة أخيه المنتصر الى منف ، وطبقا لرواية بلوتارك فقد وضعه في صندوق كان في الاصل تابوتا له .

وتذهب أساطير أخرى الى أن الاغتيال كان عند «ندية» على مقربة من ابيدوس ، ثم اللقاء في النيل ، وأن جسد أوزير المقتل انما تم تقطيعه الى أربعة عشر جزءا (وربما ستة عشر) ، وان امرأته ايزة وأختها نفتيس قد عثرتا على جسد أوزير عند شواطئ ندية، بينما تذهب رواية أخرى الى أن الاغتيال كان في منف ، وان اميزه ونفتيس قد دفنتاه هناك ، بينما تذهب رواية ثالثة الى أن الجسد قد حمله تيار النهر الى ببيليس في مستنقعات الدلتا ، حيث تمكنت ايزة ونفتيس من العثور عليه هناك (وقد حرفت Byblis فما بعد الى ببيلوس Bybilos التي في فينيقيا) ، وان اتفقت الروايات جميعا على ان ايزة قد اتخذت لها مأوى في الدلتا لتحمل وتضع ابنها حور ، وقد حاول ست مضايقتها كثيرا ، وهذه مرة أخرى ، ليست أمرا مثيرا ، فلقد جالت ايزة تحت جناح بوتو ، والتي لم تكن الهة محلية فحسب ، وانما كانت كذلك الهة مملكة مصر السفلى .

هذا ورغم أن القوم ظلوا ينظرون الى ست كاله ، يشار اليه بلقب «(جلالة ست)» ، وهو لقب لم يمنح لغير الاله رع ، ففي خلال المعركة الشرسة التي نشبت بين ست وحور (الكبير) وريث رع ، تمكن حور من خصى ست ، كما تمكن ست ، كخنزير أسود ، من خرق عين حور الضعيفة (القمر) ، هذا وتشير الاسطورة الى أن ست انما كان يوحد أحيانا مع كسوف الشمس وخسوف القمر ، حيث كان يقوم بمهاجمتهما كل شهر ، لانهما كانا يضمنان روح أوزير ، ولكن حور سرعان ما استعاد عينه ، وحكمت له محكمة الالهة بملك مصر جميعا ، وعندما أصبحت أوزير وحور متشابكة انتقل العداء الى حور بن ايزة ، وأصبح ست

هو قاتل أوزير^(١٤) ، ورغم أن محكمة الالهة قد قضت بحق حور ، الا ان رئيسها رع سرعان ما بدأ يؤيد مزاعم ست ، ذلك لان حور ، ان كان يعتبر ابنا لرع ، فقد كان ست ابنه كذلك ، كما كان رع يعتمد على ست ، كاله للحرب ، وكواحد من الالهة الهامة التي تقف على القارب الشمسى لتحمى رع من أعدائه ، وبخاصة أولئك الصاقيدين عليه ، وأخطروهم الحية أبيب أو أبو فيس ، وفي أثناء محاكمة ست وحور ، تفاخر ست بشجاعته اليومية ودوره في حماة رع ، وزعم أنه سوف يكافأ بالمملكة .

ويشير كتاب الموتى الى أن ست لم يقنع بشرف الدفاع عن رئيس الالهة ، فذكر الكثير عن شجاعته ، وأنه ذبح أبيب Abeb ثم عاد الى رع ليعلن خبر انتصاره ، بل وهدد رع بأنه لن يستطيع أن يظهر أبيب من المخبأ الذى ماتت فيه ، وأن يحضر معه كل رموز قوة رع المقدسة ، وأخيرا حذره بأنه ان لم يحسن معاملته فسوف يسلط عليه رعوده وعواصفه ، وعندئذ أمر رع طاقم بحارته بأن يطردوا ست منها، وعندما فعلوا ذلك ، استدعت فوت ست ، وأمر رع فجره المقدس بالظهور ، هذا وقد تضمنت هذه الاسطورة مظهر ست الالهى كقاتل للحية أبيب ، وكان هذا شيئا أساسيا لحماية رع في رحلته اليومية ، ويقابل ذلك في الاهمية أنه قد طرد من القارب قبل أن ينتقل الى الجزء المقدس ، ولعل هذا هو السبب فى ندرة تصوير ست فى القارب الشمسى ، حيث حل مكانه تحوت ، وبنفس الطريقة فى إحدى روايات الاسطورة أن ست قد حكم عليه بأن يحمل أوزير على أكتافه أو أن يمده بالنسيم العليل ليحمل قاربه ، وفى رواية أخرى ، فلقد نفى ست الى السماء كتعويض

(١٤) أنظر : عن أسطورة أوزير وست (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الجزء الاول ص ٢٠ - ٢٨ .

J. Vandier, la religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 45-47. وكذا

H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41. وكذا

V. Lons, Op. Cit., P. 127-138. وكذا

J. Griffith, The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

له عن فقدته للعرش ، حيث دخل جسم الذهب الأكبر ، وسمح له بعمل
الضوضاء المثيرة التي يرغب في القيام بها كاله للرياح والعواصف، وأن
كان قد فقد أكثر الأشياء شيوعا ، حتى صلته بأراضي المملكة الجنوبية،
وأصبح سلطانه مرتبطا بحدود الصحراء ، و كاله للأجانب^(١٥) .

وليس هناك من ريب في أن الأدلة الأثرية انما تثبت وجود عبادة
ست منذ عصر التأسيس ، فمن بين الاعلام الموجودة على رأس مقمعة
الملك العقرب يوجد علمان يحملان حيوان الاله ست ، كما ظهر الاله
ست في عصر التأسيس في بعض ألقاب الملكات مثل لقب «تلك التي
ترى حور وست» الذي عثر عليه في مقبرة الملك «جر» ، ولقب «ساق
حور وذراع ست» ، كما انتسب آخر ملكين من هذا العصر ، وهما خع
سخم وخع سخموى ، الى الاله ست ، وهناك كثير من الاحتمال لما
يفترضه «جر دسلوف» من أن الملك «سخم ايب ان ماعت» هو في الواقع
«بر ايب سن»^(١٦) ، قبل أن يتخلى عن ارتباطه بالاله حور ، ليصبح
المتعبد للاله ست ، باعتباره من أرباب الحروب ، وان احتفظ لنفسه
بلقب «نيسو — بتي» ولقب «نبتي» أى أنه مليزال محتفظا بانتسابه
الى الصعيد والدلتا ، والى معبوديهما في نفس الوقت .

وهكذا يبدو أن هناك ألوانا من الاضطرابات الشديدة نشأت في
الأسرة الثانية ، وان كان من المستحيل أن نشخص طبيعتها ، لقد كان
حور يرتبط في الماضي بالدلتا ، بينما كانت عبادة ست محلية في أمبوس،
ويذهب البعض الى أن كهنة ست شعروا أن نفوذهم القديم بدأ
يتضاؤل ، بخاصة وقد بدأ الملوك ينتسبون الى حور ، ويهتمون بالعاصمة
الشمالية منف ، وربما بدأوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون
الاهتمام بمعبوداتهم ، وهنا بدأ كهنة ست يخشون على نفوذهم القديم،

15) E. A. W. Budge, Op. Cit., II, P. 241-260; Veronical Lons, Egyptian Mythology, 1968, P. 63-66.

T. G. Allen, The Book of Dead, Chicago, 1974. وكذا

(١٦) أنظر عن «ثورة بر — ايب سن» (محمد بيومي مهران : مصر —
الجزء الثاني ص ٤٧-٥٧) .

ومن ثم فقد أشعلوا نيران الثورة ضد الاتجاهات الجديدة ، مما جعل «بر أيب سن» يحذف رمز حور ، ويضع رمز ست في مكانه ، أى أنه أعلن صراحة انتسابه الى الاله ست ، وليس الى حور ، ولم تعد الامور الى وضعها الطبيعي الا في عهد آخر ملوك الاسرة الثانية « خع سخموى » (١٧) .

وتحدثنا بردية سالييه الاولى أن ملك الهكسوس أبو غيس قد اتخذ الاله «سوتخ» الها له ، ولم يحترم الها في الارض غيره ، وبني له معبدا جميلا بجوار قصره ، وكان يقدم له الاضاحى كل صباح ، وكان موظفو الملك يحملون أكاليل الزهور ، كما يحدث تماما في معبد «حر أختى» ، وهذا يعنى أن الهكسوس عندما أرادوا اقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية ، اختاروا معبودا ذا مظهر غريب ليصبح الاله الرئيسى في المنطقة التى كانت الاساس الاول لعملياتهم ، وكان ذلك الاله هو «ست» (سوتخ) اله أفاريس ، عدو الاله الطيب أوزير وقتله ، ومع ذلك ، فرغم أن ست كان في الاصل اله مصر العليا ، فان عبادته في شرق الدلتا انما ترجع الى أقدم العصور ، وبالذات الى عهد الدولة القديمة ، وربما قد بدأت هناك في مكان يقال له «سزرت» منذ أيام الاسرة الرابعة (١٨) .

وأما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة «ست» التى تكتب بالبابلية وكأنما تنطق «سوتخ» فكانت دون شك آسيوية في مظهرها ، أكثر منها وطنية الأصل ، وربما وجد الهكسوس في ست اله أفاريس ، صورة

17) B. Grdseloff, ASAE, XLIV, 1945, P. 295; A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 417; W. F. Petrie, the Royal Tombs, II, Pls. XXVII, 96, 129, XXII, 173-190.

18) D. B. Redford, the Hyksos Invasion, in History and Tradition, Orrentalla, 39, 1970, P. 35-36; ASAE, XLIV, P. 295 F; B. Gun and A. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 40 F. J. Wilson, Op. Cit., P. 161-162, JEA, 37, 1951, P. 64-65, ZAS, 75, P. 77 F.

وانظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٥٢ - ١٥٥ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣٣ .

لواحد من معبوداتهم الآسيوية وأن مظهره ، كما حفظته جعارينهم ،
 إنما يبدو بوضوح أنه آسيوي المظهر ، فهو يحمل في ثنايا ملابسه ورداء
 رأسه تشابها مميزا للاله بعل السامي ، ومع هذا فتوحيد بعل ، وكذا
 رشب أو تشوب الحيثي ، فتطور حدث فيما بعد ، ومع ذلك فهو كثير
 التشبه بالاله تشوب اله العاصفة والرع والحرب عند الأناضوليين ،
 وخاصة الحيثيين والميتانيين ، والوثائق المكتوبة في لغتين من عصر
 رعمسيس الثاني تؤكد هذا التشابه بين ست وتشوب ، وقد تحول ست
 عند هذه النقطة الى الاله العائلي لمغتصبى الدلتا الشرقية ، حتى أننا
 نجد لوحة في تانيس مكرسة للاله ست المحارب المقدام ، وهناك أكثر من
 دليل على أن الهكسوس قد جاملوه أكثر من كل المعبودات المصرية ، أما
 صورة الانثى العارية التي تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس ،
 فيظن أنها تمثل الالهة غنات أو «عتر عشتارت» ، ويشير إليها في نصوص
 متأخرة ، وكأنها زوجة للاله «ست - بعل» (١٩) .

وفي الأسرة التاسعة عشرة يظهر ست كصاحب مكانة ممتازة بصفته
 الاله المحلى لهذه الأسرة ، ومن ثم نرى الفراعين يقدرّون الاله ست ،
 حتى أن جيوش رعمسيس الثاني نظمت في فيالق أربعة ، تحمل أسماء
 آلهة أربع : آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن
 منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ومن عين شمس والدلتا أتى فيلق
 رع ، ومن «بر رعمسيس» أتى فيلق ست ، وهكذا وضع ست في مرتبة
 متساوية مع مرتبة هذه الالهة الثلاثة الكبرى ، بل أنه في المدينة الكبيرة
 (بر - رعمسيس) كان هناك معبد للاله ست ، كما دخل اسمه في
 تركيب اسمين من ملوك هذه الأسرة وهما : سيتي الاول وسيتي
 الثاني (٢٠) .

19) A. Gardiner, Op. Cit., P. 164-165, T. Save Soderbergh, J.E.A.,
 37, 1950, P. 64; W. C., Hayes, C.A.H., II, Part, I, 1970, P. 56.

20) H. Goedicke, JEA, 52, P. 72-79.
 J. Wilson, ANET, P. 470.

وكذا

كان أوزير أكثر الالهة شعبية في مصر بسبب مظهره السلمى وخلقه الرضى ونعمه الوفيرة على البشرية ، ثم ميته العنيفة وبعثه ، ومن ثم فلم يقدسه المصريون فحسب ، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب حوض البحر المتوسط ، وخاصة في بلاد الاغريق والرومان وهما في أوج حضارتهما ، هذا وهناك ما يشير الى أن أقدم رمز للاله أوزير إنما وجد في الصعيد على مدخل معبد حور في نخن (البصيلية) من اخريات عصر بداية الاسرات ، كما أسفرت حفائر حلوان عن العثور على رمز للاله أوزير في احدى المقابر التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، وكان يمثل على هيئة شجرة جذعها مستقيم وقد ربطت غروعها طبقات بعضها فوق بعض ، مما يدل على أن عبادة أوزير انما كانت قائمة في ذلك العصر .

على أن هناك من يرى أن وطن أوزير انما كان في الدلتا ، في اقليم «عنجة» ، والتي سميت فيما بعد «جدو» ، واتخذ أهلها من اوزير معبودا وأطلقوا على محبتهم «جدو» اسم «بر - أوزير» الذى حرفه الاغريق الى «بوزيريس» ، وهى «أبو صيرينا» الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوبى غرب سمهود ، وهكذا حل أوزير محل المعبود «عنجتى» في بوزيريس ، وأخذ عنه بعض مظاهر شاراته كريشتى التاج وعصا الراعى المعقوفة ، ثم انتشرت عبادته من هذه المدينة الى جميع أنحاء البلاد ، وخاصة أبيدوس ، التى أصبحت المركز الرئيسى لعبادته (٢١) .

غير أن هذا الرأى الذى يذهب الى أن انتشار عبادة أوزير من «بوزيريس» الى الصعيد ، لا يستطيع أن يثبت أمام فرض عكسى يذهب الى أنها قد انتشرت من الصعيد الى الدلتا ، هذا فضلا عن أن ما قيل أن أوزير قد أخذه من «عنجتى» يمكن أن يكون من خواص الحكم أو

21) A. Moret Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris, 1926, P. 99-100.

J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 48; W. B. Emery, Op. Cit., P. 124.

شاراته ، ومن ثم فيمكن أن تفترض أن غازيا صعيديا كالمك العقرب قد أخضع جزءا من شرق الدلتا ، واكتسب لقب «عنجتى» ، أى المنتسب الى الاله عنجتى ، ولعل مما يدعم هذا الفرض ذلك الشرط الطويل المتنلى الى الخلف من رأس الاله عنجتى ، وهو من زينة الاله مين ، وكذا الاله آمون ، وهما الالهان للذان لا يشك أحد فى أصلهما الصعيدى وأخيرا شك رئيس عظيم فى عصور ما قبل التاريخ ، انما كان يعبد كأوزير •

هذا ويذهب «فرانكفورت» الى أن بعض المقاصير المقدسة لرؤساء ما قبل الاسرات ، انما قد بقيت بعد الاتحاد وقيام الاسرة الاولى ، وصارت مقاصير لأوزير — وليس للالهة المحلية — على اعتبار أن كل ملك انما كان أوزيريا ، ومن ثم فقد ارتبط أوزير بعدد من المقاصير، الامر الذى يفسر لنا ادعاء عدة مواقع فى مصر أنها كانت تمتلك جسد أوزير ، أو جزءا من هذا الجسد ، وأن قصة تقطيع ست لجسد أوزير ، لا يمكن أن تمثل الاعتقاد الأصيل ، الذى يرى حفظ الجسد كاملا ، وأن المؤلفين المتأخرين قد كتبوا هذا تحت تأثير قصة «ديونسيوس» و «أودونيس» ثم يشير «فرانكفورت» بعد ذلك الى أن «بوزيريس» قد امتلكت واحدة من مقاصير ملك قديم وكان لها ارتباط بأوزير ، وأن أبيدوس قد امتلكت أهم أعضاء أوزير ، وهى «الرأس» التى دفنت ، طبقا للتقاليد، هناك ، وقد عرفت مقبرة الملك «جر» بمقبرة أوزير وأصبحت أبيدوس فى الدولة الوسطى المركز الرئيسى لعبادة أوزير ، ويخلص «فرانكفورت» من ذلك الى أن عبادة أوزير انما كانت من أبيدوس ، وأن الريحيتين اللتين كانا يابسهما «عنجتى» انما كان أصلهما من الصعيد ، ومن ثم فقد شجبت النظرية التى تقول بأن أوزير من شرق الدلتا — من بوزيريس — وبأن الدلتا قد غزت الصعيد ، بعد أن اتحدت المملكتان تحت قيادة أوزير (٣) •

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن هناك من يرى أن أوزير لم يكن

22) H. Frankfort, Op. Cit., P. 200 F.

في الاصل الها مصريا ، ذلك لان هناك ما يتسير الى وجود بيت اساسي لاوزير في متجاورات حدود مصر الشرقية ربما جاء اتباعه من سورية ووجدوا الهم مع معبود رعوى يقنى له «عنجتى» واستوطنوا مدينه «عنجت» في عصور ما قبل الاسرات ، وعرفت عبادتهم بعمود «جد» Djed ، وقيل انها تمثل اربعة اعمدة يظهر كل منها وراء الآخر ، وعظام ظهر الانسان ، وربما كان اكثر احتمالا انها تمثل شجرة الارز السوري ، مع فروعها الموجودة عليه ، وقد احضروه معهم من سورية ، ثم أطلقوا على مدينتهم بعد ذلك اسم «جدو» ، ثم ما لبثت المدينة أن اطلق عليها «بسر — أوزير» أو «بوزيريس» نسبة الى «أوزير» ، وأما معنى الاسم فغير مؤكد ، وان كان يمكن تفسيره بمعنى «يخلق العرش» أو بمعنى «بؤرة أو قوة العين» - هذا بينما يذهب آخرون الى أنه انما كان الها ليبيا ، وليس آسيويا (٢٣) .

وهناك من الروايات ما يشير الى أن نوت قد ولدت أوزير في طيبة في أول أيام النسيء الخمسة (٢٤) ، وأن أوزير قد سمع صوتا في المبد ينادى بانه قد ولد اليوم الاله الملكى العظيم ، سيد كل الذين يدخلون الى الضوء ، واعترف رع بأوزير وريثا له ، وقيل أيضا أن أوزير وايزة قد أحبا بعضهما ، وهما ما يزالان في الرحم ، وقد أثر هذا الحب ولدهما حور الاكبر ، وأن أوزير قد نجح في اعتلاء عرش أبيه جب ، وطبقا للأساطير المتصلة بأوزير ، فان الناس في ذلك العصر المبكر كانوا ما يزالون في بربرية ياكلون لحم البشر ، وأن أوزير قد علمهم الحضارة ، وما يجب أن يؤكل وما لا يؤكل ، وأوضح لهم كيفية زراعة الصوب كالقمح وكروم العنب ، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الالهة ، وكتب القانون من أجلهم ، بعون من كاتبه تحوت ، الذى خلق الفنون والعلوم وأعطى الاشياء اسماءها ، وأنه قد حكم بالمنطق ، وليس بالقوة ، ثم

23) Egyptian Mythology, P. 50, O. Bates, The Nome of Osiris, JEA, II, 1915, P. 208.

(٢٤) انظر عن أيام النسيء (محمد بيومى مهران - مصر - ج ١ ص ١٨٠) .

بدأ ينشر علمه في بقية العالم ، تاركا ايزة نائبة في تصريف الأمور في مصر ، وقد اصطحب معه في مهمته كثيرا من الموسيقيين ، فضلا عن الالهة المتوسطة ، واستطاع ، عن طريق المناقشة وأغاني الاناشيد ، أن يقنع الناس هناك باتباع وسائله ، وهكذا كتب له نجحا غير قليل في تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب ، وكذا بناء المدن ، وفي اثيوبيا علمهم كيفية تنظيم الفيضان عن طريق قنوات الري والسدود .

وفي أثناء غيابه ، قامت ايزة ، بمعون من تصوت ، بإدارة المملكة ولكنها جوبهت بدسائس «ست» الذي لم يكن طامعا في العرش فحسب ، ولكنه كان مفتونا بها كذلك ، فضلا عن الرغبة في تغيير النظام المقرر ، وبعد عودة أوزير بفترة قصيرة ، قرر ست ، بمعون من ملكة اثيوبيا «آسو» واتنين وسبعين متأمرًا — أبعاد أوزير ، وذلك في اليوم السابع عشر من شهر حتحور (سبتمبر أو نوفمبر فيما بعد) من العام الثامن والعشرين من حكمه ، وسقط أوزير ضحية التآمر ، وألقى ست بجسده في النيل ، وتمكنت ايزه بعد ذلك من العثور على الجسد ، وإعادة الحياة اليه بقوة سحرها ، وبمساعدة تحوت ونفتيس وأنوبيس وحور ، لكن أوزير كان قد انتسب الى عالم الموتى ، وفضل أن تكون مملكته هناك في أرض الموتى ، تاركا مهمة الدفاع عنه في هذه الأرض لولده حسور (٢٥) .

هذا وقد ربط المصريون بين أوزير (أوسيرى بالقبطية) وكل التطورات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام ، وتؤثر في انتاجهم الزراعى ، فعندما يجىء الفيضان يكون أوزير هو الماء الجديد الذى يكسب الطقول خضرة ، ومع أن أوزير صار مع الماء ، بل مع ينباع الماء العظيمة ، نفسا واحدة ، فانه من الواضح ، أن وظيفة خاصة للماء هي التي أمتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا للخصب ، ومانحا

(٢٥) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ ، وكذا
Egyptian Mythology, P. 50-54.

للحياة ، هو الذى وحد به أوزير ، وهو الذى يسبغ الحياة على التربة ، ومن ثم فإن أوزير كان يتصل بالتربة اتصالا وثيقا ، وإذا ما جف النبات وفنى ، فإن هذا يعنى أن أوزير قد مات ، غير أن موته هذا ليس أبديا إذا اعتقد القوم أن الحياة تعود اليه كل عام ، وبعودتها تنبت المزروعات التى يعيش عليها الحيوان والانسان ، ومن ثم فإن الاشارات المعروفة لنا عن أوزير انما تقرنه بحياة النبات أو توحد معها ، كما تربط متون الاهرام بين أوزير والحياة النباتية ، ويرتبط بذلك تصوير أوزير مستلقيا على الأرض وينبت القمح من جسده أو تمثل شجرة نابئة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيل الاله المصورة على هيئة مومياء فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولا موفورا من أرضه .

هذا فضلا عن أو أوزير انما قد وحد فى أقدم نسخة من كتاب الموتى مع الحنطة ، اذ يقول المتوفى معبرا عن نفسه «انى أوزير ، وانى أعيش كحبة حنطة وأنمو كحبة حنطة ، وانى شعير» ، وهكذا ، ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزير بعد ذلك الها للموتى وسيدا لهم ، وكانت تلك الصفة من أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن ثم فقد أصبح فى العصور التاريخية الها للموتى ، وأما فى العصور المتأخرة فقد اعتبر الها للقمح ، لانه كان يختفى ثم يعود مرة ثانية الى الحياة ، كما مثل كذلك الشمس الغاربة والمشرقة ، هذا وقد أدت كثرة وظائف أوزير الى أن يصبح ينبوعا لا ينضب لوضع الاساطير .

وربما كانت أسطوريته صدى لاحداث طواها الدهر منذ أمد بعيد ، وربما كانت هذه الاحداث غير مرتبطة فى الاصل ، فضلا عن انتمائها الى عصور مختلفة ، ثم ادمجت فيما بعد فى قصة أخلاقية عن الكفاح بين الخير والشر ، وتتخلص فى أن ملكا طيبا قتله أخوه الشرير ، فأنحضرت زوجته جنثته ونجحت فى أن تعيد اليها الحياة ، ثم عكست على تربية ولدها منه فى كتمان شديد ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الشباب انتصر على قاتل أبيه وجلس على عرشه ، ولا ريب فى أن ما اكسب هذه

الاسطورة تلك القوة ، انما كان بسبب الاعتقاد بأن الاستبداد والمظلم ليسا هما القوتان اللتان تسودان العالم ، وانما الحق والاخلاص ، هذا فضلا عن الاعتقاد بانتصار الآلهة المقتول على الميت ، فقد أسترجع الحياة ، وأصبح سيدا للموتى ، بعد أن تنازل عن حقه في سيادة الاحياء لولده حور ، ومن الواضح أن القوم انما قد تمسكوا بهذه الافكار منذ أول عصورهم ، وأن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذي تبلورت حوله هذه الافكار (٣٧) .

هذا وتصف النصوص كذلك وفاء الزوجة ايزة لزوجها أوزير ، فقد أخذت تبحث عنه دونما كلل أو ملل في كل أنحاء البلاد ، بعون من أختها نفثيس (نبت حت) ، حتى قدر لها أن تعثر عليه في « ندية » ، ثم استعانت بكل الالهة وبكل القوى السحرية ، حتى تمكنت آخر الامر من أن تعيد اليه الحياة حينما من الدهر ، حملت فيه من زوجها حملا المهيا ، وأنجبت ولدهما حور ، الذي قدر له أن يستعيد حق أبيه وعرشه المعتصب ، ويذهب «أوتو» الى أن التفسيرات المتأخرة قد أوضحت لنا أنها قد اسدلت الستار على جسدها ، واستقبلت مولودها ، وان هذا التصور يعنى عند القوم أن الموتى انما كان في استطاعتهم أن يهبوا الاحياء الخصوبة ، ومن ثم فان أوزير انما قد جسد الخصوبة الارضية، وحين تتجسد هذه الفكرة في شكل اله ميت ، فان هذا يعنى منح الحياة الجديدة للابن من الاب المتوفى .

وعلى أى حال ، فلقد عكفت ايزة على تربية ولدها حور ، وعندما بلغ مبلغ الرجال ، عقد له أتباع أوزير لواء الزعامة لاستعادة نفوذهم القديم ، تحت شعار «بوتو» احدى مراكز عبادة حور ، وقد كتب له في

(٢٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤٢ .
 جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ١١ - ١١٣ ، أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ص ٤٨ - ٤٩ ، ٨٠ - ٨١ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الآداب والعلوم - الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٥ - ٢٧ .

ذلك نجحاً بعيد المدى ، وهكذا كان المصري يرمز لكل ملك حى بأنه «حور» ولكل ملك ميت بأنه «أوزير» ، ثم سرعان ما تصبح للعقيدة الاوزيرية علاقة وثيقة بالملك ، ومن ثم فقد اتخذ الملك زى وشارات أوزير ، وكان الهدف منه ربط فرعون بهذا الحادث الميمون ، وفي النهاية أصبح فرعون المتوفى أوزير (٢٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ما تعبر عنه الاسطورة من قيم فاضلة ، غير ما ذكرنا من قبل ، فلخلاص الزوجة لزوجها ، وبر الابن بأبيه ، والحنان وحب الوالدين الخالص من الأبنانية نحو الابناء ، ونصرة الابناء لوالديهم ، كلها أدلة على أهمية السلوك الفاضل داخل الاسرة ، باعتبارها العامل الاول في ظهور الافكار الخلقية ، هذا فضلا عن أن الحكم الذى صدر لصالح أوزير واعتباره «ماع خرو» أى مبرا أو صادق الصوت ، واحتفال الالهة في كل أنحاء البلاد ، وفي الجهات الاربع وفي السموات والارض بذلك ، انما يعد انتصار للحق ممثلا في أوزير ، ويدل على معنى خلق كان له صداه في عصر الدولة القديمة والوسطى ، أضف الى ذلك أن سلوك الانسان وأفعاله انما قد خرجت من نطاق الاسرة الضيق ، وأصبح الحكم عليه ، صوابا أو خطأ ، من المجتمع نفسه ، ذلك لأن قيم الانسان وأفكاره انما أصبحت ترتبط بحياة العملية وبسلوكه داخل المجتمع .

هذا وكان من نتائج ازدياد أهمية أوزير وأسطورته ذات المغزى الطيب ، وانتشارها التدريجى بين طبقات المجتمع المصرى ، وبخاصة الدنيا منها، أن انعكس ذلك فى الخلود ، عن طريق اسم أوزير ومحاكاته ، على أساس أنه ملك مؤله ، ورث حكم مصر عن أبيه جب ، فاقام فيها العدل ، وهدى الناس الى الخير ، ونشر بينهم العدل ، ثم تعرض لغدر أخيه ست ، فمات وبعث حيا ، فظلت ذكراه فى قلوب الناس تحمل معانى

27) H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

J. Vandier, le Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 96-97. وكذا

التقديس والاحلال ، ومن ثم فقد مزج كهنة رع عودته للحياة لكى يضيفوا الى ملوكهم نفس صفات أوزير ، بغيه أن يعيشوا الحياة الدائمة ، ، كما عاش أوزير .

غير أن هذا التصور الاوزيرى لم يكن مقصورا على الملوك وحدهم ، وانما تعداه الى فئات اخرى من المجتمع ، وان بدت ظواهره خفية فى البداية ، ثم سرعان ما أصبحت واضحة بعد عصر الثورة الاجتماعية التى اتجهت فيها البلاد نحو الديمقراطية ، والتى لم تكن وقفسا على الحياة الدنيا ، بل تعدتها الى الحياة الثانية ، ولهذا نجد العامة من القوم يشاركون الفرعون مصيره الأخرى ، فكما أن الفرعون سيكون أوزير فى الآخرة ، فلقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك أوزير ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرعى جسده حارس الموتى أنوبيس ويحتنوا عليه ربة السماء نوت ، أم أوزير ، وتبكيه أخته ايزة ونفتيس ويقيمون له جنازة ولده حور ليدفع عنه شر المعتدين ثم يقوده فى موكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما كاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى ، ويصبح الناس متساوين فى عالم القبور (٢٨) .

وهكذا أخذ نفوذ أوزير ومصيره فى العام الآخر ينتشر بين كل طبقات المجتمع الذين اعتقدوا أن قبر أوزير الاصلى ، انما كان فى الصحراء خلف أبيدوس ، فى مكان مقبرة جر ، ومن ثم فقد أصبحت مكانا مقدسا ، بل أكثر قداسة من أى مكان آخر فى مصر ، وبالتالي فقد عملت فئات كثيرة من كل الطبقات والبلاد على أن تدفن هناك بجوار قبر أوزير ، ومن تعذر عليه ذلك جهد على أن يقيم لنفسه قبرا رمزيا أو لوحا تذكاريما ، نقش عليه اسمه وأسماء أقاربه ، فضلا عن الدعوات

(٢٨) أحمد بدوى : فى مركب الشمس - الجزء الثانى ص ٧٠ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٢١٤ - ٢١٧ وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 122-129.

والصلوات للاله العظيم ، كما حرص بعض حكام الاقاليم ممن كتب عليهم أن يدفنوا في أقاليمهم ، أن يحمل جثمانهم الى مقر اله الموتى في أبيدوس ثم العودة ببعض الاشياء لتودع معهم في قبورهم في مواطنهم الاصله ، ولعل السبب في ذلك أن القوم انما كانوا يعتقدون أن بعث أوزير انما تم في أبيدوس على يد تحوت ، سيد الكلم المقدس ، وايزة التي انتفعت بما زودها به تحوت من كلام ، ثم حور الذي قام بالاحتفالات الرمزية ، كما يقال أن رع قد أرسل أنوبيس ليعاون ايزة ونفتيس وتحوت وحور ، فضلا عن أن يخطط الاوصال المقطعة .

وهكذا عادت الحياة الى أوزير ، وبدأ حكمه كملك على الموتى في العالم السفلى ، وسيدا للابدية ، وكان يظن أن بعثه كان بعثا جسمانيا بفضل السحر ، كما كان يحتفل به سنويا في ابيدوس ، وهكذا أصبحت أبيدوس بعد نهاية الدولة القديمة مكانا مقدسا ، وأصبحت الرحلة اليها عند القوم رحلة حج الى مقر أوزير ، وبالتدريج حلت محل ما يسمى «بالحق القديم الذي كان يقام في أون» ، الأمر الذي يفسر لنا كذلك اللوحات الجنائزية الموجودة في «أم العقاب» ، والتي أقامها أصحابها القادمون من جميع أنحاء البلاد لزيارة قبر أوزير ، ومن هنا كان أهم ألقاب أوزير «خنثى أمنتى سيد ابجو» ، بجانب ألقابه الاخرى ، مثل ملك الالهة ووريث جب وسيد الابدية والكائن الطيب ، واله الخصب والنعماء .

هذا وقد عبد أوزير في كل أنحاء البلاد في ثالث يتكون منه ومن ايزة وحور ، وكانت مراكزه الرئيسية في «بوزيريس» (أبو صيربنا) وفي أبيدوس (ابجو) وفي «نديت» على مقربة من أبيدوس ، حيث قتل هناك أو عثرت ايزه على جسده ، وعرف هناك بصفته «أول الغربين» وهو الملقب الذي أخذه من معبود أبيدوس الاصلى «خنثى أمنتى» ويعنى ملك الموتى ، وربما كان هناك لاوزير معبد في كل بلد في مصر ، غير أن «أبيدوس» انما كانت أشهر مراكز عبادته في مصر ، ومن هنا اهتم الملوك بها منذ عصر التأسيس ، حيث اكتسبت نصيبا من القداسة

لوجود معبد «خنثى امنتى» أمام الغربيين على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وزادت قداستها بعد بداية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح أوزير ، منذ أن نسبوا اليه الملك «جر» من الاسرة الاولى ، ثم تضخمت قداستها بمرور الاجيال حتى اعتبرت فى الدولة القديمة دارا للحج والزيارة (٢٩) .

هذا وقد أثبتت الحفريات أن كثيرا من ملوك الدولة القديمة قد أسهموا فى توسيع المعبد الكبير داخل أسوار أوزير ، وقد أصدر الملك «نفر كارع» من الاسرة الخامسة مرسوما يعفى كهنة هذا المكان من الاعمال التى يقوم بها غيرهم ، كما أضاف الكثير من ملوك الاسرة السادسة ، من أمثال بيبى الاول ومرى ان رع وببى الثانى ، كثيرا من المبانى والتحسينات للمباني القائمة ، وهناك من عصر الثورة الاجتماعية ما يشير الى قداسة أبيدوس ، حيث يحدثنا الملك الاهناسى عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة واهناسيا على الارض المقدسة فى ابجو ، ويحاول أن يبرر موقفه بأن انتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه وأنه لم يعلم بها الا بعد وقوعها ، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الالهة (٣٠) .

وفى الاسرة الثانية عشرة يقوم ملوكها بواجبهم نحو المدينة المقدسة، فمن عهد سنوسرت الاول يحدثنا وزيره «منتوحتب» بقوله : « لقد قمت بأعمال فى المعبد ، فبنيت بيته وحفرت البركة المقدسة وأقامت البئر ، بأمر جلالة حور» ، كما ذكر كذلك أنه بنى مركبا مقدسا لأوزير، وأمدده ومعبده بكل وأفضل ما يقدم لاله فى مواكبه ويحدثنا موظف

(٢٩) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٨١ ، فرانسو دوما : المرجع السابق ص ٥٩ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٧٦ - ٧٧ ، وكذا

C. De. Buck, Coffin Texts, I, P. 225.

30) J. Wilson, The Instruction of King Meri-Ka-Re, ANET, 1966, P. 414.

يدعى «خنثى أم ستي» أرسل في عهد أمنمحات الثانى للتفتيش على معابد البلاد بقوله «لقد رسوت في ابجو ، وأثبت اسمى في المكان الذى وجدت فيه الاله أوزير ، أول سكان الغرب ، وسيد الابدية وحاكم الغرب ، الذى يهرع اليه الجميع طمعا في نفعه ، حتى أكل خبزه ، وانطلق خارجا أثناء النهار» ، هذا وقد أقام سنوسرت الثالث معبدا في أبيدوس مقر أوزير ، كما اهتم بهذه المدينة المقدسة ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها وتنظيم أعيادها ، كما عثر له على تماثيل بين أطلالها ، ومعبد جنزى صغير ، هذا فضلا عن قبر له هناك ، لا يدري الاثريون ، ان كان قبرا أصليا أو رمزيا ، وهو الأرجح ، وجد منهوبا تماما ، كما استغلت الطبقة الوسطى في عهده ثرواتها في إقامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة ، أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير في أبيدوس (٣١) .

وهناك من الاسرة الثالثة عشرة ما يشير الى أن الملك «نفر حوتب الاول» انما يصور على أثر له من أبيدوس ، وهو يستشير حاشيته منبئا اياهم أنه يود أن يصوغ مثالا للاله أوزير وتاسوعه في أشكالهم الحقيقية ، ثم يقوم بزيارة لمكتبة الاله أتوم في أون ، لكى يفتش في الكتب القديمة بحثا عن ضالته ، وبعد أن يتم لفرعون ما أراد يرسل موظفا الى ابجو لكى يقوم بعمل الترتيبات كى يظهر أوزير في الموكب في قماربه المقدس ، ثم يصل الملك بشخصه ويشرف بنفسه على صناعة الصور ، ويسهم في الابادة التقليدية لاعداء الاله ، وأما بقية النص فمخصص للملك الذى يتسم بالتقوى للمعبود ، ولتهديد من تسول له نفسه مستقبلا أن يحول دون تذكر مثل هذا الملك الخير العظيم .

(٣١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٣٦٦ ، وكذا
W. M. F. Petrie, Abydos, II, London, 1903, Pl. XVII.
W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953.
J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

هذا وقد ترك فراغة الاسرة الثامنة عشرة ما يشير الى اهتمامهم بمعبد أوزير في أبيدوس ، فقام تحوتمس الثالث بقرميمه ، كما أوقف تحوتمس الرابع أرضين واسعة على المعبد وخصص لمذبحه دخلا ثابتا من ذبائح الحيوان والطيور ، على أن أبيدوس انما بلغت الذروة في القوة والثراء على أيام الاسرة التاسعة عشرة فلقد عمل رعمسيس الاول وسيتي الاول ورعمسيس الثامن على اعلاء شأن أوزير في معبده العظيم ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت اسطورة أوزير شائعة تماما كأحد مظاهر الديانة المصرية ، وأصبح هذا المظهر هو الذى يروق للعالم بوجه عام على أنه الشيء المميز في المجموع العام في العقيدة المصرية ، وأصبح «وب واوات» و «خنثى امنتيو» و «ون نفر» ، وجميع آلهة الموتى والعالم الآخر الاخرى موحدة في أوزير ، أو من اتباعه المتواضعين ، ومنذ هذا الوقت وحتى نهاية الدين المصرى كعقيدة حية ، كانت سيادة أوزير لا مجال للتساؤل فيها لدرجة أن أصبح من المعتاد أن يعرف به كل ميت ، وأصبح الحديث عن أوزير. (فلان) ، كما نتحدث اليوم عن المرحوم (فلان) .

وهكذا فان الملك سيتى الاول عندما أراد أن يكسب شعبية بين المصريين فانه قد شيد معبد للاله أوزير ، ينافس في فخامته أعظم هياكل ومصليات المدن الكبرى في مصر ، ذلك أن أبيدوس رغم أنها المقر المشهور لأوزير ، وأنها ظلت المركز المفضل للنشاط المعمارى عند الفراعين ، فلم يحدث أن واحدا من أسلاف سيتى الاول استطاع أن يمجده المنطقة بالقدر الذى فعله هذا الفرعون ، وذلك عندما أقام معبده المعروف باسم «بيت من ماعت رع» ، وقد دفعه حبه لأوزير الى أن يصدر مرسوم نورى المشهور لحماية مخصصات أوزير في أبيدوس ، والحفاظ على ممتلكات المعبد ، وعدم التدخل في شئونه ، ونصرة العاملين فيه ضد أى حيف يتعرضون له ، وأن كل العاملين فيه مصانون ومحميون مثل الاز على شاطئ النهر ، وأن كل أعمالهم مكرسة لروح أوزير في الاتسليم العظيم الذى يحبه (أى في أبيدوس) وأن خطأ لن يرتكب ضدهم ، وأنهم سوف يثبتون في ممتلكاتهم ابنا بعد ابن حتى

حدود فترة الابدية ، وأن كل من يتعرض لهم سوف يعاقب بشدة ، وأن الفراعين الذين سوف لا يعملون بما جاء في هذا المرسوم سوف يكونون مسئولين عن ذلك أمام الالهة ، الذين سوف يشتعلون غضبا ، كسعلة نار ، وسوف يحرقون جسد أولئك الذين لا يستمعون الى كلماتى هذه .

وليس من شك في أن الغرض من هذا المرسوم — بجانب اظهار تقوى سيتى الاول وتكريمه لاوزير — أن اسم الفرعون «سيتى» (بمعنى المنتسب الى الاله ست) انما يشير الى ولاء لاله ست قائل اوزير ، ومن ثم فقد أراد فرعون أن يترضى اوزير ، أو بمعنى أصح كهنته القوية ومن ثم فرغم كثرة ما أنفق على هذا الاثر ، فان المعمارين لم يعنوا بتخصيص مكان للاله ست بين شاغليه المقدسين ، بل انهم خلال كتابتهم للقب الحاكم فقد استخدموا صورة اوزير في مكان الصورة الحيوانية لخصمه اللود ست ، ومع ذلك لم يسمح لأوزير أن يعبد هنا بنوع خاص على حساب ست ، ذلك أن المعبد انما كان يعتبر مصلى وطنيا ، فقد أقيمت الى جانب اوزير مصليات لزوجته ايزه ولابنه حور ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يكونون ثالوث أبيدوس القديم ، ولكن كان هناك كذلك مصليات أخرى من نفس الحجم بنفس الاهمية كرست لآمون اله طيبة ولبتاح اله منف ثم لرع حر أختى اله هليوبوليس ، ولم يكن سيتى الاول بالرجل الذى يفصل ما بينه وبين هذه الصحبة الفخمة ، ومن ثم فقد أمر أن يكرس لعبادته الهيكل السابع في أقصى الجنوب .

وعلى أى حال ، فان سيتى الاول توفى قبل أن يتم بناء المعبد فأتمه رعمسيس الثانى ليكمل لابييه حياة مبررة في الآخرة ، ولكى يحظى هو برضاء الالهة ، والمعبد حقيقة أحد مفاخر العمارة المصرية ، ويعد أعظم ما أخرجه الفنان المصرى في ذلك العهد ، ويمتاز عن غيره من دور العبادة المصرية بتصميمه الفريد في نوعه ، اذ صمم على هيئة حرف (٦) الرومانى مقلوبا ، هذا وقد أقام رعمسيس الثانى كذلك معبدا في

أبيدوس يقف على قدم المساواة مع معبد أبيه ، ولكنه الآن مخرباً (٣٢) .

٤ - رع

يمثل الاله رع الشمس في قوتها ، ويعنى اسمه ببساطة «الشمس» ، وقد وحد منذ وقت مبكر جداً مع أتوم ، الاله الخالق في أون ، مركز عبادة رع الرئيسي منذ أقدم العصور وحتى ظهور المسيحية ، ومن ثم فقد روت الاساطير أحياناً أن أتوم انما قد خلق رع ، وان كان في الغالب ، أن رع انما قد بزغ من نون بارادته وحده ، وأن هناك اعتقاداً أنه قد نشأ من المياه الازلية المحاطة بأوراق زهرة اللوتس التي طوقته أكثر من مرة عندما كان يعود إليها كل مساء ، أو أنه قد نشأ في شكل طائر الفينيكس (العنقاء Phoenix) ، طائر البنو ، وأضاء على القمة الهرمية للمسلة ، حجر ال «بن بن» ، الذي يمثل أشعة الشمس ، وأن أكثر الأشياء قدسية في معبد رع في أون انما هو حجر «بن بن» (Benben) الذي تعكس أسطحه المذهبة أشعة الشمس في الصباح ، وأن موقع المعبد انما هو التل الاصلى نفسه ، وأن بيت ال «بن بن» انما كان في وسطه ، هذا وقد قيل أحياناً أن رع انما قد اتخذ له زوجة هي «رعت» (رعة Rat) أو (Ius-as) أو (Urt-Hikin) (عظيمة السحر) ، وأحياناً تحثور (وهي ابنته في أحليين أخرى) .

وطبقاً لنظرية الكهنوت الهليوبوليتاني (٣٣) كان رع هو الاله المبدئي

(٣٢) محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجى في رعمسيس الثالث ص ٦٦ - ٧٠ ، مصر - الكتاب الثالث - التاريخ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ (ط. ١٩٨٨) جيمس بيكى الآثار المصرية في وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٥٧ - ١٨٥ .

F. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-202; E. A. Budge, Op. Cit., P. 113-194; Egyptian mythology, P. 50-58; A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 250-251; J. Spiegel, Die Welt des Orients, II, 1959, P. 397-403.

E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, 1962, P. 315.

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 350, A. Gradiner, JEA, 38, 1947, P. 32.

J. H. Breasted, ARE, P. 84-85, W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

(٣٣) أنظر عن نظرية الكهنوت الهليوبوليتاني (نظرية عين شمس)

أعلاه ص ٣٠٣ - ٣٠٩ .

أتوم ، وقد أوجد نفسه من نفسه ، أو أن ذلك ثم عندما خلق من نفسه أول زوجين مقدسين ، هما شو وتنفوت ، وقد أنجبيا بدورهما جب ونوت اللذين أنجبيا أوزير وايزه وست ونفتيس ، وان قيه كذلك أن رع نفسه انما هو ابن جب ونوت في صورة بقرة ، وان رع كان يولد كل صباح كمجل ثم يكبر حتى يصبح ثورا في وسط النهار عندما يقوم باخصاب أمه ، مثل كان منفيس (ثور أمه) ، ثم يموت في المساء ليولد في صباح اليوم التالي ، بل ان القوم انما اعتقدوا كذلك أنه خرج من بيضة شكلها بتاح من صلصال ، أو أن جب قد خلقه في صورة أوزير ، هذا وقد مثل رع أحيانا كقرص بسيط يولد على قارب ، وان صور غالبا على هيئة رجل برأس صقر ، وذلك بسبب توحيده مع حور ، وقد توج الرأس بقرص الشمس التي طوقت بالحياة التي تنثر النيران على أعداء رع ، وكان الاله في هذه الهيئة يعرف على أنه «رع حور أختي» ، حاملا علامة «عنخ» (الحياة) و «واس» (الصلولجان) ، وكانت الاولى في يده اليمنى ، والاخرى في يده اليسرى ، ومثل كذلك كطفل في زهرة اللوتس ، مثل طائر البينو ، الذي يشرق عند الفجر من حبر بنبن بولكنه لم يصور على شكل تمثال الا في حالته كآمون رع ، هذا وقد ارتبط رع ارتباطا وثيقا بالملوك فقد كان الهمم الحامي ، وقد اعتقد الفرعون أنه حور بن رع ، وأنه سوف يصبح رع بعد موته ، وفي أول الامر ، كان الفرعون وحده هو الذي يسمح له بعبادة رع ، ولكنه أصبح بعد ذلك الها للدولة أكثر منه الها للفرعون ، وأصبح الفرعون حور بن أوزير ، أكثر منه حورس الشمس (٣٤) .

هذا وقد عرفت مصر عبادة الشمس منذ الازل ، وكان للشمس مظاهر متعددة ، كان كل منها الها مستقلا ، وأحد مظاهر اله الشمس نفسه ، وأصبح رع اله أون هو اله الشمس ، الذي غطى على ما عداه ، فاستحوذ على السلطة في أون من أتوم ، الاله الخالق ، الذي وحد نفسه مع الاله الجديد ، وصار يسمى «رع أتوم» وجمع رع بينه وبين

34) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 322-335 Egyptian mythology, P. 40-41.

بعض مظاهر الشمس ، مثل اله الافق «رع حر أختي» ، وضمو اسم رع بصفته الاله الاعظم الى بعض الالهة الهامة فصارت أسماؤها «رع حر أختي» أو «سوبك رع» أو «خنسوم رع» وهكذا ، ومنذ الاسرة الثانية عشرة مزج الاله آمون بالاله رع ، تحت اسم «آمون رع» بغية أن يكتسب آمون صفا تترعر ونفوذه القوى بين الناس ، حتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، ومع ذلك فقد ظل كل من آمون ورع الهاء مستقلا ، أحدهما للهواء ، والاخر للشمس ، بالرغم من أنهما قد اتحدا تحت اسم «آمون رع» ، الذي أصبح الاله الاعظم للأمة ، ولم تسمح ثروة آمون رع أو نفوذه السياسى ، أو أنه أصبح ملك الالهة بأن يضم الى معبده فى الكرنك ، معبد اله الشمس فى هليوبوليس ، هذا وقد كان رع ، فيما يعتقد القوم ، أعظم الالهة طرا وسيدهم ، بل هو أبو الالهة ، فضلا عن الجنس البشرى ، وكل الكائنات الحية ، وكان مركز رع فى مدينة أون (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) ، والتي ربما كان اسمها يدل على ارتباط بعبادة رع ، فقد كان اسمها فى المصرية «ايونو» بمعنى العمود ، وكان قومها هم «الايونيتو» أصحاب العمود ، وهو فى المهرىوغليفية المصرية عبارة عن عمود على صورة المسلة تقريبا ، وقد استعملت نفس الكلمة لقمة الهرم أو للمهرم كله حين اتخذ نفس الشكل ، وكما أشرنا من قبل ، فقد كانت القمة الهرمية تدعى «بنبن» (بن بن) وقد صارت أكثر رموز رع قداسة ، ربما لان أسطحها المذهبة تستطيع أن تتلقى وتشتع أشعة الشمس وتعكسها ، ومن ثم فقد كانت ال «بنبن» وليست المسلة كلها أو الهرم كله ، هو ما كان مقدسا لرع ورمزه الأكبر ، ومن ثم فقد أقام القوم للاله رع معبدا ذا طابع خاص . لم يكن به صورة لهذا الاله ، وانما حوى قطعة مقدسة من حجر دعيت بنبن كانت توضع فى بناء مكشوف ، واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الاولى على هذا الحجر ، ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختلفت جميعها ، وان كنا نستطيع أن نتصورها اذا ما قارناها بمعابد

الشمس التى شيدها ملوك الاسرة الخامسة على نمطها (٣٥) .

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى أن عبادة الشمس قد وجدت فى عصر التأسيس (الاسرتان الاولى والثانية) دون شك ، وقد انتسب الملك «رع نب» من الاسرة الثانية الى الاله رع ، كما حمل ملك آخر اسم «ونج» وهو اسم اله قديم ذكرته نصوص الاهرام على أنه «ابن رع» ، هذا فضلا عن ارتباط رمز الاله رع ، والمصور على هيئة قرص الشمس ، مع حيوان الاله ست المصور فوق اسم الملك «بر اييب سن» كما أن المراكب الجنائزية الملحقة ببعض مقابر سقارة وحلوان انما تدل على أن الميت ، فيما يعتقد القوم ، يجب أن يلحق بصحبة الالهة فى رحلتها عبر السماء ، وأن هذا الاعتقاد انما كان مقبولا منذ بداية الاسرة الاولى ، هذا وينسب الاثريون الى الملك زوسر بناء معبد صغير فى مدينة أون ، صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس (٣٦) .

وفى الاسرة الخامسة نرى أنصارها يرجعون حقها فى عرش الفراعين الى ارادة ربانية قديمة ، والى أصل مقدس ، فيخرجون على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، كما أصبح لقب «ابن رع» (سارع) من ألقاب ملوك مصر الرسمية حتى نهاية العصور الفرعونية ، ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل أنه كان تصريحاً من الملك الفرعون بينوته للاله رع ، تلك البغوة التى أعلنها الفراعين منذ الاسرة الرابعة بصفة متقطعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع قد دخل فى ألقاب الملوك كما أشرنا آنفاً ، منذ الاسرة الثانية ، مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى .

(٣٥) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢١ ، وكذا

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 209.

36) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, Boston, 1946, Fig. 48-53.

وهكذا كانت الاسرة الخامسة بالذات بداية تأكيد بنوة الملك للاله في ذلك اللقب الرسمي (سارع) ، والذي كان يسبق اسم الملك الشخصي الذي أطلق عليه عند ولادته ، للتأكيد الواضح أن الملك ولد حقيقى للاله رع ، وبذا يصبح صاحب حق شرعى فى حكم مصر ، وكان من المنتظر أن يزيد ذلك فى قدسية ملوك الاسرة الخامسة ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، ولعل السبب أن هذه الاسرة انما قامت أصلا بدافع من كهانة رع فى عين شمس ونفوذها ، ومن هنا كان ملوكها يدينون بالولاء للاله رع نفسه ، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة ، ثم لكهنته الذين ساندوهم وعضدوهم فى حكمهم ، وقد كان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ، ونجاح رع فى تحدى السلطة الفعلية المطلقة التى كان يتمتع بها الفرعاعين⁽³⁷⁾ .

ولقد أدرك ملوك الاسرة الخامسة منذ أول أمرهم ، أن أول واجب عليهم هو اقامة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس بجانب مقر اقامتهم ، وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، وقد كشف «بورخاردت» فيما بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١م ، فى منطقة أبو غراب ، شمالى أبو صير عن معبد كبير للشمس ، يفترض عقلا أنه صورة من معبد «رع أتوم» فى هليوبوليس ، والمنظر الخارجى العام يشبه منظر المجموعة الهرمية العادية ، وله مبنى كمدخل عند الوادى ، ثم ممر صاعد ، يؤدى الى مستوى أعلى ، وعند القمة ما يمثل الهرم ومعبد الجنازى ، وأما الفارق الرئيسى ، ففى استبدال هذين الاخيرين بمسلة مقامة فوق قاعدة مربعة ، مثل الهرم المتطور القمة ، وتذكرنا المسلة بالحجر القديم جدا فى هليوبوليس ، والمشار اليه من قبل ، ويعرف باسم «بن بن» ، وربما كان اشتقاقه من «الواحد المتسع» والذى كان يرمز ، دون شك ، الى شعاع أو أشعة الشمس ، ومن المعروف أن ستة من ملوك الاسرة الخامسة قاموا ببناء معابد للشمس من هذا

37) J. Wilson, Op. Cit., P. 120, I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, P. 13-54.

النوع ، ولكل منها اسمه، مثل «متعة رع» و «أفق رع» و «حقل رع»، وقد أمكن تحديد مكان اثنين منهما فقط ، الواحد ينسب الى «وسر كاف»، والاخر قام ببنائه «نى وسر رع» .

وكان اله الشمس يعبد هنا تحت قبة السماء ، وتوجد عند قاعدة المسلة ، شرفة فى وسطها مذبح كبير من المرمر ، والى شمال المذبح مساحة شاسعة كانت تقاد اليها الثيران حيث تذبح ، وهناك الى شمال هذه المساحة صف من المخازن ، وأما المرتفع الذى تقوم فوقه المسلة فكان يوصل اليه ممر طويل مغطى ، ترينه مناظر منحوتة ومنقوشة بصورة رائعة ، بعضها تمثل فصول السفنة بنباتها وحيواناتها التى خلقها اله الشمس ، بينما تصف الاخرى «عيد سد» الذى كان تجديدا دوريا للملكية ، حيث كان يجتمع آلهة نصفى الدولة ليمجدوا الملك ، ولابد أنها كانت لحظة مثيرة للعواطف ، حين كان يبرز الكهنة فى خلال الاحتفالات من الممر المظلم نسبيا الى ضوء الشمس الساطع الذى ينشره الههم فى الخارج^(٣٨) .

٥ - بتاح

ليس هناك من الادلة ما يشير الى أن الاله «بتاح» كان واحدا من أقدم آلهة مصر ، ومع ذلك فإن صلته بأوزير بعد موته وبعثه فى أبيدوس تشير الى أنه أقدم هناك منه فى منف التى أصبح الاله الرئيسى فيها ، هذا وقد نسب القوم مدينتهم منف هذه الى معبودها بتاح ، وكان من أوائل الالهة التى ظهرت فى هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الاسرات ، وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، كما ظلت عقيدته ، وخاصة بين الطبقات المثقفة ، قوية ، اذ كانت تسودها الروحانية ، بخلاف العقائد الاخرى التى سادتها المادية ، وربما كان

38) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 85-86.

وانظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفراعنة ص ٣٨ ، مصر - الجزء الثانى ص ١٥٦ - ١٦٣ .

أصل هذا الاله رجلا عبقريا ، طواه النسيان لزمان بعيد ، ذلك لانه بخلاف مجموعة الالهة المصرية لم يأخذ صورة حيوان ، ولم تكن له صلة بواحد من هذه الحيوانات ، وقد مثل في شكل رجل في لفائف مومياء ، لا يغطى رأسه سوى قلنسوة ضيقة ملاصقة لعظام الرأس ، ويلتف برداء يصل الى القدمين ، ولا تبرز منه سوى اليدين ، يقبض بها على رمزي «جد» (الدوام) و «واس» (الصولجان) ، ويزين رقبته بقلادة عريضة تغطي كتفيه وجزءا من صدره .

وقد رفعه كهان منف الى مرتبة الاله الخالق ، وقتلوا عنه ، فيما نرى نظرية الخلق المنفية ، والتي ربما ترجع الى أوائل عهد الدولة القديمة وربما الى بداية العصور التاريخية ، أنه كان قبل كل شيء وأنه خلق العالم ، على أساس أنه القلب (أى الفكرة) فى كل شيء ، وأنه اللسان (أى الكلم) فى كل فم ، يوحى القلب بالفكرة الى اللسان ، فاذا نطق اللسان ، كان هذا النطق هو الخلق ، بمعنى أن كل الاشياء تاتى الى الوجود ، وتؤدى كل الاعمال ، بعد أن يتصورها بتباح فى قلبه كفكر ، ثم يصدر بها الامر عن طريق اللسان ، فتخرج الى حيز التنفيذ عن طريق أعضاء الجسم الاخرى وهكذا كانت وسائله بتاح فى الخلق غير وسائل آلهة الخلق الاخرى ، فقد كانت روحانية أكثر منها جسدية ، مما أدى الى عدم شيوعها بين الشعب ، رغم بقاء أهمية بتاح طوال العصور الفرعونية .

هذا وقد اكتسب بتاح شهرة واسعة منذ أن أصبحت منف عاصمة البلاد ، ذلك لان تفوقها السياسى انما كان سببا فى أن يحظى معبودها بتاح بمكانة مرموقة بين الالهة المصرية بل وان يعتبر انها للارض كلها ، أسوة بالاله جب ، وأن يكون سيذا للفنون ، حاميا للفنانين ، ومن ثم فقد كان أهم لقب يمتز به كبير كهانه لقب «عظيم الفنانين» (ور - خريو حمت) ، وربما اعتبر كذلك اله القوة التى فى الارض ، الخشب والحجر وباقى المواد التى تصنع منها التماثيل ، كما كان يطلق عليه سيد العدالة ، وملك الارضين ، وخالق الفن ، ورافع السموات وخالق الالهة ، الاله

العظيم ، صاحب البداية الاولى ، أول من كان وأول اله في المخلقة ، وبذا كان بتاح بمثابة الاله الذى عاش عصورا لا حد لها ، أو كما يقول المصرى القديم ، احتفل بعدد لا يحصى من الاعياد الفضية ، ومن ثم فقد أصبح مثلا يشبه به كل ملوك مصر الذين حكموها مددا طويلة .

هذا وقد وجد الاغريق الشبه كبيرا بينه وبين معبودهم «هيفايستوس» (المثال) فأطلقوا عليه هذا الاسم ، وهكذا اقترن بتاح في العصر اليونانى بالاله «هيفايستوس» وفى العصر الرومانى بالمعبود «فولكان» ، أما فى مصر فقد اقترن بتاح بسوكر الذى شارك بتاح شهرته فى منطقة منف ، وقد صور على هيئة صقر محفف ، وبشكل آدمى برأس صقر ، واعتبر الها لسقارة ، جبانة منف ، التى سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل منف نفسها ، وكان القوم يعتقدون فى هذا المنظر الجامع للمعبودين أنه يحمى الجبانة ومن يدفن فيها ، وفى وقت لاحق أضافوا اليهما معبودا ثالثا ، هو الاله أوزير ، فأصبح اسم المعبود الجديد الذى يجمع قوى وخصائص المعبودات الثلاثة «بتاح - سوكر - أوزير» وقد مثله على هيئة رجل قمىء رأسه جعران ، وأحيانا كان كصورة مومياء ملتحية تعلوها الريشتان وقرص الشمس وقرون الخروف ، وكان الها جنزيا ، وفى الواقع فلقد ارتبط بتاح بكثير من الالهة ، بما فيها نون ، الماء الازلى الذى بزغ منه العالم ، وحعبى اله النيل ومصدر الخصب ، وجب اله الارض ، وتائنن اله الارض القديم والذى يمثل التل الازلى ، وشو الذى يصعد الى السماء ، وحتى أتون ، وأما ثالوثه المقدس فكان يتكون من بتاح كآب ، وسخمت كزوجة ، ونفر توم كابن ، ثم فيما بعد (بتاح - سخمت - ايمحوتب) .

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى وجود ديانة بتاح منذ عصر الاسرة الاولى ، فقد عثر فى طرخان على آنية من الالبستر عليها شكل بتاح فى مقصورته وقد كتب عليها اسمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى منف ، حيث شاد القوم معبد بتاح فى الفاحية الجنوبية المفتوحة من السور ، واعتادوا أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب «الكائن جنوبى

جداره» أو «جنوبى سور» وربما شادوا الى الجنوب من الباب القبلى لمعبده بناية صغيرة خصصت للمعبود «حاب» الذى رمزوا له بالفحل ، وربما للفحل نفسه •

وفى عهد الاسرة السادسة والعشرين زاد بسماتيك الاول من حجم المعبد ، حيث عبد بتاح على هيئة العجل أبيس الذى بنى له سرابيوم منف أو مدفن المعجول المقدسة فى أقصى الغرب من منطقة سقارة الشمالية ، وكان العجل أبيس فى ذلك العصر بمثابة الرمز الحى للاله بتاح وكان يحتفظ بعد موته ويدفن فى احتفال مهيب ، وتوضع معه الاوانى والمطلى وغيرها ، ويذهب البعض الى أن عبادة الثور انما كانت قائمة منذ عهد الاسرة الاولى ، اعتمادا على تصوير ملوك هذه الاسرة على هيئة ثيران ، وأن الثور انما كان فى نظر القوم رمزا للقوة فى الحرب وفى الاخصاب ، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور حبى» (منفيس وأبيس- فى تصنيف اليونان) ، حيث عبد الاول فى عين شمس ، رمزا لاله الشمس ، وعبد الثانى فى منف رمزا لبتاح ، وقد احتفظ القوم فى معبد بتاح بالعجل المقدس أبيس ، دون أن تكون هناك علاقة ما ، على الاقل فى العصور المبكرة ، بين المعبودين ، كما أن بتاح لم يصور أبدا على هيئة ثور ولم يعتقد القوم أنه تجسد فى ثور ، ولم يعتبر أبيس كروح لبتاح ، الا على أيام الدولة الحديثة ، وان كان هناك اعتقاد يجعل من أبيس ، وكذا من منفيس عجل هليوبوليس ، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل الى معبوديهما، وهو اعتقاد يرجع الى عهد الدولة الحديثة •

وعلى أى حال ، فلقد تمتع بتاح على أيام الاسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الاسرة ، من أمثال مرنبتاح الذى خلف أباه رعمسيس الثانى على عرش الكنانة ، على تولى منصب الكاهن الاكبر للمجل حبى (أبيس) ومن قبل كان أخوه «خع ام واس» كاهنه الاكبر كذلك ، هذا فضلا عن مرنبتاح نفسه (محبوب بتاح) انما كان ينتسب الى الاله بتاح ، كما كرس له محراب

في معبد أوزير الذي بناه سيتي الاول في أبيدوس ، وحمل فيلق من جيش رعمسيس الثاني اسم بتاح (بجانب فيالق آمون ورع وست) وهو الفيلق الذي جاء من منف ومصر الوسطى (٣٩) .

٦ - آمون

لعل أول الأدلة الاثرية التي ورد فيها اسم الاله آمون ، انما هي عدة فقرات من نصوص الاهرام من عهد الدولة القديمة ، ويذهب «دوما» الى أن آمون انما قد ذكر ، للمرة الاولى ، على أثر من طيبة يرجع الى أيام «ببي الاول» من الاسرة السادسة ، وكان سيد طيبة وقت ذاك ، ومع ذلك ، فالاسلم أن نعتبره في عهد الدولة القديمة لها مغمورا لقريبة صغيرة في الصعيد ، ولم يكن هناك ما يشير الى أنه سوف يكسب ما ناله من شهرة فيما بعد ، كما أن جاره الاله «مونتو» معبود أرمنت كان أشهر منه ، ويذهب البعض الى أنه ظل كذلك حتى عهد الاسرة الحادية عشرة حيث أصبح معبود الاقليم ، كما أصبح معبودا للاسرة الحاكمة .

على أن هناك من يرى أن الاله آمون هذا ، انما يمثل الاله «مين» ، وأنه قد تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، وقد ذكر على أثر صغير يشبه «الزر» منذ أيام الاسرة السادسة ، كما ذكر كذلك في الاسرة الثامنة على «زر» و «جبل» ، هذا فضلا عن أن الاله مين انما كان قد صور في طيبة على هيئة آمون ، عندما عين «ايدى بن شماي» أمير مدينة قفط ، حاكما على المنطقة ما بين «هو» بمركز نجع حمادى ، واليفانتين (جزيرة

(٣٩) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية ص ٢١١ - ٢١٣ ، فرانسو دوما : الالهة مصر ص ٨٦ - ٩١ وكذا
E. A. Budge, Op. Cit., P. 500-504; Egyptian Mythology, P. 105-106;
W. Emery, Op. Cit., P. 122-124; H. Kees, Das alte Agypten, P. 88;
T. Frankfort, Op. Cit., P. 10; I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 52-53; H. Frankfort, Ancient Egyptian Religion, N. Y. 1961, P. 24.

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن الوطن الاصلى للاله آمون انما كان في مدينة الاشمونين ، وأن ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة ، هم الذين أتوا به الى طيبة ، ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الالهة المصرية غير أننا لا نملك ، فيما يرى البعض ، دليلا على وجود آمون في خمنو (الاشمونين) الا على أيام الاسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين ، بينما هناك ما يؤيد وجوده في الحادية عشرة في طيبة ، حيث يرد اسمه على أثرين من عهد هذه الاسرة ، أحدهما من القرنة ، والآخر من وادي الحمامات ، وعلى أى حال ، فلقد تمكن آمون من أن يتبوأ مكانة ممتازة في الدولة ، عندما نجح أهمهات الاول (آمون في المقدمة) من تأسيس الاسرة الثانية عشرة ، بعد أن كان الها يكاد يكون مجهولا ، أو على الأقل لم يكن له نفوذ سياسى في مصر ، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر ، الاله الرسمي للدولة (٤١) .

هذا وقد مزج الاله آمون والاله رع تحت اسم «آمون رع» منذ بداية الاسرة الثانية عشرة ، بغية أن يكتسب آمون صفات رع ونفوذه القوى بين الناس ، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، وإذا كان من العسير على الناس تفهم معنى الخفاء والغموض التى يقدمها اسمه ، ولم يكن المزج بالاله رع ، فيما يرى «هنرى فرانكفورت» ، يرجع الى طبيعة آمون كاله للهواء ، وأن القوة الخلاقة فى الهواء ومثيلتها فى

40) F. Daumas, La Civilisation de L'Egypt Pharaonique Paris, 1965, P. 300; S. Mercer, Op. Cit., P. 100, 189; E. Driotin et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 66; W. Hayes, JEA, 32, 1946, P. 16.

(٤١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٩٢ - ٩٤ ، محمد عبد اللطيف : آمون فى الدولة الحديثة ص ١٤ .

J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 150-151.

W. F. Petrie, Qurnah, London, Pl. X, W. Edgerton, JNES, I, 1941, P. 307 F, R. A. Parker, The Calendars of Ancient Egypt, P. 69.

الشمس واحدة ، وأن رفعه الى مرتبة الاله الاعظم كان على أساس أنه لا توجد قوة في الكون تبارى مزج الشمس والهواء ، ذلك لان صفة آمون كاله للهواء لم تظهر الا متأخرا عند مزجه برع ، وذلك منذ بداية الاسرة الثانية عشرة .

وقد يقال ان الريشتين المستقيمتين العاليتين فوق رأس آمون تشير الى طبيعته كاله للهواء ، ولكن هذا الامر غير مسلم به ، اذ لم تنفرد به آلهة الهواء ، والتي تحلق في الهواء كقصور ، مثل شو وأنحور وحبور ومونتو ، بل شاركهم في ذلك آلهة أخرى مثل مين وأوزير ، ولم يكن أى منها الها للهواء ، غالاله مين اله للاخصاب في المقام الاول ، وأوزير اله بعث ، وان لم تخل صفاته من الخصب أبدا ، هذا فضلا عن الاله آمون انما كان منذ عهد الاسرة الثانية عشرة يمارس وظيفة منح الفرعون الحياة عن طريق علامة الحياة (عخ) الى أنف الفرعون ، فضلا عن تقديمه (واس) أى السعادة ، و «جد» (الثبات) ، وان كان هذا الاختصاص لم يكن مقصورا على آمون وحده ، وانما شاركه فيه آخرون ، ومن ثم فلا يكاد يخلو نص دون الاشارة فيه الى أن آمون هو الذى يمنح الفرعون الحياة والدوام والسعادة والصحة^(٤٢) .

وبدأ آمون منذ حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الهكسوس^(٤٣) يصبح واهب النصر والبلاد الاجنبية لابنه الفرعون ، ذلك لان القوم انما قد كتب لهم نجحا بعيد المدى في طرد الهكسوس من مصر ، وكذا مطاردتهم حتى زاهى في لبنان ، وكان ذلك كله تحت لواء آمون ، ونقرأ من هذه الفترة ، على لسان كاموزا « لقد أبهرت شمالا في عزم وقوة لأغلب الاسيويين بأمر آمون ، أعدل الناصحين »^(٤٤) ،

(٤٢) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٧ - ١٨ ، ١٦٦ -

١٧٤ .

H. Frankfort Ancient Egyptian Religion, P. 226.

(٤٣) انظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة

- القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦١ - ٢٢٣ .

44) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

ثم سرعان ما تمكنت مصر ، تحت لواء آمون ، من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، والتي امتدت من أعلى الفرات ودجلة شمالا ، وحتى النجعة جنوبى شندى ، التى تبعد عن الخرطوم بأقل من سبعين ميلا الى الشمال ، وهكذا اعتقد القوم أن الفضل في انتصاراتهم ثم في تكوين الامبراطورية الشاسعة ، انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش ، والى الاله آمون الذى بارك تلك الحروب ، وذلك عندما تعطف وأذن بالحملات الحربية وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الفرعون لكى يقود الجيوش ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر^(٤٥) .

وقد أدى ذلك ، مع مرور الايام ، الى زيادة ثروة آمون زيادة كبيرة ، اذ كان كل نصر للجيش معناه زيادة في ثروة آمون ، ولا نظن أن القوم كانوا يأخذون من ربهم شيئا ، اذا ما أصابتهم هزيمة، وهكذا كانت العلاقة السائدة بين اله الامبراطورية وبين الامة ، لم تكن علاقة من يزهد في الحصول على المغنم ، ولكنها كانت اشتراكا الهيا في أمور دولة مقدسة ، ونقرأ كثيرا في النصوص المصرية أن جزية البلاد الاجنبية وثرواتها انما هي لآمون ، وأن الاسرى الاجانب عبيد له ، يعملون في خدمة معبده ، ومن ثم فقد فاخر الفراعين باغداق الثروات على آمون حتى تصفحت أملاكه وازدادت ثروته بدرجة عظيمة ، وبمرور الزمن تكونت في البلاد ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام الحكومة، فكان لها خزانتها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، وكانت منفصلة عن أملاك بيت الفرعون ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى تتسع هذه الاملاك بدرجة كبيرة ، فلا تقتصر على أرض الكنانة وحدها ، وانما تشمل مناطق خاسرج مصر ، وخاصة في النوبة التى اتسع نفوذ آمون فيها ، وأصبح ذهبها وقفها عليه .

45) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 185.

وهكذا فقد تمتع آمون بمكانة ممتازة في هذه الامبراطورية المشاسعة، وأقيمت له فيها المعابد الضخمة بأموال الجزى التى تدفقت على مصر، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك مجموعة معابد الكرنك الهامة ، ومعبد آمون في الاقصر ، وما تلقاه آمون من ولده تحوتمس الثالث من هدايا، كان منها ، على سبيل المثال ، في العام الرابع والثلاثين من الحكم ما يزيد على سبعمائة رطل من الذهب ، ومثلها في العام الثامن والثلاثين، فضلا عن ثمانمائة رطل من الذهب في العام الواحد والاربعين ، هذا فضلا عن تلك الكشوف الطويلة بأسماء الممالك والدويلات التى نقشت على معبد آمون ، والتى قال الفرعون أنه استولى عليها بفضل أبيه آمون (٤٦) .

وسرعان ما بدأ آمون يحمل صفات الاله مين و رع ، فهو مثل مين يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر، وهكذا بدأوا يقولون عن آمون ، ان الالهة تشم رائحته عندما يأتى من بونت (بلاد البخور) ، وهو غنى بالعبور حينما ينزل من بلاد المازوى، وهو حور الشرق ، الذى تجلب له الصحراء الفضة والذهب واللازورد حبا فيه ، كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المازوى ، والمر الطازج لأنفه ، وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيذا لجاره مين ، ثم بدأ آمون يصبح بعد ذلك وكأنه الاله رع ، خالق كل شيء ، والوحيد صاحب الايدي البيضاء ، هو أب الالهة الذى خلق الناس حسب ألوانهم ، وقد خرج الناس من عينييه ، والالهة من فيه ، عائل كل الكائنات الحية ، انه يسهر في الليل حين ينام الناس ، وهو كالراعى الصالح يبحث عن الافضل لقطيعه (٤٧) .

هذا وقد كان آمون في عقائده الاولى ربا للماء ، كما ادعى بعض

46) J. A. Wilson, Op. Cit., 184-185; T.G.H. James, CAH, II, Part, 2. 1973, P. 289-296; J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 205-214.
(٤٧) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

أصحابه ، وربما للهواء ، كما ادعى بعض آخر ، وكان اسمه يعنى «الخفى» ، خفاء الاسم ، وخفاء الصورة ، لدى بعض أنصاره، ويعنى «الحفيظ» لدى بعض آخر ، وأضاف اليه عبدة ربوبية الاخصاب على احتمالين ، هما فطنة الكهنة لما يحمله الماء والهواء من عناصر الاخصاب، وميل العوام الى الربط بينه وبين اله آخر قديم ، عبده باسم «مين» وتصوروه متكفلا بربوبية الاخصاب في كل صورة ، ومن ثم فقد صوروه على شكل الاله مين ، واقفسا في شكل مومياء ، وبالقضيب المنتصب ، والذراع المرفوعة التى يحلوها السوط ذو الثلاثة جدائل ولباس الرأس المكون من القلنسوة التى تصلوها الريشتان المستقيمتان العاليتان ، والتى يتدلى من مؤخرتها الشريط النازل الى أسفل حتى القاعدة ، التى يقف عليها الاله أو قريبا منها .

هذا فضلا عن أن القوم انما تمثلوا آمون كذلك على هيئة بشرية، كان فيها محتشما طليق الحركة ، وتتدلى احدى ذراعيه الى جانب ، وتمسك يده بعلامة الحياة «عنخ» ، بينما تمتد ذراعه الاخرى قليلا الى الامام وتمسك بصولجان «واس» ، ويرتدى فوق رأسه لباس الرأس المميز ، والذي سبق وصفه في الشكل الاخصابى ، ولكن يقتصر تدلى الشريط النازل من مؤخرة القلنسوة في هذا التمثيل حتى الوسط فقط ، ويرجح أن يكون انفراج الساقين ، نتيجة الحركة الطليقة للتمثيل ، قد عاق اظهار باقيه ، ورغم أن الشكل الاخصابى هو الذى يغلب وروده في الادلة الاثرية من معبد سنوسرت الاول في الكرنك ، الا أنه يصعب تحديد أولوية أى من هذه الكباش المخصصة الطلوق ، التى توهم أصحابها أنها آية من آيات ربهم على الارض ، هذا وتتميز كباش آمون عن غيرها بالقرون المتقوية حول الاذنين بينما كانت قرون غيره مستعرضة، وقد سبقته الكباش الاخرى في الظهور ، أما كبش آمون فيرجع الى عصر الهكسوس ، وأخيرا فخلع مثل آمون أيام الدولة الحديثة في شكل الاوزة ، والتى ربما تمثل الاله نفسه أو حيوانه المقدس ، كما يتضح من الادلة الاثرية وجود بعض التمثيلات النادرة للاله نفسه في أيام

الدولة الحديثة تأثر فيها بالاله رع ، وغيره من الالهة مثل أثوم و حور
أختي وأوزير (٤٨) .

وعلى أى حال ، فلقد بدأ أيضا أنصار آمون ينسبون اليه كل ما يليق
بربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة العالمية،
وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة،
واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لتعاليم
طيبة ، التى تأثرت بمدرسة الاشمونين هو الاله الذى خلق بقية التاسوع
مع أنه أحد الالهة الثمانية فى الاصل ، وعلى ذلك فقد تخیلوه لها فى
هيئة شعبان ، أطلقوا عليه اسم «كم ان اف» أى «ذلك الذى أكمل زمانه»
أو بمعنى آخر ، هو الذى انتهى أمره ، وقد أنجب هذا الاله لها آخر
«اير — تا» أى خالق الارض ، وهذا بدوره خلق الثمانية الاخرى، التى
منها نشأت الخليقة ، ومع كل فقد كان «كم ان اف» فى نظرهم هو
«آمون» العظيم ، معبود الاقصر ، وخالق الارض ، واله التاميل .

ولما ابتغى شعراؤهم أن يمجّدوه نسبوا اليه صفات الاله مونتو ،
اله الحرب القديم ، ونعوت الاله حور ، رب الدولة وجامي عرشها
القديم ، ونسبوا اليه سيطرة وهيمنة على ما امتدت اليه آفاقهم
السياسية والحضارية فى أقطار للعالم القديم ، فهو «سيد بلاد المدجا
حاكم بونت ، أثوم الذى خلق البشر ، ونوع هيئاتهم وغرق ألوانهم،
جميل الوجه الذى جاء من أرض الاله فى الشرق .. لك إبتهالات كل
بلد أجنبى حتى عنان السماء ، والى آخر الارض والى أعماق البحر
الاخضر الكبير ، الواحد المنفرد ، الذى لم يكن له كفؤا أحد ، الذى
يعيش على الحق كل يوم» ، وهكذا أصبح آمون خالق ما هو كائن ،
صانع الرجال ، وأب الالهة ، وسيد الملوك ، وسيد السماء وثور أمه،
وسيد عرش الارضين فى طيبة ، وسيد الكرنك ، وأما ثالوثه فيتكون

(٤٨) عبد العزيز صالح : الوجدانية فى مصر القديمة ص ١٣-١٤ ،
محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

منه بصفته الاله الاب ، ومن موت الالهة الام ، ومن خونسو الاله الابن (٤٩) .

٧ - تحوت

كان تحوت (تحوتى أو جحوتى كما ينطق فى المصرية) هو المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء ، كما اعتبروه كاتباً أعلى ووزيراً ، ونائباً لمعبودهم الأكبر رع ، فهو الاله الذى يقسم الزمن الى شهور ، وهو الذى ينظمها ، أى ينظم شئون العالم ، وإذا كان اله الشمس هو حاكم العالم ، فإن تحوت هو أعظم الموظفين شأنًا ، هو الوزير الذى يقف بجانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شئون الدولة ، وهو المقاضى الذى يحكم فى السماء ، ويقضى فى منازعات الالهة ، ويتنبأ للالهة والبشر بما سيحدث لهم ، وهو الذى يشيد المدن ويضع حدودها ، ثم هو العالم سيد الكتب ورب كلمات الالهة ، أى الكتابة المقدسة .

وهو الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة وعلم الكتاب والحساب الصحيح ، ولما كانت الرياضة والفلك مرتبطة عند القوم بالسحر والكهانة ، فقد كان تحوت سية السحر الكبير ، وعندما كان وزيراً لأوزير ، فقد علمه فنون الحضارة ، كما علم ائزة التعاويذ التى جعلتها جديراً بقلب «الساهرة الكبيرة» ، كما مكنتها من إعادة الحياة لأوزير ، فضلاً عن شفاء جميع الأمراض التى عانى منها طفلها حور ، كما تمكن تحوت نفسه ، بعون من رع ، من طرد السم القاتل الذى وضعه ست للطفل حور ، وكاد أن يقتله ، وقد تمكن كذلك ، بصفته الها للطب ، من إعادة عين حور التى استطاع ست أن ينقرعها ، وهو فى هيئة خنزير أسود . هذا وقد عرف تحوت على أنه كاتب الالهة ومعلن قراراتهم ، ومن

(٤٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٠٧ - ٣١١ ، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ١٤ وكذا .
A. Erman, LAE, 1927, P. 283, J. Wilson, Op. Cit., P. 130-131, 211.

ثم فقد اعتبر رسول الالهة ، ولهذا فقد وجد مع «هرمس» في العصر اليوناني ونظرا لكونه كان كاتباً لرع فقد عبده الكتبة وكل المثقفين في مصر ، بما فيهم الكهنة ، واتجهوا في بعض الاحايين الى تضخيم دوره ، ومن ثم فقد ادعوا بأن الفرعون المتوفى يتحد مع رع خلال النهار ، ويتحد مع تحوت (القمر) خلال الليل ، ومع ذلك ففي أثناء العهود التي ساد فيها آمون رع أصبح تحوت الها للحكمة وكاتباً ، وغدت وظيفته كاله للقمر عديمة الاهمية (٥٠) .

هذا وقد رمز القوم الى تحوت بثلاث كائنات حسية ، رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمي ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قرداً ، أو أن يبرز نفسه كقمر ، ثم سرعان ما خرج القوم بتأويلات عدة عن روابط تحوت بهذه الرموز ، ففسرها بعضهم على أساس التشابه الوظيفي بين تحوت رب الحساب ، وبين القمر الذي اتخذت منازلها أساساً لحساب الشهور والليالي ، ثم على أساس التشابه الوظيفي كذلك بين تحوت نائب رع وبديله ووزيره في مجمع الالهة وبين القمر نائب الشمس وبديلها في ليالي السماء ، بينما فسرها بعض آخر على أساس التشابه المظهري في التقوس اليسير الذي يظهر به كل من عرجون القمر أو هلاله ومنقار أبي منجل ، وريشة الكتابة التي يستخدمها تحوت رب الكتابة والميزان .

هذا وقد فسرها فريق ثالث على أساس تشابه الخصال بين تحوت رب الحكمة وما يستتبعها من الرصانة والوقار ، وبين ما يتبدى من حكمة القرد العجوز ، الفطن بين الحيوانات ، ورصانة أبي منجل بين الطيور ، حين يتهادى في تودة وتناقل ، ويطلق بحثه عن ديدان الارض ، وكأنه الرمز المصى للرصانة والصبر ، ويكون فيما يفعله خير للفلاح وأرضه ، وتقبلها فريق رابع ، على أساس التنويه بكرامة تحوت حين يرسل طيوره (أبو منجل) الى مشارف الدلتا في أسراب كثيرة خلال

(٥٠) ادولف ارمان : المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F.

مواسم تهب فيها العواصف عليها من الصحراء محملة بديدان وحشرات، فتتلقفها تلك الطيور ، وتقى الناس والزرع أضراسها بأمر ربها^(٥١) .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن عبادة تحوت انما نشأت أولا في الدلتا ، في الاقليم الخامس عشر ، ربما في «هرموبوليس بارفا» ، ثم وجد له موطنها جديدا بعد ذلك في الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) ، على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى ، حيث أصبحت بعد ذلك المركز الرئيسي لعبادته في مصر كلها ، هذا وقد ظهرت عبادة تحوت منذ عصور ما قبل الاسرات ، حيث صوره القوم على رؤوس المصولجانات واللوحات ، كما ظهر رمزه على هيئة طائر الابيس على بعض بطاقات الاسرة الاولى ، وان نسب اليه كهنته في الاشمونين فضل خلق العالم، بعد أن خلق نفسه بنفسه ، فهو اذن الموحد الاول والخالق الاول ، الذي خرجت منه الالهة جميعا ، وقد اعتبر كذلك الاله الصديق الوفي للالهة وبني الانسان^(٥٢) .

٨ - خنوم

كان خنوم (بمعنى الخالق) الها قديما لمنطقة الشلال الاول ، حيث ينبع النيل ، فيما يرى القوم ، عند جزيرة آبو ، من العالم السفلى أو المحيط السفلى لنون من خلال كهفيه ، ومن ثم فان خنوم هو الذى يتحكم في مصدر الرخاء في مصر ، فكان يرسل نصف المياه الى الجنوب، ونصفها الاخر الى الشمال ، وكان مركز عبادته الرئيسى في جزيرتى اليفانتين ولبيلة ، وان عبد بصفة خاصة في آبو (اليفانتين) حيث كان يمثل دور الاب في ثالوث آبو ، بينما تمثل كل من ساقى وعنقت دور

(٥١) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ٣٠٣/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٤ - ٦٧ .

52) I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. X, 2.

وانظر عن «هرموبوليس بارفا» (محمد بيومى مهران - الحضارة المصرية - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٦ ، وكذا

J. De Rouge, Geographie Ancienne de la Basse Egypt, P. 8.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographie, II, P. 16, VI, P. 131.

الزوجة بـوكان ذلك بصفة خاصة بعد سنوات المجاعة السبع التي حدثت على أيام زوسر من الاسرة الثالثة ، وأصبح يطلق عليه «رب المياه المباردة» وأنه «نون العظيم الموجود منذ الازل ، وأنه الفيضان الذي يرتفع حينما يشاء ، ومن ثم فقد منحه زوسر الاراضى الواقعة على ضفتى النهر ، فيما بين جزيرة سهيل جنوبى أسوان وجزيرة ضرار (المحرقة) الواقعة أمام قرته ، الى الجنوب قليلا من الدكة^(٥٣) ، كما عيد خنوم كذلك فى كوم أمبو وادفو واسنا وطيبة ودندرة والشطب جنوبى أسيوط ، وفى أسيوط ، وفى الشيخ عبادة واهناسيا ، كما انتشرت عبادته على نطاق واسع لارتباطها بالنيل ، وأما المقاصر الرئيسية لعبادة خنوم ، فكانت فى «سنو» (أسوان) وفى جزيرة اليفانتين وببيجه ، وقد ظهر خنوم فى هذه الاماكن كرب لكل جنوب مصر ، بالاشتراك مع ايزه ربة الجنوب ، فى مقابل بتاح وتاتن ونفتيس فى الشمال .

وكان خنوم الها خالقا ، اشتق اسمه من فعل «خنم» بمعنى يخلق ، مما يشير الى أنه كان الها خالقا منذ البداية ، ولم تسبغ عليه صفة المخلوق كغيره من الالهة ، خلق نفسه من نفسه ، كما خلق الارض ورفع السموات على عمدى الاربعة ، وخلق العالم السفلى والمياه ، وخلق الكائنات الموجودة والتى ستوجد والد الاباء ، وأم الامهات ، وخالق الالهة والبشر الذين شكلهم من الصلصال على عجلة الفخار ، سيد فيله ، والكبش المقدس لرع ، وقد شكل خنوم ، طبقا لاوامر آمون رع بجسد حتشبسوت التى حملت بها أمها من آمون رع نفسه ، بل ان القوم انما كانوا يعتقدون أن خنوم قد شكل جسد كل طفل مولود .

وكان الكبش الاثريقى حيوان خنوم المقدس ، وهو نوع من الكباش

(٥٣) انظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ١١٠ - ١١٣ ، وكذا

J. Wilson, ANET, P. 31-32.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, 1963, P. 132-139.

P. Barget, la Stèle de la Famine d Sahel, le Cairo, 1953.

له قرون تمتد أفقيا ، وقد ظهر هذا النوع من الكباش منذ أقدم العصور ولكنه اختفى وحل محله الكباش الاسيوى ، الذى لا يزال فى مصر لالان ، وكان خنوم يصور فى هيئة رجل له رأس كبش بقرنين أفقيين ، وأمامه دولاب الفخار يشكل عليه الطفل قبل مولده ، كما يشكل «الكا» الخاصة بالطفل ، أو ككبش يقف على قدميه الخلفيتين ، وقد سُمى «روح رع الحية» ، وقد مثل أحيانا وله أربعة رؤوس كباش قد تشير الى أماكن عبادته الرئيسية أو تشير الى أنه اتحد مع الالهة الاربعة العظام، وهم رع وشو وجب وأوزير ، وأن الرؤوس الاربعة انما كانت ترمز الى النار والهواء والارض والماء .

وأما سبب اختيار الكباش رمزا لخنوم فربما كن ما لمس القوم فى الكباش من قدرة مميزة على الاخصاب ، والتي تتفق مع طبيعة منطقة أسوان ، حيث تصور القوم أن النيل يأتى متفدقا من العالم السفلى الى الارض عن طريق فتحتين فى أبو ، يتحكم فيها خنوم بحيث لا تتحان الا بأمر منه ، هذا. وقد ارتبط خنوم بالنيل ، كما ارتبط أحيانا بحور الكبير ، ولهذا فقد صور برأس صقر ، كما ظهر بصفته الها للماء ، وهو يفتح يديه حتى يترك المياه تنساب منها .

وكانت حقت زوجته فى بداية الامر ، ثم ما لبثت سالت أن حلت مكانها ، وتكون ثالوث اليفانتين من خنوم وعنقت وسالت التى ربما كانت زوجة ثانية له ، وربما ابنة لهما ، وعلى أى حال ، فهناك من الادلة ما يشير الى وجود عبادة خنوم منذ الاسرة الاولى ، فلقد عثر فى أبيدوس على قطعة من الالبستر ، وقد صور عليها خنوم ، كما ظهر اسمه أكثر من ست مرات فى نصوص الاهرام من عصر الملك وناس ، وظل خنوم طوال التاريخ المصرى القديم وهو يتمتع بمكانة ممتازة بين الالهة المصرية ، فضلا عن المصريين أنفسهم ، بل استمر تقديسه عند القوم الى مدى قرنين أو ثلاثة بعد مولد المسيح ، عليه السلام (٥٤) .

54) E. A. Budge, Op. Cit., II, P. 106-109; Egyptian Mythology. P. 49-67 F.

يذهب بعض الباحثين الى ان الموطن الاصلى لالاه مين انما هي المناطق الشاطئية في جنوب البحر الاحمر ، أي جنوب بلاد العرب وأثريا ، وأنه قد حمل معه أثناء هجرته انى مصر بعض خصائص وطقوس عبادته ، فضلا عن اشارات الى أصله العربى الجنوبى . ومنها «رب بونت» ، ويذهب «جوتيه» الى ان المصريين قد اطلقوا على بلاد بونت اسم «أرض الاله» أو الأرض المقدسة ، وذلك لقدم الاله مين فيها في الزمن السحيق ، هذا فضلا عن التشابه بين اقدم معبد لاله مين ، وهو على شكل مخروطى يشبه خلية النحل ، وبين أنواخ أهل بونت المخروطية التى على شكل خلايا نحل أيضا ، والمرسومه على جدران معبد حتشبسوت في الدير البهرى (٥٥) .

ويذهب «جوتيه» الى أن الكوخ الذى على شكل خلية النحل انما كان أقدم شكل للمساكن في مصر ، وأنه قد ظهر في الرسوم المصرية في عصر الدولة الوسطى خلف صورة الاله مين ، وقد ألحق بمعبد الاله رواق وصارى يعلوه قرنا نور وهذا المعبد يمثل الهيكل القديم للاله مين عندما كان في بونت ، بلاده الاصلية على شواطئ البحر الاحمر ولم يكن قد دخل مصر بعد ، وكان يسمى «سحت» ، أضف الى ذلك أن النص الذى يصف ثور الاله مين بأنه «الثور الذى جاء من البلاد الاجنبية» ، وقد حفر على تماثيل مين التى ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، وتمثل ثورا ذا قرون على شكل الهلأل وأقفا فوق ثلاثة تلال تشبه في شكلها علامة «خاست» التى ترمز في الهيروغليفية الى البلاد الاجنبية التى جاء منها الاله الثور ، والثور هنا يمثل صفة الاخصاب والتناسل في الاله مين ، وهى الصفة الاولى أو الاصلية له .

Petrie, Abydos, I, Pl IV. 14.

وأنظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٣٢ - ٣٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٥٥) أنظر

E. Naville, The Temple of Deir al Bahari, III, London, 1898, Pls. 69F.

الوافدة الى مصر عن طريق البحر الاحمر ، والواقع أن النصوص انما تشير الى صلات واضحة بين الاله مين ، وبلاد بونت وأشجار البخور التي ارتبطت بهذه البلاد منذ عصر حتشبسوت ، فضلا عن أننا نلاحظ ذكر القمر مرتبطا بعبادة مين ، الى جانب اقتران الثور (حيوان التجسد للاله مين) بهذه العبادة القمرية في نص من أخميم ، وهكذا يبدو أن عبادة مين تتميز بثلاث خصائص رئيسية هي ، عبادة الاله مين كاله للقمر ، وكحام للقوافل ، واتخاذ الثور رمزا له ، وظهور قرون هذا الثور الهلالية الشكل في أقدم رسوم معبد مين^(٥٦) .

هذا ونلاحظ في الجانب الاسيوى للبحر الاحمر ، ظهور أغلب هذه الخصائص في عبادة اله القمر الاسيوى ، والذي عبد هناك تحت أسماء مختلفة ، فهو الموقاه عند السبئيين ، وهو «ود» عند المعينين ، و «سين» عند الحضارمة ، كما عبد في سيناء ، ربما باسم سين كذلك ، فضلا عن أن الحيوان الذى يرمز الى عبادة القمر ، على كل من الجانب الافريقى (منطقة وادى الحمامات ومجاوراتها في مصر) والجانب الاسيوى (خاصة في اليمن والحجاز) هو «الثور» ، حيث كان اله القمر عند النموديين والليحيانيين يسمى ثور ، بل ان الديانة العربية القديمة في جوهرها ديانة قمرية ، ربما بسبب العوامل الجغرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة ، بينما القمر دليل الحادى ورسول القافلة ، وليس عبثا أن نرى في العربية التعبير «القمران» للشمس والقمر ، ويبدو أن الصفة الاساسية التي ارتبطت بالاله مين بحكم موقع عبادته في قفط ، عند نهاية طريق وادى الحمامات ومجاوراتها ، هي صفته كحام للقوافل ورب الطرق الصحراوية ، قد قربت بين عبادته وبين عبادة القمر ، وهى نفس الصفة التي قامت على أساس عبادة آلهة

(٥٦) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ص ٢٩٧ - ٣٠٤ ، الحضارة العربية القديمة ص ٢٣٦ - ٢٤٣ .
H. Cauthiar, BIFAO, II, P. 99, 142, 144, 198, 299, K. P. 106-107.

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى أن الاله مين إنما يعد من أقدم الالهة المصرية ، فقد عثر «بقرى» على تماثيل له ترجع الى نهاية عصر حضارة جرزة ، وربما الى الاسرة الاولى ، وهى تحمل رسوما محفورة على جوانبها ، تتضمن أسماك وأصداف البحر الاحمر ، وتعتبر أقدم تماثيل لمعبود مصرى ، كما يعد الاله مين كذلك من بين الالهة القلائل التى ظهرت فى عصر التأسيس فى صورة بشرية ، هذا ورغم أن الاله مين فى العصور المبكرة اله سماوى ، ومن ثم فقد لقب «سيد السماء» ، وقد وحد حتى عصر الدولة الوسطى مع الاله الصقر حور الكبير ، فإن الاله مين إنما يعتبر الها للاخصاب فى المقام الاول ، وقد عبده الرجال كمانح للقوة الجنسية ، وصور فى هيئة رجل يلبس رداء ضيقا ، ويرفع أحد دراعيه الى أعلى ، لتحمل إحدى شارات الملكية ، بينما تخفى يده الأخرى تحت رداءه لتمسك بعضوه المنتصب ، ويلبس فوق رأسه تاجا له ريشتان مثل تاج آمون ، وقد مثل مين ، كاله للمطر ، القوة التناسلية ، فى الطبيعة ، وبصفة خاصة نحو القمح ، وظهر الفرعون فى إحدى احتفالات مين ، وهو يضرب الأرض بفأسه ، بينما يرنو اليه مين بناظريه ، وفى عيد حصاد مين الذى كان يحتفل به فى بداية موسم الحصاد ، يشاهد الفرعون وهو يقوم بطقس حصاد القمح ، ومن ثم فقد ظهر فى عهد الدولة الحديثة متصدرا عيد الحصاد فى شكل حيوانه المقدس ، وهو ثور أبيض ، يأكل نباته المفضل «الخس» والذى كان القوم يعتقدون أنه مهيج للقوة الجنسية .

هذا وقد وحد القوم فى عصر الدولة الحديثة بين مين وكاموتف

(٥٧) ديتلف نلس : التاريخ الأعرى القديم ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٤ ، عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للمصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٣٥١ - ٣٥٦ .
ثم قارن فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ .

(الملقب بثور أمه) وأدمجوهما في الله واحد عرف باسم «مين — كاموتف» وأصبحت كلمة «كاموتف» وحدهما تطلق على مين نفسه ، وادمجوا أيضا في الاله «أمون رع» معبودا آخر هو «آمون رع — كاموتف» حتى تسبغ على آمون صفة ذاتية الخلق ، بل ان هناك من يرى أن آمون انما يمثل مين ، وأنه تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، ومن ثم فقد بدأ آمون يحمل صفات مين ، فهو مثله يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء ، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر .

هذا ورغم ارتباط مين بالفصب ، فقد عرف ، كما أثرنا آنفا ، كسيد للصحراء الشرقية ، حيث كان الاله الحامي لطرق القوافل المتجهة الى البحر الاحمر ، والتي تبدأ من مدينة قفط (٢٢ كيلا جنوبى قنا) مارة بمناطق خطيرة ، كما سمي «سيد البلاد الاجنبية» ومن ثم فقد أصبح حاميا للبدو الرحل والصيادين ، هذا وقد عبد مين في المنطقة التي تقع فيما بين أرمنت وطيبة ، وفيما بين قفط وأخميم ، وان كان مركز عبادته الرئيسي في قفط وأخميم ، ومع ذلك فقد عبد في كل المناطق التي يكثر فيها النيل من البحر الاحمر في الصعيد ، حيث كانت طرق القوافل تخترقها الى البلاد الشرقية وإلى المناطق الجنوبية ، وكان لزاما على كل من يود أن يخترق هذه الطرق أن يتعبد للاله مين قبل أن ينزل قفط ، لكي يحميه من القبائل المتبررة التي كانت تجوب هذه المناطق ، وهكذا أصبح مين ربا للصحراء الشرقية ، صاحب الملازورد والكهـل والفصـاب وسيد البلاد الاجنبية طرا ، تغوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتي من بلاد المازوى (المجاى) وصاحب المكانة المرموقة في بلاد النوبة ، ويذهب «دوما» الى أن ايزة قد عت زوجة للاله مين ، كما عد حور ابنا له (٥٨) .

58) H. Frankfort, *The Birth of Civilization in The near East*, P. 110-11; F. Petrie, *Koptos*, Pls. III, IV, Abydos, I, Pl. III; *Egyptian mythology*, P. 110; J. H. Breasted, *Op. Cit.*, P. 99, 142; W. C. Hayes, *The Coptes of Decrees*, JEA, 32, 1946, P. 16.

ثم انظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ .

كان مونتو من الصعيد ، وقد ذكر مرارا في نصوص الاهرام ، كما صور بين آلهة مصر العليا في معبد الملك ببي الثاني من الاسرة السادسة ، وكانت أرمنت (١٥ كيلا جنوبي الاقصر) العاصمة القديمة للاقليم الرابع قبل طيبة ، مركزا رئيسيا لعبادته ، حيث شيد القوم له معبدا ضخما هناك ، هدمه بعض الدخلاء في القرن التاسع عشر ، وأقاموا مكانه مصنعا للسكر ، كما عبد كذلك في الطود والكرنك والدامود (٥٩) ، حيث اتحد هناك مع اله آخر عرف باسم «بوخييس» ، كما عبد في ادفو ودندرة ، وقد أدمج مونتو مع الاله رع ، ليصبح «مونتو رع» ، وقد كان يقوم على حراسة رع أثناء رحلته الليلية في العالم الثاني ، ويصور في هيئة رجل له رأس صقر ، يطوه قرص الشمس وريشتان عاليتان ، ويحمي جبينه ثعبان الكوبرا ، كما كان يصور كذلك برأس ثور ويمسك في يده أسلحة مختلفة ، وكان له زوجتان من الالهات ، هما تننت وأبونت .

هذا وقد كان مونتو من آلهة الحرب المصرية ، وقد اتخذهُ الملوك حاميا لهم في حروبهم منذ عهد الدولة الوسطى ، ومن ثم فقد قاد ملوك الاسرة الحادية عشرة من المقاتلة جيوشهم ، تحت لواء مونتو ، في حروبهم ضد الالهاسيين ، والتي انتهت بطرد البسود الاسيويين من الدلتا ، واعادة توحيد البلاد ، ومن ثم فقد نسبوا نصرهم المظفر في هذه الحروب الى الههم مونتو ، راعى الحرب ، الذي كان له مكانه وهيكله في منطقة الكرنك نفسها ، فنسبوا أسماءهم اليه ، وتوارثوا فيما بينهم اسم «مونتو حتب» بمعنى (مونتو راض أو مونتو المنعم) تعبير عن وفائهم لربهم ، واعتزازا منهم بطابع الحرب

(٥٩) أنظر عن هذه المدن : محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٣٥ - ١٣٦ ، اخناتون ص ٣٨ - ٣٩ ، الحضارة المصرية - الجزء الثاني ص ١٥٩ .

والكناح الذى يتمثل فيه ، والذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به الى مصر وحدتها ، بل ان مكنته ظلت حتى فى الاسرة الثانية عشرة ، التى أصبح فيها آمون الها للدولة ، ومن ثم رأينا سنوسرت الأول يتقدم أراضى النوبة التى ضمها الى مصر الى الاله مونتو ، بل ان صفة مونتو — كاله حرب — ظلت واضحة حتى الاسرة العشرين ، كما فرى ذلك فى حروب رعهميس الثالث ضد شعوب البحر (٦٠) .

١١ - حعبى

كان المصرى القديم يطلق على النيل اسم «ايترو - عا» أى النهر العظيم ، اما لفظة أنيل فهى تصحيف لللفظة «نيلوس» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر ، اما النيل كاله فقد أطلق المصريون منذ عصور ما قبل الأسرات اسم «حعبى» ولم يكن حعبى هذا هو النهر المقدس ، وانما هو ذلك الاله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم ، ولتى تدفع بمياه فيضيه حاملة الخصب وانماء ، وأعتبرت عبادته حيوية ، ورفع عبده أحيانا حتى فوق رع ، وقيل انه منح الحياة للمراعى التى يرعى فيها قطع رع ، أو الجنس البشرى ، وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء ، كما أمدهم بالندى من السماء ، وأطلق على حعبى وايد الاله ، فأصبح سيد الالهة على الارض ، وسيد الخصب والمخلق ، وهو الذى يمدهم بالقرايين التى تقدم لهم فى معابدهم، ومن ثم فقد غذى الانسان ، وأيد الامر الالهى ، وقد صور القوم الاله حعبى فى هيئة بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك، يلتجئ باللمحة التقليدية للالهة ، وله ثديا امرأة وبطن مترهل .

ومن عجب أن هذا الاله ، رغم ما أطلق عليه من صفات والقاب ،

60) Egyptian mythology, P. 92-93; W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Records of Ramses, III, P. 5, 13, 38., J. H. Breasted, The Wadi Hefa Stela of Senwosrt, I, in PSBA, 23, 1901, P. 230-235.

وأنظر : جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل - القاهرة ١٩٧٢ ص ٧٢ - ٧٤ . وكذا

R. Mond and O. H. Myers, Temples of Armant, 2 Vols, London, 1940.

قد تنبأ منصب الخادم للالهة ، فكان يصور على جدران المعابد في صورته هذه يقدم خيراته الى الالهة الكبرى ، وكانت ترتل له الاناشيد في المناسبات الخاصة ، وفيها يمجّد وتعدد أفضاله على مصر ، ومن ذلك : «الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الارض وتأتى لتغذى مصر، أنت النور الذى يأتى من الظلام ، عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الانعام ، ويقام لك حفل كبير» ، وقد أطلق القوم كثيرا من الصفات على الاله جمعى فقد كان رب الرزق العظيم ، ورب الاسماك ، وخالق الكائنات، وواهب الحياة، وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر في التوحيد بين النيل كاله وبين أوزير ، وكان من بين ما أطلقوا عليه من أسماء «نون نفر» ، وهو من الاسماء المثيرة ، كما وحد القوم بين النيل وبين بعض الالهة الاخرى التى كانت لها صلة بخصوبة الارض أو المياه مثل خنوم والذى كان يدعى «رب المياه الطاهرة» ولعل السبب اعتقاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الاول ، من اقليم أبو ، اقليم البداية بالنسبة لارض مصر، حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الارض في الصخور الجرانيتية هناك ، وأما صلته بأوزير ، فتلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى ، وأن كهفيه يستمدان مياههما من نون (الماء الازلى) ، مياه العالم السفلى التى تمثل معيننا لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن أوزير هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات ، وقيل كذلك أن جمعى هو الذى يخلق مياه النيل بآن أوزير هو قوة الخصب فيها ، واعتبرت المياه في العقيدة الاوزيرية عرق يدى أوزير ، وأن دموع ايزه هى سبب الفيضان السنوى ، وأن جمعى قد ساعد في بعث أوزير بارضاعه من صدره .

ومن عجب أن القوم رغم أنهم كانوا على يقين ، منذ الاسرة الخامسة والعشرين ، من أن أمطار السودان لها دخل في فيضان النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الاول (من جزيرة

بيجه) ، وان كانت عقيدة التوحيد على أيام مؤسسها اخناتون انما كانت بان الفيضان انما يرجع الى أسباب طبيعية يسيطر عليها الاله آتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (اى المطر) لتفسير مصر من الاوطان^(٦١) ، على أن القوم اعتقدوا بأن النيل هو مصدر الحياة فى مصر وقوتها ، لم يشيدوا للاله جمبى المعابد والمحاريب، وان أقاموا الاحتفالات والاعياد التى كانت للاله أوزير أكثر منها للاله جمبى الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والالهة سواء بسواء ، بل رأوا فيه «أبا الالهة» و «خالق الكائنات الحية» ، ولعل لقبه «المحيب» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة ، هذا وقد كان من مظاهر جمبى كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير ، مما يجعل ايزه (ايسه) بالتالى امرأته وشريكته ، وربما كان من المحتمل عند تقديم المفرايين أنها كانت تقدم لأوزير، أعنى «أوزير - أبيس» أو «سيرابيس» فى العصور المتأخرة ، عندما كان قدس الاقداس لهذا الاله المزدوج يسمّى «سيرابيوم» .

وهناك من النصوص المتأخرة ما يشير الى أن هناك عيداً سنوياً كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهية وعظيمة جدا ، احتفالاً بفيضان النيل ، كانت تحمل فيه تماثيل اله النيل عالية فى كل المدن والقرى ، وعندما يكون الفيضان وغيراً ، فإن السعادة انما تملأ قلوب القلوب جميعاً ، وتؤدي الصلوات للاله العظيم فى مهابة واجلال ، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة» ، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السماء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه .

هذا وقد كان القوم ، كما ذكر آنفاً ، وقد وحدوا جمبى بأوزير ، ومن ثم فإن ايزة تصبح صنوا لانتى جمبى ، وان كان هناك بعض

(٦١) انظر :

W. Macquitty, Island of Isis, Philae, The Temple of The Nile, London, 1976.

المشك في أن آلهات أخرى قد أصبحت في عصور الاسرات المبكر كزو وأخوات حعبي ، وهكذا كانت نخبت القرينة النسائية لحعبي الحرس بالجنوب ، ولكنها سرعان ما تحولت في عصور الاسرات الى صورة من ايزة ، وفي الشمال أصبحت وأدجيت الصورة المقابلة للالهة نخبت في الجنوب ، هذا وقد اعتبر حعبي كذلك صورة من الاله نون ، التل الازلي العظيم ، الذي انحدرت منه كل الكائنات ، وكانت «نوت» ، أو إحدى صورها الحديدية ، شريكته ، وتظهر أقدم صورة لهذه الالهة على أنها موت التي ذكرت في نصوص الملك وناس ، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى انما كان يعتبر صورة من حعبي اله النيل ، ومن ثم يصبح سيدا لآلهات النيل في الجنوب والشمال (٦٢) .

١٢ - خونسو

كان الاله خونسو أو خونس يمثل في ثلوث طيبة دور الابن لكل من آمون وموت ، وقد ظهر ارتباطه ، كاله للقمر في طيبة ، متأخرا ، كان قد ارتبط بالفعل قبل ذلك مع اله القمر تحوت ، هذا وقد اشتق اسمه من فعل «خنس» بمعنى «يعبر» اشارة الى عبور القمر الى السماء ، ويبدو أن خونس كان يمثل أصلا المشيمة الملكية ، ولما كان الملك من أصل مقدس ، فإن كل ما يتصل بمولده فهو مقدس كذلك ، وبما أن الملك كان يوحد مع الشمس ، فإن ما بعد المولد انما كان يوحد بالقمر ، وكانت المشيمة الملكية تحمل على علم كجزء من الرموز الملكية في المناسبات الرسمية .

62) F. Daumas, Le Civilization De L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, P. 326.

Veronica Lons, Op. Cit., P. 109.

E.A.W. Budge. The Gods of The Egyptians, II, 1969, P. 46-48.

R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, P. 8.

G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, P. 16-19.

وانظر: الموسوعة المصرية ١ / ٢١٥ - ٢١٦ .

وكان يطلق على خونسو كثير من الصفات والالقاب ، فكان سيد الزمن وحاسب المواقيت والطفل وسيد السرور ومعطى النبوءات ، كما أطلق عليه كذلك سيد الصدق وصانع المقدر ، وقد ذل كثيرا من التكريم والتبجيل كتمويذة تحطم الارواح الشريرة ، ومن ثم فقد نسبت اليه الاساطير طرد هذه الارواح الشريرة ، وأخيرا فانه ، شأنه في ذلك شأن والديه آمون وموت ، كان مصدر للخصب والنماء ، ومانحا للتنفس للحياة ، هذا وقد وحد القوم بين خونسو — كاله للقمر ، وبين تحوت في الاشمونين ، كما وحد في طيبة مع شسو ، كاله للسموات أو الطقس ، ومع تحوت كحاسب للزمن ، كما اندمج كذلك مع بعض الالهة الأخرى ، مثل رع وحرور في شكل «خونسو — رع» و «خونسو — حرور» .

وكان يصور في هيئة رجل تتدلى على جانب رأسه ضفيرة الشعر التي كان يرمز بها الى الطفولة ، ويلتف بعباءة ضيقة ، ويعلو رأسه الهلال وقرص القمر ، ويحمي جبينه ثعبان الكوبرا ، وكان يمكث دائما وحول عنقه عقد خاص ، وفي يديه عدد من الصولجانات الخاصة بالالهة والملوك ، وكان يصور أيضا في هيئة رجل برأس صقر في بعض الاحيان ، وكان المركز الرئيسي لعبادته في طيبة حيث كان له معبد فيها ، ويرجع تاريخ المعبد الحالي الى عصر رعمسيس الثالث ، ويطلق عليه «منزل خونسو في طيبة» ، كما كانت له هياكل عدة في أماكن مختلفة ، وبخاصة في ادفو والاشمونين ، وفي العصر اليوناني كان يدعى «خنون» أو «خنسيس» ، كما كان يقابل هرقل اليوناني (٦٣) .

١٣ - سوبك

كان سوبك يصور في هيئة التمساح ، حيوانه المقدس ، أو في هيئة

(٦٣) الموسوعة المصرية ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩ ، جيمس بيكي : المرجع السابق ص ٣٨ - ٤٢ ، محمد عبد القادر : آثار الأقصر ص ١٦٣ - ١٧٢ ، وكذا Egyptian mythology, P. 103 .

رجل له رأس تمساح ، وقد عبد في مناطق متعددة حاملا نفس الاسم والشكل ، وليس من شك في أن طبيعة نهر النيل ومجراه ، ثم تجارب رواد النهر وركابه هي التي أوحى إلى المصريين تقديس هذا الحيوان ، وحسبنا من ذلك الجزر المنتشرة في مجراه ، وسرعة التيار في بعض مناطقه ، والشواطئ الصخرية التي تعوق الملاحة ، بحيث تبدو خطرة على الملاحين ، ومنها منطقة كوم أمبو وجبل السلسلة ، والجزر المنتشرة عند الجبلين وثنية النهر عند دندرة ، وجبل الطارف عند نجع حمادي وجبل أبو غودة عند أسيوط ، وهكذا أدرك أولئك الذين يعملون في مجرى النهر من ملاحين وصيادين هول التمساح وبأسه ، والامر كذلك بالنسبة إلى أولئك الذين يقفون كثيرا عند حافة النهر من نسوة يملأن جرارهن أو رعاة يسقون أنعامهم أو مزارعين يرفعون المياه بالشواذيف من النهر العظيم ، أو من يغسلون ملابسهم ويغتسلون هم أنفسهم في ماء النهر .

وكانت «ساو» (صالحجر) ^(٦٤) في الدلتا أهم مراكز عبادته هناك، حيث اعتبر فيها ابنا للالهة «نيت» ، وصور في شكل التمساح وهي ترضعه ، كما أطلق عليه هناك في سايس «معطى الحياة للنبات على الشاطئ» ، كما عبد كذلك في أرض البحيرة في الفيوم (كروكود يلوبوليس) طوال العصور الفرعونية هذا فضلا عن عبادته في كوم أمبو، بجانب الاله حور الكبير، كزوج للالهة حتحور ، ولعله هنا في كوم أمبو ^(٦٥) إنما يعتبر المعبود الاصلى للمدينة ، حتى أن المعبد القديم من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، إنما كان يسمى «بر — سوبك» (منزل سوبك) ، وإن كان الالهان سوبك وحور ، قد عبدا جنبا إلى جنب في هذا المعبد ، وزود كل منهما ، حسب التقاليد المصرية ، باثنين آخرين من الالهة حتى يكون كل منهما الثالث الخاص به ، ولقد ظفر سوبك

(٦٤) انظر عن «ساو» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى ص ١٧١) .
(٦٥) انظر : (فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٦-٢٨ ، ٨٢-٧٨) .
محى الدين عبد اللطيف : كوم أمبو - القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٧ - ٢٩ .

بنصيب الاسد ، فكان رفيقاه اثنان من أعظم آلهة القوم ، وهما حتحور وخونسو ، الذى ظهر فى صورة «خونسو - حور» ولعل السبب فى اختيار هذين المعبودين بالذات الى جانب سوبك انما هو التقليل من تأثيره السيء فى أذهان القوم هناك بسبب شهرة حتحور وخونسو الطيبة .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أدمج سوبك فى الاله رع ، فأصبح «سوبك رع» ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الالهة المصرية ، هذا وقد عبد سوبك كذلك فى «الجبلىن» (١٨ كيلا شمالى اسنا) بصفته المعبود الاصلى كذلك ، وفى «سمن» (سمنو = كروكود يلونبوليس) وتقع فى مكان قرية الرزيقات الحالية ، على مبعده ١٠ كيلا جنوب غرب أرمنت ، وفى جبل السلسلة ودندرة والمعابدة وطهطا والحصية^(٦٦) .

١٤ - حرشف

يسدو أن عبادة الاله حرشف (حرشلف) ويعنى « الذى فوق بحيرته» انما قد بدأت منذ الاسرة الاولى ، بل انها بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ فى اهناسية الحديثة ، ويقع معبده عند المدخل الموصل الى بحيرة الفيوم ، وكان يمثل فى هيئة الكبش ، وقد قرنه الاغريق بمعبودهم البطل هيرقل ، ومن هنا أخذت المدينة اسمها الذى عرفوها به «هيراقلوبوليس» ، وفى العصر الاهناسى عندما أصبحت اهناسية عاصمة للبلاد ، ربط القوم بين حرشف ورع ، ثم بينه وبين أوزير فى عهد الدولة الوسطى والحديثة ، ثم بينه وبين آمون فيما بعد ، وفى العصر اليونانى سمي «هرسافيس» ، وزعم «بلوتارك» أنه ابن الاله اليونانى «زيوس» والالهة المصرية ايزة ، وأما معبده فقد كان فى مدينته الاصلية اهناسية المدينة ، كما أقيمت له هياكل صغيرة فى غيرها من المدن^(٦٧) .

66) S. A. mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1949, P. 154 F. A. Gardiner, Omon, II, P. 20 F;

67) W. B. Emery, Op. Cit., P. 123-124.

M. G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957, P. 128.

كان الاله «وب واوات» معبود أسويط في نظر البعض ذئبا ، وفي نظر آخرين كلبا وحشيا ، وهو أسود اللون ، يقف على أقدامه الاربعة ، وكان يشبه الاله نوبيس ، وإن كان يختلف عنه في أن القوم انما كانوا يمثلونه وهو يسعى فوق أرجله ، ولم يمثلوه مطلقا قابعا كأنوبيس ، ورايضا ككثير من المعبودات المصرية الاخرى ، وكان اسمه يعنى «فاتح الطريق» ، مما يشير الى تصور القوم لما كان لهذا المعبود من صفات ومزايا ، فهو «المحارب» الذى يتقدم الجيوش ويمهد لها طرق النصر ، وقد استبشر به الملوك المحاربون فكانوا يصحبون معهم تماثله مرفوعا على قائم من خشب، أثناء خروجهم للحرب، فضلا عن الاحتفالات الدينية والاعياد ، وأخيرا فقد كان «وب واوات» من بين الالهة التى صورت على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، الى جانب ظهوره على كثير من طبقات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى (٦٨) .

١٦ - أنوبيس

رمز المصريون للاله أنوبيس (انبو) بكلب يربض عادة على قاعدة مرتفعة ، مائلة الجوانب الى أعلى ، أو يصورونه على هيئة آدمية لها رأس كلب أو ككلب يصحب أيزه ، واعتبروه حاميا للجبانة وربما للموتى ، ومن ألقابه المعروفة «القابع على جبل» ، وسيد الارض المقدسة وسيد سفارة (راستاو = جبانة منف) ، والذى يرأس بهو الاله (مكان تحنيط جثة فرعون) ، ومن ثم فقد وصف بالمنحط ، وأنه هو الذى حنط جثة أوزير ، وكان القوم على أيام الدولة القديمة يبتهلون اليه بأن يسمح للمقربين بأن تصل الى جثته ، ونظروا اليه فى الدولة الحديثة على أنه

68) I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, 1971, P. 53; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl XVII, 135.

وانظر : فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٣ - ٦٤ .

ابن لأوزير ، ثم جعلوه ، مع تحوت ، مشرفا على تقديم الموتى الى محكمة العدل ، والتي كانت تحكم — تحت رئاسة أوزير — على الميت بأنه من أهل الجنة أو من أصحاب السعير ، بعد وزن أعماله من حسنات وسيئات .

وفي العصور المتأخرة ، وبسبب التشبه بينه وبين الاله «إوب واوات» غدا في نظر القوم المحارب الذي يقف الى جانب فرعون ويحميه ، كما نراه في هيكله بمعبد حتشبسوت بالدير البحري يشترك مع خنوم في منح الملكة الفرعون قدسية الحكم وطول البقاء ، كما نراه كذلك ممسكا بيده ما يشبه الخسرال الذي ما يزال يستعمل حتى الان في قرانا في الاحتفال بمرور أسبوع على ولادة الطفل ، هذا وقد صور أنوبيس ، مع الاله ست ، على رؤوس الصولجان واللوحات التي ترجع الى عصر ما قبل الاسرات ، كما ظهر على كثير من طبعات الاختام التي ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، كما سجل حجر بالرمو الاحتفال بعيد مولده في عصر الاسرة الاولى كذلك .

وأما مركز عبادة أنوبيس الرئيسي فكان في مدينة «القيس» (هـ كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظه المنيا) ، وقد أطلق الاغريق عليها اسم «كينوبوليس» بمعنى مدينة الكلب هو «كاسا» (ساكا — ساكو) المصرية ، عاصمة الاقليم السابع عشر من أقاليم الصعيد كما عبد كذلك «ثنى» (٦٩) على مقربة من أبيدوس ثم سرعان ما انتشرت عادته منذ العصور المبكرة في معظم أنحاء البلاد ، وأقيمت له فيها المحاريب ، ومن أجملها ما كان بالدير البحري ، هذا وقد ربط القوم بين أنوبيس حيوان الصحراء ، وبين الصحراء الغربية ، بيت الموتى ، ومن ثم أخذ اللقب الجنائزى للاله «خنثى امنثيو» أول الغربيين ، الذي أخذه فيما بعد أوزير ،

(٦٩) أنظر عن «ثنى» والآراء التي درأت حول موقعها (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٧٤ — ٧٨ ، وكذا A. H. Gardiner, *Onom*, II, P. 38, JEA, 27, 1941, P. 48. H. Kess, *Ancient Egypt*, 1961, P. 231, W.B. Emery, *Op. Cit.*, P. 54.

ويبدو أن انبو كان ، بادىء ذى بدء ، الها للموتى للفرعون فحسب ، ذلك لان القوم كانوا فى العصور السحيقة يقتلون الملك بحية سامة عند نهاية العام الثانى والعشرين للحكم ، وعندما كانت تأتى النهاية المحتومة ، فان أنوبيس (وربما كاهنه) يظهر للفرعون ومعه الحية ، ورغم أن القوم قد كفوا عن هذه العادة السيئة منذ العصور المبكرة ، فقد ظل أنوبيس الاله المُنذر بقدوم الموت ، وقد مثل كمنارِب يحمل خنجرا أو حية سامة أو كوبرا •

هذا ونظراً لقدرة أنوبيس على التنبؤ بقدوم الموت فقد ارتبط بالسحر ، وقد صور وهو يقود الالهة الأخرى التى قدمت لتكشف عن أسرار المستقبل ، وعندما وحد أنوبيس مع العقيدة الأوزيرية فى العالم الآخر ، قيل أنه ابن تغنيس من أوزير ، وأن ايزه هى التى قامت بتربيته ، ومن ثم يعد حارسا لها ، وعندما استعادت ايزة جسد أوزير قدم لها أنوبيس الانوية النادرة التى ساعدت على تحنيطه ، ثم قام بآداء الطقوس الجنازية لأوزير ، والتى أصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى لكل طقوس الدفن ، ومع ذلك ، وطبقا لروايات أخرى ، فان جب هو الذى كن شديد الارتباط بأنوبيس وتحوت ، هذا وقد كان لانوبيس فى العقائد المتأخرة وظائف ثلاثة هامة فقد كان مراقبا للتحنيط السليم ، وكان يستقبل المومياء عند وصولها الى المقبرة وكان يقوم بطقس فتح الفم ، ثم هو بعد ذلك يقود الروح الى حقل السماء وهو يضع يده على المومياء ليحميها ، ثم هو الذى يقود الميت الى الميزان ، بل ويتولى بنفسه ضبط هذا الميزان (٧٠) •

(٧٠) الموسوعة المصرية ١ / ١٢٦ - ١٢٧ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر

ص ٧٤ - ٧٧ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 83-85; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 91, 10.

كان سوكر الها لجبانة منف في سقارة ، وقد سجلت حوليات حجر بالرمو الاحتفال بعيدة في عهد الاسرتين الاولى والثانية وقد أطلق عليه في العصر المتأخر «ابن حور» فقد كان يصور في شكل صقر محفف أو في هيئة رجل له رأس صقر ، وقد وجد في أبيدوس بأوزير ، وفي منف ببتاح ، ثم هزج بين ثلاثتهم فكان الاله «بتاح - سوكر - أوزير» ، وقد جاء اسمه في متون الاهرام كاسم آخر لاوزير ، الذي حل محله في العصر البطلمي ، وبخاصة في ادفو ودندرة ، كما حل مكانه في منف أوزير وسيراپيس، هذا وقد ارتبط سوكر في الحولة الحديثة بالاله رع في مدينته أون ، وعلى أى حال فلقد انتشرت عبادة سوكر أو سكر في مناطق كثيرة لمعبد في منف ، حيث أقيم له معبد هناك تقام فيه احتفالات خاصة به كما عبد في أبيدوس وغيرها (٧١) .

١٨ - بس

يذهب بعض الباحثين الى أن الاله بس انما كان أصله من بلاد العرب ، فلقد عثر على قطعة برنزية من الاثار السبائية محفوفة في متحف فيينا نشرها «أدولف جرومان» تمثل الاله بس جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه ، وسواء أكان ظهور هذا الاله في مصر يرجع الى أيام الاسرة الثمانية عشرة أو الثامنة عشرة ، أو حتى الى عصر متأخر عن هذه الفترة ، فان صورة الاله بس في اليمن من ناحية، ونسبة المصريين القدامى هذا الاله الى بونت والى أرض الاله من ناحية أخرى ، جعل كثيرا من الباحثين يذهبون الى أن أصل هذا الاله من بلاد العرب .

(٧١) فرانسوا دوما : المرجع السابق ص ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٨١ ، وكذا أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٠ ، وكذا

L. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 53.

V. Lons, Op. Cit., P. 116.

وانظر : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٢٨٥ .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الاله بس انما قد جاء الى مصر في عصر الاسرة الثانية عشرة من السودان ، وربما كان في الاصل الها اسدا ، فقد حافظ على بعض صفات الاسد ، ولكنه مثل في مصر عادة على هيئة قزم قبيح ، سيقانه مقوسه يرتدى جلد الاسد، وكثيرا ما صورت أذناه على هيئة أذن الاسد وله عرfe ، ويمتد لسانه خارج فمه ، ويوحى منظره العام بالجنون ، ويبعث على الضحك ، وقد كان في أول الامر حاميا للبيت المالك ، وكان واحدا من المعبودات التي اعتمد عليها في ولادة حتشبسوت ، ثم سرعان ما انتشرت عبادته بين عامة القوم ، وأصبح واحدا من المعبودات الشعبية ، فقد كان جالبا للسرور في منازل طبقات القوم المختلفة ، وكان حاميا للأسرة،ومتصدرا لطقوس الزواج وزينة المرأة ، وصديقا حميما للمرأة يساعد على إنشاء الولادة ويحمي الطفل الوليد ، وقد صور كثيرا وهو يرقص حول المرأة عندما تضع حملها لأول مرة .

هذا وكان بس حاميا لعبدته من حيوانات الصحراء ، وبخاصة الثعابين ، ومن ثم فهو يظهر غالبا وهو يلتهم الثعابين ، ورغم أنه صور أحيانا في ملابس حربية كقتل لاعداء عبده ، فقد كان في الاصل الها للخير والسرور ، ولهذا نراه يرقص ويضرب على القيثارة ، رغبة في تسلية الالهة ، ومن هنا كان للرقص والموسقى دور هام في عبادته،هذا وقد مثل بس في هيئة قزم له أذرع طويلة ، وساقاه قصيرتان مقوستان وله ذيل ، ويحمل وجهه ذو الانف العريض الافرطس لحية كثة ، وعيناه المضممتان كأننا نصف مفلقتين بحواجب ضخمة ، وكان له لسان طويل يمتد خارج فمه ، وأذنان بارزتان ، وأحيانا كن له قرنان صغيران يخرجان من جبينه،وأحيانا يلبس تاجا من ريش طويل يشبه تاج ساتيس هذا وقد صور بس كثيرا على وسادة الرأس ، وبصفة خاصة تلك التي في فراش الزوجية ، وعلى مقبض مرآة وأدوات العطور ، كما صور كذلك على الاتمام المصنوعة من عاج التماسيح ، والتي كان الغرض منها الحماية ضد حيوانات الصحراء والثعابين ، وأخيرا فقد أصبح بس الحامي وجالب السلام للميت ، ومن ثم فقد صور على الوسادة التي

تحت رأس المومياء ، هذا وقد كانت الصورة الانثى للاله بس هي «بست» الحية قاذفة اللهب ، وان اعتقد القوم بصفة عامة أن بس قد تزوج من «تأورت» (٧٣) .

١٩ - نفر توم

كان نفر توم الها قديما في مصر السفلى ، وقد اعتبر منذ عصر مبكر كابن لبناح وسخمت في ثلوث منف ، ويعنى اسمه «اللوتس» ، ومن ثم فقد صورته القوم على هيئة زهرة اللوتس ، ترتفع من وسطها ريشتان عاليتان ، واعتبره القوم بمثابة الزهرة التي نبتت وانبثت فوق جسد اله الحقول ، كما اعتبروه بمثابة الزهرة التي يمسك بها الاله رع ، ويقربها من أنفه ، كالمعادة المشهورة التي طالما مثلها المصريون في مناظرها وأبرزوا فيها النبلاء والعظماء وهم يقومون بشم الزهور ، ولعل هذا هو السبب في أن نفرتوم عرف كاله للعطور ، هذا وقد نسب الى نفرتوم دور هام في أساطير الخلق ، وأطلق عليه «نفر توم أتوم» أو «رع الاصفر» ، ذلك لانه في نظرية هرمبوليس الطفل الذي يشرق من زهرة اللوتس في بحر السكاكين المقدس ، ومن دمعه جاء الجنس البشرى (٧٣) .

٢٠ - خنتى امنتى

كان الاله خنتى امنتى أو خنتى امنتيو بمعنى أول أهل الغرب ، أى الموتى ، الاله المحلى ، كما كان اله الجبانة في اقليم «تا - ور» (أبيدوس وثنى) ، وطبقا لقائمة سنوسرت الاول (٧٤) فقد كان خنتى امنتيو أول

(٧٢) ادولف جرومان : التاريخ العربى القديم ص ١٦٩ .

تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٩٩ - ١٠١ .

A. E. Budge, Op. Cit., II, P. 285; S. A. Mercer, Op. Cit., P. 189.

A. Fakhry, an Archeological journey to Yemen, I, 1955, P. 135; Bahria Oasis, I, P. 166, Egyptian mythology, P. 111.

73) Ibid., P. 106.

74) P. Lacau and Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier, Le Caire, 1956.

معبود في أبيدوس ، التي اكتسبت نصيبا من القداسة لوجود معبد هذا الاله هناك على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وقد عثر «بترى» على أحجار من هذا المعبد هناك في أبيدوس ، هذا. وقد كان القوم يرمزون للاله خنتى امنتيو بحيوان ابن آوى مثل أنوبيس ، ولعل أقدم ما عرف لنا من صورته انما وجد على كسر من أوان حجرية ترجع الى عصر التأسيس ، ويذهب البعض الى أن الاله أوزير قد أتى من الدلتا الى أبيدوس في عصر الدولة القديمة ، وسرعان ما استقرت عبادته هناك بجوار خنتى امنتيو ، ثم ما لبث أن اختلط به ووجد الاثنان معا تحت اسم «أوزير-خنتى امنتي» (٢٥) .

٢١ - اكر

عبد الاله اكر منذ الاسرة الاولى ، كما تشير الى ذلك طبيعة ختم ظهر عليها هذا الاله في مقبرة بسقارة تنسب للملك «جت» ، وقد صور اكر على هيئة مقدمة أسد ملتصقتين كل منهما على عكس اتجاه الأخرى، ولقد افترض أن الاله «اكر» يحرس الافقين ، وكانت السماء تدخل في فم أحد الاسدين في المساء وتخرج من فم الاسد الاخر في الفجر ، هذا وقد صور اكر في الادب الدينى المتأخر على هيئة أسدين كاملين جالسين ، وقد ولى كل منهما ظهره للآخر ، وقد وضعنا على أنهما يمثلان اليوم والغد (٢٦) .

٢٢ - أنحور

عبد الاله أنحور (أنوريس عند الاغريق) في أبيدوس في عهد الدولة الحديثة ، وغالبا ما كان اسم أنوريس يدخل في اعلام الجهة المجاورة ، وهى نجم الدير (١١) كيلا جنوب أخميم شرق النهر) ونجم المشايخ

75) W. B. Emery, Op. Cit., P. 124-125.

76) W. B. Emery, Great Tombs, II, fig. 169; W. F. Petrie The Royal Tombs, II, Pl. XVII

٤) كيلا جنوبى نجع الديبر) ، وقد صور القوم الهيم انحور على هيئة رجل تعلق رأسه أربع ريشات ويقبض على حربه ، وأما اسمه انحور (أينحرت) فمعناه «الذى يحضر البعيد» ، وربما أمكن تفسيره بأنه يرمز إلى الصياد الذى يجلب الصيد من بعيد ، ربما إشارة إلى الأجداد الذين استقروا فى هذا الأقليم قبل العصر الحجري الحديث ، وقامت حياتهم على الصيد ، وإياها كان الأمر فرغم أن أهميه أنوريس قد قلت فى الدولة القديمة والوسطى ، فقد ناز بشهرة كبيرة فى الدولة الحديثة رفعت من شأنه وأدمجته مع الآلهة العظمى .

٢٣ - آحى

يمثل المعبود آحى ابن المعبودة حتحور ، ربة دندرة ، التى أنجبته من «انحور» رب ادفو ، ويمصور عادة على هيئة طفل يافع يقبض على شخشيخة يهزها ، مشتركا كهوسيقى فى الطقوس الدينية التى تؤدى لأمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فهو مدينة دندرة ، حيث ما تزال باقية أطراف معبده الذى شيده الملك نخنبو الاول ، من الأسرة الثلاثين ، وهو معبد المولد «ماميسى» حيث اعتاد القوم تمثيل مولد الابن المقدس وتربيته على يد مجموعة من المعبودات حتى يشب عن الطوق .

٢٤ - بوخييس

رمز المصريون لهذا المعبود بالثور ، وقد عبد فى أرمنت حيث أدمج بمعبودها الرئيسى «موننتو» وقد قام بوخييس (باخ) بدور كبير فى العصور المتأخرة عندما جمع القوم بينه وبين «منفيس» ، ثور هليوبوليس المقدس ، ومن ثم فقد ارتبط بروابط وثيقة بعبادة رع ، هذا وقد كشف عن جبانة كبيرة غربى أرمنت خصصت لدفن الثور المقدس فى توابيت حجرية ضخمة ، وضع كل منهما فى حجرة خاصة ، منقورة فى باطن الأرض ، وقد أطلق على هذا المدفن اسم «(بوخيوم)» .

٢٥ - سويد

كان سويد ، أحد أشكال الآله حور ، إله الحدود الشرقية للدلتا ،

وكذا الارض الحمراء ، وهى الصحراوات التى تقع فيما بين النيل والبحر الاحمر ، شمال وادى الحمامات ، وهو على أية حال ، اله أسىوى وفد الى مصر من الشرق ، واستقر فى شرق الدلتا كمعبود للاقليم العشرين (المقاطعة العربية) . وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى مدينة «بر — سويد» ، وهى صفت الحنة الحالية ، الى الشرق قليلا من مدينة الزقازيق ، ثم انتشرت عبادته فى سيناء وفى الصحراء الشرقية وعلى ساحل البحر الاحمر حتى القصير جنوبا ، وقد اعتبره القوم من آلهة الحرب وحامى حدود مصر الشرقية ، ومن ثم فقد أطلق عليه لقب محطم الغزاة وسيد البلاد الاجنبية ، هذا وقد ارتبط سبد أو سويد باسم الاله حور ، وعرف باسم «حور — سويد» وكان فى هذه الصورة يمثل الشمس فى شروقها ، وقد صور فى هيئة صقر جائم ، تعلو رأسه ريشتان عاليتان ، وكان يظهر فى هذه الصورة كرمز للاقليم ، كما كان يصور كذلك فى هيئة رجل ، له شعر ولحية أسىوية ، وتعلو رأسه نفس الريشتين ، غير أن هذا الشكل الاسىوى انما قد اختلف منذ الاسرة العشرين (٧٧) .

(٧٧) فرانسوا دوما: آلهة مصر من ٥٨ ، ١٠٦ - ١٠٧ ، محمد بيومى
 مهران : المرجع السابق من ٣٣٤ - ٣٣٦ الموسوعة المصرية ٨٣/١ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٦٢ ، ٢٧٨ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ١٠/٤ - ١١
 H. Gauthier, Op. Cit., II, P. 51, 127,
 J. De Rouge, Op. - cit., P. 134. وكذا

المعبودات المصرية

١ - حتحور

لا ريب في أن القوم قد عبدوا الالهة «حتحور» (حوت حور بمعنى مكان أو بيت حور) منذ عصر التأسيس ، حيث مثلت على قمة لوحة الملك نعرمر الارذوازية ، وكذا حزام الملك المصور في نفس اللوحة ، حيث مثلت برأس انسان وأذنى بقرة ، وفي الواقع فتلقد حازت حتحور شهرة واسعة منذ عصور ما قبل الاسرات وفي عصر التأسيس كالهة للسماء ، كما كانت وقت ذاك تمثل الصورة النسائية لحور ، لاسيما وأن اسمها ، كما قلنا ، انما يعنى «بيت حور» ، هذا وقد صورت حتحور في الفن المصرى القديم بأشكال تكاد لا تحصر ، ولكنها غالبا ما كانت تصور كبقرة ، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وفي كثير من الاحايين كننت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين .

وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجيا ، حتى انتهى الامر الى أن تمثل برأس امرأة وأذنى بقرة ، وهو مظهر كانت تصور به حتحور باستمرار ، ففراه مثلا كطية ليد المرأة اليدوية وكنصر معمارى لتاج عمود ، وبهذا الشكل الاخير نرى هذه المعبودة ممثلة في صالة أعمدة معبد دندرة هذا وكانت حاتحور في عقيدة القوم مرضعة حور بن ايزة ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ، فهى الهة فرحة جذلانة ، ومن ثم فهى ربة البهجة وسيد الرقص ، وربة الموسيقى وسيدة الغناء ، وربة الوثب وسيدة التيجان ، ثم صارت بعد ذلك ربة للجبانة ، ترعى الموتى وترأهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة ، منها الذهبية أو ربة الذهب ، وصاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها ، كما كانت لها تماثيل مموجة بالذهب ، حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة

هذا وقد اعتقد القوم أن الموطن الاصلى لمعبودتهم ، انما كان في

الصعيد ، وانها قد عبدت في مواطن كثيرة هناك ، مثل دندرة (ه كيلا شمال غربى قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير^(١) ، والذي يعد الان من أحسن المعابد المحفوظة وأكثرها تأثيرا حيث سميت هناك (حتحور العظيمة ، سيدة دندرة وعين الشمس وسيدة السماء ، وسيدة الالهة قاطبة ، ابنة رع ، التى لا شبيه لها) ، كما عبدت حتحور في كوم أمبو والجبلين ، وفي طيبة ، وبخاصة في منطقة الدير البحرى ، حيث اهتم بها ملوك الأسرة الحادية عشر كثيرا ، حتى لقب «منتو حتب الثالث» بأنه «محبوب حتحور ، سيدة دندرة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ملوك الأسرة الثانية عشرة ، حتى لقب «امنمحات الثانى» بأنه «محبوب الالهة حتحور» ، كما عبدت في «هو» (ه كيلا جنوبى نجع حمادى) وفي القوصية ، وفي أطفيح (مركز الصف) حيث سميت هناك «الاولى بين البقرات» نظرا للدور الذى كانت تلعبه في شكلها الحيوانى ، وفي منف ، وإلى الجنوب من معبد بتاح ، عبدت حتحور ولقبت « سيدة الجميزة القبطية» ، وكان لها معبد جنوبى المدينة ، وربما معبد آخر داخل المدينة ، شرقى معبد بتاح على كوم الكلة الحالية ، كما عبدت كذلك في بونت وفي جيبيل ، هذا فضلا عن عبادتها في بلاد النوبة ، حيث شيدت لها الملكة حتشبسوت معبدا في فرس (باخورس القديمة على مبعدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى) لم يبق منه الا أساساته وبعض قطع من حجارة مبعثرة .

هذا وقد وجد اتصال في سيناء منذ أقدم عصور التاريخ بين حتحور (وكانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة) وبين الالهة القمرية السامية التى كانت تعبد في الكهف المقدس في معبد سراييط الخادم في سيناء قبيل مجيء المصريين والتى حلت حتحور مكانها ، ولعل عبادة حتحور في سيناء انما كانت سببا في اختلاف المحدثين حول المعجل الذى عبده بنو اسرائيل أثناء غياب موسى ، عليه السلام ، عنهم ليتلقى

(١) أنظر : جيمس بيكى : المرجع السابق - الجزء الثانى ص ١٨٩

٢٠٧ - وكذا

W. M. F. Petrie, Denderah, London, 1900.

الوحي من ربه ، ففريق ينسبه الى عبادة الالهة حتحور ، وفريق ينسبه الى عبادة العجل أبيس ، ذلك أن «سير ليونارد وولي» انما يذهب الى أن الاسرائيليين عندهما دخلوا منطقة جنوب سيناء ، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعمدين معبداً للالهة حتحور ، ارتدوا عن الموحداية الى العقائد التي اكتسبوها في مصر ، وصاغوا العجل الذهبي ، تمجيذاً للالهة البقرة ، حتحور ، والتي اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد .

هذا ويفترض «أوسترلي» ، طبقاً لما جاء في سفرى الخروج والملوك الاول من التوراة ، أن هذا العجل انما كان معبوداً مصرياً ، وأنه الالهة حتحور ، وأن هناك تمثالاً بمتحف القاهرة لهذه الالهة البقرة من عهد أمنحتب الثانى ، وقد غطى الرأس والعنق والمقرنان في الاصل بالذهب ، وأن العجل الذهبى قد وصف في مكان آخر ، وكأنه الالهة ذات القلادة المضيئة ، مثل السماء بنجومها ، وتدعى الواحدة الذهبية أو ذهب الالهة ، مما يفسر لنا تسمية العجل «بالذهبي» ، وقد وجدت صورة هذه الالهة في بيسان وجازر وأريحا ، وأن الالهة «عشتار» تمثل أحياناً بلباس الرأس الخاص بحتحور ، ولهذا كله نستطيع أن نوحّد العجل الذهبى بالالهة المصرية حتحور ، هذا فضلاً عن أن من صفات حتحور أنها كانت تدعى ربة الحب والالهة المرحّة والطروب ، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «الذهبية» وقد دعاها اليونان «أفروديت» ، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها ، بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشفشيفة بقلائدهن وضرب الدفوف .

على أن فريقاً آخر يذهب الى أن العجل الذهبى انما كان ذكراً ، وليس أنثى ، ومن هنا فان هذا الفريق يشك كثيراً في أن الاسرائيليين قد صاغوا العجل الذهبى تمجيذاً لحتحور .

وانطلاقاً من هذا فان رأى عندى أن عجل الذهب الذى عبده بنو اسرائيل انما كان تقليداً لعبادة العجل المقدس في مصر ، وليس تقليداً

لعبادة حتحور ، صحيح أن بعض العلماء نادى بأن المعبود انما كان بقرة ، ولكن الذى يلزمنا هنا كلام الله عز وجل فى الذكر الحكيم وليس مادرج الباحثون أن يقدموا ، فانما هو اجتهد وفوق كل ذى علم عليم ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول «ولقد جئناكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» ، ويقول «فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقال هذا الهكم والله موسى» .

هذا وقد صور المصريون حتحور كذلك ، على أنها الهة حرب،ربما بسبب تسميتها عين الشمس التى تصارب أعداء رع^(٢) ، هذا فضلا عن أنها كاللهة مقربة الى قلوب النساء كان لزاما عليها أن تصبح أما ذات طفل ، فأعطوها ولدا هو «ايحى» أو «آحى» الذى يجلس فى حجرها ، ولعل ذلك تشبها بحور الطفل ابن ايزه ، ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن ايحى لم يتمتع مطلقا بتلك الشهرة الشعبية التى تمتع بها حور الطفل ، ومع ذلك فقد مكنت حتحور (حاتحور) من أن تعوض هذا النقص عند القوم بأن أصبح لها منذ الدولة الحديثة عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقات الشعب فى العصور المتأخرة ، وأعنى بذلك «الحتحورات السبع» اللاتى كن مثل ايحى يدخلن السرور على قلب حتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص والملاهى كن يحمين الانسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد ، فضلا عن رعاية كل أم أثناء حملها وعندما تضع هذا الحمل ، وهناك ما يشير الى أن هناك عبادة هامة كانت تقام فى دندرة لحتحور ، وتذهب أثناءها فى مواكب فخمة على صفحة النيل لزيارة زوجها الاله حور فى ادفو وكانت كلما مرت بمعبد من المعابد فيما بين دندرة وادفوخرجت مواكب الالهة فى سفن لتحياتها عند مرورها .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا الى اختلاف القوم فى وضع

(٢) أنظر : أسطورة هلاك البشرية (محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٤٣ - ٤٩ - الاسكندرية ١٩٨٩ م ، وكذا J. Wilson, ANET, P. 10-11, A. Erman, LAE, P. 47-49, M. Lichtheim, Op. Cit, P. 197-199.

حتحور هذه ، فهي مرة أما للاله حور ، وأخرى زوجة له أو لغيره من الالهة ، ففي كوم امبو مثلاً انما كانت زوجة للاله سوبك ، وفي دندرة زوجا للاله حور الكبير ، وأما للاله ايحي ، وهي في ادفو زوجا لحور ادفو (أحد أشكال حور الكبير) ، وكان يحتفل بزواجها المقدس سنوياً ، ذلك عندما يحمل تمثالها من دندرة الى مقصورة حور في ادفو ، وكان ثمرة زواجهما هو حور الكبير .

هذا ويظن أن حتحور قد أرضعت الفرعون ، كما أرضعت امام ملوك مصر حور ، ومن ثم فقد وجدت الملكة مع حتحور ، ثم غدت رمزا السماء التي تظل الطبيعة برحمتها ، وهي لا ترحم أهل الدنيا فحسب ، وانما ترحم المصائرين منهم الى عالم الآخرة تأخذ بيدهم عند أبواب الغيب فتهديهم فيه ، وتصب ماء الرحمة لمن يظلم منهم اليه ، وعندما انتشرت العقائد الاوزيرية تغير دورها نوعاً ما ، ونظرا لشعوبيتها فقد تحولت الى عقائد جديدة . ومن ثم فقد مثلت كسيدة لشجرة الجميز ، وقد بزغ قرنيتها من الشجرة التي تنمو على شاطئ النهر ، وربما كانت الجميزة هذه تنتمي الى التقليد الذي يقول أن جسد أوزير عندما وصل الى شاطئ بيبيلوس في فينيقيا ، أحاطت به شجرة جميز ونمت حوله ، ومثلت حتحور كذلك كبقرة ترضع الفرعون الميت ، وكذا أرواح الموتى الآخرين ، اما في هيئة امرأة أو بقرة ، ومن ثم فقد ساعدتهم أثناء تحنيطهم وفي الوصول الى عالم أوزير ، وفي العصور المتأخرة عندما أصبح يطلق على المتوفى ، أوزير ، أصبح يطلق على النساء الموتى حتحور (٣) .

(٣) فرانسو دوما : الهة مصر ص ٥٣ - ٥٨ .
 محمد بيومي ، مهران : اسرائيل - الكتاب الاول - التاريخ ص ٤٦٤ - ٤٧٧
 Veronica Lons, Op. Cit., P. 78-83; L. Woolley, The Beginnings of Civilization, P. 514; H. Frankfort, kingship and The Gods, P. 10; A. Gardiner, A. Peet and J. Cerny, The Incrptions of sina, II, 1955, P. 41 Urk. I, 247.
 H. Kees, Das alte Agypten, P. 88.
 W. Emery, Op. Cit., P. 124.

ترجع عبادة نيت ، الهة الصيد القديمة ، في «ساو» الى عصر ما قبل الاسرات، وتشير رموزها التي تتكون من ترس ورمحين متقاطعين الى أنها انما كانت تشبه آلهة الحرب ، كما أن ارتداءها تاج الدلتا الاحمر ، ربما يشير الى أنها كانت تحالف مصر السفلى ، هذا وقد اتخذت نيت منذ العصور المبكرة لقب الالهة الكبيرة وأم الالهة ، ومن ثم فقد دعيت أحيانا ابنة رع ، وان قيل أحيانا أخرى أنها ولدت رع، ولهذا أطلق عليها «أم رع» ، ومن ثم فهي أحيانا تمثل الام البقرة العظيمة التي تلد رع يوميا ، واعتبرت في العصور المتأخرة أما للالهة، سوبك وايزة وحور ، وكذا أوزير الذي زعموا أنه دفن في سايس .

وفي الاسرة الثلاثين ادعى «نختنبو الثاني» أنها أمه ، وقد عثر على نقش مكتوب في غاية ودقة في مدينة نقراطيس يسجل فرض ضريبة ١٠٪ على الواردات الى هذه المدينة ، وعلى البضائع التي تصنع فيها، على أن يخصص أيراد هذه الضريبة للالهة نيت في سايس ، ومجمل القول أن القوم وقت ذاك قد اعتبروا نيت كأم للكون وحامية للبشر والالهة ، كما أنها كانت ، كالهة خالقة ، زوجة للاله خنوم معبود الليفانتين ، ومن عجب أنها في العصور المتأخرة عبدت من النساء كحتحور ، فقمن على خدمتها وسمين بأسمائها .

هذا وقد عبدت نيت في منف ، وكان لها هناك معبد شمال الجدار، في مقابل معبد بتاح جنوب الجدار ، منذ أيام الدولة القديمة على الأقل ومن ثم فقد لقبت «الكلئنة شمالي جدارها» ، غير أن مركز عبادتها الرئيسي انما كان في «ساو» (سايس = صا الحجر ، على مبعده ٧ كيلا شمالي غرب بسميون) ، حيث يوجد معبدها الذي عرف باسم «بيت النحلة» ، وكان يرمز اليها ، كما أشرنا آنفا ، تيرس وسهام متقاطعة ، ولعل ذلك انما يشير الى طبيعتها كالهة صيد وحرب ، ومن ثم فقد حملت لقب «التي تمهد الطريق» مما يشير الى أنها كانت تتقدم

الملوك في المعارك الحربية ، كما كانت كذلك الهة الفيضان التي تسكن شواطئ النيل ، حين ترقد التماميح على شواطئها الغربية ، وكانت عبادتها من العبادات الرئيسية في مصر السفلى عند نهاية عصر ما قبل الاسرات ، كما ورد اسمها على فخار من نقادة من نفس العصر .

هذا وقد نظر ملوك الاسرة الاولى اليها نظرة احترام وتبجيل ، ومن ثم فقد اتخذوا تاجها رمزا للدلتا ، كما اتخذوا كذلك لقب «الذي ينتمي الى النحلة» ، هذا فضلا عن وجود اسمها كجزء من أسماء بعض الملكات اللاتي وصلتنا أسماءهن واللاتي اتخذ منهن ملوك الاسرة الاولى زوجات لهم ، وأولى هؤلاء الملكات «نيت حتب» زوج الملك نعرمر ، وصاحبة المقبرة المشهورة في نقادة ، وربما كانت الاميرة الشمالية الممثلة في مواجهة الملك نعرمر في نقوش رأس مقعته ، ولعل هذا هو السبب الذي دعاه الى تشييد معبد للالهة نيت ، وهو أقدم معبد لدينا عنه معلومات مباشرة من بطاقة من أبيدوس تنسب لهذا الملك (حور عحا) ، وأما الملكتان الاخريان فهما «(حرنيت)» زوج الملك جر ، و «(مريت نيت)» (محبوبة نيت) المشهورة ، ذات المقبرتين ، الواحدة في أبيدوس ، والاخرى في سقارة ، مما دعا البعض الى الزعم بأنها خليفة جر ، وثالثة ملوك الاسرة الاولى .

وكما أثرننا من قبل ، فلقد اعتبرت نيت منذ الدولة القديمة ابنة لاله رع ، وان أطلق عليها فيما بعد «أم رع» ، وقامت بدور هام في المعتقدات الجنازية منذ متون الاهرام ، وأما في عصر الدولة الحديثة فقد كانت نيت تقوم ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس وسرقت ، بهراسة الميت وأحشائه وان بلغت ذروة قوتها في العصر الصاوي ، حيث شيّد لها ملوك الاسرة السادسة والعشرين المعابد الضخمة في سايس ، فضلا تلك المقاصير التي أقيمت من أجل معبودة سايس العظيمة^(٤) .

(٤) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٩٥ - ٩٩ .

J. H. Breasted, ARE, I, 97, 118, 123; L.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W. B. Emery, Op. Cit., P. 125; V. Lons, Op. Cit., P. 103-105. L. D, II, 46.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 375.

يذهب بعض الباحثين الى أن ايزة (ايسة أو است) ، بمعنى كرسى العرش ، انما كان أصلها في الدلتا ، وربما ظهرت في أول الامر كمعبودة محلية بمدينة «بر - حبت» (بيت الاعياد) ، والتي أطلق عليها الاغريق ايسيتوم (ايزيوم) عاصمة الاقليم الثانى عشر ، وهى بهيت الحجر الحالية (٩ كيلا شمال غرب سمود) ، ويبدو أنها كانت الهة سماوية، ثم فقدت طابعها هذا منذ أن ورد ذكرها في قصة أوزير ، واحتفظت بمصفتها كزوجة لأوزير ، وأما لحور ، ثم سرعان ما اشتهرت بصفات المتعددة التى ترمز للاخلاص العظيم للزوج والرعاية الكاملة للابن ، ومن ثم فقد أصبحت في نظر القوم المثل الأعلى للام الحنون والزوجة الوفية ، ونظرا لالتجائها الى السحر للعثور على جثة زوجها الشهيد ، واعادة الحياة اليه ، فضلا عن الدفاع عن ابنها ، والاصرار على توليته عرش مصر ، كوريث لابييه أوزير ، فقد اشتهرت بلقبها «العظيمة في أعمال السحر» ، هذا وتشير الاساطير الى أنها ولدت في أيام النسيء - شأنها في ذلك شأن أوزير وست ونفتيس وحور - وقد أنجبت حور اما عندما كانا مايزالان في الرحم ، واما بعد موت أوزير (٥) .

وهناك ما يشير الى وجودهما منذ عصور ما قبل الاسرات ، وقد عثر على اسمها من عصر التأسيس على ختم من أبيدوس ، كما عثر في حلوان على قطعة عاجية تمثل رمز الالهة ايزة على هيئة يد ملقعة ، فضلا عن قطعة أخرى عاجية ربما كانت غطاء لصندوق صغير ، وقد حلى الغطاء برسمين بارزين لرمز ايزة وتحتها العلامة «حبت» ، وقد زادت أهمية ايزة في العصور المتأخرة ، ثم سرعان ما بدأ القوم ، فيما قبيل العصر الاغريقى ، يخلطون بين الالهة المصرية وبين بعضها الآخر،

(٥) أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الاداب والعلوم ص ٢٢ - ٢٤ ، ٢٩ - ٣٣ ، وكذا

J. Vandier, Op. Cit., P. 45-47.

H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

A. H. Gardiner, LES, P. 37-60.

ومن ثم فقد خلطوا بين ايزه وبين حتحور وغيرها من الالهات ، ومن ثم فقد أصبحت ايزه شخصية مبهمه ، حتى يمكن أن يقال أنها غدت الالهة بصفة عامة ، وقد سميت فعلا في احدى المرات «الجوهر الجميل للالهة جميعا» ، وفي نشيد من العصر الرومانى أصبحت تعرف بصفة عامة الهة كل مدينة ، أو أصبح على كل من الالهات نيتوباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصير ايزه ، هذا وقد ظهرت في العصور الفرعونية المتأخرة من قبل روايات تذهب الى أن أحد أجزاء جسم أوزير قد دفن في جزيرة «بيجة» ، على مقربة من غيلة ، ثم سرعان ما أخذت عقيدة ايزه تظهر في المنطقة على أنها الالهة الشافية لكثير من الامراض ، وذات القدرة العجيبة في السحر ، ومن ثم فقد بنى لها الملك «نختنبو» من الاسرة الثلاثين مقصورة في الجزيرة .

هذا وقد استمرت عبادة ايزه طوال معظم العصور الفرعونية ، وخاصة في جزيرة فيلة ، حيث ظلت تزد هناك حتى القرن السادس الميلادى ، وقد تغيرت هيئتها ، كما حدث لأوزير ، كما استمرت موقرة مثله في شكلها الجديد ، ومن ثم فقد أصبحت كذلك الهة للخصب،بينما كان أوزير يمثل فيضل النيل ، ورمزت ايزه الى الثراء في ارض مصر التى قامت بحمايتها من ست (الصحراء) وبصفتها الالهة الام ، فقد اكتسبت صفات حتحور ونوت ، ومع ذلك فقد كان يشار اليها ، بصفة أساسية ، على أنها الزوجة المخلصة والنائحة ، ومثلت غالبا في هذا الدور على هيئة حداة تصحبها نفثيس ، وكحداة واثنين معها يلاحظان الاوانى الكانوبية أو على هيئة حداة جاثمة على نهايتى التابوت ، وفي عصور أخرى شوهدت كحامية للمتوفى (أوزير ، أو غيره قد اندمج معه) بأجنحة ذات ريش طويل ، ومثلت غالبا في هيئة امرأة على رأسها كرسى العرش ، وهى العلامة الهيروغليفية التى تعنى اسمها ، وفى أحيان أخرى كان غطاء رأسها قرص الشمس الذى يحيط به قرنى البقرة ، وقد أتى ذلك من توحيدها مع حتحور ، وشوهدت أحيانا برأس بقرة ، وهى الرأس التى أعطاها إياها تحوت ، عندما ضرب حور رأسها عقابا لها على اعتراضها على انتقامه من ست ، هذا وقد شوهدت ايزه

في بعض الاحايين كامرأة على رأسها هلال القمر ، أو لها قرنان من زهور اللوتس وأذنى بقرة ، أو تحمل نباتا قرنيا ، هذا وقد أشير اليها ، في تماثيلها التي تظهر فيها وهي ترضع الطفل حور ، على أنها حامية الطفل ، وخاصة من المرض ، وكان رمزها المميز هو الحزام أو عقدة ايزة ، التي اعتقد القوم أنها تمثل قوة المخلق .

هذا وقد تمتعت ايزة في عصر البطالة بمكانة غاقت ما كان لآلهات مصر الاخرى ونستدل على ذلك من كثرة الاشارة اليها في النصوص الهيروغليفية ، ومن انتشار معابدها في جميع أنحاء البلاد ، ومن تقديم كافة الطبقات القرابين والهبات لها ، هذا وقد كان الاغريق يشبهون ايزة بديمتر ، وفي عهد البطالة شبعت ايزة بالآلهات الهروديت وهيرا وأثينا ، ومن ثم فإن الملكة «ارسنويو الثانية» ، زوج بطليموس الثاني ، التي شبعت بأفروديت ، قد تشبعت كذلك بليزة ، كما أن الكثيرات من ملكات وأميرات البطالة قد تشبعت بايزة (ايزيس) ، وصورن في شكلها بطراز اغريقى ، الامر الذي ساعد على انتشار عبادة ايزة بين الاغريق حتى اذا ما كنا في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت ايزة قد احتلت مكانة بارزة بين الاغريق .

وأما مركز عبادة ايزة الرئيسي في عهد البطالة فهو جزيرة فيلة^(٦) (أنس الوجود ، جنوبى أسوان) ، حيث شيد لها وللآلهة المتصلة بها معبدا عظيما ، هذا الى جانب عدة معابد في الاسكندرية ومجاورتها ، فضلا عن فيلادلفيا ، ثم سرعان ما انتشرت عبادة ايزة في حوض البحر المتوسط ، حتى شبهها الاغريق بكل آلهة أخرى ، وبكل سيدة رفعت الى مصاف الآلهة ، واعتبروها «السيدة الجميع ، البصيرة ، القاهرة ، ملكة العالم المأهول ، نجم البحر وتاج الحياة ، مانحة القانون، المنفذة ، منبع الرشاقة والجمال مصدر الصط والثراء ، رمز الصدق

6) W. Macquitty, Island of Isis, Philae Temple of The Nile, London, 1976.

والحب» ، لأنها وهبت العالم فنون الحضارة ، ووضعتها تحت رعايتها .

هذا وقد كانت ايزة ، بوصفها الهة ثغر الاسكندرية ، قد أصبحت حامية الملاحة ، ومن ثم فقد أصبحت تمثل ومعها الدفة ، وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ، ذو طيات كثيرة ، وعقدة على الصدر ، ثم سرعان ما انتشرت عبادتها في أوروبا حتى وصلت الى انجلترا ، عندما اعتبرت كذلك حامية للبحارة ، فعملوا على نشر عبادتها في كل مكان وصلوا اليه^(٧) .

٤ - نخبت

كانت الالهة نخبت (نخابة) واحدة من الالهات التي كان لها دور كبير قبل عصر التأسيس ، واستمرت كذلك بعد توحيد القطرين ، ولما امتد سلطان «نخن» (البصيلية مركز ادفو) على الصعيد كله ، أصبحت الالهة الحارسة لمصر العليا كلها ، ولقبت «بيضاء نخن» ، ثم اعتبرها ملوك التوحيد راعيتهم وحاميتهم ، ثم سرعان ما أسهمت مع الكوبر (ادجو) من بوتو في الدلتا في شرف منح الملك لقبه المعروف ، لقب السيدتين أو الربتين ، وهو واحد من ألقاب الملك الفرعون الخمسة ، وكانت نخبت في عصر التأسيس (الاسرة الاولى والثانية) تصور دائما ببساطة في شكل رخمة ، وفي العصور التالية غالبا ما صورت في شكل امرأة برأس رخمة ، هذا وقد اعتبرت نخبت في الاساطير ابنة للاله رع وزوجة للاله خنتي امنتيو ، وفي العصر اليوناني اعتبرها اليونان آلهتهم «البيثي» وأطلقوا على بلدة «نخب» - وتقع على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعده ١٩ كيلا شمال ادفو ، في مقابل نخن عبر النهر - الاسم

7) F. Petrie, the Royal Tombs, II, P. 53; Z. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan, 1947, P. 27; E. A. Budge, Op. Cit., P. 202-240; W. Macquitty, Island of Isis, London, 1976; Veronica Lons. Op. Cit., P. 58-63.

وكذا

R. E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, London, 1971.

٥ - وادجيت

عبدت الالهة وادجيت فى الاقليم السادس من أقاليم الدلتا ، حيث كانت مدينة «دب» (بوتو) ، على مبعده ١٢ كيلا من دسوق مركزا رئيسيا لعبادتها ، وقد رمز القوم لها بثعبان الكوبرا ، وكانت وادجيت (ادجو - واجه) بمعنى الخضراء تقوم بحماية الملك بصفته مسيطرا على الدلتا ، كما كانت نخبت تقوم بنفس الدور فى الصعيد ، وقد انتسب الملوك الى هاتين الالهتين ، وظهر ذلك فى الاسم النبئى الذى اتخذوه الملوك فى عصر التأسيس .

٦ - مششات

كانت مششات عند القوم الهة الكتابة وربة دور الكتب والوثائق ، والهة العمارة ، وكانت تقوم بوظائف زوجها الاله تحوت وكان من وظائفها تسجيل سنى حكم الملك وأعماله ، فضلا عن تسجيل اسمه على الشجرة المقدسة (شجرة السماء) فى أون ، وكذا أعمال البشر والالهة ، ومن ثم فقد سميت «السيدة الكتب» ، كما كانت مششات تساعد الملك فى تصديد مساحات المعابد عند انشائها ، وكانت مششات بصفة رئيسية معبودة ملكية تنسب الى الفرعون وحده ، ومن هنا فقد كانت وحدها هى التى تقوم ، مع الفرعون ، بمد الحبل لتحديد أبعاد المعبد الخارجية عند انشائه ، هذا وقد كان الاسم مششات من القاب الالهة نفتيس ، الا أنه قد انفصل عنها ليصبح شخصية قائمة بذاتها ، وقد صور القوم مششات بشكل عام كامرأة ترتدى زهرة أو رمز النجم على رأسها مع الحية التى تربطها بالملكية ، وهى تلبس جلد نمر ، وتمسك باحدى يديها

8) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 402.

وأنظر : (محمد بيومى مهران : مصر ٧٢/٢ - الاسكندرية ١٩٨٨ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ - ٤٠) .

قلما ، وبالأخرى محبرة أو جريدة نخيل ، لتسجل عليها عدد السنين ، وكان من ألقابها «ذات القرون السبعة» (سفخت — عبو) الذى أصبح من أسمائها التى تطلق عليها^(٩) .

٧- سفخت

كانت سفخت أشهر الالهات اللاتى صورن على هيئة سيدات لهن رؤوس لبوات ، وكانت فى منف زوجة للاله بتاح وأما للاله نفرتوم ، وكان مركز عبادتها الرئيسى فى منف ، الى جانب مركز آخر فى «أوسيم» (١٣ كيلا شمال غرب القاهرة) عاصمة الاقليم الثانى من أقاليم الدلتا ، وفى الواقع ، فلقد جاء اقترانها ببتاح ، الاله الخالق ، بسبب القرب الجغرافى لمركز عبادتها ، أكثر من أنها قد شاركت زوجها وظائفه ، وكان دورها ينلخص فى الدفاع عن الاوامر الملكية والحفاظ عليها ، وليس خلقها وتربط الاساطير الدينية بينها وبين أبيها رع أكثر من الربط بينها وبين زوجها بتاح .

هذا وقد لتبت سفخت بالمقتدرة أو القاهرة ، وكانت الالهة حرب شرسة ، تصب الدماء على أعداء رع ، وقد اعتبرت عين رع ، وتمثل الحرارة والقوة المؤثرة للشمس ، وكما نعرف فان حتحور قد اتخذت شكل سفخت فى أسطورة هلال الجنس البشرى^(١٠) ، ولم تتحكم فى

(٩) الموسوعة المصرية ١ / ٢٧١ ، فرانسا دوما : الالهة مصر ص ٣٩

٩٥ ، ٤٠ -

V. Lons, Egyptian mythology, P. 87;

W. B. Emery, Op. Cit., P. 126-127.

(١٠) انظر :

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.

A. Erman, Op. Cit., P. 47-9.

Ch. Maystre, BIFAO, 40, 1941, P. 58-73.

G. Roeder, Op. Cit., P. 141-143.

J. Wilson, ANET, P. 10-11.

A. Pinkoff, Op. Cit., P. 27-29.

غضبها حتى كادت أن تهلك الجنس البشرى ، وقد خلد القوم ذلك في طقوس الشراب التى كانت تقام لها ، هذا وقد كانت سخمت ، شأنها في ذلك شأن الحية ، توضع على جبين رع ، حيث كانت تحمى رأس اله الشمس وتقذف أعداءه باللهب .

هذا ولم تقم سخمت بدور في اللاهوت المصرى ، الا بعد أن ارتبطت بالاله بتاح ، ولعل اسمها في اشتقاقه اللغوى من كلمة «سخم» بمعنى «قوى» و «شديد البأس» انما يدل على مجموعة صفاتها، فكانت الهة حرب في الدرجة الاولى ، تصاحب الملك في غزواته ، فتنتشر الرعب في قلوب أعدائه ، كما كانت تحمى ايزة ، وهى التى فتكت باعوان ست في الصراع بين حور وست ، وهى التى تتغلب على الثعبان أبو فيس ، هذا وقورن بين ست وبين عدد من الالهات مثل باستت ويوتو (وادجيت) وحتحور ، كما أنها شاركت ايزة في لقبها «العظيمة السحر» .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن القوم كثيرا ما كانوا يخلطون بين الالهة سخمت والالهة باستت ، وذلك لان الفن المصرى القديم لم يكن يميز بوضوح بين رأس القطرة ورأس الاسد ، رغم أن صفات باستت انما تختلف كثيرا عن صفات سخمت ، فقد كان القوم يتحدثون عن باستت كشخص وودود ، بينما يتحدثون عن سخمت كشخص مخيف ، ومن ثم فقد كانت باستت أقرب الالهة الى حتحور ، اذ اعتبرت الهة البرح ، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى ، ويصورونها على شكل آدمى برأس قطة ، تحمل بين يديها سيقان المراقصات ، وفى اليد الاخرى صورة رأس الاسد الخاص بالالهة سخمت ، وتتدلى من ذراعيها سلة صغيرة ، وهناك في منف معبد للالهة سخمت التى وصفت بأنها «الكائنة في الوادى الصحراوى» ، أى في الحافة الصحراوية بين منف (انب حج) وبين جبانيتها في سقارة ، هذا وكانت سخمت تصور عادة كامرأة لها رأس لبؤة ، وترتدى قرص الشمس والحية ، وان صورت في أحيان أخرى برأس على هيئة التماسح أو عين رع ، وأحيانا

كانت سخمت تظهر مثل الآلهة مين بيدها المرفوعة تلوح بسكين^(١١) .

٨ - موت

يذهب بعض الباحثين الى أن أصل الآلهة موت إنما كان من بلاد النوبة وربما من بلاد بونت ، وكانت موت (الام) الهة محلية في طيبة منذ أقدم العصور ، حيث اعتبرت سيده أشيرو Asheru في طيبة ، والآلهة الام العظيمة القادرة ، وكان اسمها في عصور ما قبل التاريخ يعنى ببساطة «الرخمة» ، كما كانت في الأصل الآلهة أنثى النسر في طيبة ، واختلطت مع نخبت كالهة حامية لمصر العليا وفي عصر الأسرة الثامنة عشرة ، عندما ارتفع شأن آمون وذاعت شهرته ، زوجت له ، ووحدت مع زوجته القديمة أمونيت ، ثم سرعان ما مثلت على شكل ملكة تزين بالتاج الذى كان يلبسه حكام طيبة ، وأصبحت أما للآلهة خونسو .

وكان الاحتفال بزواج موت من آمون واحدا من أهم الاحتفالات السنوية في عصر الدولة الحديثة ، فكان يخرج آمون من معبده في الكرنك ثم يبحر موكبه العظيم ليزور موت في معبدها في الأقصر ، وقد اتخذ هذا الاحتفال بمناسبة لإعلان قرارات وحى آمون ، هذا ورغم أن موت قد اعتبرت قرينة آمون ، فقد قيل أنها كانت ثنائية الجنس، وربما كان ذلك تبريرا لوضعها كأم لكل المخلوقات الحية ، وقد وُحِدَت مع الآلهة الأخرى ، مثل نخبت وحتحور ، ولقبت بألقاب كثيرة منها «حامية الكرنك ، وسيدة الأقواس ، والساحرة العظيمة ، وسيدة السماء ، وعين رع ، وملكة كل الآلهة» .

وكانت موت تصور في هيئة سيدة تلبس التاج المزدوج ، كما كانت تصور في هيئة الرخمة (أنثى النسر) ، وقد لقبت في النصوص التي

(١١) محمد بيومى مهران : ممر - الكتاب الاول - التاريخ ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، الموسوعة المصرية ١/ ٢٦٨ ، وكذا
V. Lons, Op. Cit., P. 106; Urk, I, 247.

ترجع الى عصور متأخرة بلقب أم الشمس التى تشرق منها ، أما الدور العادى الذى كانت تلعبه موت ، فقد كان مماثلا لدور «اسخمت» الالهة الحرب ، ومن هنا أصبحت موت ترسم براس الاسد ، وأما مركز عبادتها فقد كان فى طيبة (حيث كونت ، بصفتها الالهة الام ، وأمون الاب ، وخونسو الابن ، ثالث طيبة المشهور) ، وإن عبدت كذلك فى ديوسبوليس بارفا (هو = على مبعده ه كيلا جنوب نجع حمادى) ، وفى نباتا بالنبوة (١٢) .

٩- ماعت

كانت ماعت أو معات الالهة الصدق والعدل والمثالية ، وتمثل التوازن بين التناقض فى الحياة المصرية ، بين مصر العليا ومصر السفلى (الصعيد والدلتا) وبين الوادى الخصب والصحراء ، وكذا بين الخير والشر ومن ثم فهى أساس الحضارة والقوة المصرية ، وفى الواقع فإن «معات» أو «ماعت» انما هى كلمة مصرية تترجم أحيانا بكلمة الحق ، وأحيانا بكلمة العدل ، وأحيانا النظم وأحيانا الاستقامة ، وربما صلحت كل واحدة من هذه الترجمات فى سياق الحديث فى نص معين ، ولكن لا توجد كلمة واحدة منها تصلح فى كل مناسبة لتؤدى دائما المعنى المقصود ، فقد كانت كلمة ماعت صالحة للحكم الصالح أو الادارة الصالحة ، ولكن لا يمكن ترجمتها بكلمة حكم أو ادارة أو قانون ، فإن ماعت كانت الصفة الملائقة لتلك الاشياء ، عند تطبيقها ، وكان لهذه الكلمة نفس المرونة التى لكلمة حق أو عدل أو صدق أو شئ منتظم .

وكانت القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار قد نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضرورى أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر أى «ملك اله» ففى المناظر المنقوشة على جدران المعابد نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم الى

12) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 28-32; V. Lons, Op. Cit., P. 99-103.

الالهة الاخرى ، كبرهان ماموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم ، كأنما كان هناك شيء لا يتغير ، أبدى عالمي ، يحيط بماعت .

هذا وقد اعتقد القوم أن ماعت قد تأسست عندما تم توحيد القطرين ، وأصبح الناس في سلام ، وقنعوا بنصييهم من الحياة ، وقاموا بواجباتهم على أساس أنها ذات أمر الهى ، وبدون معات هان المخلوقات لا تعيش وبالتالي تتمطل الارادة أو الرغبة الالهية ، وكان الفرعون هو المشرف على تنفيذ ماعت وتأييدها ، ومن ثم فانه عندما ينجح ، فانه يكون قد نجح في حكم مصر ، وقدم للالهة أثمن ما يمكن تقديمه ، وهكذا فانه أحيانا يقدمها بدلا من الطعام ، حتى أن الالهة نفسها إنما قد عاشت عن طريق ماعت ، هذا وقد اعتقد القوم أنها ابنة رع ، وزوج تحوت ، وأنها قد لحقت بهم في القارب الشمسى عندما أبحروا من نون في الزمن الاول وقبل أن يخلق ، كما أنها كانت الضوء الذى أحضره رع الى العالم ، فقد خلق العالم بوضعها في مكان مادة الكون قبل تكوينه ، ومن ثم فقد مثلت كواحد من طاقم القارب الشمسى .

ولم تكن ماعت كائنا من لحم ودم ، وانما هى ذلك الشيء المجرد ، هى الحق والحقيقة ، ومن ثم فهى من مظاهر الحضارة المصرية التى تبتعث على الاهتمام ، وكان رجال القضاء يلقبون بكهنة ماعت ، وكانوا يمثلونها في هيئة امرأة جلسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز به الى وظيفته ، غير أن تقديس القوم للالهة ماعت لم يصل بهم الى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين ولكنها حظيت بتقدير كبير في أوساط المتعلمين ولا غرابة في ذلك ، فالحقيقة هى استمرار أهم دعامة للكمال الخلقى في عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وانى أشرب من نداها» .

هذا وقد ادعى عامة القوم أنهم في حاجة الى سندا ماعت ومعاونتها

أكثر من حاجتهم الى بقية الالهة الاخرى ، ذلك لانهم لم ينتظروا ديمقراطية العقائد حول الحياة بعد الموت ليتأثروا بها عن طريق الفرعون والكهنة والقوانين الموجودة على الارض ، فقد دعى كل القضاة كهنتها ، ثم سرعان ما أصبحت أكثر أهمية للعامة عند الوقوف أمام محكمة أوزير ، فقد كانت ترشد المتوفى في صالة المحاكمة ، كما كانت توضع هيئتها بعد ذلك في أحد كفتي الميزان ، بينما يوضع قلب الميت في الكفة الاخرى ، فاذا تساوت الكفتان يصبح قلب المرء عادلا ، أى «صادق الصوت» ، أو بعبارة أخرى ، فانه يوضع في مكانه المناسب للامر الالهى ، وقد صورت معات في هيئة امرأة في القارب الشمسى أو تجلس على العرش في صالة المحاكمة الاوزيرية ، وترتدى ريشة نعام طويلة على رأسها ، وكلفت تمثّل بالتساوب بواسطة الريشة وحدها ، وبخاصة أثناء طقوس المحاكمة ، عندما توزن ألام قلب الميت^(١٣) .

١٠ - باست

عبدت باست أو باستت في تل بسطة «برباست = معبد باستت» في مجاورات مدينة الزقازيق الحالية ، على هيئة القطة منذ أقدم العصور «ربما منذ الاسرة الثانية» ، وقد عبدت في منف منذ الاسرة الثامنة عشرة ، بعد أن اندمجت في معبودتها «سخمت» التى مثلها القوم على هيئة اللبؤة ، هذا وقد تحدث هيرودوت عن الاحتفالات الكبيرة التى كانت تقام في عيدها ، اذ كان الرجال والنساء يبحرون معها الى بوبسته «أو أرتيميس ، كما دعاها الاغريق» ، ويحمل كل قارب عددا كبيرا من الجنسين ، وكانت بعض النساء تدق على الطبول ، بينما يرقص بعض الرجال ، على طول الطريق ، أما البقية فيغنون ويرقصون ، وعندما يصل القوم الى بوباستة فانهم يحتفلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات كثيرة ، ويستهلكون من النبيذ في هذا العيد ، أكثر مما

13) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48; V. Lons, Op. Cit., P. 116-117; E. A. Budge; Op. Cit., P. 416-420.

يستهلكون في بقية العام ، وتردحهم المدينة بالمحتفلين ، حتى ليبلغ عددهم قرابة سبعمائة ألف من الرجال والنساء ، عدا الصبية .

هذا وكانت باست تمثل في هيئة بشرية لها رأس قطعة ، أو في هيئة قطعة ، كما كانت تماثيلها تصنع من البرونز ، أما شكلها المبكر فكان قطعة من النوع البري المستأنس ، وقد أعجب القوم بها بسبب سرعة حركتها وشجاعتها ، ومع ذلك فقد ظلت باست الهة محلية ، ولكنها اندمجت مع رع وأصبحت ابنته وزوجته ، كما ادمجت كذلك مع المعبودات الأوزيرية وقد روت الأساطير أنها دافعت عن رع ضد الحية أبيب ، هذا وقد صور ولدها «ماحس» الذي انجبته من رع في هيئة رجل برأس أسد ، مرتديا تاج «أتف» الخاص بلوزير ، أو على هيئة أسد يفترس أسيرا ، وقد وحد أحيانا مع «نفرتوم» ابن سخمت ، والتي حاول كهنتها ادماجها مع باست في عهد الاسرة الثانية والعشرين، التي اتخذت من «تل بسطة» عاصمة لها ، ومن الالهة باست معبودة ، ومن ثم فقد بنوا لها معبدا مثلث في جميع أرجائه .

وقد وصف هيرودوت هذا المعبد بأنه كان يقوم على جزيرة ، حيث ينساب النيل في مجريان لا يختلط الواحد منهما بالآخر ، حتى مدخل المعبد ، وكان عرض كل منهما مائة قدم ، وارتفاع المدخل مائة أخرى، وقد زخرف بأشكال ترتفع الى تسع أقدام ، ويقع المعبد في وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ، اذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمي ، بقى المعبد كما شيد منذ البداية ، ومن ثم أمكن رؤيته ، ويحيط المعبد سور حفرت عليه أشكال ، ويداخل السور غناء به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذي به تمثال الالهة ، ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد من جميع الجهات ، وقبلالة المدخل يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة استاد تقريبا ، وهو يخترق السوق متجها نحو الشرق ، وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبيه هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع الى غنان السماء ، وهو يؤدي الى معبد هرمس ،

(تحت) ، وبجانب هذا المعبد فقد قام القوم بتوسيع المعابد الموجودة فضلا عن مقصورة كبيرة لها من طيبة .

وقد احتلت باست في تل بسطة مكانة حور في ادفو ، واحتور في دندرة ، كما كانت في العصور المتأخرة ، كاللهة مقاطعة ، تمثل القوى الخيرة في الشمس وتحمي الارضين ، وأحيانا كانت تمثل القمر كذلك ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت سخمت تمثل القوى المدمرة في الشمس ، وقد ميزت العقيدة الاوزيرية بين الالهتين سخمت وباستت بوضوح ، كما أخذت باستت كذلك صفات حتحور ، ومن ثم فقد عرفت كاللهة للمرح والموسيقى والرقص ، وصورت في هيئة امرأة لها رأس قطة وتحمل شخشيخة وصندوقا وسله ورأس لبؤة تحيط بها رقاب تلتف حول بعضها ، وأخيرا فلعل من الجدير بالاشارة الى أن القطط قد عولمت كشيء مقدس تبجيلا للالهة باست ، كما أن مقبرة القطط المحنطة في بوبانسة كانت مشهورة في العالم القديم^(١٤) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك الهة أخرى تدعى «باخت» تمثل مظهرا آخر من مظاهر «باست» وقد أقيم لها معبد صخرى في بنى حسن «جبانة اقليم الوعل» ، وهو الاقليم السادس عشر ، وكانت عاصمة «حبنو» (في مكان الكوم الاحمر في مجاورات زاوية الميتين ، على مبعده ٨ أميال شمال المنيا عبر النهر) وقد كانت تمثل برأس القطة ، وشبهها اليونان لسبب غير معروف بألهتهم أرتميس ، ومن ثم فقد سموا معبدها في بنى حسن بكهف أرتميس والمعروف الآن باسطبل عنتر ، ربما نسبة الى عنتر بن شداد ، وكما قلنا آنفا ، فقد كانت الالهة «باخت» والتي كرس لها هذا الكهف ، مظهرا آخر من مظاهر الالهة القطة باست .

وكانت أيضا قرية الصلة من «سخمت» ذات رأس اللبؤة التي

(١٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٥٩ - ١٦٢ ، ٢٦٧ - ٢٦٨
V. Lons, Op. Cit., P. 193;
وأنظر : جيمس بيكي : المرجع السابق ٥٣/١ - ٥٧ .

كانت تمثل الحرارة المحمرة للشمس ، بينما كانت باخت تمثل التأثير الأكبر هدوءا لحرارة الشمس ، ففي النص الطويل الذى تركته الملكة حتشبسوت بأعلى واجهة المعبد ، تصف فيه باخت ، بأنها « باخت العظيمة التى تفتقر الوديان القائمة فى وسط الأرض الشرقية ذات الطرق التى اجتاحتها العواصف » هذا وفى مجاورات المعبد جبانة للقبط البرية ، حيوان الالهة « باخت » لقدس (١٥) .

١١ - رننوت

كانت رننوت (رننوت) الالهة المربية التى أشرفت على الرضاعة ، كما كانت تساعد وتحمى كل طفل عند مولده ، ومن ثم فقد أصبحت شديدة الارتباط بفكرة القضاء والقدر ، ومع الاحساس بالمستقبل الطيب ، فضلا عن الخى ، وطبقا لهذا فقد اختلطت منذ وقت مبكر مع رننوت ، والذى كان فى الأصل يمثل الحصاد الوفير ، واتحد مع الكوبرا التى كانت تختبئ فى أكوام القمح ، ولعل هذا هو السبب فى أن « رننوت » اشتهرت بأنها ربة الحصاد الزراعى ، ولقبت « سيدة الحقول التى تمد الناس بالغذاء الطيب وتعمرهم بالمؤن » وكذا « سيدة الشون » .

وقد ارتبطت رننوت مع مسخنت ومعات وسوبك ، وقد صورها القوم فى هيئة حية كبيرة ، أو هيئة امرأة لها رأس الكوبرا ، التى عادة تشكل الحية الملكية ، وترتدى غطاء رأس يتكون من ريشتين أو قرص الشمس ، ومعه زوج من قرون البقرة ، كما مثلت كذلك وهى ترضع الفرعون ، وأحيانا وهى ترضع أرواح الموتى ، بل انها كثيرا ما صورت ، وهى ترضع المعبود « نبرى » الذى كان يرمز لسفابل القمح ، وكان أهم أعيادها يقع فى غرة الشهر الثامن (برمودة) ، وهو الشهر الذى سمي باسمها ، ولغية يتم قياس الأرض المزروعة تمهيدا لحصادها ، هذا الى

(١٥) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث ص ٦٩ ، وكذا

جيمس بيكى : المرجع السابق ٥٨/٢ - ٦٠

A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 43-48.

جانب «عيد وزن القمح» في السابع والعشرين من برمودة ، وأخيرا في غرة الشهر التاسع .(بشنفس) حيث يحتفل القوم بها كمعبودة^(١٦) .

١٢ - حقت

كانت حقت أو «حقات» الهة الماء ، وقد ظهرت على هيئة سفدعة ، وارتبطت في الاثمنونين بالمعبودات الصفادع الاربع الذين عاشوا في نون قبل الخلق ، وقد ولدت في أبيحوس من رع في وقت واحد مع «سو» وأصبحت زوجته ، وكرمز للاخصاب والبعث فان حقت قد ساعدت أوزير ليحيا بعد موته ، وأشرفت على مولد الملوك والملكات ، وكانت تدعى عادة زوجة خنوم ، ومن ثم فقد أصبحت تساعد الامهات في الولادة ، وكثيرا ما نراها في نقوش المعابد في مناظر خروج الاطفال الى الحياة ، ومنذ عهد الدولة الوسطى أصبحت تذكر الى جانب خنوم بين الهة التاسوع ، كما أصبحت الهة ميلاد كل مخلوقاته ، وقد أعطت الحياة الى أجساد الحكام مثل حتشيسوت ، فضلا عن الرجال والنساء الذين شكلهم خنوم على عجلة الفخار ، وقد أخذت حقت أحيانا شكل حتحور ، ومن ثم فقد أطلق عليها أم حور الكبير ، هذا وقد أطلق عليها كذلك «سيدة حر - ور» ، وهي بلدة الشيخ عبادة ، والتي عرفت في العصر الروماني باسم «أنطنيو بوليس» وفي العصر القبطي «أنطنوه» ، وتقع على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ملوى وأبو قرقاص ، وكان من أهم ألقابها : أم الاله (إشارة الى ولدها حور - ور = حور الكبير) و «عين ور» و «سيدة السماء» ، وكثيرا ما نراها مرسومة على التوابيت لحماية من بداخلها من الموتى^(١٧) .

١٣ - عنقت

عبدت الالهة عنقت (أنوكيس) في منطقة الشمال الاول ، وقد

16) V. Lons, Op. Cit., P. 113.

(١٧) الموسوعة المصرية ٢١٦/١ تشرنى : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
V. Lons, Op. Cit., P. 109.

ظهرت في العصور المبكرة كآلهة لبعض جزر المنطقة ، كجزيرتي اليفانتين وسهيل ، وفي نقش المجاعة من عهد الملك زوسر ، نراها خلف خنوم وسانت بصفتها سيدة جزيرة سهيل والمشرقة على بلاد النوبة ، وقد ارتدت فوق رأسها تاج من الريش ، إشارة إلى أصلها البدائي ، وإن كانت في أحوال أخرى تظهر ، كما لو كانت قد رفعت شعرها الغزير ذا الصلابة المعروفة عن شعر النوبيين إلى أعلا ، وجمعتة في أسفله بمنديل . أحكمت ربطه حول رأسها ، وفي منظر أخرى نراها تمسك بيديها . الصولجان وعلامة الحياة عنخ .

هذا وقد دمجت عنقت في عصر الاسرات مع خنوم وسانت لتكون معهما الثالوث المقدس لمنطقة الشلال الاول ، وأخيرا أصبح مركز عبادتها في جزيرة سهيل ، وقد بنى لها معبدا هناك في عهد الاسرة الثامنة عشرة ، ولقبت بلقب «سيدة جزيرة سهيل» ، و «سيدة كل الآلهة» ، كما بنى لها محراب في فيله ، هذا وقد اعتبر القوم الغزاة من حيوانات «عنقت المقدسة» ففقدوها ، وأقيم لها معبد في «كوم مرة» (كومير ، على مبعده ١١ كيلا جنوب اسنا) ، لا تزال بعض أطلاله باقية حتى الآن، حيث توجد على مقربة منه جبانة خصصت لدفن جثث الغزلان (١٨) .

١٤ - سانت

كانت سانت (سباتى = ساتيس) بمعنى «ناثرة البذور» آلهة الخصب والحب ، كما كانت آلهة للحياة والرطوبة ، فضلا عن الفيضان والنيل ، وقد تركزت عبادتها — شأنها في ذلك شأن عنقت — في جزيرة

(١٨) فرانسوا دوما : آلهة مصر من ٢٣ - ٣٤ . وكذا جيمس بيكي : المرجع السابق ٩٩/٤ .

F. A. W. Budge, Op. Cit., 57-58.

وعن نقش المجاعة : انظر :

P. Bargout, La Stele de la Famine a Sahel Cairo, 1953.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1963, P. 132-139.

J. A. Wilson, ANET, P. 31-32.

سهيل (٣ كيلا جنوبى أسوان) كما عبت في اليفانتين ، حيث كونت مع خنوم وعنقت ثالث هذه المنطقة وذلك بعد أن اغتصبت مركز عنقت كروجة لخنوم وأصبحت العضو الثالث في ثالث اليفانتين ، كما كانت الالهة التى تعطى الفيضان ، وكان يطلق عليها عادة «ابنة رع» وسيدة مصر وأميرة الصعيد العظيمة سيدة اليفانتين وسيدة النوبة ، وأصبحت منذ الدولة الحديثة «ملكة الالهة» هذا وقد اعتقد القوم منذ الأزمنة المبكرة أنها تقف على مدخل العالم السفلى ، وكانت تستخدم مياه أربعة أوانى لتطهير الفرعون عند دخوله مملكة الموتى .

وكانت ساتت تصور على هيئة سيدة ترتدى غطاء رأس النسر ، وتاج الصعيد الأبيض ، تحيط به قرون ظبى ، وتحمل سهما ورمحا ، ومن ثم تصبح المقابل الجنوبى للالهة نيت ، كما صورت أحيانا ، وهى تصب ماء النيل وتسكبها فوق الأرض ، وكثيرا ما وحد القوم بينهما وبين الالهة الطيبية أمونيت ، كما وحدوا بينهما وبين ايزة في العصر المتأخر ، وبينها وبين «ايزة متحور» في العصر اليونانى الرومانى^(١٩).

١٥ - مسخت

كانت «مسخت» الهة الولادة واحدى آلهات الحظ والقدر ، كما كانت واحدة من آلهات حجرة الولادة الاربعة ، ومن ثم فقد تلازمت مع «حقت» التى كانت من آلهات الولادة كذلك ، كما كانت تشخيما لكرسى الولادة وقلبى اللبن اللذين كانت تجلس عليهما المرأة أثناء الولادة ، ومن ثم فقد صورت أحيانا في هيئة قالب من اللبن تبرز من جانبه رأس سيدة ، كما مثلت في هيئة امرأة ترتدى على رأسها ريشتين طويلتين ملفوفتين عند القمة مأخوذتين من براعم النخيل أو كنبات مائى طويل ، هذا وكانت مسخت تظهر مع غيرها من معبودات الولادة لحظة

(١٩) الموسوعة المصرية ٢٦٢/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٢ - ٢٣ ، وكذا

E. A. W. Budge, Op. Cit., P. 109.

خروج الجنين الى الحياة ، وذلك في هيئة فتيات راقصات على أنغام الموسيقى وقد تنبأت بالمستقبل العظيم ، فضلا عن الثروة والقوة ، للمملكة حتشبسوت ، عندما أشرقت على ولادتها ، هذا وقد تزوجت مسخنت من الاله «شاي» Shai كما ارتبطت ، كغيرها من آلهات الولادة أو الحياة بعد الموت ، وساعدت ايزة نفتيس في الطقوس الجنزية ، كما تدلى بشهادتها ، على هيئة المتوفى ، أمام محكمة أوزير (٢٠) .

١٦ - محيت

كانت الالهة محيت أو ماتيت الهة مدينة ثنى ونخن ، وقد مثلت في كثير من الاختام التي ترجع الى الاسرة الاولى على شكل لبؤة جائية يبرز من ظهرها ثلاثة أو أربعة قضبان منثنية ، أمام مقصورة مصر العليا ، كما يبدو واضحا من طبعات أختام طينية في مقبرة الملك «جت» في سقارة ، فضلا عن المقبرة المنسوبة للملكة «مريت - نيت» ، كما تبدو بنفس الصورة أمام مقصورتها من الاغصان المصفورة التي كانت مخصصة للبيت الكبير أو قصر الملك في العصور التالية (٢١) .

١٧ - مفدت

وهناك من الأدلة ما يشير الى أن عبادة الالهة مفدت انما ترجع الى عهد الاسرة الاولى ، ومن ذلك طبعة ختم عليه الاسم الحورى للملك «دن» وأمامه علم الالهة مفدت Mefdet ، كما عثر على آنية اسطوانية طويلة مصنوعة من الالبستر عليها نقش بارز بشكل كبير يمثل اسم الملك دن ، وأمامه الالهة مفدت ، هذا وقد سجل حجر بالرمو الاحتفال بمولدها في حوليات الاسرة الاولى ، وقد صورت مفدت على شكل قطعة ،

20) Ibid., P. 113.

وعن أسطورة مولد حتشبسوت انظر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1907, P. 78-89.

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

21) W. B. Emery, Great Tombs, figs, 186-190, 228-230, Archaic Egypt. P. 125.

وان صورت في عصور تالية في هيئة امرأة ترتدى جلد القطة ، وكانت تعتبر الواقية من عض الثعبان (٣٣) .

١٨ - امننت

اعتبر القوم الالهة امننت حامية للمناطق التي تقع على الشاطئ الغربى للنيل بما فيها من بشر وزرع ، وقد صورت على هيئة امرأة تحمل فوق رأسها العلامة المهرغوليفية التي تعنى «الغرب» ، ولما كانت الجبانات تقع في الغرب ، فقد أصبحت هذه الكلمة تعنى أيضا مكان الدفن ، ومن ثم فقد أصبحت امننت حامية الموتى في مقابرهم ، وكانت تقدم لها القرابين من أهل الموتى في الجبانات ، وان لم تبلغ من الاهمية قدرا يتطلب اقامة معابد خاصة بها ، ولكنها كحامية للموتى أصبحت من أتباع أوزير ، رب العالم الثانى ، كما ارتبطت بحتحور ، «ربة الغرب الجميل» مقر الموتى .

١٩ - مرت - سجر

كانت «مرت - سجر» (بمعنى محبة السكون) إحدى المعبودات المصرية التي صورت في هيئة الناصر (ثعبان الكوبرا) ، فكانت تصور في هذه الصورة برأس امرأة ، كما كانت تصور أحيانا في هيئة أسد رابض له رأس ثعبان الكوبرا ، وكانت «مرت - سجر» هي الالهة الحارسة لجبانة طيبة في البر الغربى ، حيث كان هناك مركز عبادتها ، كما كان من ألقابها «سيدة الغرب» .

٢٠ - سركت

صور القوم آلهتهم سركت في هيئة سيدة فوق رأسها عقرب، وكانت زوجة للاله «نخب - كاو» وقد قامت بأدوار مختلفة في المعتقدات المصرية ، وخاصة الجنزية ، فكانت ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس، تقوم

22) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115.

على حراسة جثة المتوفى المحنطة ، وحماية الاوانى الكانوبية ، كما كانت تشترك مع «قبح - سنو اف» في حماية الكبد ، هذا وقد صورت منذ عصر الدولة الحديثة على أركان التوابيت وصناديق حفظ أوانى الاحشاء (٢٣) .

٢١ - تاأورت

كانت «تاأورت» أو «أبت» معبودة أنثى فرس النهر منذ ما قبل الاسرات وقد قدسها القوم تحت اسم «البيضاء» أو «أبت» بمعنى الحريم ، أو «تاأورت» بمعنى العظيمة ، واعتقدوا أنها تساعد في المولد اليومي للشمس ، وسموها عين رع وأم ايزة وأوزير ، وأصبحت تاأورت بالتدريج معبودة أقل أهمية في الديانة الرسمية ، وإن كانت مخيفة ، كما كانت موقرة كمعبودة منزلية ، وفي كل العصور ، وعند كل الطبقات ، كانت تاأورت هي الالهة الحامية للمرأة الحامل ، فضلا عن الطفل الوليد ، ومن ثم فقد كانت تظهر غالبا على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، مع الاله بس ، وهو يرقص حولها في حجرة الولادة ، كما أنها ساعدت حتشبسوت عند مولدها ، وكانت توضع تماثمها ، مثل بس ، في المقابر ، ومن ثم فقد اعتقد القوم أنها تحمي إعادة مولد (بعث) المتوفى خلال مملكة الموتى ، كما اعتبرت أحيانا زوجا للاله ست ، ومن ثم فقد اكتسبت سمعة سيئة .

هذا وقد صورت تاأورت في هيئة أنثى فرس النهر الحامل منتصبية على قدميها الخلفيتين ، ومرتكزة باحدى قدميها الاماميتين على علامة هيروغليفية تعنى الحماية ، وقد تدلت أطراف بطنها الضخمة وثدييها الكبيرتين ، وكانت تاأورت ترمز الى الاخصاب ، كما كانت تحمى الحوامل سواء كن من أمهات الالهة أو الملوك أو من عامة القوم وخاصتهم ، من

(٢٣) الموسوعة المصرية ١/ ١١٩ ، ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٣٦٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٥١ .

الموضع العسر ، وكانت لها معابد في طيبة وفي الدير البحري ، كما كان القوم يمثلونها على جدران المعابد وفي تماثيل مختلفة وفي تمائم صغيرة تظهرها في عقود كانت تعلو بها أعناقهم (٢٤) .

(٢٤) الموسوعة المصرية ٧٦/١ - ٧٧ ، وكذا
V. Lons, Op. Cit., 111-113.

الفصل الثالث

تطور الديانة المصرية حتى عصر اخناتون

أخذت الديانة المصرية القديمة ، حين نشأتها وفي مراحل طويلة من تاريخها كما رأينا آنفا ، بتعدد المعبودات ، شأنها في ذلك شأن مثيالاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرها في وفرة نصوصها ، ووضوح قضايها ، وثباتها على مبادئها ، وفي تطورها ، التي انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد (١) ، وفي الواقع فلقد كان الدين المصري ، — كما ظل طوال الف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية وكان لكل مدينة معبودها الخاص (٢) .

ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، فرمزوا الى كل قوة عليا ، وعله خفية تخيلوها ، برمز حسي يعبر عن سر من أسرارها . ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وزواحف .

ثم لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ، ويتأتى عن بعضها الآخر كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها في جهات بعينها ، وفي ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، الامر الذي لم يكن يخلو من اعجاز في نطاق تصوراتهم التي كانت في عصورها الاولى لا تزال قليلة التجارب ، معدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول ص ٢٩٧

2) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 214.

رمزوا بحيوية الكباش الطلوق الى الاخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شىء من ذلك ، والى قوة البأس من مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع واللبوات الى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراشة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل ، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا .

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صورة حيوانية ، وهكذا كانت الالهة القطية باست فى بوباسته ، والالهة الصل احجو فى بوتو ، والايبيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات فى أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ، ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، ومن ثم فقد صور الاله أمون فى هيئة آدمية برأس كبش ، وصورت الالهة حتحور برأس آدمية ، ولها قرون بقرة (٣) .

هذا وقد مهدت طبيعة الالهة المزوجة هذه الى اتجاهين متضادين ، فمن ناحية الحفاظ الغريزى على التقاليد المصرية تقوى منه الرابطة الوطنية القوية المحلية ، مما حال دون الغاء الفروق الفردية ، فبقيت رؤوس الحيوانات ، ولم يتوقف النظام العام للتعدد ، ومن ناحية أخرى كان هناك حافظ قوى نحو التفرد والتوحيد فلم يعلن اله المدينة بوصفه الوحيد القوى فحسب ، بل ضغط على مطابقته لالهة مدن معينة بالعديد من الوسائل المختلفة ، وهكذا كان سوبد (سوبدو) من المقاطعة العربية (كما سماها الكتاب اليونان ، وهى الاقليم العشرون فى الدلتا) ، وكان

(٣) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - الجزء الاول ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

خمن من اسفينيس ، وكان عانتى من أنتيوبوليس (قاوا الكبير) ، كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صورة الباشق ، وأحيانا كان الاسم هو المظهر العنم ، بينما يختلف التجسيد ، فهناك مثلا «البقرة الالهية حتحور» فى دندرة ، لم تكن فى الواقع سوى «حتحور» التى تقوم عبادتها فى منف فى شجرة الجميز (٤) .

وكان تغيير الصورة يبدو مع بعض المعبودات عجيبا . فمثلا تحوت ، ذلك المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتابة والفصل فى القضاء ، واعتبروه كاتباً أعلى ووزيراً ، ونائبا عن معبودهم الاكبر رع ، ورمزوا اليه بثلاث كائنات حسية ، ومن ثم فقد رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قردا ، أو أن يبرز نفسه كقمر .

هذا وقد كانت الشمس بين القوى العظمى التى باشرت نفوذها على الحياة الارضية ، ومن ثم فقد ظهرت على وجه التأكيد أكثر استقرارا ودواما ، كما كانت أقلها حاجة الى صور متغيرة ، ومع ذلك فإن القوم انما كانوا يتخيلونها «حور أختى أو حور أختى» (حور الافق أو حور المشرق برأس الباشق) ، أو هى ملك آدمى يحمل لقب «أتوم» أو ربما هى «جمل» يدحرج كرت المروث أمامه «خوبرى أو خبرى» ، ولم يكن هذا هو كل شيء ، بل انهم ادركوا أن أهمية الاله المحلى قد ترتفع اذا أردفت اليه كلمة «رع» ، أكثر القاب اله الشمس شيوعا ، كنعت له ، ومن هنا نلتقى بالاله التمساح «سويك» فى أناسيده بلقب «سويك رع» ، وفوق هذا كله كان آمون العظيم فى طيبة منذ الدولة الوسطى يذكر فى كل مكان دائما كأنما هو «آمون - رع» (٥) .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن هناك من الالهة من كان القوم

4) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

(٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠٢ .

A. Gardiner, Op. Cit., P. 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F. Urk. IV, P. 53;

ينظرون اليه وكأنه حاكم لطوائف معينة من الناس ، اعتمادا على الخصائص التي تميزوا بها عن غيرهم ، فضلا عن شهرتهم في نواحي معينة ، وهكذا كان الاله «تحتوت» بمثابة الحامي لطائفة الكتاب بسبب شهرته في العلم والحكمة ، وكان «بتاح» بمثابة حامى الفنانين ، وكانت سخمت راعية للأطباء ، وفي العصور المتأخرة عندما أله القوم ايمحوتب ، وزير الملك زوسر ، ثانى ملوك الاسرة الثالثة ، اعتبروه الها للأطباء ، وكانت ماعت راعية للوزراء والقضاء وهكذا اتخذت كل طائفة مهنية راعيا لها من الالهة ، كما كان العامة من القوم يتخذون ، في أغلب الاحايين ، معبودهم المحلى راعيا لهم ، ولعل هذا ربما كان سببا في أن بعض وظائف الكهنوت انما كانت وقفًا على شاغليها بحكم وظائفهم في الدولة ، فالقضاة كانوا عادة كهنة لالهة العدالة ماعت ، والأطباء كانوا كهنة لسخمت ، والمشفرون على الفنانين كانوا كهنة لبتاح (٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن هناك من النصوص الادبية التي تركها لنا القوم ما يشير الى أن هناك طائفة منهم انما قد آمنت برب واحد خالق ، مسيطر على الكون ، ومن ثم فاننا نقرأ في نصوصهم ، «أن ما يحدث انما هو أمر الاله أو الله» و «أن صائد الطيور قد يسعى ويكافح ولكن الله (الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه و «أن ما يزرع في الحقل وما ينبت فيه انما هو منحة من الله» و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته» و «أن الله لا يعرف أهل السوء» و «إذا جاعتم السعادة حق عليكم شكر الله» (٧) .

(٦) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٦٧ - ٦٩ أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ٣١٢ ، محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الأدنى القديم ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : ايمحوتب : مصر - الجزء الثانى ص ١١٨ - ١٢٢ ، وكذا K. Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter, 1902, J. Hurry, Imhotep Oxford, 1928.

7) A. Erman, Die Literatur der Aegypter, 1923, P. 9, 89, 97, 100, 104, 112.

وأيا ما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو الاله) فالذى لا ريب فيه أن القوم قد ساورتهم فكرة ، حتى وإن كانت غامضة ، عن «الله» جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وإن الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وإن أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيا حق عليهم شكره .

وانطلاقاً من هذا كله ، فإن هؤلاء القوم الذين كان هذا شعورهم وتلك أحاديثهم ، لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقّة ، ومن ثم فقد كان من المنتظر أن يتطور ذلك كله الى التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الألوهية ، التي رأينا من قبل بعض مظاهرها ، وتطورها في قوة عظمى هي «الله» سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وإنما بقى القوم قريبين من التوحيد ، ينسبون كل شيء في هذه الدنيا الى قوة خارقة يذكرونها في نصوصهم على أنها «الاله» ، إلا إذا كانوا يعنون بها الذات العلية ، وهذا ما لا نستطيع القول به دون أن يخالفنا ريب في أن مانقوله هو الحق الصراح .

وعلى أى حال ، فإننا نقرأ في نصوص الأدباء «إذا لم تتحقق نبوءات الناس ، فتلك إرادة الله» و «لا تكن بخيلاً بما تملك من ثروات ، فإنما أنت تملكها بهبة من الاله (الله) ، ونقرأ في نصائح الحكيم بتاح حطب «لا تتسبب في تأنيب والدك ، ولا تجعها ترفع يديها تستنجد بالاله (الله) فإنه سوف يجيب دعاءها» ، ونقرأ في نصائح الحكيم أنى (من القرن السادس عشر قبل الميلاد) «إن مكيالاً من الحب يعطيه لك الاله (الله) لهو أفضل من خمسة آلاف تأنيب بطريق غير شريف . ، و «محبوب الاله (الله) من يحترم الفقير أكثر مما يمجّد المغنى» .

ومكذا كان القوم الذين يعتقدون في تعدد الالهة إنما كانوا في نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد ، بطريقة خاصة في التفكير لا ندركها

نحن اليوم ولا نستطيعها ، ومن هنا فأننا نلاحظ أن كلمة «الاله» التي جاءت في أدب الحكمة والنصائح ، وفي عديد من النصوص والسير الذاتية المنقوشة على اللوحات وعلى جدران المقابر ، وفي عديد من الاعمال الادبية ، انما يظهر فيها «الاله» ، دونما لبس أو غموض ، بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيئا طبيعيا للغاية ، ما دامت هذه النصائح قد خرجت من نفس الاوسط المثقفة ، التي خرجت منها النصائح الالفة الذكر (٨) .

على أننا نقرأ في نفس الوقت ، وعلى نفس المنشآت التي جاءت فيها هذه الحكم ، أسماء كثيرة أو قليلة لبعض الالهة المختلفة ، ولم يضايق هذا التقارب المتضارب مؤلفي هذه النصوص ، لان معظمهم كان يتقبل وجود اله واحد ، يهب بعض ما يملك من قوة خارقة الى بعض المخلوقات الالهية الاخرى ، وهكذا كان القوم يؤمنون بالتوحيد ، ويتعدد الالهة في نفس الوقت ، بطريقتهم الخاصة في التفكير ، وانطلاقا من هذا ، وتخريجا منه ، فلقد رأينا أهل الفكر منذ الدولة القديمة ، على الرغم من تطلعهم الى معبود مطلق يرجونه للدنيا والاخرة ، ربما لم يشعر أحدهم بما يدعو الى تغيير عقائد قومه .

وقد فوت على أهل الفكر احساسهم بضرورة التغيير والتوحيد أسباب عدة ، منها (أولا) أنه كان من الميسور أن يلتمسوا دفعا مقبولا للتغيير والتوحيد ، لو تباينت عقائد قومهم ، ودعا بعضهم الى سبيل المعروف ، وأجاز بعضهم سبل المنكر ، ولو تأتى هذا التباين عنها ، لتنكر بعض المؤمنين لبعض ، وضاقوا بتضارب العقائد وأربابها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظلت عقائد المصريين متشابهة في جملتهما ،

(٨) محمد بيومي مهران : اخناتون : عصره ودعوته ، الاسكندرية

١٩٧٩ ص ٢٩٥ - ٣٠٠ .

F. Daumas, La Civilisation De L'Egypte Pharaonique, 1965, P. 313-314.

E. Devaud, Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916.

M. Lichtheim, Op. Cit, P. 135-146, J. Wilson, ANET, P. 420-421.

تستحث العدالة «ماعت» بمعناها الواسع ، وتدع تحديدًا للمعرف وقوانين الفرعون ، وتدعو إلى الإيمان بالحياة الآخرة ، وتدع تصويرها للكهان وأخيلة المؤمنين .

ومنها (ثانيًا) أنه كان من اليسور أن يتوفر حافظ آخر لدعوة التوحيد لو أسرفت طوائف المصريين في التعصب لأربابها ، وأسرفت في عدائتها لمن عاداهم من الأرباب ، لو حدث هذا لاضطر أهل الفكر إلى الدعوة إلى معبود واحد ، لا يقاتي عن عبادته فرقة أو نزاع ، ولكن المصريين استطاعوا أن يتناسوا تعدد أربابهم وتباين أشكالهم بسبل أربعة ، هافترضوا حالات أسرية بين أرباب الصواضر المتقاربة ، واقترضوا قرابة وثيقة بين الأرباب في مجموعهم بين الفرعون الحاكم ، وبينهم وبين جدهم الأكبر خالق الوجود ، وأنزلوا بعض أربابهم منزلة الأولياء والمقديسين واتخذوهم وسيلة للزلفى إلى آلهة الدولة الكبار ، وتصادف أن روى المصريون أخبار خصومة عنيفة بين ثلاثة من أربابهم الكبار أوزير وحمور في جانب ، وست في جانب آخر ، ولكنهم تعمدوا في الوقت نفسه أن يخدعوا أنفسهم عن هذه الخصومة بأنها حدثت وأنتهت في زمن بعيد ، وأن رب الوجود استكرها ، وأورث بأس الأرباب الثلاثة للفراعين منذ أمد طويل (٩) .

ومنها (ثالثًا) أنه لو اقتصر مسعى رجال الدين على الكهنوت وحده ، أو اقتصر صفوفهم على طائفة بعينها ، ولو تم ذلك لتضخمت نقائصهم وعيوب عقائدهم ، وخاف المتحررون في أمرهم ، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، وظل الكهنة المصريون يعملون لشئون الدين والدنيا معًا ، واستمروا في حياتهم الخاصة بما يأخذ به كل الناس ، واتسعت صفوفهم لكل من توفر له حظ من النفوذ والمعرفة ، ولم تأب جماعة منهم أن ييسهم الأمراء ورجال الحكم في الإشراف عليها ، أو يسهم أحد أفرادها

(٩) عبد العزيز صالح : الواحدانية في مصر القديمة ص ١١ - ١٢

وكذا

F. Daumas, Op. Cit., P. 214;

في خدمة معبود غير معبودها ليستفيد من موارد معبده ، وترتب على ذلك كله ، أن غدا معظم الكهان والمثقفين وأصحاب السلطان المصريين ضالعين جميعا في الابقاء على كثرة المعبودات ، مشتركين جميعا في النفع منها .

ومنها (رابعا) أن الفكر المصري القديم لو ترمت وأبى أن يتقبل ما كان يحدده أهله من حين الى حين من المذاهب المستحدثة المقبولة ، ولو تأتى ذلك لقابل المجددون صلابة المزمتمين بمثلها ، وتكرر الصدام بينهم حتى يقضى الى التغير المنشود ، ولكن حدث على الضد من ذلك أن نجعت عهود الدولة القديمة في التخلص من التزمتم الشديد وعواقبه ، واتصف الفكر خلاله بمرونة نسبية تقبل معها بضعة مذاهب جديدة ، واستطاع أن يساير أصحابها في أناة أطفأت حماسهم وقللت اندفاعهم نحو ضرورة التغيير (١٠) .

وهكذا ظل المصريون يؤمنون بالتعدد وبالوحدانية في آن واحد ، ولعل فكرة الخلق في مصر القديمة انما تعطينا صورة لذلك ، فالتراث الشعبى يقدم لنا ما يفيد أن الاله الخالق انما هو «آمون» وهو «بتاح» وهو «رع» ، وهو «خنوم» ، ومن عجب أن هذا يرد في نص واحد ، وليس في مجموعة من نصوص مختلفة ، مما يؤيد وجهة النظر القائلة أن المفكرة الشعبية عن «الاله» انما كانت الواحدانية ، وإن أسماء الالهة ليست الا تعبيرا عن اله واحد في مظاهر مختلفة لهذا الاله ، ولكنها لم تكن تعبيرا عن آلهة متعددة .

ويدهى أن هذا لا يعنى أن القوم تصوروا الاله الخالق ، على أنه اله واحد لا شريك له ، بمفهوم الواحدانية المعروفة في الديانات السماوية ، والتي تظهر أوضح ما تظهر ، دونما لبس أو غموض في الاسلام — دين التوحيد المطلق — وإنما تعنى أن المصريين القدماء

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ .

انما قد آمنوا بوحداية الاله الخالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ،
لعل مهمتها الاولى أن تبرز صفات هذا الاله الخالق ، ومن ثم فقد
نظروا اليه على أنه آمون في خفائه وهوائه ، وأنه رع في ضيائه ، وأنه
بتاح في صناعته ، وأنه خنوم في تشكيله للبشر ، وفي اعطائهم صورهم
على عجلة مفارقه ولعلنا نستطيع أن نسمى هذا التوحيد المصرى — بحذر
شديد — نوعا مما يمكن أن يطلق عليه وحدانية تغليب رب من الارباب
على بقية الارباب ، وليس ، بالتأكيد ، توحيد تفكير أو توحيد مطلق .

وأيا ما كان الامر ، فلقد بدأ القوم منذ أخريات الدولة القديمة ،
وعلى أيام الثورة الاجتماعية الاولى ، وحتى أوائل عهد الدولة
الوسطى ، يتجهون الى الشمس باعتبارها الها خالقا ، والها اكبر في
آن واحد ، ثم اتجهوا اليه بأربابهم القدامى ، ووصلوا بينهم وبينه ،
وجعلوا اسمه قاسما مشتركا مع أسمائهم ، ولكن دون أن يحاولوا
افناءهم فيه ، فأطلقوا عليه أسماء «سوبك رع» و «آمون رع»
و «تحتوت رع» و «بتاح رع» وهلم جرا ، وأوهم القوم أنفسهم أن
من أجازوا عبادتهم من الارباب الكثيرين ليسوا في غالب أمرهم غير
أوجه عدة من جوهر واحد ، وصور مختلفة من كبيرهم «رع» ، وأنه
ليس مما يؤثر في فردية الجوهر أو المعبود أن تختلف صورته وتتعدد
وجوهه ، ثم تعودوا الربط بين اله الشمس وبين بقية الارباب الى
الربط بين كل رب وآخر من هؤلاء الارباب ، فأصبح أصحاب الاله
بتاح لا يأنفون من تسميته «بتاح سوبك» أو «بتاح خونسو» وأصبح
أتباع الاله «مين» لا يأنفون من سميته «مين آمون»^(١١) وهكذا .

ونقرأ في متون التوابيت من عصر الثورة الاجتماعية الاولى نصا
يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليقة ، وقد جاءت فيه عبارات
كانت سببا في أن يوضع هذا العصر في مرتبة أرفع من روح العصر

(١١) عبد العزيز صالح : الوحدانية في مصر القديمة ص ١٣

السابق أو اللاحق له ، حيث يذكر الاله الخالق أنه خلق جميع الناس منسويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل الانسان ، كما أنه خلق أربعة أشياء وساوى بينهم فيها ، «لقد صنعت الرياح الاربعة لكي يتنافس منها كل انسان مثل زميله اiban حياته ، وذلك أول الافعال ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، لكي يكون فيها للفقير ما للعظيم من حق ، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل زميله ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد خلقت الاقاليم ، وذلك رابع الافعال ، وانى وان أوجدت الارباب الاربعة من رشحى ، فالناس أوجدتهم من دموع عيني» (١٢) .

والنص واضح في أن القوم كانوا يؤمنون بالله واحد خالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، وهذا يعنى أنهم لم ينسوا ما ورثوه عن التعدد والتشبيه ، فخللوا يبيحونها معا ، ولم يقدموا ما يبررون به تناقض أحوالهم ، فقال قائلهم على لسان الملك «لخيتى» ملك اهناسيا ، وهو يبين لولده حكمة ما يراه لاله من تماثيل وهيئات «اخفى الرب ذاته بذاته ، ولكنه يعلم طباع البشر ، ويدرك أن ذا الايدى لايقاوم اذا كان محسوسا فيما يراه البشر ، فاعبد الرب على هيئته التى ارتضاها ، سواء صنعت من حجر أو شكلت من معدن ، وانكر انه اذا كان الجدول الصغير يطمسه الطمى ، فالنهر الكبير يأبى أن يحمده حد ، وأن الرب كالنهر قادر على أن يتحرر مما يستره ويحتويه» (١٣) .

واستمر القوم في اتجاههم نحو وحدة الربوبية على أيام الدولة الوسطى ، وأستطاعوا أن يطرقوا معان جديدة للتعبير عن سعة ملكوت

12) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221-222;

J. Wilson, ANET, P. 7-8.

وكذا وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ١٦٦ - ١٦٨ .

(١٣) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ص ٣٠٥ .

A. H. Gardiner, JEA, I, P. 20 F; ANET, P. 414.

ربهم ومطلق عدالته فأثادوا برعايته لشئون الخلق أجمعين . بنض
النظر عن اختلاف لهجاتهم وألوانهم ، وقالوا يسبحونه باسم أتوم
(آى التام المكمّل) ، وقد غدا صورة لاله الشمس ، قالوا ((أتوم
خلقت البشر جميعا ، ونوعت هياكلهم ، ووهبت الحياة لهم جميعا ،
وفرقت بين ألوانهم ، يا سميعا لرجاء الأسير ، يا لطيفا بمن دعا)) (١٤) ،
وفي أخريات القرن السادس عشر قل الميلاد ، ومع بداية الدولة الحديثة
تهيئات للوحدة آفاق جديدة ، تحت قيادة آمون اله الدولة ، وقبل ذلك
اله الاسرة التى حققت لمصر تحت لوائه ، بعد حرب ضروس ، تحرير
القرباب المصرى من دنس الهكسوس ، ثم تمكنت تحت لواء آمون من
تكوين امبراطوريتها الواسعة ، وصد غارات المغيرين عليها من الشرق
والغرب ، ومن ثم فقد بدأ اللقوم ينسبون اليه ربوية النشأة الاولى
والاخيرة واعتبروه ربا للوجود ، ثم سرعان ما نسبوا اليه صفات
مونتو ، ونعوت تحوت ، وأسرفوا فى ذلك الى حد كبير .

هذا وقد ترتب على اسراف أنصار آمون فى تمجيده أن ظهرت له
طائفتان من التسابيح ، طائفة غلب الخلط عليها ، وبعد بها عن مضان
الوحدانية وأخرى وضح القصد فيها ، ودنت من دائرة التوحيد الى حد
كبير ، وحاول أصحاب هذه الطائفة الاخيرة أن يصوروا جوهر ربهم ،
وابتغوا به جوهر رب الخليقة والوجود ، أياما أحباط به من أسماء
ونعوت ، ولما تبينوا أن عقائد عصرهم جمعت الى آمون الخفى ،
رميوية الهواء والماء والخلق والاحصاب والشمس والدولة على الاطلاق ،
ارتضوه ذلك منها وفسروه بما يشبه عقائد الطول ، فصوروا ربهم
على أنه فرد مطلق خفى ، ولكنه حافظ كل شيء ، حال فى كل شيء ،
موجود فى كل شيء ، ثم وصفوه بقولهم أنه «أبر من فى السماء ، وأسن
من فى الارض ، رب الكائنات ، حافظ كل شيء ، وباق فى كل شيء» (١٥) .

(١٤) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣ ، الشرق
الادنى القديم ص ٣٠٥ .
(١٥) نفس المرجع السابق ص ١٤ .

وهناك أنشودة من عصر «أمنحتب الثالث» ، وهو العصر الذي يسبق عصر الثورة الدينية الكبرى مباشرة ، نعرف منه كيف تغيرت عبادة «أمون رع» تدريجيا الى عقيدة خالصة في اله الشمس ، وكيف اكتسبت صفة العالمية في شكل أمون المعبر عن الصفة الشمسية ، ذلك لان الشمس انما تضيء في كل مكان في هذا العالم ، ومن هنا فان هذه الانشودة التي كتبها شقيقان هما «سوتي» و «حور» وكانا يعملان مهندسين معماريين في طيبة ، الواحد في طيبة الشرقية ، والاخر في طيبة الغربية ، ويتعبدان فيها للاله أمون ، انما تشير الى صفة عالمية في تعبيراتها ، وقد جاء فيها :

«للك الحمد يا شمس كل نهار ، يا من تشرق في غير فتور في كل صباح ، أنت «خبرى» الذي يجهد نفسه في العمل ، يفوق جمال أشعتك بريق الذهب الوهاج ، أنت بتاح صانع مصور لنفسك بنفسك ، أنت من تفرد بذاته وصفاته ، مخترق الابدعية ، ومرشد الملايين الى سواء السبيل ، يراك الخلق عندما تذرع السماء ، ولا يدركون كيف مسيرك ، انك تذرع الكون بغير قيد ، ونهار الناس من تحتك ، فاذا ما استويت في غرب الدنيا دانت لك ساعات الليل ، واذا ما طويتها استقبل الكون نورك ، وسعى الخلق في الدنيا بأمرك» .

«للك المجد يا أمون النهار ، يا خالق الخلق ، ورازقهم ، أنت أيها الصقر الكبير ، ذو الريش المختلف الالوان ، أنت ولدت لتنشئ نفسك ، وجئت من نفسك بنفسك دون أن تولد ، أي حور المسن في وسط آلهة السماء ، ذلك الذي تصعد نحوه أصوات البهجة في شروقه وغروبه معا ، أي خالق ما تنتج الارض ، أنت خنوم وأمون البشر ، الذي تملك القطرين من أكبر الاشياء الى أصغرها» .

«أنت أم نافعة للالهة والبشر ، أنت الخالق الطيب الذي يتعبد نفسه من أجل مخلوقاته ، راع شجاع يسوق ماشيته وهو ملاذها ومدبر حياتها ، الرب الاوحد الذي يصل الى أطراف الكون في كل يوم ، يرعى

كل ما فيه من دابه ، أنت يا من تشرق في السماءيا من ينير العالمين
بكوكبه ، مبدع الفصول والأهلة ، فالحرارة عندما تريد ، والبرد عندما
تشاء ، أنت يا من يطوى الاعضاء ويحتضنها ، كل بلد يتوسل اليه عند
طلوعه ، ليسبح بحمده» (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاخوين ، سوتى وخور ،
انما يصفان اله الشمس بصفات ذات علاقة بعصر الثورة الاجتماعية
الاولى مثل قولهما «اراع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدير
حياتها» ، وهو وصف يذكرنا بما جاء في نصائح اختوى لولده «امرى
كارع» عندما وصف الناس بأنهم «رعايا الاله» (قطعان الاله) ، كما
يذكرنا بما جاء في تحذيرات «أيو - ور» من نفس العصر بأن الاله
اراع للناس كافة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ذلك المنعت الخطير .
والذى يوصف فيه اله الشمس بأنه «أم نافعة للالهة والبشر» ذلك
لانه يحمل بين ثناياه فكرة مشابهة تشعرنا بالاهتمام ببنى البشر ، أى
النواحي الانسانية في سلطان اله الشمس التى اشترك في ايجادها بوجه
خاص رجال الفكر في عصر الثورة الاجتماعية لم تخف بين العوامل
السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد (١٧) .

على أن الاخوين ، سوتى وخور ، رغم انهما وصفا اله الشمس
بأنه «الرب الأوجد» ، فان هذا لا يعنى استبعاد ولائهما لآلهة أخرى ،
ففى المناظر والنقوش التى تحيط بالنقش الرئيسى يذكر الاخوان فى
صلواتهما : أوزير وأنوبيس وآمون رع وموت وخونسو وحتحور ، على
هيئتين ، ورع - حر أختى ، وسوكر وإيزه ، والملكة المؤلفة احمس
نغرتارى ، فان تركيز اهتمامهما فى «اله واحد» لا يعنى أبدا انكار الالهة
الآخرى ، هذا فضلا عن أن الاخوين لم يكتفيا باسم واحد لالههم ، ولم

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211; J. H. Breasted Op. Cit., P. 275-276
A. Varille, BIFAO, XLI, 1942, P. 25 F; F. Daumas, Op. Cit., P. 315.

17) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 167; JEA, I, 1914.
P. 34. ANET, P. 417.

ينزهوه تماما عن التشبيه ، ولم ينكروا تعدد المعبودات الى جانبه ،
فوسفوه فردا وكثيرا لجماعة الارباب في آن واحد ، ونزهوه عن
المادية ، وتخليلوا له صورا كثيرة في آن واحد .

وهكذا يبدو واضحا أن القوم في عصر الدولة الحديثة ، رغم أنهم
قد اعتبروا «أمون» إله طيبة ، و «حور الأفق» و «خنوم» إله
اليمنانيين ، و «أتوم» إله عين شمس ، إله واحد ، ورغم أن أناشيدهم
تشير الى أنهم قد اتجهوا هذا الاتجاه في توسلاتهم الى الخلط الالهى
المكون من أمون ورع حر اختى وأتوم ، باعتباره «إله واحد» كما
اندمج في الدولة الوسطى أحيانا بتاح وسوكر وأوزير ، فصاروا إله
واحدا ، فان وجود المعابد المختلفة يثبت أن هذه لم تكن الا أقوالا
شعرية جوفاء ، فظننا كان أمون ورع وحور ، ما زالت لهم معابدهم
الخاصة الغنية ، وكهانتهم الخاصة بهم ، فان ادماج هذه الالهة في
وحدة واحدة حقيقة ، لا يمكن أن يكون تاما ، بالرغم من هذه العبارات
اللامية الطائفة (١٨) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن كهنة أمون قد قاوموا
بطبيعة الحال هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الالهة في عصر
الدولة الحديثة ، ذلك لانهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء ، بحيث
تطيح هذه النظريات بثرائهم ، وليس من قبيل الصدفة أن تكون المحاولة
الوحيدة العملية التي نعرفها في هذا الامر ، قد اتجهت في انتصار
مؤقت الى ثورة غضب جامحة ضد أمون ، كما لو كانت قبولت بأشد
مقاومة من أنصار وكهان هذا الإله ، وقد قام بهذه المحاولة اخناتون بن
امنحيب الثالث ، الذي نادى باله واحد ، هو «أتون» .

ولعل السبب في مقاومة النظريات التوحيدية انما يرجع الى صعوبة
التخلص من القديم الموروث ، والى سماحه المتعبدین ، والى تشابه

18) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211-212; A. Varille, Op. Cit., P. 25 F;
J. S. Garnot, JEA, 35, 1949, P. 63 F.

سبل الدعوة الى المعروف عند اتباع معبود ، والى افتراض القرابة الوثيقة بين الارباب المختلفين ، والى منطقية التبرير بأن الاله الاكبر ، هو الذى خلقهم بأمره ومن نفسه أو من رشحه ، وأمر برعايتهم ، والى مرونة الفكر الدينى التى لم تأب أن تتقبل الجديد ، وتضعه جنباً الى جنب مع القديم ، والى استغلال الفراعين لكل هذه العوامل لى يحولوا بها دون تركيز التفكير الدينى فى أيدي كهنوت معبود واحد ، ولكى يوهموا أتباع كل معبود أنهم معهم ولا يأبون عليهم حرية عقيدتهم (١٩) .

(١٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣١١ - ٣١٥ ، عبد العزيز صالح : الترقى الأدنى القديم ص ٣٠٧ ، أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

الفصل الرابع

دعوة التوحيد

(١) أتون قبل اخناتون :

رغم أن كثيرا من العلماء انما كانوا ، الى عهد قريب ، يعارضون
الرأى القائل بأن عبادة أتون ذات جذور تاريخية ترجع الى ما قبل
أيام اخناتون^(١) ، فان هناك ما يشير الى أن كلمة «أتون» كان لها
مضمون تاريخى يرجع الى عهد الدولة الوسطى على الاقل^(٢) ، اذ أن
هناك من يرجعها الى عهد الدولة القديمة ، وانها قد ذكرت ، لأول مرة ،
في متون الاهرام ، وعلى أى حال ، فهناك عبارة مبهمه يكثر استعمالها
منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وترجمتها «سيد كل ما يحيط بالقرص» ،
وهي نعت يستخدم غالبا لـ «أتون الحى» ، والذي كان موضع ديانة
اخناتون ، والكلمة التى تترجم الى قرص تشير بوضوح الى الجسم
النفورانى المرئى ، وقد تستخدم أحيانا بمعنى «الاله» ، وليس بمعنى
قرص الشمس .

وهناك لوحة من عهد أحسن الاول ، جاء فيها أنه «حكم ما يحيط
به أتون» ، وان كان النص لم يستعمل المخصص المقدس ، هذا فضلا
عن عبارة أخرى جاءت على نفس الاثر ، تقول «ان الملك يرى وكأنه
رع ، عندما يشرق مثل أتون ، ومثل خبرى فى عيونه ، وأن أشعته تشبه

(١) انظر : (محمد بيومى مهران : اخناتون : عمره ودعوته -
القاهرة ١٩٧٩ ص ٣١٥ - ٣٣٦ .
(٢) انظر :

A. Erman and H. Grapow, Worterbuch, I, P. 145.
Marianne and Doresse, JA, 23, 1941-1942, P. 131 F.

وجوه أتوم في غرب السموات» ، والاشارة هنا الى أتون انما تعنى «الاله» ، رغم عدم وجود المخصص المقدس ، ومن ثم فهي في نظر بعض الباحثين لا تعنى الشمس الطبيعية ، وانما تعنى اسم الاله ذاته ، ولعل مما يؤيد هذا الاستنتاج أن هذه الفقرة القصيرة جاءت وسط جزء أكبر يتناول الملك والوهيته ، وهناك عبارة تشير الى موت أمنحتب الاول جاء فيها «لصعد الاله عاليا الى السماء واتحد مع أتون» ، وبدهى أن أتون هنا لا يعنى القرين الطبيعى للشمس⁽³⁾ .

وهناك اشارات الى أتون في نقش يرجع الى عهد تحوتمس الاول جاء فيه «أنه رئيس البلدين ، وأنه يحكم ما يحيط به أتون» ، وفي هذا النقش لا مجال للمناقشة حول معنى كلمة «أتون» كما في معبد الكرنك ، وفي نقش بعثة بلاد بونت على معبد الدير البحرى ، والامر كذلك بالنسبة الى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث وولده أمنحتب الثانى ، غير أن الاشارات الى «أتون» انما ترد بكثرة منذ أيام تحوتمس الرابع، حتى ذهب البعض الى القول بأن تأليه أتون حقيقة انما يرجع الى عهد هذا الفرعون الذى صدر في عهده «جعران» تذكاري كبير الحجم سجل عليه نص جاء في آخره «...أنه «أى تحوتمس الرابع» اذ حرص نفسه على القتال ، وآتون أمامه ، فانه ينسف الجبال ، ويدمر الاراضى الجبلية ، ويدرس نهريين وكاروى ، لكى يخضع سكان الاقاليم الجبلية، كما أخضع الناس (أى المصريين) حتى يعبدوا أتون الى ابد الأبدين» .

وهناك قطعة حجرية من العمارة يشاهد فيها تحوتمس الرابع وهو يقدم قربانا لآتون ، هذا فضلا عن أن فنون هذا العصر انما تشبه الى حد ما فنون العمارة كما أن آثاره تشبه تلك التى من عصر اخناتون في كونها لم ينقش عليها الا اسم الفرعون وقد خلت من كل نقش سحرى ،

3) F. J. Giles, *Ikhanton, Legend and History*, 1970, P. 111-115; J.A. Wilson, *Op. Cit.*, P. 209-210; G. Foucart, *BIFAO*, XIV, 1924, P. 131; *Urk.*, IV, P. 16, 19, 34; A. H. Gardiner, *Op. Cit.*, P. 271.

الامر الذى لم يتكرر الا مع تحوتمس الرابع واخناتون ، وهناك لوحة عثر عليها فى «سدد منت» (أمام مدينة اهناسية عبر بحر يوسف) ترجع الى عهد تحوتمس الرابع ، وربما الى فترة مبكرة من عهد ولده أمنحتب الثالث جاء فيها «انك ترى أتون فى مسيرته اليومية ، وان وجهك يرى أمون عندما يشرق» ، ولعل الجديد هنا أن لفظة أتون تحمل المخصص المقدس الذى لا تحمله لفظة أمون ، وان كان أتون ، وكذا أمون ، قد صورا هنا على أنه اله شمسى^(٤) .

وانه لمن الاهمية بمكان الإشارة هنا الى أن اسم «أتون» قد تسرب الى الجيش ، ومن ثم فقد رأينا بعض سراياه تدعى «سرية بهاء أتون» و «السرية اللالاة كأتون» ، ثم سرعان ما أرهص اتباع الشمس بالرمز الجديد لمعبودهم وقدموه لفرعونهم ، وصوره على هيئة قرص مجنح ، تتدلى منه يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعون ورسمه بالحماية والرعاية ، على أن الامر انما يزداد وضوحا منذ عهد أمنحتب الثالث مما يشير بوضوح الى ان الثورة انما كانت على الابواب ، فهناك كتلة حجرية ترجع الى عهد هذا الفرعون ، وقد رسم عليها ملك يتعبد لأتون الذى صور فى هيئة رجل له رأس صقر يعلوه قرص الشمس ، وقد سمى الاله هنا «حور الافق ، السعيد فى أفقه ، فى اسمه شو ، الذى هو أتون» .

ولعل أهمية هذا الاثر فى أنه الشاهد الوحيد على أن هناك معبدا أقيم للاله أتون على أيام أمنحتب الثالث ، ولعل كل هذا انما يشير الى أن أتون انما كان يتلقى بالفعل عبادة فى طيبة فى معبد مدينة أمون ، قبل ثورة العمارنة ، أو ان الفرعون انما قد خصص معبد مونتو فى

4) R. A. Parker, JNET, 16, 1957, P. 42; S. Hassan, ASAE, 38, 1938, P. 53-55; A. W. Shorter, JEA, 17, 1931, P. 23 F; F. J. Giles, Op. Cit., P. 115-119; H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 270; F. Petrie and G. Brunton, Sedment, II, Pl. III; Urk. IV, P. 266, 332, 341, 575-582.

الكرنك لعبادة أتون ، وأن هذا الاله ، انما كان فيما يبدو ، ذا صلة ووافق مع الاله آمون •

وعلى أى حال ، فان الفحص الدقيق للنصوص من عهد أمنحتب الثالث انما يشير الى استخدام أوسع نطاقا للاصطلاح «أتون» أكثر من ذى قبل ، فهناك لقب «أتون يشع» الذى أطلق على قارب الملكة «نتى» الذى كانت تتريض فيه فوق البحيرة التى حفرت تكريما لها ، كما نقرأ على نقش الجبل الكبير فى الكرنك «أنت سيد كل ما يضىء اتون» ، كما أن هناك تمثالا للالهة سخمت يحمل اسم «سخمت أتون» هذا فضلا عن ذكر أتون على كثير من آثار رجال ذلك العهد ، كما فى تمثال الوزير «أمنحتب بن حابو» ، وفى مقبرة الوزير «رع موسى» ، وفى مقبرة «خع أم حات» المشرف على الشونة مزدوجة ، وعلى جرافتى لموظف نوبى ، بل أن هناك مسألة مفقودة من سقارة بها اشارات عن كهنة لمعبد أتونى ، يرجع الى ما قبل أيام العمارنة ، رأى البعض أنه كان فى منف أو هليوبوليس ، وربما فى كل منهما (٥) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن اخناتون لم يخترع قرص الشمس الذى يمد الناس بالحياة كراى فلسفى ، بل أنه وجده جاهزا بين يديه ، وان كان هذا لا يعنى سبحا من الاحوال — الانتقاص من اقدم أمنحتب الرابع وجراته ، فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التى لم تقترن بأى اجراء جدى محدد الاهداف ، ومنها (ثانيا) انه ليست هناك ديانة ما تبدأ من فراغ ، ومن ثم فان ديانة أتون لابد وأن يكون لها جذور فى ديانات أخرى سبقت •

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٣٦ •

F. Giles., Op. Cit., P. 119-123; J. H. Breasted, ZAS, 40, 1902, P. 112; G. Legrain, ASAE, III, 1903, P. 265, IV, 1904, P. 148; Urk., IV, P. 1737, 1754, 1819, 1833; S. R. Glanville., JEA, 15, 1929, P. 6; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217.

ومنها (ثالثا) أن لفظه أتون قد تعنى أكثر من معنى ، وتستعمل في أكثر من غرض ، كما ظهر ذلك في نصوص من الدولة الوسطى ، وأخرى من الدولة الحديثة ، ومرة استعملت اللفظة مع المخصص المقدس ، ومرة بدونه ، ولعل ذلك كله انما يشير إلى أن القوم بدأوا يرددون اسم «أتون» منذ عهد الدولة الوسطى ، على الأقل ، بمعنى الكوكب أو قرص الشمس ، ثم اتجهوا به وجهتين ، الواحدة لفظية يدل فيها على كوكب الشمس والأخرى دينية ينم فيها عن الإله المتحكم في كوكب الشمس ، فكانوا اذا عبروا عن اتساع سلطان فرعونهم ، قالوا : انه يسيطر على ما يحيط به اتون ، واذا عبروا عن لحاقه بالرفيق الأعلى قالوا : الحق بأتون ، واذا بشروه بسعادة الآخرة ، دعوا له أن يرضى عنه الإله المستقر في أتون .

ولما طال ترديد الأدباء لاسم أتون ، استحببه المؤمنون الجددون ، ورجحوا الصيغة الملاهوتية فيه على الصيغة الأدبية ، ورأوه يكفى للتعبير عن اسم ربهم ورمزه ، وأقنعوا أنفسهم بأنه لا يقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا له بآية الشمس ، فما من ريب في أن من يدبر أمر كوكب الشمس ويتحكم فيه وينظم مسيرته ، قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها ، وأن من حصن كوكب الشمس بآية النور والنار والضخامة وقدرة الاخصاب ، دون سائر الكواكب ، قمين بأن يرتضى من عباده أن يتخذوا الشمس له رمزا وآية .

وعلى أى حال ، فان أتباع الشمس انما أوشكوا أن يتصدروا دعوة التجديد على أيام تحوتمس الرابع ، الا أن ولده «أمنحتب الثالث» ، جريا على سنة أسلافه ، أثر الأبقاء على تعدد المذاهب ، خشية أن تتركز سلطة الدين كله في جانب واحد ، خاصة وأن كهان آمون ، انما قد تهيأ لهم من الثراء العريض وسلطان المناصب ، ما أرب الناس منهم وجعل التفاضل عن عقائدهم أمرا غير ميسور ، ومن ثم فقد حاول أمنحتب الثالث أن يتخذ لنفسه منهجا وسطا بين أتون وآمون ، فساير دعوة أتون ، وسبح بحمده جهرة في طيبة ، وبشر باسمه في

قصره ، ولكنه تعمد في الوقت نفسه أن يحاكي آمون وبطانته ، فأعلن أنه ولى العرش عن أمره وأغدق العطايا على معابده وكهنته .

وقد أدى ذلك الى نتيجتين متضادتين ، فحدث من ناحية أن رجحت كلمة أولياء آمون في صراعهم مع أتباع الشمس على توجيه دعوة آتون ، واستطاعوا أن يتزعموها لبعض الوقت ، ولكن على دخل ، وتعمدوا أن يفسدوا عليها انطلاقها وبساطتها ، وأن يخذعوا الناس عنها ، ويلبسوا عليها أهدافها ، فآلحقوا اسم آتون باسم ربهم آمون ، واعتبروه مرادفا له ، وكأنه لم يأت على العقائد شيء جديد ، غير أنه حدث من ناحية أخرى ، أن استغل المجددون هذا التلبيس المتعمد وجهروا بتسابيحهم لآتون ، دون خشية من خصومهم أولياء آمون ، بعد أن لبسوها بأسماء ربهم والقباه كما شاعوا ، عن تسليم تارة ، وعن تعمية وتضليل تارة سواها ، واستمر اللبس بين القديم والجديد ، وبين آمون وآتون ، خلال عهد أمنحتب الثالث ، واستقرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون العظيم (٦) .

(٢) دعوة التوحيد في مراحلها الاولى :

وهكذا كانت أمور الدين في مصر عشية تولي أمنحتب الرابع عرش الفراعين في عام ١٣٦٧ قبل الميلاد غير مستقرة ، ومن ثم فقد كانت في حاجة الى أن تصمم في صالح أحد الاتجاهين — التوحيد أو التعدد — ولم يكن هناك أحد في مصر بقادر على القيام بتلك الخطوة الخطيرة غير الفرعون أو الكهان ، والا اذا تهيأت عوامل أخرى ، لها من القوة ما يصلح أمور الدين في مصر كله ، ومن عجب أن تجعل الاقدار ذلك كله من نصيب فتى لم يبلغ من الرجولة حدا يجعله قادرا على أن يفعل ذلك ، بل ان هذا الفتى نفسه انما كان من الناحية الصحية على الاقل ،

(٦) عبد العزيز صالح : الوجدانية في مصر القديمة ص ١٥-١٦ .

غير مهياً لهذه المهمة الخطيرة ، بل انه في غالب المظن انما كان في السنين الاولى من حكمه على الاقل تحت وصاية أمه الملكة «نتي» .

ومع ذلك فان أمنتب الرابع قد اختار منذ اللحظة الاولى التي جلس فيها على عرش أجداده اسما للعرش يرتبط بعقيدة الشمس ، أكثر مما يرتبط بعقيدة آمون ، فأطلق على نفسه لقب «نفرو ، خبرو ، رع وع ان رع» ومعناه «صاحب الاشكال الجميلة ، انه وحيد رع» ، فضلا عن لقب جديد هو «الكاهن الاكبر لرع حار أختي ، الذي يبتهج في الافق ، في اسمه النور (شو) الموجود في أتون» ، ورغم أن هذا اللقب لم يضايق كهان آمون الذين كانوا يرون في لقب «المحبوب من آمون» الكفاية ، فانه قد ادخل السرور في نفوس أولئك الذين كانوا يرون الى تمجيد الشمس ، بل ربما رأوا فيه غجرا جديدا مؤذنا بيوم له ما وراءه بالنسبة الى ربهم أتون .

ولعل أمنتب الرابع أراد أن يبدأ التبشير بمذهبه الجديد في هوادة ولين وربما نهجا على سياسة أبيه ، وربما بمشورة من أمه «نتي» ، وأيا كان السبب في هذا الاتجاه ، فان الفرعون بدأ يجامل انصار آمون ، ولا يبخل عليهم بعتاء ، ويناصر أصحاب أتون ولا يرض عنهم بتأييد ، ثم يعمل جاهدا على الاعلان عن الاله رع ، بجانب آمون ، في صورته الجديدة أتون ، وأن يدخله كثيره من الالهة المصرية الاخرى في رحاب الكرنك ، فيعبد بجوار آمون ، وبرضى من كهانته نفسها ، وهكذا شيد أمنتب الرابع معبدا لاتون في رحاب الكرنك معقل أمون وحصنه القوى ، يطلق عليه اسم «معبد رع حر أختي» (معبد رع حور الافق) وان رأى البعض أن أباه هو الذي بدأ بناء المعبد ، وأن اخناتون انما وسعه وأضاف الى نقوشه ما يقرب رب هذا المعبد من مذهب الجديد (٧) .

7) C. Alderd, Akhenaten, 1972, P. 162; A. Weigall, the Life and Times of Akhenton, 1934, P. 36 F; JEA, 9, P. 168, 17, P. 190; ASAE; III, P. 263; W. Hayes, the scepter of Egypt, II, P. 261; Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, II, P. 347.

وأياما كان الامر ، فسرعان ما يعلن أمنحتب الرابع أن العبادة يجب أن تنتج الى «الوالد اتون الحى» ، وأن أتون ما هو الا «رع حر أختى» يتהל فى افقه باعتباره النور الذى فى الكوكب أتون ، وقد استهدف من ذلك أمور ثلاثة هى : أن يحدد رأس عقيدته الدينية الجديدة ، وأن يفاجئ الناس بأسماء جديدة لم يألّفوها ، وأن يوحى اليهم بأنه لا يطلب منهم غير العودة الى معبود الفطرة ، معبود أجدادهم الاولين «رع حر أختى» ، وهو نفسه أتون ذلك الذى رغب الناس فيه بتسميته باسم «الوالد» ، وربط بينه وبين آية النور المعجزة المستجابة فى كوكبه .

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذى بدأ به دعوته ، فلقد أوجس كهنة آمون خيفة منه ، وقد رأوا أن ياقما مثله يستطيع أن يتزعم مذهباً فى الدين ويفتى بالرأى فيه ، خليف بأن يتأتى على يديه تغيير كبير ، فاضمروا له العداء وجافوه ، ولكنهم مع ذلك لم يعلنوا الثورة ضده ، على أساس أن الهمم الاكبر هو «آمون رع» ، الممثل لرع رب هليوبوليس ، كما أنهم ادركوا أن مذهبهم راسخ فى قلوب الناس ، وبخاصة أهل الصعيد ، كما أن الهمم قد ذاع أمره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأنه لا غزو ولا نصر الا حول ساحته وعند اقدام عرشه ، وأن أتون لم يكن حتى ذلك الحين ، الا الها جديداً ، يبحث له عن اتباع ومتعبدين .

وهكذا أدخل أتون الى حرم الكرنك ، بجانب آمون اله الدولة الرسمى ، وسمح له ولاول مرة ، أن يأخذ مكاناً رسمياً بين الالهة المصرية ، وأن يعترف به أصحاب آمون ، وربما أراد الفرعون من ذلك مهادنة كهان آمون ، معللاً النفس باكتساب بعضهم لاعتناق دينه الجديد ، بخاصة وأنه كا حتى ذلك الحين يحمل الانقلاب الملكية المفسدة التقليدية المتوارثة منذ أقدم المصور ، هذا فضلاً عن أن أمنحتب الرابع لم يكن فى بادئ الامر يظهر عداء للالهة المصرية وكهنتها ، على أهل أن البعض قد يفكر فى الجين الجديد ويعتقه .

ومع ذلك فإن العلاقة بين الملك وكهان أمون بدأت تتجه الى النفور أكثر منها الى الود ، فلتد أوجس الكهان خيفة من فرعون ، وكان فرعون بدوره حذرا منهم ، خشية القيام بمؤامرة قد تفرق سفينة طموحه وتقضى على معتقده الجديد ، وأبدت عين البغض بين الفريقين مساوىء خافية ، وأخرى كانت تتعاضى عنها عين المجاملة ، فاذا بالولاء للارباب العديدين الذى آثره الفراعين من قبل يبدو ضلالا مبينا ، واذا بكهان أمون يبدون للفرعون بثرائهم وسلطتهم كأنهم أرباب دولة داخل الدولة ، واذا بالكثرة العديدة من بقية الالهة تبدو للعرش وكأنها تمتص خيرات البلاد بغير طائل ، واذا بتصوير الرب على هيئة البشر ، والمكناية عنه بهيئة الحيوان يعتبران ضربا من التمويه والبهتان ، واذا بالاساطير القديمة والتفسيرات المأثورة التى تناقلها الناس جيلا بعد جيل تبدو للمجددين من لغو الحديث ، واذا بأوجه التشابه وأوجه الخلاف بين العبادات تبدو لأنصار فرعون دليلا على تشتت الفكر وغموض القصد ، واذا بدعوة المحافظة التى استمسك بها أتباع أمون وصبغوا عقائدهم بها ، تتضخم فى نظر دعاة الاصلاح فيجدونها تذبذبا مقبها ، يقيد حرية الناس فى أحاديثهم وآدابهم وفنونهم ، وليس فى دينهم وحده (٨) .

وهكذا سرعان ما يبدأ الفرعون فى اتخاذ الخطوات الايجابية لاعلان دعوته فيطلق على حى المدينة الذى فيه المعبد اسم «لمعان أتوم العظيم» (نور أتون العظيم) ، وعلى العاصمة المصرية العتيقة «طيبة» اسم «مدينة التماع أتون» (مدينة نور أتون) ، هذا فضلا عن تسمية قدس المعبد باسم «جهم أتون» ، وهو تعبير ، فيما يرى سرستد ، ما يزال غامضا ، ولعل عداء الكهنة السافر قد بدأ منذ هذه اللحظات ، وذلك حين أدركوا أن الامر قد أصبح أخطر من أن يتغاضوا عنه ، وأن أتون

(٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧ ، سيد توفيق : اخناتون الملك الاله ، وأتون الاله الملك ص ١٢٨ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٩ .

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 319; G. Legrain, ASAE, III, P. 363.

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 361, ARE, II, P. 382-383.

ليس في رأى الفرعون لها كباقي الالهة ، ومن ثم فان اتجاه أمنحتب الرابع انما كان في نظرهم «هرطقة» (صبأ) ، رغم أن ظواهر الامور حتى ذلك الوقت كانت تشير الى أن الفرعون لم يكن يظن انه ارتكب اثما نحو اله أجداده ، حين أرجع من جديد اله الشمس نفسه .

وهكذا بدا الصراع بين الفرعون وكهانة أمون ، وخاصة عندما عرف الكهان أن الاله يختلف في شكله وفي تعاليمه عن الالهة المصرية الاخرى ، فهو لم يجسد في صورة بشرية ، الا في حالات نادرة في أول الامر ، ولا هو تجسد في صورة حيوانية كأغلب آلهتهم ، بل هو الحرارة الكامنة في قرص الشمس التي تهب الناس الحياة وتغمرهم بالسعادة ، فأخذوا يخافون على نفوذهم ومراكزهم التي حطمتها ألوهية الملك وقسوة شخصيته ، وتقانيه في دينه الجديد ، وخاصة عندما أطلق الملك على بناته اللاتي ولدن في طيبة أسماء كان أتون جزءا مقدسا فيها ، فسماهن على التوالي «مريت أتون» و «مكت أتون» و «عنخ اس با اتون» .

ومن ثم فقد أصبحت نوايا الفرعون واضحة أمام الكهنة فأخذوا يحيكون له المؤامرات والحسائس للقضاء على دينه الجديد ، ولم يمنعه هذا من الاستمرار في دعوته ، ثم سرعان ما أعلنها حربا لا هوادة فيها على أمون وكهنته ، وسجل على إحدى لوحات العمارنة «أقسم بحياة أبى اتون ، أن الكهنة كانوا أشد اثما من كل الاشياء التي سمعتها حتى العام الرابع ، وأشد ضراوة من الاشياء التي وقعت حتى العام السادس»^(٩) .

(٣) اعلان التوحيد

لم تمنع مؤامرات الكهان أمنحتب الرابع من الاستمرار في دعوته

9) J. H. Breasted, the Dawn of Conscience, P. 273, F. Daumas, Op. Cit., P. 319; A. Weigall, Op. Cit., P. 86; N. de G. Davies, the Rock Tombs of El-Amarna, V. P. 30; Urk, IV, P. 1975.

وانما نراه يقبل التحدى ويراه وقتا مناسباً للجهر بالدعوة واعلان التوحيد خالصا ، وهكذا نادى الداعية العظيم بالله واحد لا شريك له ، ولا مثل لتعدد الارباب والربات الى جانبه ، ليس هو أمون ، ولكنه أثون ، وليس هو من تقوم عبادته خلف أسوار وأستار ، ولكنه اله واحد فرد صمد ، يشهد الناس آياته دون حجاب ، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الارض شعاع ، ونزه فنانوه ربهم عن أن يرمز له بهيئة انسان ورأس حيوان ، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل ما فيه من قدرة ربانية مستترة ، وجسم ظاهر مضى تصدر عنه أشعة عدة ، وبمعنى أصح أيد عدة بأكف مبسوطة تمتد الى الارض فتبها الحياة وكل ما هو طيب ، وفي بعض الاحيان كان يثبت الطرف الاسفل للقرص شعاره القديم «الصل» تفرج من عنقه علامة الحياة «عنخ» ، ثم الاشعة التى تنتهى بأيد آدمية ، كآثر أخير للتصورات القديمة .

وكان هذا الرمز ، رمز قديم وجديد في آن واحد ، قديم في هيئة قرص الشمس ، جديد بصورة الايدى التى بدأ تصويرها منذ أيام تحوتمس الرابع ، ويبدو أن الفنانين لم يروا في تصوير أكف الاله المبسوطة انتقاصا من روحانيته ، واعتبروا تصويرها نوعا من التعبير الفنى يغنى عن الوصف والكتابة وقد شابههم في ذلك فنانوا عصر النهضة المسيحيون حين صوروا يد الله بين الغمام ونحتوا له التماثيل^(١٠) .

وكانت السنة السادسة من حكم أمنمحتب الرابع (حوالى عام ١٣٦١ ق.م) واحدة من السنوات الحاسمة في تاريخ الدعوة ، فقد ظل الفرعون حتى عامه الخامس من الحكم يحتفظ باسمه أمنمحتب ، بل انه حتى في لوحة الحدود من العام السادس ظل يحتفظ باسم أمنمحتب ، ولم يغيره الى «اخناتون» ، وان أضيفت أسماء ونعوت أخرى ، ولكنه

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٠ .

C. Aldred, Op. Cit., P. 162; F. Daumas, Op. Cit., P. 320; A. Gardiner, Op. Cit., P. 218-219; A. Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, 1968, P. 139.

في نفس العام السادس تبرأ من لفظ «أمون» في اسمه ، فسمى نفسه «اخناتون» (أخن أتون) ، وهو اسم لم يتضح معناه حتى الان ، فقد يكون بمعنى «المخلص لأتون» أو «التابع لأتون» وقد يكون بمعنى «ليرضى عنه أتون» أو «ليخدم أتون» أو «خادم أتون» أو «الصالح لخدمة أتون» وقد يكون بمعنى «المجد لأتون» أو «ليسعد أتون» ، ولعل من أسباب تغيير الفرعون لاسمه أن الاسم الجديد الذي اتخذه لنفسه ، انما هو ترجمة للاسم القديم الى ما يماثله في المعنى في مذهب أتون .

وهكذا أصبح أمر انكار الاله القديم ، والايمان بالاله الجديد ، أمرا رسميا ، ذلك لان اسم الملك انما كلن رمزا لسياسة الدولة ، وكان لتغيير الاسم من الاثر ما لاعلان الحرب ، ومن ثم فقد أغلقت معابد الالهة في كل أنحاء الامبراطورية المصرية ، وصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها ، وضرب الحجز على خزائن الكهوت ، وذهب اخناتون في حماسة الى حد أنه أمر بفحص الآثار المصرية ، ومحو كلمة «الالهة» (نثرو) حيثما وجدت منقوشة عليها في صيغة الجمع ، لان الاله واحد لا يجمع ، أو انه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمماه (11) .

وبدأ الكهنة يتكلمون بعد أن ألغيت سلطة أمون العظمى ، وأصبح النزاع على أشده ، ولم يعد اخناتون يتسامح مع الالهة ، وبخاصة أمون ، وذهب أولياء الملك ممن امنوا بدعوته يطوفون بجميع المعابد لنزع اسم أمون وإخفاء أية معالم له ، وروجعت قراءة النقوش ، حتى في أعلى المعابد وفي قمم المسلات ، حيث تم محو اسم أمون وتدمير جميع تماثيله ، حتى أنه لم يصل اليينا منها شيئا قبل أيام «توت عنخ أمون» ، ثم سرعان ما انتقل الامر الى بقية الالهة ، ومن ثم فقد شوهت في معبد بتاح في الكرنك اسماء بتاح وحتحور ، وفي بهو أعمدة

11) J. H. Breasted Op. Cit., P. 279-280; A. Weigall, Op. Cit., P. 135; C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; S. Towfik, Aton Studies, P. 16; H. Gauthier, Op. Cit., P. 346, N. de G. Davies, Op. Cit., Pls. 25-27.

تحتتمس الذلت بالكرنك لحق بهذا المصير جميع الالهة كأوزير وايزة وحور واتوم وجب وغيرهم ، وحتى العقاب نخبت ، المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره ، ومحى كذلك اسم الثور المقدس ، على أن آمون انما كان الفريسة الرئيسية لغضب الملك الذى استهدف تدمير الصور والتماثيل ، ومن ثم فقد تم محو اسم آمون من الآثار جميعا ، بل ان كلمة «أم» التى كانت تشبه الالهة «موت» زوج آمون قد أمر بالتخلي عن كتابتها عند الرسم الهيروغلىفى للعقاب ، وان تكتب الحروف بعلامتى «م ت» (١٣) .

(٤) الهجرة :

أيقن اخناتون فى العمام السادس من الحكم أن طيبة لم تعد تصلح لبذر تعاليمه الجديدة ، كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالافكار التى ينشرها كهان آمون ، لا تساعد على نشر دعوته الجديدة ، فهاجر بأهله واتباعه من طيبة الى أرض وصفها بأنها أرض بكر طهور ، لم يدينسها شرك فى العبادة ، ولم يعبد فيها من قبل الله أو آلهة ، تتوسط أرض الكثافة أو تكاد ، وتقوم على انقاضها الان بلسدة العمارنة^(١٣) الحالية ، وسماها «اخيتاتون» بمعنى افق اتون أو مشرق اتون ، ويدهى أن الهجرة من طيبة الى العمارنة لم تكن وليدة عاطفة عابرة من ذلك الحاكم الثورى العنيد ، والبالغ الشجاعة كذلك ، بل هى

12) C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; F. Daumas, Op. Cit., P. 320-322; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 221.

(١٣) العمارنة أو اخيتاتون ، ويمثلها فى الوقت الحاضر مجموعة قرى على الضفة الشرقية للنيل ، وهى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطه ، ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها، وتقع العمارنة على مبعده ٤ كيلا شمالى ديرمواس عبر النهر ، بمحافظة المنيا، فى الاقليم الخامس عشر من اقاليم الصعيد، وكانت عاصمته «خمنو» (الاشمونين) ، وطبقا للوحات الحدود (عددها أربع عشرة لوحة على الأقل منحوتة على التلال الشرقية والغربية للنهر) فقد أسست المدينة فى العام الرابع للحكم ، واستكملت استعدادتها فى العام السادس (أنظر عن مدينة الجمارنة : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٨٦ - ٢٣٢) .

نتيجة تدبيرات الحكم وضعها ، كان الهدف منها إقامة حصن لاتون الذى أراد اخناتون أن يجعل منه الها عالميا .

وفي الواقع فلقد أقام الفرعون ثلاثة مراكز للدعوة ، وزعت على أجزاء الامبراطورية المصرية الثلاثة — مصر والنوبة وغربى آسيا ، على أن يكون المركز الرئيسى فى مصر حيث يستقر الفرعون فى اخيتاتون (أخت آتون) ، وأن يكون المركز الثانى فى النوبة «جىم آتون» (وجود آتون) و «كوا» وراء الجندل الثالث ، مقابل بلدة «دلجو» الحالية، وربما كان اسم «جىم آتون» هنا نسبة الى معبد آتون ب طيبة ، واما ثالث المراكز فقد كان فى فلسطين ، ربما فى أورشلم (القدس) أو فى بيت شمس وعلى أى حال فرغم أننا لا نعرف مكانه على وجه التحديد حتى الآن إلا أن الأمر الذى لا ريب فيه أن هذا المعبد الاسيوى لآتون ، لم يكن أقل منزله من معابد اجداد الفرعون التى شيدها لامون فى غربى آسيا ، وهكذا اعطى الفرعون لكل مركز من مراكز الامبراطورية مركزا للعقيدة الاتونية هذا فضلا عن الهياكل والمحاريب التى أقيمت لآتون فى انحاء مختلفة من أرض الكنانة ، فمن المؤكد مثلا أنه كان يوجد معبد لاتون فى منف ، وقد عثر على بقايا من نقوش اتونية مبشرة فى طول البلاد وعرضها ، وإن لم نجد ذلك الى الشمال من هليوبوليس فى الدلتا^(١٤) .

واستقر اخناتون فى اخيتاتون ينشر دعوته ، ويدعو الناس الى اعتناق دينه الجديد ، وليس من شك فى أن اخناتون إنما كان يعد نفسه حوارى المعتقد الجديد ، وإن هناك الكثير من النقوش التى تؤكد استماع القوم الى مذهبه ، فهذا احد اتباعه يقول له «ما أكثر من يستمع الى مذهبك فى الحياة ، ومن يملأ ناظره بمشاهدتك ، ولا نتوقف

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 223-224; H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, P. 169; T. Save-soderbergh, Op. Cit., P. 162.

عيناه عن النظر لاتون كل يوم» ونرى في مقبرة الوزير «(رع موسى»
 (وتحمل رقم ٥٥ بطيية الغريبة) منظرا يمثل اخناتون واقفا وموجها
 حديثه لوزيره حيث يقول «كلمات اتون اللقيتها عليك ، ان الرب قد
 علمنى اياها وكشف لى عن خباياها ، هذه الكلمات التى عرفها قلبى
 وانشرح لها صدرى» ، واجابه الوزير «انك الوحيد الذى اختاره اتون
 ليلقى اليه تعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس والجبال تستمع
 اليك كما يستمع الناس» ، وهكذا يشير النص الى أن الملك بدأ يترعّم
 الدعوة الجديدة حتى قبل ايلم العمارنة^(١٥) .

وعلى أى حال ، فلقد ترعّم اخناتون الدعوة الى دينه الجديد ،
 وأعلن نفسه نبيا لهذه الدعوة والمصطفى لنشرها ، وسلك سبيله الى
 قلوب أتباعه بالمنطق والاسوة الحسنة ، والترغيب والترهيب فى آن
 واحد ، فاصطفى لنفسه حواريين يعظمهم كما يعلمه ربه اتون ، وسارع
 بنفسه وزوجه وبناته الى معابد العاصمة يؤم العبادة ويرتل الدعوات،
 وابتعد بنفسه وآل بيته عن مظاهر التزمّت الملكى القديم ، وخرج بهم
 على أهل العاصمة يرونهم على ما هم عليه ، وفتح مغاليق حياته
 الخاصة للمثاليين والرسامين ، فصوروه فى بشريته الخالصة ، وفى فرحه
 وحزنه ، وعبثه وجده ، وما ابتلى به من أعراض المرض وعيوب البدن،
 واستغل يديه جميعا فبطش باحداها أمن وكبار كهنة بطشه شديدة ،
 ورفع بالآخرى أفرادا من أواسط الناس فجعلهم من الكبار الخواص ،
 وأغدق العطايا على من أزر دعوته ووقفوا الى جانبه ، وحاول اخناتون
 أن يجعل عاصمته «اخيئاتون» مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا ،
 تبشر بالايمان السمح المستبشر ، وتشيد بالعدل فى كل أمره ، وتردد
 تسابيح الشكر والصلوات لاتون فى معابدها ، كما تتردد الاغاني
 والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال فى مجالسها ، وبلغت الدعوة
 غايتها حين خرجت بدينها عن الاقليمية الى العالمية ، ونادت باله رحيم

(١٥) عبد المنعم أبو بكر ، اخناتون ص ٧٦ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 224;

في كل أمره ، محبوب في كل أمره ، خلق الكون عن حب ورغبة ، واقتضت عدالته أن ينتفع القريب والبعيد بفضله ، وتبسط الآؤه بانتشار أشعته في أقطار الدنيا بأسرها ، دون تفرقة بين أبيض وأسود ، فلم لا يجتمع الناس اذن على عبادته ، كما اجتمعوا على النفع منه (١٦) .

(٥) أناشيد اخناتون :

امتلات مقابر العمارنة بالنصوص المنقوشة ، والتي كثيرا ما تشير الى المذهب الجديد بفقرات وجمل كانت شائعة وقت ذاك ، وقد أصبحت في نهاية الامر تكون مجمل مذهب اخناتون ، كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر ، ومن ثم فعلينا ألا ننسى أبدا أن البقية الباقية من مذهب أتون التي وصلت إلينا من جبانة العمارنة انما قد مرت بشكل آلي بأيدي فئة قليلة من الكهنة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة ، ممن لم يخرجوا عن كونهم اذئابا لحركة عقلية دينية عظيمة ، وليس هناك من ريب في أنه ، ماعدا الانشودة الكبرى ، التي وجدت في مقبرة الملك «آي» فان الرسامين انما قنعوا غالبا بالقطع والنتف التي نقلت أحيانا من الانشودة الكبرى نفسها ، أو من قطع أخرى ، ويضعونها في هيئة أنشودة صغرى أصبحت الان ذا قيمة علمية كبرى بسبب ضالة معلوماتنا عن دعوة اخناتون (١٧) .

واما النشيد الكبير ، فقد عثر عليه في عام ١٨٨٣ م في مقبرة «آي» (الملك آي فيما بعد) والذي كان واحدا من رجال الدين الجديد ، ومن أشد المتحمسين له على أيام اخناتون ، وقد لقي هذا النشيد الكبير اهتماما كبيرا من العلماء المحدثين ، لانه يمثل النص الكامل الذي أمكن العثور عليه حتى الان للانشودة التي كانت دون شك من عمل اخناتون نفسه ، ومن ثم فهو مصدر أساسي لذلك المعتقد الجديد ، ولعل هذا هو السبب في أن علماء الايجتولوجي المصريين منهم والاجانب قاموا

(١٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١١ .

(١٧) أنظر عن الانشودة الصغرى وترجمتها (محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٣٥٩ - ٣٦١) .

بترجمة من النص المصرى الاصلى الى اللغة العربية ، فضلا عن معظم اللغات الاوربية الحديثة ، وهناك ترجمة لهذا النشيد الكبير : —

«تجلىك فى أفق السماء بديع ، أى أتون الحى ، يا أصل الحياة وبدئها ، انك حين تشرق من جبل النور الشرقى تملأ الارض بجمالك ومهبتك ، انك بوصفك رع تصل الى حدودهم ، وتخضعهم لابنك المحبوب ، انك أنت الاله الذى دان الجميع بحبه ، أنت عال جدا ، ومع ذلك فان أشمك تشرق على الارض ، أنت فى وجوه البشر ، ومع ذلك فلا يستطيع الواحد منهم أن يتكهن بسر قدومك حين تغيب فى الافق الغربى ، وان الارض تكون فى ظلام كالموات ، الليل ينقضى فى غرف النوم ، والرؤوس مغطاة لا ترى أعين أصحابها ، شرق أمتعتهم ، حتى وان كانت تحت رؤسهم ، فلا يدركون» •

«الاسود تخرج من أوجارها ، والثعابين تتسلب لتلدغ ، والظلام هو الضوء الوحيد ، بينما الارض فى صمت ، لان صانعها يستريح فى الافق ، وتصبح الارض زاهية عندما تشرق فى الافق ، وعندما تضىء فى النهار كأتون ، وأنت تقضى الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل أشمك فان الارضين (مصر) تصبحان فى عيد ، يستيقظ الناس ، ويقفون على أقدامهم عند ايقاظك اياهم ، فينظفون أجسامهم ويرتدون ثيابهم ويرفعون أكفهم تعبدا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون فى الارض ليياشر كل منهم عمله ، الزهر نبت الارض ينفتح لراك ، وتتملكه النشوة لحياك ، والانعام تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها تسبيحا لاتون الحى خالقها ، والحمالان تقفز على أقدامها ، وكل ما يطير أو يحط تهتز اعطافه لانك تشرق من أجله ، ومن ثم فالارض بأسرها عامرة بحبك ، السفن تبهر شمالا وجنوبا ، وتمعج الطرق بالناس ، والعشب والشجر يتميل عند ظهور محياك ، والاسماك فى النهر تتراقص لراك ، أشمك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم (البحر المتوسط)» •

«أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو في المرأة ، ومن يصنع الماء في البشر ، أنت يا من يأتى بالحياة للموليد ، وهو في بطن أمه ، أنت يا من تسكته بتوقف دمعه أنت يا من رعيته في الجسد ، ثم تحطى الهواء ليتنفس كل من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس في يوم مولده . أنت يا من تفتح لحيه ، وتخلق له مقومات الحياة ، أنت يا من جعل الكتكوت يشقشق في قشرته ، أنت يا من منحته الحياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميتاتاً في البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح (يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابان خروجه من البيضة» .

«ما أكثر اعمالك ، انها على الناس خافية ، انت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ، وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وحد ما يسمى على الارض بقدم ، ويحلق في الفضاء بجناح ، خلقت بلاد خارو (سورية وفلسطين) وكوش (النوبة) وأرض مصر ، ووجهت كل فرد الى موطنه ، ودبرت للجميع شئونهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ، وان ظلت الالسنه بينهم في النطق متباينة والالوان متمايضة ، لانك ميزت بين بلاد وبلاد ، أنت تصنع فيضان النيل في العالم السفلى ، وتأتى به كرهبتك لتهب الحياة لاهل مصر ، أولئك الذين صنعتهم لذاتك ، انت مولاهم جميعا ، أولئك الذين تنهك من أجلهم ، انت مولى كل أرض تشرق من أجلها» .

«آثون يا ضوء النهار ، يا عظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الحياة وترسل الغيث من أجلها ، لقد صنعت فيلا في السماء (المطر) حيث يموج الغيث فوق الجبال كالأخضر العظيم ، ويسقى الحقول بين القرى ، ما أجمل تدبير رب الخلود ، فيضان في السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواء لارض مصر ، يأتى اليها من دنيا العدم ، الأشعة تغذى كل امرئ ، وحين تشرق يحيون وينمون من أجلك ، أنت تجعل الفصول منتظمة لينجح كل ما صنعت ، جعلت هناك شتاء ليعرفوا بردك ، وصيفا ليتذوقوا حرارتك ، خلقت السماء بعيدة

لتضىء فيها ، ولتري كل ما صنعت ، وأنت وحيد تضىء في مختلف
صورك ، كأتون الحى ، وتبدو لامعا ومشعا ، وأنت بعيد وقريب ، أنت
تجعل من ذاتك وحدك ملايين الصور ، مدنا وقرى ، حقولا وطرقا
وانهارا ، كل العيون ترنو اليك لانك أنت أتون ، الذى يشرق فى النهار
على الارض» .

«ليس هناك من يعرفك سوى ابنك «نفرو» «خبرومرغ - وع ان رع»
فقد جعلته عليهما بمقاصدك وقوتك ، انك انت الذى وهبته الحكمة ،
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم ،
اذا ما أشرقت عاش الناس ، واذا ما غربت فانهم يموتون ، انك أنت
الحياة ، ولا حياة للناس الا بك ومنك ، العيون تستمتع بجمالك حتى
تغيب فاذا ما غربت فى الافق الغربى ترك الناس أعمالهم كلها ، ولكنك
عندما تشرق ثانية يزدهر ثانية كل شيء من أجل الملك ، الحركة فى كل
ساق منذ ان خلقت الارض ، أنت ترفعها من أجل ابنك الذى خرج من
صلبك ، الذى يعيش على الحق ، سيد الارضين ، نفرو ، خبرو ،
رع ، وع ان رع ، ابن رع ، الذى يعيش على الحق ، سيد الظهور،
البهى ، اخناتون العظيم فى خلوده ، مع زوجة الملك العظمى التى
يجبها ، سيدة الارضين ، نفر نفرو أتون ، نفرتيتى ، الا فلتعش
ولتردهر الى أبد الآبدين» (١٨) .

(٦) مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أناشيد اخناتون انما تتميز
بمميزات منها (أولا) الدعوة الى التوحيد ، والذى يبدو واضحا فى تلك
الصفات التى يصف بها اخناتون الهه «أتون» ، فهو عنده اله واحد
أحد ، وذلك حين يقول «أنت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواء ،
وليس له من نظير» ، ومن ثم فاننا نرى بوضوح أن اله اخناتون هذا ،

(١٨) أنظر عن النشيد الكبير وترجماته الى اللغات المختلفة (محمد
بيومى مهران اخناتون ص ٣٦١ - ٣٦٦) .

انما هو الاله الواحد ، يعمل وحده دون آلهة وسطاء معه ، ليس له عائلة أو حاشية ، وأن دور اخناتون في الدعوة ربما لا يعدو دور النبي الذي يتلقى الوحي دون وسيط «انت في قلبي ، ليس هناك من يعرفك سوى ابنك ، قد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك أنت الذي وهبته الحكمه» ، وحتى هذه «البنوة» ليست من نوع بنوة اسلافه الجسدية لربهم امون ، عن طريق الزواج الالهى ، كما كان البعض منهم يزعمون ، وانما هي في غالب الظن بنوة رمزية ، وهذا كان اتون ، في نظر اخناتون ، الخالق الاوحد الذي يوزع القوى الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر ، وفي الواقع فان الاتونية ، كما يقول سير آلن جاردنر ، لم تكن مجرد نظرية طبيعیه ، ولكنها كانت توحيدا أصيلا ، وأن العظمة الحقيقية لهذا الداعية تكمن في الشجاعة الخلقية ، وفي جهاده حتى آخر لحظة من حياته ، ليزيح عن كاهل المجتمع المصري تجمعات النفايات الاسطورية الموروثة من الماضي ، والتي تراكمت على عقله ووجدانه ، حتى أوشكت أن تظلم معالم تفكيره الصحيح (١٩) .

ومنها (ثانيا) الدعوة الى دين عالمي ، ذلك أن اخناتون انما حاول أن يقدم للبشرية ديناً يعتنقه كل الناس في كل البلاد ، باذلا الجهد في أن يحل هذا الدين محل القومية المصرية التي التزمها القوم منذ أقدم العصور ، فعاشوا عليها قبل أيام اخناتون بحوالى عشرين قرنا مضت ، ومن ثم فلا غرابة اذا نظر الباحثون الى اخناتون على أنه قد سبق العصر الملائم لظهوره بعدة قرون بولا غرابة أيضا اذا كان المصري في ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانة اخناتون ، ولم يستطع التعرف على كهنها ، وهكذا يمكن القول أن اخناتون انما يمثل عبقرية تم نضجها في وقت سابق لاوانها ، وأن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، انما كان ميلادا مبكرا جدا ، هذا ويؤكد العلامة «برستد» أن الاجل لو امتد باخناتون لاقام عقيدة دينية عالمية مركزها مصر ، ثم تنتشر في جميع

19) A. H. Gardiner, Op. Cit, P. 227-228.

أنحاء العالم ، معتمدا في ذلك على اقامة اخناتون معابد لعقيدته الدينية في جميع أنحاء الامبراطورية المصرية^(٢٠) ، ومنها (ثالثا) القضاء على التفرقة العنصرية ، وتظهر هذه الفكرة في قول اخناتون «خلقت بلاد خارو وكوش وأرض مصر» ، ذلك أن الداعية العظيم لم يجد حرجا في أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام والسودان ، وهما من موالى مصر ، ما دام الخالق الرازق واحدا ، رحيمنا هنا ، ورحيما هناك ، جوادا هنا ، منعما هناك ، خلق الجميع على اختلاف السنتهم وألوانهم ومواطنهم ، وتكفل برزقهم ، وكان معجزا حين وهب مصر فيضيانا من جوف السماء ، ومن ثم فقد تخطى الفرعون عن الكهرياء التي كان المصريون ينظرون بها الى تلك الشعوب ، فقد كانوا يعتقدون انهم وحدهم الناس (أو الرجال) أما الاجانب فلا ، ومن ثم فقد كانوا ينظرون اليهم بازدراء ويطلقون على رؤسائهم لقب «(وغد)»^(٢١) ، ذلك لان اخناتون انما كان يرى أن ربه أتون انما خلق الناس جميعا ، وان ظلت الالسنه بينهم في المنطق متباينة ، والهيئات والالوان متميزة ، ومن ثم فهم يتساوون في الحقوق والواجبات .

ومنها (رابعا) التركيز على قدرة الخالق ، الذي يهب قدرة النسل للنساء ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للجنين وهو في بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر أمره ، ثم هو يعنى بفراخ الطير ، كما يعنى بأجنحة البشر ، فالفرخ يكون على أهبه «(الصوصة)» وهي في البيضة المحكمة ، يقدر الاله أنفاسه وهو فيها ، ويهب القدرة علي نقرها وهو فيها ، وكاد منطق هذا الوصف أن يقول فهل هناك اله يعبد غير هذا الاله القادر ؟ ، ومنها (خامسا) اظهار الرحمة في صفات الاله الخالق ، فلقد جهد داعية التوحيد على أن يتقدم الاله الخالق في صورة الاله الرحيم بمخلوقاته جميعا ، ومن ثم فقد تخيرت الدعوة الجديدة روابط المعطف والمحبة ، دون الجبروت والبطش ، واعلنت أن ربها عظيم المحبة

20) J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, 1959, P. 332.

21) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 37.

تفيض الآؤه على العالم بأسره ، ويضفى على الدنيا كلها بهاء وجمالا ، وليس من شك فى أن هذا التفكير الجديد فى الآتونية انما يرفع من شأنها الى حد كبير فوق كل ما وصلت اليه ديانة المصريين القدامى أو ديانات الشرق بأجمعه حتى ذلك الوقت ففى الانشودة الصغرى يوصف أتون بأنه أب وأم لكل من خلق ، بعد أن كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الاعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الالهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون ، اما اخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد (من غير الانبياء) ، ولاشك أن القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ، ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته (٣٣) ، وفى الواقع أننا لو تتبعنا تطور الانسان وتقدمه خلال الاف السنين ، فاننا لن نرى (من غير الانبياء الكرام) أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات ، وهذا لاله الخالق المعين الرحيم قد اعطى نعمه للبشر أجمعين ، فضلا عن جميع المخلوقات الحية فى كل مكان ، ولم يقتصر ذلك على المصريين وحدهم ، ومن أجل هذه النعم كان العابدون يرفعون شكرهم وخضوعهم للاله أتون (٣٣) .

ومنها (سادسا) التفسير العلمى لفيضان النيل ، اذ نادى اخناتون بأن الفيضان انما يرجع لاسباب طبيعية يسيطر عليها الاله أتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان، ومنها (سابعا) الدعوة الى الصدق ، فقد كان الداعية العظيم شغوبا بالصدق ، قولا وفعلًا ، يبدو هذا واضحا فى غنون ذلك العصر ، وفى أقواله هو نفسه والتي منها «أننى أعيش على الصدق ، وأتزود من عدالة قلبى» ، بل انه انما ذهب فى هذا الى أن يسمى عاصمته الجديدة «أخيتاتون» بمعنى مكان أو مقر الصدق ، ومنها (ثامنا) أخراج الدين

22) J.H. Breasted, A History of Egypt, P. 377, The Dawn of Conscience, P. 291-292.

23) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 229.

الى العلانية ، ومحاولة القضاء على ما كان في الديانات القديمة للالهة الاقوياء الاثرياء من ابتعاد عن الناس ، وما أحاطوها به من أسرار ومن ثم فقد كانت المراسم الدينية تقام في المعبد ، وكان هيكله مفتوحا في الهواء الطلق ، لا يحوى أية تماثيل للاله آتون ، وهو أمر كان يعد غريبا عن التقاليد المتوارثة بالنسبة للطقوس التي لم تعد تتبع كما كانت من قبل ، لانه لم يعد هناك تمثال للمعبود ، لكن يخرج في موكب ، كما كان يحدث من قبل ، ومنها (تاسعا) تقدير اخناتون لتجلى قدرة الله ، سبحانه وتعالى ، في العالم الحسى ويبدو هذا واضحا في أنه من أعمق المصادر لدعوة اخناتون اعتمادها على التأمل في عالم الطبيعة ، ولان اخناتون كان رجلا مأخوذا بالاله ، فقد انقاد عقله بحساسة وادراك مذهشين الى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الاله ، فقد كان الرجل مأخوذا بجمال النور الابدى العالى ، ومن ثم فاننا نرى أشعته في كل أثر صور عليه من آثار بقيت لنا (٢٤) .

(٧) اخناتون والتوحيد :

لا ريب في أن ما سبق انما كان سببا في أن يبلغ الاعجاب ببعض الباحثين في هذا العصر الى تمجيد اخناتون تمجيذا يكاد يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ذلك لان الرجل انما قد نجح في ذلك الوقت من تاريخ الانسانية في ان يدعو الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت دعوته أول صيحة عالمية عرفتها الانسانية للدعوة الى التوحيد ، أو على الأقل دعوة بلغت بالتوحيد مرتقا في تلك الفترة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الامم في الشرق أو الغرب اذ كان اخناتون أول من بشر الناس (من غير الانبياء) باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه في أناسيده «اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ،

(٢٤) محمد ببومي مهران : اخناتون ص ٣٦٦ - ٣٨٢

F. Daumas, Op. Cit., P. 321-322, 326, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 292-299.

وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويخلق في الفضاء بجناح» ، هذا فضلا عن أن أناسيده وأراءه انما قد تركت اثرا على من جاء بعده من مفكرى الشعوب ، حتى أن كثيرا من العلماء انما يذهبون الى أن نشيده الكبير انما كان أصل المزمور ١٠٤ (٢٥) ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أن اخناتون انما كان أول صاحب نظرية في التاريخ ، وأن دعوته انما كانت دعوة توحيد بأجلى معانى التوحيد ، وأنه ازاح بدعوته هذه ، تلك الكومة من الخرافات غير الرشيدة ، والتي تكون جزءا من المعتقدات في مصر القديمة ، وأنه لم يكن يعبد قرص الشمس ، وانما كان يعبد تلك القوة التي وراء هذا القرص ، ومن ثم فان دعوة اخناتون انما تمثل قمة التطور في الافكار الدينية قبل عصر أنبياء اليهود فهي تدعو الى عبادة اله واحد للعالم كله ، خلق الحياة وحافظ عليها ، وأن اخناتون انما قد أدرك من وجود الله ، سبحانه وتعالى ، قدر ما نستطيع نحن أن ندرك من وجوده (٣٧) .

والرأى عندى أن اخناتون العظيم كان أول داعية للتوحيد من غير الانبياء أو على الأقل أول من سلك الطريق المستقيم الى دعوة التوحيد ، وذلك حين نادى بالله واحد لا شريك له ، ولعل من أهم الأدلة على ذلك (أولا) أن اخناتون انما قد نزه الهة آتون عن أن يكون له شبيه أو نظير ، ومن ثم فلم نعثر حتى الآن على أى صنم يصور فيه اخناتون ربه أتون ، سواء أكان هذا الصنم في صورة انسان ورأس حيوان ، أو غير ذلك من الصور ، بعكس الالهة المصرية الاخرى ، التي كانت تصور قبل عصر اخناتون أو بعده في صورة حيوانية أو انسانية ، كما رأينا من قبل ، ثم جاء اخناتون ورفض تماما أن يكون لالهة أتون صورة أو تمثال ، ولعل في هذا ما فيه من دلالة على ان اخناتون لم يكن يقدر الشمس أو قرصها ، على انها شئ مادي ، وانما كرمز لكائن مقدس ،

(٢٥) أنظر عن نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٥٣ - ٤٦٢)
 26) H. R. Hall, Op. Cit., P. 298-300. A. J. Wilson, Op. Cit., P. 266; A. Weigall, Op. Cit., P. 2.

تتم هذه الاشعة التى يرمز بها الداعية لربه عن قدرته ، وليس كصورة
له .

ومنها (ثانيا) أن ديانة اخناتون لم تعرف «التثليث» الذى اعتدناه
في الديانة المصرية القديمة ، فليس فيها كديانة آمون مثلا أسرة الهية
تتكون من آمون الزوج ، وموت الزوجة ، وخونسو الابن (أو الاله
الاب والالهة الام والاله الابن) أو عقيدة بتاح (بتاح وسفمت ونفرتم)
أو أوزير (أوزير وايزه وحور) ، وانما كان أتون عند اخناتون ، وأتون
وحده ، هو الاله الواحد الاحد ، ليس له زوجة ، وليس له ابن
ومنها (ثالثا) أن اخناتون نزه الهه أتون عن أن يكون الها خاصا ببلد
دون آخر ، وانما جعله الها للعالمين ، خلق البشر والانعام ، وكل ما
يسعى على الارض بقدم ، ويخلق في الفضاء بجناح ، كما خلق سورية
والسودان وأرض مصر ، ومن ثم فلم تكن ديانة اخناتون مقصورة على
المصريين وانما شملت كل البلاد ، وكل المخلوقات ، ومنها (رابعا) أن
دعوة اخناتون قد محت دون تردد تلك الاساطير والتقاليد التى كانت
تعطى «أوزير» مكانة غير عادية في الديانة المصرية ، ومن ثم لم يرد له
ذكر في وثائق دعوة اخناتون أو في قبور العمارنة ، وذلك حين نبذ
الاسطورة التى تقول أن النيل هو أوزير ، ثم نسب الفيضان الى قوى
طبيعية يسيطر عليها ربه أتون .

ومنها (خامسا) أن اخناتون قد بلغ في تنزيه الهه غاية لم تدركها
حتى الان بعض الامم في الشرق والغرب ، وذلك عندما أمر بفحص
الاثار المصرية جميعا ، ومحو كلمة «الالهة» حيثما وجدت منقوشة عليها
في صيغة الجمع ، لان الاله في عقيدة أتون واحد لا يجمع ، ومنها
(سادسا) ان اخناتون قد قضى على جميع أنواع الشعوذة والدجل
الذين كان يمارسهما الكهان في الديانة المصرية ، فالحملة التى قام بها
الكهان على عالم الاخلاق بالموامل السحرية الالية لضمان براءة الميت
فيما بعد الموت ، قد أقصاها اخناتون بداهة عن تعاليمه ، فصارت
الجميل (الجعارين) التى كانت مألوفة من قبل ، لا تنقش فوقها التعاويذ

السحرية لاختاد وحى الضمير عند الميت المتهم ، بل صارت وقت ذلك تنقش فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام ، والامر كذلك بالنسبة الى الدمى (الاشبتي) وهى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالاعمال بدلا من الميت اذا طلب منه ذلك فى الحياة الأخرى (٣٧) .

(٨) النكسة :

مات اخناتون حوالى عام ١٣٥٠ ق م ، ولم يكن قد تهيأ للدعوة من كثرة الاتباع ، ما كان يؤمل لملها ، ومن ثم فلم يكد الاجل ينته بصاحبها حتى رأينا عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظن الخير ، ومن حيث لم يهتسب ، وهكذا فما أن يمضى حين من الدهر حتى تعود الامور الى ما كانت عليه قبل اعتلاء اخناتون العرش حوالى عام ١٣٦٧ ق م ، فينبذ القوم تعاليم الداعية العظيم ، ويعيدوا العبادات القديمة الى ما كانت عليه من قبل ، فضلا عن فتح معابدها التى كانت قد أغلقت ، ويقدم لنا المؤرخون أسبابا للنكسة تختلط فيها الاسباب السياسية بالدينية ، وهذه الأخيرة بالاقتصادية ، حتى بات من الصعب علينا أن نفضل بين هذا السبب أو ذاك .

ولعل من أهم أسباب النكسة (٢٨) (أولا) انتقال الملك من طيبة الى الممارنة ، ورغم أهمية هذا الاجراء لتأمين الدعوة ، فقد أتاح فرصة نادرة لكهان آمون لتدبير المؤامرات واشعال نيران الثورة ضد اخناتون البعيد عنهم فى عاصمته الجديدة اخيتاتون ومنها (ثانيا) انحراف حاشية الفرعون بعد مماته ، عندما أطلت الاضطرابات بوجهها القبيح على أرض الكنانة وأصبح المستقبل غير مأمون ، ومن ثم فقد شرعوا فى الخيانة ، وهكذا ربما أمكن القول أن اخناتون لم يترك بعد مماته أتباعا

(٢٧) عن اخناتون والوحدانية انظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٦٣ - ٤٨٤) .
(٢٨) عن أسباب النكسة انظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٨٣ - ٤٠٣) .

ومريدين ، يناضلون من أجل الحفاظ على الدعوة ، ويستشهدون دفاعا عنها ، ولو جدت دعوة التوحيد هؤلاء لاستمال استشهادهم في سبيل دعوتهم كثيرا من الناس الى هذه الدعوة ، ولتغير تاريخها ، بل وربما تاريخ الديانة المصرية القديمة كلها .

ومنها (ثالثا) انهيار النفوذ المصري في غربى آسيا واستبداله الى حد كبير بالنفوذ الحيثى ، ورغم أن اخناتون قد بذل جهده لايقاف الكارثة عسكريا ، فضلا عن روح المساواة والتي دعا اليها ، ورجا منها أن تحقق العالمية لدعوته ، وتجذب شعوب الشرق الى طاعته ، الا أن جهوده لم تأت بالثمرة المرجوة منها ، مما كان سببا في بعد رجال الجيش عن الدعوة وكرهم لها ، ذلك لان انصراف الفرعون الى دعوته انما كان — بجاذب تضليل المخادعين له عن حقيقة سير الامور في الامبراطورية — سببا في ضياع معظم هذه الامبراطورية في غربى آسيا ، واستغل الحاققون من الكهان ومرترقة المعابد ، ذلك كله ، فأوقدوا نار الحقد في نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك الهبات الضخمة من الاسرى والسبايا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود (٢٩) .

ومنها (رابعا) أن اخناتون حين ظهر بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله ، انما ظهرت هذه الدعوة من قصر الحكم في الدولة ، كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت من قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وكذا قوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لانها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والمعادة .

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١ ، وكذا

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 326.

C. Aldred, Op. Cit., P. 64.

H. R. Hall, Op. Cit., P. 301-302.

وكذا

وكذا

ومنها (خامسا) أن العبادات القديمة كانت أشد رسوخا من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها، تقوم بها أقلية من المفكرين، وإن ترعّمها الملك، وكان رجال الدين، وخاصة كهان آمون، قوة تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم، ومن ثم فلم يكن من السهل التغلب عليها، هذا في الوقت الذي اطمأن فيه اخناتون كثيرا إلى منطقية دعوته .

ومنها (سادسا) أن اخناتون لم يجر على سنة الموحدين في هذه الدنيا، وإنما أراد الحلفة إلى حد ما، وبخاصة على أيام العمارنة، ونسى أن طبيعة الأشياء، في معالجة أمور الدين بخاصة، تتأبى الطفرة وترفضها، ولعل السبب في ذلك أن اخناتون إنما كان يرى أن عبادة أتون لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة، وأدعوته لن تجد كثيرا من المعارضة، ومنها (سابعاً) الأزمات الاقتصادية التي نشأت بسبب تكاليف بناء العاصمة الجديدة للاله أتون . مما أدى في النهاية إلى انفاق أموال طائلة على تلك المباني الضخمة . فضلا عن حرمان الزراعة من الأيدي العاملة التي استغلت في المباني، إلى جانب التسبب في الإدارة والفوضى التي انتشرت في جنوب الصعيد .

ومنها (ثامنا) أن موضوع الوحدانية الاتونية ينبغي أن يكون متكامل الجوانب الدينية الأخرى، حتى تقدم لنا عقيدة توحيدية متكاملة، وعلى سبيل المثال فإن دعوة اخناتون لم تتعرض بصورة واضحة لموضوع الخاود، واستمرار الحياة في العالم الآخر، الأمر الذي كان ذا أهمية خاصة في الديانة المصرية . ومنها (تاسعا) أن المعتقد الاتوني لم تكن له شعبية كبيرة في المجتمع المصري . ذلك لأن المعتقدات المحلية في الأقاليم كانت لها هيبتها الشعبية . ونسألك من الضروري توفير الوقت اللازم لأحداث التغيير في الفكر الديني عند العامة من القوم، الأمر الذي لم يتوفر للاتونية . سواء على أيام الداعية أو بعد

ومنها (عاشرا) أن دعوة اخناتون كانت سابقة لعصرها ، ومن ثم فلا غرابة إذا اعتبر صاحب الدعوة كان يعيش متقدما عن عصره ، وذلك بسبب عبقرية الفذة ، وبالتالي فلا غرابة أيضا أن كان المصري المعاصر لها لم يفهم مغزاها ، ولم يستطع تعرف كتبها ، فاختناتون دون شك انما كان يمثل عبقرية تم نضجها في وقت سابق لاوانها ، وأن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد انما كان ميلادا مبكرا جدا لها (٢١) •

وأيا كان الأمر ، وأيضا كانت الاسباب التي أدت الى نكسة دعوة التوحيد التي نادى بها الداعية العظيم ، فان التاريخ لن ينسى أبدا ، أن اخناتون انما كان أول داعية الى التوحيد (من غير الانبياء) عرفته البشرية ، وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد فرد صمد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيدة أتون أول صيغة عالمية عرفتها البشرية جمعاء للدعوة الى التوحيد ، أو على الأقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان أول من بشر الناس ، كل الناس ، باله واحد ، لا شريك له •

(٩) العودة الى الوثنية

مات اخناتون بعد أن ادى واجبه وأعلن دعوة التوحيد عالية مدوية في كل أرجاء العالم القديم ثم جاء على أيامه ، وربما بقى بعده حينئذ من الدهر ، أخوه «سمنخ كارع» ، الذي خلفه أخ آخر له ، هو «توت عنخ آمون» ، الذي نصبه كهان آمون على عرش الفراعين ، وهو بعد صبي لم ييفع ، فمكن لهم وأطلق أيديهم في شئون الدنيا والدين ،

(٢٠) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨ ، ١٤٢ ، أحمد بدوي : المرجع السابق ص ٦٠٩ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ وكذا

C Aldred, Op. Cit., P. 156-157, 177.

W. Edgerton, Op. Cit., P. 162-160.

(٢١) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ١٤٠ •

وبدهى أن كهان أمون ما كانوا على استعداد لاضاعة فرصته لتتويج الملك الطنل ، دون الافادة منها في اعادة سيادة أمون وتوطيد نفوذه بصفة رسمية ، ومن ثم فقد أقيمت احتفالات تتويجه في معبد أمون في الكرنك .

وهكذا سرعان ما أعلن الملك الصبى العفو الشامل وأخذت المنازعات الدينية الى المهادنة ، بل سرعان ما أعلن توت عنخ أمون ولاءه لامون وكنانته الجبارة ، فغير اسمه واسم زوجته ، بأن حذف منها اسم أثون ، مستدلا آياه باسم أمون ، ثم قام بترميم معابد أمون التى هدمها أو خربها اخناتون ، وأرجع الى الاله أمون ما كان له من ضياع وثراء ، بل ضاعفها له ، ثم أضاف الى لقبه كنية «حاكم أون الجنوبية» (طيبة) وهذا يعنى أن طيبة ، وليس العمارنة ، انما اصبحت عاصمة البلاد (٣٢) .

هذا وقد بدأ توت عنخ أمون يقدم القرابين الى ثنائى الهة الكرنك ، أمون وموت ، ولكنه ، كملك لمصر جميعا ، انما قد زعم أنه «المحبوب من أتوم حصر أختى فى هليوبوليس ، ومن بتاح فى منف» فضلا عن الالهة الاخرى ، وهكذا فان القوم بعد اخناتون ، وعلى أيام توت عنخ أمون ، قد نبذوا العقيدة الاتونية التى ألغت المعبادات القديمة ، ومن ثم فقد تركوا التوحيد ، وعادوا الى التعدد مرة ثانية ، حيث الافكار القديمة التى يجمع فيها «الاله الخالق» مجموعة الالهة الاخرى ، لتعبر عن صفات وخاصيات الاله الواحد ، مع الاعتراف ، فى نفس الوقت ، بهذه الالهة الاخرى .

وهكذا عادت الامور سيرتها الاولى ، غير أن الخطوة الحاسمة انما تمت على يد «احور محب» الذى قاد حملة رهيبة ضد الاتونية ، ومن ثم فقد أرسل فرقا من العمال الى العمارنة محوا معظم المباني ونهبوها وحطموا كل شئ تحطيمًا منظما ، ثم صبوا الملاط فى كل مكان ، ثم

(٣٢) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثالث - ص ١١٩ - ١٢١ ، ثم أنظر عن الاتونية ص ١٥٥ - ١٩٣ .

حلوا كثيرا من أحجار اخيتاتون لاستعمالها في أماكن أخرى ، وخربت المقبرة الملكية ونهب أثاثها الجزى ، حتى الاوانى الصلبة فيها كالتوابيت والصناديق الحجرية للاوانى الكانوبية ، كما حطمت النقوش التى على الجدران ، ولم يكن حظ المقابر الخاصة بافضل من حظ المقابر الملكية فقد نالها من التدمير ما نال مقبرة اخناتون ، ونال معبد العمارنة الكبير ما نال المدينة نفسها ، فقد اجثت من فوق الارض وتحطمت تماثيله ورسومه الى قطع صغيرة كومت فوق بعضها خارج الجدار الجنوبى للمعبد (٣٣) .

وجرت الامور فى الاقاليم على هذا النحو ، من الدلتا الى السودان ، فقد أنزل حور محب نقمته وصب جام غضبه فى كل مكان ، ولم ينس بصفة خاصة اخميم ، موطن بعض أفراد أسرة العمارنة ، وأرسل الى كل مكان فرقا من العمال تكتب من جديد أسماء اله طيبة ، وترمم أشكاله التى كان اخناتون قد أزالها ، وفى الواقع فلقد أدى حور محب دوره ، الذى رسمه له كهان آمون ، أو رسمه هو لنفسه ، كاملا ، وبكل قسوة وضراوة فى ازالة كل ما يذكر الناس بأيام العمارنة ودعوتها كما كان حريصا فى كل مناسبة على أن يذكر الدور المشئوم الذى أداه اخناتون ، ومن ثم فما كان يشير الى الداعية العظيم الا باسم «المجرم» أو «ذلك العدو من اخيتاتون» ، ثم هجرت العمارنة بعد ذلك ، ولم تشغل مرة ثانية كعاصمة ، ومن هنا كانت خرائبها التى تكشف لنا عن صورة العاصمة المصرية القديمة فى لحظة ثابتة معينة .

وهكذا جعل «حور محب» من نفسه البطل الذى رد الى معابد آمون وكهانتها مكانتها واعتبارها بل ان حور محب وخلفاءه من غراعين الاسرة التاسعة عشرة ، حاولوا أن يعوضوا آمون بطريقة مبالغ فيها ، عن الخسائر التى لحقت بآمون ومدينته أبان عهد العمارنة ، فهم الذين

33) C. D. Noblecourt, *Tutankhamen*, 1963, P. 182-185; C. Aldred, *Op. Cit.*, P. 65-66; F. Giles, *Op. Cit.*, P. 138-139; W. C. Hayes, *Op. Cit.*, P. 284-85.

أقاموا له تلك المباني الضخمة التي لم يستطع أى بلد أو أى عصر آخر أن يشيد ما يماثلها ، وهكذا أدت الاحداث الآتفة الذكر الى عودة آمون وكهنته الى سابقة عهدهم قبل عصر اخناتون ، بل لقد اصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت مضى ، ونقرأ عن روح الثماتة فى نص من عصر الرعامسة على لخاف بالمتحف البريطانى يهاجم اخناتون فى فقره منه تقول «أنت تصل الى من ينبغى عليك ، مدينتك تبقى ، ولكن من يهاجمك يهوى ، ان شمس من لا يعرفك (أى اخناتون) قد غربت يا آمون ، وأما من يعرفك فإنه يضىء ، ان بلاط من هاجمك فى ظلام، بينما الارض كلها فى نور» (٣٤) .

على ان السيادة المطلقة لم تصبح لآمون وحده ، وانما شاركه فيها رع وبتاح ، ومن ثم فقد أصبح الثلاثة (آمون ورع وبتاح) هم الالهة التى كانت تعبد بعد عصر اخناتون ، وان كانت طيبة ، مدينة آمون ، انما هى صاحبة المكان الاكثر قداسة ، وان لم تعد مقر الملك ، الذى نقل الى «بر — رعسيس» (تنتير) ، وان كان هذا لا يعنى ضياع مكانة الالهة الاخرى مثل حتحور وتحوت وأوزير وغيرهم ، وانما يعنى ان مكانة هذه الالهة قد تضاعفت كثيرا أمام آمون ورع وبتاح ، كما كان لآمون مكان الصدارة .

وما ان يمضى حين من الدهر حتى يظهر الاله ست ، كصاحب مكانة ممتازة فى الاسرة التاسعة عشر ، بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ومن ثم نرى الفراعين يقدرّون ست كثيرا ، حتى أن جيوش رعسيس الثانى لم تطلق عليها أسماء آمون ورع وبتاح ، وانما ست كذلك ، ومع ذلك ، فرغم أن كهانة آمون كان لها مكان الصدارة بين الكهانات الاخرى ، فلقد عمل الملوك على اضافتها ، ومن ثم فقد وزعوا مظاهر

34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 235, JEA, XL 11, 1957, P. 23, C. D. Noblecourt, Op. Cit., 185. J. H. Breasted, Op. Cit., P. 307; A. Erman, LAE, P. 370; Daumas, Op. Cit., P. 327.

عقيدتهم بين أرباب البلاد الكبرى ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملك سيتى الاول يقيم أجمل مباينه على الاطلاق فى أبيدوس ، قلعة أوزير ، وليس فى طيبة ، قلعة أمون هذا فضلا عن أن المعبد انما بمثابة مصلى وطنى فقد أقيمت الى جانب مصلى أوزير ، مصاريب منفصلة لزوجته ايزه وولدهما حور ، فضلا عن محاريب أخرى من نفس الحجم وبنفس الاهمية ، كرست للالهة الثلاثة الهامة فى المدين الرئيسية ، لامون اله طيبة ، ولبتاح اله منف ، ثم لرع حر أختى معبود هليوبوليس .

ولعل هذا كله انما يشير بوضوح الى عودة الوثنية وتعدد الآلهة ، من ناحية ، كما يشير كذلك الى أن سيتى الاول ، انما يحاول من ناحية أخرى ، أن يباعد بين كهان أمون وبين اعتقادهم أن الههم أمون ، هو الاله الاوحد والاكبر وانما جعله فقط واحدا بين الالهة الكبار ، وفى أحسن احوال كان أمون الاول بين أقرانه ، وما يهمنا هنا كثيرا انما هو عودة الوثنية ، وضياح عقيدة التوحيد شيئا فشيئا الى أن اختفت ، وعاد القوم مرة أخرى الى التعدد يطيلون فيه ويعيدون^(٣٥) .

(٣٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤١ - ٤١٨ ، أدولف أرماني : المرجع السابق ص ١٥٣ - ١٥٦ .
A. Gardiner, Op. Cit, P. 250.

الفصل الخامس

عقائد البعث والخلود

(١) فكرة البعث عند المصري القديم ومقوماتها :

كان المصريون القدامى من أوائل الامم : ان لم يكونوا أول أمه آمننت بالبعث والخلود بعد الموت في حياة قد لا تختلف في جوهرها عن حياتهم في العالم الحينوى ، وقد كان بناء الاهرامات وغيرها من العمائر الدينية الضخمة نتيجة سيطرة الدين على المصريين وأشره في حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان ولا يزال وسيظل — أكبر قوة تؤثر في حياة الانسان . كما انه كان منفذا للخيالات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة كان قد اعتقها القوم وكان لها أكبر الاثر في نفوسهم ، بل انه ، فيما يرى برستد ، لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلقت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها في نفس الشعب المصرى القديم^(١) .

وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا القوم عددا هائلا من المقابر والاهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا نجد الا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، بل ان العواصم الكبرى ، كمنف وطيبة ، قد اختلفت ولم تكد تترك من بعدها أثرا ، ولعل السبب في ذلك أن الاولى أبدية ، وأن الثانية وقتية .

وهناك ما يشير الى أن فكرة البعث والخلود انما قد بدأت قبل

1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939, p. 45.

التاريخ بالآلاف السنين ، ومن هنا رأينا أصحاب حضارات العصر الحجري الحديث يضعون شيئاً من القرايين لموتاهم ، ففى مرمدة بنى سلامة لا يضع القوم شيئاً من القرايين لموتاهم سوى حفنه من الحبوب ، توضع أحياناً على مقربة من أفواه الموتى ، اعتقاداً منهم بأن دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ، ويهيء لأرواحهم أن تشارك أهلها فيما يطعمونه ويشربونه فى دنياهم ، ولا تشارك مرمدة فى ذلك غير حلوان العمرى ، وأما بقية القرى المعاصرة فقد اعتاد أهلها دفن موتاهم خارج المساكن ، ومن ثم فقد ماهتموا بتقديم القرايين ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وإن كانت اكتشافات «ايفانجر» فى مرمدة عام ١٩٧٨ م تشير الى أن وجهة النظر هذه إنما تحتاج الى إعادة نظر ، خاصة وأن إحدى المقابر قد قدمت لنا ثلاثة أوان فخارية سليمة مع بعض الشقف ، وأياماً كان الامر ، فقد كان أهل مرمدة يحفنون موتاهم بين أكواخ الأحياء أو فى داخلها ، وكان الموتى يرقدون على الجانب الأيمن ، بحيث يتوجهون بوجوههم ناحية بيوتهم ، وإن حدثت حالات كان المتوفى يرقد فينأ على جانبه الأيسر ، وبشكل نادر جداً على الظهر (٢) .

وكانت مقابر حلوان العمرى فى القرية نفسها ، أو على مقربة منها ، وربما بعيداً عنها بعض الشيء ، وكان الموتى يوسدون فى وضع الجنين ، والى جانب الواحد منهم قرايين لا تعدو اثناء من الفخار ، وإن وجدت عند البعض الآخر باقة من الزهور عند صحر الميت ، على أن هناك حالات معدودة ، منها أن واحداً من الموتى وجد خلف رأسه صندوق من الصلصال ، وآخر بجانب يده صولجان ولعل الحالة الأخيرة ، ربما تشير الى وجود رئيس ، وبالتالي حاكم ومحكومين ، هذا فضلاً عن الإشارة الى الاعتقاد بتجهيز المنزل الأبدى بالادوات التى كان يستخدمها الميت فى حياته الأولى .

2) H. Junker, Merimade Benisalame, I, P. 194-195, II, P. 51, III, P. 72-74, IV, P. 77; J. Eiwanger, Sonderdruck aus den Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts Abteilung Kairo, 35, 1979, P. 26-28.

هذا الى أن جثث الموتى انما قد وضعت على جنبها الايسر ، واتجهت الرأس الى الغرب حيث تغرب الشمس ، وتبدأ دورتها في العالم السفلى ، ومن ثم فربما أراد القوم بذلك التقليد الدينى ربط أنفسهم بما يحيط بهم من ظواهر كونية معينة⁽³⁾ ، وإن ذهب «لشرفى» الى أن اتجهوا وجوه الموتى الى الغرب انما يرجع الى أن الصحراء الشرقية كانت مطروقة لدى القوم ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها والتى لم يعرف القوم لها حدودا كالأبدية التى لا حدود لها⁽⁴⁾ .

ومع ذلك فقد كان المتوفى فى جبانة نقادة ، وهى أكبر جبانات ما قبل التاريخ ، توضع رأسه جهة الشمال ، ووجهه نحو الشرق ، وعلى أى حال ، فإن القوم ظلوا دائما يتخيلون الغرب علما على مملكة الموتى ، وحتى اذا تطلب موقع مكان ما أن تقام جبانته على الشاطئ الشرقى من النيل ، فإن كتابات المقابر تتحدث رغم ذلك عن «الغرب الجميل»⁽⁵⁾ الذى بلغه المتوفى ، وهكذا أقيمت خلال آلاف السنين مقابر لا حصر لها على حافة الصحراء الغربية .

وكان أصحاب الحضارة التاسية يدفنون موتاهم ملفوفين فى حصير أو فى جلود الحيوانات ، ثم يضعونهم على الجانب الايسر ، على هيئة الانثناء ، بحيث تتجه الرأس نحو الجنوب ، والوجه نحو الغرب ، طبقا للعادة المصرية القديمة ، وكلفت جبانتهم بعيدة عن مساكن الأحياء⁽⁶⁾ . هذا وقد استمر القوم على أيام حضارة البدارى (من العصر الحجري النحاسى) فى العناية بالادوات التى توضع مع الميت ، ثم بدأوا عادتى جدينتين ، الواحدة وضع الميت على لوحة بسيطة ، والاخرى تبطين

3) F. De Bone, El-Omari, ASAE, 48, 1948, P. 567-568.

4) J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 16.

5) N. de G. Davies, The Rock Tombs of Sheikh-Said, London, 1951, P. 25.

6) G. Brunton, Mostagadda and the Tasian Culture, London, 1937, P. 5-7.

جوانب القبر بالحصير ، هذا فضلا عن أن القوم انما كانوا يضعون رؤوس موتاهم فوق وسائلهم ، ويحرصون على أن تكون وجوههم نحو الغرب ، وان وجدت حالات استثنائية قليلة اتجهت وجوه الموتى فيها نحو الشرق^(٧) .

وقد حاولت «مرجريت مري» أن تستنتج من ذلك نتيجتين تنطبق كل منهما على الوضعين السابقين ، استنتجت أن اتجاه الموتى نحو الغرب انما قصد به أن يستقبل روحه عندما تعود اليه من عالم الغرب ، وهو عالم الموتى في العقائد المصرية القديمة ، واستنتجت من الاتجاهات الاستثنائية المتجهة نحو الشرق أن أصحابها كانوا من غير البداريين ، من جماعات عبدت الشمس ، وحرصت على أن تتجه بوجوه موتاهم نحو شروقها^(٨) ، الامر الذي تكرر في حضارة جسرزة ، مما يوحي بإمكانية وجود عقيدة شمسية ، الامر الذي تؤكد حضارة ايونو (عين شمس) منذ وقت مبكر ، وهناك ما يؤكد تطور في عقائد البداريين ، وايمانهم باستمرار الحياة في العالم الآخر ، فلقد وجد في إحدى المقابر بقايا خشبية ربما كانت تتصل بتخزين ما يحتاج اليه الميت ، الامر الذي رأى فيه «برنتون» و «كاتون طمسون» دليلا على رغبة القوم في دفع أذى اشباح موتاهم عن طريق ارضائها بهذه القرابين ، بينما ذهب «يونكر» الى أن تزويد الاحياء للموتى انما كان عملا أساسه الحنان والتعاطف ، وأما «فاندييه» فالرأى عنده أن تقديم القرابين انما يعنى رغبة الاهل في استمرار الصلة بين الاحياء والموتى^(٩) .

هذا وقد عثر على بعض لفائف من الجلد أو القماش حول جسم المتوفى ، فضلا عن بعض تماثيل لبعض الحيوانات ، وخاصة فرس

7) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilisation London, 1928, P. 18-20.

8) M. A. Murry, JEA, 42, 1956, P. 89.

9) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 42; H. Junker, Op. P. 107.

النهر ، في قبورهم الى جانب تماثيل أخرى للنساء والطيور ، هذا فضلا عن دفن البداريين لبعض الحيوانات ، الامر الذى يتصل اتصالا وثيقا بربط تفكير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده بأن ظواهرها المختلفة انما تمر بنفس دورة الحياة والموت والخلود التى يمر بها الانسان (١٠) .

وهناك من حضارة العمرة (عصر ما قبل الاسرات) تماثيل من الفخار والماج تمثل رجالا مفعدة قضبانهم ، ونساء يسترن أعضاءهن كذلك ، وان كانت أغلب التماثيل للنساء ، ربما لان صناعها من الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الآخر ، شأنهم فى ذلك شأن كل فنان مبتدىء ، وربما لان عقائد ما بعد الموت قد تطلبتها ، كما تطلبتها منذ عصر حضارة البدارى ، كى ترمز الى الزوجات والجوارى اللاتى يتمنى المتوفى أن يكفلن له الخزارى فى حياته الاخرى ، وربما يرمزن الى الراقصات اللاتى يتمنهن لمتعته فى الاخرة ، ومن ثم فقد أظهر الفنان غلظ أفخاذهن وأسداثهن لتبدو مثيرة أو لترمز الى الرباط اللاتى يتمنى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث مرة ثانية (١١) .

هذا وكان لمجتمع المعادى حياته الروحية التى ظهرت بعض شعائرها على أوانيهم ، فصورة التمساح فى احدائها تشير الى أن عبادة التمساح التى عرفت فى مصر الفرعونية انما ترجع الى هذه الفترة ، كما أن دفن الاجنة فى أوان فخارية لكل منها ثقبان لكى تعود منها الروح الى الجسد ، انما تشير الى عقيدة البعث بعد المات ، تلك العقيدة التى كانت محور الحياة الروحية فى مصر القديمة ، وان كان هناك من يذهب الى أن تلك الفتحتين انما كانتا فى مقابل العينين ، فاذا افترضنا أن هذا

10) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 25-27.

11) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, II, Oxford, 1960, P. 70.

وأنظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢٨ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

انما قد حدث عمدا ، فانه يشير الى بداية تصور عينين على جانب التابوت ليطل المتوفى بهما على العالم الخارجى وعلى مقدمى القرايين ، الامر الذى حدث منذ انخريات الدولة القديمة ، وأياما كان الامر ، هلقم عثر فى جنبانة وادى دجاسة ، المجاورة للمعادى ، على مقابر زودت بمستلزمات المتوفى واحتياجاته فى العالم الاخر ، وخاصة الاوانى الفخارية والادوات الحجرية (١٢) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت ، والذي نشأ منذ تلك العصور المبكرة من تاريخ مصر الفرعونية ، انما كان يعضده كثيرا ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الانسانى بعد الموت من البلوى الى درجة لا تتوافر فى أية بقعة أخرى من العالم ، فلقد اعتادت أغلب أجيال القوم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم فى الحواف الصحراوية ، والغربية منها بخاصة لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الارض الطينية ، ويتركوا أرض الزراعة للزراعة ويوفروا أرض القرى لحياتها ، وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة .

وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها الى جفاف الصحراء وحده ، ولا الى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وانما رخواها أساسيا الى قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم اذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدموه ، زاد من رعايته لجثثهم وحفظها سليمة لأطول مدة ممكنة ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيلوه ربا للحواف الصحراوية وسماهوه «انبو» أو «أنوبيس» كما دعاه الاغارقة ، كان هو نفسه المعبود الذى تخيلوه راعيا لجثث موتاهم وقادرا على حفظها وحاميا للجبانات ، وقد انتشر الايمان به من طائفة

12) M. Amer and Rizkana, Excavations in Wadi Digla, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XV, Part, II, P.201-

الى أخرى حتى أصبح الجميع يتوجهون بدعواتهم الاخرى اليه ،
وقد اعتبروه ربا للتحنيط بارعا ورمزوا له بهيئة ابن آوى .

وكان النيل هو العنصر الثانى الذى كان سببا فى ايمان القوم بالبعث
والخلود فقد كان فيض النيل يأتى دائما فى مواعده ، فمما أن تقبل
شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتملأ الحقول بالمياه والمطمى
الجديد ، وكان النيل دائما يبر بوعده ولم يقصر فى مد تلك الحقول بما
يبحث فيها الحياة ، فكان انتظامه سببا فى غرس شعور الثقة فى نفوس
القوم ، وبث مولده المتكرر فى نفس المصري عقيدة راسخة ، انه فى
استطاعته هو الآخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية ، ولا يمكننا
أن ننكر أن كثيرا ما حدث أن النيل قد قصر فى مجيئه وهبط عن معدله
الطبيعى ، وحينئذ تكون الشدة التى قد تصل الى المجاعة ، ولكنه لم
يقصر أبدا الا لفترة محدودة ، كان يعود بعدها وقد حمل فى وطابه
الخير العميم ، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام فى موسم
لا يخلفه ، فيخصب التربة وينبت البذرة ، ويدفع دورة الحياة الزراعية
دفعة جديدة ، وسرعان ما تتابع الدورات الى ما لا نهاية ، وقد وجد
القوم أن ذلك انما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التى تغطيها المياه
ثم سرعان ما تنحصر عنها فتتحيا وتزدهر ، ثم تعود فتغرقها (أى
تميتها) من جديد ، ثم سرعان ما يتكرر الامر كله مرة ثانية .

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائيا من غير علة أو
غاية ، وانما آمنوا معها برب كريم يدفع الفيضان من باطن الارض ،
ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد
الموت كلما مسها بفيضه ورحمته ، ومع طول التدبر ونمو التدين قدروا
أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها ، قادر من
غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم ، طالما أحبهم ، وطالما
تقربوا اليه وقدموه ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر
منهم ربا للفيضان والخصب والزرع وقد سموه باسم «أوزير» ، كان
هو نفس المعبود الذى نسبوا اليه ربوية البعث والأخرة ، وجعلوا

مملكته تحت الارض ، وامتد تقديسهم له في طول البلاد وعرضها ، وأحاطوه بأساطير وتخييلات ، وهو غير حصبي^(١٣) .

وكانت الشمس هي العنصر الثالث الذي ألهم المصري القديم عقيدة البعث والخلود ، فلقد رأى القوم ، كما رأت شعوب أخرى ، ذلك الكوكب العظيم الذي يغرب يوميا في الغرب ، ويعود الى الشروق من الشرق ، ولكنهم رأوا كذلك ما لشمسهم من تأثير خاص في حياتهم بسبب وضوحها في سماء مصر الصحو ، وبسبب الوفاق والانسجام بين مواسم حرارتها وبين مظاهر الطبيعة الأخرى ، وعلى رأسها النيل ، وأثر ذلك كله في بذر المحاصيل وجنيها ، فضلا عن ارتباط شروقها بيقظة الكائنات بعد النوم ، وبالحركة بعد الخمول ، والرؤية بعد قلة الرؤية ، فلم يردوا ذلك الى عملية آلية لا روح فيها ولا هدف لها ، وإنما ردوه الى رب قادر (هو رع) اتخذ الشمس آيته الكبرى لنفع الأحياء في الدنيا ، ثم رأوا أن هذا الرب الذي يسير الشمس لمنفعتهم في الدنيا ، قادر على أن يوجهها لمنفعتهم في الآخرة ، بعد أن تتجه الى الأفق الغربي حيث توجد أغلب مدافنهم ، فينزل فيه الى ما تحت الأرض ، وتضيء ظلمة القبور ، وتنير مسالك العالم السفلي ، وتخليلوا للرب من أجله هاتين الغائتين مركبا يعبر بها سماء الأحياء في النهار ، دعوها «منعجت» (منعجة) ، ومركبا يعبر بها سماء الموتى في الليل ، دعوها «مسكت» (مسكئة) ، وله في هذه الآخرة مسار معلوم تحدثت عنه كتب الموتى في كل ساعة من ساعات الليل الاثنى عشر^(١٤) .

(٥) مقومات الانسان عند المصري القديم

كان المصريون القدماء يعتقدون أن الانسان انما يتكون من جسد

(١٣) عبد العزيز صالح - الشرق الأدنى القديم - الجزء الاول -
مصر والعراق ص ٣١٥ .
(١٤) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

وروح^(١٥) ، وأن الجسد مصيره الى القبر بعد الموت ، وأما الروح فمصيرها الى السماء ، وكما جاء في نصوص الاهرام «ان الروح انما تذهب الى السماء ، بينما يتبقى الجسد في الارض» ، ومن ثم فقد اعتقدوا أن هناك — بجانب الجسد المادى (خت) — روحا نورانية شفافة هي «الآخ» تذهب الى السماء وتبقى فيها الى الابد مع الاله أوزير ، وأن هناك روحا أخرى هي «الكا» أى القرين تبقى بجوار الجسد في مقبرته ، وفيما حوله على الارض ، وأن القرابين انما تقدم اليها ، وهي في نظر القوم ، الملاك الحارس للانسان أو التى كان المرء يستقبلها عند مولده بأمر من الاله رع ، وكانوا يعتقدون أنه ما دامت هذه «الكا» معه، وما دام هو رب الكا ، وأنه يغذو منها ، فهي حي يزرق ، ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا ، فالمعتقد انها تشبه صاحبها تماما .

وهناك روح ثالثة هي «الباء» ، والتي يمكن تسميتها بالروح الابدية ، وهي اذ كانت تترك الجسد وتتفقت منه عند الموت ، فقد تخيلوها في أشكال مختلفة ، فهي أحيانا كطير ، ومن ثم فمن المحتمل ،

(١٥) افترض المصريون للانسان مقومات عدة طبيعية ومكتسبة ، أهمها سبعة وهي : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك (آب) ، وطاقة أو فاعلية أو نفس فاعلة (كا) ، واسم معنوى (رن) ، وظل ملازم (شرت) ، وروح خالده تسرى في الظاهر والباطن (با) ونورانية شفافة (آخ) وتشتد صلته بالائنين الاخيرين منها بعد وفاته ، اذا كان صالحا ، واعتقدوا أنه لابقاء للمرء في أخراه الا باجتماع كل هذه المقومات ، وأنه لا سعادة لها في جملتها دون مساعدة خارجية ، ولهذا تلمسوا سبل الاهتمام بكل واحدة منها على حدة الى جانب الاهتمام بها جميعا كوحدة واحدة ، فالجسد ينبغي أن يصاب ويحفظ ، والقلب يحفظ ويرتجى ، والكا تنلى التراتيل باسمها وتقدم القرابين لصاحبها ، والروح تنتقل في عوالم الارض والسماء ، ما دامت مؤمنة ، ونورانية تكتسب بصلاح الاعمال ، والاسم يخلد عن طريق ترديده في الدعوات ، وتكرارة في نقوش المقبرة ، وقرنه بالسمعة الطيبة عن طريق جهود الابن الأكبر (عبد العزيز صالح : مداخل الروح وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة من ٩٥ - ١٣٦) (مجلة كلية الاداب - جامعة القاهرة - ١٩٦٤) ، (الشرق الاوسط القديم - الجزء الاول ص ٣١٤ .

فيما يرى القوم ، أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التي في أشكال مختلفة ، فهي أحيانا كطير بين طيور الاشجار التي غرسها بنفسه ، وقد تكون في هيئة زهرة اللوتس أو في هيئة شعبان يندفع من حجره أو في هيئة تمساح يزحف من الماء الى الارض ، هذا وكان القوم يعتقدون أن الباء تلحق بموكب الشمس في رحلتى الليل والنهار ، وأنها تزور الجسد في رحلة النهار ، وأن كلا من الباء والكاء مرتبط بقاؤهما وخلودهما ببقاء الجسد وخلوده ، كما أنهما تغنيان بفناء الجسد وفساده ، ولعل هذا السبب في اهتمام القوم بتحنيط أجساد موتاهم حتى تحتفظ بملامحها الى كانت لها في الحياة الدنيا — الامر الذي ناقشناه بالتفصيل في الجزء الرابع من هذه السلسلة (الحضارة المصرية القديمة — الاداب والسلوم — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٤١ — ٤٥٥) .

— (٣) عالم الموتى :

تجددت آراء المتفكرين من القوم في تحديدهم لعالم الموتى ، فتخيل بعضهم في جوف الارض ، حيث كان يدفن الموتى ، وحيث يحكم من يحيى التربة والبزرة وينبت الزرع ويدفع الفيضان ويرعى المكودين وهو «أوزير» ، وتوهمه بعض آخر في الغرب على الاطلاق ، حيث توجد أغلب مقابر القوم ، وحيث تغرب الشمس ، وحيث يمتد البصر الى ما لا نهاية في الصحراء الغربية غير ذات الحدود المرئية ، بالنسبة لمعارف عصرهم ، ومن هنا كان اتجاه أغلب الموتى المصريين الى الغرب ، ذلك لان الصحراء انما كانت مطروقة ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس الصحراء الغربية التي تغرب الشمس في اتجاهها ، والتي لم يعرّف القوم لها حدودا كالأبدية التي لا حدود لها^(١٦) ، ومن ثم فقد أطلقوا القوم على عالم الموتى اسم «عالم الغرب» ، كما كان الموتى يسمون «أهل الغرب» .

على أن هناك فريقا ثالثا ذهب الى أن عالم الموتى انما كان في

(١٦) J. Cerny, Op. Cit., P. 16.

السماء ، حيث الرفيق الاعلى ، وحيث مسيرة الشمس في النهار ، وحيث النجوم التي تتلألأ بغير حصر في الليل ولا تريم ولا تنفى ، وقصروا هذا الامل في السمو الروحي والمكان في بدايه امرهم على الحكام الذين كبر عليهم أن تؤول أبدانهم وتتولى ارواحهم الى عالم المتراب ، كما تؤول بقيه الأبدان والارواح ، فتوهموا موتهم صمودا الى السماء ، وحياة بين النجوم ، ومصاحبه لكوكب الشمس حيثما دار : ومن ثم فقد رأينا النصوص انما تصف موت «أممحات الاول» وكأنه قد صعد الى السماء ، واتحد مع الاله ، حيث تقول : «صعد الاله الى السماء وأصبح متحدا مع قرص الشمس ، واندمجت أعضاء الاله (أى الملك) بمن خلقه» ، كما جاء في نصوص الاهرام أن الملك قد يتمثل في شكل «ذلك النجم الوحيد الذى يشرق في الجانب الشرقى من السماء ، والذي يجوب السماء في صحبة نجمة الصبح والجبار والشعري اليمانية» (١٧) ،

هذا وقد تصور المقوم أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها ، أن يتخذ بعد موته شخصية اله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الالهة ، أو يتلقاه اله الشمس لقاء حسنا ، ويهيء له مكانا في سفينته أو يتخذه كاتبها له يجلس أمامه أو الى جانبه ، ومن ثم يجوب واياه السماء في النهار ، كما يجوبها في الليل مع اله القمر تحوت ، وقد جاء في متون الاهرام أن الملك المتوفى ليس انسانا ، وأن «آباءه ليس من البشر ، وامهاته لسن من الناس وانما هو تحوت أقوى الالهة ، أو هو شو بن رع ، الذى يحمل السماء ويتزعم الارض ويقضى بين الالهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بطية رع ، وعليه نقبته كحاتحور ، انه يخذو الى السماء فيجد رع واقفا فيجلس الى جانبه ، ولا يسمح له رع بأن يرتقى على الارض ، لانه يعلم حقا أنه أعظم منه» ، كما يعلم أن هذا المجد لا يفنى ، انه ومن ثم يبعث الرسل من

17) A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, 1964, P. 217.

A. M. Blakman, BA, II, 1932, P. 1-41.

G. Foucart, BIFAO, 14, P. 131.

الملائكة ليعلنوا الى سكان السماء ، انه قد ظهر لهم ملك جديد ، انه
مجد لا يفنى ، اذا شاء لكم الموت فانكم تموتون ، واذا شاء لكم
الحياة فانكم تعيشون» •

هذا وقد تصور القوم أن الملك يدخل السماء «حقل الآسل» (يارو)
أو «مقر المجددين» ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير الى
تارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته ، ويقضى
بينها على نحو ما كان يفعل في الارض ، ومن ثم فلم يكن دخول جنة
الآسل مقصورا لى الملك وحده ، وانما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته
والابرار من شعبه •

هذا ولم يقدر لاحد هذه الاراء أن يسود على غيره ويحل مكانه ،
وانما تقاربت من بعضها البعض ، وربما حدث تنافر قصير فيما بين
أنصار عالم السماء وربّه رع ، وبين أنصار عالم ماتحت الارض وربّه
أوزير ، ولكنه سرعان ما لبث أن زال ، وأدت ايحاءات السياسة ومرونة
الدين الى التوفيق بين المذهبين عن طريق موازنة امتداد نفوذ رع رب
الشمس الى أسفل الارض حيث يهبط كوكبه فيه ليستضيء الموتى
بنوره ، مع افتراض نفوذ مماثل لرب العالم السفلى أوزير في السماء
غيرعى الابرار الذين ترفعهم أعمالهم اليها ، والذي اتسع مدلوله (أى
مدلول الابرار أهل السماء) فشمّل الصالحين جميعا ، ولم يعد مقصورا
على الفراعين والحكام وحدهم (١٨) •

(٤) الحج الى أبيدوس :

اكتسبت أبيدوس (ابجو) نصيبا من القداسة لوجود معبد «خنثى

(١٨) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٣٧ - ٢٤٢ ، عبد
العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٦ ، محمد أنور شكرى وآخرون :
حضارة مصر والشرق القديم ص ٩٦ ،
Urk., IV, P. 34 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217; A. M. Blackman, EA,
II, 1932, P. 1-14.

امنتى» أمام الغربيين أو الغرب (عالم الموتى) على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها ، وزادت قداستها بعد بدية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لمضريح معبودهم أوزير ، ذلك أن القوم قد ظنوا منذ الاسرة الثمانية عشرة أن مقبرة الملك «جر» من الاسرة الاولى هى مقبرة أوزير ، وذلك عندما قرأوا اسم «جر» على أنه «خنت» ثم خلطوا بين هذا الاسم واسم المعبود «خنتى امنتى» . ولما شبهوا أوزير بالمعبود خنتى امنتى ، اعتبروه قبرا له ، وأضافت نصوصهم أن روح أوزير تعيش فى جميلة غناء بأرض بكر على شاطئ النيل قرب أبيدوس ، ثم سرعان ما تضخمت قداسة أبيدوس بمرور الاجيال ، حتى اعتبرت دارا للحج والزيارة ، ربما منذ أيام الدولة القديمة .

هذا وقد أصبحت منذ الاسرة السادسة عشرة ، وربما منذ نهاية الدولة القديمة ، أعز أمنية لكل مصرى تقى أن يدفن فى أبيدوس ، ومن ثم فقد دفنت هناك منذ الاسرة السادسة طوائف من الناس لا حصر لها من جميع أنحاء البلاد بغية أن يكونوا أكثر قربا من الاله «حتى يتقبلوا هدايا البخور والقرايين الالهية على مائدة سيد الالهة ، وحتى يقول لهم عظماء أبيدوس «مرحبا» ، وحتى ينالوا مكانا فى قرب «نشمت» فى «الاعياد الجنازية» فإذا كان الدفن فى أبيدوس من المصعوبة بمكان ، فقد كان الواحد منهم يتمنى ، على الاقل ، أن يزور الاله أوزير فى أبيدوس ، وأن يقيم فيها حجرا «عند درج الاله العظيم» وأن «ينقش اسمه فى مقر إقامة الاله» حتى يضمن لنفسه مكانا بين الممتازين من الموتى ، وحتى تستطيع روحه أن تشارك فى أعياد أوزير ، ويستقبل معه السفينة الالهية التى ينتقل فيها ، وحتى اذا ما وصل فى سلام الى أبيدوس لخدمة «أوزير ونفرى» حيا الاله قائلا «السلام عليك أيها الاله العظيم ، يا سيد تاور ، العظيم فى أبيدوس ، لقد أتيت اليك ياسيدى فى سلام ، فكن بى عطوفا ، فأنت صاحب العطف ، واستمع لندائى ولب ما أقوله ، فانى واحد من عابديك» .

وربما أصابت الجثة من قرايين أوزير فأخذت منها كفايتها ، ذلك لان المتوفى «عندما يقفل راجعا من أبيدوس بسلام» فانما يفخر بأنه أصاب هناك قربانا من الخبز «واستنشق عبير المر والبخو» ، وأما من كان لا يريد أن يدفن في أبيدوس لسبب من الاسباب ، فانه كان يقيم هناك في المدينة المقدسة لوحا تذكريا على الاقل ، وهناك ما يشير الى أن كثيرا من أبناء الطبقة الوسطى من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية على أيام سنوسرت الثالث قد استغلوا ثرواتهم في أقامة لوحات بأسمائهم ، وكذا تماثيل صغيرة أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير في أبيدوس (١٩) .

هذا وتدل مجموعة الآثار المنتشرة في أنحاء العالم الى انتشار هذه العادة ذلك لان أغلب الشواهد والنصب التذكارية الصغرى من أيام الدولة الوسطى انما قد وجدت في أبيدوس ، ويروى الكثيرون من زوار المدينة المقدسة أن أعمالهم قد أفضت بهم اليها ، على أن آخرين انما زاروها حجاجا ، ولكن غيرهم لم يكتب لهم ذلك الا بعد موتهم ، وهناك في مقبرة «خنوم حتب» في بنى حسن ما يشير الى أن الرجل قد صعد في النيل «ليتعرف شئون أبيدوس» ، ثم نرى بعد ذلك جثته تحت مظلة على السفينة والى جانبها الكاهن «سم» وال «خرجت» لا يفادرانها طوال الرحلة ، وهناك في أبيدوس يقدم «خنوم حتب» الى اله الموتى وكأنه فرد جديد في رعيته ، ثم يشترك في حفلات أعياده ، فيرى «ذلك الذى يخطر فى جماله مثل وب واوات» ثم «كيف يبرر أوزير أمام الالهة التسعة» ، ثم يعود الى موطنه تصحبه نساؤه وأبنائه ، حيث يدفن في مقبرته في صخور بنى حسن .

هذا وقد ظل الاعتقاد فى الدولة الحديثة فى أن الميت انما يحظى

(١٩) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المراجع السابق ص ٣٤١ - ٣٤٢
L. Klebs, Die Reliefs des alten Reiches, 1915, II, P. 5. F; J.J. Taylor and F. L. Griffith, Tomb of Pahari, London, 1895, Pl. 5; J. Vercoutter and others, the Near East; the Early Civilizations, 1967, P. 374.

ببركة خاصة اذا ما انضم الى أوزير في أبيدوس ، وان كان القوم كانوا يودون دائما أن يدفن الواحد منهم في موطنه الاصلى ، ومن ثم كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية ، أو حتى مقبرة تذكارية ، في أبيدوس ، ومن ثم فقد بنى أحمس لجده «تتى شيرى» التى دفنت في طيبة مثل هذه المقبرة الرمزية في أبيدوس هذا وقد عثر «بترى» على لوحه في أبيدوس يوصف فيها أحمس وكأنه يجلس الى زوجته «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما ، فقد قالت له أختي (بمعنى زوجته) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا فى قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلاً : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى، زوجة الملك العظمى ، وأم الملك تتى شيرى المتوفاة ، أن لها اليوم غرفة دفن وضريحاً فوق أرض المقاطعة الطيبية ومقاطعة أبيدوس ، ولكنى أقول لك ذلك لان جلالتي انتوى أن يصنع لها هرما ومحراباً فى الاراضى المقدسة ، على مقربة من أثر جلالتي ، هكذا قال جلالته ، ووضعت هذه الامور موضع التنفيذ (٢٠) .

(٥) القرابين :

كان المصريون القدامى يعتقدون أن «لكا» المتوفى لا تضم الى قبره الا اذا أمده الاحياء بالقرابين المخطفة كالخبز واللفطائر والحلوى واللحوم والفاكهة والجعة والملابس والزيوت العطرية وغير ذلك مما كان يستمتع به الاحياء فى تلك العصور الخالية ، وكان من الطبيعى أن يقوم بهذا العبء ولد المتوفى الاكبر ، الامر الذى يرجعه البعض الى أسطورة أوزير التى تمثل بر الابن (حور) بأبيه أوزير ، ثم سرعان ما أصبح هذا البر بالوالدين مثلاً يحتذى فى كل الامور التى تدل على انسانية رفيعة ، ومن هنا هاننا فقرأ كثيراً فى النصوص المصرية «لكما أن حور قد قرب عينه لوالده أوزير ، فكذاك يقرب الابن لابيه قربانا ، موحداً بعين حور» .

20) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 14-16, A. H. Gradiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 172.

وهكذا كان قيام الابن الاكبر بتقديم القرابين لابيهِ المتوفى انما كان يعد المثل الاعلى في البر والاحسان بالوالد ، ومن ناحية أخرى فان الابن الاكبر ان أهمل في أداء هذا الواجب ، فان أُوخم العواقب تصيب أباه في آخرته ، ومن ثم فقد كان من الواجب عندئذ أن يقوم بهذا الواجب قوم يتخذون من هذه الصناعة حرفة يرتزقون منها ، وهكذا نشأت طبقة الكهنة الجنازيين ، وأدى ذلك الى أن توقف عليها الاوقاف للصرف منها على مستلزماتها وعلى الكهنة الذين يقومون بخدمتها ويؤدون لها الشعائر الدينية .

هذا وتشير شواهد الاحوال على أن الملك انما قد اشترك اشتراكاً فعلياً في تقديم القرابين للمتوفى منذ عهد قديم ، وليس هناك أدل على ذلك من صيغة القرابين المشهورة والتي تبدأ دائماً بكلمات «قربان يقدمه الفرعون لفلاح» مما يشير الى أن الفرعون انما كان هو المتصرف الاعظم في أمور القرابين ، بوصفه المالك لكل شيء في مصر ، وان كان ذلك لا يخلو سبيل ابن المتوفى من القيام بواجباته نحو أبيه ، ومن ثم فهو الوسيط بين الملك والمتوفى .

هذا وقد كان الملوك يوقفون ضياعاً كبيرة على ما أقاموا من أهرامات ومعابد حتى يتمكن الكهنة من تقديم القرابين الى الابد ، ومن هنا استمرت عبادة بعض الملوك الى الاف السنين ، حتى استمرت عبادة ملوك من أمثال سنفيرو وخوفو وخفرع حتى العهد البطلمي ، وكانت تلك الاوقاف تبلغ أحياناً قدراً كبيراً من المال ، ففي القرن التاسع والعشرين ق م أوقف على قبر الامير «نكاورع» بن «خفرع» ما لا يقل عن اثني عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة ، وقد أوقف كل دخلها على صيانة قبره (٣٣) ، وفي الاسرة السادسة أصدر «ببي الاول» أمراً ملكياً

(٣١) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٦٥ وكذا J. H. Breasted, A, History of Egypt, 1946, P. 60.

نيابه عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتي هرمة ، جاء غيه «أمر جلالتي بأن تعفى هاتان المدينتان الى الابد من أداء أى عمل للقصر الملكى ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر الملكى الى الابد ، ومن أية سفرة يأمر بها أى انسان» (٢٢) .

هذا فضلا عن أن أمراء الاقاليم انما قد نحتوا قبورهم فى صخور اقاليمهم ، وخاصة فى مصر العليا والوسطى ، وقد كلف ذلك خزانة الدولة الكثير من المال ، ذلك لان الملك انما كان منذ بداية العصور التاريخية قطب الحياة المصرية وعمادها ، ومن ثم فقد كان ينفق على عظماء رجاله جزءا كبيرا مما يحتاجون اليه فى تجهيز قبورهم والانفاق عليها بعد ذلك ، وهكذا رأينا مدير قصر الملك «وسر كاف» يمين ثمانية من الكهنة الجنائزين لخدمة قبره ، ويكافىء الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول اليه دخلا من الخبز والزيت كان يصرف من قبل على قبر الملكة «نفرحتب» ، ولعل الذى دفعه الى ذلك انما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة الى أخرى حديثة العهد (٢٣) .

وفى عهد الاسرة الثانية عشر أعد «حعبى زفاى» حاكم كرمه بالسودان من قبل الملك «سنوسرت الاول» مقبرة فخمة فى موطنه الاصلى بأسسيوط ، وتتكون من سبع حجرات ، ويبلغ عمقها ٤٥ قدما ، وتشتهر بنقوشها التى توضح تفاصيل الاعمال والطقوس الكهنونية التى كان يريد «حعبى زفاى» أن يقوم الكهنة بها بعد موته ، وقد أوقف عليها الكثير من الاراضى والعبيد والمائتية ، ولكن الاقدار لم تكتب له أن يدفن فيها ، وانما دفن فى كرما ، تمت ركمة من التراب ، يحيط بها حوش دائرى ضخمة مبنى من الطوب ، قطره ٢٧٥ قدما ، وعلى

22) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 99.

23) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 61-62.

طريقة الذوبيين ، هذا وقد امتازت مقبرة أسيوط بتلك العقود الجنازية التى كانت أشبه باتفاق تجارى بين «حعبى زغاي» وبين الكهنة ، وهى عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على مقبرته ، وتهدف الى أقامة الاحتمالات الدينية فى المعبد على مر الايام (٢٢) .

وقد استخلص الباحثون منها معلومات هامة عن الاعياد المصرية التى كانت تقام فى أسيوط فى الاسرة الثانية عشرة ، فضلا عن الاحتفالات الجنازية التى كانت تقام للأفراد ، والمرتبطة بالاعياد العامة ، وقد أتضح منها أنه ما كان يمر يوم دون أن يقدم الطعام والشراب لقرين حعبى زغاي ، كما أنها تقدم لنا صورة واضحة عن أهمية تمثال المتوفى فى الشعائر الجنازية ، وذلك بسبب علاقة التمثال المباشرة بالقرين (كا) فهو يمثل المتوفى ، واليه تقدم القرابين ، كما أن المتوفى ليس فى استطاعته أن يشترك فى هذه القرابين الا فيما بعد ، أى عند خروجه من القبر نهارا ، ومن ثم نرى بعد ذلك أن صيغة القرين ، كما نفهمها فى عهد الدولة الوسطى تجعل حعبى زغاي يأكل من الطعام الذى كان يقدم كل يوم للاله المحلى «وب واوات» ، ومن ثم فقد كان على كاهن محراب هذا الاله أن يحمل وجبه يومية الى قبر حعبى زغاي أمام التمثال ، كان يزداد مقدارها فى أيام الاعياد بنسبة زيادة القرابين الالهية نفسها .

هذا وكان تمثال المتوفى يحمل فى موكب الى معبد الاله المحلى الرئيسى ، حيث يقدم له الكاهن نصيبه من القرابين ، ذلك لان اشتراك المتوفى فى أخذ نصيب من القرابين الالهية انما كان فى نظر العنصر الرئيسى فى الشعائر الجنازية ، كما كان وضع تمثال الواحد منهم فى معبد الاله المحلى أو وضع تذكاره فى محاريب الدولة الكبرى ميزة يحسد عليها ، وليس هناك من ريب فى أن كل ما كان يخص الشعائر الجنازية انما كان من الامور الحيوية ، ومن هنا وضع حعبى زغاي

(٢٤) انظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ٤٠١ ،

شروطه العشرة ، والتي كان منها مثلا «انارة الضوء» الذي كان يحدث في بعض الاحتفالات ، فأوجب على الكهنة الذين كانوا يلاحظون المصابيح في المعابد أن يقدموا الذبالات لهذه الانارة بانتظام .

وبدهى أن الكهنة الذين عقد معهم حمى زفاى عقوده لم يكونوا يعملون بدون أجر ، ومن ثم فقد كافأهم على ما كانوا يقدمونه له من قربانين ، وذلك بالتنازل لهم عن أجزاء من أراضيه أو بالتخلي لهم عن أمور أخرى ، ذلك ن الرجل انما كان بحكم مولده ينتمى الى هيئة كهنوت الاله «وب واوات» ، وبالتالي فقد كان له نصيب من مقررات معبد هذا الاله ، وربما قد تنازل لهم عن جزء من نصيبه ونصيب ورثته من هذه المقررات ، هذا فضلا عن أنه قد ترك وقفا من الاراضى والخدم والمائسية والحدائق وغيرها للقيام بالطقوس الجنازية الخاصة به ، ولعل هذا هو السبب في أنه قد نقش عقودة العشرة على جدران مقبرته في ستين سطرا ، ربما بوحي من الكاهن الذي نقشت من أجله أكثر تلك العقود .

ولعل من الاهمية الاشارة الى أنه كان هناك في هذا العصر ثمة قواعد ثابتة وراقية لتحرير العقود ، منها أن سلطان أمير الاقليم في الوصية والهة مقيدة محصورة ، فهو يؤكد المرة تلو الاخرى أنه لا يستطيع أن يتصرف الا في هذا الجزء من أملاكه وموارده التى تعد حقا وراثيا في عائلته ، فبوصفه كبير كهنة في معبده كان من حقه قطعة سواء من لحم العجول المضطاه في المعبد ، كان يريد أن يقدم قربانا لتمثاله في أيام الاحتفالات الكبرى ، ومع ذلك لم يستطع أن يقرر ذلك بنفسه ، ومن ثم فان عليه بوصفه فردا عاديا أن يبرم عقدا مع نفسه ككاهن أعظم ، وأن تقر هيئة الكهانة هذا العقد الذى يشتري بمقتضاه قطعة سواء اللحم الأنفة الذكر ، هذا فضلا عن أن حمى زفاى عندما أراد أن يضمن عدم تقسيم قربانيه التى أوقفها على مقبرته بين أبناء كاهنه الجنازى بعد وفاة هذا الكاهن طبقا لنظام الوراثة المعمول به في هذه الوظيفة ، فقد اشترط على الكاهن الجنازى أن تكون هبة الاراضى

والخدم والقطعان والحدائق وغيرها لأحب أبنائه إليه ، والذي سوف يكون كاهنا جنازيا لحبى زفاى بعد وفاة أبيه ، ولا يسمح لهذا الابن بدوره أن يقسمها بين أبنائه (٢٥) .

ومن أسف أن تلك الشروط وغيرها مما وضع للحفاظ على قرابين الموتى لم تراعى بدقة ، ومن ثم فإن كثيرا ما تخاطب كتابات المقابر زوارها فى مستقبل الايام ، بعد أن شاع نكران الانسان للجميل حتى مع أقرب الناس إليه ، وهكذا رأينا أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحق فى احترام الخلف له ، لأنه كان رجلا طيبا «لم يأت سوء ضد أى انسان» ، وأنه «ابتنى مقبرته هذه من مواد جديدة ، ولم يأخذ لها شيئا من ممتلكات انسان آخر» ، ويقول لنا آخر «أن ما يقدم له انما هو ملكه الخاص» و «أن ماشيته الخاصة تدبح له فى قبره الذى بناه بيده» ، ويقول ثالث «أن كل من يدخلون هذه المقبرة ، ويرون ما فيها ويصونون كتابتها ... سيصبحون فى مدفنهم ، رجالا محترمين فى أقاليمهم ، ولكن الويل لمن يثلف المقبرة ، ان المتوفى سوف يدعوه أمام المحكمة ، وهو وان لم يستطع ذلك على أية محكمة فى الارض ، فهو يستطيع أن يحاكمه أمام الاله العظيم الذى يقيم عنده» .

وهكذا كان الناس يستعينون بالسمااء وقت ذاك حين كانت العدالة فى الارض لا تحقق على الوجه الاكمل ، ومن البدهى أن ما فعله الملك «ساحورع» ، كما رأينا من قبل ، عندما أراد أن يسر قلب موظف القصر المعجوز «برسن» بهبة خالدة ، وذلك بالاستيلاء على وقف قديم ، والانتفاع به فى المطالب الجنازية الجديدة ، لدليل على أن اللعنات والاقواق الثابتة لم تق المقابر المصرية من المصير المحتوم ، ذلك

(٢٥) ادولف وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ١٤٩ - ١٥٢ .

A. Weigall, Op. Cit., P. 73; G. A. Reisner, JEA, 5, 1918, P. 79-98; J. H. Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, P. 259; ARE, I, P. 258-260; P. Montet, Kemi, I, P. 53; F. Griffith, the Inscription of Sîut and Der Refeh, I, Pl. J. A. Wilson Op. Cit., P. 130-140.

لانه ما كان في مقدرة الشعوب ، حتى أغناها ، من أن تتحمل دائما وأبدا ما تقتضيه الرعاية المتصلة لموتاهم من تكاليف باهظة، ومن ثم ففعل الذي دفع ساحورع الى أن يخصص لمقبرة «بوسن» دخلا من الخبز والزيت كان يصرف من قبل من معبد بتاح الى مقبرة الملكية «نفروحتب» ، انما هو الرغبة في التخلص من الالتزامات الثقيلة التي نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، مما أدى في نهاية الامر الى أن تغلق كثير من المقابر القديمة وتترك لأشائها (٢٦) .

وتمضى القرون ويزداد اهمال شأن المقابر حتى ينتهي أمر الكثير منها الى الخراب ، ويمحى اسم صاحب المقبرة من بعضها ، ويثبت مكانة اسم مالك جديد ، وهكذا رأينا الكثير من القوابيت والتماثيل وغيرها من الاثاث الجنائز انما يحمل آثار هذا الاستخدام المزدوج ، وربما كان الاسوأ من ذلك هدم بعض المقابر واستخدام أحجارها مادة سهلة للبناء ، وبمرور الزمن تضيع معالمها ، وتحمل اليها الرياح رمال الصحراء التي سرعان ما تتجمع وتعلو شيئا فشيئا حتى تكون آخر الامر مستوى جديدا ، يقيم عليه جيل متأخر مقابر جديدة ، وهكذا توجد في سقارة فوق المقابر الخربة من عهد الملك تتي ، من الاسرة السادسة . وغير بعيد من هرمه ، مقابر أخرى من الدولة الحديثة ، تعلوها مقابر أخرى أقيمت في العصر اليوناني ، وقد خربت هذه المقابر جميعا ونهبت ، وقد أثارت هذه المناظر حكماء عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى رأينا في ذلك الحوار الفلسفي بين «نسو وروحه» (٢٧) شكاً في فكرة الخلود نفسها ، فهؤلاء الذين بنوا لانفسهم مقابر فخمة انما هم الذين

(٢٦) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

F. L. Griffith, Op. Cit., P. 225 J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 61-62.

(٢٧) انظر : محمد بيومي مهران : الاداب والعلوم ص ٢١٩ - ٢٢٠ ،

R. O. Faulkner, JEA, 42, P. 21-40.

A. Erman, LAE, P. 86-92.

R. Weill, BIFAO, 45, P. 89-154.

وكذا
وكذا

لم يبنونها سواء ، فالكل تحت حرارة الشمس ، والكل تعتقد معه الاسماك الاحاديث ، يقول نسو «ان من شادوا مقاصير القرايين بالجرانيت ، وخصصوا لانفسهم قاعات في الهرم ما غدوا أربابا في السماء حتى أصبحت موائد قرايينهم خاوية ، وأصبح شأنهم شأن المكدودين الذي قُضوا على ضفاف القنوات ، وقد أعوزهم الموريث ، نال الفيض مقصده منهم ، وقيظ الشمس نصيبا ، وجلست الاسمال اليهم تعتقد معهم الاحاديث على الضفتين» ، على أن هذا الشك لم يستمر طويلا ، ومن ثم فقد رأينا كثيرا ما يشعر أحد الاحفاد الاتقياء بأن واجبه انما يقضى إقامة هذه المقابر المهدمة ، وهكذا رأينا «أنثف» أمير أرمنت من عهد الدولة الوسطى يفاخر بقوله «لقد وجدت غرفة قربان الأمير «نختى - اقر» مهدمة وتمائيلها مهشمة ، ولم يكن هناك من يهتم بها ، فشيدتها من جديد ، وزعت في رقعتها ، وصنعت تماثيلها من جديد ، وأقمت أبوابها من الحجر وذلك لكى يسمو مقره بين الامراء العظام الآخـرين» .

وفي الواقع أن ما فعله انتف انما يعد واجبا دينيا ، فلقد كان القوم يسمون مقابرهم «مسلكن أبدية» ، ويحبون أن يقولوا عن موتاهم انهم ذهبوا الى مكانهم الابدى أى الى جبانتهم ، ويبدو أنهم فهموا أن هذه الابدية لن تمنح لهم الا باقامة مبان حجرية أو نحت أضرحة في الصخر يدفنون فيها (٢٨) .

(٦) الاثاث الجنائزى :

على المصريون منذ أقدم العصور ، كما رأينا من قبل بتزويد الميت بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك ربما كان مقصورا فى بادىء الامر على أسلحته وعليه ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرابه ، غير أن هذا سرعان ما يتغير بازدياد الرخاء وتقدم الحضارة المادية ، فكان

(٢٨) محمد بىومى مؤران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٣ -

١٦٥ أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٩١ .

J. A. Wilson, ANET, P. 405.

يودع مع الميت كذلك الارائك والصناديق المقاعد وتمائيل النساء والخدم وربما القوارب وأوان من الحجر والنحاس ، ولعل أهم ما كشف عنه من أثاث جنازى يرجع الى عهد الدولة القديمة انما كان بقايا أثاث الملكة «حتب حرس» ففى عام ١٩٢٥ م عثر «جورج رايزنر»^(٢٩) على حجرة دفن ، شرقى الهرم الاكبر ، لم يعرف اللصوص طريقهم اليها ، ومن ثم فقد عثر فى داخل هذه الحجرة على التابوت المرمرى الجميل ، والاثاث الجنازى للملكة «حتب حرس» أم الملك خوفو ، وزوج سنفرو ، ومع أن التابوت وجد خاليا الا أنه قد عثر على الاحشاء التى استخرجت من الجسد فى صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبى» .

ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملكة ربما دفنت فى مقبرة بدهشور ، على مقربة من هرم زوجها الملك سنفرو ، وأن اللصوص قد اقتحموا قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة بقية أثاثها أكتشف الحراس الامر ، فنقلوا البقية الباقية منه الى الجيزة ، وهناك قطعوا الى جانب طريق المعبد الجنازى للهرم الاكبر ، بثرا عميقا كدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة ، دون أن يحيطو الملك خوفو علما بذلك .

وهناك فى احدى قاعات المتحف المصرى بلقاهرة ، صفت محتويات الملكة حتب حرس ، ومنها أوان من المرمر ، وابريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الاظافر ، مهرية من أحد طرفيها لتنظيف الاظافر ، ومقوسة من الطرف الاخر لضغط أطراف اللحم عند الطفر الى اسفل ، هذا وقد احتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ، ملأى بالعطور والكحل ، فضلا عن عشرين خلخالاً من الفضة ، رصع كل منها

29) G. A. Reisner and W.S. Smith, A History of the Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.

وأنظر : محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى ص ١٤٠ - ١٤٢

بفراشات من الدهنج واللازورد والعقق الأحمر ، وهناك كذلك سرير الملكة المصفح بالذهب ، فضلا عن محفة مصنوعة من الخشب ، وقد كسى جزء منها بصفائح من الذهب ، محلاة بكتابة هيرغليفية من الذهب ، مثبتة في لوح من الابغوس ، ومكرره أربع مرات ، ويمكن ترجمتها كالتالى «أم ملك مصر العليا والسفلى ، تابعة الآله حور ، رائدة الحاكم ، العزيزة التى نفذ كل أوامرها ابنة الآله المولودة من صلبه ، حَتَبْ حَرس» (٣٠) .

وبدهى أن أهم أثاث جنازى عثر عليه انما كان من مقبرة «توت عنخ أمون» والتى كُثِفَ عنها في وادى الملوك بطيبة الغربية (٣١) ، ذلك أنه في صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٣ عثر «هوارد كارتر» على باب مختوم في مكان عميق تخفيه بقايا تكونت فوق مقبرة رعمسيس السادس ، وكان الباب يؤدي الى أربع غرف منها ثنتان داخليتان سالتان تماما ، وأما الغرفة الخارجية عند المدخل فكنت تحوى أثاثا أعيد وضعه بسرعة وبغير ترتيب بعد أن حاول اللصوص نهبه وفشلوا ، أما الغرفة الرابعة فتقع وراء ذلك ، وكانت تستخدم للباقياء والمخلفات الى لم يكن من اليسير اصلاحها .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م أجرى رسميا افتتاح الغرفة الخارجية أو الجنوبية التى فاقت محتوياتها كل ما شهده أو حلم برؤيته أى واحد ممن قاموا بعمليات الكشف عن الآثار في مصر ، فقد عثر في هذه الغرفة على ١٧١ قطعة من التحف ومختلف الآثار ، فهناك على الجدار الغربى لهذه الحجرة تركت على عجل صناديق صغيرة ومقاعد وكرسى ذو ثقب ومزين بروح الخلود ، وعرش يتلألأ بالذهب والفضة وعجائن الزجاج ،

30) I.E.S. Edwards, The Pyramids o Egypt, 1965, P. 132-136.

(٣١) أنظر :

H. Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, 3 Vols, London, 1923-1933.

وكذا

C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1963, P. 173, 183-184,

وصناديق متنوعة تحوى حليا وملابس لم تكد تمسها يد ، وكذا عناصر أربع مركبات مفككة ، ثم تمثال خشبي مرتفع أمامه صندوق كبير مطعم بالعاج والابنوس ، وقد صورت على ضلعه مناظر للصيد والحرب ، كما عثر كذلك على مذبذبات مزدانة بريش النعام وحلى شتى ملقاة على الأرض أو في داخل صناديق ، وأوان من الكلسيت وحوامل مشاعل من خشب وبرونز وصولجانات وعصى وأبواق وصناديق صغيرة تحوى حلى وملابس أخرى للملك ، منها تلك المقفازات التي كانت تتيح لفرعون مزيدا من راحة امساك أعنة جواده ، كما وجد بوق من البرونز عليه صورة الإله بتاح وأمون وحر أختي ، ثم ثلاث عصى مزخرفة بفخزات ، وأخرى ذات أطراف مقوسة ومزدانة بجسم رجل أسيموي أو زنجي أو هما معا ، وفي موضع آخر وجدت صلاصل من خشب مذهب ، وصندوق صغير ممتلىء بالاثواب والمناديل ومساند الرأس ، وكذا تماثيل الاوشبتي الخشبية البديعة ، فضلا عن ناؤوس من الخشب المذهب .

وفي ١٧ فبراير ١٩٢٣ كسر الطائط الذي يفصل الغرفة الخارجية عن الغرفة الغربية التي يحرسها تمثالان حارسان على الجانبين بالحجم الطبيعي للملك (ما بين ١٦٧ سم ، ١٧٠ سم) ، وإن كان أهم ما فيها هيكل كبير مذهب ومحلى بالقشاني وجعت بداخله ثلاثة هياكل أخرى مذهبة الواحد في داخل الآخر ، وبداخل أصغرها تابوت ضخم من الكوارتز الأصفر يضم في داخله ثلاثة توابيت فخمة ، وكان التابوت الأخير من الداخل من الذهب الخالص وبداخله مومياء الملك بقناعها الذهبي الرائع ، وكذا ثروة ضخمة من الطلبي بين اللقائف تبلغ ١٤٣ حلية ذهبية ، وكان هناك سرير من خشب مذهب ، منخفض جدا ، على شكل أسد ، يحمل وحده التوابيت الثلاثة والمومياء ، ويبلغ وزنها كلها ١٣٧٥ كيلو جراما ويبلغ وزن التابوت الذهبي وحده ١١١٠ كيلو جراما من الذهب الخالص ، وقد عثر خارج الهيكل الأول على عصا فاخرة مزينة بأزهار اللوتس المصفحة بالذهب والفضة وعجينة الزجاج ، وكان

أمام الهيكل الثانى عصى أخرى ، أجملها اثنتان ، الواحدة من الذهب ،
والأخرى من الفضة ، وكل منهما مزدانة بمقبض فى صورة الملك .

وأما الغرفة الشمالية (الخزانة) أو غرفة الكنز ، فتضم صندوقا
كبيرا يشبه مقصورة مقدسة تضم تحت أغلفة عديدة أحشاء الملك المودعة
فى أوعية كانوبية ، وعلى عتبة الباب حامل لصندوق كبير من الخشب
المذهب على شكل صرح المعبد فوقه تمثال فخم مدهون بطلاء أسود
للالة أنوبيس ، ملفوف بقماش من كتان ، فلا يظهر منه الا رأسه وفمه
المدبب وعينه المرصعتان بالذهب وأذناه الموشتان بمعدن نفيس ، وإلى
الخلف برز رأس بقرة من الذهب ، لها قرنان من النحاس على شكل
قيثارة تمثل الالهة حتحسور ، وإلى الورا ثلاثة كتوس من الالبستر
تحتوى على أشياء مختلفة من الطقوس الجنازية ، ثم هناك مجموعة
الاوعية الكانوبية موضوعة على زحافة ، وتحمل المعمد الجانبية الأربعة
أفريزا تزينه ثعابين على رأس كل منها قرص الشمس ، وثمة مظلة
تحمى الصندوق الأوسط ، وفى خارج المقصورة تقف الالهات الأربع
الحارسات ، ايزة ونفتيس ونيت وسرقت ، وفى داخل هذا الاثاث
المذهب استقر صندوق من الالبستر على زحافة ، وعلى زواياه برزت
الالهات الأربع باسطة أذرعاها اللاصقة بجوانب الصندوق فى هيئة
مماثلة ، وحفر فى كتلة الصندوق فراغ يسمح بوضع الجزء العلوى من
أربعة أوعية من الالبستر استقرت فى أربعة أقسام ، ويعلو كل منها
غطاء فى صورة رأس توت عنخ آمون مزين بالنمس مع العقاب والكوبرا
المقدسین على الجبهة .

وعندما رفعت الاغطية ذات الرؤوس الادمية ، ظهر فى كل قسم
تابوت مصغر من الذهب وضعت فى داخله أحشاء الملك فى شكل مومياء ،
وخضع كل وعاء كانوبى لاله من الذكور ، وجعل بطن كل وعاء فى حمى
الهة أنشى ، وهناك على طول الحائط الجنوبي صناديق على شكل
الناوؤس من خشب مسود ، مغلقة ، ما خلا واحدا ، أبوابه مفتوحة ،
تتلألأ خلالها دمية غريبة بديعة من الخشب المذهب وموضوعة على فهد

أسود لامع في وضع المثى ، وأما بقية النواويس السود الصغيرة فهي تحتوى على تماثيل صغيرة للملك أو الالهة من خشب مذهب أو مسود بالراتنج ، منها سبعة تماثيل في صورة الملك ، وتسعة وعشرون تمثالا تمثل الالهة ، وعيونها مرصعة بالاليسر وحجر زجاجى أسود والبرنز ، وكذا بعجينة الزجاج ، وفوق هذه الصناديق تكست مجموعة من زوارق يتجه مقدمتها صوب الغرب ، وتتجلى فيها جميع الاشكال ، من الزورق المصنوع من البردى المستخدم في مطاردة فرس النهر ، الى السفين المخصص لرحلة الميت الجنازية أو المركب الذى يتيح له الاشراف في رحلة اله الشمس في عالم الموتى ، وكل هذه السفين مزودة بمكان أو قمرة أو هيكل .

وأمام الصناديق التى تحتوى على التماثيل الصغيرة المذهبة والسوداء التى صور الملك والارواح ، والموضوعة على طول الحائط الجنوبى ، ظهر ستة صناديق صغيرة وعلب ذات اشكال مختلفة ، واحد منها مكفت بالعاج والاينوس بصورة فريدة ، وقد أحصى «كارتر» فيه ٥٤ ألف قطعة مرصعة ، كما عثر فيه على حلة للصخر فاخرة ومزينة بقارب في وسطه جعل (جعران) يدفع قرص الشمس ، حيث شريط عريض من معدن ثمين معلق به حلية للصخر ، وسلطة بدلا من الثارب وتشكل المجموعة المكونة من الحبل والسلطة والشمس اسم الملك توت عنخ آمون «نب خبرو رع» ، وهو الاسم الذى أخذه عند التتويج ، وكل ذلك من ذهب وأحجار كريمة .

وأما الصندوق الثانى فكان على شكل الخرطوش الملكى ، وقد برزت على الغطاء المصنوع بالذهب ، والمحفوف بالاينوس ، بعض النقوش الهيروغليفية المرصعة بالعاج والاينوس ، والتى استخدمت في كتابة «توت عنخ آمون» وهو اسم الملك الذى حملته قبل تتويجه ، وكان هذا الصندوق مليئا بالمجوهرات المقدسة في غير نظام ، وهى عبارة عن أقراط وأساور من اللازورد وعجائن الزجاج والفيروز والعقيق

والجمشت واليصب الاحمر ، هذا فضلا عن عدة صناديق أخرى تحوى
أشياء كثيرة أو قليلة من أثاث الفرعون الجنازى •

وفى أخريات نوفمبر عام ١٩٢٧م بدأ «كارتر» العمل فى الحجرة
الرابعة أو الملحق ، حيث كشف عن تكديس لا يتصوره العقل لأشياء
منوعة قلبها اللصوص ، وتركها مفتشو الجبانة كما هى ، وعلى أى حال ،
لقد كشف فى الملحق عن أربعة أسرة من نمط واحد ، منها سريران من
الابنوس ، أحدهما مكسو بصفيحة سميكة من الذهب ، والثانى مذهب .
ثم سرير ثالث قابل للطلى ، ثم هناك عرش فخم من خشب الابنوس
المطعم بالعاج ، وبعض أجزاءه مصفحة بالذهب والاخرى مطعمة
بالخزف والاحجار الرقيقة ، والى جانبه كرسى من القش ، اعتبره
المقبون من مقاعد الحديقة ، ويجواره كرسى آخر مدهون بطلاء ابيض ،
ثم كرسى ثالث بدون ظهر ومطلى بلسون ابيض ، ثم مقعد نصف
دائرى ووسادة مستديرة ، ثم هناك خزانتان نفيستان مزودتان بأربع
أرجل طويلة من خشب الارز الاحمر القاتم والابنوس . وبهما افريز
من التمانم من دعائم أوزير ، وعقدة على الخزانة الاولى ، وعلامة
«عنخ» (الحياة) متبادلة مع صولجانات «واس» (القوة الالهية) •

ثم هناك علبة خشبية مربعة فى داخلها ما يشبه المشجب لابد أنها
كانت عليها قلنسوة الملك ، لم يبق منها الا آثار من قماش تتانى وبضع
خرزات رقيقة من ذهب ولازورد وعقيق وفلسبار . ثم علب من الابنوس
للبس الملك ، الى جانب صندوق كبير على شكل القوس به قسى وسهام
وعصى وسيوف وقروس ، الى جانب مجموعة من المعنى والهرافات
مزخرفة بالذهب أو الفضة أو مطعمة بالخشب أو العاج ، ثم مراوح
صغيرة وكبيرة ، ثم مجموعة من تلك اللعبة ذات الثلاثين قسما ، ماتزال
بها أحجار اللعب باحجار مختلفة ، ويدخل فى مساعتها الابنوس والعاج
والذهب ، ثم مجموعة الاوانى التى حوت الازهار والمؤن من يابس
وسائل ، بقى منها ٨٤ آنية من الالبستر . وجدت فارغة . ثم ١١٦ سلة
موضوعة فوق الاوانى تحتوى على فواكه جافة وبذور كالعنب والدوم

والمندراجور (تفاح الجن) وبذور الشمام وغيرها ، ثم ٣٦ جرة من النبيذ ، على بعض سداداتها آخر سنة من حكم توت عنخ آمون ، وهى السنة التاسعة (٣٣) .

٧ - الطقوس الجنائزية :

لم تكن رعاية المتوفى مقصورة على تحنيط جثته ودفنها مع مايلزمها من ضرورات الحياة المادية ، وانما يجب أن يتلى عليها ما يجب تلاوته من تراتيل السحر والدين ، عند الوفاة ، وعند الغسل والتطهير ، وعند الدفن ، وعند تقديم القرابين وعند اجراء الصلوات فى مقاصير المقابر وهياكل المعابد ، وأوسع المصادر الدينية حظا فيما تضمنته من هذه التراتيل ، وأوسعها تعبيراً عن عقائد ما بعد الموت وقطسورها من عصر الى عصر انما هى : متون الاهرام ومتون التوابيت ، وكتب الموتى .

فأما متون الاهرام التى كشف عنها «جاستون ماسبرو» فى عام ١٨٨٠م فى داخل هرم وناس ، ثم عثر بعد ذلك منها فى أهرام ملوك الاسرة السادسة ، بل وفى أهرام بعض ملكاتها ، فهى التعاويذ السحرية والطقوس الجنائزية ، وأجزاء من بعض الاساطير المصرية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الاسرة الاولى ، بل فيها أشارت الى الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها ، على أنها حروب بين الالهة التى عبدت فى تلك الايام .

وعلى أى حال ، فهى تختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، انما كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الآخر ، وقد قسمها «كورت زيت» الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الآخر ، حيث تفتح له أبواب السماء التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحويله الى نجم من

39) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, P. 59-102.

وأنظر : الترجمة العربية ص ٥٧ - ١٠٥ .

النجوم التي لا تفنى ، والى اله للشمس ، أو على الاقل يكون في ركاب اله الشمس .

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد للارض ، والروح للسماء» ، وقولهم في مخاطبة فرعون في حديث رمزي «لقد يتملك جسدك طولا وعرضا ، ولكن روحك سوف تبقى ، وسوف تشهد رع في غلاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم ايمانهم بمقابرهم على أنها بيت الخلود ، الا أن ارواحهم لن تظل حبوسة فيها ، وانما سوف تكون ، وبخاصة ارواح الملوك والاخيار ، طليقا في عالمها غير المنظور ، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاعت ، وتستروح نعيم الجنة في العالم الآخر حيث شاعت ، وتؤوب الى قبرها لتنعيم بمرآى القرايين متى شاعت، وتخط على جسدها حيث شاعت، هذا فضلا عن أن القوم لم يتخيلوا أن روح فرعون سوف ترتقى الى السماء دون اذن من ربها ، ودون شرط ضروري لنعيم صاحبها في أخراه ، ومن ثم فهم يخاطبون كائنا في السماء قائلين «انظر : ان الفرعون آت مقبل منطلق ، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه ، وانما استدعى بناء على رسالة أتت اليه ، وأن الرسل قد أحضرته ، وكلمة مقدسة رفعت» كما أشارت متون الاهرام الى أن وصول الملك الى نعيم الآخرة عند رب السماء، انما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة ، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه ملك صادق في السماء ، عادل في الارض» ، مما يشير الى أن عدل فرعون في الارض انما هو سبيل القربى من رب السماء .

ومع ذلك فان هذه المتون نفسها هي التي جعلت الملك يدخل أبواب السماء التي حرمت على غيره من رعاياه ، وأن مأواه السماء ، وأما الآلاف فمأواهم الارض ، وربما كان المراد أن جنة الملك في السماء ، وأن جنة العامة من الناس على الارض ، ذلك لان القوم انما كانوا يظنون حتى نهاية الاسرة الخامسة أن مركز الجنة الارضية انما كان في حقل القربان عند هليوبوليس ، المركز الرئيسي لعبادة الاله رع ، الذي زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها ، بقانون

ماعت الذى سنه ، ثم تخلص عن حكم العالم الخفيوى لابنه ، ورفع نفسه الى السموات العلوى ، كما رفع كذلك حقل قربانه الى العالم العلوى ، وأصبح مأواه الابدى فى السماء ، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) ببعيشة راضية فى حقول والده ، وترك حقول القربان التى على الارض فى هليوبوليس للعامة من الناس (٣٣) .

وأما متون التوابيت فقد ظهرت منذ أخريات الدولة القديمة، وكانت مقصورة على الفرعون وحده ، غير أن الثورة الاجتماعية الاولى انما أدت الى أن تصبح هذه التوابيت أمرا مشاعا بين أفراد الشعب ، كما أصبحت تكتب على جدران التوابيت ، بدلا من داخل الاهرامات ، هذا وقد تنوعت مذاهبها فى عصر الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى ، واقتبس الكهان بعض أورادها من متون الاهرام ، ثم ألقوا بقيتها بما يتناسب مع عهودهم القتالية وآملهم فيها ، وكان من أهم ظواهرها تلقيب كل متوفى بلقب «أوزير» أملا فى أن ينعم فى الآخرة بما نعم به ويخلد فيها مثل خلوده .

وكان هذا اللقب فى بدايته مقصورا على الفرعون باعتباره وريث أوزير فى الدنيا والآخرة ، فلما اهترت الملكية فى أخريات أيام الدولة القديمة حصل النبلاء على حبق استخدام نصوص الاهرام وبدأوا يكتبونها على توابيتهم ، ومن هنا فقد أصبح أى شخص له من الاهمية والثروة ما يمكنه من أن يشتري تابوتا مكتوبا ويحصل على الخدمة الكهنوتية عند موته ، ويستطيع أن يسفر الدين ليصبح الها عند الموت، انه يصير الاله أوزير عند وصوله الى عالم الآخرة ويصبح واحدا من أعداد الالهة ، وفى العالم الثانى لن يكون بينه ، وبين فرعون غارق جوهرى .

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٩ - ٣٢٠ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٢١٨ ،
S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary,
4 Vols, N. Y. 1952.

ولم يقتصر الامر على القنبلاء ، فان الهزة العنيفة التي أصابت الملكية في قدسيّتها ، جعل العامة من القوم لا يكثرّون كثيرا بالعقيدة القائلة : ان الملك وحده هو الوسيط بين الناس والالهة ، ومن هنا أصبح كل فرد في استطاعته الحصول على تلك القرابين التي كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس الجنازية ، ترى ذلك بوضوح فيما عرف في هذا العصر بنصوص التوابيت ، وهكذا استعمل عامة القوم نفس النصوص السحرية والشعائر الدينية التي كان يستعملها الملك ، والتي تبشر كل منهم بحسن المآب .

هذا وقد تنوع مضمون متون التوابيت ، كما تنوع مضمون متون الاهرام ، بين أناشيد ودعوات وأساطير وفلسفات وتخيلات وأوهام ، وكان من نصوصها ذلك النص الذي يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليقة ، وفيه ترد عبارة ربما كانت سببا في أن يوضع هذا العصر في مرتبة أرفع من روح العصر السابق أو اللاحق ، حيث نرى الاله يذكر في هذه العبارة أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل بنى الانسان ، والطريف أن الرواية قد بدأت بتصوير الرب يحادث حاشيته فيما فعل ، وقالت : «قال رب النك لمن ارتاحوا من النصب وساروا في معيته ، اطمئنوا في سلام ، ولسوف اعيد عليكم أربع من أوحى الى قلبي بأدائها ، لقد صنعت الرياح الاربعة ليتنفس منها كل انسان مثل أخيه ابان حياته . وذلك أول الافعال (المنن) ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، وجعلت للفقر فيها ما للعظيم من حق ، وذلك ثانی الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل أخيه ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد صنعت قلوبهم بحيت تفخر في الغرب لتي تقدم القرابين المقدسة لآلهة الاقاليم ، وذلك رابع الافعال» (٣٤) .

(٣٤) محمد بيومي مؤران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٧ - ١٦٨ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، وكذلك

وأما كتاب الموتى أو كتب الموتى ، فكانت تحوى نصوصا جنازية تحفظ مع الميت فى تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الاطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الديموطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات للخروج نهارا» ، مما يشير الى أن الهدف منها انما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر الى ضوء الشمس ، وتمكينه من الحركة بعد الموت ، فضلا عن توفير السعادة له فى العالم الآخر ، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع الى عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البطلمى لم تكن متكاملة فى عدد موضوعاتها ، وانما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الآخر ، الا أن جميع الموضوعات ، كما وردت فى أكثر من كتاب انما تتكون من ١٤٠ فصلا ، ورد الكثير منها مكتوبا فى متون الاهرام وفى متون الوابيت .

وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل انه لم يحو نصائح معينة للميت ، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف ، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحدة فكرية ، ولعل أهمها الفصل ١٢٥ والذي يؤكد فيه الميت عدم لغترافه لأية معصية ، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاورة (الاوشتبى) ويطلب من كل تمثال أن يهب فى اليوم المحدد له ، لكى ينوب عن صاحبه فى أعمال الزراعة فى عالم الموتى ، أما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى ، هذا ويمتاز كتاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص ، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتلوينها بألوان زاهية ، فمثلا كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الارباب قد تردت من قبل فى متون الاهرام ومتون التوابيت ، ولكنها أصبحت أوضح فى كتاب الموتى ، حيث عبر عنها المصرى القديم

J. A. Wilson, The Burden of Egypt, 1954, P. 116; ANET, 1966, P. 7-8.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221 P. وكذا

A. de Buck, OIP, LXXXVII, 1961, P. 461-465. وكذا

باللفظ والصورة ، وبالصورة المعنوية والمادية (٣٥) .

(٨) العمل الصالح سبيل السعادة في الآخرة :

كانت عصور ما قبل الثورة الاجتماعية الاولى تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالدا على مر السنين ، اذ ان ذلك ، في نظر القوم ، ضمان للخلود في العالم الآخر ، بل ان فقدان القبر انما كان في عقيدة القوم ، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصرى ، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقصى عقاب لمن يمكن أن يشك في ولائه لفرعون، حتى أن أحد الحكماء قد حذر أولاده من هذا العقاب الاليم ، اذ يقول «لا قبر لانسان خارج على الملك ، وانما سيلقى بجثته في الماء» ، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب ، ومن ثم فاننا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده باقامتها «(زين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مقعدك فى الجبانة)» (٣٦)، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة في الحياة الثانية ، وانما أصبح للاخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد وفاته .

وهكذا أصبحت الاهمية الكبرى للوصول الى الخلد هو العمل الصالح ، بعد أن كان ذلك من قبل للثروة والقربى من الملك الاله،وتقدم لنا الملك الاهناسى أمثلة كثيرة على ذلك ، ففى تعاليمه التى وجهها لولده «(مرى كارع)» حثه فيها على نبذ المادية فى ثلاث فقرات «لاتكن شريرا ، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك» ، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الاخلاقى ببناء بيت الذكرى ، قال له «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالتخلق الطيب ذكرى للانسان» ، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الاشرار ، «ان فضيلة

(٣٥) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٣٤٤ ، وكذا

T. G. Allen, JNES, 11, 1952, P. 177-186.

A. de Buck, JEA, 35, 1949, P. 87-97.

T. G. Allen, The Book of The Dead Chicago, 1974.

36) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, P. 86.

الرجل المستقيم أحب الى الاله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان)^(٣٧) ، ويقدم صاحب قصة القروى النصيح مثلا آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكى فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب «احذر فان الابدية تقترب»^(٣٨) .

هذا ويرى امراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والمغناية بهم ، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الارملة وواسى المتألم وأطعم الجائع ، ولم يفرق بين رجل فقير ، وآخر عظيم فى شئ ، وما هو «أمينى» أمير بنى حسن يقول فى نقش كتبه على مزار قبره «اننى لم استعمل القوة مع أية واحدة من بنات الاهالى ، ولم أظلم أية أرملة ، ولم أقبض على أى عامل ، ولم أطرد راعيا ، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عماله أثناء العمل ، وليس هناك فقير ولا جائع فى عصرى»^(٣٩) ، ويذكر «حقا ايب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعريان ، وأنعمت على البسطاء سرا ، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا ، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا ، وقدمت الزيت لأقليم نخن ، بعد أن أخذت منه مدينتى حاجتها ، وصنعت سفينة طولها أربعون خراعا ، وكذا قاربيا ، لنقل الماشية ، وتعدية من لا قارب له فى فصل الفيضان»^(٤٠) .

ويفخر «خيتى» أمير أسيوط على عهد الالهاسيين بإدارته الحكيمة وما قدمه من خير لحكوميه ، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتى ، عندما حفرت فى الارض الصالحة للزراعة ، قناة عرضها عشرة أذرع ، وقدمت أجورا من الحبوب للسائقين ليقولوا توزيع المياه وقت الظهيرة ، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه ، وحفرت نبعيا فى الجبل الذى عز فيه الماء ،

37) J. Wilson, ANET, P. 417.

38) A. Erman, Op. Cit., P. 123.

39) P. E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, P. 27.

40) H. J. Polotsky, JEA, 16, 1930, P. 194.

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٨٦ -

وضمنت الحدود الزراعية ، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء ، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل ، وكما أرضيت الجار سقيت جاره» (٤١) .

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لاقامة الشعائر الدينية لينال عطف الاله ، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئاً ، مالم تسنده أعمال طيبة ، وفي جملة الملك الاهناسى التى تنص على أن الاله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة ، والتى تعد أجمل ما جاء فى التفكير الخلقى فى مصر الفرعونية فى ذلك العصر المبكر ، وفى هذه الجملة دلالة على أن للمفكر ما للغنى من حق فى رعاية الله ، ذلك لأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وليس أكثرهم قربانا ، وهكذا فإن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبح بينى ، أو قرابين تقدم ، ولكنها أصبحت فى العمل الصالح ، والعدل بين الناس ، والعطف عليهم والعناية بهم ، وفى هذا يقول الملك الاهناسى «أقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض ، وواسى الحزين ، ولا تسيئن إلى الأرملة ، ولا تحرم من رجلا من ميراث أبيه ، ولا تضرن الأشراف فى مراكمهم» (٤٢) .

وهكذا ظك المصريون ، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية ، يؤمنون بأهمية اوسائل المادية كطريق للسعادة فى الحياة الآخرة ، فالقبر المفخم والهبات الجنائزية السخية من الامور الهامة فى ذلك ، ولكن الثورة أضافت الى ذلك ، أن السعادة فى الآخرة ، لن تكون فقط بقبر بينى أو قرابين تقدم بانتظام ، أو بعطف من الملك ورضاه ، وإنما السعادة فى العالم الآخر بشيء أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى ، وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة حين تؤكد

41) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 188.

(٤٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٧ - ١٨٨ ، وكذا A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, P. 28.

مبادؤها بأن الآخرة انما هى نتاج عمل الدنيا ، وأن الذين اعتادوا عمل الخير فى الدنيا ، سوف يسلكون نفس الطريق ، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا ، لأن «الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ، ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها» .

وهكذا تكشف الثورة للمصريين ، منذ ذلك العهد البعيد ، أن القيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن الانسان ان أراد خلودا فى آخرته ، وسعادة فى حياته الثانية ، فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، ومن ثم فان مصر تكون أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى ، ولم يقف الامر فى مصر عند هذا الحد ، بل أن هذه المعرفة انما كانت تهدف فى محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل^(٤٣) .

(٩) محكمة الموتى :

كان المصرى القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام اله الشمس ، وذلك استجابة لطلب أى انسان كان الميت قد أخطأ فى حقه وليس حسابا على شئ آخر ، فاذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصفة فمن المحتمل الا يتعرض فى الحياة الثانية لمحاكمة أخرى ، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التى تنتظر كل انسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقا لقواعد الاخلاق ، وهكذا فاننا نقرأ — ولأول مرة فى التاريخ المصرى — عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم ، خيرا كان أم شرا ، ولن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لاصحابها من قربانين وأدعيات ، وما أقام فيها من طقوس وصلوات ، وانما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة ، ذلك لان أعمال كل انسان — أيا كان هذا الانسان — ستوضع مكدسة

(٤٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٥ .

J. Wilson, The Burden of Egypt, P. 114; ANET, P. 415.

بجواره ، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين ، وهكذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحانا عسيرا أمام هذه المحكمة لينال السعادة المنشودة في العالم الآخر .

وفي تعاليم الملك الاناسى اشارة الى ذلك ، حيث يقول لولده : «انك تعلم ان القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى يوم المحاكمة ، وتسوء العقوبة ان كانت التهمة من الواحد العاقل (ربما تحوت الذى يدير المحاكمة يوم القيامة) ، لا تضع ثقتك في طول السنين ، فهم ينظرون الى فترة المحاكمة ، وكأنها ساعة ، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان الخلود مثواه هناك في العالم الآخرة ، الغبى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى يؤمئذ دون أن يرتكب اثما ، فإنه سوف يعيش هناك كما يعيش الأبرار المتوفين ، سادة الأبدية» ، وهكذا يحذر فرعون اناسية ولده ، من يوم الحساب ، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا جاء ولا سلطان ، لان من سيحاسب الناس انما هو الواحد العاقل ، كما يحذره من أن يغتر بطول السنين ، لانها في نظر قضاة الابحية وكأنها ساعة مما يعد القوم ، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ، وهكذا تكون نتيجة المحاكمة ، فمن يصل الى الآخرة وقد عمل الخير في دنياه ، فإنه سيثوى هناك مرحا مع الأبرار المتوفين ، ومن لا يكثرث بنتائج هذا اليوم فهو غبى أحق ، وسيكتب عليه سوء المصير (٤٤) .

هذا وقد تصور القوم أن «أوزير» انما سيكون سيد مملكة الموتى ، والمشراف على حساب الميت ، هذا وقد صور كتاب الموتى ، من عهد الدولة الحديثة ، المحاكمة أوضح تصوير ، وعبر عنها باللفظ والصورة ، فهناك

(٤٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ٤١٤

٢١٦ -

A. Erman, Op. Cit., P. 77; J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 250.

ما يمثل أوزير جالسا على عرشه في أحد جانبي بهو العدالة ، وأمامه أبناء حور الاربعة (ايمسى وحابى ودوا موتف وقبح سنواف) ، فضلا عن ملتهم المتوفى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر ، وفي الجانب الآخر يتقدم الميت لتلقاه الالهة الحق والعدالة ، وفي الوسط ميزان ينصب ويوضع في احدى كفتيه قلب المتوفى ، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير ، بينما تصور في الكفة الاخرى «ريشة» ، ترمز من حيث اللفظ الى كلمة «ماعث» بمعنى العدالة ، وترمز من حيث الصورة الى دقة الموزن وحساسيته ، ويجرى الحساب ، كما قلنا آنفا ، في حضرة أوزير ، رب الآخرة ، ويحضور اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أرباب عواصم الاقاليم ، ويتحقق حور وأنوبيس من صحة الوزن ، بينما يقوم على تسجيل الحسنات والسيئات تحوت ، رب الحكمة والكتابة ، فيسطر على لوحة ينتجه الوزن ونتيجة دفاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه والاله الأكبر ، وحينئذ يحدد مصيره ، فلما الى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها الى سبعة اذرع ، واما الى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفزع وأذى الوحوش والحيات والثيران .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ان على المتوفى أن يتقدم بدفاعين ، الواحد عن نفسه ، وهو دفاع عام ، والآخر الى كل من القضاة باسمه وصفاته وأن يبرىء نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة ، ومما يقوله في دفاعه الاول : «اننى لم اقترب اثما ضد البشر ، ولم أفعل شيئا تمقته الالهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أهرض على القتل بولم أسبب لاحد المأ ، ولم أتخيف من خبز الالهة ، ولم استلب طعام الأبرار ، ولم أفسق في المكان الطاهر لاله مدينتى ، ولم استعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيغ في أبعاد الحقل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزعج لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مراعاها ، ولم أصد طيور الالهة ولا

الاسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء الفيضان في وقته ، ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أؤذ قطعان المعابد ، ولم أعترض ارادة الاله» .

وأما الذنوب التى ينكرها الميت في دفاعه الثانى ، فمنها أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترب ما يندم عليه ، ولم يتكلم كثيرا بلغو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسيء الى الملك ولا الى الاله» .

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا الى حد ما من المبدأ الذى قرره كتب لسماء ، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا ، فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فطليها ، ولكن هناك امورا هدمت ذلك المبدأ النبيل ، أو على الاقل أوجدت ثغرة فيه ، ولعل أهم تلك الامور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم في أن العوامل المادية كاقامة القبور الفخمة والانفاق عليها بسخاء ، انما يضمن سعادة المتوفى في العالم الآخر ، ومن هنا نرى الملك الالهاسى ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو في الغرب ، فهى الشئ الذى تركز اليه قلوب أهل الاستقامة ، ومنها كذلك أنتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه في عالم الآخرة ، ومن ثم فقد لجأوا الى التعاويذ التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الاخطار التى تحف به في الآخرة ، أو على الاقل تزوده في آخرته بما هو في حاجة اليه من نعيم ، فانتهز الكهنة تلك الفرصة لابتنزاز أموال الناس حبا في الكسب الذى كان يأتى اليهم بهذه الطريقة السهلة ، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة ، وادعوا أنهم يستطيعون انقاذ الموتى في كل موقف خرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتما ، وبذا يضمن المتوفى قبوله خلقيا عند المحاكمة في عالم الآخرة .

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم بربهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة ، ذلك أن الديمقراطية ، التى نادى بها عصر الثورة الاجتماعية لم تكن وقفا على الحياة الدنيا ، وانما تعدتها الى الحياة الثانية ، ومن ثم فقد شارك العامة المفعولون في

مصيرة الاخرى ، فكما أن الفرعون سيصير «أوزير» في الآخرة ، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير» ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرى جسده حارس الموتى «أنوبيس» ، وتحنو عليه ربة السماء «نوت» ، وتبكي أختاه ايزة ونفتيس ، ويقوم الى جواره ولده ليدفع عنه شر المعتدين وأذى الكائدين ، ثم يقوده في موكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع الحياة من أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى مخلفة شير كلها الى أن الناس قد تسالوت مقاديرهم في هذه الدنيا ، فأصبحوا في عالم القبور سواء، ذلك لان مجرد الامتزاز بأوزير أصبح كفيلا بأن يحقق براءة الميت ، وأصبح كل ميت يلقب «بالمبرأ» ، ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأى ذنب أقرته في حياته ، اذ كان عليه ، كما رأينا آنفا ، أن يعلن براءته من كل ذنب وخطيئة ، وأن يدعى لنفسه سلسلة طويلة من الفضائل والاعمال الحسنة ، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالاله أوزير ، وامتزاجه به الى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة ، وأصبح الاهتمام بالسحر والشكيات شائعا .

وهكذا أدت كل هذه العوامل دورا هاما في القضاء على الهدف من المحاكمة ، وجعلت منها شيئا يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى ، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم نسبيا ، استطاعوا أن يصلوا الى هذا المستوى من التفكير الدينى والخلقى ، فقد أصبح للاخلاق في نظرهم شأن عظيم في تقرير مصير الانسان بعد الموت ، بعد أن كان ذلك وقفا على الوسائل المادية ، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الاله ورضاء عنه^(٤٥) .

(٤٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢١٦ - ٢١٧ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٦ ، كذا

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 268.

وانظر : الترجمة العربية (برستد : فجر الضمير ص ٢٦٦ - ٢٩٠)

الفصل السادس

الكهانة

(١) نشأة الكهانة وشروطها :

من المعروف أن العبادات في مصر كانت تقام في أى معبد باسم الملك الذي كان مسئولاً عن إقامة العبادات ، فضلاً عن دوره السياسى والإدارى والتشريعى ، وهكذا كانت واجبات الملك الدينية كثيرة ، فهو الذى يبنى المعابد ويقدم لها الهدايا وهو الذى يمنح القرايين ، وهو الذى تمثله جميع صور المعبد ، وهو الذى كانت تقام له الصلوات في المعبد ، فى حين لا يرد شئ عن شعبه التقى ، وفى الواقع فإن علاقة الملك بالالهة انما تختلف تماماً عن علاقة الالهة بأى فرد من الرعية ، فهو بوصفه ملكاً على مصر انما كان ابناً وخليفة للالهة ، يقدم لها القرايين كأسلاف له ، كما كان يقدم أى فرد عادى قرايينه لأرواح أجداده ، ومن ثم فهو الكاهن الاول لكل اله في البلاد وبالتالي فقد كان عليه أن يقوم بالطقوس الواجبة نحو الالهة .

وبدهى أن هذا انما كان أمراً محالاً ، زماناً ومكاناً ، ومن ثم فقد كان الملك ينيب عنه أولاده أو كبار موظفيه في الأقاليم ، على أن يقوم هو بأداء واجبه الدينى نحو اله العاصمة ، وربما الاله الملقى في المكان الذى يقيم فيه ، وقد جاء في أحد فصول الشعائر «ان الالهة قد أعدت لى السبيل ، وأن الملك هو الذى يرسلنى لاجتلاء طلعة الاله» ، فالملك اذن هو الذى يعين الكهنة الذين كانوا يختارون عادة من أسمى درجات المجتمع ، بل من الدم الملكى أحياناً ، وهكذا كانت مكانة الكهنة انما تقوم على أساس أنهم منووبون عن السلطة الملكية المؤهلة ، وكانوا يؤدون الطقوس الدينية اليومية في كل البلاد باسم الملك الفرعون .

هذا ولم يكن الكهنة المصريون طائفة منعزلة تعيش على هامش المجتمع ولا تغشاه الا لاستمالة الجماهير ، ودفعها نحو حياة خلقيا أرفع مستوى وأقوى نشاطا من حياتها العادية ، وانما كانوا يقومون بدور نواب الملك صاحب الحق الوحيد في القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الالهة على الارض ممثلا في صورة متكاملة داخل قدسه في المعبد حيث طابت له الإقامة ، كما كانوا يشاركون في البناء الدينى لملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقته الالهة ، الأمر الذى يتطلب النهوض به متخصصون فنيون ، وفيما عدا ذلك ، فهم مواطنون عاديون لا يختلفون عن غيرهم فى شئ ، ولا يتميزون بأنهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعها ، وقد يكونون هم أنفسهم مفكرين أحرارا أو قديسين ، فذلك نتيجة استعدادهم الشخصى ، ولا صلة له بنشاطهم المهنى نفسه .

ولئن لم تكن الكهانة تتطلب التزاما خلقيا معينا أو تدريبا فنيا ، فإنه يطلب من الكاهن أن توفر فيه على الأقل شرائط معينة للطهارة الجسدية ، ولم تكن الدار المقدسة أو المعبد المصرى يشبه ما نغنيه الان بمكان العبادة ، فهو ليس مكانا يذهب اليه المتعبد ليصلى للاله ، ولا هو بالدار التى تحتشد فيها الجماهير لممارسة الطقوس الروحية وتترقب أن يتجلى عليها الاله ابان الاحتفال ، كما أنه ليس مكانا تقام فيه الشمامسة المقدسة التى يؤم فيها أمام متخصص جمهرة من الناس ، ذلك لان المعبد المصرى لا يستقبل الجماهير ، فمن الهيكل تقوم أبواب منعاقبة تحمى المكان المقدس ، وكلما توغلنا الى الداخل زاد الاظلام حتى يصل المرء الى قلب المبنى ، وعندئذ وفى رهبة متزايدة يدخل الزائر مدخل الهيكل المحكم الاغلاق ، حيث يستقر هناك التمثال المقدس الذى يتجسده المعبود ، ويبدو أن تمثال الاله صغير الحجم ، ففى «قدس الاقداس» كانت تقوم مقصورة فيها قارب فخم الزخرف يوضع فيه تمثال الاله ، الذى لم يكن فى أغلب الظن يزيد ارتفاعه عن نصف متر ، وربما كان شبيها بتمثيل الالهة البروفزية الصغيرة ، التى وصل الينا منها عدد كبير من مخلفات العصر المتأخر .

وقد كان القوم يجربون هذا التمثال الشديد القداسة عن أعين الناس ، حتى أنهم لم يجروا ، ولو مرة واحدة ، على تصويره في رسوم المعابد ، وحتى صور قدس الاقداس لا يظهر فيها الا القارب المقدس . تزيينه من الامام والخلف رأس حيوان الاله المقدس ، اما بهارته فتماثيل للملك وآله ، وتقوم في وسطه مقصورة صغيرة على شكل المعبد ، تتسدل عليها أستار تغطيها وتحجبها عن الانظار مبالغة في حمايتها ، وكانت الطقوس تقضى أن الكاهن بمجرد أن يرى مثال الاله عليه «أن يقبل الأرض وينطرح على بطنه ، ثم ينطرح مرة أخرى على بطنه ، ويقبل الأرض بوجهه يتجه الى أسفل ويطلق البخور ثم يحيى الاله بانشودة قصيرة» ، هذا وقد كان على الكاهن أن يقوم بتزويد التمثال المقدس بالطعام والشراب يوميا ، فضلا عن حمايته من الارواح الشريرة التي يحتمل أن تفاجأه بالاذى .

هذا وقد اشترط القوم ان تتوافر فيمن يسمح لهم بدخول المعبد والاقامة في رحاب الصنم الرهيب شروطا أولية من الطهارة البدنية ، ومن هنا كان الاصطلاح الذي يطلق على أكثر طوائف الكهنة انتشارا «الكهنة المتطهرون» ، وطبقا لرواية هيروdotot المتصلة بالمعابد ، فقد كان الكهنة قبل بدء خدمتهم ينزلون الى الماء فيريقونه على أنفسهم بغزارة ، فاذا لم تكن هناك بركة حل مطها حوض من الحجر ، وهناك ضرب آخر من الطهارة المادية اذ كان على الكاهن أن يغسل نفسه بقليل من مزاب النظرون قبل أن يطرق المكان المقدس ، كما كان عليه كذلك أن يزيل الشعر من جسده ، ويذهب هيروdotot الى أن الكهنة كانوا يحلقون أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الالهة ، كما كانوا يمارسون الختان حبا في النظافة لانهم كانوا يفضلون النظافة على حسن المنظر^(١) .

(١) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، هيروdotot يتحدث عن مصر ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ميرج سونيرون : كهان مصر القديمة ص ٣٧ - ٤٢ ، وكذا

(٢) امتيازات الكهنة :

يذهب هيودوت الى أن الكهان انما كانوا «يتمتعون بامتيازات ليست بالقليلة ، فهم لا يسهلون ولا ينفقون شيئا من ثرواتهم الخاصة ، بل يصنع لهم خبز مقدس ، ويحيب كل واحد منهم يوميا خمية كبيرة من لحم البقرة والاوز ، وتقدم لهم خمر مصنوعة من العنب ، وأكل السمك غير مباح لهم ، ولا يبيخر المصريون الفول في بلادهم أبدا ، ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجا أو مطبوخا ، أما الكهنة فلا يطبقون حتى رؤيته ويعتقدون انه بقل نجس» ، غير ان الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأي ، فهم يذكرون ان الكهنة كان عليهم ان يحرّموا على أنفسهم كل شيء تقريبا ، ومن تلك المحرمات بعض أجراء الذبائح ، فضلا عن لحوم البقر والخنزير والماعز والحمام والجمع والاسماك ، وبخاصة البحرية منها ، الى جانب الخضر والفول والثوم ، أما النبيذ فكانوا لا يتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا ، كما أن الملح الذي كان من منتجات الاله تيفون لم يكن من المرغوب أن يظهر على موائدهم .

وبدهى أن في ذلك مبالغة غير مقبولة ، وربما كانت الحيوانات والخضروات التي أشرنا اليها محرمة في بعض الاقاليم ، ولم تكن كذلك في اقاليم أخرى ، كما أن تحريم أنواع بعينها من الاطعمة في اقليم انما كان خاصا بعقيدة الاقليم نفسه ، وأما الفول فأغلب الظن أن يكون في رواية هيودوت شيء من المبالغة ، وقد يكون الصواب فيما رواه ديودو الصقلي من أن أكل الفول قد كان محرما على بعض المصريين ، وعلى أي حال ، فلقد وجدت حبوب للفول في قبور بعض المصريين ، مما يشير الى أن زراعته لم تكن محرمة ، كما يزعم هيودوت ، وربما كان تحريم أكله مقصورا على الكهان ، وأما السمك فقد اختلفت الآراء حول

وانظر عن الختان :

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 303.

A. P. Davies Ten Commandments, N. Y. 1956, P. 59-60.

تقديسه في مصر الفرعونية ، وان كان مما لا شك فيه أن السمك النيلى كان وما يزال من عناصر الغذاء طريا ومجفقا ومملوحا ، وقد أشار الى ذلك هيودوت نفسه ، وبخاصة في أقاليم الدلتا والفيوم حيث كان في الفيوم كذلك مصدرا من مصادر دخل الخزانة الملكية ، هذا وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنشطة العمال من الغذاء الى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك ، ومع ذلك فقد اعتبر القوم أن صيد السمك من الحرف الوضيعة ، الا أن تكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار ، كما أن القوم قد قدسوا السمك ، وبخاصة على أيام الرعامسة ، في كثير من المدن كاسنا وأبيدوس والبهنسا (٢) .

وأيا ما كان الامر ، فإن حياة الكهنوت انما كانت تحرم الاتصال الجنسي أيام الاعتكاف في المعبد ، كما كان عليهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، بينما كان لغيرهم أن يتزوج من أكثر من واحدة ، ومع ذلك فلم يكن هذا القيد عاما ، وكان عليهم جميعا أن يتطهروا عندما يعبرون السور المقدس ، وطبقا لرواية هيودوت «فقد كان المصريون أول من راعى السنة التي تحرم مجامعة النساء في المعابد ، كما تحرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال ، وسائر الشعوب ، فبعثا عدا المصريين واليونان ، يجامعون النساء في المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، اذ يعتقدون أن شأن الانسان في ذلك شأن سائر الحيوان ، وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الالهة وحرماها ، فاذا كان ذلك العمل لا يرضى الاله فلما ذا اذن تفعله الحيوانات» ، وعلى أى حال ، فالنصوص المصرية لا تحتل تأويلا في ذلك ، فالداخل الى المعبد يجب أن يتطهر من كل اتصال جنسى بالمرأة ، بل يجب أن يمتنع عن الاتصال الجنسي قبل دخوله المعبد .

(٢) هيودوت يتحدث عن مصر من ١٢٢ - ١٢٧ ص ١٨٣ - ١٨٤ ،

٢٨٣ وكذا

Diodorus, I, 99, 4; G. Legrand, Herodot, II, P. 92; BIFAO, 28, P. 4. K. Sethe, Urk., I, P. 173, 202.

هذا ولم يكن الكهنة يرتدون غير ثياب من الكتان ، وكانوا يهرمون على أنفسهم بعض الاقمشة كالصوف الذى كانوا يأخذونه من كائنات حية تصيب لابسها بالقدر ، وتحط من قدسية الاماكن التى كانوا يؤدون فيها واجباتهم المقدسة ، وعلى أى حال ، فلقد كان أجود اللباس عند القوم انما يصنع من الكتان ، فهو لشدة بياضه سريع التآثر ، لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله الى تنظيفه ، كما كان زى الكهنوت لا يتغير ، ومن ثم كان الكهان على مر العصور بزيهم الثابت هذا ، والذي ارتدوه منذ العصور الاولى للحضارة المصرية .

ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التى تحدد وظيفة كل كاهن ، كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل ، فأما الكهنة المتخصصون ، وكذا كبار الكهنة ، فقد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك ، فالكاهن «(سم)» كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كهنة عين شمس يحملون رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان كبير كهنة منف يحمل قلادة ذات شكل خاص ، ويزين رأسه بذؤابة مصفورة تنحدر على السالفة ، وعلى أى حال ، فاذا استثنينا كبار الكهنة ، ففسد كان بقية الكهان يتميزون عن جماهير الشعب بقدم زيههم ووقاره ، مما كان يضيف الى هيبته ومكانتهم شيئاً من الشهرة في مجتمع كل ما فيه جيد وجديد (٣) .

(٣) الانخراط في سلك الكهنة :

لم يكن الانخراط في سلك الكهانة يتطلب ثقافة دينية معينة ، وان كان على الكاهن أن يقضى فترة في التدريب على طقوس العبادة الصارمة ، ومن ثم فقد كانت ممارسة العمل والمران كفيّتين بالوصول بالرجل العادي الى المستوى المطلوب ، ومع ذلك فانه ليبدو مستحيلاً أن نصل الى قاعدة لكل الكهنوت المصري في كل العصور فيما يتصل

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٦٦ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٦ .

بالشرائط التى يفترض توفرها للدخول فى نطاق الكهان ، وان كان هناك سبلا ثلاثة أتفق القوم عليها ، وهى حقوق الوراثة والترشيح وشراء الوظائف .

فأما حقوق الوراثة فيذهب هيرودوت الى أن الكاهن انما كان يورث وظيفته لولده من بعده وبخاصة فى المعابد الاقليمية الكبرى ، ومع ذلك فلم تكن هذه قاعدة عامة ، وأن أصبحت تقليدا متبعا ، وقد عثر على وصايا ترجع الى أيام الدولة القديمة ، يطلب فيها الكاهن أن تؤول وظيفته الى وريث يحدده بنفسه ، وفى الدولة الحديثة كان الرجل يزعم أحقية فى وظيفة كهانة معبد بقوله انه كان ابنا لكاهن هذا المعبد ، وهناك من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من أنساب أصحابها ، يذكر بعضهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه ، ومن ثم فقد أصبح من الممكن القول بأنه كانت هناك أسرات كهنوتية ، ومع ذلك كله ، ورغم أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة من الاب الى الابن ، ومع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان فضل الملك فى هذا الامر يجب أن يكون واضحا ، ذلك لانه بهذا الفضل يستطيع الابن أن يحل محل أبيه ، وهكذا عندما أراد الملك بسماتيك الاول أن يكافئ «(بنتيزيس)» بسبب خدماته الجليلة منحه لقب كاهن فى كل اعابد التى كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، منع أن بنتيزيس لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس الكهانة .

وأما الترشيح فكان يتم حين تتعثر الوراثة أو تنفى ، وحين يكون هناك مكان شاغروها يعقد كهان المعبد اجتماعا يتفقون فيه على اختيار من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة ، وربما كانت هذه الطريقة أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف الشاغرة بمن يشغلها ، ومن المرجح أن كل كاهن جديد ، ولو كان من أسر العاملين فى المعبد ، أن يوافق المجلس الكهنوتى على تعيينه ، وفى العصور المتأخرة ما يشير الى شراء الوظائف الدينية ربما بسبب كثرة الموارد التى كانت تفيض على الكهان .

وأما عن التعيين ، فمن المعروف أن الملك هو الذى يعين سائر الكهان ، غير أن عمل الملك فى واقع الامر انما كان مقصورا على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهنة فى العبادات الكبرى ، وأما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا ، فقد كان يترك للوزير فى غالب الامر ، هذا فضلا عن أن سلطة الملك ترقية من يعجب بنشاطه وكفافته من الكهان كما حدث بالنسبة الى الكاهن «نب وى» من أيام تحوتمس الثالث ، الذى رقى الى رتبة رئيس كهنة أوزير ، ثم أصبح بعد بضع سنوات ، بسبب حظوته عند فرعون ، المتحدث الشفصى باسم الملك فى معبد أحمس الاول فى أبيدوس ، والظاهر أن تدخل الملك هنا انما كان الغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسن ، شاب فى خدمة مولاة الفرعون ، هذا فضلا عن أن «توت عنخ آمون» عندما أراد أن يعيد تنظيم الكهانة بعد ثورة اخناتون الدينية ، فقد اختار أعضاءها الجدد من بين طبقة النبلاء التى لم تزل ، فيما يرى ، النخبة الممتازة فى البلاد ، وهكذا «جمع كهنة من أبناء أعيان مدينتهم ، وكل منهم ابن رجل مبرز معروف الاسم» .

هذا فضلا أنه كان من حق الملك أن ينقل أى كاهن من معبد الى آخر ، ومن ذلك ما حدث على أيام رمسيس الثانى عندما عين كبير كهنة آمون فى طيبة من بين رجال معبد أبيدوس ، على غير رضى من كهان آمون فى الكرنك ، وقد كان هذا التعيين مما رواه بفخر الكاهن المعين «نب أو ننف» فى مقبرته بطيبة ، وقد جاء فى قرار التعيين «ها أنت من الآن كبير كهان آمون ، وسائر كنوزه وخزائن غلاله تحت يمينك ، أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك ، فأما معبد حتحور فى دندرة ، فسيؤول الى سلطان ابنك ، فضلا عن وظائف آبائك ، والمركز الذى كنت تشغله أنت» ، وأخيرا فان هذا التعيين انما يدل على أن الفرعون هو صاحب الكلمة الاخيرة فى تعيين الكاهن الاكبر لآمون ، وقد برره الفرعون بمهارة حتى اعتبر اختياره هذا من لدن الالهة ، ومع ذلك فان الملك لم يكن يتدخل فى تعيين كبار الكهنة الا عندما يريد أن يكافئ أحد الكهنة ، وربما أحد موظفيه ، والا عندما يود ، مدفوعا بأغراض سياسية

داخلية ، أن يغير موازين القوى ، وخاصة بالنسبة الى كهان أمون الاقوياء ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت هناك قواعد تلتزم ولا يمكن تجاوزها (٤) .

(٤) طبقات الكهنة :

كان على رأس الكهنوت في كل معبد مصرى ما يسمى بالكاهن الاول أو الكاهن الاكبر ، وكان له شخصية بارزة في المجتمع ، وان ارتبطت سلطته الى حد كبير بالاله الذي يقوم على خدمته ، وكان له أحيانا لقب خاص يشير الى وظيفته الفعلية في خدمة الاله الذي كان ينتمى اليه ، وهو لقب لاشك في أنه يرجع الى أصل بالغ القدم ، فضلا عن أنه انما يشير الى عبادة الاله نفسه ، ومن هنا فقد كان الكاهن الاكبر لاله الشمس في عين شمس يسمى «أعظم الرائيين» ، وقد كان من قبل يسمى «من يستطيع رؤية العظيم (الاله)» وهو اللقب الذي حور بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى «أعظم الرائيين يستجلون طلعة الاله رع» ، كما كانت تطلق عليه اللقب أضافية أخرى ، مثل «الذي يرى سر السماء» و «رئيس أسرار السماء» ، كما لو كان كبيرا للفلكيين .

وكان كبير كهنة بتاح في منف يحمل لقب «الرئيس الصنّاع» أو «الزعيم الاول للفنانين» ، كما لو كان المعبد مصنعا للاله ، وربما لان الاله بتاح انما كان حامى الصناعات جميعها ، وأن الفنون انما كانت تحت حماية الاله بتاح وربما كان كبير كهنة بتاح يشغل في الواقع وظيفة «الرئيس الاعلى للفنانين» في مدلولها المعنوى ، فقد كان في الدولة القديمة يعتبر رئيسا فاعليا لكل أعمال النحاتين والاعمال الاخرى المماثلة،

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٧ ، سيرج سونيريون : المرجع السابق ص ٤٧ - ٥٢ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثالث ص ٣٣٩ - ٣٤٠ وكذا

C. D. Noblecount, Op. Cit., P. 182-183.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 257-258.

W. F. Edgerton, JNES, 6, P. 156.

ويظهر أنه في الأصل كانت هنالك شخصيتان توزع عليهما أعمال هذه الوظيفة التي كان نصفها دينيا ، ونصفها الآخر دنيويا .

وفي أخريات أيام الدولة القديمة نقل أحد الملوك كل شيء إلى وكل ما كان يقوم به الكاهنان إلى رجل يدعى «تيتي — سابو» كانت له فيه ثقة كبيرة ، هذا وقد كان الكاهن الأكبر للاله تحوت يسمى «عظيم الخمسة لببيت تحوت» وكان كاهن آمون الأول يحمل لقب «الكاهن الأول للاله» أو بعبارة أصح «الخادم الأول للاله» ، كما كان يحمل نفس هذا اللقب أي «الكاهن الأول» لكل من الآلهة «مين» و «أنحور» و «حتصور»^(٥) .

وكان من الممكن أن يصل الكاهن الأول إلى وظيفته عن طريق الترقى في مختلف الوظائف الكهنوتية وكان من المعتاد في الكهانات الكبرى أن يتم ذلك وفقا للظروف السياسية أو الرضى الملكى ، كما كان من الممكن أن يختار كبير الكهنة من خدام بيت آمون أو من بين رجال البلاط أو كبار قواد الجيش ، كما كان من حق الملك أن يختار كبير الكهنة من غير هؤلاء وأولئك ، كما في حالة «نب أو ننف» وفي هذه الحالة كان التعيين يؤيد بنبوءة الالهية ، ثم يتلقى الكاهن الأكبر الجديد من الملك هدية عبارة عن حلقتين من الذهب ، وعصا رمزية ، وكان رؤساء المعابد الكبرى في مصر يختارون عادة من أرقى الطبقات ، فقد كانوا في الدولة القديمة من أبناء الملك عادة ، وأما في المقاطعات التي كانت تحت نفوذ أمراءها المحليين ، فقد كان هؤلاء الأمراء في نفس الوقت هم رؤساء خدام الآلهة والكهنة الكبار . وكان الكاهن الأول يمثل الملك في المعبد الذي كان موكلا به ، وكان هو الذي يقوم في غياب الملك — الذي كان وحده موكلا بأقامة الاحتفالات والشعائر اليومية وأيام الأعياد والمواكب الالهية العظيمة — بالشعائر

(٥) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٦٩ ، محمد

بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

M. A. Murray, Index of Names and Titles of the old Kingdom, London 1908, P. 19.

الدينية ، وكان الكاهن الأكبر له وظائف ادارية ، بجانب رياسته الدينية ، فكان يشرف على الامور الدنيوية الخاصة بالاله ، وكانت غالباً كثيرة جداً ، مما أدى الى تدخله في الامور السياسية ، كما يبدو ذلك واضحاً في كبير كهان أمون في الكرنك ، وعلى أى حال ، فلم تكن هناك مميزات ظاهرة يمتاز بها الكاهن الأكبر عن الكهنة الآخرين ، فقد كان رأسه حليقاً ، ويرتدى جلد الفهد عندما كان يقوم بأداء الشعائر الدينية ، وكانت ملابسه كملابس عظام القوم في عصره ، وفى الدولة الحديثة كان يرتدى أحياناً قميصاً فضفاضاً يصل الى ما تحت ركبتيه ، وأحياناً كان يلبس قميصاً فخماً المظهر بسترة مكشكشة وكمين مفتوحين ، وأحياناً كان يحمل شارة خاصة بوظيفته ، وخاصة كبير كهان بتاح فى منف .

وكان هناك فى كهانة أمون الكاهن الثانى ، وكان صاحب مركز مرموق فى الدولة ، ويحل محل الكاهن الاول الذى كانت مهامه الدينية والسياسية تضطره فى أحيان كثيرة الى الغياب عن معبد الكرنك ، ولكنه كان كثيراً ما يختص بشئون عمال الحقول وإدارة الشئون الخارجية للاله ، مما استدعى أن يكون تحت امرته إدارة كاملة وأعداد كبيرة من الموظفين والكتاب والخدم لإدارة دولة أمون ، التى كانت أشبه بدولة داخل الدولة ، كما كان يعاون هذا الكاهن الثانى كاهن ثالث فى احياء الطقوس وتصريف الامور فى اقطاع الاله الكبير ، فضلاً عن كاهن رابع ، كما كان يعاون الكاهنين الثالث والرابع خدم الاله ، والذين كانوا يقسمون الى أربع جماعات تتناوب الخدمة ، وقد سماهم الاغريق فى غير دقة بالنبئين لانهم كانوا يترجمون ما ينطق به وحى الاله .

وفى الواقع لم يكن الاله المصرى قوة معنوية تعبد فى أى مكان ، وإنما كان مولى قويا شديد البأس ، يحل جسدياً فى قدس الاقداس ، ومن ثم فقد كانت رعايته مادية ، اذ يتطلب الغذاء والكساء والزينة ، ومن هنا كان العاملون فى خدمته من رجال الكهنوت أشبه بمن يحيطون بعظيم فى قصره ، ويتسمون مثلهم خدماً ، وفى كثير من الاحيان نجد المعابد المتوسطة فى يد عدد محدود من خدام المعبود ، ولكن حين يكون

المعبود من الاهمية بمكان ، ويتضخم عدد العاملين في خدمته ، تتعدد طبقاتهم ، كما في هيئة كهانة آمون حيث تدرجت طبقات خدم المعبود أكثر من غيرهم في المعابد الاخرى ، واحتوت على أربع طبقات من العاملين ذوي السلطان ، فضلا عن الخدم الذين لم تنظمهم سجل الدرجات العليا .

وهناك الكهنة المرتلون (خريوحب) وهم الذين يفسرون الكتب المقدسة ويملئون الصيغ الدينية أثناء الحفلات الدينية ، كما كان يسند اليهم منح الاسم للطفل الملكى ، وكان لهم رئيس يسمى «حرى ثب» ، ويلى ذلك طبقة أخرى من الكهان يدعون «الكهنة المطهرون» (وعبو) ، وربما كان اسمهم مأخوذا من الكلمة التى تعنى طاهر أو نقى ، وكانوا يتولون أعمال المساعدة من ذبح المعتائر والأعمال اليدوية مثل تنظيف المعبد ، فضلا عن تزيين تمثال الاله ، وقد اعتبروا فيما بعد فى أسفل السلم الكهنوتى ، أو بعبارة أخرى أصبح اسمهم يعنى «كاهن» فحسب ، كما كان هناك الى جانب الطبقة الدنيا من رجال الكهنوت مساعدون ترخر بهم رحبات المعابد المصرية .

وهناك جماعة من الدارسين والمثقفين فى «بيت الحياة»^(٦) ، وكانوا يقومون بالعمل فى غرف قرب المعبد ، ويعنون بالكتب الدينية اللازمة للعبادة وغيرها من ألوان المعرفة ، ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه المدارس التى سميت «بيت الحياة» أو «بيوت الحياة» إنما كانت موجودة بصفة مؤكدة فى منف وأبيدوس والعمارنة وأخميم وقفت وطيبة وعين شمس وساو واسنا وادفو وغيرها ، ذلك لانه من المفروض أن يكون لكل معبد ذى مكانة ملحوظة «بيت حياة» خاص به ، ولقد كانت

(٦) أنظر عن «بيوت الحياة» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الجزء الأول - العلوم والآداب ص ٣٤٤ - ٣٤٧ ، وكذا A. H. Gradiner, Onom, I, P. 35, JEA, 24, P. 167-177. B. Gunn, JEA, 4, P. 252. J. Pendibury, JEA, 10, P. 134, P. 160 F.

بيوت الحياة في الواقع مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية، أو «موسيون» الاسكندرية في عهد البطالمة ، حيث كان يلتقى العلماء والفلاسفة والاطباء وطلبة العلم في بيوت الحياة هذه ليتبادلوا الاراء فيها ، على أساس أنها معاهد علمية تلحق بالمعابد ، ويشغل المتخرج فيها مركزا مرموقا ، فهو «كاتب دار الحياة ، ما من أمر يسأل عنه الا ويجد له جوابا مناسباً» ، ومن ثم فان المتخرجين فيها لم يكونوا كهنة بالمعنى المعروف ، فهم ألصق بالعلم منهم بالدين ، وألقابهم تشير الى تمسكهم بالالقباب الخاصة بالكتاب أكثر من التصاقهم بالقباب الكهنة .

على أن هناك من يذهب الى أن بيوت الحياة لا تعدو أن تكون بناء مزدوجا من مدرسة ودار للنسخ حيث كانت النصوص القديمة تجمع وتنسخ وتدرس، حيث كانت تعد المؤلفات اللازمة لاداء الطقوس الدينية وتناقش المسائل الفلسفية والدينية بحيث كان الى جانب الكتبة الفنانون والرسامون الذين ينقشون جدران المعابد والمقابر بالنصوص والمناظر ، ويدهى أن أبرز ألوان النشاط في بيت الحياة هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ بسبب ما لحق القراطيس من تلف ، هذا وقد أطلق اليونان على موظفى بيت الحياة اسم «هيوجراماتس».

وقد كان بعضهم من الكتبة الممتازين ، وكان البساقون من ذوى الثقافة الرفيعة موظفين ممثلين للحكمة في رحاب المعبد ، وكان فرعون يختار أحيانا من بينهم ممثليه الدينيين حين يتطلب ايفاء بعثات رسمية في المعابد المصرية ، وقد ذاع صيت هذه المجامع العلمية وانتقلت سمعة أصحابها عبر البحر ، كما تشير الى ذلك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية التى تحدثت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية ، فقد كانوا قادرين على اشفاء المرضى ومعرفة النباتات الطبية والجغرافيا والعلامات المميزة للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء والتنبؤ بالمستقبل والعمل على نزول المطر ، وأما زملاؤهم الكهنة القراءون من نساخ الكتاب المقدس ، والذين سماهم الاغريق

Peterophores بسبب الريشتين الكبيرتين اللتين كانتا تتردان بهما شعورهم
فقد شاركوهم هذه الشهرة العالمية ، فضلا عن الشهرة الشعبية في مصر .

وهناك كذلك جماعة الكهنة حفظة الوقت ، وجماعة الفلكيين الذين
يحددون أيام الاعياد وأيام المآسى ، وما يشير اليه اليوم من نحوس
أو سعادته ، وهناك أيضا جماعة المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات
الذين كان لهم دور هام في الحياة الدينية في المعبد ، وكان الاله يصحو
في الصباح على نغماتهم وترتيلهم ، وهناك بعض النصوص في دندرة
والمداود وغيرها منظومة على وثيرة إيقاعية ، مع بعض المقاطع التي
ترددها مجموعة من رجال التخت ، كما كانت تتضمن لازمة متكررة ،
هذا وقد أخذ دور هؤلاء المغنيين في ازدياد بمرور الزمن ، حتى رأينا
«كليمان الإسكندري» يشير الى أهميتهم ويضعهم في مصاف الكهنة
الممتازين ، وان كان ذلك موضع شك على الاقل بالنسبة لمراكزهم
الاقتصادية والاجتماعية في العصور القديمة .

وهناك الاداريون الذين كانوا يشرفون على ممتلكات المعبد
ومخصصاته ، وكان يرأسهم جميعا حاكم الاقليم الذي كان يلقب
بالمشرف على الكهنة ، وان كان ييندو أنه كان اشرافا اسميا ، اذ أن
الكثيرين منهم كانوا يشرفون على عدد كبير من معابد الاقليم ، فقد كان
لمعبد أمون في طيبة مثلا ، جهازه الإداري الذي كان يعتبر بمثابة وزارة
قائمة بذاتها ، ولم يكن فيها للموظفين الدينيين أى شأن ، فكان هناك
من يديرون الاراضى من كتبة الضيعة وكتبة الحسابات ورؤساء الجنود
ورؤساء الرديف ، كما كان هناك رئيس الخدم في بلاط المعبود ، وكبير
خدامه والمشرف على موظفيه ورئيس الشرطة ، وكان يوكل بنتاج المعبد
وغلاته الى «رئيس قطعان الماشية من ذوات القرون والاطلافو الريش»
أما الحقول فكانت تحت اشراف مدير الحقول والاراضى الصالحة
للحراث ، وكانت المحاصيل تحت اشراف «رئيس مخزن الغلال المزدوج» ،
وأما الخزينة فكانت تحت اشراف «مدير الخزانة ورئيس كل شئ يقع
تحت يمين الاله آمون» .

وكان تحت كل واحد من كبار الاداريين هؤلاء ، جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الادارى العام لبلاط الاله آمون ، ومع ذلك فقد كان من الممكن عمليا أن يصبح أعضاء الجهاز الادارى الدنيوى على اختلاف درجاتهم من رجال الدين ، وفي أغلب الاحايين كانت الهيئة الادارية لمعبد معين ، بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورئيس خزانة الاله وكاتب داره ومدير خزائن غلاله ، تحت رئاسة حاكم الاقليم ، كما أشرنا آنفا حيث كان يضطلع بجانب وظائفه الادارية ، ببعض المهام الدينية ، كما كان الامر بالنسبة الى «(حعبى زغاي)» أمير أسيوط في عهد سنوسرت الاول ، الذى كان يعتبر نفسه يعتبر نفسه عضوا في الجهاز الدينى ، وأن عمله في المعبد لم يكن يقل كثيرا عن أولئك الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه .

وهناك الى جانب الاعداد الهائلة من المساعدين من غير الكهنة من حراس المباني المقدسة وعمال الصناعة والقصلين والخبازين وزراع الزهور وغيرهم ، فضلا عن الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسامين والنحاتين ، كانت هناك مجموعة من الأشخاص ضخمة وغريبة في آن واحد ، منهم «النساك» (الخلوتية) وهم فريق من الدنيين الراغبين في البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانعزال أو الاختلاء ، وان كان من حقهم الخروج من المعبد متى يشاءون ، ومنهم «الندزيون»^(٧) الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاله والانقطاع للعبادة ، وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع من الحماية لقاء تنازلهم للمكثانة عن بعض ممتلكاتهم ، وكان في استطاعتهم أن يمارسوا إحدى الوظائف الملحقه بخدمة الاله ، ومنهم «المستجيرون» والذين يجدون في قربهم من مذهب الاله راحة لانفسهم ولماذا يهرعون اليه هربا من متاعب الحياة التى يجدونها على أيدي الشرطة ومحصلى الضرائب والتجنيد وغير ذلك من مشكلات الحياة ، وهناك الاشرار الذين يكتفون بالامن

(٧) قارن : الندزيون عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهران : اسرائيل - الحضارة - الكتاب الرابع - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٠ - ١٥١)

المادى الذى يكفله لهم المعبد ، لقاء قيامهم ببعض الاعمال البسيطة من أجل لقمة العيش التى ينالونها .

وهناك الذين جاءوا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم عن طريق الاحلال ، وهناك أهل الكسف وهواة العذاب الذين عرفتهم معابد العصور المتأخرة ، وتصورهم نصوص المنجمين بأن « أهملهم للعناية بأجسادهم كان رهانا لكمالهم الروحى ، فقد كانوا يلبسون ثيابا رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل الحصن ، وكانوا أحيانا يكبلون أجسامهم الهزيلة بالسلاسل اشارة لسجنهم الاختيارى ، ولاشك أنهم كانوا يفرضون على أنفسهم الامتناع التام عن بعض الاشياء ، ويجبرون أنفسهم على النظام ، كما أن زهدهم فى الحياة يجعلهم فى نظر العامة من الناس يستحقون أن يتجلى عليهم الاله ، وكانوا يقومون أحيانا بشرح الاساطير الالهية للزوار والسائحين والحجاج قائمين بذلك بوظيفة التراجمة ، كما كانوا كثيرا ما يزعمون التنبؤ بالغيب ، وتتابعهم الرعدة عند التنبؤ فيجنون بعض المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعترهم»^(٨) .

(٥) المرأة والكهانة :

لم تكن المرأة بعيدة عن الخدمة الدينية ، فقد كانت بعض النساء يتفرغن لخدمة المعبد ، كما يفعل الرجال ، ومن ثم فقد رأينا فى الدولة القديمة بعض النسوة اللاتى يتباهين بأنهن كاهنات للالهة نيت وحتحور وربما يقمن بطقوس العبادة كالرجال ، وربما كن من سيدات المجتمع أو

(٨) سيج سونيرون : المرجع السابق ص ٦٤ - ٨٢ ، ١٤٨ - ١٤٩ ،
نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٢ ، ٤٥٠ - ٤٥١ ،
ياروملاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ١٦٦ - ١٦٨ .

مجرد بنات كهنة ورثن وظلن ابائهن ، وأما ظهور المرأة كمغنية أو موسيقية فأمر أكثر شيوعا ، وتحفل النقوش بمنساطر للنساء يمكن بالصلصال أو يعزفن على الجنك أمام المعبود لارضائه .

هذا وقد ظهر منذ الدولة الحديثة لقب كهنوتى جديد حملته الملكات أو الاميرات اللاتى سيصبحن ملكات ، وهو لقب «زوجة الاله» أى زوجة الاله آمون ، ومن ثم فقد أصبحن ينلن ، بجانب حقوق الوراثة ، مركزا دينيا ممتازا ، يتصل بآمون رع ، وكما أشرنا من قبل ، أن هذه الوظيفة انما نشأت فى السنوات الاولى من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «ايح حوتب» و «أحمس نفرقارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا فى عصور متأخرة أن اللاتى كن يشغلنه أميرات ، ولسن ملكات ، كما أصبح له فيما بعد أهمية سياسية كبرى ، ذلك أنه منذ الاسرة الحادية والعشرين أصبح لقب زوجة الاله ، وعابدة الاله ، من نصيب ابنة الملك ، التى أصبحت الزوجة الملكية للاله آمون ، كما أصبح محرما عليها أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا .

وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخما ، وتساوى الملك أباهما ، فقد كانت تمتلك الضياع الضخمة وتشرف على موظفين يخدمونها ، وتتخذ مجموعة من الألقاب ، وتحيط اسمها بخرطوش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحفظ بأعياد اليوبيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، وتقدم القرابين للالهة ، وكانت هذه الحقوق الضخمة لزوجة الاله سببا فى دفع غراعين الاسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبني زوجة الاله لابنة الملك حتى تخلفها فى وظيفتها ، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «بعنخى» و «بسماتيك» الاول والثانى ، وقد

نالَت ابنة الاخير لقب «الكاهن الاول لآمون» ، وهى وظيفة لم تحصل
عليها أية «زوجة اله» من قبل (٧) .

-
- (٩) محمد بيومى مهران : مصر : الجزء الثالث ص ١٣١ ، ٦٠٣ ،
٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤ .
وكذا
R. A. Camminos, JEA, 50, P. 71-101.
J. Lechant, JNE, 1954, P. 169. وكذا
E. R. Russmann, an Index to Egyptian Sculpture of The Late Period,
1971, P. 5.
T. H. Jarmes, CAH, II, Part, I, 1973, P. 307-308; A. H. Gardiner, Op.
Cit., 206, 343, 344-355; ASAE, V. 1905 P. 84, F. M. A. Murray, Op.
Cit., P. 28-29; A. Mariette, Les Mastabas de L'ancienne Empire Paris,
1889, P. 90, 162, 183.

القسم الثاني

الديانات السماوية

(١) تمهيد

اعتاد المؤرخون — القدامى منهم والمحدثون ، العرب منهم وغير العرب ، المسلمون وغير المسلمين — ولا نزعهم لانفسنا تفردا من دونهم ، وانما تشهد على انفسنا أننا فعلنا ما فعلوا ، وكتبنا بالطريقة التي بها كتبوا ، نقول اعتاد المؤرخون أن يقدموا لنا «الديانة المصرية القديمة» وغيرها من ديانات الشرق الادنى القديم ، كما يقدمون «تاريخ مصر والشرق الادنى القديم» ، طبقا للمصادر التقليدية (الاثار — كتابات المؤرخين من الاغارقة والرومان — الكتابات اليهودية والنصرانية التاريخية) ، وهذه تقدم لنا هذا التاريخ — الدينى والسياسى — وكأنه تاريخ وثنى من اوله الى آخره ، لا دور للنبوات فيه ، ولا أثر للكتب السماوية بين صفحاته ، وكأن الله تعالى لم يبعث في هذه المنطقة أنبياء ، ولم ينزل فيها كتب .

والحق أن الامر غير ذلك تماما ، ذلك لان النبوات التي نعرفها — باستثناء نبوة النبى الخاتم ، محمد ﷺ (٥٧١ — ٦٣٢م) ، الذى أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا — انما تقع فى النطاق الزمنى لهذا التاريخ القديم ، وفى منطقة الشرق الادنى القديم ، أو قل منطقة الشرق العربى القديم .

وليس هناك من شك فى أن الشرق العربى القديم (مصر والشرق الادنى القديم) انما يحتل فى تاريخ الدنيا القديم ، مكانة لا يتناول اليها تاريخ أمة أخرى فى هذه الدنيا ، فمنه انبثقت الحضارة الانسانية ، فأنبتت وأثمرت أطيب الثمرات ، ووجهت الفكر الانسانى ، وتسامت وانبعثت أضواؤها التى أشعتها على العالم ، فنعم بها دهورا ، ولا يزال ينعم بثمارها ، ففى هذه البقعة من أرض الله ، ألقيت الحبة الاولى وحلقت ، حتى أدركت قوة الخالق — جل وعلا — فمجدته بعد أن عرفته ،

وآمنت أنه لا إله إلا هو، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ثم بشرت به الناس كافة .

وقد شاعت إرادة الله تعالى - ولا راد لمشيئته - أن يجعل هذه البقعة من الأرض ، موطن الهداية ومبعث النور ، فاصطفى منها أنبياء ومرسلين ، فكان منها «نوح» عليه السلام ، وكان منها «إبراهيم» أبو الأنبياء وخليل الرحمن ، وكان منها «موسى» كلمه ، و «عيسى بن مريم» كلمته وروحه ، وكان «محمد» صفيه وحبيبه ، وخاتم أنبيائه ومرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والحق أنه ليس هناك واحد من الأنبياء المعروفين لنا ، إلا وكان من هذا الشرق الخالد^(١) ، وعلى أرضه نزلت التوراة والإنجيل والمقرآن العظيم ، فضلا عن صحف إبراهيم وموسى ، وزبور داود وحكمة سليمان ، فأسهمت جميعها في توجيه البشرية وقيادتها ، إلى طريق الحق والأخاء والحب والفضيلة ، والتراحم والفداء ، وقبل ذلك كله وبعده ، إلى عبادة الله الواحد الأحد .

(١) ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين نبيا هم : آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس ، وداود وسليمان والياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند الكثيرين من المفسرين ، وسيدهم محمد ، ﷺ (أنظر : تفسير ابن كثير ١/ ٨٩٠ - ٨٩٦ - بيروت ١٩٨٦ ، تفسير البضاوى ٢/ ٣١٢)

وقد قدم المؤلف دراسات مفصلة عن تاريخ النبوات في أربعة أجزاء تحت عنوان : «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» :

- ١ - الجزء الأول - في بلاد العرب - بيروت ١٩٨٨
- ٢ - الجزء الثاني - في مصر - بيروت ١٩٨٨
- ٣ - الجزء الثالث - في بلاد الشام - بيروت ١٩٨٨
- ٤ - الجزء الرابع - في العراق - بيروت ١٩٨٨

واذا كان ذلك كذلك ، وهو كذلك على وجه اليقين ، فان دراسة تاريخ مصر والشرق الادنى القديم على أنه تاريخ وثنى ، ليس لدعوات الانبياء دور فيه ، انما يتنافى تماما مع الحقائق التاريخية والدينية فضلا عن تعارضه لما جاء في كتب السماء ، ويدهى أنه ليس من العلم ، فضلا عن الايمان بكتب السماء ، أن نتغاضى تماما عن أمر أجمعت عليه هذه الكتب ، وعلى رأسها «القرآن الكريم» كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٢) .

وانطلاقا من كل هذا ، فاننا فى دراستنا هذه للديانة المصرية القديمة، لن نقدمها — كما اعتدنا واعتاد غيرنا — على أن القوم فى مصر كانوا طوال عصورهم الفرعونية يدينون بالوثنية حصص ، وانما دانوا كذلك، وفى فترات من تاريخهم هذا ، بالوحدانية التى جاء بها رسل الله الكرام البررة ، ومن ثم فاننا سوف نتعرض لتاريخ النبوات فى مصر ، كما سنتعرض لتاريخ الوثنية المصرية ، حتى نقدم لعقيدة القوم فى تلك العصور الغابرة ، صورة ربما كانت أقرب الى الحقيقة ، عن الديانة المصرية القديمة فى عصور الفراعين .

ولعل الذى دفعنى الى ذلك أمران ، الواحد : أن المؤرخين ، كما أشرنا آنفا ، اعتادوا على أن يقدموا لنا الديانة المصرية القديمة على أنها ديانة وثنية صرفة ، وهو أمر غير صحيح ، على وجه اليقين .

والاخر : تلك الدعوى ، أو ذلك الزعم الذى شاع بين الناس ، من كثرة تردد المؤرخين له ، من أن فرعون مصر العظيم «أخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) ، انما كان أول داعية للتوحيد عرفته البشرية (٣) وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، ومن ثم فقد كانت عقيدته فى «أتون» أول صيغة انسانية عالمية عرفتها

(٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة فى كتاب مستقل عن اخناتون (أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩) .
(٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٣ — ٤٨٤ .

البشرية جمعاء تدعو الى التوحيد ، أو على الأقل ، الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان اخناتون أول من بشر الناس ، كل الناس ، بالله واحد لا شريك له ، وقال عنه في تسييحاته «اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذي ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ، وكنت فردا ، خلقت البشر والانعمام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويخلق في الفضاء بجناح» *

ومن هنا كان اعجاب بعض العلماء به ، اعجابا كاد أن يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ومن هنا كان تسعينا العربي في مصر ، أول شعب في هذه الدنيا شق طريقه نحو الايمان بالخالق الاعظم ، وآمن بخلود الروح ، وبنظرية الجزاء ، ليست كلاما يقال ، ولا كتبا تروى ، ولكنها رسوم عجز الدهر أن يمحوها أو يزيلها من جدران المعابد في كل مكان من أرض الكنانة من عصور الفراعين *

ونحن لا ننكر على اخناتون دعوته للوحدانية ، ولكننا ننكر — الانكار كل الانكار — أن اخناتون انما كان أول داعية للتوحيد عرفت البشرية ، فلقد سبقه الى ذلك أبو البشر «آدم» عليه السلام ، كما سبقه أيضا اثنان من أولى العزم من الانبياء ، نوح وابراهيم ، عليهما السلام *

هذا فضلا عن أن دعوة التوحيد لم تكن أمرا غريبا على مصر ، فمن المعروف أن مصر قد عرفت الكثير من انبياء الله الكرام البررة ، عرفت ابراهيم الخليل ، وابن أخيه لوط^(٤) ، عليهما السلام ، كما عرفت يعقوب ويوسف ، عليهما السلام^(٥) ، وعرفت موسى وهارون^(٦) ، كما عرفت

(٤) تكوين ١٢/١٠ - ٢٠ ، صحيح البخارى ١٧١/٥ ، ٢٧/٩ - ٢٨ ، فتح البارى ٣٩٤/٦ .

(٥) سورة يوسف : مية ٥٨ - ١٠١ ، تكوين ١٨/٢٧ - ٢٨ ، ١/٣٩ - ٢٦/٥٠ .

(٦) أنظر : سورة الاحراف : آية ١٠٣ - ١٣٧ ، سورة طه : آية ٩ - ٨٠ ، سورة الشعراء : آية ١٠-٦٨ ، سورة القصص آية ١-٤٢ ، سفر الخروج .

المسيح عيسى بن مريم^(٧) ، هذا الى جانب يشوع بن نون ودانيال وارميا ، فيما يرى الباحثين^(٨) .

(٢) حاجة البشرية الى الرسول والرسالات

من المعروف أن الله تعالى انما قد أرسل الى عباده — ومنهم سكان مصر — «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»^(٩) ، ذلك لان الله تعالى قد أعطى البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الايمان في الانفس والآفاق ، ولكنه سبحانه ، رحمة منه بعباده ، وتقديرا لغلبة الشهوات على تلك الاداة العظيمة التي أعطاها لهم — أداة العقل — اقتضت حكمته أن يرسل اليهم الرسل «المبشرين ومنذرين» يذكرونهم ويبيصرونهم ، ويحاولون استنفاد فطرتهم وتحرير عقولهم من ركam الشهوات ، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموجيات الايمان في الانفس والآفاق .

هذا فضلا عن أن العقل الذي آتاه الله الانسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول الى الهدى ، بخير توجيه من الرسالة وعون وضبط ، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الانسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ، وينجى صاحبه من سوء المآل في الدنيا والاخرة ، ومن ثم فقد شاعت حكمة الله ورحمته أن يبعث للناس بالرسل ، وألا يؤاخذ الناس الا بعد الرسالة والتبليغ^(١٠) ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»^(١١) .

ويقول ابن قيم الجوزية : ان اضطرار العباد فوق كل ضرورة الى

(٧) انجيل متى ١٣/٢ - ١٥ ، ٢٠ - ٢١ .

(٨) ملوك ثان ٢٥/٣٦ ، ارميا ١/٤٤ ، وانظر : الكندي : فضائل مصر - القاهرة ١٩٧١ ص ٣٧ .

(٩) سورة النساء آية ١٦٥ .

(١٠) في ظلال القرآن ٢/٨٠٥ - ٨٠٦ (بيروت ١٩٨٠) .

(١١) سورة الاسراء : آية ١٥ .

معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل الى السعادة والفلاح ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، الا على أيدي الرسل ، ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل ، الا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة الا على أيديهم ، فالطيب من الاعمال والاقوال والاخلاق ، ليس الا هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح ، الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الاخلاق والاعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة اليهم أعظم من ضرورة البدن الى روحه ، والأمين الى نورها ، والروح الى حياتها ، فأى ضرورة وحاجة غرضت ، فضرورة العبد وحاجته الى الرسل فوقها بكثير (١٢) .

ويقول ابن تيمية : الرسالة ضرورة للعباد لا بد لهم منها ، وحاجتهم اليها فوق حاجتهم الى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونور حياته ، فأى صلاح العالم ، اذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملمونة الا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، وينال من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الاموات ، قال تعالى «أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» ، فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل ، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الايمان ، وجعل له نورا يمشى به في الناس ، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات (١٣) .

ومن هنا كثر الانبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة ، حتى أنه ما من أمة ، الا وجاءها رسول من عند الله العلى القدير ، يقول

(١٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد - تحقيق شعيب الارنؤط وعبد القادر الارنؤط - الجزء الاول ص ٦٩ - ٧٠ (بيروت ١٩٨٥) .

(١٣) ابن تيمية : الفتاوى ٩٣/٩ - ٩٦ (الرياض ١٣٨١ هـ) ، سورة الانعام : آية ١٢٢ ، وانظر : عمر الاشقر : الرسل والرسالات ص ٢٩ - ٣٩ (الكويت ١٩٨٥) .

سبحانه وتعالى «وان من أمة إلا خلا فيها نذير»^(١٤) ، ويقول «وكم أرسلنا من نبي في الأولين»^(١٥) ، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»^(١٦) ، «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك»^(١٧) .

ومن هنا كان الخلاف على عدد الانبياء عليهم السلام^(١٨) ، وقد جاء في حديث أبي ذر المشهور : قلت يا رسول الله ، كم من الانبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قلت يا رسول الله : كم الرسل

(١٤) سورة فاطر : آية ٢٤ ، وانظر : تفسير الفخر الرازي ١٨/٢٦ ، تفسير الطبري ١٣٠/٢٢ (ط الحلبى ١٩٥٤) ، تفسير روح المعاني ٢٢/١٨٨ ، تفسير مجمع البيان ٢٣٠/٢٢ - ٢٣٨ ، تفسير البضاوى ٢٧١/٢ ، تفسير ابن كثير ٨٧٩/٣ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير النسفى ٣٣٩/٣ .

(١٥) سورة الزخرف : آية ٦ ، وانظر : تفسير القرطبي ٦٣/١٦ - ٦٤ ، تفسير النسفى ١١٣/٤ ، تفسير الطبري ٥١/٢٥ ، تفسير روح المعاني ٦٥/٢٥ - ٦٦ ، تفسير البضاوى ٢٦٣/٢ ، تفسير الفخر الرازي ١٩٢/٢٧ - ١٩٣ ، تفسير الكشاف ٤٧٨/٣ ، تفسير القاسمى ٥٢٥٩/١٤ ، تفسير مجمع البيان ٧١/٢٥ - ٧٢ ، تفسير ابن كثير ١٨٥/٤ - ١٨٦ .

(١٦) سورة غافر : آية ٧٨ ، وانظر : تفسير النسفى ٨٥/٤ ، تفسير البضاوى ٤٣٢/٢ ، تفسير الطبري ٨٦/٢٤ - ٨٧ ، تفسير القرطبي ١٥/٣٣١ - ٣٣٤ ، تفسير روح المعاني ٨١/٢٤ ، تفسير مجمع البيان ٢١٦/٢٤ - ٢١٨ ، تفسير الفخر الرازي ٨٨/٢٧ ، تفسير القاسمى ٥١٨٢/١٤ ، تفسير ابن كثير ١٣٣/٤ - ١٣٤ ، تفسير الكشاف ٤٣٨/٣ .

(١٧) سورة النساء : آية ١٦٤ ، وانظر : تفسير الطبري ٤٠٢/٩ - ٤٠٧ (دار المعارف - القاهرة ١٩٥٧) تفسير أبى السعود ٨١٦/١ - ٨١٧ ، تفسير المنار ٥٥/٦ - ٦٣ ، تفسير ابن كثير ٨٩١/١ - ٨٩٥ ، تفسير مجمع البيان ٢٩٣/٥ - ٢٩٤ ، تفسير الكشاف ٥٨٢/١ ، تفسير الفخر الرازي ١٠/١٠٧ - ١٠٨ ، تفسير قرطبي ص ٢٠١٣ - ٢٠١٤ .

(١٨) ذهب قائل الى أنهم مائة الف وأربعة وعشرون ألفا ، ومن قائل أنهم ثمانية الاف ، منهم أربعة الاف من بنى اسرائيل ، وأربعة الاف من سائر الناس ، ومن قائل أنهم أربعة الاف ، ومن قائل أنهم ثلاثة الاف ، وأن الرسل من الانبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم ، وآخرهم محمد ﷺ ، (انظر : تفسير ابن كثير ٨٩٠/١ - ٨٩٦ ، تفسير القرطبي ص ٢٠١٤ - ٢٠١٥ ، تفسير الكشاف ١٨/١٣ - ١٩ ، تفسير المنار ٥٠٠/٧ - ٥٠٧ ، تفسير روح المعاني ٨٨/٢٤ - ٨٩ ، مجمع الزوائد ٢١٠/٨ ، أعلام النبوة للماوردي ص ٥٢ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٦) .

منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير ، قلت يا رسول الله : من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت يا رسول الله ، نبي مرسل ؟ قال نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبيلة ، وفي رواية «أول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك» وفي رواية ثالثة «أول المرسل آدم ، وآخرهم محمد» (١٩) .

(٣) أهم الدعوات السماوية في مصر

(١) دعوة ابراهيم الخليل عليه السلام :-

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن دعوة التوحيد التي نادى بها أبو الانبياء ، سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام (٢٠) ، في ربوع الكنانة ، انما كانت أول دعوة سماوية تصل الى المصريين ، لدينا عنها وثائق من التوراة والتاريخ والحديث الصحيح (٢١) ، وان كان هذا لايعنى أبداً أن المصريين لم يعرفوا دعوات السماوية قبل عصر ابراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) ، ذلك لان الله تعالى انما يخبرنا في القرآن الكريم - كما أثرننا من قبل - أنه ما من أمة الا وجاءها رسول من رب العالمين ، وأن الله تعالى قد قص على نبيه الكريم ، سيدنا محمد ﷺ ، بعضاً منهم ، ولم يقصص بعضاً آخر (٢٢) .

هذا فضلا عن أن هناك رأياً نذكره هنا لمجرد الاستئناس به ، لا نقره

(١٩) تفسير ابن كثير ١/ ٨٩٠ - ٨٩٦ ، وانظر : مسند الامام أحمد ٥/ ٢٦٥ - ٢٦٦ ، تفسير روح المعاني ٢٤/ ٨٨ ، مجمع الزوائد للهيثمى ٨/ ٢١٠ ، مشكاة المصابيح ٣/ ١٢٢) .

(٢٠) قدم المؤلف عدة دراسات عن سيدنا ابراهيم عليه السلام (انظر : محمد بيومي مهران : امرائيل الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥٠ - ١٨٤ ، دراسات قاريضية من القرآن الكريم - الجزء الاول ص ١١٣ - ٢٣٥ ، الجزء الرابع ص ١٠٥ - ١٧٢ (بيروت ١٩٨٨) مصر - الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤١٥ - ٤٣٦) .

(٢١) صحيح البخارى ٤/ ١٧١ ، ٩/ ٢٧-٢٨ ، فتح البارى ٦/ ٢٤٦ ، تكوين ١٢/ ١ - ٢٥/ ١١ .

(٢٢) انظر : سورة فاطر : آية ٢٤ ، الزخرف : آية ٦ ، غافر : آية ٧٨ ، النساء : آية ١٦٤ .

ولا ننفيه ، يقول بعض الباحثين أن «أوزيريس» انمسا هو تعريب لكلمة «أوزيريس» المصرية القديمة — كما أن «يحيى» تعريب لكلمة «يوحنا» و «اليسع» تعريب لكلمة «اليسع» — وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة^(٢٣) ، فهم يعتقدون أنه صعد الى السماء ، وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت ، فوجدت حسناته ترجح سيئاته ، فإنه يلهق بأوزيريس (أوزير^(٢٤)) الذى جعلوه الها لهم ، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده الى السماء^(٢٥) .

ونحن لا نملك من الوثائق ما يساعدنا على تحديد زمن «أوزيريس» عليه السلام ، ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم عليه السلام ، كما أنه ليس من أنبياء من بنى إسرائيل لعدم ذكره مطلقا في كتبهم ، والقرآن الكريم يصفه بأنه كان صديقا نبيا ، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا ،

(٢٣) انظر عن أسطورة أوزير : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية - الآداب والعلوم - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠ - ٢٨ ، وكذا H. P. Cooke, Osiris, A Study in Myths, Mysteries and Religion, London, 1931.

وكذا M. A. Murray, Ancient Egyptian Legends, London, 1931. Plutarch, Isis and Osiris, Trans. by F. C. Babbitt London, 1963. I. Spence, The Myths and Legends of Ancient Egypt, London, 1915.

(٢٤) يذهب « تشرنى » الى أن اسم « أوزير » الذى اشتق منه الاسم الاغريقى « أوزيريس » يبدو أن معناه « حذقة العين » أو « مستقر العين » ، ويبدو أنه اسم بشرى الاصل ، ويحتمل أن « أوزير » كان ملكا دنيويا حقيقيا ، أضحى ممجدا أو مقدسا بعد وفاته ، والاسطورة التى نسجت عنه لم تركز اهتمامها على حياته الاولى « كملك » أو « كحاكم لمصر » إنما وجهت اهتمامها على موته ، وعلى بعثه من جديد بعد مصرعه المأسوى ، والذى أضحى بعده حاكما أو ملكا على عالم الموتى ، ولا توجد رواية شاملة أو حتى كاملة معروفة حتى الآن لقصة أوزير فى الوثائق المصرية ، ومصدرنا الرئيسى عن القصة هو « بلوتارخ » عن « ايزيس وأوزيريس » وأنه كانت هناك اشارات متواترة فى النصوص المصرية يتضح من سياقها أن الاسطورة التى أوردها « بلوتارخ » تتسق جوهرها مع المفاهيم العقيدية المصرية (ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٤٠) .

(٢٥) انظر أوزير : الفصل الخاص بالمعبودات المصرية من هذا الكتاب .

فأعلى قدره ، ورفع ذكره (٢٧) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن القرآن الكريم لم يشر الى زيارة ابراهيم عليه السلام لمصر ، وإنما أشار اليها الحديث الشريف ، وهذا مانؤمن به ونصدقه تماما عن عقيدة وإيمان ، وقد روى الامام البخارى في صحيحه روايتين عن القصة ، وكلاهما من رواية أبى هريرة (٢٧) ، ولم يذكر سيدنا رسول الله ، ﷺ أن هذا الملك أو الجبار الذى تعرض لابراهيم عليه السلام ، هو ملك مصر ، وإنما فهم ذلك من الرواية الاولى من قول أبى هريرة عن السيدة هاجر «تلك أمكم. يابنى ماء السماء» (٢٨) ، وان كان ذكر «هاجر» فى الروايتين إنما يشير الى مصر ، فمن المعروف أن هاجر سيدة مصرية تتجمل اسما مصرية ، وزد فى الآثار المصرية بما لا يدل على غير تصحيف يسير ، اذ نقسروه فى المصرية «هاقر» و «هقرة» (٢٩) .

وأما تشريف الخليل عليه السلام أرض الكنانة بالزيارة ، فيرجح العلماء — أو يكادون — أن ذلك إنما كان على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق.م) ، وربما فى عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق.م) ومن المعروف أن ابراهيم الخليل عليه السلام قد عاش فى الفترة (١٩٤٠ — ١٧٦٥ ق.م) (٣٠) .

(٢٦) فى ظلال القرآن ٢٣١٣/٤ — ٢٣١٤ ، وانظر عن الاساطير التى دارت حول ادريس عليه السلام (عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء — القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ — ٢٩) .
(٢٧) صحيح البخارى ١٧١/٤ ، ٢٧/٩ — ٢٨ ، وانظر : فتح البارى ٢٤٦/٦ .

(٢٨) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٤٢٣ — ٤٣٦ .
(٢٩) أحمد عبد الحميد يومف : مصر فى القرآن والسنة ص ١١ — ١٣ ، وكذا

H. Ranke, Die Agyptischen Persoennamen (Glickstadt, 1935, 1952), Band, I, S. 231.

(٣٠) أنظر (محمد بيومى مهران : إسرائيل ٧٢/١ — ٨٢ ، ٩١ — ١٠٤ ، مصر ٤٢٣/٢ — ٤٣٦) .

وأيا ملكان الامر ، فلقد أمضى الخليل عليه السلام في مصر ، فترة لاندرى مداها على وجه اليقين ، عمل فيها على نشر دعوة التوحيد ، التي حمل لواءها طوال عمره ، بين قوم كادوا أن يألّفوا تعدد الالهة ، ولم يجدوا فيه شيئا اذنا ، ومن ثم فقد بدأ في اصلاح عقيدة الكهنة أولا ثم عامة القوم بعد ذلك ، وعلى آية حال ، فلقد رأى ابراهيم عليه السلام المصريين متشبسين بعبادات ثنتى ، يخالف بعضها البعض الاخر ، مما أدى الى أن يخالف بعضهم بعضا ، والى أن يعادى بعضهم بعضا من أجلها ، ومن ثم فقد جعل يناقشهم فيها ، كل فريق على حدة ويبيد لهم جميعا أنها ليست على شيء من الحق ، ويحل بذلك منهم محل الاعجاب ، فيتعلمون أنه لم يكن على نصيب واقر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم المقرة على اقناع سامعيه في كل موضوع تناوله بالبحث ، الامر الذي ساعده كثيرا على تبليغ رسالته ، ونشر دعوة التوحيد بين المصريين ابان اقامته بينهم (٣١) .

(٢) دعوة يوسف الصديق عليه السلام :

يوسف الصديق عليه السلام هو : يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد أثنى عليه ربنا ، جل جلاله ، في القرآن الكريم بقوله تعالى «كذلك انصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين» ، كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله الشريف : «ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» ، وقد جاءت قصته في سورة كاملة من القرآن الكريم ، هي سورة يوسف (٣٢) ، كما جاءت قصة

(٣١) تكوين ١٢/١٠ ، عباص العقاد : ابراهيم أو الانبياء ص ٩٧ - ٩٨ ، ماير : حياة ابراهيم ص ٦٢ ، وكذا

W. Keller, The Bible as History, P. 87.

(٣٢) انظر عن قصة يوسف عليه السلام من وجهة النظر الاسلامية (سورة يوسف آية ١ - ١٠٢ ، صحيح البخار ٩٨-٩٤/٦ ، تفسير الطبرى ٥٤٧/١٥ - ٥٨٦ ، ١/١٦ - ٣١٥ (دار المعارف) ، تفسير النسفى ٣٥٢/٢ - ٣٩٧ ، تفسير الطبرى ٥/١٣ - ١٣٤ ، تفسير الفخر الرازى ٨٣/١٧ - ٢٩٩ ، صفوة التفاسير ٣٩/٢ - ٧١ ، تفسير الجلالين

وأما قصة يوسف عليه السلام في مصر فكانت في عصر الهكسوس (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق م) (٣٤) ، وتبدأ حين اشتراه رئيس الشرطة المصري بثمن بخس دراهم مدودة ، غير أن الصديق عليه السلام ، سرعان ما أصبح ذا حظوة لدى سيده ، الا أنه تعرض في أخريات أيامه في قصر رئيس الشرطة الى امتحان رهيب ، حيث راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فاستعصم ، الامر الذي أدى به آخر الامر الى السجن •

وكان ملك مصر من الهكسوس قد أدخل معه صاحب طعامه وصاحب شرابه ، بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم في الطعام والشراب ، فراح الصديق يدعوهما الى الله ويذهب عنهما حزنهما ، ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما ، ويرى السجناء في مسلكه الطاهر ما يجذبهم اليه ، فيطلبون اليه تفسير الرؤيا ، وتأويل الاحلام ، ويكاد القرآن الكريم والعهد القديم يتشابهان الى حد ما في عرضهما للامر ، وان استغرقت التوراة طويلا في رؤيا السجينين (٣٥) •

ص ٣٠٢ - ٣٢٠ ، تفسير أبي السعود ٧٧/٣ - ١٤٣ ، في ظلال القرآن ١٩٤٩/٤ - ٢٠٣٧ ، تفسير الدر المنثور ٢/٤ - ٤٣ ، تفسير القرطبي ص ٣٣٤٧ - ٣٥٠٦ ، تفسير المنار ٢١٢/١٢ - ٢٦٨ ، تفسير ابن كثير ٧٢١/٣ - ٧٦٣ ، تفسير الخازن ٢٦٢/٣ - ٢٩٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٧/١ - ٢٢٠ ، تاريخ الطبري ٣٣٠/١ - ٣٦٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤٤/٢ - ٤٧ ، تاريخ ابن الأثير ٧٨/١ - ٨٨ ، تفسير ابن عباس ٤٩٧/٢ - ٥٠٢ ، صحيح البخاري ٩٤/٦ - ٩٨ ، حسن باجودة : الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام - جده ١٩٨٣ •

(٣٣) أنظر : الاصحاح ٣٧ ثم الاصحاحات من ٣٩ الى ٥٠ من سفر التكوين •

ثم انظر مقارنة بين قصة يوسف عليه السلام ، كما جاءت في التوراة والقرآن الكريم (محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - في بلاد العرب - الرياض ١٩٨٠ ص ٧١ - ٨٦) (٣٤) أنظر عن عصر يوسف عليه السلام (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٢٤٩/١ - ٢٥٩) •

(٣٥) سورة يوسف : آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، تكوين ١/٤٠ - ٢٠ •

على أن القرآن الكريم وحده — من دون التوراة — يذكر دعوة يوسف عليه السلام ، وهو في السجن ، الى توحيد الله ، وبث العقيدة الصحيحة ، ويظهر جليا في هذه الدعوة لطف مدخله الى النفوس ، وسيره خطوة خطوة في رفق ومؤدة (٣٦) ، «قال لا يأتیکما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن یأتیکما ذلكما مما علمنی ربی» (٣٧) ، وكأنه أراد اخبارهما بمعجزاته توطئة لدعائهما الى الايمان ، قال الامام البيضاوي : أراد أن يدعوهم الى التوحيد ويرشدهما الى الدين القويم ، قبل أن يسعفهما الى ما سلاه عنه ، كما هي طريقة الانبياء في الهداية والارشاد ، فقدم ما يكون معجزة له من الاخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير (٣٨) . ثم يتوغل في قلوبهما أكثر ، ويفصح عن دعوته ، ويكشف عن فساد اعتقادهما ، واعتقاد قومهما يعد ذلك التمهيد الطويل (٣٩) ، «انی ترکت ملة قوم لا یؤمنون بالله وهم بالآخرة کافرون» واتبعت ملة آبائی ابراهيم واسحاق ويعقوب ما کان لنا أن نشرك بالله من شیء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشکرون ، یا صاحبی السجن أرباب متفرقون خیر ، أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دون الله الا أسماء سمیتوها أنتم وآباؤکم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين المقيم ، ولكن أكثر الناس لا یعلمون» (٤٠) .

وليس هناك من شك ، أن هذه صورة للاسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة ، كما جاء بها رسل الله جميعا ، من ناحية أصول العقيدة محتوي الايمان بالله وبالاخرة ، وتوحيد الله وعدم الاشرار به أصلا ، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار ، والحكم بعدم وجود حقيقة ولاسلطان

-
- (٣٦) التهامي نقره : سيكولوجية القصة في القرآن - تونس ١٩٧٤ ص ٥٣٥ .
 (٣٧) سورة يوسف آية ٣٧ .
 (٣٨) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٦٤ .
 (٣٩) محمد رجب البيومي : البيان القرآني - القاهرة ١٩٧١ ص ٢٢٥ .
 (٤٠) سورة يوسف : آية ٣٧ ، ٤٠ .

لغيره أصلا ، ومن ثم نفى الارباب التى تتحكم فى رقاب العباد ، واعلان السلطان والحكم لله وحده ، ملدام أن الله تعالى أمر أن لا يعبد الناس غيره ، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هى تعبيد للناس مخالف للامر بعبادة الله وحده ، وتحديد معنى «العبادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم ، والاذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه افراد الله تعالى بالعبادة ، أى افراده بالحكم ، فهما مترادفان متلازمان «ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم» ، وهذه هى أوضح صورة للاسلام وأكملها وأدقها وأشملها (٤١) .

وهكذا بلغ الصديق عليه السلام ، أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه ، مرتبطا فى مطلقه بالامر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن ، ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة فى قوله كله ، وتعلقا به ، «يا صاحبي السجن أما أحكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان» (٤٢)

وتمضى الايام ، ويرى ملك مصر حلما غريبا لا يقدر على تفسيره أحد ، فتذكر السجين السالف براءة يوسف ، ويشير به ، ثم ينهض الى استفتائه فينطلق بالتأويل الصحيح ، والى هذا يشير القرآن فى الايات (٤٣ - ٤٩) من سورة يوسف ، قال الامام الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السمان والمستبلات الخضر بسنين مخصيب ، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بالعام الثامن يجرى مباركاً خصيباً كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي (٤٣) ، لان هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك فهو اذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف ، فبشر به الساقى ليبشر به الملك والناس بالخلاص من الجذب والجوع بعام رضى رغيد .

وهكذا تشاء ارادة الله — ولا راد لمشيئته — أن يصبح الصديق

(٤١) فى ظلال القرآن ٤/ ١٩٦٠ .

(٤٢) سورة يوسف : آية ٤١ .

(٤٣) تفسير الكشاف ٢/ ٤٧٧ .

على خزائن الارض أمينا ، بعد أن كان في زوايا الارض سجيناً ، إذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيراً يتفق ومقام النبوة ، ويتنزه عن تفسيرات رجال البلاط وحكامه من سدنة وكهان ، فضلاً عن براعته مما نسب اليه ظلماً بشأن امرأة العزيز ، ومن ثم فقد قلده الملك ما يشبه وزارة التمسوين في عصرنا الحاضر^(٤٤) ، وإن كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء^(٤٥) ، وهكذا قدر للصديق أن يرتفع من رق العبودية الى كرسى الوزارة^(٤٦) ، الأمر الذي ساعده كثيراً — بمعون ربه — على نشر دعوة التوحيد .

وأما الدليل على دعوة يوسف التوحيدية من القرآن الكريم ، فقوله تعالى «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب»^(٤٧) ، يقول صاحب الظلال : وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها الى إرسال يوسف عليه السلام ، للقوم في مصر^(٤٨) .

هذا ويشير القرآن الكريم — وكذا التوراة — الى أن يوسف الصديق عليه السلام ، قد استدعى أباه وأخوته للإقامة معه في مصر ،

(٤٤) أنظر : سورة يوسف : آية ٥٤ - ٥٦ ، تكوين ١/٤١ - ٤٢ .

(٤٥) تكوين ٤٠/٤١ - ٤٤ .

(٤٦) ربما كان الصديق — حتماً عن غير يقين — يشرف على ما كان يسمى في مصر القديمة : مصلحة الحقول والخزانة ، فاما مصلحة الحقول : فكان يتبعها الأراضي الزراعية على ضفاف النيل وفروعه ، فضلاً عن تلك التي تقع على حافة الصحراء والمحيط بالمقابر والاهرامات الملكية ، واما مصلحة الخزانة ، وكانت تسمى «بيت المال الابيض» (بر - حج) ، ويتولى ادارتها ، تحت اشراف الوزير ، مدير البيت الابيض المزدوج ، ولها فروع في الاقاليم ، كما كانت تنقسم الى قسمين : بيت الذهب وبيت الشونة ، غير أنه من المؤكد أن يوسف عليه السلام كان يشغل منصب الوزير ، كما وصف في القرآن الكريم (سورة يوسف : آية ٧٨) .

(٤٧) سورة غافر : آية ٣٤ .

(٤٨) في ظلال القرآن ٣٠٨١/٥ ، وأنظر : تفسير القرطبي ص ٥٧٥٦ - ٥٧٥٧ تفسير النسفي ٧٨/٤ ، تفسير ابن كثير ١٢٠/٤ .

يقول تعالى «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجهه أبى يرتد بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين» (٤٩) ، وقد لبث الاسرة الكريمة الدعوة فأنتت الى مصر ، وعلى رأسها نبي الله يعقوب عليه السلام ، وهكذا عرفت مصر — للمرة الثانية — وجود نبيين كريمين يعيشان على أرضها الطيبة، ويؤديان رسالة التوحيد ، في آن واحد ، الواحدة : على أيام ابراهيم الخليل وابن أخيه لوط ، عليهما السلام ، والثانية على أيام يعقوب وولده يوسف ، عليهما السلام ، وسترى الامر نفسه للمرة الثالثة ، على أيام موسى وأخيه هارون عليهما السلام وهو أمر اختص الله به مصر .

(٣) دعوة موسى عليه السلام :

من المعروف أن موسى عليه السلام ، انما ولد ونشأ ونبىء في مصر على أيام الدولة الحديثة (عصر الامبراطورية المصرية ١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق.م) ، وان اختلف المؤرخون أشد الاختلاف في فرعون موسى من بين فراعين الدولة الحديثة ، وان كنت أرجح أنه «مرنبتاح» (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق.م) (٥٠) .

وأيا ما كان اسم الفرعون الذى بعث اليه موسى عليه السلام ، فلقد صدع موسى بأمر ربه ، عز وجل ، فولى وجهه — مع أخيه هارون — شطر قصر فرعون ليدعو صاحبه بدعوة الحق والعدل والعقيدة الصحيحة ، وهو يعرف من هو فرعون ، فقد ربى في قصره ، وشهد طغيانه وجبروته ، وما يصبه على قومه من بنى اسرائيل من عذاب ونكال ، أن موسى عليه السلام ، يعرف ذلك كله ، ويعرف أنه ذاهب لمواجهة أقوى ملك في الارض ، وأطغى جبار ، وأن قومه قد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، ومن ثم فإن رسالة موسى بالذات، قد تكون — فيما يرى صاحب الظلال — أضخم تكليف تلقاه بشر ، عدا

(٤٩) سورة يوسف : آية ٩٣ ، تكوين ٤١/٥٦ — ٢٨/٤٥ .

(٥٠) انظر عن فرعون موسى والآراء التى دارت حوله (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٣٥٧ — ٤٣٩ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢/٢٦٣ — ٣٣٢ ، مصر — الجزء الثالث ص ٤٤٥ — ٥١٠) .

رسالة سيد الاولين والاخرين ، محمد ﷺ ، فهو مرسل الى فرعون الطاغية المتجبر ، والملك المؤله ، أعتى ملوك الارض في زمانه ، وأقدمهم عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعسدا للخلق ، واستعلاء في الارض .

وهو مرسل أيضا لاستتقاذ قومه من بنى اسرائيل ، وهم قوم تسربوا من كؤوس الذل حتى استمروا مذاقه ، فمردوا عليه واستكانوا دهرًا طويلا ، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتغفن ، ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ، ومن الاشمئزاز من العفن والفتن والرجس والدنس ، فاستقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير ، وهو مرسل الى قوم لهم عقيدة قديمة انحرفوا عنها وفسدت صورتها في قلوبهم ، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ، ولا هي باقية على عقيدتها القديمة : ومعالجة مثل هذه القلوب مهمة شاقة عسيرة وهو في اختصار مرسل لاعادة بناء أمة بل لانشائها من أساس (٥١) .

ثم هو قد قتل من المصريين نفسا ، ويخشى القصاص ، ومن ثم فقد رجا ربه أن يرسل معه أخاه هارون يشد به أزره ، ويشركه في أمره «لقال ريب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون» (٥٢) .

واستجاب الله تعالى لموسى ، وعهد اليه ، وإلى أخيه هارون ، برسالته الى فرعون «اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولوا له قولنا لعله يتذكر أو يخشى ، قالوا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قالوا لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى

(٥١) في ظلال القرآن ٢٦٩٠/٥ .

(٥٢) سورة القصص : آية ٣٣ : ٣٤ ، وانظر : سورة طه : آية ١٧ .

اسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئتكم بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى» (٥٣) .

وكان موسى عليه السلام على أمل أن يسمع فرعون دعوة التوحيد. ويطلق بنى اسرائيل من مصر ، غير أن فرعون لم يؤمن بموسى ولم يسمع له ، بل لقد عجب فرعون ، وهو يرى موسى عليه السلام ، يواجهه بهذه الدعوى المضخمة «انى رسول رب العالمين» ، ثم يطالبه بهذا الطلب الضخم «أن ارسل معى بنى اسرائيل» (٥٤) ، ومن ثم فقد كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال ، ذكر فرعون فيه موسى بتربيته فى القصر الملكى ، وكيف أحسن سلفه مثواه (٥٥) ، ثم كيف ارتكب جريمته تلك — يعنى قتل موسى لمصرى — ثم فر هاربا من مصر كلها ، دون أن يناله من القصاص ما يستحق ، «قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين» (٥٦) ، وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قاتلا ، لا يملك معه موسى جوابا ، ولا يستطيع مقاومة ، وبخاصة حكاية القتل . وما يمكن أن يعقبا من القصاص . فأجابه موسى عليه السلام «قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل» (٥٧) .

ويتصل الجدل بين الرجلين — النبى والملك — ويهدد الفرعون موسى عليه السلام بقوله «لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين» ، قال أو لو جئتكم بشئ مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين» (٥٨) .

(٥٣) سورة طه : آية ٤٢ - ٤٦ .

(٥٤) سورة الاعراف : آية ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥٥) قارن : ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٠/١ .

(٥٦) سورة الشعراء : آية ١٨ - ١٩ .

(٥٧) سورة الشعراء : آية ٢٠ - ٢٢ .

(٥٨) سورة الشعراء : آية ٢٩ - ٣٣ .

فاذا فرعون وقد أحس بضخامة المعجزة وقوتها يسرع بمقاومتها ودفعها وهو يحس ضعف موقفه ، يكاد يتميز من الغيظ ، وفي نفس الوقت يكاد يتملق القوم من حوله ، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة «قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم» (٥٩) .

واجتمع السحرة في ميقات معلوم ، يوم الزينة — ولعله يوم وفاة النيل ، أو غيره من أعياد المصريين -- ثم تقدموا ممثلين ثقة بأن لهم النصر والاجر ، «فقالوا ان لنا لأجرا ، ان كنا نحن الغالبين ، قالوا نعم وانكم لن المقربين» (٦٠) وكما نص الذكر الحكيم «فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاعوا بسحر عظيم» ، قال الزمخشري : استرهبوهم وأرهبوهم أربابا شديدا ، وحسبنا أن يقرر القرآن العظيم أنه سحر عظيم ، لنحرك أى سحر كان ، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة في قلوبهم ، واسترهبوهم لنتصور أى سحر كان ، ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصور ، فهم استجاشوا احساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسرا ، ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه ، أن موسى عليه السلام قد أوجس في نفسه خيفة ، لنتصور حقيقة ما كان ، وأمر الله تعالى نبيه موسى «والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى» فالقى السحرة سجدا ، قالوا آمنا برب هارون وموسى» (٦١) .

ولجئ فرعون ، ولجئ المجتعمون بما لم يكونوا يتوقعون ، لوحظ أن السحرة كانوا أول المؤمنين برب موسى وهارون ، ورأى

(٥٩) سورة الشعراء : آية ٣٤ - ٣٧ ، في ظلال القرآن ٣ / ١٣٤٧ ، ٢٥٩٤/٥ ، تاريخ الطبري ٤٠٣/١ .

(٦٠) سورة الاعراف : آية ١١٣ - ١١٤ ، وانظر : سورة الشعراء : آية ٤ - ٤٢ .

(٦١) سورة الاعراف : آية ١١٦ ، سورة طه : آية ٦٥ - ٧٠ ، في ظلال القرآن ٣ / ١٣٤٩ ، تفسير الطبري ٢٨ / ١٣ .

فرعون ذلك ، وكاد أن يتميز من الغيظ ، وقال للسحرة «آمنتكم له قبل أن آذن لكم ان لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلاقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينما أشد عذابا وأبشئ»، غير أن الذين آمنوا من السحرة المصريين انما آمنوا عن عقيدة ، فلقد ملك الحق قلوبهم . وملا الايمان مشاعرهم ، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبنهم فى جذوع النخل «فقالوا لا خير لنا الى ربنا منقلبون ، انا نطمح أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، أن كنا أول المؤمنين» ، وهنا تتجلى قوة الايمان ، اذا سكن القلب ، واطمأنت به النفس ، وتتجلى الحقيقة بالاستعداد للفداء فى سبيلها ، ويظهر طغيان فرعون الذى يستعظم أن يكون فى مصر من يذعن للالحق قبل أن يأذن له الملك (٦٢) .

وزاد الطين بلة بالنسبة لفرعون أن وجد المعارضة فى داخل بيته — من زوجه نفسها — ذلك أن امرأة فرعون قد استطاعت أن تحرر عقلها ووجدانها من كل الاواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير فى ركاب زوجها ، وأن تنساق فى تيار المجتمع الذى تعيش فيه ، بل وتعلن عن موقفها فى ثبات وايمان ، بعد أن انتصح لها ضلال فرعون ، وتبين لها الحق فى دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغم مغريات الحياة الرخية الناعمة فى قصر أعظم ملوك الارض ، وأكثرهم غنى ، وأرفعهم حضارة ، وأكثرهم جاها وسلطانا ، ورغم آصرة الزوجية التى تربطها بفرعون ، فكانت مثلا للشخصية الانسانية المستقلة فى الايمان بالمبادئ والقيم (٦٣) ، ومن ثم فقد استحققت أن يضرب الله بها مثلا للذين آمنوا ، قال تعالى «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة

(٦٢) أنظر : سورة الاعراف : آية ١٢٣ - ١٢٦ ، طه : آية ٧١ - ٧٦ ، الشعراء : آية ٤٦ - ٥١ ، عبد الرحيم فودة : فى معانى القرآن ص ١٧٩ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٤/٤ - ٣٦٥ ، تفسير الفخر الرازى ١٣٤/٢٤ ، محمد ببيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثانى - ص ١٨٦ - ٢١٣ .
(٦٣) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٤٠١ .

فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين» (٦٤) .

واستحقت كذلك التكريم من سيد الاولين والاخرين ، سيدنا محمد ﷺ ، فلقد جاءت عدة احاديث شريفة فى فضل امرأة فرعون هذه ، روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال «قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، الا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ٥٠» ، وفى رواية مسلم فى صحيحه «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون» وفى تحفة الاحوذى «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء الا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد» وفى تفسير الطبرى : «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء ، الا مريم ، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد» ، وروى الترمذى بسنده عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : «حسبك من نساء العالمين : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون» ، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله» ، وعنه ﷺ : أفضل نساء الجنة : خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون» (٦٥) .

وعلى أية حال ، فسرعان ما امتدت المعارضة ضد فرعون الى ملا فرعون نفسه ، وذلك حين فوجئ فرعون بواحد من هذا الملا يعارض فرعون وفكرة قتل موسى ، ويقول «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا

(٦٤) سورة التحريم : آية ١١ .

(٦٥) أنظر : صحيح البخارى ١٩٣/٤ ، صحيح مسلم ١٩٨/١٥ - ١٩٩ ، تحفة الاحوذى ٣١٩/١٠ ، سنن الترمذى ٣٦٥/٤ - ٣٦٦ ، المستدرک للحاکم ١٨٤/٣ ، تفسير الطبرى ٣٩٣/٦ - ٣٩٨ ، تفسير ابن كثير ٥٤٣/١ ، البداية والنهاية ٥٩/٢ - ٦٣ .

يصيبكم بعض الذى يحكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ،
يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان
جاءنا» •

وهال فرعون ما سمع من واحد من آله ، ومن أقرب الناس اليه ،
فأخذته العزة بالاثم ، ونفخ الشيطان فى روحه ، فقال «ما أريكم الا
ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد» ، وعاد الرجل يعقب على كلام
فرعون ويحذره من غضب الله وبطشه ، وبما حدث لغيره من الطغاة
العتاة ، ثم أعلن أنه ابرأ ذمته ، فقال : «فستذكرون ما أقول لكم
وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد» (٦٦) •

وهكذا انتشرت دعوة موسى عليه السلام فى بيت فرعون أولا ، ثم
فى اله ثانيا ، ثم فى ملئه ثلاثا ، ثم بين عامة القوم رابعا ، وان لم
يكتب لها انتشارا واسعا ، وان تركت آثارها فيما وراء هذه الفترة
من تاريخ مصر ، خاصة بعد أن رأى المعاصرون للاحداث معجزة انفلاق
البحر لموسى ، عليه السلام ، ونجاته هو ومن معه ، وغرق فرعون وجنده
فى البحر (٦٧) •

والخلاصة ان ارادة الله شاعت — ولاراد اشيعته — أن يكون
لارض الكنانة ذكر فى كتبه — من توراة وانجيل وقرآن عظيم — فلقد
تحدثت التوراة والانجيل عن مصر ، ما شاء الله لهما أن يتحدثا ، وتحدث
القرآن الكريم عن مصر فى مواضع كثيرة ، بالاسم الصريح تارة ،

(٦٦) سورة غافر : آية ٢٨ — ٤٤ ، وانظر : محمد بيومى مهران :
اسرائيل ٣١٥/١ — ٣٣٠ •

(٦٧) قدم المؤلف عدة دراسات عن سيدنا موسى عليه السلام
(انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل — الجزء الاول — الاسكندرية
١٩٧٨ ص ٢٨٣ — ٤٩٣ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء
الثانى — بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٥ — ٤٤٧ ، مصر — الجزء الثالث —
الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٩١ — ٥٤٠ •

وبالكناية تارة أخرى (٦٨) .

أخرج الامام السيوطى فى «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» عن «ابن زولاقي» : أن مصر ذكرت فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ، وقال : بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكر مصر فى القرآن صريحا أو كناية ، ونقل عن «الكندى» تطبيقه على طائفة من آياته ، فيها قوله : لا يعلم بلدا فى أقطار الأرض اثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ، ولا وصفه بمثل هذا الوصف ، ولا شهد له بالكرم ، غير مصر» .

وهكذا كانت مصر فصلا فى كل دين سماوى ، شربت أرضها البلية بزيارة أبى الانبياء ، سيدنا ابراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وبين ربوعها بعث الله تعالى يوسف الصديق نبيا رسولا ، وعلى ضفاف نيلها — أو على أحد فروعه — ولد موسى وهارون عليهما السلام ، وعاشا حتى تلقيا وحى ربهما ، فى أرض مصر ، وأديا رسالة النبوة بين قومها ، ثم أقبل بعد حين من الدهر — طال قرونا وقرونا — المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وكانت به أسبق المؤمنين وأسعدهم .

ولئن كان حبيب الله ، ورحمة العالمين وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، نال من الله على أرض الحجاز الطاهرة ، النبوة والرسالة ، ثم بعث للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولئن كان المسيح ، كلمة الله وروحه ولد فى أرض فلسطين ، وفيها علمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، وفيها «بعث رسولا الى بنى اسرائيل» .

لئن كان ذلك كذلك ، وهو كذلك على وجه اليقين ، فإن موسى ، كليم الله ، ولد فى مصر ونشأ فى القصر الفرعونى ، حيث تتقف بالثقافة

(٦٨) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤١٥ — ٤١٧ .

المصرية ، وتهذب بكل حكمة المصريين ، ثم بعث فيها — ومعه أخوه هارون — نبيا رسولا •

ومن ثم فقد فسر بعض علماء المسلمين قوله تعالى «الزيتون وال الزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين» (٦٧) ، بأنها محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلًا من أولى العزم ، أصحاب الشرائع الكبار ، فالاول : محطة الزيتون والزيتون ، وهى بيت المقدس ، التى بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام ، والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، والثالث : مكة المكرمة ، وهو البلد الامين ، الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل الله تعالى فيه سيدنا محمد ، ﷺ •

وفي التوراة ذكر لهذه الاماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء — يعنى الذى كلم الله عليه موسى بن عمران — وأشرق من سعير — يعنى جبل بيت المقدس الذى بث الله منه عيسى — واستعلن من جبال فاران — يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمد ﷺ ، فذكرهم مخبرا عنهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبيهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالاشراف ، ثم الاشرف منه ، ثم الاشرف منهما (٧٠) •

هذا وقد شرفت مصر بثلاثة من أولى العزم (٧١) — كما أصهرت الى سيد الانبياء والمرسلين — شرفت بزيارة أبى الانبياء ، سيدنا

(٦٩) سورة التين : آية ١ - ٣ •

(٧٠) تفسير ابن كثير ٨٣٤/٤ - ٨٣٥ ، وانظر : تفسير روح المعانى ١٧٣/٣٠ ، تفسير الطبرى ١٥٥/٣٠ - ١٥٦ ، تفسير الخازن ٢٦٦/٤ ، تفسير البحر المحيط ٤٨٩/٨ ، صفوة التفاسير ٥٧٨/٣ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٠٠ - ٧٢٠٣ ، فى ظلال القرآن ٣٩٣٢/٦ - ٣٩٣٣ ، تفسير النسفى ٣٦٦/٤ - ٣٦٧ •

(٧١) أولو العزم من الرسل خمسة ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد نص القرآن على أسمائهم تخصيصا فى آيتين من بين سائر الانبياء (انظر : سورة الاحزاب : آية ٧ ، سورة الشورى : آية ١٣) •

ابراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام — كما زارها في رفقة ابن أخيه سيدنا لوط عليه السلام — وفيها ولد وبعث سيدنا موسى عليه السلام — كما بعث معه أخوه هارون نبيا رسولا ، وعلى أرضها درج المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام ، في المهد صبيا .

كما شرفت أرض الكنانة أيضا بقدم يوسف الصديق ، عليه السلام ، اليها وهو صبي لما يبيغ بعد ، وفيها بعث نبيا رسولا ، وعاش على أرضها حتى لقي ربه الكريم ، ثم خُصمت بين ثراها جسده الطاهر الكريم ، كما شرفت بمثل ذلك من أبيه يقوب ، عليه السلام ، كما عرفت مصر يشوع بن نون ودانيال وارميا ، غيما يرى بعض الباحثين .

وهكذا نالت مصر نصيبا وافرا من شرف النبوة ، وكرامة الرسالة ، فمن الانبياء من شرفها بزيارة ، فأقام بين أهلها حيناً من الدهر ، يقول لهم ويعلمهم مما علمه الله ، ويهديهم سواء السبيل ، ومنهم من جاءها — وقد كتب عليه شيء من الرق — فأكرمه الله حتى كان عزيزها ، وصاحب الامر فيها ، ثم بعث إلى أهلها رسولا نبيا ، ومنهم من ولد ونشأ فيها ، ولُبت في أهلها من عمره سنين ، ثم بعث فيها نبيا رسولا ، ومنهم من جاءها هرباً من ظلوم غشوم ، يحتوى بحمى الله فيها ، وبين أهلها ، «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويتاهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» .

وزاد الله تعالى مصر تشريفا وتكريما ، حين جمع لها مرات ثلاث بين نبين على أرضها في آن واحد ، فجمع لها بين ابراهيم ولوط ، وبين يوسف ويعقوب ، وبين موسى وهارون ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (٣) .

(٧٢) أنظر : سورة الاعراف آية : ١٠٣ - ١٣٧ ، سورة يوسف : آية ٥٨ - ١٠١ ، سورة طه : آية ٩ - ٨٠ ، الشعراء : آية ١٠ - ٦٨ ، القصص آية : ١ - ٤٢ ، صحيح البخاري ١٧١/٥ ، ٢٧/٩ - ٢٨ ، فتح الباري ٣٩٤/٦ ، سفر التكوين ١٠/١٢ - ٢٠ ، سفر الخروج ،

وكان ختام المسك لنعم الله تعالى على أرض الكنانة من شرف النبوة ، أن كان لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، ما كان لأبيه إبراهيم الخليل ، عليه السلام من زوج مصرية ، وكما كانت « هاجر » المصرية ، أما لبكر إبراهيم ، سيدنا اسماعيل عليه السلام ، جد العرب ، كانت « مارية » المصرية ، أما لإبراهيم ، ولد المصطفى ، صلوات وسلامه عليه .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فلقد اختص نبي الاسلام ، ورحمة الله للعالمين ، أهل مصر بوصية خاصة ، روى الامام مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال : سمعت أبا ذر يقول ، قال رسول الله ﷺ « انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » ، وفي رواية أخرى — في صحيح مسلم أيضا — عن أبي بصرة عن أبي ذر ، قال قال رسول الله ﷺ : انكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فان لهم ذمة ورحما ، أو قال : ذمة وصهرا » .

وفي رواية عنه ﷺ قال : ستفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة » .

يقول الامام النووي في شرح صحيح مسلم (بباب وصية النبي ﷺ بأهل مصر) : وأما الرحم فلكون هاجر أم اسماعيل منهم ، وأما الصهر ، فلكون مارية أم إبراهيم منهم » .

والمعروف أن « مارية » أم إبراهيم ، ولد المصطفى ﷺ انما كانت

=

سفر التكوين ١٨/٣٧ — ٢٨ ، ١/٣٩ — ٢٦/٥٠ ، انجيل متى ١٣/٢ — ١٥ ، ١٩ — ٢٠ ، الكندي : فضائل مصر ، — القاهرة ١٩٧١ ص ٣٧ ، محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — أربعة أجزاء — بيروت ١٩٨٨ .

امراة صعيدية من «حفن» (قرية الشيخ عبادة الحالية - بمركز أبو قرقاص - محافظة المنيا) ، وأما هاجر فهي امرأة مصرية كذلك (٧٣) .

ولعل سائلا يتساءل : أبعد كل هذا تكون الديانة المصرية القديمة بعيدة عن دعوات الانبياء ، وأنها ظلت طوال العصور الفرعونية ديانة وثنية صرفة ؟

في الواقع أنه ليس هناك الى سبيل من شك في أن ذلك أمرا بعيدا عن المنطق تماما ، فما يصدق عاقل أن كل دعوات التوحيد التي نادى بها هؤلاء الانبياء الكرام البررة ، الذين سبق أن تعرضنا لذكرهم من قبل ، لم تأت بنتيجة ، أو أن أحدا لم يؤمن بها ، وأن الديانة المصرية القديمة ظلت طوال العصور الفرعونية (باستثناء عهد اخناتون) وثنية صرفة ، وإنما المقبول ، بل هو اليقين ، أن مصر انما اعتنقت التوحيد في فترات من تاريخها ، كما دانت بالوثنية في فترات أخرى ، وفي قصة امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، على أيام موسى عليه السلام ، خير دليل على ذلك .

هذا فضلا عن أن هناك من النصوص الادبية المصرية القديمة ، والتي ترجع الى ما قبل عصر اخناتون ، ما يدل على أن هناك طائفة من القوم انما قد آمنتم برب واحد خالق ، مسيطر على الكون كله ، ومن ثم فأننا نقرأ في نصوصهم «أن ما يحدث انما هو أمر الله» (أو الاله) (٧٤) ، و «أن صائد الطيور قد يسمى ويكافح ، ولكن الله (أو الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه» (٧٥) ، و «أن ما يزرع في الحقل

(٧٣) صحيح مسلم ٩٦/١٦ - ٩٧ (ط بيروت ١٩٨١) ، سيرة ابن هشام ٦/١ - ٧ ، طبقات ابن سعد ٩٢/١ - ٩٣ ، الكندي : فضائل مصر ص ٢٦ - ٢٧ .

(٧٤) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة - ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكري - القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٩ - ٧٠ ، وكذا

Adolf Erman Die Literatur der Aegypter, Leipzig, 1923, P. 89.

75) Ibid., P. 104.

وما ينبت فيه إنما هو منحة من الله»^(٧٦) و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته»^(٧٧) و «أن الله لا يعرف أهل السوء»^(٧٨) و «إذا جاءكم السعادة ، حق عليكم شكر الله»^(٧٩) .

وأيا ما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله — أو الاله) ، فالذي لا ريب فيه أن القوم انما كانوا يعتقدون فكرة — حتى وان كانت غامضة — عن «الله» ، جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وأن الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وأن أولئك الذين منحهم الله هبة الدنيا حق عليهم شكره ، وانطلاقاً من كل هذا ، فإن هؤلاء القوم الذين كانت تلك أحاديثهم ، وهذا شعورهم ، لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحققة ، وذلك دون شك أثر من دعوة التوحيد التي نادى بها الانبياء على أرض الكنانة^(٨٠) .

وأما عدم ظهور دعوات الانبياء في الديانة المصرية القديمة بوضوح إنما يرجع الى اعتماد المؤرخين على الآثار والوثائق المصرية القديمة والتي تجاهلت تماماً دعوات الانبياء لاسباب سنقعرض لها حالاً .

٤ — اسباب صمت الآثار المصرية عن دعوات الانبياء .

تعرض بعض الباحثين لصمت الآثار المصرية عن دعوات الانبياء غير أن محاولاتهم انما قد جانبها الصواب الى حد كبير ، فمثلاً جاسور العلامة «سير آلن جاردنر» أن يطل صمت الآثار المصرية عن قصة بنو إسرائيل في مصر ، اللهم الا تلك الجملة القصيرة التي جاءت على «لوح إسرائيل» من عهد «مرنبتاح» (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق م) (لوخربست

(٦) Ibid., P. 90.

(٧) Ibid., P. 97.

(٨) Ibid., P. 100, 112.

(٩) Urk., P. 39.

(٨٠) أنظر (محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٢٩٩ — ٣١٥) ولنظر إيجلاه ص ٤٣٦ — ٤٣٨ .

اسرائيل وزالت بذرتها»^(٨١) ، الامر الذى دعا بعض الباحثين الى أن ينظر الى القصة كلها بعين الحذر ، ويذهب «جاردنر» الى أن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر (بقيادة موسى وهارون عليهما السلام) يجب أن تبقى تفاصيلها — حتى تظهر فى الافق تفاصيل جديدة تختلف فى شكلها عن التى فى متناول أيدينا الان — وكأنها أسطورة — مثل قصة الخلق التى جاءت فى التوراة^(٨٢) ، وعلينا أن نسعى فى تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير ، وإن ذهب بعد ذلك الى أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية ، اذ أنها تعكس فى مجموعها حادثة تاريخية معينة هي طرد الهكسوس من مصر^(٨٣) .

ويعل «سمث» سكوت المصادر المصرية عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر — بقيادة موسى عليه السلام ، بأن ذلك لا يدعو الى الدهشة ، لان الآثار الفرعونية لم تحفل بحادث الخروج هذا ، ولم تسجل خطواته ، ذلك لان فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لا يمثل حدثا يثير الاهتمام الفكرى لدى المصريين ، خاصة وأن بنى اسرائيل قد عاصروا بمصر عهدا حافلة بجلائل الاعمال استنفدت ، فيما يبدو ، نشاط المثاليين ، ومدونى التاريخ^(٨٤) .

والرأى عندى أن العلامة «جاردنر» قد أخطأ كثيرا فى تصويره عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ، ذلك لان القصة — وإن لم تذكر فى المصادر المصرية القديمة لأسباب سنذكر فيما بعد — فقد ذكرت بالتفصيل فى التوراة والانجيل والقرآن العظيم — كما رأينا من قبل —

(٨١) انظر عن لوح اسرائيل : (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٤٨٩ — ٤٩٢ ، وكذا

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 376-378.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 273.

(٨٢) انظر : تكوين ١/١ — ٣١ ، ١/٢ — ٢٥ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/٢٣٦ — ٣٤٠ .

A. H. Gardiner, JEA, 10, 1924, P. 88.

(٨٤) J. W. D. Smith, God and Man in Early Israel, P. 38.

وبدعى أنه ليس من العلم ، فضلا عن الايمان بكتب السماء ، أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب — وخاصة القرآن الكريم ، كتاب الله الذى «لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»^(٨٥) ، هذا فضلا عن أنه ليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب — فيما تكشف — عن بعض الآثار التى تروى هذه القصة ، أو حتى تعين على مزيد من الايضاح ، وأما تحليل «سمت» للحدث الخطير لبعيد عن الصواب كذلك .

وانطلاقاً من كل هذا ، فالرأى عندى أن الآثار والوثائق الفرعونية تجاهلت تسجيل دعوات الانبياء ، فضلا عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر لاسباب ، منها (أولاً) أن احتمال العثور على أسماء الانبياء والرسل في النصوص الانسانية جد ضعيف ، ذلك لان حقيقة الصراع بين دعوات الانبياء ، وسلطات الملوك المؤلهين ، أو شبه المؤلهين ، يدعو الى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادئ هذه الدعوات التوحيدية ، والصراع بينها وبينهم ، وتلك ظاهرة موجودة في تاريخ الشرق الادنى القديم بصفة عامة ، كما في قصة ابراهيم عليه السلام مع ملك العراق^(٨٦) ، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر ، على سبيل المثال .

ومنها (ثانياً) أن المصادر المصرية القديمة ، والتى تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الادنى القديم ، بوضوحها وكثرة آثارها ، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بنى اسرائيل ، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى عليهما السلام ، ودعواتهما ، غير أن هذه المصادر لم تقدم لنا شيئاً عن النبيين الكريمين ، وإن اختلف الامر بالنسبة الى يوسف ، عنه بالنسبة الى موسى ، عليهما السلام .

(٨٥) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٨٦) أنظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء الرابع — في العراق — بيروت ١٩٨٨ ص ١٤٧ — ١٥٦ .

فأما عدم ذكر يوسف عليه السلام في الآثار المصرية ، رغم أنه شغل في مصر منصب الوزير ، فلعل السبب أن المصديق عليه السلام إنما كان يعيش في عصر الهكسوس ، وهو العصر الذي يمتاز بالغموض ، بل أنه ليعد واحداً من أغمض فترات التاريخ المصري القديم ، ذلك لأن المصريين ما كانوا براغبين في تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض إلى نفوسهم^(٨٧) ، بل أنهم لم يطاولوا حتى الإشارة إليه ، إلا على أيام الملكة «حتشبسوت»^(٨٨) (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق م) ، هذا فضلاً عن أن يوسف عليه السلام ، على الرغم من أنه كان ذا مكانة عالية في حكومة مصر ، غير أنه لم يعد أن يكون وزيراً فصب ، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل ، إنما كان ينسب — طبقاً للتقاليد المصرية — إلى الملك ، الذي كانت النقوش تهف إلى تعظيمه والاشادة بذكره ، لأن كل شيء كان في مصر من وحيه هو ، وعلى ذلك فإن اسم يوسف عليه السلام لم يكن ليظهر بطبيعة الحال^(٨٩) .

وأما عدم ذكر موسى عليه السلام في الآثار والوثائق المصرية ، فيرجع إلى أن هذه المصادر — كما هو معروف — إنما قد كتبت بأمر من الملوك ، أو بوحى منهم ، أو على الأقل ، برضى منهم ، فإذا ما تذكرنا أن الملك كان في العقيدة المصرية القديمة — كما أثبتت النصوص وألمح القرآن الكريم^(٩٠) — يزعم أنه إله ، أو على الأقل أنه كان لها أكثر منه بشراً ، ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن لا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك في حرب خاض غمارها ، ولهذا فإن النصر كاد أن يكون حليفه ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك^(٩١) .

(٨٧) أنظر : محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٨٨) A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 45-48.

(٨٩) سليم حسن : مصر القديمة — الجزء السابع — القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٧ - ١١٠ .

(٩٠) أنظر : سورة الشعراء : آية ٢٩ ، سورة القصص : آية ٣٨ ، سورة النازعات : آية ٢٢ - ٢٤ .

(٩١) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٣ .

ومن المعروف أن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر — بقيادة موسى عليه السلام — كما جاءت في التوراة والانجيل والقرآن العظيم ، انما انتهت بفرق فرعون وجنده في البحر ، ونجاة موسى ومن آمن معه بالله الواحد القهار ، ومن ثم غلبت من المقبول — طبقا للعقيدة المصرية القديمة — أن تسجل نصوص الفراعين ، غرق الاله الفرعون ، ونجاة موسى عدوه ، ومن معه من عبيد فرعون من بنى اسرائيل (٩٢) .

ومن هنا كان من الصعب العثور على نقوش أو وثائق تتحدث عن موسى وقومه ، رغم ضخامة التركة الاثرية التي خلفتها لنا مصر الفرعونية ، وان كان هذا لا يقطع الامل في العثور على تلك الوثائق أو النقوش ، التي ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون ، المؤمنين برب موسى وهارون ، والله وحده يعلم الغيب من الامر .

وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على مولانا وجدنا وسيدنا
محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

(٩٢) سورة الشعراء : آية ٦٣ - ٦٧ .

المراجع المختارة

اولا - المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب الحديث الشريف

كتب التفسير

التوراة

الدكتور احمد بدوى ، فى موكب الشمس (جزءان) ، القاهرة -
١٩٥٢/١٩٥٠ م .

الدكتور احمد بدوى والدكتور محمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية
والتعليم فى مصر ، الجزء الاول - العصر الفرعونى ،
القاهرة ١٩٧٤ .

الدكتور احمد سليم ، ١ - دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة اثناء
الاسرتين الاولى والثانية ، الاسكندرية ١٩٧٧ .
٢ - دراسة تاريخية لنشأة الاسرة الثالثة وتطورها السياسى
والحضارى - الاسكندرية ١٩٨١ .

الدكتور احمد فخرى ، ١ - مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١ ،
٢ - الاهرامات المصرية - القاهرة ١٩٦٣ ،
٣ - دراسات فى تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ .

الدكتور احمد محمود حسين صابون ، دراسة تاريخية لشخصية حورمحب
- الاسكندرية ١٩٧٩ .

الدكتور باهور لبيب ، من التاريخ القانونى - القانون الجنائى الفرعونى
- مجلة القانون والاقتصاد - السنة الثانية عشر - العدد
الاول - يناير ١٩٤٢ ، القاهرة ١٩٤٢ .

الدكتور بهاء الدين ابراهيم : الشرطة والامن الداخلى فى مصر القديمة ،
القاهرة ١٩٨٦ .

الدكتور حسن السعدى ، دراسة حضارية لعهد متنى الاول ، الاسكندرية
١٩٨٨ .

الدكتور رشيد الناصورى ، جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ، (جزءان)
- بيروت ١٩٦٩/٦٨ .

الدكتور سليم حسن ، مصر القديمة (١٣ جزءا) ، القاهرة ١٩٤٠/
١٩٦٠ .

الدكتور سيد توفيق ، ١ - معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ،
القاهرة ١٩٨٤ .

٢ - اخناتون الملك الاله - اتون الاله الملك ، مجلة كلية

الآثار - جامعة القاهرة - العدد الاول - يناير ١٩٧٦ م ،

٣ - أهم الآثار الفرعونية - القاهرة ١٩٨٢ .

الدكتور شفيق شحاتة ، تاريخ القانون الخاص فى مصر - الجزء الاول -

القانون المصرى القديم - القاهرة ١٩٥١ .

عباس محمود العقاد ، المرأة فى القرآن - بيروت ١٩٦٩ .

الدكتور عبد الحميد زايد ، مصر الخالدة - القاهرة ١٩٦٦ ، الشرق

الخالد - القاهرة ١٩٦٩ .

الدكتور عبد الرحمن زكى ، الجيش فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٨ .

الدكتور عبد الرحيم صدقى ، القانون الجنائى عند الفراعنة ، القاهرة

١٩٨٦ .

الدكتور عبد العزيز صالح ، ١ - الاسرة فى المجتمع المصرى القديم -

القاهرة ١٩٦١ ،

٢ - حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول -

القاهرة ١٩٦٢ .

٣ - الشرق الادنى القديم - مصر والعراق - القاهرة ١٩٦٧ ،

٤ - التربية والتعليم فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٦ ،

٥ - فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة - القاهرة ،

٦ - الوجدانية فى مصر القديمة - المجلة - العدد ٣١ -

القاهرة ١٩٥٦ ،

٧ - تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول - التربية العسكرية - القاهرة ١٩٦٢ .

الدكتور عبد القادر خليل ، العسكرية في الدولة الحديثة - الاسكندرية ١٩٧٤ .

الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، ١ - اخناتون - القاهرة ١٩٦١ ،

٢ - تاريخ الحضارة المصرية - النظم الاجتماعية القاهرة القاهرة ١٩٦٢ ،

٣ - تاريخ البحرية المصرية القديمة - القاهرة ١٩٧٣ .

الدكتور عبد المنعم عبد الحليم ، حضارة مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧٨ .

الدكتور عبد الناصر توفيق العطار ، تعدد الزوجات - القاهرة ١٩٧٢ .

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارة الشرق الأدنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ .

الدكتور محمد أنور شكرى ، ١ - العمارة في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٠ ،

٢ - حضارة مصر القديمة (من كتاب حضارة مصر والشرق القديم) القاهرة .

الدكتور محمد بيومي مهران ، ١ - الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٦٦ ،

٢ - مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ .

٣ - حركات التحرير في مصر القديمة - الاسكندرية ١٩٧٦ .

٤ - مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة - الرياض ١٩٦٧ ،

٥ - اسرائيل - الكتاب الرابع - الحضارة - الاسكندرية ١٩٧٩ ،

٦ - اخناتون عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ ،

٧ - مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ ،

٨ - مصر الجزء الثانى - الاسكندرية - ١٩٨٨ ،

٩ - مصر الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ،

١٠ - الحضارة العربية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٨ ،

١١ - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول - الاسكندرية

١٩٨٩

١٢ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثانى

- فى مصر - بيروت ١٩٨٨ ، الجزء الرابع - بيروت ١٩٨٨ .

الدكتور محمد عبد القادر ، آثار الاقصر - القاهرة ١٩٨٢ .

الدكتور محمد عبد اللطيف ، ١ - آمون فى الدولة الحديثة ، الاسكندرية

١٩٧٠ ،

٢ - فكرة الخلق فى مصر القديمة - الاسكندرية ١٩٦٨ .

الدكتور محمود السقا ، ١ - معالم تاريخ القانون المصرى فى العصر

الرومانى - القاهرة ١٩٨٠ ،

٢ - المركز القانونى والاجتماعى للمرأة فى مصر الفرعونية

- مجلة القانون والاقتصاد - القاهرة ١٩٧٥ .

الدكتور نجيب ميخائيل ، ١ - مصر والشرق الامنى القديم (٦ اجزاء)

- الاسكندرية ١٩٦٣/١٩٦٦ ،

٢ - البحرية المصرية فى العصر الفرعونى ، الاسكندرية

١٩٧٣ .

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

١٠ ج . سبنر ، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة - ترجمة أحمد صليحة

القاهرة ١٩٨٧ .

الدكتور أحمد قدرى ، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية

- ترجمة مختار السويفى ومحمد العزى موسى ومراجعة

الدكتور محمد جمال الدين مختار - القاهرة ١٩٨٥ .

- أدولف ارمان ، ديانة مصر القديمة - ترجمة ومراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر والدكتور محمد أنور شكرى - القاهرة ١٩٥٢ .
- أدولف ارمان وهرمان رانكه ، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - القاهرة ١٩٥٣ .
- ألن جاردنر ، مصر الفراعنة - ترجمة نجيب ميخائيل - القاهرة ١٩٧٣ .
- الكسندر رشارف ، تاريخ مصر - ترجمة عبد المنعم أبو بكر - القاهرة ١٩٦٠ .
- ايتين دريوتون وجاك فاندييه ، مصر - ترجمة عباس بيومي - القاهرة ١٩٥٠ .
- جان يويوت ، مصر الفرعونية - ترجمة سعد زهران - القاهرة ١٩٦٦ .
- جون ويلسون ، الحضارة المصرية - ترجمة أحمد فخرى - القاهرة ١٩٥٦ .
- جون ويلسون ، نصوص الشرق الأدنى القديم - الجزء الاول - الاساطير والقصص والنصوص الجنائزية المصرية - تعريف وتعليق الدكتور عبد الحميد زايد ، مراجعة - الدكتور محمد جمال الدين مختار - القاهرة ١٩٨٧ .
- جيمس هنرى برستد ، ١ - تاريخ مصر ترجمة حسن كمال - القاهرة ١٩٢٩ ،
- ٢ - فجر الضمير - ترجمة سليم حسن - القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٣ - تطور الفكر والدين في مصر القديمة - زكى سوس - القاهرة ١٩٦١ .
- ديودور الصقلى ، في مصر - ترجمة وهيب كامل - القاهرة ١٩٤٧ .
- سيرج سونيرون ، كهان مصر القديمة - ترجمة زينب الكردى - القاهرة ١٩٧٥ .
- فرانسو دوما ، آلهة مصر - ترجمة زكى سوس - القاهرة ١٩٨٦ .
- كريميتان ديرووش نويلكور ، ثوت عنخ أمون - ترجمة أحمد رضا ، ومحمود النحاس - القاهرة ١٩٧٤ .

- وليم فلندرزيتري ، الحياة الاجتماعية في مصر القديمة - ترجمة حسن
 محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم - القاهرة ١٩٧٥ .
- وولتر امري ، مصر في العصر العتيق - ترجمة راشد نويز ومحمد على
 كمال الدين - القاهرة ١٩٦٧ .
- ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة - ترجمة أحمد قدرى -
 القاهرة ١٩٨٧ .

ثالثاً - المراجع الأجنبية

Aldred, (C.), Akhnaten, Pharaoh of Egypt, London, 1968.

Allen, (T. G.), The Book of The Dead, Chicago, 1974.

Bates, (O.), The Name of Osiris, JEA, II, 1915.

Barguet, (P.), La Stèle de la Famine a Sahel, le Cairo, 1953.

Baumgartel, (E. J.),

1. Some Remarks on The Origins of The Titles of The Archaic Egyptian Kings, in JEA, 61, 1975.

2. The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols, Oxford, 1955, 1960.

Beckerath, (J. Von) Tanis und Theben, Glückstadt, 1951.

Bedell, (E. D.) Criminal Law in The Egyptian Ramesside Period, Michigan, 1973.

Bill De-Mot, (Eleonore) The Age of Akhenaten, London, 1965.

Boylan, (P.), Thoth, The Hermes of Egypt, London, 1922.

Brandon, (S. G. F.), Greation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

Breasted, (J. H.),

1. Ancient Records of Egypt, 5 Vols, Chicago, 1906-1907.

2. The Dawn of Conscience, New York, 1939.

3. A History of Egypt, New York, 1946.

4. The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912.

Broal, (L.), Le Crime et la Peine, Paris, 1899.

Brunton, (G.), Mostagadda and The Tasian Culture, London, 1937.

Brunton, (G.) and Caton-Thompson, (G.) The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Badari, London, 1928.

Budge, (E. A. W.),

1. From Fetish to God in Ancient Egypt, London, 1934.
2. The Gods of The Egyptians, I, New York, 1969.

Caton - Thompson, (G.), Badarian Civilisation, London, 1928.

Capart, (J.), Esquisse d'une histoire du droit Penal egyptien extrait de
la Revue de L'universite de Bruxelles, 1900.

Charistophe, (L.), The Army in Ancient Egypt, Cairo, 1958.

Cherny, (J.), Ancient Egyptian Religion, London, 1952.

Clarke, (S.) Ancient Egyptian Frontier Fortresses, in JEA, III, 1916,
P. 155-179.

Cooke, (H. P.), Osiris, A Study in Myths, Mysteries and Religion,
London, 1931.

Curto, (S.), The Military Art of Ancient Egyptian, Torina, 1971.

Dagallier, (J.), les institutions Judiciaires de L'Egypte Ancienne, Paris,
1917.

Davies, (N de G.),

1. The Rock Tombs of Deir el-Gabrawi, I, London, 1902.
2. The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thebes, New York, 1943.
3. The Rock Tombs of El-Amarna, 6 Vols, London, 1903-1908.
4. Akhenaten at Thebes, in JEA, 9, 1923.

Daumas, (F.),

1. Le Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965.
2. La Vie dans d'Egypte Ancienne, Paris, 1968.

Derry, (D. E.) and Engelbach, (R.), Mummification, in ASAE, 41, 1942.

De Bono, (F.), La Civilisation Predynastique d' El-Omari (Nord
d'Helouan) Nouvelles donnees, BIE, 1956.

- de Buck, (A.), *The Judicial Papyrus of Turin*, in JEA, 23, 1937.
- De Rouge, (J.), *Geographie Ancienne de la Bass-Egypte*, Paris, 1891.
- Drioton, (E.),
- *La religion egyptienne dans ses grandes lignes*, Cairo, 1945.
 - Drioton, (E.) et Vandier, (J.), *L'Egypte*, Paris, 1962.
- Du Boys, *Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes Jusqu' a letablissement du Christianisme* Paris, 1845.
- Edgerton, (W. F.), *The Government and Governed in The Egyptian Empire*, JNES, 6, 1947.
- Edgerton, (W. F.), and Wilson, (J. A.), *Historical Records of Ramesses, III, Texts in Medinet Habue*, Chicago, 1936.
- Edwards, (I. E. S.), *The Pyramids of Egypt*, (Penguin Books), 1965.
- El-Amir, (M.) *Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage*, BIFAO, LXII, 1963.
- Emery, (W. B.),
- 1. *Archaic Egypt*, (Pelican Book), 1963.
 - 2. *Amaster Work of Egyptian Military Architecture of 300 years ago*, London, 1959.
- Erman, (A.), *The Literature of The Ancient Egyptians*, London, 1927.
- Fairman, (H. W.), *Town Planning in Pharaonic Egypt*, in *Town Planning Review*, 20, 1949.
- Faulkner, (R. O.),
- 1. *Egyptian Military Standards*, in JEA, 27, 1941.
 - 2. *Egyption Military Organization*, JEA, 39, 1953.
 - 3. *The Egyptian Coffin Texte, I-III*, Warminster, 1973-1977.
 - 4. *The Egyptian Pyramid Texts*, Oxford, 1969.

Faure, le Mariage en Judée et en Egypte, analogie des deux institutions

Université de Paris, Faculté de Théologie, Paris, 1897.

Frankfort, (H.),

1. The Mural Painting of El-Amarna, London, 1929.
2. Kingship and The Gods, Chicago, 1948.
3. Ancient Egyptian Religion, New York, 1961.
4. The Birth of Civilization in The Near East, London, 1951.

Gardiner, (A. H.),

1. Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
2. Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
3. Ancient Egyptian Onomastica, 3 Vols, Oxford, 1947.
4. The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909.
5. The Kadish Inscriptions of Ramses, II, Oxford, 1960.
6. The Coronation of Har-Emheb, JEA, 39, 1953.

Gardiner, (A. H.), The Attitude of The Ancient Egyptians to Death and The Dead, Cambridge, 1935.

Garstang, (J.), Burial Customs of Ancient Egypt, London, 1907.

Gaudement, (J.), Institutions de L'antiquité, Paris, 1967.

Gauthier, (H.),

1. Notes Géographiques sur le Nome Panopolite, in BIFAO, 10, 1912.
2. Livre des Rois d'Egypte, 3 Tomes, le Caire, 1907-1913.
3. Dictionnaire des Noms Géographiques, 7 Tomes le Caire, 1924-1931.
4. Les Fêtes du Dieu Min, in BIFAO, II, 1901.

Glanville, (S. R. K.), The Legacy of Egypt, Oxford, 1942.

Griffith, (F. L.), The Abydos Decree of Seti, I, at Nouri, in JEA, 13, 1927.

Griffith, (F. L.), Wills in Ancient Egypte in Quarterly Review, 1898.

Griffiths, (J. G.), The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

Gunn, (B.), Inscriptions from The Step Pyramid Sits, in ASAE, 26, 1926.

Gyles, (M. E.), Pharaonic Policies and Administration, 663 to 323 B. C, Carolina, 1959.

Hall, (H. R.), The Ancient History of The Near East, London, 1963.

Hogarth, (D. G.), The Egyptian Empire, in JEA., I, 1914.

Harari, (A. I.), Contribution a l'etude de la Procedure dans l'ancien, empire egyptien, le Caire, 1950.

Hari, (R.), Horemheb et la reine Moutnedjmet, Geneve, 1965.

Hayes, (W. C.),

1. The Scepter of Egypt, 2 Parts, New York, 1953, 1959.
2. Most Ancient Egypt, Chicago, 1956.
3. Papyrus of The Middle Kingdom, Brooklyn, 1955.

Hornung, (E.),

1. Untersuchungen Zur Chronologie Und Geschichte des Neuen Reiches, AgAbh, 11, Wiesbaden, 1964.
2. Neue Materialien Zur egyptischen Chronologie, Wiesbaden, 1967.
3. Das Grab des Horemheb im Tal der Konige, Bern, 1971.

Huzayyin, (S. A.), The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.

James, (E. O.), The Ancient Gods, London, 1960.

James, (T. G. H.),

1. The Hekanakhte Papers and other Early Middle Kingdom Documents, 1961.

2. An Introduction to Ancient Egypt, London, 1979.
- Jequier, (G.),
1. Histoire de la Civilisation égyptienne, Paris, 1930.
 2. Considerations sur les religions égyptiennes, Neuchatel, 1946.
- Junker, (H.), Merimde Benisalame, 6 Parts, Vienna, 1929-1941.
- Kadry, (Ahmed), Officers and Officials in The New Kingdom, Budapest 1982.
- Kees, (H.), Ancient Egypt, London, 1961.
- Kitchen, (K. A.), The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972.
- Lefebvre, (G.), Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque, Paris, 1949.
- Lichtheim, (Miriam), Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975, II, London, 1976.
- Lloyd, (A. B.), Herodotus, Book, II, Compendary, I-98, Leiden, 1976..
- Lons, (V.), Egyptian Mythology, Italy, 1968.
- Lort, (V.), Horus la Facucon, in BIFAO, 3, 1903.
- Lucas, (A.), Ancient Egyptian Materials and Industries, London, 1948.
- MacQuitty, (W.), Island of Isis, Philae Temple of The Nile 1976.
- Mariette, (A.), Les Mastabas de L'Ancien Empire, Paris, 1889.
- Mercer, (S. A. B.),
1. The Tell El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.
 2. The Religion of Ancient Egypt, London, 1949.
 3. Horus, Royal God of Egypt, Mass, U. S. A., 1942.
- Mokhtar, (M. G.), Ihnasya El-Medinah, (Heracleopolis Magna), its Importance and its Role in Pharaonic History, Çairo, 1957.
- Montet, (P.), Geographie de L'Egypte Ancienne, I-II, Paris, 1957-1961.
- Morenz, (S.), Egyptian Religion, London, 1973.
- Moret, (A.), Le Nile et la Civilisation égyptienne, Paris, 1926.
- Murray, (M. A.),

1. **Burial Customs and Beliefs in The Hereafter in Predynastic Egypt**, in JEA, 42, 1956.
 2. **Ancient Egyptian Legends**, London, 1913.
- Nelson, (H.), **The Naval Battle Pictures at Medinet Habu**, in JNES, 1943.
- Newberry, (P. E.), **The Horus Title of The Kings of Egypt**, in PSBA, 26, 1904.
- Noblecourt, (C. D.), **Tutankhamen**, Translated from The French, by Claud, London, 1963.
- Quibell, (J. E.), **Hierakonpolis, I, II**, London, 1900-1901.
- Otto, (E.), **Egyptian Art and The Cults of Osiris and Amon**, London, 1968
- Parker, (R. A.), **The Calendars of Ancient Egypt**, Chicago, 1950.
- Peet, (T. E.), **The Great Tomb-Robberies of The Twentieth Egyptian Dynasty**, Oxford, 1930.
- Peet, (T. E.) and Woolley, (C. L.), **The City of Akhenaten**, London, 1923.
- Pendlbury, (J. D. S.), and Others, **The City of Akhenaten, III**, London, 1951.
- Pestman, (S. P. W.),
1. **Marriage and Matrimonial Property in Ancient Egypte**, Leiden 1961.
 2. **Marriage Contracts in Ancient Egypte in The light of Jewish Sources**, harv, JIVL, 1953.
- Petrie, (W. M. F.),
1. **Social Life in Ancient Egypt**, London, 1932; N. Y., 1970.
 2. **A History of Egypt, 3 Vols**, London, 1924-1927.
 3. **Illahun, Kahun and Gurob**, London, 1891.

4. The Royal Tombs of The Earliest Dynasties, 2 Vols, London, 1900-1901.
5. The Making of Egypt, London, 1939.
6. Prehistoric Egypt, London, 1920.

Pirenne, (J.),

1. Historie des Institutions et du Droit Prive de L'Ancienne Egypte, III, Bruxelles, 1934.
2. la Feodalite en Egypte, in RSJB, I, 1958.
3. La religion et la Morale dans L'egypte antique, Paris, 1965.
4. Les Trois Cycles de l'histoire Juridique et Sociale le L'ancien- ne Egypte, Bruxelles, 1937.

Plutarch, Isis and Osiris, V, in Plutarch, Morabia, London, 1936.

Posener, (G.),

1. De la divinite du Pharaen, Paris, 1960.
2. Le Canal du Nile a la Mer Rouge, in Chronique d'Egypte, 26, 1938.

Posener (G.), and Others A Dictionary of The Egyptian Civilization, London, 1962.

Reisner, (G. A.), Mycerinus, Campridge, 1931.

Revillont, (E.), Les Origines Egyptiennes du droit Civil Romain, Paris, 1912.

Samson, (J.), Amarna, City of Akhenaten and Nefertiti, London, 1972.

Save-Soderbergh, (T.), The Navy of The Eighteenth Egyptian Dynasty, Uppsala, 1946.

Sanders, (N. K.), The Sea-Peoples, London, 1978.

Schulman, (A.R.)

1. Military Rank, Title and Organization in The Egyptian New Kingdom, Berlin, 1964.
2. A Cult of Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22, 1963.
3. The Military Establishment of The Egyptian Empire, Chicago, 1958.

Seldie, (E.), Low, in The Legacy of Egypt, Oxford, 1947.

Shorter, (A. W.),

2. The Egyptian Gods, London, 1937.
3. Every Life in Ancient Egypt, London, 1932.

Simpson, (W. K.), The Literature of Ancient Egypt, London, 1977.

Smith, (W. S.), The Old Kingdom in Egypt and The Beginning of The First Intermediate Period, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.

Spence, (L.), The Myths and Legends of Ancient Egypt, London, 1915.

Soliman, (M.), La repression de L'adultere en Egypte, 1925.

Thonissen, (J.), Etudes sur l'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmanique, Egypte, Judée, Paris, 1869.

Tirand, (H. M.), The Soldiers of Ancient Egypt, in JEA, II, 1915.

Trigger, (B.), Nubia Under Pharaohs, London, 1976.

Vallogia, (M.), Les Vizirs des XIe et XIIe Dynasties, in BIFAO, 74, 1974.

Vandier, (J.),

1. La Religion Egyptienne, Paris, 1949.
2. Reflexions sur L'histoire de la XII Dynastie, in Rev. hist. 1958.
3. Manuel d'Archeologie egyptienne, Paris, 1952.
4. La Famine dans L'Egypte Ancienne, Le Cairo, 1963.

Vercoutter, (J.), and Others, *The Near East, The Early Civilization*,
London, 1967.

Weigall, (A.),

1. *The Life and Times of Ikhnaton, Pharaoh of Egypt*, London,
1934.
2. *Histoire de L'Egypte Ancienne*, Paris, 1968.
3. *A Report on The Antiquities of Lower Nubia*, Oxford, 1907.

Weill, (R.), *Recherches sur la Ire et les Temps Prepharaoniques*, 2 Vols,
le Caire, 1961.

White, (J. M.), *Ancient Egypt*, New York, 1970.

Wilson, (J.)

1. *The Culture of Ancient Egypt*, Chicago, 1963.
2. *ANET*, 1966.

Witt, (R. E.), *Isis in The Graeco-Roman World*, London, 1971.

Yoytte, (J.), *Egypte ancienne*, Paris, 1956.

Zaba, (Z.), *Les Maximes de Ptah-Hotep*, Pargue, 1956.

محتویات الكتاب

الباب الثاني

التنظيمات السياسية والادارية والعسكرية

١١٩	الفصل الاول : التنظيم السياسى
١١٩	١ - الملك المؤله
١١٩	١ - نظرية ألوهية الملك
١٢٩	٢ - الألقاب الملكية
١٣٣	٣ - اعباء فرعون
١٣٧	٢ - تطور سلطة الملك خلال العصور الفرعونية
١٣٧	١ - فى الدولة القديمة
١٤١	٢ - عصر الثورة الاجتماعية الاولى
١٤٣	٣ - فى الدولة الوسطى
١٤٦	٤ - فى الدولة الحديثة
١٥٣	الفصل الثانى : التنظيم الادارى
١٥٤	١ - الوزير
١٦٠	٢ - حكام الاقاليم
١٨٠	٣ - الاقاليم فى مصر الفرعونية
١٨٣	الفصل الثالث : الشرطة والجيش والاسطول
١٨٣	١ - الشرطة
١٩٤	٢ - الجيش
٢١٧	٣ - الاسطول
٢٣١	٤ - دور المؤسسة العسكرية السياسى
٢٤٢	٥ - الجند المرتزقة فى الجيش المصرى
٢٥١	الفصل الرابع : القضاء
٢٥١	١ - مصادر القانون المصرى وفلسفته
٢٥٦	٢ - الهيئات القضائية

٢٦٦	٣ - القانون الجنائي
٢٧٤	٤ - نماذج من القضايا الجنائية
٢٨٦	٥ - الاجراءات القضائية في الدولة الحديثة
٢٨٩	٦ - من القوانين في الدولة

الباب الثالث

الديانة

القسم الاول

الديانات البشرية أو الانسانية

٣٠٣	الفصل الاول : فكرة الخلق عند المصرى القديم
٣٠٣	١ - نظرية عين شمس
٣١٠	٢ - نظرية الاشمونين
٣١٥	٣ - نظرية منف
٣٢٢	٤ - نظرية طيبة
٣٢٧	الفصل الثانى : المعبودات المصرية القديمة
٣٢٧	تمهيد
٣٣٤	المعبودات المصرية
٣٣٤	١ - حور
٣٤١	٢ - ست
٣٤٩	٣ - أوزير
٣٦٢	٤ - رع
٣٦٧	٥ - بتاح
٣٧١	٦ - أمون
٣٧٨	٧ - تحوت
٣٨٠	٨ - خنوم

٣٨٣	٩ - مين
٣٨٧	١٠ - مونتسو
٣٨٨	١١ - حعبى
٣٩١	١٢ - خونو
٣٩٢	١٣ - سويك
٣٩٤	١٤ - حرشف
٣٩٥	١٥ - وب واوات
٣٩٥	١٦ - أنوييمس
٣٩٨	١٧ - سوكر
٣٩٨	١٨ - بس
٤٠٠	١٩ - نفر توم
٤٠٠	٢٠ - خنتى امنتى
٤٠١	٢١ - أكر
٤٠١	٢٢ - أنصور
٤٠٢	٢٣ - آحى
٤٠٢	٢٤ - بوخيس
٤٠٢	٢٥ - سويد
٤٠٤	المعبودات المصرية
٤٠٤	١ - حتمسور
٤٠٤	٢ - نيت
٤١١	٣ - ايسزة
٤١٤	٤ - نخبت
٤١٥	٥ - وادجيت
٤١٥	٦ - سسشات
٤١٦	٧ - سسخت
٤١٨	٨ - موت
٤١٩	٩ - ماعت
٤٢١	١٠ - باست

٤٢٤	١١ - رننسوت
٤٢٥	١٢ - حقت
٤٢٥	١٣ - عنقت
٤٢٦	١٤ - ساتت
٤٢٧	١٥ - مسخت
٤٢٨	١٦ - محيت
٤٢٨	١٧ - مفتح
٤٢٩	١٨ - أمنتت
٤٢٩	١٩ - مرت - سجر
٤٢٩	٢٠ - مرقت
٤٣٠	٢١ - تاورت

٤٣٣ ... الفصل الثالث : تطور الديانة المصرية حتى عصر اخناتون

٤٤٩ ... الفصل الرابع : دعوة التوحيد

٤٤٩ ... ١ - أتون قبل اخناتون

٤٥٤ ... ٢ - دعوة التوحيد في مراحلها الاولى

٤٥٨ ... ٣ - اعلان التوحيد

٤٦١ ... ٤ - الهجرة

٤٦٤ ... ٥ - أناشيد اخناتون

٤٦٧ ... ٦ - مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد

٤٧١ ... ٧ - اخناتون والتوحيد

٤٧٤ ... ٨ - النكسة

٤٧٧ ... ٩ - العودة الى الوثنية

٤٨٣ ... لفصل الخامس : عقائد البعث والظود

٤٨٣ ... ١ - فكرة البعث عند المصرى القديم ومقوماتها

٤٩٠ ... ٢ - مقومات الانسان عند المصرى القديم

٤٩٢ ... ٣ - عالم الموتى

٤٩٤ ... ٤ - الحج الى إبيدوس

٤٩٧	٥ - القرابين
٥٠٤	٦ - الاثاث الجناسى
٥١١	٧ - الطقوس الجناسية
٥١٦	٨ - العمل الصالح سبيل السعادة فى الآخرة
٥١٩	٩ - محكمة الموتى
٥٢٥	- الفصل السادس : الكهانة
٥٢٥	١ - نشأة الكهانة وشروطها
٥٢٨	٢ - امتيازات الكهنة
٥٣٠	٣ - الانخراط فى سلك الكهنة
٥٣٣	٤ - طبقات الكهنة
٥٤٠	٥ - المرأة والكهانة

القسم الثانى

الديانات السماوية

٥٤٥	١ - تمهيد
٥٤٩	٢ - حاجة البشرية الى الرسول والرسالات
٥٥٢	٣ - اهم الدعوات السماوية فى مصر
٥٥٢	١ - دعوة ابراهيم الخليل عليه السلام
٥٥٥	٢ - دعوة يوسف الصديق عليه السلام
٥٦٠	٣ - دعوة موسى عليه السلام
٥٧٢	٤ - اسباب صمت الآثار عن دعوات الانبياء
٥٧٧	المراجع
٥٧٧	١ - المراجع العربية
٥٨٠	٢ - المراجع المترجمة الى اللغة العربية
٥٨٢	٣ - المراجع الاجنبية
٥٩٣	فهرست الموضوعات